



دياب عيد

العشق الدمشقي

رواية

العشق الدمشقي

رواية

ديابعيد





الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0151-7



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

إهداء ..

إلى الحبيب فارس هاني عيد

أول أحفادي

يا إلهي كم أحبك

دياب

«1»

مالك

لم تكن البداية الفعلية لما جرى وسوف يجري حين فغر الدكتور مالك منصور فاه بذهول بالغ في تلك البلدة الهادئة من ولاية واشنطن الأمريكية في أقصى الشمال الغربي من عوالم أمريكا الشمالية الممتدة من المحيط إلى المحيط. لونغ فيو «Long View» العالقة قرب الطريق السريع بين سياتل وبقية الدنيا الأمريكية الصاخبة. لونغ فيو هذه المنتسبة إلى فسحة الغابات والخضرة ونهر كولومبيا الزاخر هي بالضبط آخر مكان في المعمورة توقع مالك أن يسمع فيه ما سمع. فبعد قضائه أسبوعين في هذه البلدة طبيباً مختصاً في مشفاها يدخل المكتبة التي لفتت نظره مراراً. يتجول في أرجائها مطولاً. ثم يقف أمام بائعة ما ليسأل بلغته الإنكليزية المتقنة والخالية - كما ظن - من لكنة الغرباء. وعوضاً عن الابتسامة المهذبة والإجابة الواضحة تلقى ما أذهله، إذ قالت هذه الفتاة المستنكرة بلهجة شبه عدائية: الكتاب خلفك تماماً على الرف الأسفل!! وقد قالت ذلك بلكنة غريبة إنما بلغة عربية فصيحة.

«2»

أندرو

ربما بدأ ذلك فعلاً قبل أن تولد سوزان براون بعدة عقود. بدأ حين تقدم أندرو براون الشاب إلى مقابلة عمل للمرة الأولى. وهو لم يفعل ذلك في بلدته أرلنجتون التكساسية وإنما في واشنطن دي سي العاصمة الشمالية. كان يريد أن يخلع الحذاء التكساسي وينتقل من راعي بقر إلى راعي كتب ومجلات وحوليات. فرغم كل شيء لابد أن بعض موظفي وزارة الخارجية يقرؤون وبالتالي لابد من وجود كتب تقرأ ومكتبة تحويها ومن ثمة موظف للمكتبة أو موظفة تقوم بفتح سجل الإعارة وما يشبه ذلك. وهكذا وجد أندرو براون نفسه في إحدى دوائر الوزارة الأهم، حيث قدر أن يضيع في الزحام، ونجح في ألا يلفت نظر أحد بين الكتب والرفوف والخزائن، كان أصلاً عاشقاً للزوايا المهملة شرط أن يكون في يده رواية وفي جيبه علبة دخان فقد اكتسب هاتين العادتين الذميمتين القراءة والتدخين في سن مبكرة فلم يفلح في محبة شيء سوى التاريخ والأدب واللفائف البيضاء.

قضى أندرو سنة ونيّفاً قبل أن تلفت ذاكرته المتوقدة فيما يتعلق بالكتب نظر أحد المدراء، كان بروس تالبوت من الذين يؤمنون بالحلم الأمريكي وبأنهم قادرون دائماً على ممارسة كل أنواع الأحلام تاركين للحظة مناسبة أن تقدم لهم بداية الألف ميل، وهو الذي ينفر في قرارة نفسه من أسلوب الحياة التقليدي، عمل مستقر وكدح دائم وعطلة نهاية الأسبوع ورحلة ما بين آب وأيلول. تالبوت كان يريد أن يأكل ويشرب ويتحرش بالهزيلات كعيدان البامبو. وأن يتذوق أشربة الآخرين القوية، التكيلا والفودكا وكونياك نابليون والويسكي الاسكتلندي المعتق. بروس

تالبوت الحاذق الماكر إنما غير الخبيث أدرك أن موظفه الهادئ النفور أندرو براون هو شخص متعالٍ يحتقر الجميع رغم دماثته العفوية، صدم حين تلقى شرحاً لم يطلبه من أندرو حول رواية ذات أجزاء. كانت لهجة الموظف تؤكد - إن كنت بارعاً في التحليل كشأن بروس - أنه يتحدث بثقة العارف كنه الأمور لآخر ربما يعلم أو يجهل لكنه لا يعرف، طبعاً باعتبار أن العلم هو قدر يسير من المعرفة. المهم أن تالبوت اختبر أندرو مباشرةً أو عن طريق موظفين آخرين حتى ثبت لديه أن هذا الشاب التكساسي هو أبعد ما يكون عن السذاجة أو العفوية، لذلك قرر أن يفيد منه ذات يوم.

أندرو بدوره لم يكن ساذجاً بأي معنى من المعاني، استطاع عن طريق الآخرين كما عن طريق الاتصال المباشر أن يقف على بواطن هذا الكهل العابس دائماً مستر تالبوت. رآه كما هو، طفلاً كبيراً يحاول عبثاً أن يستعيد طفولة أرادها لنفسه إنما بعد أن شب عن الطوق. فالأب الذي هجر الأسرة وبروس في الثانية من عمره، فتح أمام هذا الطفل عالماً من الخوف والعجز والحرمان كرسته الأم الحانقة أبداً، الباحثة عن جرعة شراب بأي ثمن، والتي نسيت ذات ليلة أن في الموقف أمام الحانة حقيبة صغيرة يتوسدها طفل صغير احتضنه ملجأ صباح اليوم التالي وآواه حتى بلغ التاسعة، ثم تتابعت الملاجئ حتى نال الفتى الشهادة الثانوية وغدا جاهزاً لدخول معترك الحياة مسلحاً بالرعب من الآخرين إنما - وهذا من محاسن حياة الملاجئ - بالقدرة على استيعابهم ومداورتهم وعدم إشعارهم بضعفه المزمن.

بروس تالبوت حين غدا قادراً على كسب عيشه والاستقلال عن الآخرين والحاجة إليهم قرّر أن يتنمرّ وأن يبدو كشخص مسيطر، لعب هذا الدور يومياً أمام مرآة الحمام في تلك الشقة البالغة الصغر والتي استأجرها في ضاحية فقيرة من ضواحي العاصمة واشنطن، قام بكل أعمال التوزيع؛ الصحف واللبن والبيتزا وحتى المراحيض المتنقلة، لكن يوم سعده أتى حين رأى طفلين عابثين يشرعان في حزّ طلاء سيارة لينكولن سوداء،

ولأنه يحب هذا الطراز من السيارات فقد صرخ بالطفلين المشردين، صرخ بمودة ودونما عنف، فقد رأى العديد من زملاء الملاجئ يقومون بمثل هذا الفعل. ابتعد الصغيران وهما يضحكان وقبل أن يستأنف بروس تالبوت سيره ناداه رجل جسيم بالغ الأناقة يمسك بمرفق امرأة حسناء. توقف بروس مضطرباً، لكن ابتسامة الرجل وكلمات الشكر طامنت من قلقه، وريثما فتح الرجل باب السيارة للسيدة كان يسأل بروس عما يفعل في ذلك المكان وممَّ يعيش وحين رد بروس بأنه مؤقتاً عاطل عن العمل أعطاه الرجل بطاقته وقالت السيدة باسمة: اطلب منه ما تشاء فقد حافظت له على الحبيبة رقم 1 ومع ضحكة الرجل الذي أدار مقود السيارة كان في نظرة المرأة المشجعة ما جعل بروس يتصل بالسيد غارفيلد كما تقول البطاقة وهاهو قد وصل إلى وظيفة حكومية ثابتة في وزارة الخارجية الأمريكية. واستمر في أعمال التوصيل إنما هذه المرة بين مكاتب وإدارات مدفّأة جيداً في الشتاء ومبردة كما يجب في الصيف وهكذا ضمن بروس تالبوت لنفسه أن يمدد الطفولة التي لم يحظ بها قدر ما يشاء. فهو لا يمنع نفسه عن شيء يشتهيه، وهو بعيداً عن حيث يسكن وحيث يعمل يترك لنفسه أن يضحك وأن يخرج من قشرة الجدية والعبوس الدائم وأن يقبل مزاح هذا النادل أو يستجيب لافتتانه بتلك البائعة النحيلة. وكُنّ دائماً نحيلات.. أبعد ما يكنّ عن الباقي في ذاكرته من تلك الأم المكتنزة بأحمر الشفاه القاني. والجميع عبر السنين يشيدون بهذا الموظف الكفء، ثم بهذا الإداري الناجح في ميدان العمل الروتيني ضمن ملاكات وزارة الخارجية. كان يخشى على الدوام من اكتشاف الآخرين ولعه بالعيش الطيب والنهايات السعيدة والنساء قليلات التكور. المرة الوحيدة التي أعجب فيها بامرأة ممتلئة حدث ذلك رغماً عنه وبمسعىً منها، فكان أن أحبها حباً أفلاطونياً جهدت هي لأن تجعله معايشة ومعاشرة وأي شيء آخر يفوق الابتسامة المهذبة والنظرة المختلسة لكنه لم يتخيل قط أنه يمكن أن يطوق هذا الخصر الممتلئ أو أن يداعب تلك الاستدارات المكتنزة.

بـروس تالبـوت بطفوليـة إحساسـه اسـتطاع أن يحدس مدى توحد أنـدرو بـراون، وأيضـاً مـدى تعاليه المغلف بالابتسـامة المهذبة. لكنه لم يـدرك أن أنـدرو قـد نفـذ دون أن يشـعره إلـى أعماقـه، وأنـه أمـام أندرو كان صفحـة مكتوبـة بحـروف كبيـرة، وهكـذا كان أي احتكاك محسـوماً لصالـح أنـدرو، لأنـه يعـرف وبـروس يجهـل أنـه يعرف، وعـدا عن كون أندرو براون ذكياً ووقحاً في أعماقه لأنه لا يحترم أحداً فما من شـيء آخر يعرفه المستر تالبوت عن الموظف الهادئ في مكتبة الإدارة. لكنه قرر أن يكون بالنسبة إليه السيد والسيدة غارفيلد اللذين رعياه باستمرار إكراماً لسيارة اللينكولن السوداء. ولم يطلع بروس الموظف على نواياه تجاهـه، ظـل المديـر العابـس الجـاد، ولـم يشـأ أن يتكهن أحد بأنه يعطي بـراون أي أهميـة، إذ أن ذلـك سـوف يكـون مدعـاة لأقاويل غير مرغوبة طالمـا طالـت بـروس تالبـوت العـازب المزمـن والتـي أكدتهانمائم تلك المحبوبة المكتنزة المرفوضة.

إذن هاهو أندرو براون أمين المكتبة في إدارة فرعية من سكرتارية الدولـة وقـد أقـام بخجلـه المزعوم وتحفظه الملفق وشـخصيته الضعيفة المدّعـاة، أقـام جـداراً بيـن حياته الخاصة وعمله، يصطحب غالباً معه ما يعتبره زوادة للقراءة. رواية ما أو كتاب تاريخ ويتجه إلى الشقة الصغيرة في بناء سـكني ضخم، يركب المواصلات العامة إلى حيث يتسـوق ما يلزمه من طعام وشـراب ويدلف إلى شـقته، يسـتمع إلى مسـجلة الهاتف ليقـرر مـاذا سـيفعل ببقيـة يومـه. فـإن كان ثمة اتصال مـن فتاة يهفو إليها أجـاب عـن الاتصـال، وهكـذا يأتـي بها أو يذهب إليها وقد يخرجان إلى مطعـم مـا، وغالبـاً إلـى أحـد الأفلام قبل أن يعود إلى بيته أو بيتها. تلكم الفتيـات هـن بائعـات أو موظفـات أو عاطـلات عن العمل.. بعضهن في المدارس وحتى في الجامعات. وقد عاشـر واحدة متزوجة هي سـوداء مثيرة تقطن في المجمع المجاور. ما كانت له مطالب من الفتيات ولم يكـن يرضـى أن تكـون لهـن مطالـب. لا هدايـا، لا إنفـاق زائـد. فما دام

كلا الطرفين راغباً في هذه العلاقة إذن لا مبرر لمتطلبات مبالغ فيها، إنه لا يشتري الجنس وأيضاً لا يبيعه، وماذا عن الحب؟ أندرو براون في العشرينيات من عمره، وهذا سن الرومانسية والأخيلة والعواطف. لا.. لقد أحب أندرو ابنة ماري ماكينزي ذات يوم، كانت سو ماكينزي أكبر منه بعام ونصف وبالتالي حين كان الفتى التكساسي أندرو براون في الحادية عشرة كانت سو ماكينزي المراهقة التكساسية تقارب الثالثة عشرة متفتحة كالوردة تقود خلسةً شاحنة أبيها، وتمتطي في المزرعة المهر الذي تملكه، وعندها دراجة جديدة تركبها للمدرسة ولم يكن أندرو براون بالنسبة لسو إلا الفتى الهزيل الممخوط الذي لا يرفع عينه عنها والذي إن طلبت منه أن يكتب لها الإجابات أو المقالات فعل بسرور وهو يتنشق عبير العافية في عرق سو التي تجود عليه بكلمة أنت ولد طيب يا أندرو ثم تصرفه مباشرةً. سو كانت مغرمة باثنين أو ثلاثة من الصبية الكبار. تتلقى اتصالاتهم، ترافق أحدهم للسينما، تستقبل الآخر للدراسة أو ركوب الخيل. وأندرو حين رأى أحدهم يرمي السيجارة التي كان يدخنها ويشد سو ماكينزي إليه ليقبلها قبلة طويلة قرر أن يدخن السكائر، وكي يكتب موضوعات في التاريخ أو الأدب فتح لنفسه باب الكتاب المطبوع وبقدر ما كان حبه المكتوم لابنة ماري ماكينزي يزداد ويتأصل كان يقرأ دون توقف ويدخن السجائر.

أندرو براون أحب مرة واحدة. وحين غادر أرلنجتون تكساس كانت الآنسة سو ماكينزي قد غدت مسز هاري فلاتشر وهي تجر عربة ولد في عامه الثاني وفي الطريق لإنجاب آخر. هذه كانت ولازالت حب أندرو براون أما من خرج معهن وقضى الليالي برفقتهن وسعد بهن وارتوى منهن فإنهن نساء لطيفات بعضهن يسر بمعاشرتهن والأخريات تسرهن معاشرته والحياة تستمر يا صاحبي.

إن لم تكن ثمة رفيقة لهذه الليلة فإن أندرو براون يختار أحد أمرين، إما أن يشرب عدة أقداح مع الكتاب الذي أحضره وهو بين جالس أو

مستلقٍ على الأريكة المريحة، وإما أن يذهب إلى أحد الأفلام بعد كأس أو اثنين ثم يعود ليخلد إلى النوم. بكل الأحوال إنه لا يطلب أكثر مما هو متحقق له، وهل ثمة مطمع في أكثر من طعام وشراب وقراءة وامرأة راغبة؟ لقد نشـأ في أسـرة كبيرة، اثنان من أخوته الكبار خاضا الحرب العالمية الثانية، واحد في جبهة اليابان والآخر تطوع ليذهب إلى أوروبا ويشارك في عرض النصر في إيطاليا دون أن يطلق طلقة واحدة. ومع ذلك فلا يزال أندرو يسمع رواية أبيه المفضلة عن وطن الأحلام أمريكا التي ضحى من أجلها في الحرب الأولى وشارك ولداه الحبيبان في الحرب الثانية إكراماً لهذه الأمة العصية على الهزيمة، أمة النصر، كان أبوه يرفع كل يوم العلم في سـاحة الدار الواسـعة، وكان يسـوق الأسـرة كلها إلى الكنيسة في قداس الأحد ويزجر من لا يصغي بخشوع لعظة القس جاريد، كان الصغير أندرو آخر اهتمامات الأب الفخور، لقد جاء متأخراً ليشارك فـي معـارك أبيـه وأمريـكا. حتـى أمه كانت أكثـر رعاية واهتماماً بحفيدها البكـر وبأصغـر بناتهـا مـن أنـدرو النحيل ذاك. ويبدو أنه كان يرى نفسـه مرفوضاً، حتى رفض في قرارة نفسه ما أجمع عليه الآخرون أي الفخر والحرب والورع الديني، كانت سو ماكينزي أهم عنده من كل القديسين. لذلك كان الآن وهو لا يحتفل بعيد ميلاد أو عيد شكر أو ما شابه كان يقترف كل الذنوب التي طالما رفضتها أسرته في أرلنجتون تكساس. كان يحتفـل بجسـد المـرأة وبـكأس الخمر وبقـراءات لا تمت للإنجيل بصلة وهو يشـعر أنه منتمٍ لعالم واسـع حدوده أخيلة الكتاب والمؤرخين أكثر من انتمائه لوطن الحلم الأمريكي.

حين وصل ذات صباح إلى المكتبة فوجئ بوجود شاب يقف قرب الباب ومعه رئيس شؤون الإداريين. وبعد التحية تسلم مغلفاً فتحه وهو يدلف إلى المكتبة والاثنان خلفه، وحين مرت عيناه على سطور الكتاب الموجه إليه فغر فاه بتلك الدهشـة المحسـومة، كما فعل مالك منصور حين سمع جواب ابنته سوزان براون بعد خمسة وأربعين عاماً.

« 3 »

تميم منصور

على عكس أندرو براون الأمريكي من تكساس كان تميم منصور وحيداً لأسرته، فبعد أن أجهضت والدته ثلاث مرات رزقها الله بمولود ذكر كامل الخلق ليس فيه عيب وأرادت أن تسميه «كامل» لكن زوجها عبد المالك منصور المشغوف (بضرائرها العديدات) كما تسمي الكتب المجلّدة أصر على أن يسميه باسم يحمل المعنى نفسه لكنه يحمل عبق التاريخ «تميم» القبيلة التي أنجبت الفرزدق وجريراً والأحنف الذي إن غضب غضبت له مائة ألف سيف، وهكذا وبعد أن جلا المستعمر الفرنسي وبقايا الإنجليز في عام 1946 عن سورية في السابع عشر من نيسان رزقت مؤمنة منصور وزوجها وابن عمها عبد المالك بتميم منصور الذي غدا قرّة عين أمه ومناط أمل أبيه، ولأن الولد الوحيد مقدر له أن يفسده الدلال وهو ما كان في خاطر الأم مؤمنة. إلا أن عبد المالك فوّت عليها ذلك طيلة أربعة عشر عاماً عاشها بعد ولادة تميم، كرس في هذه السنوات كل ما يقدر عليه ليشب تميم رجلاً ذا شأن ما، منذ صغره كان يناديه «أبو مالك» باعتبار أن الأب يورث اسمه لحفيده واختصاراً لاسم عبد المالك كان تميم هو أبا مالك، حفظ المعلقات السبع ثم العشر. وقرأ شرح لامية العرب. وقرأ السيرة النبوية الشريفة، وحفظ جزء عمّ من القرآن الكريم وبعضاً من جزء تبارك وحفظ عدة نقائض للفرزدق وجرير وكل ذلك قبل أن ينجح في الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) كما كانوا يسمونها. وكان ذلك مدعاة فخر أبيه وخوف أمه. كانت لا تريده رفيقاً لغبار الكتب وصفحاتها الصفراء، وتميم كان بدوره فخوراً بأبيه الذي حارب اليهود في جيش الإنقاذ وهو يعتبر صورة والده مع المجاهد

فوزي القاوقجي أهم كنوز المنزل. إذ يبدو فيها عبد المالك منصور بشاربيه المفتولين وهو يحمل بندقية وعلى صدره حزامان متقاطعان من الرصاص. ثمة صورة أخرى عثر عليها تميم في إحدى حقائب الجلد السميكة بين كدس من الكتب. كان أبوه فيها عاري الرأس في حضنه بندقية وبيده كأس شاي وهو يجلس مع رجل يرتدي كوفية، وحين سأل أباه عنها ضحك عبد المالك بسرور قائلاً هذا الذي في الصورة هو من كان يحكم سورية قبل ثلاث سنوات ألا تذكره؟ قال تميم بدهشة: أجل.. أجل. الآن تذكرته الشيشكلي، لماذا أنت في الصورة معه يا أبي؟ تنهد الأب وقال: هذا الرجل كان قائدي في فوج الإنقاذ يا تميم، كان رجلاً.

قلة من الناس كان والده يمدحهم، وحين يقول إن فلاناً رجل فهذا يعني شهادة منه بأن للرجل مناقب حميدة، كان خالد العظم وخالد بكداش عنده من الرجال، كذلك الشهيد عدنان المالكي. وفوق الجميع كان بطل تأميم قناة السويس جمال عبد الناصر، الثائر المصري، وأمل القومية العربية. كان على تميم أن يعرف بداهة ما هي القومية العربية، ولماذا هي ضرورة لازمة، والوحدة، وكان عليه أن لا يحب الاستعماريين الإنكليز والفرنسيين. وبالطبع أن يكره اليهود الذين حاربهم أبوه، والذين يتظاهر الطلاب مراراً مطالبين بالحرب معهم لطردهم من فلسطين. ولأن كلاً من أبيه وأمه يحبه حتى أبعد الحدود. كل منهما حسب طريقته فإنه كان يشعر بالقدرة على العديد من الأمور ولكن أهم ما في حياته هو أن يغدو رجلاً كما يريد له أبوه. وأن يكون مستحقاً لتلك التسمية.

عبد المالك منصور شريك مع أخيه الأكبر سعيد منصور في دكان من دكاكين السنجقدار يبيعان فيها المعلبات والأجبان والألبان وأنواع الزيتون وهم تجار جملة لسلع ونصف جملة لأخرى، والسنجقدار كما المرجة لا يبعد كثيراً عن سوق ساروجة حيث دار آل منصور. على حدود الأبنية الحديثة في عين الكرش، وعلى عكس معظم الدور الكبيرة في الحي حيث الأسر تعيش في دار واحدة لها طابق علوي وآخر سفلي

حول أرض (الديار) أو الدار التي عادةً ما تتوسطها بركة ماء فيها نافورة، على عكس تلك الدور فإن آل منصور قد قُسم بيت عائلتهم إلى دارين. الكبيرة التي يسكنها سعيد منصور والصغيرة التي فيها البركة ولكن ليس لها في الأعلى إلا علية صغيرة، وهذه كانت ملعب طفولة تميم ثم مالك في سنيه الأولى وهي حصة عبد المالك.

كان آل منصور من وجهاء الحي، ليست الوجاهة الموروثة فحسب بـل أيضـاً وجاهـة الوفـرة والغنـى، لأن دكان الأسـرة كان يدر دخلاً كبيراً يتقاسمه الأخوان سعيد وعبد المالك، إنهما شريكان في العمل والدخل إنما ليس في الدار، ذلك لأنه وبكل بساطة كانت زوجة سعيد «رضية» ابنـة عـم أخـرى للشـقيقين ولمؤمنـة، وقـد تزوجها سـعيد حين كانت لا تعدو الرابعة عشـرة ولم تتزوج مؤمنة من عبد المالك إلا وكان لرضية «خمسـة» بعيـون الشـيطان، ثـلاث بنـات وولدان، وزُفّـت مؤمنة إلى ابن عمها عبد المالك في دار الأسرة وإثر الإجهاض الثاني بدأت تلميحات رضية حول عدم قدرة مؤمنة على الحمل وبالأحرى على إتمام الحمل، وحين أجهضت للمرة الثالثة سمعت مؤمنة ابنة عمها رضية تقول بصوت مسـموع لعبد المالك: سـأزوجك من أختي صفاء، إنها بنت أربع عشـرة وسـتملأ بيتك خلفة كما فعلت أنا. ورغم رد عبد المالك القاسـي على رضية، ورغم أن زوجها ناولها لطمة على كتفها رمتها أرضاً إلا أن مؤمنة لفّت ثيابها في صرة (بقجة) وقالت لزوجها: خذني إلى بيت عمك، أي إلى دار أهلها. أدرك عبد المالك أنها قد سـمعت كل شـيء فقال لها: ستبقين في بيتك ولن يرميك أحد بوردة. قالت: أنت زوجي وابن عمي وتاج رأسي لكنني ما عدت قادرة على رؤية رضية وسماع صوتها. أخاف مـن كرهـي لهـا يـا عبـد المالك. ولأنه كان يحبها لحسـنها وأدبها ولطف معشرها ولأنها ابنة عمه ولم يشأ أن يندم كما ندم الفرزدق لطلاق النوار فقد استسمح أخاه الأكبر بقسم البيت ولم يقبل سعيد بسهولة إلا حين أغـراه عبـد المالـك بتـرك القسـم الأوسـع له لأنه صاحـب عيال. وتلك

الليلة سمع الناس صراخ رضية وبكاءها ثانيةً لأنها تسببت بقسم دار الأسرة. وهكذا بعد سنة من بناء الجدار بين الدارين كان تميم يستقبل أول أيام حياته في نيسان الجلاء، وكانت زغاريد رضية هي الأعلى، وكانت تحتضن مؤمنة ابنة عمها وسلفتها بمحبة وبدموع اعتذار سخية قبلتها مؤمنة لأن فرحتها بمولودها جعلت في قلبها متسعاً لكل الناس حتى رضية.

تميم الذي لم تحمل مؤمنة بعده كان الطفل الحبيب ليس لآل منصور وحسب، بل لكل أهل ذاك الزقاق الضيق من سوق ساروجة. وهذا من طبيعة الأشياء، فالطفل الوحيد ينظر إليه الآخرون بعين الشفقة والحنان والخشية، لأن فقدانه يعني حرمان تلك الأسرة من النسل، وذلك الدلال وتلك الرعاية المستورة والعلنية لم يتركا أثراً سلبياً في نشأة تميم، لأن حزم الأب وتكريسه لمعاني الرجولة في ولده منعا إفساده، كما ساهما في نموه المبكر عدا عن قراءاته التي كان يختلسها في غفلة عن أبيه من بعض الكتب التي كان أبوه يخبئها في الحقيبة الجلدية حيث عثر على صورته مع الشيشكلي. تكفلت الكتب بأن يعرف ما يعرفه الأولاد الذين ينشؤون في أسر كبيرة من ذلك السر الغامض المضروب عليه ألف طلسم. جسده هو وجسد الأنثى، ثم تكفلت ضياء ابنة الجيران بالباقي عملياً إنما بعد أن رأى ما رآه ذات ليلة من علّية دارهم.

كانت لتميم غرفته الخاصة، واسعة عالية السقف فيها نافذتان تؤطر إحداهما من الخارج ياسمينة متسلقة وتستقر على أرض الثانية شجرتا فلّ، وثمة تشكيلات على جدران الغرفة، خرز أزرق وعين الحاسد وآية الكرسي منقوشة بخيوط الذهب لكن صورة عبد المالك مع القاوقجي هي مهوى فؤاد تميم، ذلك لأن أباه يمثل فيها ما يتوق إليه الفتى؛ البطولة وهي التي تجسد القيمة الأعلى في نظر تميم. كان أبوه هو التجسيد العياني للبطولة، حدثته مؤمنة أمه عن أن أحداً في الحي كله لم يكن يستطيع أن يلوي قبضة عبد المالك منذ بلغ السادسة عشرة، وأنه لم يكن

يكتفي بالتبرع المالي بل كان يشتري السلاح ويخرج به إلى الغوطة أو إلى حي الميدان مخاطراً بحياته. وقد شارك مراراً في بعض المعارك وكانت له صلات مع قادة الثوار، وتتحدث مؤمنة بلهجة تقديس عن زوجها المحب الوفي الذي كانت نساء الحي والأحياء المجاورة يرددن اسمه في أحلامهن. فقد كان عبد المالك طويلاً جسيماً حنطي اللون ذا نظرة آسرة من عينين عسليتين لكنها كانت دائماً نظرة خجلى لأن حياءه كان يمنعه من التحديق رغم الورود التي يرشق بها من النوافذ المحكمة الإغلاق ورغم قطرات المسك وسواه التي تنثال عليه من بعضها ورغم انفراج بعض الأبواب عن وجه وضيء ينكشف له وحده أو عن جسد مكتنز ثرّ البياض. كل ذلك لم يكن يجدي فهو لا يعيد النظر ولا يهتم حتى شاع أن مؤمنة قد سحرته بكتابة الأحجبة، ولا شك أنها قد كتبت له أكثر من حجاب - وكانت تفتخر بذلك - لكنها لم تكن حجابات محبة بل كانت لتعمي عنه عيون الفرنسيين وليعود سالماً وليدفع الله الأذى عنه وعن الذين يحبهم. فقد فجع سعيد وعبد المالك بابن خالتهما وفيق في إحدى معارك الغوطة مع الفرنسيين، فأقاما له عزاءً كبيراً وتكفلا بمعيشة خالتهما وزوجة وفيق وتعهدا بأن ينمو جنينها خيراً من أبناء منصور، لكن الخالة ماتت قهراً على وحيدها وأجهضت الزوجة حملها حين فوجئت بحماتها تسقط كأس الماء من يدها ثم تنكب على جمر الكانون دون حس أو حراك أو حتى شكوى من حروق الجمر. كان ذلك أقسى من احتمالها ففقدت حملها وعادت إلى دار أهلها بعد واجبات الدفن وسواه وفي حقيبتها ثمن بيت وفيق، ذلك لأن الأخوين قدّرا ثمنه عند شيخ الحارة ودفعاه ليرات ذهبية بكامله للأرملة التي لم تكن لترث منه شرعاً إلا القليل. ولا يفوت مؤمنة وهي تتحدث أن تغمز بعينها هامسة: رضية خافت أن يتزوج سعيد عليها من الأرملة الشابة فأرسلت أحد أقاربها من جهة الأم ليطلبها مغرية إياه بما أخذت الأرملة من مال.

ذات ليلة أحست مؤمنة أن رضية لا تزال يقظى وأنها قرب الجدار

الذي ينصّف الدار تتنصت على حديثها مع عبد المالك بعد أن رقد الجميع، فعمدت إلى صنبور الماء لتقطع تدفق النافورة رغم اعتراض زوجها الذي كان نصف عارٍ أي أنه بقميص داخلي وسروال قطني طويل وهو يأنس برطوبة نافورة البركة. قالت له مؤمنة: ابن عمي حلفتك بالله لو أن الزمن عاد للوراء وخيّروك بيني وبين فلانة وفلانة وفلانة وابنة عمنا رضية وفلانة وفلانة، من كنت تختار؟ ونظرت إليه بتلك العين المولهة المتعبدة. عبد المالك الذي كان يحب مؤمنة منذ غدت له القدرة على التمييز بين الوجوه والأشكال طوّق كتف مؤمنة وغمرها بقبل طالت شعرها وعنقها وأذنيها وتوقفت كثيراً عند شفتيها اللتين أشبعهما عضاً ومصاً قبل أن يقول بصوت الذكر الراغب: كل من ذكرته لا يصلح أن يكون عندك جارية يا مؤمنة، أنت شقيقة الروح ونبض القلب ودفء الشتاء وعذوبة الماء البارد في صيف تموز. دمعت عينا مؤمنة فقد كان غنجها كيداً لرضية لكنه أسفر عما أثلج صدرها، قالت له: الجواب عما قلت ليس هنا يا كل عمري. سحبته من يده فطوّق خصرها بيد معابثة تصعد وتهبط وبعد أن أغلق الباب عليهما قال بابتسامته الذكية: أتظنين أن رضية قد سمعت كل شيء؟

هذا العبد المالك الذي قاتل الفرنسيين بالسلاح وقدّم للثوار ما يستطيعه ثم بعد أن رزقه الله بوحيده تميم لم يستطع القعود فحمل السلاح متجهاً إلى فلسطين في فوج لجيش الإنقاذ، والذي كان عاتباً على أديب الشيشكلي الذي سجن الناس وانفرد بالحكم فلم يرض أن يرشح نفسه للنيابة بكرسي مضمون كما وعده الشيشكلي شخصياً في القصر الجمهوري. بل حتى لم يرض بالانتساب إلى حركة التحرير التي أسسها الشيشكلي بديلاً عن الأحزاب التي حلها. هذا الذي حمل السلاح ثانيةً حين نظم الناس المقاومة الشعبية إبان العدوان الثلاثي على مصر إثر تأميم قناة السويس، والذي ذاق فرحة الوحدة وحمل ابنه (تميم) على كتفيه أمام قصر الضيافة ليلوح لعبد الناصر. هذا الرجل الجميل الجميل

لم يكن مقدراً له أن يحضر أياً من أفراح تميم ولده ووحيده وفلذة كبه وقـرة عينـه اللهـم إلا فرحـة ولادتـه وطهـوره وأول كلماته وأول خطواته وأول فك الحرف، وأيام المدرسة وأول نجاح ثم شهادة السرتفيكا. كان مقدراً لعبد المالك الطويل الجسيم الشجاع الوسيم أن ينجو من رصاص الفرنسيين واليهود وأن تهزمه خلايا زائدة عن الطلب توضعت في معدته ثم انتقلت إلى تحت إبطيه ثم إلى.... عبد المالك منصور أردته كائنات لا ترى إلا بالمجاهر ولا يستطيع أحد أن يفسر لماذا خلقها الله؟

إنما قبل كل ذلك وفي حياته التي عاشها طولاً وعرضاً كان أسعد الناس، دائم البسـمة ودوداً راضياً قليل التذمر والشـكوى. بيته يضم كل ما أراده من الحياة، مؤمنة الحسـناء الشـهية المحبة والتي حين يضمهما السـرير معاً تنسـى كل الخجل والحياء لتصبح ناراً متقدة لا تتورع عن شيء وهي تمتّع رجلها وتتمتع به، والبيت أيضاً فيه روحه وقلبه، تميم، ابنه الوحيد الوسيم كما أمه، وفيه من عبد المالك عيناه العسليتان وطول قامته وبعض من خجله وليس كله إذ أن بيت سعيد منصور كان يحوي كل الأعمار من هم أكبر من تميم بسنوات ومن هم أصغر منه وكان ابن عمهم تميم أثيراً عند الجميع حتى لقد قالت رضية مرة: كل واحد من أولادي وبناتـي يؤثـر تميمـاً بحـب أكثـر من إخوته وأخواته. صحيح إذن أن تميمـاً كان وحيـداً لأبويـه لكنـه لـم يشـعر بذلـك فقد درج ونما ويفع فـي أسـرة كبيـرة حتـى أنـه طالمـا نـام في بيت عمه رغـم احتجاج مؤمنة الصامت التي تحب أن تغطيه بنفسـها وتقرأ عليه آية الكرسـي ثم تقبله مراراً قبل أن تتركه في غرفته.

في تلك الغرفة التي لم تكن تخلو مما يحبه تميم سـواء للهو أم لوسـائل الراحة فكأنها غرفة رجل كبير، طاولة وكرسـي ومكتبة متوسـطة الحجـم مـن الخشـب المحفـور، وطاولـة وسـط عليهـا فاكهـة وموالـح وحلويات وهذا (الكازوز) الذي يحبه، وكتب سميكة ذات تجليد قديم، وقصـص حديثـة عاطفيـة وبوليسـية، وروايات مـن الأدب العالمي، وفي

زاوية صغيرة كل ما يخص الدراسة. حتى الراديو ترانزيستور كان موجوداً ليسمع منه تميم الأغاني التي يحبها، ويسمع نقل المباريات الرياضية من مصر التي سيغدو اسمها الإقليم الجنوبي، فقد كان تميم مثل أبيه يحب كرة القدم وهو الآن يتابع بهوس أخبار (رفعت الفناجيلي) أهم مهاجمي النادي الأهلي القاهري. لكن مع كل ذلك وخلف كل ذلك إذا شئت كانت هناك مجلات لبنانية تضع كل منها على غلافها صورة إحداهن، ممثلة أو راقصة أو مطربة، كان تميم منذ بدأ قراءة الروايات ينشدّ إلى قيم البطولة والشهامة والشرف في شخوص الروايات، ولكنه ينظر حوله بحذر كلما قرأ موقفاً عاطفياً، كان يحس أن ذلك يحوي محذوراً ما. هذا المحذور هو ما يشده إلى القراءة تلك، والكتب التي رآها في الحقيبة الجلدية السوداء واختلسها واحداً واحداً ليقرأها في غفلة عن أمه التي لا تفك الحرف. هذه الكتب والروايات وبعض أفلام السينما وقبل كل ذلك بنات الأسرة كل ذلك جعل الجنس الآخر ماثلاً في عمق أفكار تميم، وكانت (سليمة) ابنة عمه الأكبر هي من أعطته الدرس نظرياً قبل أن تتكفل ضياء ابنة الجيران بالدرس العملي المحبط.

أجمل بنات آل منصور كانت سليمة، ألطفهن وأكثرهن طيبةً ووداً أضف إلى ذلك ما نما من جسدها تحت الثياب التي ورثتها عن أختها (معزز) والتي كانت أميل للضمور والشحوب منها للامتلاء والسمرة وهكذا كانت معزز في نظر الجميع بيضاء وكانت سليمة حنطية اللون. وكما هي الحال فإن سليمة قد ورثت ثياب معزز ليس عن بخل الأهل وإنما لسالف العادات، لكن شيئاً ما لم يكن منسجماً إذ أن ما ترتديه سليمة وهي في الثالثة عشرة كانت تلبسه معزز وهي في الخامسة أو السادسة عشرة وفي السادسة عشرة من عمر سليمة كان ثوب معزز الزهري يضيق بصدر سليمة الناهد ويرتفع عن ركبتيها ويلتف دون خجل على الوركين منشدّاً إليهما مع أنه كان ثوب خطبة معزز وهي في التاسعة عشرة، سليمة التي كانت حبيبة قلب مؤمنة زوجة عمها لم تكن أثيرة

عند أمها رضية التي محضت أولادها الذكور وبناتها الأكبر والأصغر من سليمة حباً خالصاً لكنها تنظر إلى وجه سليمة فترى فيها شبهاً من مؤمنة، ترى فيها حسناً يفوق أخواتها، بل يفوقها هي - ورضية ترى نفسها أجمل النساء طرّاً - عدا عن الحديث الذي لا يفتر عن (جاذب) سليمة، فهي ما إن تطالعها العين حتى ترتاح إليها، وما إن يفتر ثغرها الوردي عن ابتسامة ودود خجول حتى تأسرك مباشرةً. كل هذا جعل من سليمة هدفاً مشروعاً لحنق رضية وموضع محبة ودلال عند بيت عمها. وصحيح أن كل الأسرة كانت تحب تميماً وتؤثره لكن الفتى كان بالنسبة إلى سليمة موضع وَلَهٍ أقرب للهوس، إذ لم يكن ينزل عن حضنها وهو رضيع يحبو ثم طفل يدرج بوجهه الوضيء المتطلع دائماً إلى أمه الصغيرة سليمة، وكثيراً ما نام في فراشها في دار عمه أو نامت في سريره داخل دار عمها حتى بلغ السابعة من عمره حين دخلت مؤمنة لتوقظهما كي يذهب مع أبيه إلى الدكان فرأت من انحسار ثوب سليمة حتى أعلى بطنها وتشابك ساقيها مع جسد تميم ما جعلها تستشعر الخطر الممكن وسليمة قد أبلغت وهي في الثالثة عشرة الآن، وكان ذلك آخر العهد في نوم تميم وسليمة معاً. في العاشرة من عمر الفتى كان قد قطع شوطاً في قراءة الروايات وبعض كتب أبيه المخبوءة. وصارح سليمة أنه سوف يتزوجها حين يغدو في الخامسة عشرة فضحكت من كل قلبها وضمته إلى صدرها لتشبعه قبلاً وقرصاً وهي تدغدغه في كل جسمه قائلة: لماذا بعد خمس سنوات، لنتزوج الآن. فغضب منها تميم وانتشر الاحمرار في وجهه وقال: لا تسخري مني أنا الآن ولد صغير، حين سآخذ (البروفيه) الشهادة الإعدادية سأكون قد كبرت. لم تعد سليمة تضحك، فما يقوله تميم ليس مزاحاً كما يبدو وليس عبث طفل صغير، قالت له بحيرة: لماذا وأنا أكبر منك بست سنوات؟ عندك (مسرة) إنها أصغر منك بعام وهي حلوة مثلك. قال لها بجدية تامة: مسرة صغيرة (شخاخة)، أنا أحبك أنت. أنت أحلى من عبلة ومن سعدى بنت الزناتي ومن نعيمة عاكف.

ارتبكت سليمة وبقدر ما فرحت بكلامه بقدر ما شعرت أنها تقف على حافة نهر مائج، تذكرت كل ما كان عقلها يرفضه أو يكابر في رفضه، تميم يختلس النظر إلى صدرها من فتحة الثوب الواسعة أو بين أزرار القميص وهي تعزو ذلك إلى الفضول، تميم يستفزها كي تصارعه فيلتصق بها وهي تعانقه، بل إنها حين قبلته من خده آخر مرة قال لها: (بوسيني من هنا) وأشار إلى شفتيه، فضحكت ومست شفتيه بشفتيها وهي تهز رأسها مستنكرة. إذن فتميم الصغير حبيب قلبها وقلوب الأسرة لم يعد صغيراً، وهو يريدها شيئاً آخر غير أمه الثانية. وهوى قلبها دفعة واحدة حين خطر السؤال ببالها: ماذا سيفعل حين تتزوج وتخرج من الدار ومن حياته؟ هالها السؤال قبل الجواب وما شعرت كيف أنها ضمته إلى صدرها لتحميه من هذا الخاطر. ظن الفتى أن هذا كان قبولاً به فأسرع يمرغ وجهه بالصدر العامر مما كاد يشعل نار الفتاة التي سرعان ما أبعدت الصغير عنها. دهش تميم وبدأت شفته السفلى بالارتجاف استعداداً لدمعة تسيل أسرعت سليمة لتكبحها بقبلات سريعة لخده ثم لشفتيه قبل أن تركض خارجة من الدار.

تجنبته سليمة فترة قبل أن (تبشره) أمه بقرب خطبة ابنة عمه، صعق تميم للنبأ، أحس بمرارة الفقد الوشيك، لكن فترة الابتعاد السابقة جعلت أخريات غير سليمة يصبحن محبوبات لديه، ومع ذلك فإنه حين رآها دمعت عيناه وكذلك عيناها. سحبته إلى غرفة البنات في أعلى الدرج وقالت له: أنت حبيبي طوال عمري، لكني أكبر منك بكثير. لو كنت أنت أكبر بسنتين أو ثلاث، لو كنت أنا أصغر بثلاث سنوات ما كنت أقبل سواك رجلاً في حياتي، ما رأيك هل تبارك لي؟ مسح دمعه وهو يبتسم بمكر وسألها: أن باركت لك ماذا أكسب؟ أدركت سليمة بأنثوية حدسها ماذا يريد فضحكت وقالت: قبلة كبيرة. اقتربت منه ووضعت كفيها على خديه ثم قربته منها وللمرة الأولى في حياته أحس تميم بأن فمه يشتعل بنار متأججة وشفتاها الورديتان تعابثان شفتيه ولسانها يلحس

لعابه عنهما. وللمرة الأولى أحست سليمة أن ابن عمها (تميم) موشك على البلوغ بشهادة ما بدأت تشعر به من ملامسة ضاغطة.

تمت الخطبة والتلبيسة ثم عقد القران وبدأ الخاطب يتردد بانتظام على دار الخطيبة، تميم لم يكن يحب (مصطفى) هذا، هكذا لله بالله لم يكن يحبه، كان يكفيه أنه سيأخذ سليمة، أو أنه موضع دلال بيت عمه، ليفهم أنه قد عزله وأخذ محله،وأنه عن قريب سوف ينعم بسليمة، سوف تكون شفتاها الورديتان طوع أمره وأن هذا الوجه الضاحك بالشاربين المرسومين بدقة سوف يحظى بقبلات سليمة وبكل ما يحظى به الأحبة وربما يرزقان كما تقول الروايات القديمة بالصبيان والبنات ويعيشان بسعادة و..... كان في عقل تميم رفض كامل لمصطفى وحين فرح الجميع بعد عام من الخطبة للعرس القادم واستعدوا له باهتمام كان تميم وقد تجاوز الثانية عشرة يبدو للآخرين طالباً حاد الذكاء قد اجتاز الصف السابع بتفوق وهاهي (الإعدادية أو المتوسطة أو البروفيه) على الأبواب، وهو موضع اعتزاز الأسرة كلها، لكنه في الحقيقة كان منشغلاً بالسياسة فدولة الوحدة التي قامت بين سورية ومصر قد جعلت الآمال تكبر بقرب استعادة السليب من الأراضي العربية، الإسكندرون وفلسطين والأهواز وكيليكيا، والتحرير سوف يصل إلى الكونغو وكل أرجاء العالم. تميم وأبوه عبد المالك يتابعان الصحف والأخبار ومباريات كرة القدم وقراءة الروايات. وفي السر يتابع تميم اصطياد ضياء ابنة الجيران. في مثل عمره لكنها (طلطميس) في الدراسة لا تفهم الطيخ من البطيخ، رسبت في الصف الثالث سنتين فأخرجوها من المدرسة، هي غير سليمة، مختلفة عنها تماماً. حمراء الشعر نمشاء الوجه، لحيمة الشفتين، بيضاء الجسد. وعنيدة جداً بحيث أنها لم تسمح له بمسك يدها أو حتى بلمسها حين كانت مع أبيها في دكان آل منصور وكان أبوها في حديث سياسي ضاحك مع أبيه وهي تمسك ورقة فيها ما يحتاجونه من الدكان. لقد بادلته النظرة بالنظرة. ثم الابتسامة وحين كان يشير إليها من نافذة العلّية إلى نافذة

بيتهـم المقابـل لـدار آل منصـور كانـت تهـز رأسـها دلالة عـدم الفهم ثم تسدل الستارة. لذلك كان مشروع تميم الموضع على النار الآن هو ضياء الحمراء كما كان يسميها في قرارة نفسه. وضياء التي فشلت في الدراسة نجحت في السلوك الأنثوي التقليدي الموروث، إشعال الاهتمام من قبل الفتى، وعدم تركه يخمد، إنما بشرط ألا يحرق جمره الفتاة قبل الأوان.

زفـت سـليمة إلـى مصطفـى وخرجـت مـن دار الأسـرة، غابت ثم عـادت، وفـي كل مـرة كانـت تعاتـب ابـن عمها الذي لم يزرها في دارها إلا مـرة واحـدة مـع عمهـا وزوجـة عمها مؤمنة. حين زاروهم امتلأ قلب تميـم بالغيـرة والغيـظ وهـو يـرى كيـف تحولت سـليمة إلـى زوجة تظل عيناها معلقتين بمصطفى تنتظر إشارته أو أمره. أحس أنها لم تعد عبلة الخيالات ولا حتى سامية جمال أو تحية كاريوكا. ومع ذلك فقد هوت في نظره إلى درك سحيق عندما رآهما معاً ذات ليلة، فمن عادة بيت عمه أن يعطيـا سـليمة وزوجهـا غرفـة الضيـوف عندما يزوران، في تلك الليلة كانت معزز حردانة من زوجها ومعها ولداها لذلك أعطيت غرفة البنات القديمة لمصطفى وسليمة، كان تميم يتفقد ضياء الحمراء من نافذة العلّية ثـم يعـود خائبـاً ليخـرج إلـى الدرج، وبالطبع لم يكن يتفقد الجارة بغرفة مضـاءة وإنمـا بغرفـة معتمـة حتى إذا رأى سـتارتها تنفتح أشـعل الضوء. إذن وبينمـا هـو يعـود يـرى غرفـة البنات تضاء فجأة. ثم يدخلها مصطفى وخلفه سـليمة ويتثاءب مصطفى ويجلس على السـرير النحاسـي الزوايا بينما تسـرع سـليمة لشـد سـتارة النافذة التي لم تنسـدل تماماً، فلم تعرها سـليمة اهتماماً لشـعورها بالأمان في دارهم العلوية، ويذهل تميم حين يراها تركع لتنزع من قدمي مصطفى الحذاء ثم الجوربين ثم تنحني لتقبل وجهه السمين بينما يداه تطوقان مؤخرتها. عوّل تميم على النزول وهو يشـعر بالغيظ والمرارة، وهكذا نزل إلى غرفته ورمى نفسـه على سـريره وصـدره يعلـو وينخفـض فـي انفعاله الصاخب، نظر إلى العلية من حيث يرقد فوجد أن النور لازال ينعكس على نافذتها، ولم يتردد، صعد ثانيةً

إليها حافي القدمين هذه المرة ووارب الباب حتى لا ينعكس عليه الضوء ومنها رأى حبيبة الطفولة تدير له ظهرها إنما كما خلقها الله وهي تنزع عن مصطفى آخر ثيابه وبعد ذلك تمسك بيدها يد مصطفى ثم تأخذها إلى نهدها الذي يراه تميم هذه المرة كامل العري ويرى تميم بعد ذلك ما لا يحتمل رؤيته فكأنه في فيلم يعرض فيه ما قرأ عنه وسمع عنه وداعب خياله مراراً، إن أحدهم أمام عينيه يضاجع حبه الأول، وهي تبدو في استجابتها وعينيها المغمضتين راضية وراغبة بل أكثر من ذلك، ولم يطق تميم صبراً فأسرع إلى غرفته يستقبله سريره بارداً لا حس فيه بينما كانت سليمة في الأعلى تتأجج لمصطفى دون سواه، وكان هذا درس تميم النظري الذي كان مؤلماً ومريراً أول الأمر ثم تحوّل إلى ذكرى يشكلها خياله كما يشاء. وهكذا يحتل هو مكان مصطفى على سرير غرفة البنات وسليمة تفعل به وله ما فعلته لمصطفى ويوماً إثر يوم يتطور الحدث في ذهنه قبل أن يستسلم للنوم، إلا أن سليمة لم تكن هي موضع حلمه ليلة بلوغه واستحلامه، كانت الأخت الكبرى الهزيلة الشاحبة معزز هي من ذاق النشوة الأولى معها في أحلامه وكان كل شيء ممهداً لتجربة الإحباط مع ضياء النمشاء، فقد ظلت المراهقة المشغوفة بابن الجيران عصية عليه فلا هي تجفوه وتغلق الباب في وجهه ولا هي تسايره فيما يريد. لم يصل الأمر بعد شهور لأكثر من سماحها له بمداعبة خدها وتقبيل باطن كفها، عندها قرر تميم أن يلعب بنجاح لعبة الغيرة، كانت شهناز الصديقة الأقرب لضياء، ولابد أنها تعلم بكل ما يجري، لذلك اعترضها مرة بأسلوب أرعبها، كانت في طريقها إلى موقف الباص لتذهب إلى الحلبوني بغية شراء بعض لوازم دروس الأشغال، ركب بجانبها ودفع عنها ثم رافقها إلى المكتبة وعاد معها إلى مدخل الحي حيث قال لها: هل نلتقي غداً؟ ذهلت شهناز. فهي لم تكن قد قالت في كل هذا المسار أكثر من كلمات: بلى، لا، نعم، ربما. لابد أنها كانت تشعر بقلق كبير، فهذا الفتى يحب ضياء كما تعرف، لماذا

إذن يهتم بها ويريد لقاءها وهو أيضاً لم يذكر ضياء بكلمة. ثم، ثم إن ضياء هي صديقتها المفضلة ولابد أن أحداً سيحدثها عن مرافقة تميم منصور إياها. إذن الجواب: لا، لن نلتقي.. وإذا سمحت لا تعترضني ثانيةً. وانتظر تميم ردة الفعل التي جاءت سريعة إذ أغلقت ضياء النافذة في وجهه أول الأمر، ثم وعلى مدى يومين كان هو يبادر لإغلاق نافذة العلّية، وهاهي ضياء تقف وحدها مترقبة عودته من الدكان قبيل الغروب، ينظر إليها فتشير برأسها ليلحق بها، فيفعل ويبتعدان عن مدخل الحي باتجاه شارع بغداد حيث تصارحه بأن الذي حاوله مع شهناز هو خيانة، وأنها لا تريد أن تراه بعد الآن. وأنها كانت تظنه يحبها، ولم يدافع عن نفسه بل أسرع يمسك بيدها رغم تمنعها، لكنها استسلمت آخر الأمر بل شدت على أصابعه وهي تطلب منه عهداً بالوفاء الدائم وهو يطالبها بأن تبرهن على حبها بأوضح الوسائل. كيف؟ باللقاء بعيداً عن عيون الآخرين. لماذا؟ هانحن وصلنا إلى حي العمارة معاً، لماذا أنا أرافقك يا تميم إن لم يكن برهاناً على حبي؟ حسناً هل أستطيع أن أقبلك هنا يا ضياء؟ يخرب ذوقك يا تميم، لا... أنا لا أسمح لك. ومع ذلك فأصابعها التي تشد على أصابعه كانت سماحاً معلناً تحوّل إلى قبلات، وحتى أنها حين رافقته إلى السينما وطوق كتفها لم تعترض وهو يرسل أصابعه لتضغط برفق على صدرها. كان أهلها يظنون أنها ستذهب مع شلة من رفيقات المدرسة إلى ملعب للكرة الطائرة لحضور مباراة لبنات الثانوي، بينما انتزع تميم منها وعداً بموافاته إلى منزله حين يكون وحده، ولم يطل ذلك، إذ تلقت الإشارة بعد أيام حين غادرت أمه مع زوجة عمه رضية لتزورا (معزز)، دخلت ضياء المنزل بجرأة من تفعل أمراً مألوفاً وحين أصرت على البقاء في صحن الدار أغراها بدخول غرفته لترى كيف يعيش. كانت تريد ذلك، وحين قبلت بفكرة القدوم لم تغب عن بالها مواقف الأفلام العربية حين يختلي البطل بالبطلة، كذلك حضر إلى ذهنها كل تلك الهمسات والإيماءات الواضحة في أحاديث النساء.

والقبلـة التـي فتحـت بهـا سـليمة البـاب لتميم تلقتها ضياء منه بفوران دم بنت الثالثة عشرة، وانشدت إليه وهو يسير بها إلى السرير حيث مانعت أول الأمـر فـي تعريـة صدرهـا لكنهـا حين استسـلمت ليديه تنزعان عنها القطعة الأخيرة من ثيابها كانت مستعدة لكل ما يحصل، بالأحرى كانت راغبة به. لكن تميم منصور حين نظر إلى تلك المنطقة المحجوبة أبداً ورأى ما رأى أحس بالدهشة، فهذا الذي يسعى وراءه الرجال والأبطال وتهدر لأجله الدماء هذا الشيء الغامق اللون ذو التشكيل الغريب تماماً ليس ما كان يظنه أو يتوقعه.

« 4 »

(من دفتر أندرو)

صحيح أن الطريق من أرلنجتون تكساس إلى العاصمة واشنطن لم يكن أكثر من ضربة حظ قادت أندرو براون للعمل في مكتب ما لوزارة الخارجية الأمريكية، لكنه لم يكن يعتبر نفسه محظوظاً إلا في أنه وصل إلى حيث توجد روايات لا عدّ لها ولا حصر، على عكس ما كان في متناول يده في تلك البلدة التكساسية. أما أن يفضي به ذلك إلى دورة لتعلم اللغة العربية فهذا لم يكن مطلقاً وارداً حتى بنسبة واحد إلى مليون. إنه موظف حكومي، يسجل حركة الإعارة لكتب المكتبة، ويختار مرتين في العام قوائم من الكتب الحديثة المعروضة عليه ليغني بها رفوف مكتبته. هناك كتب عن الدول العربية، كتبها سياسيون ودبلوماسيون ورحآلة ورجال استخبارات، وأولئك الموظفون في قسم الشرق الأوسط يستعيرون منها باستمرار. إنما هذا المغلف الموجه إليه والذي فيه طلب رسمي بالالتحاق بعد أسبوع بدورة مدتها ثلاثة أشهر لتعلم المحادثة باللغة العربية، هذا المغلف ليس موجهاً إليه بالتأكيد رغم أن المغلف والكتاب في داخله يؤكدان أن أندرو براون هو المقصود. نظر بحيرة إلى رئيس شؤون الإداريين الذي ابتسم له قائلاً: معك ثلاثة أيام يا مستر براون لترشد مستر لونسديل إلى أسلوب العمل في المكتبة، نظر أندرو إلى المستر لونسديل بغباء فيما طالعه الآخر بابتسامة مهذبة وهو يمد يده قائلاً: لطيف أن أتعرف إليك يا مستر براون.

نادراً ما كان المستر أندرو براون يكتب في دفتر مقالاته – كان علينا منذ البداية أن نلفت النظر إلى أن أندرو كان متأكداً من أنه ذات يوم سيغدو كاتباً ما، للمقالات أو القصص أو حتى لافتتاحيات الصحف،

ولذلك كان يكتب في بعض ما يظنها مفاصل حياته الهامة خواطر أو مقالات كما يدعوها وقد كتب في ذلك اليوم من عام 1960 بعد ثلاثة أسابيع من بدء الدورة عدداً من الصفحات جاء فيها:

ماذا يهم واحدا مثلي إن كان هناك من يستبدل كلمة هالو بجملة معقدة مؤداها ليحل السلام عليكم، ما هذا السلام ولا تنفك طبول الحرب تقرع في الشرق الأوسط؟ وما ذنبي أنا؟ لماذا علي أن تعلم قول: وا أليكموسْ سَلاَمْ جواباً لمن يقول اسّلامو أليكوم. وأن أقول أهلَنْ لمن يحييني بقول: مارْهابا؟ بعض الذين يتابعون في مركز اللغات دورات للإسبانية أو الروسية أو الألمانية أو أي لغة أخرى يقولون إنهم سيذهبون إلى السفارات للعمل. أما أنا موظف المكتبة فما شأني بالسفارات، لكني لم أندم على التحاقي بالعمل هذا وبالدورة هذه. السبب ببساطة هو (جودي كامبل)، كنت في بوفيه الدورة أقرأ للمرة الثالثة أو الرابعة رواية (الصخب والعنف) لوليم فولكنر وبيدي كوب القهوة حين سمعت شهقة دهشة، وتلاها صوت غنائي يافع يبادرني بالسؤال: هل هذه الطبعة الأولى من الرواية؟ نظرت لأرى أمامي وجهاً طفولياً تتملكه الدهشة. وعينين عسليتين تحجبهما نظارة طبية وإصبعاً دقيقاً يشير إلى الرواية في يدي. قلت وأنا أهز كتفي: لا أدري، لم أتحقق. انتزعت الكتاب من يدي قائلة: هل تسمح؟ ثم تفتح الصفحة الأولى لتقول بانتصار: عرفت ذلك، إنها الطبعة الأولى، كيف حصلت عليها، ثم دون أن تنتظر مني إجابة قلبت الرواية لتقرأ ما يفيد أن الكتاب من محتويات مكتبة الإدارة في وزارة الخارجية. أعادت الكتاب معتذرة: عفواً لم أقصد. أنا جودي كامبل من الإدارة القنصلية، مدت يدها فمددت يدي باسماً هذه المرة وقد رأيت أن ثوبها الطويل الفضفاض لم يستطع مواراة جسدها الباهر: أندرو براون من الشؤون الإدارية.

صحيح أنني لا ألجأ إلى أي خداع فيما يتعلق بالنساء، فلا أزعم أبداً أنني أبحث عن زوجة أو عن رفيقة سكن لأنني حقاً لم أكن كذلك، ولأن

الفتاة التي تجوز عليها خدعة الزواج لا تستحق برأيي العناء وأنا أقل همة من أن أبذل مجهوداً لإقناع الفتيات بمقاصدي النبيلة خاصةً بعد أن نجح معي أسلوب عرض اللامبالاة والقرف من كل شيء. ولابد أن تعابيري المكتسبة من قراءاتي المتطاولة هي بدورها إضافة لأسلوبي قد جعلت لي حظوة عند الفتيات. لكن عدم مبالاتي كان أحياناً يفقدني إحداهن. لأنها تريد مني أن ألاحقها بالهاتف للحصول على موعد، وأن أغار عليها وأن أسـألها عما تفعله حين لا تكون برفقتي، وكان من المستحسـن أن يكون لي موقف من حقوق السـود المدنية والمدارس المختلطة، وعند بعـض الفتيـات الشـقراوات مـن الأسـر المحافظـة كان علـي لعب دور الديمقراطي الصاخب. لماذا؟ لأن ذكور هذه الأسـر بكل الأسـف كانوا من الجمهوريين المحافظين جداً، يرافق كل منهم أخت الآخر وهو ينكر على أخته هو مرافقة أحدهم، لذلك - وهذا ما حلّلته بنفسـي - كانت الواحدة من هاتيك الناعمات جداً تنشـدّ إلى متفلسـف يدّعي البوهيمية مثلي. باختصار كان علي أن أكون ذكياً وغير مبالٍ أي أن أكون أنا نفسي لأكسـب فتاة كهذه تشـعر أنها تزدري قيم أسـرتها المحنطة وهي تدلف إلـى شـقتي الزريـة معجبـة بـكل هـراء موجـود فيها، وتشـرب من نبيذي الرخيص ثم حين أمد يدي لتعريتها تسـألني بكل طفولية: هل سـتكون لطيفاً معي؟ هذا النوع من الفتيات يصلح ليكون احتياطاً حين لا يكون لدي رفيقة. إذ يكفي أن أهتف لها قائلاً: هاي أيتها الدمية الجميلة. ألا تشـتاقين لبعض البغاء في وكري العفن؟ وتضحك على الهاتف بنشـوة لترتب موعد سريعاً. الصنف الآخر كن من فتيات مثلي. أي أنهن يردن قضاء وقت ممتع دون أي ادعاء، عاملات، طالبات، والنادلات خصوصاً الجامعيات منهن، تدخل الواحدة منهن الشقة وهي تعلم أنها قادمة لليلة ما، لا تدري إن كانت ممتعة أم أن رفيقها أحد أوغاد المدينة، لا تكون جائعـة دائمـاً لكنهـا ترحـب بشـراب فاخـر خاصـةً إن كان أجنبياً، كانت الفودكا الروسية دارجة الآن وأنا أستخدم زجاجة ستولشنايا لأضع فيها

أي فودكا، وعندي أيضاً بعض زجاجات البيرة الهولندية، وبعضهن كان يجذبهن حيّز المكتبة، يبدأن بتقليب الصفحات، يتذكرن أنهن بدأن بقراءة هذه الرواية أو تلك، ثم تجلس الواحدة على طرف السرير وبيدها الرواية وفيما هي تقلب الصفحات أبدأ أنا بتقليب صفحات جسدها وسط صيحات التمنع أو الاستمهال. المحافظات والراغبات كنّ يملأن حياتي حتى جاءت جودي كامبل، أنا لم أكن أحترم القيم والمثل العليا، بدأ ذلك مع أسرتي وتقاليدها التي وجدت نفسي أرفضها بل أزدريها. أنا لا أحترم أيضاً الأمثال والحكم المتداولة والأقوال المأثورة وخطب الرؤساء وعظات الأساقفة وحتى البابوات. لكن تعليقاً طريفاً يطربني جداً، وجودي كامل ذات كلام يحفل بتلك التعليقات، وروحها قتالية ولسانها انتقادي لاذع ولا يعجبها أحد حتى السيناتور كيندي وزوجته التي لا أراها أنا نفسي فاتنة. كانت تحب المصداقية، الانسجام بين القول والفعل وكان لها جسد باهر. أول مرة تعرّت هي ولم تسمح لي بفعل ذلك وجدتني أتأمل كتفيها الصقيلين اللامعين، ثم أتوقف عند حفرة إبطها التي بدت لي زاخرة برائحة هذا الجسد الجميل إلى حد التراخي. صدر زهري إنما بحلمتين سوداوين كبيرتين كتوت السياج الأسود ثم ينسدل بطن ما فيه ثنية واحدة وبعدها. لم تسمح لي بالمتابعة إذ رمتني على السرير ونالت مني بصبابة بالغة وهي سعيدة بما تفعل ثم ارتمت قربي وفتحت ما بين إصبعيها بحرف (V) وعندما لم أفهم قالت: ضع بينهما سيجارة أيها الأحمق. وهكذا رسخنا معاً طقساً جميلاً، فنحن لا نكاد ننتهي من متعة الجسد حتى نستلقي لندخن سوية، وكانت تسمح لي بأن أعجب بروائحها كأنها ملكة تتفضل على خادم مطيع. كنا نتبادل سوية التعابير الأجنبية، أحدثها بالكلمات العربية التي تعلمتها وتحدثني بالألمانية ونأكل في السرير ونحن عاريان ونشرب ونسمع الأغاني ولا ندخل الحمام بسرعة كما تفعل بعض مهووسات النظافة. كانت تشم تحت إبطها ثم تضربني على كتفي قائلة: إن رائحتك قد تغلغلت في

جسـدي أيها السـخيف. فأقترب لأدفن رأسـي في الحفرة البالغة الطراوة ولأتشمم أعمق روائح جسدها العذب اللدن مما كان يجعلنا نتشابك من جديد فلا أشـبع من شـفتيها، أقبلها برغبة كما تفعل هي، تتورم شـفتاها كل يـوم، تؤلمهـا حلمتـا الثدييـن كل يـوم، وأنا أحس بأني ثمل أكثر مما أحتمـل وأتعلـم كلمـات غريبـة عجيبة وحين سـألت المدرس عن معاني أعضاء الرجل والمرأة بتلك اللغة قال: هذا غير وارد في البرنامج وسوف تفاجأ يا مسـتر براون حين تعرف أن اللغة العربية المكتوبة نادراً ونادراً جـداً مـا تذكـر تلـك الكلمـات. أمـا جودي فقد رددت لـي تلك المعاني بالألمانية التي تتعلمها وبالفرنسـية التي تعرفها وبالإسـبانية التي تتكلمها كالإنكليزية إذ كانت أمها من أصل مكسيكي، حدثتها عن سو ماكينزي حبي الأول والأخير، وحدثتني عن خالها لويس الذي كان حبها الأول والـذي كانـت لأجلـه تـزور جديها باسـتمرار، بدأ الأمـر عندها وهي في الرابعة عشرة وقد اكتشفت جسدها بنفسها بعد معابثات فتيان كرة القدم لها كسواها من حسناوات فريق التشجيع. قائدة المشجعات ليونا كانت صديقتها الأقرب، وكانت قد أسـلمت نفسـها منذ سـنة لمدرب البيسـبول الشـاب، لم تكن تجرؤ على الإفصاح لأحد سـوى جودي، وذات مرة تبعتها جودي إلى غرفة الأمتعة ومن زاوية النافذة رأت كل ما جرى بين ليونا المراهقة والمدرب، وفي أول زيارة لبيت الجدة رأت خالها لويس الوسيم ذا الجسم الرياضي الممشوق، كان أكثر جاذبية من ذاك المدرس الذي تعشقه ليونا. وبحجة وقفة ضارب الغولف حيناً، وفي مسبح البيت حيناً آخر كانت جودي التي تناست أنه أخ غير شقيق لأمها تتمسح بلويس وترمي جسـدها عليه والشـاب غافل عما يجري حتى رآها بعد السـباحة تلحق به إلى الدوش وعوضاً عن الاغتسال تنزع صدريتها ويدهش لويس مما تفعل لكنه يصعق تماماً حين مدت يدها لتنزع لباسها، فخرج وهو يضحك من الحمام مما جعلها تبكي تحت المياه الساخنة، ولم تيأس. كان مضطجعاً يقرأ مجلة على أريكة عريضة وهي لم تتوان عن الدخول

بينه وبين المجلة لتقرأ معه وقد ألصقت جسمها به مضطجعة أمامه. كانت جودي تكسر القاعدة الأمريكية تماماً. فالأصل أن ذكور العائلة يتحرشون بالصغيرات في جميع الأعمار. جودي هي أول من سمعتُ بتحرشها بلويس. كان الشاب بعيداً عن الانحراف تماماً. وهو متوازن جنسياً لذلك أبعدها عنه بعنف ثم حقق معها مطولا ليعلم ان كانت لها ممارسات مع الشبان، ذهب لويس إلى الجيش وتخرج من وست بوينت وهو الآن ضابط برتبة كابتن في فيتنام، اكتشفت جودي الجنس وحاولت التعهر مع أحد محارمها حين كنت أنا أشكو لنجوم السماء مغامرات سو ماكينزي مع الشبان وخاصةً مع هاري فلاتشر الذي غدت فيما بعد زوجته وأم أولاده. جودي كامبل جديرة بالعشق ولا أدري ما الذي يعجبها بي؟!

هذا ما كتبه أندرو براون معتبراً لقاءه بجودي مفصلاً هاماً لابد له من كتابة مقال أو خاطرة عنه. وقد وجد نفسه بعد مضي شهرين وجهاً لوجه مع بروس تالبوت في مركز تعليم اللغات، كان مع تالبوت شاب دقيق أسمر مد يده لأندرو حين عرفه عليه تالبوت قائلاً:

- السلام عليكم.

- وا أليكموس سلام، أجاب أندرو مصعوقاً بعد تردد دام قرابة العشرين ثانية.

- أنا حسن راوي، سعيد بلقائك.

فهم أندرو ما قاله الشاب ودون تردد هذه المرة قال:

- أنا أندرو براون، سائيدُنْ بليكائِكْ. يومٌ سائيد.

- لك أيضاً يا مستر براون.

وبهزة رأس من كل منهما افترق عنهما أندرو وهو بالغ الانفعال نسي حضور بروس تالبوت تماماً وكل ما كان يدور في خاطره. لقد لقي عربياً وصافحه وتبادل معه التحية والتمنيات الطيبة. وورد إلى ذهنه أنهم ربما يريدونه مترجماً، إنما لمن ولماذا؟ حسناً بقي شهر واحد من زمن

الدورة التي يتابعها الآن بحيادية بعد أن بدأها بامتعاض كامل.

طلب هو من جودي أن تنتقل لتسكن معه، في الحقيقة كانا معاً منذ رأته يقرأ رواية فولكنز في استراحة مركز اللغات، يومها دهش هو لأنها بدت خبيرة بالكتب والطبعات والإصدارات، بينما هو لا يهتم إلا بمحتوى الرواية، وكثيراً ما أهمل إتمام رواية ما لأنها لم تشده إليها. رواية هنري جيمس مثلاً (قصة امرأة) سرعان ما انصرف عنها رغم العديد العديد من القراءات النقدية التي اهتمت بالرواية والكاتب، أحب شيروود أندرسون، وأغرم بشخوص أديث وارتون في روايتها (عصر البراءة). كان يرفض الآراء المسبقة تماماً كرفضه للقيم والعظات والمبادئ المكرّسة.

حتى إنه كتب مرة لنفسه: «أستطيع أن آتي بحكم أعمق ولغة أفصح من جميع الأناجيل، وكثير من أغنيات هذه الأيام أهم من أناشيد سليمان». المهم أن جسد جودي وليس معارفها هو ما جعله يدعوها لتجلس ويعرض عليها كوب قهوة رفضته وأخذت كوب شاي، وحين جرّب أحد أساليبه سائلاً: ألم أرك في ذاك المطعم مرة؟ أجابته لا أظن. ألم تكن تسهر الأحد الفائت في صالة ذاك الفندق؟ قال على البديهة: نعم، كنت ترتدين قميصاً أخضر. قال ببساطة: أنا لم أكن هناك. ضحك وقال: إذن أنا كنت بالقميص الأخضر.

صارحته فيما بعد بأن تفحصه الوقح لتكويراتها جعلها تتردد في قذف ما في الكوب على نصفه الأسفل لكن الذي شفع له أنه كان يقرأ باستغراق وبانقطاع تام عما حوله، وأنه كان يبدو ضعيفاً مثيراً للشفقة كغلام وجد نفسه فجأة بين حشد من الرجال المتغطرسين. كانت لجودي مثل هذه التعابير، بعد أن انتهت الحصة وجدته ينتظرها في آخر الممر لأنه لم يكن قد سألها أين صفها. ابتسمت وركبت معه تاكسي أقلهما إلى ذلك المطعم الذي سألها عنه. كان يقدم خليطاً من الأطباق الأمريكية والإيطالية. طلبت لنفسها كأس مارغاريتا وقدح تكيلا، بينما أخذ هو كأس نبيذ وتحدثا عن الكتب والسفارة في ألمانيا والممثلين الرائعين

والممثلات الجميلات وطال الجلوس حتى قالت له بوداعة: ماذا؟ هل تريد أن أكشف لك عن صدري لتكف عن الحملقة؟ ألا تستطيع انتظار وصولنا إلى بيتي أو بيتك؟ لم يفترقا بعد ذلك إلا حين يكون عندها وظيفة كتابية. وبعد أن أطال التفكير سألها أن تترك رفيقة سكنها وتأتي لتعيش معه:

- لأسكن عندك أو لأعيش معك؟

- لا أرى فرقاً كبيراً بين هذا وذاك يا جودي طالما أن لدينا سريراً واحداً لكل شيء.

- لكل شيء؟

- أجل، نحن نداعب بعضنا في السرير، نسمع الأغاني، نأكل البيتزا، نتضاجع، نقرأ، نعرق، وكل ذلك في السرير. إن سكنت معي فكأنك تعيشين معي لأن السكن والعيش سيكونان في السرير.

كان المفروض أن تضحك جودي لأنه قال ذلك بلهجة من يطلق نكتة ناجحة، لكنها زمت شفتيها كما تفعل عادةً حين تكون مترددة. قال لها يوماً: أحب تردّدك. فسألته بدهشة: لماذا؟ قال: حين تكونين في تلك الحالة يكون فمك مناسباً كي.. لم تدعه يكمل، ضربته على خده بقبضة خفيفة قائلة: سخيف. المهم كانت الآن مترددة قليلاً حتى حسمت ترددها:

- اسمع إن كنت لا تفرق بين شريك السكن وشريك العيش فأنت في مشكلة، وهذا يفسر لماذا تقضي عمرك دون (جيرل فريند) صديقة حميمة؟

- أنا أعني ما أقول يا جودي، لأني أفرق بينهما، أنا أطلب منك أن تنتقلي لتعيشي معي، تعلمين طبعاً أنك أول واحدة أطلب منها ذلك.

- رغم أني خلال شهر ونصف سأغادرك إلى أوروبا.

- من يدري؟

- ماذا تعني؟

- ربما لا تغادرينني.

- أحمق، أنا سوف أذهب إلى أوروبا للعمل في السفارة.

- ربما لا أدعك تذهبين، ربما أذهب معك، أي ربما لا تغادرينني أنا. قد نغادر سوية، وقد نبقى سوية.

جاء دور جودي لتفتح فمها مذهولة، آخر ما توقعته أن تسمع هذه الأقوال، وأن تسمعها من أندرو براون رجل اللحظة، المشمئز والقرف دائماً. ابتسمت:

- هل تحبني يا أندرو؟ اعترف.

- اذهبي للجحيم، أنا أوفر عليك أجرة المواصلات وأجرة السكن وأجرة الغسالة والنشافة وأنت تدعين ذلك حباً، أنا بكل بساطة أحب أن تكون أشياؤك في متناول يدي كل الوقت. أنانيتي هذه تسمينها حباً. أية حمقاء أخاطب؟

أسرعت جودي لتجلس على ساقيه ولتطوق ظهره بساقيها، ثم تقبله بعمق مرسلة لسانها يجوس في فمه، وأمسكت بيده لتدفعها تحت كنزتها إلى صدرها تمهيداً لوصال عنيف سريع، وحين استلقيا يدخنان قالت: لن يزعجك إذن أن ترافقني للمطار. أحب أن تكون وحدك معي حين أغزو أوروبا.

انتهت دورة أندرو قبل أن تكمل جودي تدريبها، عاد إلى المكتبة ليتسلم إدارتها وفوجئ أن لونسديل سيبقى معه كمساعد له فساءه ذلك كثيراً، أقل ما يمكن أن يفعله هو أن يشوش عليه هدوءه وبرامجه، إنه لا يريد أن يمنحه أي وقت، وكذلك فعل أول الأمر راقب الشاب عن بعد فوجده خجولاً صموتاً وذكياً بكل تأكيد، أدرك ذلك من الترتيبات التي اتخذها في غيابه، أفرد للطبعات الأولى خزانة خاصة ووضع قفلاً لها وصنّفها حسب أقدمية الصدور، وضع خزنتين إضافيتين وقلل من ازدحام الرفوف. وازداد عدد محبات القراءة من حسناوات الإدارة، وهكذا فإن (بوب) أو روبرت لونسديل كان شخصاً مختلفاً عن ذاك المتغطرس

النفور أندرو براون.

ليلة سفر جودي إلى ألمانيا كانت قد عادت من زيارة سريعة لأسرتها وقبلت أن يساعدها في ملء حقيبتين بأشيائها التافهة كما قال، كانا يتحركان بآلية متجنبين السؤال الكبير: ماذا بعد؟ ستخرج من أمريكا ومن عالمه أيضاً وهو رغم أنه يستشعر مرارة الفقد مسبقاً لكنه لا يرى نفسه على شفا الانهيار. صحيح أن جودي كامبل ستبقى أبداً تحتل حيزاً خاصاً من ذاكرته المفهرسة لكن الصحيح أيضاً أنها لم تحتل مكان سو ماكينزي فليست هي الحب المفقود والنزعة إلى القهر والألم. إنها حبيبة وحيدة لشهرين ورغم ذلك فإن دمعة قد فاجأته بعد أن عانقها بحرارة لحظة الوداع. أما جودي فقد قالت له: عزيزي أندي أنت الآن مستعد تماماً للتي ستفقدك صوابك وتجعلك تهلوس باسمها. ابتسم وسأل: وأنت؟ قالت بتلقائية: سأكتشف أوروبا وبالطبع الأوروبيين وسأمتحن الحب الأوروبي. وحين أدرك في الباص الذي أعاده من المطار أنه ربما لن يراها ثانيةً أحس ببرودة شقته مسبقاً. إن جودي كامبل قد أشاعت الدفء فيها وهاهي الآن عارية من جودي لكنها لا تزال مشبعة برائحتها في الوسائد وغطاء السرير وعديد الثياب التي لم تتسع لها حقيبتاها وقبل كل شيء صورتها عارية تماماً بجسدها الطالع من البانيو، الناهض بالبياض والفتنة الصريحة، كانا يشربان معاً بعد الوصال، قالت له: أنا لا أحب الجنس مقروناً بأي شيء، نحن نشرب لنثمل، لنبتهج، لنبكي، لنستبصر الجنون. لكننا نتضاجع لكي نفرح ولكي نحيا لذلك نتواصل قبل الشراب فأنا أكره أن يعبث مخمور في ثنيات جسدي الجميل جداً جداً وإياك أن تعارض غروري هذا. ولم يعارض لأنه وحده من أشعرها بفتنة جسدها بالجملة والمفرق. وهاهو أندرو براون ليلة وداع جودي يشرب بعد الهجر والفراق وليس بعد العشق والوصال. كفاه كأسان فقط ليشعر أنه قد ثمل بما فيه الكفاية وأنه يدخل سلطان النوم الثقيل حتى ظهيرة اليوم التالي، أول أحد يقضيه وحده منذ شهرين وقبل أن يفعل

أي شـيء رن الهاتف وسـألته عاملة الاتصال إن كان يقبل مكالمة على حسابه من ألمانيا من الآنسة جودي كامبل. قال: نعم.

- هاي آندي، أنا هنا. الدنيا برد، والساعة عندي الرابعة والنصف. لابد أنها عندك العاشرة والنصف صباحاً.

- هالـو جـودي.. السـاعة عنـدي كمـا قلت والدنيـا برد هنا. كيف ابتدأ غزوك لأوروبا والأوروبيين.

- ببـرودة ولامبـالاة منهـم، وبتعـب منـي آآآ... عـذراً للتثـاؤب لا تزال سـاعتي البيولوجية غير منسـجمة. اسـتقبلني سـائق ألماني كأنه برت لانكستر، اسمع أنا أتصل لأقول لك شيئاً، هل تسمعني؟

- أسمعك بالطبع ماذا لديك؟

- أندي، لو قلت لي مرة واحدة أحبك وأنت تعنيها لبقيت معك، لا تخـف، لا تخـف مـن الحـب، لـن تهجرك الحبيبة أو تتجاهلك فلسـنا جميعاً مثل تلك البقرة سو ماكينزي. باي.

- باي جودي.

وحين أغلق السماعة أحس بالبرودة الشديدة تقلص أمعاءه فانطوى على نفسه مقروراً وبكى دون دموع عشقاً لم يتحول إلى الحب المنشود.

«5»

(عبد المالك)

رغم قناعته بأن الرجل الرجل لا يكذب فقد سمح عبد المالك منصور لنفسه بكذبة بيضاء، أو إن تحرينا الدقة بكذبات عديدة لا أحد يراها بيضاء، وقطعاً مؤمنة بالذات لن تراها كذلك. قال لها حين رزقا بتميم وتجاوز عمره السنة: لقد أعطيتني يا مؤمنة كل ما أريد من الدنيا، الزوجة الحبيبة والولد الموعود عسى الله يكرم عليه بأخوة وأخوات. قالت: هل ستكتفي بنا نحن الاثنين يا عبد المالك؟ قال ويده تداعب خدّها المتقد احمراراً: وأستغني عن الدنيا كلها. وكان يعرف مسبقاً أنه يكذب. فهو مثلاً لا يستغني عن جلسة أو اثنتين مع أصحاب من جيله يجلسون في أحد المطاعم أو البارات كل أسبوع، ويتعاطون حليب السباع، العرق الذي لو علمت مؤمنة أن زوجها يشربه بشغف واستمتاع كاستمتاعه بجسدها لقالت: شارب عرق! أستغفر الله العلي العظيم. ثم تسرع فتطهر فمها سبع مرات لأنها لفظت اسمه. كما يفعل هو حين يمضغ النعنع والبقدونس وحتى الثوم لتزول رائحة العرق الفاضحة والتي لم تستطع مؤمنة لها تفسيراً مطلقاً لأنها لم تشمها سابقاً، غير أنها سألته مرة: هل كان في العشاء يانسون؟ رائحتك كمن سفّ كمشة يانسون. ويضحك في سره فهل العرق إلا عصير العنب واليانسون؟ ساعات الصفاء هذه أخذه إليها أخوه الأكبر سعيد أول الأمر، لكن رضية وأولادها سحبوا سعيداً إلى ظلال الطاعة والإيمان فانقطع وتابع عبد المالك. وحين جاءه تميم أقام حفلة في أسبوعه الأول لأصحابه في مطعم النورماندي حيث لم يكتف بالعرق بل أنزل زجاجتي ويسكي وثلاث زجاجات شمبانيا فرنسية وهمس للمدير أن يكون حساب جميع

زبائنه بين التاسعة والواحدة والنصف صباحاً مدفوعاً من قبله. ولم يعلن المدير اللبق ذلك للزبائن حتى لا يستغلوا كرم هذا الزبون السعيد. بل كان حين تطلب طاولة منه الحساب يقول: الحساب واصل. عبد المالك بيك يدفع عن الجميع احتفالاً بمولوده، ويرفع أحدهم الكأس لعبد المالك مباركاً والجميع في سعادة ومن بين الجميع نعيمة وسمر. شابتان كانتا تتصيدان الزبائن في المطاعم الراقية. تجلسان على طاولة وتطلبان سلطة أو صحن تبولة وتشربان بيرة باردة ريثما تدعيان لطاولة ما أو للخروج مع هذا الزبون أو ذاك، كان المدير لا يسمح إلا لخمس أو ست فتيات بارتياد مطعمه، وجميعهن من سوية مقبولة في اللباس والسلوك. وجميعهن طبعاً يلبين أوامره وغالباً أوامر المباحث أو الشعبة الثانية التي غدا اسمها المكتب الثاني. في تلك الليلة قررت سمر أن تقول شيئاً، فهذا الزبون الطويل المكتمل الرجولة لم يستجب لنظراتها منذ دخلت عالم المطاعم، في السادسة عشرة من عمرها ومن أجل كنزة زرقاء تبعت بائع نوفوتيه إلى المخزن الداخلي، بنات المدرسة التي انقطعت عنها كن يرتدين مثل تلك الكنزة اللعينة، من يملكن النقود ومن يرتدن الجامعة ومن تنقلهن السيارات الخاصة أو العامة، وهي الحسناء الأجمل منهن جميعاً لا يقدم لها عمها زوج أمها قرشاً واحداً إلا إذا تغاضت عن سعيه الدائم لفض بكارتها. قال لها بعد أن اغتصبها من الخلف: أنت ستكونين أول بكر أخترقها، زوجتي الأولى كانت مطلقة، والثانية كان ابن جيرانهم قد سبقني إليها، وأمك أرملة، أنت ستكونين أول عذراء لي وحدي. أمها كانت تذهب لتخدم في البيوت وهو ينقل الفحم والحطب على الطنبر إلى أطراف المدينة، كانت في الرابعة عشرة وعلى الكفاءة حين تزوج أمها، اعترض أحد أعمامها فوجد نفسه تحت رحمة سكين الزوج فأقلع عن اعتراضه، وقد انتظر ستة أشهر قبل أن يراها تتفتح أمامه بعد رسوبها وخروجها من المدرسة.

ذات صباح حين عاد لأن الحصان قد تعثر وجرح رجله كانت

سمر في الحمام، دخل ليغسل يديه فرآها كما هي ولم ينتظر، أذهله الجسد الفتي والعجيزة الكاملة الاستدارة التي ألفاها أمامه وقد نأت بعري صدرها وما بين ساقيها عنه، فأخذها من الخلف وهو يسد فمها ويتحمل عضاتها الحادة، وحين قالت وسط دموعها: سأفضحك وسأجعل أمي تحضر لك الشرطة. شهر سكينه نحوها وهددها بذبح أمها أمام عينيها ثم قطع صدرها واستئصال لسانها وغرس السكين عميقاً بين ساقيها إن فتحت فمها بكلمة. وهكذا صمتت، ظل ينالها خلافاً للطبيعة ويداه تجوسان فيها لكنها لم تسمح له بمباشرتها من الأمام. أما صاحب النوفوتيه الخبيث فقد ساقها للداخل واعداً إياها ليس بالكنزة الزرقاء وحسب بل ببنطال جينز أيضاً وبتشكيلة من الصداري والكيلوتات والكثير من الزينة المقلدة، عقد وإسوارة وحلق وخاتم وحتى بروش، وسمر أغمضت عينيها ولم تصدر إلا آهة طويلة حين تم اختراقها، آهة أشبه بالعواء منها بالنواح. وأمها حين رأت الكنزة حاولت بالضرب وشد الشعر أن تعرف كيف حصلت سمر عليها، وحين ارتفع صوت سمر في وجه أمها تدخل الزوج الغاضب وعندها انفجرت المراهقة لتباغت أمها بحقيقة ما فعله ويفعله زوجها ودون أن تصغي ضربتها أمها بإبريق الماء على رأسها مستنكرة ذلك الاتهام الذي يأتي لتغطية ما فعلته سمر حتى حصلت على الكنزة، سال الدم غزيراً متدفقاً من جرح عميق أعلى الصدغ فخرجت الفتاة راكضة ذهبت إلى أول صيدلية، رجت صاحب الصيدلية أن يضع لها دواء يوقف النزف، وحين أجلسها الرجل على الكرسي ونظف لها الجرح وهو ينصحها بالذهاب إلى المستشفى لمح دماً متجمداً على ركبتها ولم يخطر له أن الفتاة نزفت ذلك اليوم مرتين بفعل اعتداءين لم يرحما طفولتها. خرجت سمر يومها إلى الشارع بمعنى الكلمة وقبل أن تصل إلى أحط الدرجات التقت بنعيمة التي سحبتها من الشارع إلى المطاعم والبارات. والغرفتان اللتان يتكون منهما بيت صغير في حي قريب من شارع الصالحية صارتا مأوى لهما وفّره قواد

محترم كان يتقاضى من كل واحدة سبعين في المائة فقط مما تجلبه سواء علم بعدد الزبائن أم لم يعلم، وما كانتا تكذبان لأن التهديد بسيط جداً. الكذبة الأولى ستكون الأخيرة لأن من تفعلها سوف تموت. كان قاسياً لا يرحم، والبيت الذي لم يكن إيجاره يزيد عن خمسين ليرة سورية في الشهر كان يدر عليه بوجود الفتاتين أكثر من ألف وخمسمائة ليرة دون أي عناء.

سمر هذه كانت بطريقة ما ترى في عبد المالك منصور فارس الأحلام، رجولته الماثلة في كل حركة، هيبته، ذكاؤه، وتميزه عن رفاق سهرته بكل شيء جعلها تعشقه دون أن تجرؤ على التعرض له، فضلت أن تترك لأحلام اليقظة منفذاً إليه، خشيت إن صدها أن تخسر فسحة أحلامها به. وقررت ليلة الاحتفال أن تغامر، حملت بيدها كأسي بيرة غير آبهة بما تهمسه نعيمة واتجهت إلى طاولة الأصدقاء. مع اقترابها - وقد سمحت لمشاعرها أن ترتسم على وجهها - ساد الصمت بين الجالسين وحدق إليها عبد المالك بابتسامة دهشة، اقتربت منه قدمت إليه كأساً وسألته إن كان يسمح لها برفع كأسها لابن رجل ليس مثله بين الرجال وعسى الله يجعله كأبيه. فهم عبد المالك ما جعل تلك الفتاة تخالسه النظر عبر السنوات، ودون تردد هز برأسه، قرعت سمر كأسها بكأسه وأسرع جميع من على الطاولة يفعلون وشربوا كؤوسهم دفعة واحدة، حيّت سمر برأسها ثم تهادت للخارج ونعيمة المذهولة تركض وراءها. منذ ولادة تميم وسمر موعودة بليلة كل أسبوع مع عبد المالك الذي يسمع منها كلاماً ويرى عشقاً تخصه به وحده.

لم تكن سهرة الشراب وليلة سمر التي قد تنتهي بعد انتصاف الليل ليعود عبد المالك إلى بيته رجلاً متزناً لا يعرف الزاحلة، لم تكونا الآن كذبتيه الوحيدتين على مؤمنة وسواها، فبين أصحاب الكأس كان المحامي راتب مأمون، أربعيني هادئ طويل البال، قليل الكلام لكنه ساخر لاذع حين يتكلم، ورغم أنه شيوعي محترف لكنه يستمتع بصحبة

هـذه الشـلة مـن التجـار الذيـن يمتصـون دم المواطـن كمـا يقول، وحتى ذلك المهندس الذي لم يكن، مهندساً إذ فشل في هندسة الأبنية ونجح في هندسـة شـوارع لندن، حتى صالح نعمان المهندس مع وقف التنفيذ والبعثي القومجي ابن الرأسمالية الصناعية، حتى هو كان معجباً بسحبات راتب مأمون الأدبية، وحين كان صاحبنا يدخل في تاريخ المادية الموغلة في قدم الممارسـة العروبية منذ صعاليك الجاهلية إلى مسـتضعفي مكة مروراً بالقرامطة والإسماعيلية وماركسية القرن العشرين، حين كان راتب يحلّق كان صالح نعمان يقف في صفه رغم التزامه العميق بفكر البعث القومي الذي يعادي الأممية والكوسـموبوليتانية والفوضوية والرأسـمالية والملكية والرجعية إلى آخر الاسـتظهارات الشـوفينية واللاشـوفينية. كان المحامي هو سر عبد المالك منصور الثالث بكل بساطة.

كل يـوم فـي حوالـي السـاعة الواحـدة والنصف ظهـراً يخرج تميم منصور من بيتهم في سوق ساروجة يتأبط كتاباً ودفتراً أو أكثر ويحمل في يده الأخرى سفرطاساً كبيراً. والسفرطاس هو كما لا يخفى وسيلة لنقل عدة أصناف من الطعام ساخنة أو باردة في مجموعة أوانٍ متراكبة، ويجتاز تميـم المسـافة إلـى الأزبكيـة ثـم إلى الدحـداح ثم يصل الى العمارة عبر الطريق الطويل هذا، ويدخل بمفتاحه إلى البيت الذي اشتراه أبوه وعمه من أرملة ابن خالتهما الشهيد والذي بقي مغلقاً لسنوات إلا حين يفتح لاستضافة أحدٍ ما. هذه المرة كان السبب المعلن هو انفراد تميم ليدرس استعداداً للبروفيه الإعدادية منذ الظهر وحتى المغرب قبل أن يغلق الباب ويعود إلى حارته وبيته. وداخل بيت العمارة كان المحامي الهادئ راتب مأمون مختبئاً، فحملة المباحث لاعتقال الشيوعيين قد بلغت حداً جعل كل فرد من شلة السهرة يعرض عليه مأوىً لكنه استعفى منهم معلناً أن مخبأه مضمون، وفي اليوم التالي تلقى عبد المالك منصور اتصالاً هاتفياً فـي الـدكان مـن راتـب يخبـره أنه يعهد إليه بنفسـه، أثلج ذلك صدر عبد المالـك إذ كان قـد ألحـف علـى راتـب ليقبـل وكان يتمنى أن يلجأ إليه،

فالبيت موجود وكل شيء يناسب، عدا عن أن مودة خاصة كانت تجمع بينهما، وكان صالح نعمان قريباً جداً منهما لولا أنه كان حين ينتشي من الشراب يعربد قليلاً، صحيح أن عربدته كانت خفيفة الظل لكنها بطريقة أو بأخرى لا تنسجم مائة بالمائة مع اتزان عبد المالك وهدوء راتب مأمون، لذلك أوصل عبد المالك صاحبه إلى بيت العمارة وودعه لأن ضرورة النأي تقضي بألا يلتقيا حتى لا يكون عبد المالك متبوعاً من قبل أحد المخبرين. وهو ما كان الرجل واثقاً من حدوثه إذ تثبت من شخص كان يلازم خروجه من بيته وعودته إليه، دراسة الإعدادية كانت حجة تميم في حمله الطعام والصحف إلى الأستاذ راتب. الطعام في السفرطاس والصحف داخل الكتاب أو الدفتر. واكتشف تميم أن هذا الرجل الودود هو أب لابنة في مثل عمره تتحضر للامتحان كما يفعل، وهكذا كان دور راتب مأمون أن يدّرس الهندسة والحساب لتميم منصور وأن يستذكر معه إعراب الجمل والمفردات وحدود الوطن العربي وسوى ذلك مما كان سيغذي به عقل ابنته عزّة استعداداً للامتحان، سرور تميم بأنه كان يقوم بدور المساعد والمنقذ لرجل بالغ اللطف غزير المعلومات جعل من المهمة اليومية برنامجاً واجب التنفيذ. ومؤمنة التي طالبها عبد المالك محذراً بعدم السؤال أو الاستفسار أو الثرثرة عمّن يتلقى الطعام كانت تعلم أن ابنها يذهب إلى بيت حي العمارة، كان في ظنها أن زوجها يخفي مطلوباً عزيزاً عليه، ظنته مطلوباً لرهن أو نفقة أو جنحة ما ولم يخطر ببالها أن عبد المالك لم يكن ليعرّض ولده لعلاقة يومية مع هارب من عدالة القضاء، لكنه قبل بسرور أن تكون لتميم هذه العلاقة مع مطلوب بتهمة الثبات على المبدأ وقول كلمة لا رغم أن الرأي العام ووسائل الإعلام بالتخصيص كانت تذكّر صباح مساء بهؤلاء الأمميين الشعوبيين الخونة الذين لا دين لهم ولا أخلاق.

كان عبد المالك يختلف مع راتب مأمون في النظر إلى عبد الناصر، وكان يرى أن أي سوء فإن مبعثه السوريون من الحاكمين سواء منهم الذي

تورط بنفسه في تهشيم البنية السياسية السورية، أو الذي استمر بالحكم رغم تذمره وجَبُن عن قول كلمة لا. عبد المالك قال لا لأديب الشيشكلي رغم احترامه له: قال لا لاختزال العمل السياسي بحركة التحرير الهجينة وهو كان يجاهر صالح نعمان بأن اندفاع البعث وانسياقه مع الضباط غير الحزبيين سمح لعبد الناصر بمسخ التعددية والديمقراطية السورية في بنيان هزيل كالاتحاد القومي، ثم فيما بعد ورغم أن أخاه سعيد منصور قد غدا عضو مكتب في دمشق ويحضر اجتماعات ويلقي كلمات فإن عبد المالك كان ينظر بتشاؤم إلى ما يجري. وتميم الذي يستذكر دروسه بجدية مع راتب مأمون خلال ساعات بعد الظهر وصل إلى حقيقة هذا الرجل عبر الاستنتاج، وعندها سأله بصراحة:

- هل تختبئ من المباحث يا أستاذ راتب؟ سأل بخجل.

- ن ن نعم. هل قال لك أبوك ذلك؟

- لا يا أستاذ. أنا عرفت، اثنان من زملائي في الصف، واحد أمسكوا بأبيه والثاني قالوا حين انقطع عن المدرسة إن أباه هارب. هل أنت شيوعي مثلهما؟

- نعم يا تميم. ماذا تعرف عن الشيوعيين؟

- ل ل... لا أعرف يا عم نادر.

- قل لي ما تعرف وأنا أخبرك إن كان صحيحاً أولاً.

وبدأ تميم على استحياء يعدد المآخذ على الشيوعيين حسب توجيهات عدلي حشاد التي تتسرب إلى كل صفوف الإقليم الشمالي عبر المعلمين والمعلمات سواء آمنوا بما يقولونه أم لم يؤمنوا، كان راتب مأمون يستمع باسماً إلى ما سمعه سابقاً من عزة ابنته، وبهدوئه المعتاد ابتعد عن لهجة الدفاع ولجأ إلى الأدب والتاريخ، تحدث عن الناس والقيصر وسيبيريا وحزب البولشفيك ولينين والحربين العالميتين. وكان تميم يسمع منشدّاً لأسلوب المحامي في القص والسرد، ولا يفوته أن يسأل أباه عن بعض المعلومات التي كان يشك في أنها مبالغات

لتحسين الصورة، وعبد المالك الذي أدرك أي مأزق طريف وضع ولده فيه كان يؤكد ما سمعه تميم من راتب. رأى أبو تميم ابنه يبحث عن رواية لمكسيم غوركي وعلم أنه دون أن يتنبه قد جعل وحيده الذكي الفضولي عرضة لتأثير محام لسنٍ. أرسل له ورقة صغيرة فيها عبارة ضاحكة: لا للبروباغندا. لم يفهمها تميم لكن راتب مأمون ضحك مطولاً ثم قال لتميم: قل للبابا حاضر. لم يكن قد بقي لتميم الكثير ليسأل عنه، وكذلك لم يبق لراتب ما يقوله، أدرك أن البذرة إن وجدت أرضاً خصبة فسوف تنتش. وتميم الفتى ذكي وتفوق معارفه عمره بكثير، وهو إن كان له ذهن أبيه المتفتح فذلك يكفي كي يتخذ الموقف السليم الإيجابي عند الاقتضاء.

تميم من جهته لم يكن الآن مستعداً لشيء آخر سوى الدراسة واجتياز المرحلة الإعدادية، نسي أو تناسى ما تفرضه عليه مراهقته من اهتمام بالبنات. رؤيته لسليمة منتهكة الجسد من قبل مصطفى أولاً ثم تلك السقطة المريعة حين انخذل أمام عري ضياء النمشاء ثانياً كل ذلك جعله يستبعد أي أفكار تتجه في منحى يغاير الدراسة إلا حين يعانق الوسادة طلباً للنوم، عند ذلك لا يكون له هاجس سوى الجسد، يتقلب كثيراً حتى يواتيه نوم عميق، وبرنامج النهار معروف سلفاً، مدرسة ثم بيت العمارة ثم عودة للدار فدراسة حتى النوم. لم تنتبه مؤمنة كما لم يتنبه تميم إلى أن عبد المالك قد بدأ يميل إلى الهزال، وكذلك بيت أخيه سعيد إذ كانوا يرونه يومياً، وحدها سمر حين نزعت عن عبد المالك ثيابه قالت له بدهشة: هل كنت مريضاً يا قلبي؟ قال الرجل: لا، لماذا تسألين؟ قالت له إنها تراه أنحف مما سبق. وحين كررت ذلك الأسبوع اللاحق أحس عبد المالك بالقلق فهو الآن يستطيع أن يرى بنطاله أوسع، وهو يظن أن قلقه على دراسة تميم، وخوفه على راتب مأمون، وانهماك الدكان بتلبية الطلبات استعداداً للصيف. كان يظن ذلك كله سبب انعدام شهيته، لكن تضييق الزنار إلى ما قبل ثقبين من المعتاد وملاحظة سمر

قد سبب له خوفاً. كان عبد المالك يخشى على حياته لأنها كاملة.

انتهى الامتحان، تميم كان يطلع الأستاذ راتب على ما كتبه، وبعد آخر مادة أرسل راتب لعبد المالك ورقة يقول فيها: اطمئن، سينجح بتفوق. حمد عبد المالك الله وقرر أن يزور الطبيب ليطمئن إلى أنه سوف يعود إلى سابق امتلاء جسمه، وسوف يتخلص من هذه (الربوبيات) تحت إبطيه والتي كانت ذات يوم تكبر حين تلتهب لوزتاه. وهاهي الآن كبيرة ومن الجهتين. سمع منه الطبيب الذي لا يعرف وأسرته سواه، وقد لاحظ عبد المالك أن سحبة قلق قد عبرت سيماء الطبيب وهو يستمع إليه، ثم لما بدأ يفحص بطنه وعنقه وتحت إبطيه ومنطقة حالبيه ومضت نظرة قلق سريعة في عيني الطبيب رغم البسمة التي رسمها. وعندما قال له سوف أطلب منك صوراً شعاعية وتحاليل يا سيد عبد المالك أحس بأن قلبه يهوي وبدأ يشعر بأنه ضعيف مهيض الجناحين وأنه يجهل تماماً ما يجري في جسده. لم يفعل عبد المالك شيئاً إلا بعد أن نجح تميم بتفوق وبعلامات عالية. عزة مأمون ابنة راتب كانت علاماتها أعلى إذ كانت تلك هديتها لأبيها في مخبئه الذي لا تعرفه. وغاب راتب عن الحفلة التي أقامها عبد المالك احتفاءً بنجاح تميم وعزة ابنة راتب، وحضرت سمر التي كان الجميع يعرفون بعلاقتها الطويلة مع عبد المالك، قامت بدور المضيفة متغلبة على خوفها من حالة حبيبها الصحية.

الطبيب المختص لم يكن يعرف عبد المالك من قبل وهو وافد حديثاً من الاختصاص في لندن، قال بوضوح لعبد المالك: للأسف جئت متأخراً كثيراً، فالورم قد انتشر بانتقالات إلى الجهاز اللنفي و.... عبد المالك حين سمع كلمة ورم لم يحتمل، صار يلهث ويطلب الهواء. خاف عليه الطبيب وأسرع يريد حقنه بإبرة مهدئ لكن عبد المالك تمالك نفسه وأشار إليه ليهدأ هو نفسه ثم سأله بوضوح: هل النهاية قريبة؟ قال الرجل ببعض التردد: ليس مباشرةً إنما لا أعطيك أكثر من شهرين.

شهران يا عبد المالك، تلك الآلام كانت بسبب ذلك المرض الذي

لا يذكر الناس اسمه. كما هذا الهزال وبعض الدم الذي تراه، شهران فقط ولن تكون بعدها قادراً على رؤية تميم يكبر، ينمو، يخط شارباه، تطول قامته، يأخذ الثانوية، تخطب له، تزوجه، ربما يدخل الجامعة، تحمل أول أحفادك. تخصص لسمر ليلتين أو ربما تكتفي بمؤمنة، لكن ما تبقى من عمرك لا يكاد يسمح بأي من تلك الأفراح الموعودة. شهران من ألم القلب الذي يربو على ألم الجسد، لأن كزّ الأسنان وحقن المورفين يخاتل هذا، إنما مَنْذا أو ماذا يهوّن فراق الأحبة في قلب عبد المالك؟

«6»

(دمشق)

لم يكن ضمن برامج أندرو براون الحياتية أن يعود إلى أرلنجتون تكساس زائراً، فبعد أن خرجت جودي كامبل من حياته الملموسة ظلت ماثلة أمامه بحضورها الطاغي كان قد رافقها إلى كل المطاعم التي يحبها وكل الزوايا والأركان التي ينزوي فيها نائياً عن الآخرين، صحبها إلى السينما في أوقاته المفضلة، ارتادا معاً محطات القطارات والباصات التي لم يستقلاها قطّ. كل ما في واشنطن دي سي يذكره بأن جودي لم تعد أمامه، حتى رائحتها المميزة، آخر تيشيرت كانت ترتديها وخلعتها حين استحمت للمرة الأخيرة في شقته لازالت رائحتها عميقة فيها خاصةً تحت الإبط الذي كان أندرو مهووساً بلحسه وعضه بعد أن يدفن أنفه فيه مطولاً، أراد أن يتخلص من كل مخلفات جودي المادية والعاطفية لكنه لم يجد عزاء عنها مع اثنتين من رفيقات الليلة الواحدة، ثم مع صديقات الماضي - فقد غدا ما قبل جودي ماضياً - من بنات العائلات المحافظة.

كان أندرو شاباً مثل أي شاب أمريكي في بداية الستينات، قد لا ينغمس في الحياة لكنه غير بعيد عن مجرياتها، كل من حوله رأى أن المناظرة بين مرشحي الرئاسة نيكسون الجمهوري وكيندي الديمقراطي قد انتهت لصالح كنيدي أما هو فقد رأى أن الاثنين غوغائيان بالقدر نفسه لكن نيكسون أكثر اتزاناً. ورغم أن تسعين بالمائة من الأمريكيين كانوا يعتبرون الصندوق السحري (التلفزيون) فرداً مرموقاً في العائلة فإن أندرو كان يفضل دار السينما وأماكن العرض الموسيقية وملاعب الفوتبول أو البيسبول على الجلوس أمام الجهاز الصغير وشاشته الباهتة. وحين رفض خروتشوف استقبال ايزنهاور في روسيا بعد إسقاط طائرة

باورز حاجج أندرو أحدهم بقوله: ترى لو كان سلاحنا الجوي أسقط طائرة تجسس روسية يقودها بيتر بيتروف مثلاً وقد كان هو وسواه يقتحم سماءنا كل حين ماذا كنا سنقول ونفعل؟ كان أندرو المشغوف بالقراءة والصمت يبدو ثقيلاً على الأسماع إن تحدث وقلّما كان يفعل. لذلك حين طاردته جودي كامبل في أحلامه وشقته وجميع أماكنه المفضلة أخذ معه كتاباً لتعليم العربية وحقيبة ثياب صغيرة وركب الطائرة إلى تكساس، لم يعرف السبب الذي دعاه لفعل ذلك وهو الهارب من البيت العائلي الأبوي إلى صقيع واشنطن، لكنه وهو في الباص الذي أقله من دالاس إلى أرلنجتون اكتشف أنه ببساطة يهرب من جودي إلى عبق مراهقته حين لم تكن سو ماكينزي تراه أكثر من صبي سخيف مهووس بها وتستطيع استغلال ذلك بكل خبث المراهقات الحسناوات المحبوبات.

فوجئ أبوه بقدومه، كذلك إخوته وأسرته الكبيرة إلا أمه التي قالت له: عرفت يا أندي أنك قادم. منذ يومين خبزت فطيرة «البلوبيري» التي تحبها وقلت: إن كان أندرو لا يزال يحرص على طاعة الرب فسوف يأكل منها وهاأنتذا أتيت. عانقها أندرو دون تعقيب فهو كاد يقول شيئاً نابياً عن الطاعة لكنه كبح نفسه وهو يرى نظرة أبيه الساخرة. ورغم أنه أعجب بنيكسون لكنه أمام عزيمة أبيه المحتدمة في تأييد الجمهوريين وجد نفسه ينحاز إلى كينيدي متحدثاً عن ضرورة التغيير وعن الشباب والسلام العالمي وغير ذلك من التفاهات التي سفهها أبوه وشقيقاه بطلا الحرب الثانية والمستعدان أبداً لأي حرب يخوضانها الآن بالصوت والانفعال دفاعاً عن الأمة الأمريكية، وعن حضارة من يسميهم الأغراب Red Neck أي البيض المتعصبون. وحين اكتشف أحد أولاد أشقائه تلك الخطوط الغريبة في الكتاب الذي جلبه العم أندرو كان على هذا أن يشرح كيف طلب منه تعلم اللغة العربية ولكنه لم يستطع أن يجيب عن التساؤل الهام: لماذا؟ لأنه هو لم يكن يعرف. ادعى أن ذلك من النشاطات المطلوبة في مثل وظيفته، بدأ يسأل أمه عن الأقارب والجيران وماري ماكينزي

التي فتك بصحتها الداء السكري وعن (سو آلين) ابنتها التي تأتي كل يوم لتحقنها بالأنسولين رغم أن زوجها - أنت تعرفه يا أندرو، هاري فلاتشر - رغم أنه، وتهمس له أمه: له صديقة سوداء وكل أرلنجتون تعرف ذلك، المسكينة سو لا تقول أو تفعل ما يخرب بيتها من أجل ولديها وأمها. أنت تذكر سو أليس كذلك يا أندرو؟

في اليوم الثالث وقبل الغياب كان أندرو متكئاً على سور حديقتهم يرقب الشارع حين توقفت بيك آب قديمة أمام منزل آل ماكينزي، ونزلت منها سو، لم تكن سو المسكينة كما قالت أمه بل سو الشابة التي فقدت أرطالاً من سمنتها الزائدة وبدت بالجينز والتي شيرت القرميدية أحلى مما كانت في يوم من الأيام، سارت عدة خطوات بعد أن هزت له رأسها ثم توقفت واستدارت مدهوشة قبل أن تسأله:

- أهذا أنت يا أندرو براون؟ أأنت حقاً؟

ضحك أندرو بانشراح وهو يراها تتجه إليه ثم قفز عن السور:

- رباه، لا تقولي لي إنك سو ماكينزي، أنت أجمل منها بكثير.

ضحكت وهي تعانقه بمودة ثم تبعده عنها لتتأمله ثم تصفر بإعجاب:

- واو. واشنطن دي سي فعلت بك الكثير يا آندي. ألازلت تكتب الإجابات للفتيات اللواتي يستصعبن تشغيل المخ.

- فقط إن كن حسناوات مثل سو التي أعرفها. كيف حالك يا سو؟ كيف هاري والأسرة؟

- هاري من؟ قالت بامتعاض مبالغ فيه. اسمع يا آندي سأخرج بعد ساعة، عندي ما أقوم به في بيت أمي، تعال لأستضيفك على زجاجة بيرة في مطعم جو. هل تذكر جوزيف مانديس، عنده الآن مطعم مودرن، سنتحدث عن واشنطن وعن أرلنجتون القديمة.

كان أندرو يحس بأنه دائخ قليلاً بعد هذا اللقاء القصير. لكنه في مطعم جو وبعد أن تباهت به سو أمام عدد ممن بادلوها التحية وإياه

قائلة بكل عفوية: تعلمون طبعاً كان أندرو يحبني حتى إنه كتب لي شعراً وهاهو الآن رجل مرموق في العاصمة واشنطن. وحين جلسا قرب النافذة يحتسيان البيرة الباردة قال لها: إنه فعل أشياء كثيرة في فترة تعلقه الطفولي بها لكنه لا يذكر أنه كتب يوماً شعراً لها أو لسواها. قالت: بلى. قالتها بحرارة واقتناع، وأظن أنك قلت لي ما معناه... ورددت معنى قطعة لروبرت فروست، ضحك أندرو بانشراح وتذكر أنه كتب لها أبياتاً مختارة لتتحدث بها عن الشاعر الذي لم تسمع به. ولابد أنها قد عرضتها على أصدقائها البالغين وضحكوا مطولاً من العاشق الصغير. كانت سو الآن مشرقة متألقة بكل ما في بنات تكساس الشقراوات، وأحس أندرو أنها تريد بطريقة ما أن تتأكد من استمرار قدرتها على اجتذابه وتردد في قرارة نفسه إذ كان الآن يستطيع أن يهملها ببرود ثأراً لسنوات إهمالها إياه، ولكنه أيضاً يستطيع أن يفعل غير ذلك.

- سو، سمعت أن هاري قد....

وتقاطعه بلا مبالاة:

- قد اتخذ له عشيقة، ومن لم يسمع بذلك؟ كم كنت غبية يا أندرو. تعلم أن «ألان» كان يعبدني ومع ذلك فضلت عليه الوغد هاري وانظر ماذا يفعل؟ حسناً. ليفعل ما يشاء مع قذارته السوداء، أرلنجتون زاخرة بشبان بيض رائعين أليس كذلك يا أندي؟ ألان الآن يطاردني من جديد.

وتضحك سو ماكينزي فلاتشر بتواطؤ، لم يعرف بعد سبب كل هذا التبسط من اللحظات الأولى، هل كان ذلك لأنه سيعود إلى واشنطن أم لأنه قادم منها أم أنها عادة البلدة التي نسيها في الحديث الصريح عن كل شيء لأنه لا شيء يخفى في أرلنجتون.

- هيه أندي لا تدعني أتحدث وحدي. هيا انفض ما في جعبتك حدثني عن واشنطن. اسمع هل صحيح أن لوزير الخارجية ست فتيات توب موديل يعملن في الترجمة؟ هل نمت مع إحداهن؟ هل لديك (جيرل فريند) صديقة حميمة أم أنك لازلت فتى عابثاً؟

كل ما في أسئلة سو ماكينزي كان يوحي بالاهتمام، لكن أندرو كان يشعر أن ذلك مجرد تظاهر. إنها وراء قصة تتحدث بها مع صديقاتها عند الحلاق أو في ساحة الكنيسة قبل القداس. وربما تريد أن ترسل رسالة ما إلى هاري أو ألان أو أي شاب آخر من خلال هذه الجلسة والحوار. ترك لها أن تتحدث وأخذ الآن يتفحصها بنظرة مستكشفة متسائلاً: لو كانت من فتيات واشنطن الآن فما موقعها مني؟ كان الجواب ببساطة: ستكون مشتهاة وسوف يكدح ليحظى بها، وربما تكون له كما كانت جودي كامبل، إنما ليس أكثر. على أية حال يتوقف ذلك على.... اختلس نظرة من الساقين الممشوقتين، ثم طاف حول الصدر العامر، هذا الجسد هل ستكون له رائحة مميزة حميمة؟ كان لا يزال مسكوناً برائحة جودي. سو ماكينزي لاحظت أن أفكاره راحت بعيداً بعد أن تفحص جسمها بدقة.

- اسمع آندي، في حديقتنا مسبح صغير، كارمن مربية الطفلين ستدبر لنا بعض المقبلات ريثما نسبح قليلاً، ثم نجلس في الظل ونأخذ شراباً بانتظار أن يأتي هاري. سوف يسره أن يراك. وربما لن يسره.

ضحكت سو الآن وتابعت:

- فقد جعلتك من أوائل الذكور الذين عابثتهم قبل أن ألقاه. قلت له ذلك لأغيظه. نحن تعابثنا معاً أليس كذلك؟

- كثيراً.

قالها بلهجة لا تفسح لها فرصة التمييز بين الجد والمزاح، كان على وشك أن يرفض لكنه تخيل ما سوف تقوله جودي عندما يخبرها بما جرى. كانت ستقول:

- أحمق وسخيف لقد أضعت فرصة عمرك.

لذلك ابتسم بمنتهى التهذيب وقال:

- يسرني ذلك يا سو. إنما عليك أن تسمحي لي بشراء الشراب.

- أوكي، لنذهب إذن.

تأبطت ذراعه بعد أن ترك حساب البيرة على الطاولة وخرجت معه

مزهوة ولم يفت أندرو أن يلمح بعض الابتسامات على شفاه الجالسين.

كانت مسز فلاتشر تريد أن تعرض لهذا القادم من واشنطن جسدها المثير وكان حقاً كذلك. كان فيها جمال ديانا دورس وإثارة جين مانسفيلد. ولم يطل الأمر في المسبح حتى شعرت أنها قد سيطرت عليه تماماً بحركات الغنج التي تتقنها، وتحت المظلة أدارت له ظهرها لينشفها ثم وقفت مديرة جسمها عنه ليتابع، كانت دعوة صريحة تجاهلها عمداً فقالت:

- لن أسمح لك بتنشيف صدري أن ذلك ممنوع في قواميس زوجي.

- وأنا لا أريد أن أكون معتدياً على قواميسه.

نظرت إليه بخيبة أمل ثم حفزته على أن يشرب كأس النبيذ الثمين الذي اشتراه:

- لم تقل لي بعد. هل لك صديقة؟

- م م م. نعم أنها الآن في ألمانيا.

- ألمانيا؟! اسمع. ماذا تفعل هناك. لماذا لم تذهب معها؟

- إنها في رحلة عمل.

- م م.. من يدري. قد يسلبك إياها أحد شبان أوروبا، سمعت إنهم ماجنون، هل معك صورة لها؟

قاطعهما رنين الهاتف، جاءت به المربية كارمن وهي تحمل أصغر الولدين قائلة:

- مستر هاري.

أخذت سو الهاتف وابتعدت به قليلاً وبعد هنيهة كانت تبدو عصبية في حركاتها ثم أغلقت الزر ورمت الهاتف على المائدة بحنق قبل أن تبتسم:

- هاري يعتذر منك، لديه اجتماع.

- لكنه لم يكن يعلم بقدومي.

- أوكي، لكنه علم، أخبره جورج أحد زملائه في المكتب. جورج كان في مطعم جو.

- حسناً في فرصة أخرى.

- متى ستعود إلى واشنطن؟

- في نهاية الأسبوع.

- بهذه السرعة؟

أمسكت بيده وبرجاء قالت:

- آندي، هاري ليس في مكتبهم اجتماعات، سيذهب إلى المومس. زوجها ذو القرنين يأخذ ثمن الهيرو ين منها. وهي تأخذه من زوجي، اسمع، بعد قليل سوف ينام الصغيران، كارمن تقوم بذلك. وسوف نقضي بعض الوقت معاً. ما رأيك؟

قالت ذلك والتصقت به نصف عارية وراغبة ومغرية، وبعد كل حساب إنها سو ماكينزي الحب الأول، شعر أنه لن يستطيع أن ينزع سو القديمة من خياله إلا إذا عاشر سو الجديدة، وعندما وصل بتفكيره إلى هذا الحد خفق قلبه بسرعة، من قال إنه يريد الخلاص من سو المراهقة والألم اللذيذ؟ ماذا يبقى له أن محا بهذا الجسد الباهر ماضيه وتاريخه. سيكون عندها بلا ماضٍ أو عذابات أو ذكريات، سيفقد اطمئنان من حظي بالحب الأول وكابده. ثم من يضمن أن يكون اللقاء الجسدي المقترح باعثاً على رضاها أم رضاه.

- سو، أنا مضطر للاعتذار، لن أستطيع المكوث، أمي ستخبز لي كعكة الليلة والأسرة كلها ستجتمع.

نظرة الخيبة والانكماش التي لم تخفها سو جعلت أندرو يتأكد من أنها لم تكن تختلف كثيراً عن زوجها هاري، وربما هي أسوأ منه سلوكاً فإذا كان يكتفي بواحدة فربما هي لا تكتفي، وما محاولتها معه إلا إرضاء إضافي لشعورها أكثر مما هو لجسدها، وقفا معاً.

- اسمع أندرو. ألقت بنفسها عليه تخاصره وتدعوه لمعانقتها:

- اسمع، لا تقل إنك لم تعد ترى في سو آلين ما يعجبك؟

- عانقيني من فضلك ولا تقولي ذلك ثانيةً.

سرها رد فعله فعانقته بحرارة، عندها وللمرة الأولى قبّل أندرو براون حبه الأول والوحيد حتى الآن قبلة طويلة جعلتها تشده إليها مطالبة بأكثر لكنه تملص مبتسماً باعتذار.

- اسمع، سأكتب لك هاتفي، اتصل في أي وقت وسوف نستطيع أن نمرح ساعات، في أي وقت، لن أدعك تذهب إلى واشنطن قبل أن تذوق حلويات أرلنجتون. انظر إلى ما تخسره الليلة، انظر.

كان حقاً جسداً جميلاً، جسد المسكينة سو آلين ماكينزي كما قالت أمه. لكن سو التي كان لها عدد من المحبين وهي في الثالثة عشرة ربما لها الآن من العشاق ما يجعل قرني هاري أطول وأطول، ولم يشأ أندرو أن ينتظر حتى نهاية الأسبوع، لم يعد في أرلنجتون ما يستدعي بقاءه. وهو الآن قد سها عن جودي كامبل طيلة يومين، كما أنه يحتفظ بذكرى شفتي سو الدافئتين ركب الطريق في اليوم التالي بعد أن حجز مكاناً على الطائرة بالهاتف.

شقته في واشنطن التي هي غرفة صغيرة في الضواحي الفقيرة كانت الآن أوسع في نظره من مسطحات أرلنجتون التي حاصرته فيها حالة انعزال وتفرد فكان كن يقف وسط عرض على مسرح دوار فلا هو شريك في العرض ولا هو يستطيع الخروج منه، لم يكن ثمة جديد في حياة هؤلاء الناس الذين يفترض به أن يحبهم ويفتقدهم، حتى سو كانت عادية ومبتذلة مثل أي فتاة شبقة. والهالة التي كانت لها في مخيلته قد شطبتها حالة العرام التي تلبستها. وهاهو يعود إلى سالف عهده، انتهت الدورة التي امتعض منها في البداية لكنها فيما بعد اجتذبت اهتمامه، كما أن لجودي الآن حياة تزدهر بعيداً عنه، وحتى إرثه الوحيد من فتوته قد شطبته سفرة أرلنجتون، فلم تعد سو ماكينزي الأنثى الخيالية المشتهاة، إنها واحدة كسواها. بدأ مع الأيام لا يذكر منها إلا جسدها

الطافح بالإثارة والشهوة وبدأت كذلك خيبته لأنه فوّت على نفسه فرصة امتلاكها، عاد لينزوي مع الرواية والكأس والسيجارة لم يهتم كثيراً بما يجري حوله. كان يلتقط أخباراً ليهتم بها متأخراً عن سواه أو متقدماً عنهم، أعجبه أن يفوز الشاعر سان جون يرس بجائزة نوبل وسره أن فاز كيندي بالرئاسة لأن كل قوى التعصب كانت وراء نيكسون. وسره أيضاً إضراب الممثلين الذي استمر أسبوعين مما جعل برودواي تقفل مسارحها، لكن الذي أطربه كثيراً كان فوز ابن السادسة عشرة بوبي فيشر ببطولة الولايات المتحدة في الشطرنج. كان هذا صفعة بنظره لأولئك العابسين الغاضبين دائماً، فهذا اليافع يقول لهم أنا أذكى منكم جميعاً.

بوب أو روبرت لونسديل مساعده الشاب في المكتبة كان يتصرف بتحفظ بالغ مع أندرو، وحين اطّلع أندرو على سيرته الذاتية تمهيداً لإبداء الرأي في سوية عمله اكتشف أنه مثل بروس تالبوت كان ربيب ملجأ ما. لفت نظره أن تالبوت الذي يقرأ كثيراً يهتم بمن يقرأ، لونسديل نفسه ذكر أن تالبوت حين رآه يقرأ رواية أثناء دوامه الليلي في محرس البوابة تبادل معه الحديث ثم تكرر ذلك حتى فوجئ بنقله إلى المكتبة، والمستر تالبوت هو من فعل ذلك، لكنه لن يبقى طويلاً في الإدارة. خامر أندرو شعور بالاستياء، كان في قرارة نفسه يشعر بمودة لا تعبر عن نفسها تجاه تالبوت، ولم يكن يتمنى أن يستبدل بمسؤول إداري آخر.

- بوب، هل هم غاضبون على مستر تالبوت؟

- لا لا أبداً مستر براون. سمعت أن فرصة ثمينة قد واتته.

مال روبرت لونسديل على أندرو وهمس له بتواطؤ:

- سوف يذهب إلى دولة أجنبية وربما إلى إحدى السفارات، لم أعرف بعد.

كانت لبوب شبكة اتصالات واسعة إذ ظهر لجميع الموظفين بمظهر الودود المتعاطف في فترة غياب أندرو، وكان رأي الجميع في أندرو بين أنه غبي لا يجيد التواصل وبين أنه مغرور وجلف، وهكذا بات

أندرو يخشى من الأيام القادمة، لقد قبل بوجود روبرت لونسديل لأنه لم يشوش عليه المألوف من حياته، بل على العكس من ذلك سهّل وجوده الكثير من الأمور لأنه باشر بنفسه كل شيء إلا اختيار الكتب التي تتزود بها المكتبة، أما ابتعاد بروس تالبوت فربما سيعكر المجرى الرتيب لأيام أندرو براون. ولم يطل به الانتظار لأن تطوراً كبيراً وخطيراً جاءه قبل انصرام عام 1960 فقد وجد نفسه أمام رئيس المستخدمين في قسمه ليجيب عن سؤال وحيد: هل تقبل بالذهاب للعمل في المكتبة الأمريكية في دمشق عاصمة سورية التي هي الآن جزء من الجمهورية العربية المتحدة التي تضمها مع مصر؟

« 7 »

دمشق أيضاً

قبل أن تطأ قدما تميم منصور ممرات التجهيز الأولى (جودت الهاشمي)، وقبل أن تبدأ السنة الدراسية كانت الفاجعة. عبد المالك بعد أيام من نجاح تميم المتميز ووصوله إلى المرحلة الثانوية كان يجلس مع مؤمنة ليشرب الشاي بالقرفة، لم تكن هذه عادة متأصلة، فالشاي بالقرفة مرغوبة في الشتاء لما تبثه القرفة من دفء في الجسد، لكن عبد المالك النحيل الآن والذاوي يحس بالبرد في مساءات آب هذه، مؤمنة التي تكثر من الطبخ الدسم لا تعرف لماذا هزل عبد المالك هكذا، ولماذا يأبى الذهاب إلى الحكيم؟ ولماذا يلبس منامة شتوية؟ ولماذا وهذا الأهم، لماذا فترت رغبته فيها؟ أسئلة لا تجرؤ على الإفصاح عنها. كانت ترقبه صامتة وعيناه تلمعان إلا حين يطلب الراحة ويغلق عليه باب الغرفة، تدخل عليه بعد حين لتجده منطوياً على جسده، لكن عينيه غائمتان كأنه ينام وهو صاحٍ، لم تر تلك الحبوب التي يأخذها سراً كي يحتمل الألم، ولم تلمح تلك الدموع التي يذرفها زوجها الجبار القوي الشديد كما تعرفه ويعرفه الجميع، كانت هدأة الليل فترة اختلائه بنفسه، منذ أسبوعين تضاحك أمام أخيه سعيد وقال: ابني نال الشهادة، عليه أن يعمل عني. أنا الآن سأرتاح، سآخذ إجازة. ضحك عبد المالك بعد أن قال ذلك وضحك معه الجميع قال له سعيد: معلوم يا أبا تميم. أكابر، لا أستغرب أن تقول سآخذ أم تميم في شهر عسل. ضحك عبد المالك وقال: فقط أن أخذت رضية بشهر مماثل. وهكذا وسط الضحكات تخلّى عن الدكان، كان يتمنى لو أن ولده يمثل أمامه فلا يفارقه، يريد أن يتزود بمرآه ومرأى مؤمنة وهما كل حياته لكنه لا يقدر. الجميع سوف يلاحظ

إن جاءته نوبة الألم العاصفة في حضورهم، في البيت يتغلب على ذلك بانعزاله، الليلة جاءه تميم ليخبره أنه تلقى اتصالاً من الأستاذ راتب، قال له سلّم على الوالد، بعد الامتحان لم يكن من مبرر لتردد تميم على بيت العمارة، زاره مرة واحدة ليسمع من راتب مأمون عزمه على المغادرة تلك الليلة لأنه يظن أن هناك من يشتبه بوجود أحد في البيت. كانت حجة ليغادر، وقد فعل.

انشغال عبد المالك بمرضه وانقطاعه عن سهرة الأنس مع الأصحاب أبعده عن ذاكرته حتى أخبره تميم الليلة. كان الولد متعباً فلم يستطع أن يستبقيه مطولاً، وهو الآن يشرب الشاي بالقرفة وحين يطفئ تميم النور في غرفته تسمع مؤمنة تنهيدة حرّى من عبد المالك، وتشك في أن دموعاً تترقرق في عينيه يداريها الظلام ثم ترى اليد التي تمسك كأس الشاي ترتجف، وقبل أن تسمع إجهاشة زوجها المستبعدة قطعاً تحس أن قلبها ينخلع وحين تتأكد أن عبد المالك يجهش بكاءً تتسارع دقات قلبها وتسقط على ركبتها لاهثة ودموع لم تطلبها تسيل بل تنهمر على خديها، فلابد أن أمراً جللاً بل يفوق الجلل من الأمور استدعى دموع عبد المالك منصور. رنا إليها وهي جاثية أمامه ولم يعد ثم مناص. ضمها إلى صدره وقد سمح لنفسه أن يبكي بحرقة اللوعة والفقد، أدركت مؤمنة ما كان خافياً، جاءها الجواب عن تلك الأسئلة التي لم تطرحها. خشي عبد المالك أن يخرج تميم فيراهما.. تشدد وقام ساحباً إياها إلى الغرفة وهناك سمعت مؤمنة ما جعلها تشهق محاولة التنفس فلا يسعفها جسدها مراراً حتى يزجرها عبد المالك بصوت استعاد سطوته: كفى يا امرأة. وخلال يومين فقط ذابت صحة مؤمنة فلم تعد تقوى على شيء. تم استدعاء سعيد ورضية فعلا البكاء في غرفة نوم مؤمنة وأصر سعيد أن يأخذ أخاه إلى الجامعة الأمريكية في بيروت أو حتى إلى باريس أو لندن. وأخبرهم عبد المالك أن كل ذلك لن يفيد وهي مسألة أيام. لم يتفق أحد مع مؤمنة في ضرورة إطلاع تميم على الحقيقة، عبد المالك

بالذات رفض. بعد اليومين لم يشأ تميم أن يغادر سرير أبيه متذمراً من هذه الحمى التي أحالت لونه شاحباً، ولم يستطع إلا أن يلاحظ مدى هزال أبيه إذ أن قنبازه كان فضفاضاً عليه بشكل جلي. دموع عبد المالك ومؤمنة أوصلت الفتى إلى مواجهة الفاجعة، يومان فقط، يومان آخران لا أكثر اجتمعت فيهما الأسرة حول الغالي المحتضر. لا حصر لإغماءات بنات الأخ ودموع الرجال قبل النساء، وضحى اليوم الثالث أفلت عبد المالك يد تميم منه ولفظ آخر أنفاسه تاركاً من خلفه قلوباً لم تكابد من قبل ألماً كألم فراق رجل فريد كعبد المالك، خرجت الأحياء المجاورة وخرجت حشود من التجاروالمتعلمين والشبان، وحتى الأحياء البعيدة جاء منها رجال سمعوا بعبد المالك منصور، وشيعوه إلى الدحداح. وفي ثالث أيام العزاء عانق راتب مأمون الفتى وعمه سعيداً ودموعه تفصح عن مدى لوعته، ورغم خروج صالح نعمان وأصحاب السهرة مع راتب مأمون إثر انفضاض العزاء لكن المخبرين أوصلوا النبأ فكانت دورية المباحث في الانتظار وساقوه غير آبهين لاعتراضات الآخرين. وفي عزاء السيدات أيضاً وهو ما يعرف بالعصرية ارتدت سمر ثياب الحارة الشعبية التي نشأت فيها ذات زمن غابر وحضرت ثلاثة أيام متوالية دون أي مكياج. لم يعرفها أحد، تساءلت النسوة عن هذه الغريبة البادية اللوعة وحين غادرت اعترضتها إحدى بنات سعيد شاكرة حضورها مستفهمة فقالت لها الجواب الذي أعدته: للمرحوم أيادٍ بيضاء عند المرحوم أبي ولا نقدر على مكافأته إلا بالدموع وغادرت.

كل ما يخطر بالبال من قهر وأسى وتفجع لا يكفي لوصف ما كانت عليه حال الأسرة الصغيرة إذ أغلقت الباب وظل تميم ومؤمنة وحدهما في البيت المليء بروح عبد المالك منصور والخالي من حضوره. كان عبد المالك عند مؤمنة أغلى من الروح، لم تكن تراه يقل عن الأنبياء وفوق كل الرجال من الأحياء والأموات وهو ابن العم الذي وعت عليه كبيراً منذ فتوته ومحضته حباً لا يضارعه حب الأب أو الأم أو الأخ، إلا

حب هذا الابن الحبيب. كان تميم هو عبد المالك ومؤمنة، إنه الأغلى إنه تميم وحسب، تقول اسمه وينشف لسانها ولو لم تكن العبادة لغير الله كفراً لعبدته، إنه وحيدها الذي رزقته بعد لأي وهو ابن حبها الأول والأخير وهو خير الفتيان، ابن أبيه وسامةً وقسامةً وحتى جسامةً، وهو ابن حسنها ورقتها واعتزازها. وليس لمؤمنة أمام تميم إلا التجلد، ان الفاجعة بعبد المالك لها العمر كله كي تعتصر قلبها. لكن ولدها ليس عليه أن يذوي أمامها. لابد من إخراجه، لابد من إبعاده عن هذا الأسى والقهر اللذين يكابدهما سواء لفقده أبيه أم لعجزه عن شفائه وفدائه. قالت له: اسمع يا بعد عمري، ليس على هذه البسيطة رجل يستحق الأسى والألم والقهر لفقده مثل أبيك. إنه، أعني كان فريداً بين الرجال، لا أحد يعرفه مثلي، كان كريم النفس بالطبع وليس بالتطبع، قوياً جريئاً في الحق، معتزاً بنفسه. وكان رضياً، وكان يعرف ما لا يعرفه الكثيرون، وكل هذا لم يجعله مغروراً بل متواضعاً. واسمع يا بني. أبوك رحمه الله شب وعاش سعيداً بحياته ولا أخجل من أن أقول إنه أحبني وأرادني كما أحببته وأردته ثم اكتمل هناؤه بك وكان بك معتزاً وفخوراً ومات رحمه الله كما يموت الجميع لأن الموت حق. لا أريدك أن تنساه، ولن تستطيع، إنما يا بعد عمري أبوك أوصاني بمايلي، يقول لك: كن رجلاً يا تميم. أنا عشت سعيداً وأموت مقهوراً لأني لن أكون قربك، لكن روحي سوف ترعاك، أريد أن تكون سعيداً... و... و... - شهقت مؤمنة وهي تنقل وصية زوجها - و وأن ترعى أمك. قالت مؤمنة ذلك وانهارت باكية أمام تميم الذي أثقلت عليه كلمات أبيه ودموع أمه فاستسلم لأحضانها ولدموعه.

لم تكن مؤمنة قادرة في الحقيقة على تخفيف أسى تميم كما لم يكن ذلك بمقدوره، عبد المالك كان مركز حياة كل منهما. فهو لمؤمنة كل الرجال وكل الهوى وكل الرغبات، وهو لتميم موقع الاعتزاز والقدرة غير المحدودة، وحين واراه الثرى انحسرت دنيا الألفة وتقلصت مساحة الآخرين في عالم مؤمنة، كما فقد الفتى بطله المحبوب وأفتى له خياله

الجامح بحتمية شرور الحياة، فكل من هب ودب له مكان فوق التراب إلا أباه الذي هو خير مطلق. كان حانقاً على الدنيا، على الأرض والسماء وعلى الآخرين ولم يكن ثمة استثناء، حتى أمه حتى نفسه. إنه حي وأمه لا تقل عنه حياة بينما عبد المالك منصور الفريد الفريد بين الرجال لم تعد فيه أي نأمة، أي حركة، أي نبضة قلب أو بسمة حنان أو التماعة عين أو حتى نظرة رضا. يا لهذه الحياة البشعة، ترتجف شفتا الفتى بكل قهر الدنيا وتسيل دموعه التي ما عادت عزيزة، يعتزل في غرفته، وتعتزل مؤمنة في غرفتها هنا حيث لا تزال رائحة عبد المالك عابقة، النوافذ مغلقة، الستائر مرخية، لا شيء تحرك من مكانه، لا شيء تغير، هنا على هذا السرير نفسه وإنما على فراش صوفي قديم جلست مؤمنة لأول مرة في ثوبها الأبيض مطرقة الرأس واجفة القلب تنتظر خطوات الحبيب الذي وافى ومعه كل الفرح الموعود طيلة السنين المنصرمة، الغرفة التي كانت تشع متعة وبهاء وحميمية غدت الآن باردة مقفرة كَشْراء، ليس أنها تفتقد الدفء وحسب بل إنها تشيع فيها ريح صرصر، زمهرير، عتمة طاغية إنما في وضح النهار وفي شمس آب اللافحة. كان ذلك البرد في خلايا مؤمنة، وكانت الريح هي وجيب قلبها الذي يطرق جدران الصدر دونما غاية أو هدف. ليس الغرفتان وحدهما، غرفة تميم وغرفة (عبد الـ...) غرفة مؤمنة الآن، ليس هما وحدهما اللتين فقدتا أنس الرجل بل البركة والنافورة وياسمين الدار والنارنج والدالية التي تنخلع عناقيدها عن الغصون لأن اليد التي زرعت ما عادت هناك لتجني فتسقط على أرض الدار منفرطة الحبات هنا وهناك.

أي نظرة تتبادلها مؤمنة مع تميم كانت فاتحة لدموع لا يملك أي منهما الدافع لكبحها لكنهما يتباعدان فلا يرى أي منهما دموع الآخر ضناً به. وكان مقدراً لحالة الأسى هذه أن تستمر طويلاً لولا سليمة، سليمة نفسها التي أحبت عمها عبد المالك الذي دللها كثيراً ربما أكثر مما فعل أبوها، وكذلك مؤمنة التي اعتبرتها ابنتها وحبيب القلب تميم

الذي جرحته حين تزوجت، كانت سليمة حبيبة الدار وكانت وحدها التي نامت في مراهقتها داخل دار عمها عبد المالك، سليمة حين سمعت من أمها أن مؤمنة وتميماً لازالا يغلقان على نفسيهما مكتفيين بالحسرة والتفجع تركت صغيرتها وذهبت لتقرع الباب وحين فتحت لها مؤمنة ورأتها فتحت لها ذراعيها فطارت إليهما سليمة وعانقت وجه مؤمنة الوضيء وقبلتها مراراً ثم سألت برأسها وكتفيها عن تميم فأشارت لها مؤمنة بحركة الرأس. همست لها: دعيني معه. وبعد دقائق اطلبينا معاً للشاي. تواطأت الاثنتان، ودون أن تقرع سليمة الباب فتحته ودخلت لتجد ابن عملها مستلقياً على سريره ويداه تحت رأسه، اشرأب نحوها ثم همد وأشاح بوجهه، اقتربت وجلست بجواره، حين استدار إليها وجد ذراعيها المفتوحين والوجه الحبيب القديم فارتمى نحوها يشهق وقد غلبته الدمعة، مسحت وجهه وقبلته من جبينه ثم من خديه ثم ضمته إلى صدرها وهدهدته هامسة: لا بأس عليك يا حبيبي لا بأس عليك. أبعدته من جديد ومسحت وجهه بكفها ثم قالت: هل تظن أن عمي عبد المالك - لو كان حياً - سيرضى بما يراه منك؟ عمي كان يراك رجلاً وأنت ابن عشر سنوات، انظر إليك الآن. دعني أر، هذان شارباك قد خطّا. لو رآني زوجي الآن وفي حضني شاب مشورب مثلك لأباح دمي. رغماً عنه علت وجهه ابتسامة ووجد نفسه ينسى ما رآه ذات يوم من العلّية حين سقطت هالتها وهي تمنح نفسها لزوجها. تظل سليمة هي العاطفة المشبوبة والحنان، وهو يعلم أن أحداً لم يكن يحب أباه عداه وأمه أكثر من سليمة. وأبوه نفسه ما كان يؤثر أحداً عليها إلا تميماً نفسه. قالت: أنت لم تعد (تميمو الحبوب) أنت الآن تميم منصور ابن عمي. معك شهادتان، الجميع يتحدث عن ذكائك وعلمك وأبي يضرب بك المثل لأخوتي. أنت ابن أبيك. ماذا ينقصك؟ لو كان الحزن والبكاء يعيدان مفقوداً لما كفت الناس عن البكاء. ألم تكن تقول لي سأتزوجك حين أكبر. أنت الآن كبير فهل هذا فعل واحد يريد أن يتزوج؟ ضحك

رغماً عنه ثانيةً، وجاء نداء مؤمنة للعشاء فاستجاب ليدها التي مدتها له وقام معها ليخرج إلى حيث كانت لهفة مؤمنة تتراجع وهي تراه مقبلاً عليها هادئ القسمات راضي النظرة يده في يد سليمة الظافرة.

المدرسة الثانوية أخرجته إلى الحياة بعد أن أخرجته سليمة من جدران الأسى. وجد نفسه في الثانوية الأولى وسط حشد من الطلاب كل منهم ذو مشرب يختلف عن سواه، التنوع أشبه بتنوع المجتمع. ويجمعهم أو يفرّق فيما بينهم النظرة إلى الوحدة وعبد الناصر، بعضهم اتجه للاعتزاز بثوريته والنفور من هذه الوحدة التي طمست الشخصية السورية. وبعضهم كان يرى أنه أكثر إخلاصاً للعروبة والقومية من عبد الناصر الذي أدار ظهره لهم، كان هؤلاء هم البعثيين. والشيوعيون كانوا يرون أن نظام الحكم عميل للإمبريالية وأنه متسلط والمباحث قد استباحت كل شيء. لم يكن تميم قادراً على اعتزال الآخرين والابتعاد عن الهموم السياسية، أبوه زرع فيه بذرة الشأن العام لأنه كان يهتم وكان وطنياً وكان شريفاً ويحب عبد الناصر ويأمل أن تكون وحدة عام 1958 نواة لوحدة أمة العرب. الآن لم يعد أبوه قادراً على توجيهه إنه يقبل من كل فريق بعض ما يقول ويرفض بعضه الآخر، إنه لا يحب خنوع المعلمين والمدرسين السوريين لزملائهم المصريين سواء بدافع الخوف أم النفاق، وهو أيضاً يعلم أن فكرة القومية والعروبة كانت في وجدانه قبل خطابات الرئيس، وأن الأحزاب السورية التي تم حلّها من أجل الوحدة هي التي حلّها الشيشكلي الذي كان أبوه من جملة مرؤوسيه في جيش الإنقاذ، وبالتالي فوجدانه لا يقر حلّ الأحزاب لأنها من سمات الديكتاتوريات. هذا ما لا يزال يذكره عن أبيه. أضف إلى ذلك تلك الجلسات الطويلة مع الأستاذ راتب مأمون. راتب مأمون؟! تذكره وهو عائد إلى البيت يختصر الطريق من أمام مقهى الهافانا إلى دخلة البحصة ثم جوزة الحدباء فسوق ساروجة. وعوضاً عن الاتجاه إلى البيت سلك طريق دكان الأسرة، لاقاه عمه سعيد بالعناق والترحاب والترحم على

أخيه قائلاً: صحيح من قال الذي خلّف ما مات. حين أقبلت علينا يا تميم رأيت في طلتك ومشيتك حياة أخي رحمه الله، اسمع يا بني. هذه الدكان لك قدر ما هي لي. وأنت فيها صاحب أمر وتستطيع... قاطعه تميم هامساً:

- عمي، أريد أن أذهب إلى بيت الأستاذ راتب مأمون.

- ماذا؟ كسا الاستنكار سيماء سعيد منصور، لكنه تمالك نفسه وهمس لابن أخيه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أخاف عليك يا تميم من عيون المخبرين.

- سأذهب يا عمي، أريد خمسمائة ليرة.

- ماذا؟ خمسمائة ليرة!! ثم يتراجع سعيد من جديد عن استنكاره.

- حسناً يا ابن الغالي. يفتح أحد الأدراج ويخرج خمس ورقات من فئة المائة.

- هاك، وإن لزمك أكثر اطلب. اسمع يا حبيبي، سوف نجلس معاً بحضور أمك، هناك ما يجب تسويته. هل تذهب الآن؟

- نعم... أعطني لأتصل بأمي أولاً.

ورغم خوف مؤمنة من هذه الخطوة لكنها أحست بالاعتزاز، فولدها الآن يقتفي خطا أبيه في النخوة والشهامة، لكنها طلبت منه أن يأخذها معه، ومن أمام محطة الأزبكية ركبا سيارة تاكسي أقلتهما صعوداً إلى الصالحية فالطلياني حيث استدل تميم سريعاً على المنزل الذي عرف موقعه من راتب مأمون حين كان في بيت العمارة.

حين أخبرت عزة مأمون أمها بأن تميم منصور وأمه في غرفة الضيوف أحست المرأة بالحرج الشديد، فقد أقعدتها أحزانها عن واجب المواساة تجاه هؤلاء الناس الذين خاطروا بإيواء زوجها الحبيب، والذين خرج من مخبئه ليقدم لهم العزاء بصديقه العزيز جداً عندما قبض عليه وسيق إلى المزة. كان عليها أن تقصدهم وهاهم قد جاؤوا ليواسوها على

قلة من يجرؤ على القدوم. دخلت تتقدم ابنتها فاستقبلتها مؤمنة بالعناق الذي تحول إلى مواساة ودموع بين الاثنتين. ثم صافحت تميماً مقدمة له العزاء الذي تأخر. كان لدى أم عزة الكثير لتقوله عن أحاسيس راتب مأمون تجاه عبد المالك وتجاه تميم. وكان عند تميم إكبار لذلك الرجل الشجاع الذي قدّم واجبه على حرصه فأسلم نفسه لزبانية المباحث. كانت عزة تستمع وهي خجلة، سمعت من أبيها عن تميم في جلستين عند قريبة من أطراف العائلة اختفى لديها بعد أن ترك بيت منصور في العمارة، لم تكن جميلة، كان في وجهها ملامح أبيها الرجولية. وهي حين حدثها عن تميم تمنت أن ترى الفتى، بل رسمت له صورة في خيالها حاولت أن تجد مطابقاً لها بين الفتيان الذين ينتظرون الفتيات عند خروجهن من المدرسة، لكنه الآن أمامها بوسامته وحسن شكله. سيكون بعيداً عنها ولن تستطيع أن تعتبره ثانيةً فتى الأحلام، كانت خجلة من أفكارها السابقة وليس لأنها خجول بطبعها. وعندما سألها عن الدراسة فاجأها لكنها أجابته بهدوء، وقبل أن تنتهي الجلسة قال تميم:

- يا خالة، لقد خشي الأستاذ أن يقبضوا عليه حين كان في بيت العمارة وأن يأخذوا ما يملك من أوراق ومال فأعطاني قسماً مما كان معه ولم تسنح الظروف لي كي أرده إليه حين جاء معزّياً. والحمد لله أني لم أفعل لأنهم كانوا سيأخذونه منه.

دهشت المرأة وتميم يخرج من جيبه مظروفاً قديماً ويقدمه لها، وحين فتحته ورأت ما فيه لم تعد لدهشتها حدود، نظرت لابنتها باسمة ثم لتميم:

- لكنه، لكنه لم يخبرني عن كل هذا المبلغ... ثم... ثم من أين له كل هذا؟

- حين جاء كان معه مال، وهذا قسم منه. على العموم اكتبي يا عزة رقم هاتف المنزل، العم راتب هو بمقام عمي وإن لزمكم أي شيء. أي شيء، مال أو خدمة أو أي طارئ فسوف لن نقصر إن شاء

الله، أنتم أيضاً لن تقصروا إن لزمنا منكم شيء.

- معاذ الله يا بني.

- ورجاءً لا تؤاخذونا لأني أهملت وتأخرت عليكم بنقودكم.

في الطريق أمسكت مؤمنة بيد تميم وشدت عليها وقالت بصوت مخنوق:

- ابن أبيك يا بعد عمري، أنت ابن عبد المالك، ولو كان حياً لافتخر بك أكثر وأكثر.

أجل لم يعد هناك من يفتخر به، وهو نفسه يتساءل: بم سأفخر الآن؟

«8»

كمال راضي

معظم المتعلمين والذين منهم المثقفون طبعاً كانوا يتابعون بشغف أو بقلق أو برفض ما تقوم به المباحث في دمشق وبقية المحافظات. ولم تكن شلة كمال راضي بعيدة عن ذلك إذ أن الأصدقاء الأربعة لهم مشارب سياسية مختلفة لكن زمالة الثانوية جمعت ما فرقته السياسية والدراسة. كمال راضي الصيدلاني المتخرج من دبلن الإيرلندية والمؤيد لتحرير شمالي إيرلندا من الاستعمار الإنكليزي البغيض كان قريباً من النهج الشيوعي بحيث أن اعتقال راتب مأمون وبالشكل الذي تم به وبالأسباب التي سمع بها الجميع والمتعلقة بوفاة عبد المالك منصور. ذلك الاعتقال أخذ حيزاً كبيراً من سهرة الشلة في (قصر الباشا)، وقصر الباشا هو غرفتان ومطبخ وحمام في قبو بناية من بنايات المزرعة ذات شقق ست، الاثنتان اللتان في الطابق الثالث هما مسكن كمال راضي وأسرته، والشقق الأربع الباقية مأهولة بأناس من ذوي الدخل المتوسط والمرتفع، البناء أصلاً لوالد كمال، بالأحرى لكمال لأن أباه أنشأ البناء لولده انتظاراً لعودته من بريطانيا العظمى حاملاً شهادة الصيدلة التي كان قادراً على تحصيلها في دمشق لكن شطط كمال جعله يذهب إلى أوروبا ليدرس. ولذلك الشطط قصة يعرفها زملاء الدراسة جميعاً. لأن كمال راضي القادم من ريف دمشق والذي يملك أبوه وعمه البساتين والمزارع قد تزوج ابنة عمه سامية بعد أن تقدم لامتحان الثانوية وقبل ظهور النتيجة. هكذا أراد أبوه وعمه، وأرادت سامية بالطبع. ورغم أنها أكبر منه بسنة وتسعة أشهر واثني عشر يوماً لكنها كانت منذورة له، بالأحرى كان هو على اسمها منذ ولد، والصحيح أنها كانت جميلة

بمقياس ما لأنها ذات وجه - سبحان الخالق - تارة هو كرغيف الخبز وأخرى كقرص الجبن وغالباً مثل القمر ليلة التمام. وسامية أيضاً متعلمة إذ تقدمت للابتدائية مرتين في المدرسة وثالثة بدراسة حرة ولم تنجح. إنما لماذا تلزم لها الشهادة، إن ثلث أرض أبيها وبساتينه ستكون لها بعد أن تتزوج من ابن عمها كمال الذي سيرث ثروة عمها الكاملة. وكمال لن يرفض رغبة أبيه الذي لم يرفض له طلباً منذ وعى على الدنيا إثر وفاة أمه بحمى النفاس عقب ولادته، كما أنه لن يهين عمه تاج الدين كبير الأسرة حين يدير ظهره لابنة عمه الموعودة به. عدا عن أن أم (رشيد وسامية) زوجة عمه هي التي ربته واعتنت به وبأبيه، والأهم من كل هذا وذاك والذي لم يعرف به أحد سواهما. كان بين كمال وسامية ما يكون بين الأزواج منذ نال الشهادة الإعدادية. حدث ذلك كسياق طبيعي لما بدأ حين كان صغيراً وهو يتلقى قبلات سامية. ثم حين وعى وبدأ يحب الالتصاق بها. ثم حين استجابت هي لنداء مراهقتها مع الزوج الموعود وسمحت له بأن يعبث برمّان الصدر وما دون ذلك، لكنها بحرص المتعلمة من السينما والحياة والأم التي كانت تستريب بهما حافظت على بكارتها وعلى انشداد كمال إلى الجسد الأبيض الممتلئ. وحين فاتحه أبوه بأن عمه يستعجل الزواج وأنه هو يرغب في أن يرى له أحفاداً قبل أن... أدرك كمال أنه سيتزوج قبل أن يبلغ العشرين فاشترط أن يذهب للدراسة في أوروبا على أن يترك سامية خلفه فيأتي هو زائراً كل ستة أشهر وتذهب هي مع أبيه بعد ستة أشهر، كان ذلك ميسوراً من حيث المال لكنه كان عسيراً على أبيه لأنه سيفتقده، وعلى سامية التي ظنت أنه سيدفئ فراشها كل يوم، لكن اشتراطه ذلك لإتمام الزواج أو الانتظار لحين إنهاء الدراسة أدى ذلك إلى قبول أبيه وعمه وسامية، وهكذا تم الزفاف الذي حضره يومها أفراد الشلة، وبعد نجاحهم في الثانوية التي أعلنت نتائجها إثر زفاف كمال، التقوا لوداعه وقد اختار كل منهم طريقه، عزيز نصري سيدرس الأدب العربي، أنور حداد في

العلوم، وجميل مسعود في كلية الحقوق أما كمال فسوف يغدو صيدلانياً.

عاش كمال في دبلن أربع سنوات ونصفاً انقضت أواسط عام 1955 وقد أخذته الحياة في العاصمة الإيرلندية إلى مسارات شتى بحيث عاش حياة بهيجة بمعنى الكلمة بين أصحاب من الإيرلنديين والأغراب، وبين صديقات اكتشف فيما بعد أنهن كن جميعاً بيضاً حساناً حمر الشعور، واستطاب طعم الويسكي والجن والبراندي واستمرأ السمك والبطاطا والنقانق والشرائح الرقيقة والسميكة. وأمطر أباه بعلب الشاي وتبغ الغليون وأقمشة التويد، وتنوعت عطور سامية وخزانة ثيابها. وانقضت السنون والحاج عطا راضي يمهد ليكون كل ما يطلبه أو يتمناه كمال طوع أمره حين يعود، اشترى محضراً في المزرعة وبناه فاتحاً الطابق الثالث في بلاطة واحدة. وباع شقتي الطابق الثاني وأجّر شقة من الطابق الأول لطبيب كي يقيم فيها عيادة والشقة الثانية لمهندس أنشأ فيها مكتباً أما القبو فقد ترك فيه فسحة شجّرها وغرس عريشة أقام لها منصباً لتعرش عليه وبنى قسماً من القبو ليكون مقرّه وسكنه حين يأتي إلى دمشق، واستأجر في أحد الأزقة المفضية إلى شارع العابد والواصلة إلى الطريق الواصل بين بوابة الصالحية والسبع بحرات والمعروف بشارع 29 أيار. استأجر كراجاً منذ سنة ثم اشتراه من الورثة بعد موت صاحبه وجهز له كل ما يلزم من أثاث وخزائن وفرش ليكون صيدلية وحيده الغالي كمال، وصحب سامية وأخاها رشيداً إلى باب توما حيث أوصى على معظم فرش البيت الذي أعده لكمال، وملأه بالأجهزة الكهربائية من براد وغسالة وراديو ومكواة ومكنسة سجاد وهاتف كل ذلك فاجأ كمالاً حين عاد. عانق أباه مطولاً وقدم له شهادة الصيدلة التي قبّلها أبوه قائلاً: بيّضت وجهي ورفعت رأسي. أنت أول واحد في العائلة يحرز شهادة من الجامعة. وليس من أي جامعة، إنما من بريطانيا العظمى ذاتها. وأنت أول صيدلي من البلدة كلها، وأنت يا كمال تستحق كل قرش صرفته.

تفقد كمال أصحابه، كانوا على اتصال خلال السنوات الماضية،

يعلم أن عزيز نصري قد غدا معيداً في كلية الآداب وأن جميل مسعود يتدرب في مكتب محام وأن أنور حداد قد غدا صائغاً ولم يكمل دراسته لأنه اضطر لأخذ مكان أبيه في دكان الصياغة في سوق الصاغة إثر وفاة الأب، كان كمال وأنور من الميسورين بين الطلاب لذلك حين التأم شملهم كرباعي في أواسط الخمسينيات كان لكل من كمال وأنور مورد رزق وفير وكان لعزيز وجميل الفرصة دائماً كي يسخرا من هذين الوارثين اللذين لم يتعبا في الجني وأعطتهما الحياة ما يشاءان. والطريف في تلك الشلة أن السياسة لم تفرّق بينهم رغم أن مواقعهم فيها كانت متباينة جداً، كل من عزيز نصري وجميل مسعود كان بعثي الهوى، وأنور كان من السوريين القوميين، أما كمال فإنه اقترب من الشيوعيين لأن الصديقة التي عايشها طوال تسعة أشهر في دبلن كانت شيوعية من الدانمرك في ختام سنتين من دراستها كممرضة. وبعد أن غادرت وجد نفسه يقرأ صحيفة الشيوعيين الإنكليز ويستغرب كيف أنه يجد قبولاً في نفسه للفكر الماركسي وهو الثري رغم أن الثروة جاءت عن طريق ملكية أبيه لأرض زراعية خصبة وبساتين مثمرة وعقارات تحولت إلى أبنية في أطراف البلدة.

كانت دمشق في أواسط الخمسينيات تنبض سياسة وتتنفس سياسة إثر تحالف بين مجموعة خالد العظم والبعثيين الاشتراكيين وبعض المستقلين والنائب الشيوعي الوحيد خالد بكداش، وحين اندحر العدوان الثلاثي وصلت حرارة الجو السياسي إلى معدلات عالية جداً، كان كمال يفاخر بإنذار بولغانين، وكان البعثيان عزيز وجميل يتغنيان بمآثر القومية، أما أنور حداد فكان يبتسم ساخراً ليقول: الله يشفيكم، لحست أحذية الضباط عقولكم. فهذا كمال يسعى خلف الأممية عابراً نحو موسكو تخوم آسيا، وأنتما استبدلتما الأردن ولبنان وفلسطين والعراق بإفريقيا السمراء. ولم تكن هذه المواقف لتنعكس سلباً على سهرة الطرنيب ولا على حليب السباع ومائدته الأسبوعية فقد كانت ليلة الجمعة لسهرة

الطرنيب وليلة الأحد لسهرة الطعام والشراب، كانت الثانية في المطاعم والمتنزهات حتى استضافهم أنور في بيته بعد شهرين من زواجه، وهكذا حين مدت الطاولة كان للمازة الموضوعة والأطعمة المنوعة والمشهيات المختلفة أكبر الوقع في نفوس الشاربين واستقر الرأي على أن يستضيفهم أنور مرة في الشهر، عندها عرض كمال أن يكون قبو بيته مكاناً للسهرتين إلا إذا كان أبو كمال في القبو، وهكذا ومنذ دخله الأربعة وتجولوا في القبو قال عزيز نصري: هذا بالنسبة لبيتي قصر، وهو يصلح لباشا بحاله، وعندها اكتسب قبو كمال اسم قصر الباشا.

لم يطل الأمر، كأن الحاج عطا قد أدّى كل ما عليه، كل شيء كامل وفي أتم صورة، بساتينه، أشجاره، نقوده السائلة في البنك. خزنة الحديد المموهة في قبو المزرعة، كل شيء كما خطط وأراد إلا الأحفاد، لم يكن وهو يلح على سامية بأن تحمل، ثم بأن تزور الطبيبة في دمشق أو في لندن ودبلن، لم يكن يتصور أن ولده (كمال) قد أمرها بألا تنجب قبل أن يعود ويستقر، لم يدر أحد بذلك حتى أمها أو صديقتها وزوجة أخيها لمياء. قطعت بذلك عهداً لكمال قبل أن يغادر إلى دبلن في المرة الثانية، فقد عاد إلى دمشق بعد خمسة شهور من مغادرته، وقضى معها أسبوعين أخذ فيهما ذلك العهد، صحيح أنها حاولت أن تحتج وأنها بكت مراراً أمامه، لكنه كان جازماً بهذا الشأن فانصاعت وتحملت الكثير عبر السنوات، لكنها ما إن تغلق عليها باب الغرفة في البلدة أو في دبلن مع الزوج الحبيب حتى تنسى كل المرارات، وحين بدأ يطلب منها أن تفعل هذا وذاك أثناء الوصال صدقت ما زعمه عن كتب يقرأ فيها وتعلم الأزواج بالتحديد كيف يستمتعون في السرير، وقد أعجبها معظم ما كان يعلمها إياه حتى الذي لم تكن تظن أو تتخيل القيام به، لذلك ودون أن يدري كمال فقد حرم بنفسه أباه الذي أعطاه كل شيء، حرمه من أعز مطلب لديه وهو أن يرى له حفيداً يدرج في بيت المزرعة الدمشقي أو مزرعة الجدَيْدة المعروفة باسم جديدة الشيباني في وادي بردى وفي

الرابعة والخمسين من عمره وهو في تمام عافيته وأثناء سماعه نشرة أخبار لندن صرعته النوبة القلبية الصاعقة غير آبهة بكل المسرات التي كان يحلم بها ويتوقع حصولها.

كانت فاجعة كمال راضي بالحاج عطا كبيرة جداً إذ كان بينهما رباط وثيق من الحب والمودة الحقيقية، كأنهما كانا صديقين حميمين، وبعد أسبوعين زادت تلك المرارة حين أخبرت سامية زوجها بأنها حامل، تمنى كلاهما لو أن ذلك حدث قبل حين ولكن الأمنيات لا تعيد ترتيب الأحداث، كان كمال يعلم مدى رغبة أبيه بالأحفاد لكنه لم يكن يقبل أن تلد سامية وأن ينمو طفله وهو بعيد، كما أنه لم يخطر بباله أو ببال سواه أن الحاج عطا يمكن أن يموت هكذا ببساطة ولو أن الموت حق على الجميع، تلك المرارة سوف تلازم كمال راضي طوال حياته، فأبوه لم يتسع له الوقت ليفرح بقدر الآمال التي كانت لديه، وهذا القبو الذي أثثه بقصد الاستراحة لم ينزل به إلا قليلاً وورثه أصحاب كمال الذين أحبهم أبوه وبادلهم المودة والمزاح في حياته وترك لهم ملاذاً إثر مماته.

اعتقال راتب مأمون إثر خروجه للعلن من مخبئه كي يؤدي واجب العزاء بعبد المالك منصور أثار موجة استياء في نفوس الشلة، هذا الاستياء كان إنسانياً عند أنور حداد، وكان أخلاقياً عند عزيز نصري، وكان سياسياً عند كمال، أما جميل مسعود فقد قال: تعالوا نتفق على شيء: أنت تعارض وتوزع المنشورات وتدعو لإسقاط النظام وتروّج ما هو حقيقي أو شائعة، فهذا له رد فعل متوقع أينما كنت من العالم الفسيح. أنت تأخذ لنفسك حق المعارضة والرفض وعندها لا تستطيع أن تأخذ حق العيش بأمان مع هذا النظام أو ذاك. قال عزيز نضري: تريد أن تقول إن المرء لا يستطيع أن يجمع بين شرف المعارضة ونعمة الأمان.بهذه البساطة لخّص معيد اللغة العربية ما كان المحامي جميل مسعود يريد قوله ولم يستطع إيجازه رغم أن الإيجاز من وسائل المحامين والإطناب من مآثر الأدباء، كانت صيدلية العطاء كما غيّر اسمها كمال تمسكاً بذكرى

أبيه قد أخذت تعطيه دخلاً كبيراً يضاف إلى مردود الزراعة والبساتين وفوائد الإيداعات، وكان لديه باستمرار ما لا يقل عن خمسين ألف ليرة سورية في خزنة القبو. وكان أنور أيضاً ميسوراً وكذلك غدا جميل مسعود باعتباره محامياً تشارك مع كهل من المحامين البارعين سبق أن كان وزيراً في الأربعينيات لمدة شهرين ونيّف. أما عزيز نصري فلم يكن ذا دخل وفير لكنه موعود ببعثة لنيل الدكتوراه كما أنه يشتغل في دار نشر كمصحح. ووحده أنور حداد كان يملك سراً مفتاحاً للقصر. أنور شأنه شأن كمال تزوج صغيراً من ابنة شريك لأبيه في دكان الصياغة. لم تكن البائنة وحدها سبب قبوله بل أيضاً وحدة الانتماء فقد كانت مثله من القوميين الاجتماعيين لكنه كما همس لكمال حين طلب منه نسخة لمفتاح القبو: يا أخي الواحد يتمتع بكنز الذهب، ويتحمس للمبادئ، لكنه لا يتصبب على الأساور والخواتم، ولا يحضن المبادئ. كانت له صديقة، قال عنها سهواً ذات مرة إنها زوجة زميل في السوق - كان يخجل - فبرأيه لا يحق للقومي الاجتماعي مثل هذا السلوك.

ولم يكن اسم الصيدلية التعبير الوحيد عن تكريم الحاج عطا. الحفيد الموعود وبكر أولاد كمال كان اسمه عطا، وتلته إثر قيام الوحدة كنانة ثم قبل شهور رزق كمال بنورا، ورغم محاولاته المستمرة في أن تحافظ سامية على لياقة جسمها إلا أنها كانت تفشل باستمرار وتكتنز وتتكور مطمئنة إلى أن زوجها لا يمكنه الاستغناء عنها مهما قست ملاحظاته وزاد تهكمه. كمال بدوره كان يحن لماضيه الإيرلندي. وهو حين يلمح شعراً أحمر يتملكه إحساس باللهفة والفضول حتى يرى الوجه، وطيلة سنتين من عمله في الصيدلية كان يشتغل وحده، لم يكن يعطي الإبر تحت أي ظرف كما يفعل بقية الصيادلة، وأول مرة فعلها كانت الأخيرة لأنها كانت أشبه بالإسعاف وكان هو الصيدلي المناوب والوقت قبيل آذان الصبح والوالدان اللذان يحملان طفلاً يعاني من التجفاف لم يقبلا عذره. وهكذا سأل أصحابه في أول جلسة تلت ذلك

عن أحد يمكن أن يعمل في الصيدلية، وخلال أسبوعين كان (مطاع الحلبي) الفلسطيني من مخيم اليرموك ابن الخامسة والثلاثين يعمل في صيدلية العطاء. كان قد خدم في الجيش السوري كممرض في مشفى ميداني في الجبهة السورية الفلسطينية وكان رجلاً صموتاً طويل البال له ستة عيال، يحسن التعامل مع الآخرين وصنع القهوة وإعطاء الإبر. أتيح بوجوده الوقت لكمال كي يقرأ الصحيفة وكي يسمع الأخبار، ثم خطر له أن لا ينقطع عن القراءة الأدبية بالإنجليزية. اشترك بجريدة ثم اكتشف أن بالقرب منه المكتبة الأمريكية في شارع 29 أيار قرب السبع بحرات وهكذا بدأ الماركسي الثري الصيدلاني كمال راضي بالتردد على مكتبة أمريكية في وسط دمشق حين كان عبد الناصر يصرف وزراء حزب البعث من السلطة. وكانت المكتبة أرض معرفته بالأمريكي التكساسي القادم من واشنطن دي سي المستر أندرو براون.

«9»

الشمس والزيتون

اجتاز الأمن العام بسهولة ويسر، لكن حقيبته تعرضت لتفتيش دقيق، وجوه هؤلاء القوم بالغة التنوع واللون، يطغى عليها اللون الأسمر فعلاً إنما بملامح خاصة، المهاجرون من المكسيك في تكساس سمر أيضاً إنما بملامح تخلط بين الهنود الحمر والأفارقة السود. هؤلاء بيض بطريقة ما، ولأن رئيسهم جمال عبد الناصر يهاجم أمريكا فقد كان يتوقع منهم جفاءً وحتى خشونة، خاصةً وأنه لا يحمل جوازاً دبلوماسياً، ومع ذلك فقد أثار وصوله على الطائرة البريطانية انتباه بعضهم ولامبالاة بعضهم الآخر. لكنه لم يلمح أي مظهر من مظاهر العداء، وحين خرج حاملاً الحقيبة والهاندباك وجد أمامه بروس تالبوت وبجانبه شاب من هؤلاء القوم، شد تالبوت على يده مرحباً فيما تناول الشاب الحقيبتين ومضى بهما إلى سيارة ميركوري سوداء. سأله بروس عن رحلته، ثم نبهه إلى أنه قد خسر يوماً كاملاً باتجاهه إلى الشرق، لذلك فأن ساعته البيولوجية سوف تستغرق أسبوعاً على الأقل لتنسجم مع التوقيت المحلي.

- تصور، بين دمشق هنا وبين الشاطئ الشرقي من الولايات المتحدة فرق لسبع ساعات بالتالي فهي عشر ساعات مع الشاطئ الغربي.

- هل يزرعون الصبار هنا بهذه الكثافة التي تبدو لي؟

كان هذا أول تعليق لأندرو براون والسيارة السوداء تدرج من مطار المزة الصغير نحو الربوة مروراً ببلدة صغيرة أشبه بقرى الجانب المكسيكي من الحدود مع تكساس. أين هي دمشق هذه التي قرأ أنها من أقدم المدن المسكونة في العالم. حضارة سبقت الأديان السماوية والامبراطوريات الكبرى. إنما هذا الشارع العريض الممتد من الربوة

نحو الساحة التي عرف فيما بعد أنها ساحة الأمويين. هذا الشارع بأشجاره الباسقة الوارفة جعله يسترخي قليلاً ويشعل سيجارة بينما تدور الميركوري السوداء في ساحة الأمويين ثم تتجه محاذية لمبانٍ عليها أعلام وصور ويحرسها جنود مسلحون.

- تلك هي السفارة - قال بروس - المكتبة في وسط المدينة، إن مبنى السفارة في حي راقٍ بينما المكتبة في موقع مناسب، سوف ترى.

- والسكن.

- اطمئن، ليس بعيداً عن المكتبة، وكذلك عن بيتي، بيننا مسير دقيقتين ويفصلنا عن المكتبة مسير دقيقتين أيضاً.

المكتبة؟! حين سأله رئيس المستخدمين إن كان يقبل بالسفر إلى دمشق ذهل فعلاً مع أنه كان يتوقع أن شيئاً ما سيطرأ ويغير له حياته وسوف يكون مرتبطاً بالمنطقة العربية، كان يظن أن الأجهزة السرية أو الخارجية تنتقي رجالها هكذا بعد دراسة متأنية، ثم يدرسونهم لغة البلاد التي سيرسلون إليها. ألم تلتحق جودي بدورة اللغة الألمانية؟ صحيح أنها من الجسم القنصلي لكنه هو أيضاً من الخارجية، وحين كان الشراب يجعله يمتطي صهوة الخيال كان يرى نفسه عميلاً سرياً في الصحراء أو مندسّاً في مقاهي كازابلانكا مثل همفري بوجارت، ولو أنه كان يفضل النيل والأهرام، إذ أن القاهرة كانت في نظر واشنطن بؤرة العداء للأمريكيين، وهذا يعني أن لها ثقلاً سياسياً وحضارياً. ورغم المفاجأة قال لرئيس المستخدمين بأنه سوف يرد عليه في اليوم التالي.

- جودي، يريدون أن يرسلوني إلى دمشق.

- دمشق سوريا يا أندرو؟

- دمشق الجمهورية العربية المتحدة التي يحكمها المصريون وعبد الناصر.

- عظيم، عظيم جداً يا أندرو، إني أحسدك.

- ولكن.. أنت في وسط أوروبا.. بون مركز الأحداث.

- للأسف وصلت إلى ألمانيا يا آندي فرأيتهم يلبسون الجينز ويؤدون رقصاتنا، أنت تعرف أن الثقافة هي ثقافة المنتصر المهيمن. ونحن هزمنا الألمان، معظمهم يريد أن يكون أمريكياً، والآخرون منطوون وعندهم حقد على المنتصرين. علينا وعلى المعسكر الشرقي، إنما.. اسمع يا أندرو، ستكون قريباً مني الآن. بين بون ودمشق طيران أربع ساعات فقط وربما خمس، سوف نزور بعضنا ما رأيك؟ هل اشتقت إلي؟

- لقد أفسدت حياتي يا جودي، إن لم يكن في المرأة بعض من رائحتك فإني سرعان ما أنفر منها.

- هاهاهاها....

لم يكن أندرو متردداً، بل كان يبحث عن مسوغ آخر غير ابتعاده عن كل ما عاشه وعرفه سابقاً من أبيه المتعصب وأمه الخانعة إلى سو ماكينزي فلاتشر إلى هذه الضاحية الفقيرة التي يعيش فيها لحاقاً بكل المطاعم والحانات. سوف يذهب إلى حيث لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد إلى مجتمع وناس ومواقع لا يدري عنها أي شيء. كان عليه أن يدري الآن إنما بشرط واحد: لن يكون عميلاً لأحد أو جهاز أو إدارة.

- هذه حماقة - قال رئيس المستخدمين - لماذا سيأخذون واحداً مثلك ليس له خلفية مناسبة؟ هل تلقيت تدريبات؟ هل اتبعت دورات؟ بالطبع لا. لماذا تتوهم أن أحداً اختارك لتكون عميلاً؟

- ماذا سأعمل إذن؟

- كما تعمل هنا، في مكتبة.

هي إذن مكتبة، ينتقل من واحدة إلى أخرى على بعد آلاف الأميال في ذلك الشرق الغامض والذي صورته بعض الروايات بشرق الحريم والبخور والجواري الفاتنات. والذي انقلب فجأة إلى شرق النفط والصراع العربي - الإسرائيلي على الأرض والماء، وفردوس العملاء والجواسيس والمؤامرات إنما الأصل هو أنه ذاهب إلى مكتبة، مكتبة من؟ ولمن؟ لا يهمه.

- أريد إجابة مكتوبة يا مستر براون.

- حسن أنا مستعد للذهاب.

- وتقبل بكل ما يفترضه ذلك؟

- مثل ماذا؟

- عليك الالتحاق بدورة مكثفة للحوار والمحادثة، وستحضر دروساً في الجغرافيا السياسية والديموغرافية لتلك المنطقة.

- سأفعل.

هذه المرة كان واثقاً من أن السي آي إي (CIA) هي صاحبة الموقع الذي استضافه، كان هناك ليسمع ويتكلم وباللغة العربية فقط. لم يسمع كلمة بالإنكليزية إلا حين يغضب المدرب فيقول تلك الكلمة الشهيرة: هراء أو شيء مماثل. كان على أندرو براون أن يعيش حياة كاملة مستخدماً العربية وحسب. فإن كان الدرس عن التسوق عرضوا عليه عرضاً تلفزيونياً من داخل أحد الأسواق وطلب منه أن يتسوق باللغة العربية وفي التاكسي ودار السينما والشارع العام والمكتبة والنايت كلوب. باختصار اختزلوا ما تخيلوه عن الحياة اليومية وجعلوه يعيشها. وبعد أسبوعين كان عليه أن يستمع من أحدهم عن الحياة السياسية في دمشق وكان ثمة عرض لمقاطع سينمائية، وفهم أن ذلك البلد حين تخلص من الاستعمار الفرنسي أواسط الأربعينيات وجد نفسه في مواجهة مع جيش المنظمات الإسرائيلية، ثم بدأ مسلسل الانقلابات العسكرية، كان واضحاً أن بعضها لم تكن دولته بعيدة عنه، ثم تحولت لهجة المدرسة إلى شحنة عداء مكتومة حين وصل الأمر إلى قيام وحدة مصر وسورية. كان الحديث عن عبد الناصر وديكتاتوريته وعدائه للديمقراطية فيه بعض المرارة لكن ثمة شيئاً في الأفق، إن عبد الناصر قد استخدم في إقليمه السوري قوة الأمن للبطش بالشيوعيين وهذا جيد لكنه سيبطش أيضاً بأنصاره السابقين وهذا أيضاً جيد، الأهم أن ذلك سيخلق عداءً تجاهه وتجاه نظامه وحتى تجاه المصريين مما يبشر بالخير. إن عبد الناصر

مسؤول عن تهديد حلفائنا هناك، وهو معادٍ شرس لصديقتنا إسرائيل واحة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط.

لقد وضعوه إذن على السكة، كان أندرو يضحك في قرارة نفسه، إنه يعرف عن غسيل الدماغ هذا ربما أكثر من مدرسه، وهو الرافض لقيم أبيه الأمريكية الأصيلة وللقيم المحافظة كلها لم يكن ليرضى أن يشكل موظف موتور قناعاته، لكن آخر أيام الدورة المكثفة جاء حافلاً بالغريب والطريف، وجد نفسه مع اثنين من الأمريكيين من أصل سوري ومن مدينة دمشق. الشاب كان مهندساً حصل على الماستر من أمريكا واستقر وتزوج من أمريكية وحمل الجنسية الأمريكية، والشابة كانت طبيبة في آخر سنوات اختصاصها وهي زوجة منذ ثلاث سنوات لطبيب أمريكي سوري في ضعف عمرها كما علم لاحقاً. كان عليهما أن يحدثاه عن دمشق والحياة الاجتماعية والثقافية فيها، عن الناس وما يلبسون ويقرؤون ويأكلون، اكتشف أندرو أن الشاب غدا أمريكي الهوى والحياة وأن الطبيبة يقتلها الحنين لدمشق وأنها غير سعيدة بحياتها مع الزوج الذي يكبرها عمراً وخبرة وموقعاً والذي غدا أيضاً أمريكي الهوى. وحين تعاطف معها وربت على يدها ابتسمت.

- عليك هناك أن تنسى هذا التعاطف، على الأقل الملامسة، ليس هناك عناق وغالباً ليس هناك مصافحة باليد بينك وبين النساء.

- هل النساء هناك جميلات مثلك؟

- هاهاها.. انس أيضاً اللباقة والمجاملة من هذا النوع وإلا ستجد نفسك تعيش مآزق خطيرة.

أحس أندرو أنها قريبة منه بحيث يسألها عن كل ما يدور في خاطره وكذلك فعل، عرف عن تعدد الزوجات وكيف ولماذا ومن يفعل ذلك. دهش حين علم أن هناك مسيحيين في سورية وحتى يهوداً، وأن بعض المسيحيين هم من القادة السياسيين والاجتماعيين. علم أن هناك أناساً متدينين لكن الدين لا شأن له بحياة الناس وأن قوى التنوير قد سيطرت

منذ أواسط الخمسينيات، وسأل عن الشيوعيين والشيوعية، علم أن النظام يحاربهم بشدة لكنهم موجودون، وعلمه المهندس الشاب بحيادية تامة خارطة القوى السياسية. كان الحديث يجري بالعربية والإنكليزية مع الاثنين، وحين جاء الوقت لتنتهي الدورة تمنت الطبيبة له التوفيق في دمشق ووعدته بزيارة المكتبة إن زارت بلدها.

أخيراً وضع نفسه تحت تصرف رئيس المستخدمين مجدداً وقد منحه هذا إجازة لمدة أسبوع إنما بعد أن يلتقي رئيسه المباشر في دمشق، وشعر أندرو بالتوتر إذ أنه سيلتقي بمن سوف يعايشه ويرأسه في تلك البلاد وكم كانت المفاجأة حين دخل إلى حيث كان يجلس بروس تالبوت خلف مكتب وثير وأمامه حقيبة جلدية صغيرة.

- لا تقل إنك فوجئت يا مستر براون.

- ناداني أندرو يا سيدي، وأنا قد فوجئت تماماً إنما مفاجأة سارة، واعلم يا سيدي أنه يشرفني أن أعمل معك هنا أو في أي مكان.

- سوف أكون الملحق الثقافي يا أندرو، وقد اخترتك قبل وقت طويل.

- يدهشني يا سيدي أن رأيك بي طيب على عكس رأي معظم الموظفين.

- لأنهم لا يعرفونك كما أعرفك، خذ هذه الحقيبة، إن فيها خارطة وصوراً ومقالات وبعض الكتب، أعرف تماماً أنك سوف تطلع على كل شيء باهتمام فهذا هو طبعك الذي لا أجهله، سوف أسبقك بشهر على الأقل، إني مغادر بعد يومين، وحين تصل سيكون كل شيء جاهزاً.

أجل، بروس تالبوت لابد أنه جهز كل شيء، هكذا طبعه أيضاً، كان سروره بالغاً حين خرج من مكتبه، وقضى أسبوع الإجازة في شقته مع إحدى بنات تكساس ولايته، طويلة ممشوقة بالغة البياض والشقرة في سنتها الجامعية الأولى. تعمل نادلة في مطعم قريب من إدارته. لم تبلغ الثامنة عشرة بعد، أثارت براءتها المرسومة على وجهها غريزة الصياد

فيه وهكذا دعاها أول مرة للخروج فاعتذرت بحجة الدراسة، وفي المرة الثانية قالت إنها مرتبطة، وحين حدثها بلهجته التكساسية ودعاها إلى عشاء تكساسي في مطعم فخم انهار ترددها فتأبطت ذراعه وأكلت بشهية بالغة وشربت زجاجتي بيرة وكأسي بوربون ثم رافقته إلى شقته، وسقطت سمة السذاجة والبراءة سريعاً وهي تمنحه وصالاً ممتعاً وجنساً باهراً لابد أنها اكتسبته في سهول تكساس المترامية الأطراف ولم تخف عليه أنها منذ كانت في الثانية عشرة فقدت عذريتها مع سائس خيل كهل في مزرعة أهل أمها ولم يخجلها أن تعترف بأنها هي التي أغرت العامل الكهل حينها والذي كان في الخامسة والعشرين أي في ضعف عمرها. تكفلت باميلا بالمشتريات طيلة الأسبوع أما هو فكان يهضم محتويات الحقيبة، طالعته الصور بمظاهر مختلفة للحياة الدمشقية، ورأى الآن صور أبواب دمشق وقلعتها والجامع الأموي وقلعة حلب ومدرج بصرى، رأى صور المتنزهات الشعبية والنهر الذي قطع دمشق. إنه لا يستحق أن يكون رافداً صغيراً من روافد البوتوماك. أمضى أندرو براون الأسبوع في شقته يأكل ويقرأ ويعابث باميلا التي لم يخبرها بأنه راحل خلال شهر، لذلك فاجأه أن تتحدث عن رغبتها في العيش معه، تذهب إلى الجامعة، وتعمل في المطعم، وتقضي بقية اليوم مع أندرو.

في السيارة التي تقله إلى بيت بروس تالبوت لأن شقته لن تكون متوفرة حتى مساء الغد رأى أندرو العديد من الفتيات، معظمهن سمراوات، ثيابهن عادية وغير أنيقة، القليلات يرتدين الجينز. لا أحد يرتدي تي شيرت، لا أحد بينهن يشبه جودي أو باميلا أو سو ألين ماكينزي.

- باميلا، أنا لا أرفضك إنما.

- إنما.. إنما ماذا يا أندرو؟ بسبب صاحبة الصورة والرسائل.. جودي؟

- لا علاقة لجودي أو لسواها بالأمر.. اجلسي واهدئي.. بعد ثلاثة

أسابيع سأغادر.

- تغادر إلى أين.. إلى أرلنجتون؟

- بل إلى الشرق.. إلى سورية.. دمشق.

لـم تصـدق الفتـاة أول الأمـر، لكنهـا حين أدركـت أن قراءته لتلك الكتب وتحديقه إلى تلك الصور والخرائط إنما كان تمهيداً لذلك السفر أحسـت بالغصـة فـي صدرهـا. ربمـا كان أنـدرو أول ذكر لا يسـتغلها إلا بقدر ما تستغله. السابقون كانوا طلاباً كباراً أو عمالاً أو أناساً لا تعرفهم تصحو بعد ليلة من الشراب هنا وهناك في أماكن لا تذكر أنها دخلتها، الأب بعـد أن يئـس مـن التفاهـم مـع أمهـا الحسـناء كثيرة العشـاق هجر البلـدة، والأم تحـب الرجـال والشـراب وهكـذا كانـت باميلا، لقد نجت من اعتداءات كانت يمكن أن تقع وهي طفلة جميلة مشرقة، ولم تنتظر كثيـراً حتـى أوهمـت رامـون سـائس بيـت جدها أن آخرين سـبقوه إليها، عشـقت سـمرته وجسـمه العضـل وانصيـاع الخيـل له. ثم تـلاه آخرون، وبمنحة رياضية وصلت إلى الجامعة في واشـنطن دي سـي، قررت أن تغير حياتها. لم تكن مسـتعدة لعلاقات كما التي عاشـتها في تكسـاس، حافظت على نفسها حتى جاءها هذا الأندرو اللعين الذي جعلها تعشقه وهاهو يريد أن يغادرها.

- هل لك صديقة يا بوب. صديقة دائمة؟

- ليس تماماً يا أندرو. لماذا؟

قبل ليلتين من سـفره حدثها عن روبرت لونسـديل الذي سـيحتل مكانه في المكتبة، إنه شـاب لطيف جداً، أنيق وذكي وأكثر منه انفتاحاً علـى النـاس والحيـاة، وعدتـه بـأن تراه، أندرو لم ينتظر، اتصل بأبيه وأمه ليودعهمـا علـى الهاتـف، وحادث جـودي مطولاً، وفي المطار أوصلهما روبـرت وانتحـى جانبـاً ريثمـا قبلـت باميلا أندرو مطـولاً ودموعها تغرق وجهها، وحين التفت أندرو ليشير إليهما مودعاً كانت تبكي بينما روبرت يلوح له بيد ويطوق كتفها باليد الأخرى وهي تجهش على صدره.

- هذه هي المكتبة انظر.. في الطابق الثاني.

بناء على الأسلوب الكولونيالي من الحجر ونوافذ مسدلة الستائر وفي الطابق الأرضي مخازن ومحلات وتستمر الميركوري حتى ساحة مكتظة لا تبعد كثيراً عن المكتبة وتدور فيها لتعود من حيث أتت وتنعطف يميناً في طريق ضيق زرعت أشجار دائمة الخضرة على رصيفيه، وفي وسط الطريق هدأت السيارة من سيرها ليشير بروس إلى الطابق الأرضي من فيلا صغيرة:

- هنا سوف تسكن، الطابق الأرضي فيه شقتان، الصغيرة لك. غرفة نوم وصالة معيشة، هناك أيضاً مطبخ صغير وحمّام، أصحاب الشقة الثانية يعتنون بالحديقة، انظر للخلف. هناك. بمجرد خروجك من شقتك تستطيع أن ترى المكتبة. وانظر.. العمال يجهزونها لك.

- أين بيتك؟

وصلت السيارة إلى نهاية الطريق والتفت يميناً عائدة في طريق موازٍ للذي جاءت منه وتوقفت في ثلثه الأخير، كان الشارع الذي تقع فيه المكتبة غير بعيد إلا بنحو مائة متر. لابد أن شقته الصغيرة خلف بيت بروس.

- لا.. إن شقتك خلف البناء الذي يجاورني بعد بنايتين.

نقل السائق السوري الحقيبتين إلى داخل شقة واسعة تشكل الطابق الأول من البناء الذي هو في الأصل ثلاثة طوابق، كل الأبنية من الحجر إنهم لا يستخدمون الخشب هكذا فكر أندرو، أعجبته شقة بروس كان ثمة لوحة نحاسية عند الباب تذكر أن تلك الشقة هي سكن القنصل الثقافي للولايات المتحدة الأمريكية. وثمة صالة طعام واسعة فيها طاولة وثمانية مقاعد وخزانة بلوريات، غرفة جلوس من النوع الملفوف بالقماش لكنها مريحة جداً. وغرفة من ذات الطرازات الفرنسية.

- ستيل؟

- أجل إنها «لويكانز» لويس الخامس عشر.

- واو.. أهي أصلية. ويضحك بروس.

- ماذا تعني؟ فرنسية قديمة؟ لا.. إنها من صنع دمشق، لكن على النمط الفرنسي. اسمع خذ حماماً وبدل ثيابك ريثما يحضر لنا نبيل الطعام. نبيل... أبو كمال. اذهب الآن.

بعد نصف ساعة من الاغتسال والحلاقة وارتداء بنطال مريح وكنزة صوفية وجد أندرو براون أمامه مائدة حافلة بأشياء يعرفها وأخرى يجهلها تماماً. لفت نظره إلى أن ثلاثة أنواع من الزيتون كانت مرصوصة في صحون صغيرة بجانب العديد من صغيرات الصحون هذه والتي عرف فيما بعد أنها تدعى مازة وأنها تناسب العرق ذلك المشروب الذي استساغه سريعاً ومنذ الرشفة الأولى.

لم يواته النوم إلا في وقت متأخر جداً، أكلا سوية وشربا من العرق الذي فاجأ أندرو حين رأى بروس تالبوت يصب من زجاجة سائلاً هو ماء ثم حين يسكب عليه سائلاً آخر يصبح المزيج حليبي اللون. ضحك بروس وأخبره أنه فوجئ مثله حين رأى وأنه أعجبه حين ذاقه. إنه فعّال مثل الفودكا والتيكيلا، قال له: إن الحياة هنا هادئة جداً وإن المكتبة تستقبل الرواد ثماني ساعات، أربعاً بين التاسعة والواحدة وأربعاً بين الرابعة والثامنة.

- وبقية الوقت؟ يضحك بروس قبل أن يجيب.

- هنا ثمة وقت بعد الغداء لاستراحة وربما نوم اسمه القيلولة، اسمع هل عندك فكرة عن الحياة اليومية هنا.

- أعلم أنهم يأكلون ثلاث وجبات. أهي مثل هذه؟

انقضى اليوم الثاني وهو يستقر في شقته الصغيرة، أعجبته كثيراً، بناء متين ورائحة الدهان الجديد لاتزال في جو الشقة، لماذا المطبخ؟ إنما، إنما كيف سيحصل على قهوته الأمريكية؟ الحمام واسع، بانيو رخامي، شاوَرْ، التدفئة عن طريق ما سماه بروس الشوفاج، تضغط هذا الزر، يشتغل تسخين الماء وتدفئة الشقة، انظر، برادك جنرال ألكتريك

متوسط الحجم، فيه لحوم، وخضار مطبوخة. اسمع، سوف تتدبر أمرك، ثم إننا في وسط الحي الترفيهي والسياحي والمطاعم ومخازن الثياب، هناك عدة بارات سأدلك عليها، لقد اكتشفت كل شيء هنا، نبيل السائق السوري الذي رأيته، إنه بالغ التهذيب وهو ليس من دمشق، إنه من الريف. اسمع. غداً سوف أسلمك المكتبة. إحدى موظفاتك المهمات اسمها هناء، ستكون سندك، إنها خريجة أدب إنكليزي من الجامعة الأمريكية في بيروت، ستكون حتماً عوناً لك.

- مرحباً أنا هناء. قالتها بالإنكليزية.

- أهلاً أنا أندرو، أندرو براون. قالها بالعربية.

ابتسما معاً وبروس تالبوت شعر أن الجليد قد كسر أو أنه لم يكن موجوداً أصلاً.

- هناء سوف تتركنا إلى الجامعة السورية، ستدرّس فيها مادة المسرح.

- أرجو أن لا أكون سبب مغادرتك.

تضحك بحياء، إنها غير جميلة، ودود ولكن دونما جاذبية.

- لا، بالطبع يا مستر براون، وأدرك أنك تمزح. بقي لي هنا أسبوعان. ثم.. ثم.. أترك لـ...

- ستتزوج، قال بروس بينما غزا وجه هناء احمرار قانٍ.

- مبروك.

- اسمع، نحن مدعوان، أليس كذلك يا هناء؟

- بالطبع يا مستر تالبوت، بالطبع، زوجي، أعني خطيبي يحمل المودة للأمريكيين، لقد تخرج قبلي من الجامعة، وقد قضى شهراً من التبادل في جامعة كولومبيا في سياتل، أنتما حتماً مدعوان، سأحضر لكما البطاقتين.

ارتبكت الفتاة بينما بدأ أندرو ينظر حوله، اتجه إلى غرفة الإدارة التي عليها لوحة، مكتب أخضر، كرسي دوار، خزانة ملفات حديدية،

خزانة فيش، مقعدا جلد صناعي، هاتف أسود ضخم بقرص معدني ونافذة لها ستائر جميلة مسدلة، يستطيع إذن أن يحظى بالخصوصية كان بروس يرقبه باسماً ثم يشير له برأسه كي يتبعه.

- هذا مكتب هناء الآن كما ترى، سوف نزودك ببديل لها سبق له العمل هنا، هناء أو بديلها سيشرف على العمل كله، تجهيز بطاقات الرواد الخارجية أي التي تظل بحوزتهم لتكون جواز دخولهم المكتبة وعليها تسجل استعاراتهم، البطاقات الداخلية للرواد، أي أرشيف شخصي لكل فرد، مساعدك أو مساعدتك سوف يدير موظفين اثنين للعمل بين قاعة المطالعة وقاعة المكتبة وقرب فهرست الكتب اليدوي، انظر هناك هو الفهرست.

- لكنهما اثنان.

- صحيح يا أندرو، واحد بالإنكليزية وآخر بالعربية، هناك نسبة من الكتب المترجمة للعربية لكتاب أمريكيين ثم هناك قاعة للصحف والمجلات وهذه تجدد دورياً، بالمناسبة، إن كنت ترغب في إعداد القهوة الأمريكية إن عندي جهازاً، يمكنك أن تستخدمه هنا أو في الشقة.

أندرو استيقظ صباحاً في شقته، أجل شقته الخاصة، كان ثمة أصوات قريبة من نافذة غرفته ذات الستائر والأباجور الخشبي المغلق، اقترب مستطلعاً ودهش حين رأى على بعد أقل من متر عن نافذته وجه امرأة في لقطة جانبية، خمن أنها تروي الحديقة. استطاع من خلال خصوص الأباجور أن يرى طفلة صغيرة تمسك بيدها، تراجع خجلاً من اعتدائه على خصوصيتها، قدّر أنها ممتلئة أكثر مما يجب. تذكر الطبيبة السورية في واشنطن وكيف حذرته من النساء، وقرأ عن موضوع الحياة الاجتماعية هنا وكيف أنه لا علاقة مرغوبة بين أي رجل وامرأة إلا الزوجة والخطيبة وزميلة العمل أو الدراسة وبحدود مرسومة، وعلم أنه سوف يقضي كثيراً من الليالي على ذكر جودي وباميلا وحتى سو ماكينزي.

حين وقف ليتلقى ماء الدش جاءه بارداً، تذكر أن المطلوب هو تشغيل التدفئة، اكتفى بتجفيف نفسه وحلاقة ذقنه، استعد للخروج. هل وصفناه من قبل، أندرو براون عادي الملامح. صحيح أنه من تكساس وأهله من الأمريكيين المتعصبين لكن أشكالهم ليست شقراء، وليسوا ضخاماً وسمينين ذوي كروش كالكثير من التكساسيين. إنه خمسة أقدام ونصف أي مائة وخمسة وسبعين سنتيمتراً. لون الشعر خرنوبي، وجهه ليس أبيض كما أنه ليس أسمر، عيناه رماديتان، ليستا زرقاوين أو خضراوين، حسب انعكاس الشمس، وهو وسيم إلى حد ما، ليس فيه علامات فارقة، لذلك حين كان يعبر باتجاه المكتبة على رصيف شارعه فوجئ بشخص متوسط العمر.

- سلام عليكم.
- واألايكموس سلام.

الاثنان ذهلا، هو لأنه تلقى تحية لم يتوقعها، والآخر لأنه سمع جواباً بلكنة ولهجة لم يتوقعها مطلقاً، لكن أندرو اعتبر ذلك فأل خير، فهذا رجل يحييه تلقائياً، ابتسم في طريقه لآخر مع حركة رأس، هذه المرة كان شاباً يحمل عدة أكياس، نظر إليه الشاب شزراً وغمغم ببعض الكلمات، إذن فهذه الأمور معقدة، وليترك للزمن أن يحلها، على ناصية الشارع أي عندما يلتقي شارعه الضيق بشارع 29 أيار وفي مواجهة المكتبة رأى بائعاً على عجلة يدوية يبيع أشياء من عجين وعليها مادة سائلة تشبه الصلصة البنية أحس بالجوع والبائع ينادي. فاجأه أن بين السيارات كان حصان يجر خزاناً لابد أنه للوقود. والسائق يضغط على منبه مطاطي ذي بوق أشبه بأبواق السيارات القديمة من طراز العشرينات، ثم لفت نظره اختلاف أنواع الثياب واختلاف الحركة بين البطء والسرعة القصوى، وعدم احترام الشارع إذ أن أشياء يرميها الفرد العابر أو السيارة المسرعة، سيتدبر اليوم أمر الطعام والقهوة، أو ربما في استراحة الظهر، العرق الذي شرب منه أول الأمس سيكون جيداً أن يشتري منه. يشتري؟!

بم وكيف لقد فاته السؤال عن ذلك. علم أن الدولار يساوي ثلاثاً من العملة السورية، إنما ما هي القدرة الشرائية لهذه العملة؟ اجتاز الشارع ذا الاتجاهين وارتقى الدرج إلى الطابق الثاني حيث كان بروس ينتظره ليعرفه على المكتبة.

- اسمع أنا ذاهب الآن للسفارة، حين تنزل الساعة الواحدة اتجه على الرصيف نفسه الذي أمام المكتبة، ليس في اتجاه الشمال.. أعني.. اتجه إلى تلك الساحة التي دارت السيارة فيها.. بالمناسبة، الساحة التي قربنا اسمها السبع بحرات، تأكد منها في الخريطة، والأخرى في الجهة المقابلة اسمها بوابة الصالحية سوف تراني هناك أنتظرك على الرصيف.

- اسمع يا مستر تالبوت، إن كان هناك موظفان للتعامل مع الرواد، وهناء لإدارة العمل فما هو عملي بالضبط؟

- أنت تمثل السفارة، أنت رب العمل، عليك أن تضع الخطط كي تجتذب رواداً أكثر، وسوف نغني المكتبة بكتب كثيرة، سأصحبك إلى بيروت، بيروت سوف تسحرك يا أندرو، ميامي الشرق، فيغاس. سوف ترى.

بقي وحده الآن، ماذا سيفعل؟ عليه أن يطلع بدايةً على موجودات المكتبة، فتح خزانة الملفات، بحث حتى وجد قائمة بالكتب الأمريكية المترجمة وغير المترجمة، ضحك وهو يتأملها، هذه سياسة مكتب المعلومات، كتب دعائية، سياحية، إعلانية، سياسية، كتب لمفكرين همهم الترويج لأفكار الديمقراطية الأمريكية الفذة وللنظرة الاقتصادية الرأسمالية وللفلسفة الذرائعية. والقليل الخجول من الأدب. أين همنغواي وشيروود أندرسون وعزرا باوند ووليم فولكنر وشتاينبك، أو هنري، مارك توين له كتابان، ألدوس هكسلي، أرسكين كالدويل... لابد من جلب قائمة منوعة، والآن من هم رواد هذه المكتبة، شبان، معظمهم من الشبان، القليل من الفتيات القليل من البالغين الكبار، هذا مهندس، طبيب، مهندس آخر. أستاذ، أستاذ صيدلي، تاجر، تاجر، متقاعد، عاطل

عن العمل. حسناً إن هناك طيفاً من المتعاملين.

- آنسة هناء هل هناك دراسة عن رواد المكتبة، أعني اتجاهات القراءة ومن يقرأ ماذا؟

- موجودة.. ستجدها في ملف أبحاث، بالمناسبة تستطيع محادثتي على الهاتف الداخلي، رقمك 10 ورقمي 11، أو في جهاز المخاطبة، لا حاجة بك للخروج إلى هنا.

- حسناً..

اتجه إلى قاعة المطالعة، اختلس نظرة، كان هناك أربعة، ثلاث شبان يتضاحكون وأمامهم كتاب بالإنجليزية وكهل فتح قاموساً وانهمك في كتاب سميك وكان يمسك قلماً ليكتب شيئاً ما، أما قاعة الصحف والمجلات فكان فيها اثنان، شاب وفتاة، أحس أنهما معاً وأنهما هنا ليس للقراءة بقدر ما هما يختبئان عن العيون. لا بأس إنما دون أن تتورط المكتبة بأي مشكلة، نظر إلى ساعته، منذ البارحة حوّل على التوقيت المحلي، لازال أمامه ساعة تقريباً، حين جلس وبيده ملف الأبحاث سمع نقراً على الباب ثم تدخل هناء تحمل فنجاناً صغيراً وترمساً من الذي يحفظ السخونة والبرودة.

- مستر براون، معي قهوة عربية، تركية كما تسمونها، هل ترغب بفنجان؟

- شكراً هناء.. لا بأس، سأجرب.

- مستر تالبوت أحب قهوتنا واستغنى عن القهوة الأمريكية. تفضل.

- شكراً.

انتظر حتى خرجت ورفع الفنجان إلى شفتيه، رائحة ثقيلة نفاذة، ذاق الطعم، لا بأس به، ثانيةً، إنه.. إنه ليس قهوة صرفاً، نعم، هم في الشرق. شرق البهارات أيضاً، إنما هذه القهوة الثقيلة الطيبة الشذى لذيذة. والآن لنواجه الواقع، ما الذي جئت تفعله في هذا المنفى يا آندي؟ نفث دخان سيجارته زافراً، كان أمامه جواب واحد محتمل لسؤال رئيس

المستخدمين عن السفر إلى دمشق: نعم. هكذا أجاب دون أن يسأل نفسه السؤال المعاكس: لماذا أسافر؟ كان أقل همة من أن يكون رحالة. ليست لديه هواية التجوال، على العكس إنه يحب الرتابة والمجهود القليل. يحب الأمور الناهزة، الطعام، القراءة، المضاجعة، الشراب. هذه هي الحياة الكاملة بالنسبة لأندرو براون. السفر وارتياد العالم لم يكونا ضمن أولوياته. لماذا أسافر؟ الآن عليه أن يجيب نفسه وهو في مكتبه الكائن في الطابق الثاني من بناية حجرية في وسط دمشق السورية التي لم ير منها شيئاً بعد، كان الجواب ببساطة: إن انتقاله من واشنطن إلى دمشق على الصعيد العملي لا يختلف كثيراً عن انتقاله من أرلنجتون إلى واشنطن، ارتحال في المكان مع الحفاظ على الثبات الذي هو حياة شخصية مغلقة تنأى عن العلاقات الدائمة مع الأشخاص وتحافظ عليها مع الأشياء، وكانت النساء من ضمن الأشياء مثلها مثل الكتب والسجائر والخمر.

سار على الرصيف يتفحص ما حوله متجهاً إلى الساحة البعيدة، أخذ يقرأ بما استطاع أسماء المحلات، وأنصت لما يصل إليه من كلمات وحوارات، إنه لا يفهم كل شيء لكنه يفهم بعض الشيء. أزعجه أن بعض الصور القديمة لاتزال ملصقة على الجدران، وثمة أوراق لها شكل متكرر. بعضها قديم وبعضها جديد. توقف أمام إحداها وحاول القراءة. فهم كلمة وفاة وأدرك أن ذلك دعوة لجنازة أو لحفلة ما بعد الجنازة، إنما لماذا هي عامة؟ شاهد بعض من يرتدون الثياب العربية، تلك القمصان الطويلة حتى الأرض وفوقها سترة أو شيء يشبهها وغطاء الرأس العربي المعروف. ذلك الأبيض أو المرقّش وفوقه حزام مجدول أسود. الطريق مزدحم إلى حدٍ ما. لابد أنها ساعة (البريك) عند الناس. وعن بعد لمح بروس تالبوت يقف أمام واجهة زجاجية لمطعم.

- هذا مطعم أبو كمال الذي أرسل لنا الطعام في أول لياليك.
- يكاد يكون فارغاً.

- م م م.. ليس هناك نظام للاستراحة و(اللانش) في دمشق. وأنت نفسك سوف تنساه قريباً، لندخل.

بمجرد جلوسهما جاء أكثر من نادل ليعتني بهما، لم يكن في المطعم سوى طاولة أخرى تجلس عليها عائلة كان واضحاً أنها لعرب خليجيين.

- اسمع، سوف أطعمك وجبة خفيفة، إنها منوعة وهي دمشقية تماماً.

وضعوا أمام كل منهما زبدية عميقة فيها ما عرف أنه حمّص ولا يدري عما فوقه أو تحته. كان ثمة صحن فيه حبوب الفول والزيت وقطع البندورة. وهناك ما ظنه بطاطا مهروسة ثم اكتشف أنه حمص مطحون مع زيت يستخرج من السمسم (الطحينة) وهناك صحن من المخلل ونعنع وحتى البصل، كان جائعاً والروائح المميزة المتصاعدة جعلته يقبل على هذا الطعام الغريب إنما اللذيذ بشهية بالغة، ولم ينه بروس ربع طعامه حتى كان أندرو قد مسح كل الصحون وحين رأى نظرة بروس الضاحكة قال معترفاً: لقد كنت جائعاً وهذا الطعام لذيذ جداً وأحس أن جسمي قد تخدّر الآن كما لو أني شربت زجاجة نبيذ.

- الأمر بسيط، سنشرب الشاي ثم أجعلك تستكشف ما حولك، سنمر في بوابة الصالحية، سأريك نادي ضباط دمشق، ثم بناء البرلمان السوري وأعود بك من طريق يوازي شارع المكتبة، إن ثمة باراً فيه، ويمكن أن تشتري بعض المشروبات.

- تذكرت، أحتاج للتعرف على العملة السورية، و... وأحتاج لبعضها.

- آندي، إنك لن تنفق مهما حاولت أكثر من نصف راتبك، الشيء الوحيد الغالي هنا هو الشراب في النوادي الليلية، سوف أعلمك، لقد تعلمت أنا الكثير خلال شهر، استمتع، استمتع بكل ما حولك.. على الأقل بالشمس.

لم يحتج أندرو في واقع الحال شهراً ليتعلم، كان يعرف أن الاستقرار لن يأتيه حتى يتعامل مع هذه المدينة بتفاهم متبادل، ليس ضرورياً أن يكون ثمة حب ومودة بينهما، لكن على دمشق أن تعرفه تماماً كما أنه عليه أن يلمّ بها، أتاح له سكنه في جادة الزرقاء كما هو اسمها والقريبة من المكتبة ومن بوابة الصالحية أن يمشي كل يوم في اتجاه، تجاوز أول الأمر مبنى البرلمان متفحصاً محلات الألبسة والأقمشة وسواها في ثاني أكثر الأسواق اكتظاظاً إذ أن بروس وعده بتخصيص يوم كامل لدمشق القديمة وسوق الحميدية، كان هو قد رأى أكثر من صورة له، لكنه حين زاره مع بروس ذهل تماماً لتشكيل السوق ومعروضاته وأصحابه ورواده، لم ير مثل هذا الاكتظاظ في حياته. وقد أصر في ذلك اليوم على زيارة الجامع الذي في نهاية السوق، كان ثمة فريق من السائحين يدخل مع دليل إلى الجامع الأموي وقد دخله أندرو بينما بقي بروس يبحث عن كتب قديمة ومسابح ثمينة. لقد عبر أندرو خلال شهره الأول في كل الاتجاهات. مطاعم الربوة ومقاهيها، الملاهي، بين محطة القطارات ومبنى البرلمان، قصر العظم وحتى الملعب البلدي حيث رأى لعبة في كرة القدم، سار في شارعين اسمهما شارع بغداد وهما موازيان لشارعه الخاص. وعلم أن المنطقة أسفل جبل قاسيون لها اسمان البعيد عنه هو الأكراد والقريب هو الصالحية. وبجانبها المهاجرين، صحبته هناء إلى قسم اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق وعرفته على اثنين من مدرسيها واحد منهما عمل سنتين مترجماً في سفارة بلاده في واشنطن وقد تبادلا حديثاً مرحاً عن العاصمة الأمريكية. وقد غادرته هناء وجاء عوضاً عنها (زياد بدوي) ابن الثالثة والثلاثين. كان قد عمل سابقاً في المكتبة وترك العمل ليسافر إلى الكويت كمدرس، ويقولون إنه قد جمع ثروة وهاهو يعود الآن وقد غدا له بيت ويملك سيارة ويريد دخلاً ثابتاً. فاجأ زياد أندرو بأنه كان مسيحياً من سكان منطقة باب توما وهكذا اكتشف أندرو باب توما ومنطقة القصاع حتى الباب الشرقي القديم لدمشق. جلس

في العديد من البارات ولم يعجبه الجو السائد فيها. سهر في معظم النوادي الليلية مع بروس وآخرين من موظفي السفارة ولم يرتح للغناء بأصوات ذات نشاز مؤكد وذاك الرقص المعروف بهزّ البطن ولا لتلكم الفتيات المحليات اللواتي يردن الويسكي أو الشمبانيا وليس فيهما منهما إلا الزجاجة. اكتشف أن بعض الفرق الأجنبية تأتي لتبقى فترة ما لكن رقابة مدير الفرقة أو وكيل عملها لا تسمح بالكثير. كما أن بروس نبهه إلى أن حالة عداء الحكومة لأمريكا قد تجعله عرضة للتورط في سبيل إشهار فضيحة يكون الطرف فيها أمريكياً كي يتم الاستغلال السياسي لها.

غدا الآن يعرف كل ما يلزمه للحياة اليومية. الطعام واللباس والتاكسي وصرف العملة ولوازم السهر والأهم دور السينما، كانت كلها قريبة منه، على بعد دقائق، وحين احتاج لمعدل حموضة قصد إلى أقرب صيدلية للمكتبة. كانت في الشارع الذي يوازي شارع المكتبة، وحين قرأ اسمها صيدلية (ألأتا) لم يدرك أنه العطاء، لكن وجه هذا الرجل مألوف لديه. إنه يتردد إلى المكتبة، وقد عرفه بدوره وقدم له نفسه حين صافحه وقال بإنكليزية واضحة: كمال راضي.

«10»

العسكر من جديد

لم تكن آسيا منصور أحلى بنات سعيد منصور، سليمة أكثر جاذبية منها عدا عن جمال هادئ تميزت به. صغرى البنات مسرّة كانت ممشوقة ريانة وذات عينين خضراوين مثل جدتها لأمها. معزز كانت نسخة عن سليمة مع ميل للطول. آسيا كانت مربوعة، سمراء بعينين خضراوين، وجمال لا يلفت النظر مباشرةً. لكن من يتفرس فيها بتأنٍ سيكتشف أي رضىً يشيع في داخلها وينعكس على قسماتها، كانت متفوقة في الدراسة، حنوناً مطيعة قريبة من رضية في كل ما تفعل، وتحظى بدعاء أبيها الذي تلاطفه باستمرار طيلة وجوده في البيت. وقد جاءها النصيب. ضابط برتبة نقيب في سلاح المدفعية، رضوان الأشقر وهو لم يكن اسماً على مسمى إذ كان أميل للسمرة منه للبياض، لكنه طويل متين الهيكل لا يستطيع الناظر إليه إلا أن يبتسم استجابةً للمودة التي يشيعها فيما حوله. وقد أحبه تميم دون تحفظ على عكس ما يشعر به تجاه مصطفى زوج سليمة، وإن كان يعترف - إنما في قرارة نفسه - أن نفوره من مصطفى ليس بسبب شخصه وإنما لأسباب أخرى غير موضوعية إطلاقاً.

في إحدى السهرات التي ضمت العائلة في منزل عميدها سعيد سأل تميم صهره رضوان عن الخلافات بين أركان الحكم في الإقليم الشمالي. فقد كانت الأنباء تتحدث عن ذلك، أنباء الإذاعات الأخرى وشائعات الشارع الدمشقي. أحس تميم أن رضوان لا يريد الخوض في هذا الموضوع لأنه اكتفى بالقول: المشير دولة، والسراج دولة والناس غائبون. كان الناس حقاً غائبين، بالأحرى مغيّبين. سطوة المباحث كانت دون حدود، ولم يعد لأهل دمشق ظفر في السلطة ولا ناب، فرجال

السياسة الذين قادوا البلد في الأربعينيات والخمسينيات قد تجاوزهم الزمن وجيء بقيادات بديلة لم تكن قيادات بحق وإنما هم موظفون يأتمرون بأمر المشيرعامر أو الوزير السراج الذي غدا أيضاً في وقت ما نائباً لرئيس الجمهورية. وبدأ تميم يسمع من شبان كانوا أكثر الناس ولاءً لعبد الناصر ولقيادة دولة الوحدة، بدأ يسمع منهم تذمراً من دور المباحث، كان البعثيون قد أدركوا أنهم خارج السلطة الآن وأن ما ذاقه الشيوعيون من وطأة المباحث قد يذوقونه بدورهم فقد تم إقصاؤهم عن مواقع السلطة بإقالة وزرائهم ونائب رئيس الجمهورية أكرم الحوراني، والحديث جارٍ عن سحب معظم ضباطهم إلى الإقليم الجنوبي. لذلك كانوا كما رآهم تميم في حال ارتباك واضحة، فلا هم قادرون على القبول بما يجري لأنهم قد خسروا حزبهم وتنظيمهم سلفاً من أجل قيام دولة الوحدة، ولا هم قادرون على الرفض والنقد لأن ذلك سيضعهم في صف الشيوعيين والسوريين القوميين وتجار دمشق الذين يرون أن تجار مصر هم الذين استفادوا من دمج الإقليمين وعلى حسابهم هم. وتميم الذي لازال ينصت بقلبه لخطابات الرئيس كان يشعر بالقلق حين يسمع هجوماً على طلاب الديمقراطية.

لقد وعى تميم أن محو إرادة الشعب بإلغاء المنابر والأحزاب هو شرٌّ مهما أو أياً كان الذي يقوم بذلك. كان أبوه (المرحوم أبوه) يحترم الشيشكلي قائد فوجه في جيش الإنقاذ، لكنه حين اختصر السياسة بشخصه وألغى الأحزاب ليؤلف حزباً هجيناً كان ذلك مدعاة لعبد المالك منصور كي يرفض ذلك الحزب ويرفض الترشح للنيابة المضمونة. إن إلغاء الآخرين سياسة لا يتمخض عنها إلا التفرد والخلل. هذا ما سمعه تميم من أبيه حين اكتشف صورة له مع الشيشكلي. وهذا ما يهجس فيه ضميره، كان بين هذين الموقفين. الإعجاب بالبطل، أو الخشية من سياسته.

حين ودعت الأسرة رضوان الأشقر بعد تلك السهرة خرج معه تميم وسارا باتجاه بوابة الصالحية. قال له رضوان: لماذا سألت عن

خلافات أركان الحكم؟

- في صفنا واحد من المخبرين يا رضوان، والجميع يعرفون ذلك حتى المدير والأساتذة. هذا المخبر قد غيّر لهجته تماماً. صحيح أنه لا أحد يخوض معه في حديث لكنه الآن يتحدث عن فشل المشير عامر وعن تسلط الضباط المصريين، هذه النغمة تخيف من يسمعها أليس كذلك؟

- طبعاً، إياك والخوض معه، لا توافقه ولا تعارضه، ابتعد عنه يا تميم، أنت الآن في الثانوي، البكالوريا على بعد شهور ثم الجامعة، أنت لا تحتاج إلى ما يعرض دراستك للتعثر.

- أنا واعٍ لذلك، لم تجبني عن سؤالي بعد.

- اسمع، المشير والسراج مشغولان ومنهمكان في الكيد لبعضهما بعضاً. هذا صحيح، لكن هذا الانهماك سيجعل الاثنين يخسران، صدق كلامي ولا تنقله عن لساني. ما قولك الآن: هل تدخل معي إلى نادي الضباط لتأخذ زجاجة بيرة؟

- بيرة؟! لكني... أعني، أنا لم أذق أي شيء مماثل.

- معقول؟! ما سمعته عن المرحوم أبيك أنه كان صاحب دمعة.

- أبي؟!

ذهل تميم مما سمع، لم يشأ أن يوغل في الاستفسار، هل يطلق رضوان الأشقر لنفسه عنان الحديث على عواهنه؟ كان متأكداً حين تحدث. هل كان أبوه ممن يحبون جلسات الشراب؟ إن ذلك لن يكون بعيداً عن شخصيته فهو كان يحب الطرب ويستمع إلى أغانيه. كان مرحاً، يدخن ويقرأ بنهم فلا عجب إن كان يشرب. ولكن من سيكشف له ذلك السلوك المكتوم؟ أمه. لا. من المؤكد أنها لم تكن تعرف شيئاً وإلا لكان هو قد عرف. أصدقاء أبيه؟ لا يعرف منهم إلا المحامي راتب مأمون. تذكر أنه منذ شهور لم يتصل بأسرة المحامي وأحس بالخجل من نفسه، سوف يزورهم غداً وسوف يحتال كي يقدم لهم مالاً، وقد أطلعه عمه

على حسابات المحل وعلى الأملاك المشتركة. كان لهم معصرة زيتون في حرستا، ولكل منهما ربع مزرعة في عين ترما في الغوطة الشرقية، مزرعة فاكهة كبيرة ورث سعيد وعبد المالك نصفها من أبيهما الذي تشارك مع أهل الزوجة المقيمين هناك. والمزرعة تعطي كلاً من سعيد وتميم الآن مبلغ خمسة عشر ألف ليرة. ومعصرة الزيتون لا تدر دخلاً بل تدر زيتاً يتم بيعه في المحل على مدار السنة، أما بناء العمارة فهو الآن ملك لتميم لأن أباه قد تقاصر عليه مع عمه حين كان مريضاً. ولك يا تميم نصف أرباح المحل. وتسأل مؤمنة بخجل عن كمية هذه الأرباح ويقول سعيد بغموض عشرات الألوف في العام يا امرأة أخي. اطمئني سوف نفتح حساباً لك ولتميم معك. سألتُ فقالوا لي إنهم يفتحون للولد القاصر حساباً مع أحد أبويه.ان لكم الآن نصف حسابنا المودع ولن أقول لكم الرقم حتى لا تخافوا. ويضحك تميم بسرور فلابد أن الرقم كبير وربما يتجاوز المائة ألف. لا، لابد أنه مئات الألوف مادامت الأرباح السنوية بالعشرات.

يومها اطمأنت مؤمنة على مستقبل تميم وعلى بقية عمرها. المال موفور ولا يبقى إلا أن تفرح بحبيب القلب، صحيح أنه لا يأبه لابنة عمه مسرة لكنها سبحان الخالق أحلى من الصور. فإن لم تكن مسرة فإن أي فتاة من أسر دمشق الكريمة سوف يشرفها أن تكون كنة بيت منصور. وتميم ابنها ليس مثله بين الشبان بل بين الرجال. حين انتهى حديثهما مع عمه سعيد منصور قال له:

- يا عمي، حين كان المرحوم أبي يشاركك العمل في المحل كان كل شيء يقسم بينكما بالنصف، الآن أنت وأولاد عمي تديرون المحل وأنا لا شأن لي به لذلك فإن من حقكم نسبة من الدخل لقاء قيامكم بالعمل.

احتج سعيد على كلام ابن أخيه وإن كان قد أثلج صدره به:

- اسمع يا عمي، هل تكفي نسبة عشرة بالمائة من كامل الأرباح

لقاء الإدارة؟

- عشرة كثيرة يا تميم.

- إذن هي عشرة.

- عمك يرضى بأقل يا ماما.

- وأنا لا أرضى. عمي، أعرف أنك حقّاني، أنا أريد فعلاً حساباً مع أمي لنتصرف به. وكل ستة أشهر تحول لنا حصتنا من الأرباح.

- بعد الاحتفاظ بما يلزم لتطوير العمل والتوسع.

- كم يكفي؟ عشرة بالمائة.

- من كامل الربح. سوف نبقي في حساب المحل عشرة بالمائة من ربح المحل. وسوف - كما أنت رغبت - نقتطع عشرة بالمائة لقاء الإدارة ونقتسم الباقي أربعين في المائة لكل جهة. أما دخل المزرعة ومعمل القمر الدين.

- هل.. هل لنا معمل قمر الدين؟

ويضحك سعيد بابتهاج:

- رحمه الله. كان الاتفاق ألا تدري النساء ولا الأولاد الصغار عن أعمال العائلة حتى لا تنكشف أسرارنا للعامة. نعم، ما نبيعه نحن من القمر الدين وما نصدره لمصر وغيرها هو من صنع معملنا.

- وأنا التي كنت أحتار في كثرة لفات القمر الدين التي تصل إلينا كل عام.

- حسناً، دخل المزرعة والمعمل ومعصرة الزيتون لهما حساب مستقل لكن الأرباح ستحول إلى حسابكم الجديد كل ستة أشهر.

- عمي، هل تمانع في أن يكون كل ما اتفقنا عليه مكتوباً وموثّقاً؟

- ولماذا أمانع؟ أنت قلت لي أعرف يا عمي أنك حقاني. والحق لا يزعل منه أحد. سوف أجعل الأستاذ هيثم المحامي يجهز كل شيء وسوف نوثقه عند كاتب العدل.

خلال ذلك الأسبوع أدرك تميم أنه يملك مالاً كثيراً، مالاً يفيض

عن حاجته ويمكّنه من فعل ما يشاء. وحين سأل أمه عما تشتهي قالت: خالك سوف يحج السنة مع زوجته وهو محرم لي وأريد أن أحج معه. وعانقها تميم قائلاً: سوف تحجين كلما رغبت بذلك. ومن يومها نسي كلاهما هموم المستقبل فالمال موفور وتحت يده منه الألوف ومع ذلك نسي صاحب أبيه ولم يتذكره إلا حين تساءل عمن يقدر على إيضاح ما ذكره رضوان عن ولع أبيه بالشراب.

- أهلاً أهلاً يا تميم، تفضل، تفضل.

قادته زوجة الأستاذ راتب إلى غرفة الضيوف، كان بادي الخجل والحرج.

- إذن فعمك راتب قد ترك معك مالاً؟! قالت ذلك باسمة مما زاد في حرجه.

- لو تعلم كم كبرت بعينيه وعيني يا تميم. قال لي: تميم ابن أبيه، لو كان عبد المالك قد بقي على قيد الحياة لفعل أكثر من ذلك.

- لذلك أنا خجل من نفسي يا خالة، وأنا... أنا أحس أني صغير ولست ابناً باراً لأبي ولا وفياً للأستاذ راتب.

- لماذا يا بني؟

- لأني ابتعدت ونسيت ولابد أنكما الآن في حاجة لـ....

- لا تكمل، نحن ابتعدنا عنكم بتوصية من راتب، قال لي حين أخبرته عن النقود ابتعدوا عن بيت عبد المالك وبيت صالح نعمان تحديداً حتى لا تنتقل إليهم الشبهة. وأنا حضّرت لك مبلغ الخمسمائة حتى أراك.

قامت لتفتح درجاً صغيراً وتخرج فيه المغلف نفسه الذي قدمه لها.

- ما هذا يا خالة... لا والله.. اسمعي يا خالة، قسماً عظماً لا آخذ المبلغ إلا من يد الأستاذ نفسه وبعد أن يخرج بالسلامة بسنة كاملة. هذا يمين الله. وهذا مبلغ ألفي ليرة والله لن أخرج به من هذا البيت.

- لماذا تفعل ذلك يا بني، أنت لست طرفاً، ثم إنهم يرسلون لنا المال.

- يـا خالـة لـولا محبـة أبـي للعـم راتب هل كان سـيخبئه في بيت العمارة؟ طبعاً لا. فإذا كنت باراً بأبي فمن الأولى أن أكون وفياً لأحبائه.

دمعت عينا المرأة، لازال في الدنيا أناس مثل المرحوم عبد المالك يربّون أولاداً مثل تميم منصور.

- تسـلم يا بني. تسـلم لأمك ولذكرى أبيك، سـآخذ منك المال لأنك حلفت، وسأضمه للمبلغ السابق.

- أقسمت عليك أن تنفقيه فيما تحتاجين وتحتاج عزة. كيف حالها بالمناسبة؟

- بخير، شاطرة ومطيعة. كيف الوالدة؟

- نحمد الله يا خالة، رقم هاتفنا عندكم. بالله عليك، اعتبرينا من الأهل. احسبيني أخاً لعزة إن احتجتم، أنا لا أتحدث عن المال. في أي حال، ولأي سبب، أنا موجود.

- ماذا أقول، صدقوا.. الذي خلّف ما مات.

- خالة.. هل كان الأستاذ راتب ممن يسهرون مع المرحوم أبي؟

- معلوم، سهرة الأنس.. وتضحك بانشراح.

- هل يشرب الأستاذ أيضاً؟

- كلهم يشربون. هل تعرف صالح نعمان؟

- لا.. لم أسمع به.

- كان أقرب الناس لراتب ولأبيك، لم يكن يحتمل كثيراً، وطالما أحضره راتب في نهاية السهرة إلى بيتنا، كنا نفرش له هنا لينام.

وتتنهد زافرة بعمق:

- هل ترجع تلك الأيام؟

وحين رأت نظرة الأسى على وجه تميم أدركت أنها لن ترجع وإن رجعت فلن تعود كما كانت.

- سلم على الوالدة، لولا ما نحن فيه ما انقطعت عنها.

هكذا وببسـاطة عرف تميم جانباً مجهولاً من حياة أبيه، ورضوان

الأشقر حين قال ما قاله كان يعرف أن لأبيه سهرة أنس مع أصحابه وعزم في قرارة نفسه على أشياء سوف يسأل عنها وأخرى سوف يفعلها.

أحد زملاء الثانوية كان يتحدث عن النساء والشراب حديث خبرة، وقد حاول مراراً سحب تميم نحوه لكن هذا لم يكن ينظر إليه بارتياح لأنه كان متفاخراً. بينما تميم لم يكن يحب (البهورة) كان متواضعاً في قرارة نفسه وإن كان يضع يده على مال كثير ليس لأحد من زملائه أن يحلم به. وكان قد ورث عن أبيه وأمه وسامة وطولاً وقوة كامنة في جسده المتين إضافةً إلى ما كان يتميز به من ثقافة اكتسبها بإدمانه القراءة والسينما. ذات ليلة رافق الشلّة إلى السينما وتعمدّ أن يكون جلوسه قرب وليد رمّاح الشاب المقصود وقد علّق تميم عدة مرات على مواقف في الفيلم جعلت زميله يسأله وهما خارجان:

- كيف تدبر أمرك؟
- أي أمر؟
- حين تصيد واحدة. أين تذهب بها؟
- التي أصيدها.
- لا تقل لي إنك دون تجربة.

ويضحك وليد بسرور وبذلك التباهي الذي كان كافياً في حالات أخرى كي يجعل تميماً يبتعد عنه مباشرةً. لكن المطلوب الآن شيء آخر.

- لا يكبر الواحد منا دون تجربة، إنما ليس مثلك. أنت تسكن وحدك. تشرب وتلهو كما تشاء.

- الشراب علمني إياه أبي.. أما اللهو فشيء آخر.

كان وليد أكبر منه بعام أو عامين على الأقل وهو من عائلة ثرية في ريف دمشق. سكن عند عمته حتى نال الكفاءة وعندما بدأ الدراسة في التجهيز الأولى اشترى له أبوه شقة صغيرة في منطقة الشعلان القريبة من المدرسة وأسكنه فيها. كان سائقو الباص والتاكسي بين قريته ودمشق يحضرون له الطعام يوماً بيوم وكان له دائماً رفاق على مائدته أو في

سهراته ينفق عليهم، وكان يتمنى صحبة تميم لكنه أدرك أن هذا الشاب غير الآخرين. إنه مليء الجسم والعقل والجيب، لذلك لا يحتاجه ولا يتقرب منه، كما أنه حاول مرة أن يهزأ به معتمداً على دعم رفقائه لكن يدي تميم سمّرتاه وصديقه على الجدار ويومها هددهما بوضوح إن اعترضاه ثانيةً. ولم يفعلاً، كان الذين يرافقون وليداً مستعدين للدفاع عنه طالما كسبوا منه إنما بالكلام وحسب. وقد وفر له تميم الآن الفرصة كي يقربه إليه. وهكذا انتحى به بعيداً عن الآخرين:

- اسمع، غداً الخميس. تعال نسهر وحدنا، عندي زجاجة ويسكي مختومة وسوف أتصل بواحدة تأتي مع زميلتها. سنكون وحدنا معهما وسهرة للصبح.. وإن شئت تبقيان طيلة يوم الجمعة.

تجربة تميم مع بنت الجيران ضياء ذات الوجه النمّش حين استلقت في غرفته على فراشه وسمحت له بتعريتها حتى آخر قطعة وذلك النفور الذي جعله يبتعد عما رآه، هذه التجربة لم تتكرر، إلا أنه لازالت سليمة وهي تعطي نفسها لزوجها، لازالت في الذاكرة متوهجة لا تخبو. فتملأ ذهنه المشبوب وممارساته الفردية وهو يريد أن تكون له تجربة أخرى تمحو تلك الذاكرة.

- حسناً. هل عندك هاتف؟

- وكيف لا. محسوبك زهرة العائلة، ولابد من أن يطمئنوا عليه سجل عندك.

- طيب، سأخابرك عصر الغد.

- تريد إذناً بالغياب عن المنزل؟

- شيء كهذا. سلام.

- سلام.

كان وليد رماح أكثر سروراً بحصيلة الحديث من تميم منصور رغم أن تميماً هو الذي ساق الحديث إلى تلك النتائج. وليد يرى أنه سوف يكسب صداقة هذا الشاب الذي كان يصمت كثيراً لكنه إن تحدث

لفت النظر والذي كان إن ارتقى ليكبس الكرة في لعبة (الفولي بول) الكرة الطائرة فإن أحداً لا يقدر على صدها، والذي كان واضحاً اكتفاؤه المادي، بل ثمة حديث عن ثراء أسرته. أما تميم فكان قلقاً إذ ربما تكون التجربة مع ضياء ونفوره مما يبين ساقيها حائلاً دون أن... هل سيفشل؟ ولكنه ينجح حين يستحضر سليمة في خياله أو كيم نوفاك أو إليزابيث تايلور أو هند رستم وغيرهن. عليه ألا يقلق، وعليه أيضاً أن يرتب الموضوع مع أمه.

- تنام خارج البيت. أين ولماذا؟

ويتضاحك تميم أمام مؤمنة:

- لعلك تظنين أني لازلت طفلاً يا أم تميم.

- لا يا حبيب قلبي، أنت ما شاء الله كان ملء ثيابك، إنما هذه نغمة جديدة، أنا لا أحب أبداً أن تنام خارج البيت. أبوك لم يفعل ذلك حين كان عازباً أو بعد أن تزوجنا إلا..

- إلا ماذا يا أم تميم؟ خبريني.

- كان يسهر مع أصحابه وكان....

- وكان أحياناً ينام خارج البيت، أنا أذكر وأنت تذكرين. ما رأيك! علي مع زملائي أن نتحضر لمذاكرة العربي.. أدب جاهلي يا أم تميم وأنا أشطر واحد فيهم. سأشرح لهم وأعرب وأقطّع عروضياً.

- افعل كل ذلك.. هنا.. في بيتك وغرفتك، وأخدمك مع أصحابك ب....

- سيحصل يا أمي سيحصل. إنما ليس هذه المرة، سوف نسهر للدراسة حتى نتعب ثم ننام حيث نحن. ونتابع يوم الجمعة. لكن... سآخذ معي طعاماً. من أين آخذ؟

- سأدلك على المطعم الذي كان أبوك يتعشى فيه مع أصحابه. إنما...

- ماما... هل تقبلين أن أبدو صغيراً أمام أصحابي؟

- لا يا حبيبي، لا.... مثلك لا يكون صغيراً، أنت منذ كنت في العاشرة كبير وعاقل، انظر الآن باسم الله ما شاء الله. أبوك حين....

وتجهش مؤمنة بالبكاء لأن حبيب القلب تميم ابن أبيه. ورضية سلفتها لا تفتأ تحوقل وتبسمل وتتحدث عن تميم الذي غدا رجلاً، كما أنها تحرص على أن ترى مؤمنة مسرة بعد الحمام مسدلة الشعر وضيئة تشع نضارة. هذه المسرة قد جاءها حتى الآن أكثر من خاطب، أبوها وأمها يريدان أن تتعلم حتى الثانوية، وفي قرارة النفس يريدان أن تكون من نصيب تميم. لكن ذلك لا يمنع أنها حسناء الحي. ومادامت آسيا قد جاءها النصيب في النقيب رضوان الأشقر فلم يبق إلا مسرة عند آل منصور.

اتصل بوليد وقال له سأحضر معي الطعام. ورغم اعتراض وليد رماح بأن كل شيء موجود وأنه... لكن تميماً أصر، كان اسم المطعم بريمو، وقد أوصى تميم على اللحمة المشوية المشكلة والحواضر والمقبلات، وعرج بالتكسي على المطعم ثم تابع إلى حيث شقة وليد التي لا تبعد كثيراً. وحين طرق الباب فتحت له امرأة شابة وضحكتها ملء وجهها:

- أهلاً أهلاً بحبيب القلب هات عنك.

وتأخذ منه الأكياس المليئة وتبتعد للداخل متأودة سامحة لعجيزتها أن تهتز بانتظام لدى كل حركة. كانت شبه عارية في النصف الأعلى، (على طاق الشلحة) وترتدي تنورة سوداء وحافية القدمين. وعلا ضحك وليد حين رآه مذهولاً كان يخاصر واحدة أخرى ترتدي روب ديشامبر كبير. إنما كان واضحاً أنها ترتديه على عري كامل.

- هذا هو تميم بيك، زعيم المدرسة، وزعيم حارته، وأنتما هنا لتكونا طوع أمره.

وضعت الأولى الطعام بأكياسه على المائدة والتفتت لتحني رأسها:

- نحن بأمر البيك، شبيك لبيك، سعاد ونوال جاهزتان للبيك من

أول الرقص حتى الـ....

كان وجهه قد غدا في لون الدم خجلاً وارتباكاً، التي كانت بالروب ديشامبر ذات الوجه الأبيض والنمشاء قليلاً أعجبها تميم منصور فاقتربت منه وطوقته بذراعيها.

- أموت في خدود التفاح.

كانت كما توقع لا ترتدي شيئاً تحت الروب وحين أحست الفتاة وهي تلحس شفتيه وخدّيه بأنه قد استجاب لها أمسكته بذراعه وركضت به وسط ضحك وليد المشجع واستنكار الأخرى ثم دخلت به إلى غرفة أغلقت خلفها بابها:

- حبيبي سليم.

- تميم.

- تميم... تمومة.. حبّوبي.. تسلم لي. تميمو....

كانت تقبله بشغف ويداها تجردانه من الثياب ثم تفعل به كما فعلت سليمة بمصطفى، تمتطيه كما الحصان ثم تدخل معه سباقاً محموماً ينتهي بلهاثه وسروره البالغ ليس لأنه قد بلغ الذروة وحسب وإنما لأن كل ما كان يتخوف منه قد امّحى. وقبل أن يرفعا رأسيهما يفتح الباب لتدخل الأخرى ضاحكة. ولا ينجح تميم في ستر نفسه لأنها رمت بحالها فوق الثانية وشدتها من شعرها وصفعتها صفعات خفيفة على خديها وهما تضحكان:

- يا عاهرة يا بنت القحبة قرطت الاثنين وأنا أتفرج.

- ومن منعك يا شريفة يا بنت الأشراف.

وتتبادلان الصفع والعض والقبل غير آبهتين به، ثم تمسك بالنمشاء وتخرجها وتغلق الباب ثم تدقرّه وتعود إلى تميم. تأخذه من يده إلى الباب الآخر المفضي إلى حمام، وينساق لها تفعل به كما تشاء. تنظفه وتنشفه وتعود به، ثم تبدأ بخلع ثيابها بحركات محسوبة وحين لا تبقي إلا القطعة الأخيرة تقترب منه وتصعد إلى قمة الفراش وقبل أن يعرف

ما تفعل تجبره بساقيها على أن يتنفس ملاصقاً جسمها متحسساً بيديه القوام المليء الدافئ. متشمماً لأول مرة في حياته تلك الرائحة التي تلازم الأماكن المحرمة من جسد شاب دافق بالصحة والجنس الحميم.

كانت المائدة جاهزة أضاف إليها وليد الموالح واللبنة والزيتون والمكدوس والشنكليش ووضعت صحون الحمص والمتبل والباباغنوج والكبيس المخلل وجاءت النمشاء بصحن التبولة الذي أعدته بينما كان تميم مع الأخرى. وكان ثمة زجاجة ويسكي وأخرى عرف تميم أنها زجاجة عرق. هاهو العرق، سأله:

- أجرّب معك العرق أم الويسكي؟

- نجرّب العرق.

- أمرك يا حبيبي. قالت النمشاء فصفعتها الأخرى على يدها.

- إنه الآن حبيبي أنا.

- وأنا أين ذهبت. قال وليد ضاحكاً. أصبحت على الرف.

- أنت الأصل يا روحي، لكن لكل جديد لذته، وصاحبك من فم أبرته.

- ملأتُ لك، هل تشرب مني. قالت النمشاء. وقد غدا الكأس أبيض.

- اسمع، إن لم تشرب من قبل فعليك أن تتعلم، هذا الشراب ليس شاياً أو قهوة، سوف ترتشف منه كمية دفعة واحدة دون أن يبقى في فمك من الشفتين إلى الحلق مباشرةً. انظر.

ويغب وليد من كأسه نصفه وبعد أن يبتلعه مباشرةً يمص شفتيه إعجاباً ثم يغرف بعض اللبنة بالشوكة.

- اشرب.

يقرب الكأس من فمه، تعجبه الرائحة، يغب من الكأس الذي تحول من اللالون إلى البياض ويبتلع الجرعة، تحرق حلقه قليلاً لكنها مقبولة الطعم يذوق بعض التبولة التي رفعتها الأخرى إلى فمه.

- صحتين.

ويقرعون الكؤوس:

- كعبه أبيض.

ويثمل تميم منصور ابن المرحوم عبد المالك منصور ويحس نفسه خفيفاً مرحاً للمرة الأولى، وحين تغني التي اسمها المزعوم نوال أغنية فايزة أحمد (أنا قلبي إليك ميال) بصوت عجيب لا يستنكر وإنما يطرب ويسأل صاحبه إن كان عنده أشرطة تسجيل ويطلب النهر الخالد أو الجندول لمحمد عبد الوهاب.

- عبد إيه يا روح أمك؟

وتنفجر الفتاتان ووليد رماح بضحكة صاخبة فآخر ما يخطر بالبال أن تنصت عاهرتان وشابان مخموران إلى كلاسيكيات الغناء.

حين استيقظ تميم صباحاً ناشف الحلق واللسان دونما غطاء كافٍ، وصداع خفيف في رأسه ويد ملقاة على صدره حاول أن يتذكر متى وكيف نام عبثاً. إنه لا يذكر، كان تنفس الفتاة النمشاء قربه أقرب للشخير الخفيف. وجد أنها تنام بقميصه الخارجي على عري جسدها وأنه ينام في ثيابه الداخلية، وبمجرد أن استعاد بعض مجريات ليلته ابتسم سعيداً وتمطّى في مكانه بحيث استيقظت الفتاة:

- صباح الخير.

- صباح النور.

- لم تقل كم سوف تسجل لي مقدماً ومؤخراً.

- ماذا؟

وقفز من الفراش مذهولاً ليجد أنها قد استغرقت في ضحك متواصل.

- ألا تذكر.

- أذكر ماذا؟

- تذكر أن اسمي ضياء ولست سعاداً، وأنك تحب النمشاوات

وأنك سوف تتزوجني وستطمرني بالليرات.

- أنا؟

- ومن سواك؟ إنما اسمع يا حبيب القلب أنت سكّرة، سأعطيك رقماً تتصل به حين تريدني، كم عمرك؟ عشرون؟

- خمسة عشر عاماً.

- ما شاء الله، ما شاء الله، جسم رجل وأفعال رجل إنما قليل الخبرة في النساء والشراب. لكن المرأة وسط كل الرجال والزبائن تتمنى واحداً مثلك تصاحبه هكذا دون مقابل، بل تعطيه ما يريد من وقت ومال لكن...

- اسمعي، ما مناسبة هذا الحديث الآن.

- الحق معك، ليس له مناسبة.

وفوجئ أن الفتاة اعتبرت سؤاله استنكاراً لضياع وقت ثمين، إذ خلعت عنها قميصه وشدته لتعطيه صدرها العامر إفطاراً مبكراً ليوم جديد. وانقضى يوم الجمعة بين طعام وويسكي وخلوات مع هذه وتلك. كانت فكرة الويسكي لوليد لأن رائحة العرق تدوم وتفضح. وعند العصر أخرج الشاب ورقتين كل منهما بخمسين ليرة.

- ما هذا؟

- أجر الفتاتين. كثير؟

- لا، لا.

لم يخطر ببال تميم أن الاثنتين كانتا من ذلك الصنف من النساء، وجد أنهما كانتا راغبتين في الوصال مع كل من الشابين، ولم يفكر مطولاً في أسباب هذه الرغبة. هما إذن محترفتان، كاد يشعر بالأسف، تمنى لو أن تلك المتعة كانت بالنسبة إليهما غاية في حد ذاتها كما هي له، إنما كيف؟ هذا لا يمكن. هذا لا يكون إلا في حالة العشق وليس هنا عشق أو عشاق.

- أليس المبلغ قليلاً؟

- بل هو فوق ما تأملان، سوف ترى.
- سأعطيهما أيضاً.
- إياك، لا تفعل، سوف تطمعان وعندها لن نستطيع أن....

قاطعه خروج الفتاتين وقد ارتدتا ثياباً محتشمة بل إن نوالاً وضعت إيشارباً على رأسها.

- خذي أنت. وأنت. واحدة مني والثانية من تميم بيك.

قبلت سعاد الورقة:

- الله يعوض عليك وعليه، نحن رهن الأمر، في أي وقت.
- ولأي مدة، ومهما تريدان، قل لي يا تميم هل انبسطت؟
- طبعاً، وكثيراً.
- على طول إن شاء الله، لن نقبّل أو نعانق الآن.
- هل تعطوننا موعداً؟
- الخميس القادم. قال وليد.
- ولماذا حتى الخميس؟ قال تميم

ضحك الأربعة.

- سنتصل. قال وليد، بالسلامة يا حلوات.

خرجتا وسعاد النمشاء تغمز بعينها لتميم وحين أصبح الشابان وحدهما ضحك وليد بانشراح وهو يضرب على ساقه:

- لو ترى نفسك أو تسمع ما كنت تقوله الليلة الماضية. يا رجل كم تحفظ من الشعر.
- شعر؟
- شعر بسعاد. قلت لهما أكثر من مائة بيت غزل بسعاد.

أحس تميم بنفسه يتضاءل في ثيابه.

- أنا فعلت ذلك.
- وأكثر.. لقد سكرت، إنما سكرك لذيذ، لا عربدة، لا (مراجل) أو تفاخر، سكرك عشق، اسمع.. هل تذكر ذلك الشعر الذي قلته عن

الـ.... ماذا؟ هَنُ.. طريُ... وإذا طعنته. يا أخي أنت فظيع.. أين كنت.

- أتمزح أم؟

- لا أرجوك.. لا تعبس ولا تنفعل.. ابق كما كنت.

- أنا لا أذكر شيئاً مما تقول يا وليد.

- بالطبع لا. لو يذكر السكران كل ما يقول أو يفعل لما كان سكراناً.

- وأنت؟ لقد شربت مثلي وربما أكثر. لماذا لم تسكر؟

- حين رأيتك وقد ثقل لسانك توقفت. أنا معتاد منذ سنوات على الشراب. أنت شربت أمس للمرة الأولى. وقد سررت بنفسك لذا شربت بسرعة ودون طعام في معدتك، هذا سبب سكرك. انظر إلى نفسك اليوم، لقد شربت عدة كؤوس من الويسكي لكن بعد إفطار وغداء ولم تسكر.

- صحيح لكن رأسي خفيف.

- هذه نشوة الشراب، الإحساس بالخفة والاستعداد للضحك والطرب والشهية للطعام والمزاح والنساء.

ويضحكان معاً، هذا الفرق إذن بين الشراب والسكر، ربما هذا ما عناه عنترة حين قال:

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يُكّلَمِ.

(أو يُثْلَمِ)

لم تسعفه الذاكرة للتأكد، إنه في حالة نشوة حقاً، وحين يمد يده ويخرج المائة ليرة:

- عيب يا تميم، أعدها من فضلك، لا تخرب سرورنا، دعها يا أخي للمرة القادمة.

- على ذكر ذلك، أنا أحسست أنك لا تريد أن تعطيهم موعداً جديداً.

- ولماذا هما؟ هناك كثيرات. أحلى وأصغر و.... اسمع هناك واحدة في الخامسة عشرة، بنت الكلب مثل السمكة تنزلق بين يديك، حامية مثيرة، لكنها تريد أن تبقى عذراء، جاءت مرة بصديقتها، الثانية

جلست وشاهدت ما فعلناه، كانت تزفر وتتنهد وهي تراقب، قالت لي شوشو إن أحداً لم يلمس الفتاة من قبل.

- شوشو.

- العذراء، ثم اسمع، لا تصدق كل ما تسمعه من أسماء، سعاد هذه اسمها وهيبة بنت شاهر، نسيت كنيتها. رأيت هويتها وهي نائمة في الغرفة الخرى. ما قولك، هل أتصل بشوشو.

- اتصل واشترط أن تحضر صديقتها.

- حتى لو لم تحضرها، نتناوب يا أخي أم أنت لا تحب المشاركة؟!

حين صافحه شد كل منهما على يد الآخر. فقد توطدت صحبة بينهما متينة. سداها الكؤوس ولحمتها السيقان والنهود، كان الطريق من الشعلان إلى ساروجة قصيراً جداً لا يطول متّسقاً مع أفكار تميم منصور المتزاحمة، كان سعيداً كما لم يكن من قبل. استرجع كيف بدأ يوم الأمس وكيف سحبته سعاد إلى الغرفة وأحس من جديد أنه مترع بالرضى والاكتفاء، وهذا العرق اللذيذ. كيف كان أبوه يتغلب على تأثيره ورائحته. وهل كان يغيب لأنه كان يشرب أم ثمة ما لا يعرفه أحد؟

مؤمنة حين رأته انقضت عليه معانقة مقبّلة، ثم أبعدته متفحصة متسائلة عن منامه وطعامه وشرابه ثم:

- ولكن أين كتبك التي ذهبت بها؟

وأسعفته بديهته:

- تركتها لزميلي ناهض، سوف ينقل الشروح وتقطيع العروض منها ويحضرها إلى الصف غداً.

كان قد نسي الكتب والدفاتر التي لا يدري أين رست بعد معارك ذلك اليوم. وحين اختلى بنفسه في غرفته حلّل - كعادته - كل ما مرّ به. وبدأ بشخص وليد رماح، توصل إلى أن الشاب ليس محدود الذكاء كما كان يظن وليس متفاخراً بطبعه وإنما أولئك المستفيدون منه هم الذين يوقظون غروره بل يصطنعونه. وهو تميم نفسه لو سمح بمثل ذلك لكان

حوله حاشية منهم، المهم. وليد ذو فطرة سليمة وطويّة طيبة ويمكن أن يكون صديقاً بغض النظر عن إمكانية استخدام بيته ومعارفه من الجنس اللطيف. وهو أيضاً ابن عائلة وذو ملاءة مالية مثله واعترض تفكيره التحليلي ما ذكره وليد عن شوشو العذراء وصديقتها. كيف كان شعور تلك الصديقة وهي ترى بعينيها وصالاً على الطبيعة وتسمع وتراقب عن كثب؟ هل هو ما كان قد شعر به حين تلصص على سليمة ومصطفى. سليمة؟ لم تعد الآن في مقدمة نسائه، ولم يعد مضطراً لاستحضارهن في خلوته. الآن سوف يعيش ساعات المتعة التي قرأ عنها والتي تخيلها، والتي لم تبلغ ما عاشه في يومي الخميس والجمعة.

تذكر أباه وأصحابه، ورد إلى ذهنه اسم صالح نعمان، لابد أنه كان بين الذين جاؤوا معزين. ربما جاء مع الأستاذ راتب وشاهد كيف اعتقلوه، سوف يحاول لقاء هذا الرجل، يريد أن يعرف كل شيء عن هذا الأب الماثل أمامه في عدة صور لعدة أحوال. الشاب ثم المجاهد ثم الزوج وزوجته ثم التاجر ثم الأب مع ولده ثم في الوسط مع العائلة كلها. ولم يطل انتظار تميم لأن المحامي راتب مأمون قد أخلي سبيله مع دفعة صغيرة من الشيوعيين بعضهم قد نشر انسحاباً وأعلن أنه عاد إلى سبيل القومية وبعضهم لم يفعل لكنه قضى زمناً في السجون ولم يأخذوا منه حقاً أو باطلاً، ومن هؤلاء كان المحامي راتب مأمون.

في منتصف الأسبوع استقبلت شقة وليد رماح في الشعلان شوشو وزميلتها نانا، هكذا قدمتها شوشو. وقبل أن تجلس اشترطت أن تخرجا من الشقة بعد ساعتين لا أكثر وأن تنال كل منهما مائة ليرة كاملة. وكاد وليد أن يرفض لولا غمزة تميم. كانت شوشو الأجمل وجهاً، لكن نانا هذه ذات صدر لا يوصف، أخذها تميم إلى إحدى الغرفتين وحين أغلق الباب بدأت تخلع قميصها، وقف يراقبها، نظرت إليه وابتسمت:

- ألا تخلع ثيابك؟

- سأفعل.

وأكملت حتى النهاية وحين رأته يحملق في صدرها وفي تلك الكتلة الكثة السوداء بين ساقيها ضحكت بخجل وأدارت له ظهرها ثم التفتت:

- اسمع، لا تحاول أبداً أن.... أن... تفهم... من الأمام لا أسمح، ولو حاولت سأصرخ، إن شئت...

- ماذا؟

- إن شئت أعطيك هذه... وربتت على عجيزتها.. ألا تعجبك.

- ف ف ف ف...

زفر تميم. ما هذا العرض؟ إنه لن يقبل به طبعاً. وحين خلع الساعة أدرك أن الوقت ينصرم، وقد احبطه أن نانا كانت سلبية أول الأمر ثم حين بدأ يقبلها ويتعامل مع صدرها الناهد استجابت له وهمست في لحظة ما:

- ادخل.. ادخل. أنا لست عذراء أصلاً.

وخلال الساعتين كانت الصغيرة التي في مثل عمره أشبه بالحبيبة العاشقة شهوةً واتقاداً ووصالاً، ورغم ممانعته لم تتركه حتى جعلته يعاشرها خلافاً للطبيعة بينما يداها تجوسان في جسدها المتقد.

- اسمع.. لا تقل لشوشو عما جرى.. إنها. إنها لا تعرف.

- هل هي عذراء حقاً؟

- نعم.. وهي تريد النقود. ستأخذ مني خمسين. إنها تنفق على صاحبتها.

- صاحبتها؟

- نعم.. صاحبتها. قوادتها. اسمع، سأدلك على بيتنا. إن أردتني اطرق الباب عند الساعة الواحدة، غالباً ما أكون وحدي وتستطيع أن تمضي معي ساعة في البيت.

- في بيتك لا.. لا.

- أنا أقول لك. ليس في البيت إلا أمي وأخي الصغير. اسمع، حتى لو عادت أمي فلن.. المهم أعطها خمساً وعشرين ليرة ولن تقول

شيئاً، هل ستعطيني الآن شيئاً؟ قلت لك شوشو ستأخذ الخمسين مني.

- سأعطيك.

بعد أن خرجت الفتاتان تبادل تميم ووليد المعلومات واكتشفا أن ما روته كل منهما لا يختلف عن الأخرى. وضحكا مطولاً حين اكتشفا ثانيةً أنهما دفعا ثلاثمائة ليرة لقاء ساعتين مع عاهرتين محترفتين.

مرت الأيام والأسابيع حتى انتهى العام الدراسي، توطدت صحبة الشابين وغدا عرفاً أن يقضي تميم ليلة الجمعة خارج البيت. عمه سعيد وأولاد عمه حين سمعوا تذكروا أباه من قبل. وحدها سليمة حين رأت تميما وكانا وحدهما قالت له:

- تميم. ما الذي تغير فيك؟

- أنا؟ لا شيء. أنت بعد ولدك الثاني تغيرت وليس أنا.

- كيف؟. هل أصبحت أحلى؟

- م م م. نعم.

ضحكت بسرور. لازال ابن عمها الفتى يراها أحلى الناس.

- وماذا عن مسرة؟

- ماذا عنها؟

- يا أخي ما جنسك؟ الشباب يتزاحمون ليكسبوا ود مسرة، ينتظرونها في الطرقات وهي في وجهك وتقول لي ماذا عن مسرة؟ ألا تعجبك.

- تعجبني، اسمعي يا سليمة قبل أن أنهي الجامعة لن أتزوج.

تشهق سليمة:

- حتى الجامعة؟ لماذا؟ ما حاجتك للشهادة وألله عاطيك وكافيك. هل سوف تتوظف؟ قال للجامعة قال. هل نسيت؟ قلت لي يوماً انتظري حتى آخذ الكفاءة وسأتزوجك.

- أتزوجك أنت. وليس مسرة.

- مسرة الشخاخة.

وضحكا معاً. لازال ذلك الحديث في الذاكرة.

- والآن ألا تعجبك؟

- تعجبني.. إنما.

- إنما ماذا؟ قل ولا تكتم عني.

- أنا أراها كأختي الصغيرة.

تشهق سليمة مجدداً وتضرب على صدرها:

- مسرة أختك، وأنا الأكبر منك بسنوات كنت ستتزوجني.

- ولازلت، ارمي على مصطفى اليمين وسوف أتزوجك.

ويضحكان معاً، يضحكان كما اعتادا أن يفعلا دائماً، تقترب سليمة وتعانقه، تضمه إلى صدرها كما فعلت منذ طفولته. لكنه للمرة الأولى يبعدها عنه.

- هذا لا يجوز الآن يا سليمة.

تبتعد مدهوشة، تتأمله، تتفرس في وجهه، ثمة شيء تغير في تميم، تحدق الى عينيه، يهرب من نظرتها، وتخمّن:

- لقد غدوت رجلاً يا تميم.

أجل هذا ما كان يحس به، وكان الشاهد على ذلك اثنين هما من أقرب أصدقاء أبيه إلى نفسه، فقد قرع الجرس ذات يوم، كان تميم وحده في المساء الحزيراني اللطيف، فتح الباب ليفاجأ بوجه أليف باسم وذراعين مفتوحتين، كان راتب مأمون:

- عم راتب.. الحمد لله على السلامة أهلاً أهلاً أهلاً.

ويعانق راتب الخارج من سجن المزة الفتى الرجل، فقد كان أطول منه وحين يبتعد عنه يقدم له الرجل الأنيق المربوع ذا الوجه المألوف.

- هذا الأستاذ صالح نعمان، كان أقرب الناس للمرحوم عبد المالك.

- مرحباً بك يا عم.

ويعانقه صالح بدهشة:

- ما شاء الله. ما شاء الله. أنت الآن رجل وفي مثل طول أبيك رحمه الله. لقد كبرت في هذه الشهور.

أجل كان وجهاً مألوفاً فقد شارك في الجنازة وحضر العزاء ثلاثة أيـام ويدخلـون إلـى غرفـة الضيوف التي لـم تسـتقبل أحـداً بطقمها البني ذي الصدف منذ أربعين المرحوم، يجلسـون. ويمد راتب يده إلى جيبه الداخلي ليخرج المغلف:

- أنت ابن أبيك يا تميم.

- كأنه قد عطسك يرحمه الله، وما حدثني به راتب عنك يجعلني أقـول: نعـم مـا ربّـى أبـوك. لقـد كان خيـر الرجـال. وأنـت كما يبدو من خيرة الشبان.. إنما اسمع مني إياك أن تنهج نهج الأستاذ راتب. هؤلاء الشيوعيون الملحدون الكفرة لا يجدر بك اقتفاء خطاهم.

ويضحك راتب بانشراح وطرب ويبتسم تميم لكنه لا يصمت:

- وأي نهج تقترحه علي يا أستاذ.

- نهج المنحلّين.. أعني نهج الحزب المنحلّ والمطرود الآن من نعيم الناصرية والمطارد بإذن الله في أرجاء إقليمهم الشمالي. قال راتب ذلك دون أن يترك لصالح نعمان فرصة الجواب. ويضحك الثلاثة ويرتاح تميم لأنهما لم يعاملاه كصغير بل تحدثا معه كبالغ.

- خذ يا بن أخي، وصدقني لقد هوّن علي سجني أنك في الخارج، كمـا هـوّن علـيّ اختفائـي ذات يـوم مودة أبيك ورفقتك في بيت العمارة، أمازال موجوداً؟

- بلى، على حاله.

- ألا تصحبني إليه مرة يا عمي تميم. قال صالح نعمان

- عندما يطاردونك بإذن الله. ويضحكون من جديد.

- بإذنكما دقيقة.

- اجلس لا نريد شيئاً غير رؤيتك، عزة وأمها يسلمان عليك وعلى

الوالدة الكريمة.

- سلمهما الله، أيصح أن تكونا في بيت عبد المالك منصور وتخرجا دون ضيافة؟!

صمتا. وهز صالح رأسه موافقاً بإعجاب، خرج تميم إلى صحن الدار وصرخ:

- مسرة.. يا مسرة.

- نعم ابن عمي.

- أمي عندكم؟

- لا.

- تعالي إذن واغلي لنا قهوة وحضري ضيافة عندي ضيفان.

- على رأسي.

يعود إلى داخل الغرفة فيجدهما يتأملان الصور.

- أهلاً وسهلاً.. متى خرجت يا عم راتب؟

- أول أمس عند الفجر.

- لابد أن الخالة وعزة قد فرحتا بك كثيراً.

- ليس كما كنت أرجو، كان أحد رفاقي قد خرج قبلي بساعات وقد أخبرهما بموعد الإفراج.

- فرحتا إذن ولم تفاجأا.

- هل سمعت يا راتب، هذه تعليقات أبيه. ما أشد شبهك به يا بني، حتى نبرة صوتك وحركاتك.

- لكنه أكثر وسامة من أبيه.

- اسكت، كان عبد المالك مهوى الأفئدة إن كنت تذكر.

هاهما يذكران ذلك. أبوه كان محبوباً.. محبوباً ممّن؟!

- كان أبي يخفي عن الوالدة موضوع الشراب، تعرفان بيئة الوالد تعتبر أن...

- مفهوم.. معظمنا يخفي عن بعض الناس هذا الولع. عمك سعيد

دلّ أباك على الطريق ثم حاد عنه. أبوك تابع وكان مجلسه مجلس أنس وسرور.

- وليس مجلس سكر كبعض الناس.

- ستظل هكذا دساساً يا راتب. ألم تقلع بعد ضيافة عبد الحميد السراج؟

- بل قل ضيافة عبد الناصر.. الذين قُتلوا في السجن أربعة، ولازال فرج الله الحلو مختفياً. ووزيرك وزعيمك هما من حبس وقتل.

يقرع الباب، ويخرج تميم ليرى مسرة تحمل صينية عليها صحون المعمول والحلوى.

- تفضل يا بن عمي.

- تسلم يداك يا مسرة.

ولم يطل بقاء الرجلين عنده. انتقل الحديث إلى الدراسة والمناهج ثم أخذ المحامي موعداً لتزور أم عزة أم تميم وقرر صالح نعمان أن تشارك في الزيارة أم جهاد زوجته وابنته فداء ورحب تميم نيابةً عن أمه، أما عن تميم نفسه فسوف يرى العمّين قريباً. ورافقهما مودعاً حتى ظاهر الزقاق، وحين عاد كانت مسرة قد رتبت ونظفت كل شيء.

- شكراً يا بنت عمي.

- واجبي يا تميم، ومن عيني.

كانت في خجل وارتباك، لابد أنها سمعت كثيراً عن إمكانية الارتباط به بل ربما عن ضرورة هذا الارتباط. وهي فعلاً حسناء، وأكثر من مدرسة سألتها إن كانت تقبل خطبة وزواجاً سريعين. بل بعض زميلاتها كن يرشحن لها إخوتهن أو أعمامهن. لكنها ونتيجة كلام أمها وهمسات أخواتها اعتبرت نفسها محجوزة لابن عمها الذي تعرف كم كان متعلقاً بأختها الأكبر سليمة.

رفعت رأسها لتنظر إليه وأدركت أنه كان يتأملها، هو بدوره كان محرجاً إنه لا يريد أن يلتزم وقد انفتحت أمامه دنيا من العلاقات، ولا

يريد لها أن تنتظره. فكيف يبلغها ذلك برفق؟

- سمعت أن الخاطبين يطرقون باب عمي منذ الآن؟

- م م م من قال.

كان وجهها حقاً في لون الشوندر الآن.

- لا داعي للخجل، أنا أيضاً أخوك، وسأفرح لك إن جاءك خاطب يليق بك، أنت بنت سعيد منصور على سن ورمح.

- أنت أكبر مني، سيأتيك الدور قبلي، خالة مؤمنة لن تتركك طويلاً.

كانت تحدثه كأنه أخ أو زميل ولاحظ ذلك. لقد تخلت عن الحرج:

- أنا يا بنت عمي العزيزة أمامي الثانوية ثم الجامعة ومن يدري فقد أسافر لأحصل على الدكتوراه في بلد أجنبي قبل أن أفكر. أمي لن يعجبها ذلك لكنه سيحصل كما أقول.

كان ذلك واضحاً ومباشراً، وخشي أن يدفعها حديثه للبكاء:

- أنا نفسي قد عزمت على مثل ذلك، سأغدو مدرسة رياضيات.

كان معروفاً في الأسرة أن مسرة تحب مدرسة الرياضيات في الإعدادية وأنها تنال الدرجة الكاملة، كما أن المدرسة التي أحبتها كانت تزور بيت سعيد منصور باستمرار وتقول بصراحة إنها لو كان لها ولد أو أخ لحجزت مسرة له منذ الصف السابع.

- برافو، هكذا أفضل، نعم، ادرسي الرياضيات لأن الحياة معقدة يا مسرة وسوف تحلّين مشاكلها كأنها مسألة جبر بثلاثة مجاهيل.

ويضحكان معاً بسرور وانشراح ودون حرج الآن.

- هل تحتاج شيئاً آخر يا بن عمي؟

- تسلمين يا مسرة، شكراً لك، سلّمي.

خرجت تحت أنظاره مشيقة ميساء ملداء كما كان الشعراء يقولون وقد أحس في قرارة نفسه بأنه جرحها بطريقةٍ ما. صحيح أنها لم يظهر عليها أي تأثر وقد سد الأبواب في وجهها ولكن لابد من أنها شعرت بالرفض والإحباط. أما مسرة فلم يكن الحديث الذي جرى باعثاً لأساها

بقدر ما كان تصديقاً لشعورها الدفين بأن ابن عمها غير آبه بها. وربما حين تكون في الطريق مع زميلاتها ربما يلاحق بنظراته هذه أو تلك أكثر مما ينتبه إليها، ثم إنه مدلل سليمة وأين هي من سليمة؟ سليمة التي تضج أنوثة هي غيرها. ورغم كل حديث أمها وأخواتها وخالة مؤمنة عن حسنها لكن أين هذا الحسن؟ آسيا أكثر منها جمالاً.

وهذا الجسد الشاحب الذي تتأمله خلسة ليس فيه صدر سليمة ولا ساقا آسيا، باختصار إنها في نظر نفسها صغيرة وغير فائقة وابن عمها محق في أن لا ينظر إليها. لذلك قررت أن تكون شيئاً آخر غير أخواتها البنات وإخوتها الذكور. سوف تتعلم أكثر منهم والرياضيات التي يشكون منها جميعهم سوف تبرع فيها وسوف وسوف.

لم تكن مسرة تعلم أن جسد بنت الثالثة عشرة هذا سيغدو في وقت آخر. وأقرب مما تتصور سيغدو بتكويراته وتدويراته شيئاً يسيل له اللعاب، وبدون أي انفعال روت كل ما جرى لأمها التي لطمت على صدرها وطلبت منها أن تكتم هذه السيرة عن الآخرين وككل أم دمشقية أصيلة قررت رضية أن الباب الذي يؤتى منه تميم هو باب الأمومة، ومؤمنة لن ترضى كنة غير مسرة، أما الآن فإن الأمومة تقتضي الاهتمام بآسيا فعرسها على الأبواب ولا تريد أن يصرفها شيء عن هذا الواجب المرغوب جداً.

الشارع الدمشقي لم يعد يحفل كثيراً بسياسة الحاكمين. بل ربما على عكس ذلك بدأ يهتم بما يروج له الأعداء في إذاعات بغداد وعمان وصحف بيروت وغير ذلك، وحالة التوثب القومي والازدهاء الوحدوي لم تعد فعالة وانسحبت متراجعة أمام غمغمة النقد المكتوم لسلوك المباحث، ولما أشاعه المغرضون حتماً عن الاستعلاء المصري والدونية السورية، كان القوميون السوريون وحدهم بادئ الأمر من ينتقد الهيمنة المصرية على الشام، ثم لحق بهم الشيوعيون في التركيز على الديكتاتورية وانعدام الحريات والبطش بالخصوم، وهاهم البعثيون الآن رغم ما يعقدون من

مؤتمرات في بيروت يداورون بها حكام المتحدة لكن الذي يرشح منهم بما لا يقبل الجدل هو الخيبة الكبرى في قيادة عبد الناصر، إنهم يرون الضباط غير الحزبيين يقودون البلد بينما هم الذين سعوا للوحدة وتخلّوا عن تنظيمهم يتم استبعادهم وإقالة وزرائهم وتحجيم دورهم في الشأن العام. ثم هؤلاء التجار والصناعيون الدمشقيون الذين رأوا كيف استبعد خالد العظم وصبري العسلي وأكرم الحوراني وعفيف البزرة من الذين سعوا للوحدة. كل هذه الجهات لم تكن راضية والتململ قد انتقل إلى همس وحين يزداد الهمس يصبح لغواً وصراخاً.

قبل الزفاف الفاخر الذي جرى لآسيا بعدة أيام جاءت هند زوجة راتب مأمون وابنتها عزة بزيارة لمؤمنة، وجاءت نازك زوجة صالح نعمان وابنتها فداء. كانت مؤمنة تعلم أن الضيفتين ستصحبان بنتيهما فلجأت إلى المكر النسائي المنهجي وطلبت من رضية أن تكون مسرة معها في استقبال القادمات وفهمت رضية الخطة لذلك حين دخلن من باب الدار كانت مؤمنة ومسرة في استقبالهن، وبنت الثالثة عشرة هذه كانت في طول (خالة) نازك لكن وكما قالت لها (خالة) هند سبحان الذي كمّلك بالحسن يا مسرة، ستكونين مسرة وفرحة لصاحب النصيب. عزة وفداء كانتا أكبر من مسرة لكن ثلاثتهن ائتلفن في حديث ضاحك عن الدراسة والمعلمات والمديرة ثم انتقلن إلى عبد الحليم حافظ وشادية وأحمد رمزي. أما السيدات فقد تخلّت كل واحدة عن جانب من شخصيتها لتكون الجلسة أنيسة، مدام نازك لم تستعرض أسفارها مع زوجها رجل الأعمال، ومدام هند كتمت ولعها بالسياسة وخوضها غمارها في تنظيم مغضوب عليه، ومدام مؤمنة أبعدت حزنها ولوعتها لمصابها بعبد المالك جانباً وبدت مرحبة ودودة، فهاتان هما زوجتا أقرب الناس لحبيبها. ومن واجبها أن تقضيا معها وقتاً جميلاً إنما... إنما لن تكون عزة ذات الوجه الرجولي ولا فداء ذات الصوت المصوصئ كالفئران لن تكون واحدة منهما في فسحة نظر تميم، فهاهي مسرة المتألقة كالأميرات أو الممثلات

متاحة ومتوفرة.

قبل عرس آسيا بيوم وبينما الجميع منشغلون بالترتيبات همس رضوان الأشقر النقيب في سلاح المدفعية لنسيبه تميم منصور بكلمات أقلقته:

- هل تذكر حديثنا عن الوزير والمشير؟
- أذكر بالطبع، وسمعت أن السراج سافر للقاهرة.
- قد عاد وربما هو حردان في حماة.
- ما معنى ذلك؟
- ربما لن تأتي نهاية هذا الشهر بخير للمشير أو الوزير.
- كيف؟ وو....
- س س س. انس ما سمعته مني الآن. عليك أن تنساه.
- حسناً، لن أذكره لأحد، لكني لن أنساه.

لم تعطه الأيام فرصة للنسيان، كان الدوام في الصف الحادي عشر العلمي قد بدأ، ووليد رماح لحق به للفرع العلمي، تعمقت الصداقة التي بدأت لقاء لهو وتسلية، وقد فهم تميم أن صاحبه من أسرة تهتم بالسياسة إضافةً لنفوذها العائلي والمادي، وأن منهم البعثي والقومي وعضو الإخوان المسلمين، وقد كان منهم نواب عبر المجالس النيابية السابقة، وعمه يرأس الاتحاد القومي في المنطقة، أما أبوه فهو أغناهم، يملك محلات ومحطة وقود وقطعاناً من الماعز والأبقار وعدداً من المزارع، وهو قد تخلى عن الدراسة حين لم يجتز فحص البروفيه (الإعدادية) فاتجه لمساعدة الجد، وهكذا دخل أبي عالم الكسب مبكراً. قال وليد.

- وبالنسبة للسياسة؟
- أبي عمل نائباً مع الشيشكلي، وهو الآن غير مهتم.
- وأبي رفض أن يفعلها رغم إغراءات الشيشكلي.
- نحن لم نخسر بذلك.
- ونحن كذلك لم نخسر.

ويضحك الشابان معاً وهما يسيران مبتعدين عن الثانوية، لقد تخلّى وليد عن معظم الذين كانوا يرافقونه لأنه وجد صاحبه لا يحترمهم واحتفظ الاثنان معاً بصداقة سركيس الشاب الأرمني المتفوق باللغتين الفرنسية والعربية كان ينافس تميم منصور على زعامة اللغة العربية وكان ينافس وليد رماح في كمية الكحول التي يشربانها في الجلسة الواحدة، كان رفيق لعب الورق وشرب العرق وارتياد المطاعم، لكنه لم يكن كذلك في السهرات الحمراء، إذ ظلت هذه للاثنين وكان مع تميم الآن مفتاح لشقة صاحبه إذ أن وليداً قضى معظم الصيف في بلدته.

جاء صباح الثامن والعشرين من أيلول عام 1961 بما أنهى حكم المشير والوزير كما تنبأ رضوان الأشقر، وحين أقبل المساء كان كل شيء قد انتهى فعلاً، ذلك الذي رآه عبد المالك منصور حلماً تحقق بوحدة القطرين، والذي اعتبره القوميون السوريون سلخاً للشام عن الجسد السوري، والذي لم يصوت عليه بالموافقة نائب الشيوعيين، والذي محا تنظيم البعثيين في سورية، ذاك الاندماج الذي لم يتحقق فعلاً انتهى. وقد خلف قيامه ثم زواله في الجسم الفكري والسياسي للسوريين آثاراً عميقة ربما لاتزال فاعلة حتى اليوم.

وبعد مرور عقود طويلة، وحتى لو سألت الرجل الآن عن مشاعره الحقيقية ذلك اليوم لأجابك مثل تميم منصور وهو في لونج فيو من ولاية واشنطن عندما أجاب أندرو براون حين التقيا بداية عام 2006 بقوله:

- لم يكن يوم فرح، ولم يكن يوم أسى كذلك. الأسى جاء بعدها يا أندرو.

« 11 »

خريف صاخب آخر

إنه المدير الشاب للمكتبة الأمريكية. فيه خجل الشباب أكثر مما فيه من اعتداد الأمريكيين وصفاقتهم يدخل الصيدلية وحين يراني يهز رأسه محيياً مع ابتسامة تعرّف. أقوم لأمد يدي مصافحاً وأقول بالإنكليزية أنا كمال راضي، يمد يده ويقول بالعربية: أنا أندرو براون. يسألني عن معدل حموضة وأقدمه له، يقرأ الثمن المكتوب بالعربية ويخرج النقود من جيبه ويدفع ثم يبتسم من جديد ويقول بالإنكليزية: سنلتقي. وأقول له بالعربية: أكيد. ويغادر لا يمضي يومان حتى نكون في فندق أمية نحضر عرساً لأحد الأقارب البعيدين ويفاجئني وجود أندرو براون وكهل أمريكي آخر. تحتفي العروس بهما كثيراً وكذلك أهلها وحين تستفهم سامية نعرف أن العروس (هناء) موظفة في المكتبة، الثوب الأبيض والماكياج والتسريحة بدلت هيئتها لذلك لم أعرفها، إنها من جهز لي بطاقة المكتبة، الحقيقة أنه لا شيء فيها يلفت النظر كي أتذكرها. أرى الأمريكيين جالسين وأندرو يتلفت حوله، لو لم يكن أمريكياً لكان واحداً من أقارب العريس أو العروس فلا شيء يميزه، إنه بمقاييس البلد طويل يزيد عن 172 سنتيمتراً، أميل للوسامة وعيناه ملونتان. وبينما كان الكهل الذي يرافقه يبدو مستمتعاً بما يرى ويسمع كان أندرو براون يستطلع ويراقب ولابد أنه كان يشعر بالوحدة إن قلة من شعبنا يجيدون التحدث بالإنكليزية، ومعظمهم لا يرتاحون لوجود أمريكي. شعرت بالرثاء له وهذا ما جعلني أقترب من طاولته، حين لمحني عن بعد ابتسم بتهذيب:

- مساء الخير مستر براون.

- مساء الخير مستر رادي. كان الحديث بالإنكليزية، وقف

وصافحني. كما وقف بتهذيب الكهل الذي يرافقه.

- دعني أقدم لك المستر بروس تالبوت الملحق الثقافي الأمريكي في دمشق. مستر تالبوت، أقدم لك مستر رادي (راضي) الصيدلاني. إنه، أعني الصيدلية خلف المكتبة.

- تشرفنا.

- تشرفنا.

- تفضل مستر رادي.

- لهجتك ليست لهجة لندن مستر رادي.

- إنها إيرلندية أليس كذلك؟ لقد درست في إيرلندا. قال تالبوت.

- بالفعل إنها إيرلندية.

- كيف ترون العرس الدمشقي؟

- عفوي، طبيعي، فيه بعض الفوضى. قال تالبوت.

- لماذا كل هذا الذهب والمجوهرات؟ ألا يخشى أصحاب العرس من عصابة مسلحة؟ قال أندرو. وأضحك أنا وتالبوت بانشراح.

- صدقني يا أندرو إن دمشق أبعد ما يمكن عن شيكاغو ولا يمكن أن يحدث الذي تقوله مطلقاً. هنا غير، هنا مختلف عن بلادنا.

- هل تحسن القراءة بالعربية يا مستر براون؟

- ليس تماماً.

- حسن، عليك أن تقرأ صحيفة يومية، بذلك تكون أقرب لتشكيل صورة مناسبة عن الحياة في دمشق.

بدأت زفة العروس على أنغام الموسيقى المناسبة، تعالت الزغاريد وتثنت الراقصة نصف العارية أمام العروسين، استأذنت منهما ولحقت بسامية، وعن بعد كان تالبوت يصفق مع الآخرين متابعاً الإيقاع الموسيقي بينما عينا أندرو براون تتفرسان بالنساء. من الواضح أنه يرى للمرة الأولى هذا الحشد من الحسناوات. إن العديد من النساء الضنينات بإظهار جمالهن في الطريق أو المطعم أو المتنزه يصبحن ميالات لعرض

المحاسن في المناسبات، ربما للتفاخر أو للغيرة من الأخريات وقد يكون ذلك ضد رغبة الوالدين أو الزوج وربما بتشجيع منه، ولكل أسبابه.

بعد أيام قصدت المكتبة، أنا أقرأ فيها الأعداد القديمة من النيويورك تايمز أو الواشنطن بوست أو التايم. وربما أفتح كتاب شعر أو رواية، أنا أعتبر ذلك تواصلاً مع اللغة واستمتاعاً بها. ربما لو كان المركز الثقافي البريطاني قريباً من عملي لكنت من رواده أيضاً. لكني بحكم الجوار أقصد المكتبة. لم يخطر ببالي أن أرى أندرو، هنا مكان عمله، وأنا هنا لأقرأ. لكنه وهو يجول في المكتبة رآني، ابتسم وهز رأسه ففعلت مثله، اقترب مني:

- مستر رادي، كيف الحال؟

- جيد، كيف أنت مستر براون؟

- جيد.. ما رأيك بفنجان قهوة؟

حدقت إليه مستطلعاً، ليس أنا وحدي، بل معظم الناس والمتعلمون منهم بخاصة يعتبرون الأجانب من العاملين في النشاطات الدبلوماسية أو الثقافية جواسيس وعملاء. أنا لا أشذ عن القاعدة، ما الذي يتوخّاه مني هذا الشاب؟ كان في عينيه وداعة وبساطة:

- بكل سرور مستر براون.

- تفضل.

عند باب الإدارة جعلني أتقدمه، هذه عادة محلية، لا أظن أن الإنكليز وبخاصة الأمريكان يتحلون بها. المكتب غاية في البساطة. خزانتان وطاولة ومكتبة صغيرة وكراسي جلدية. جلست وأسرع يفتح غطاء ترمس ويتناول فنجاناً يتيماً ويصب لي القهوة هكذا دون صحن للفنجان ثم يصب لنفسه في غطاء الترمس وحين أرفع الفنجان تفاجئني منه حركة متسرعة إذ قرع الغطاء بفنجاني قائلاً:

- نخبك!

ضحكت رغماً عني، كانت حركة ودوداً، وعفوية تماماً:

- في صحتك.
قهوته ثقيلة وطيبة المذاق.
- هل أعجبتك؟
- إنها كما أحبها ثقيلة ونكهتها غنية.
- أوه.. شكراً، ليس لي وإنما لبائع القهوة، هو يبيع قهوة طيبة، يسرني أنها أعجبتك.
نظرت إلى زاوية طاولته كان ثمة كتاب فيه ورقة تشير إلى حيث وصل في قراءته:
- هل تسمح؟
- بالتأكيد.
كان الكتاب للمصادفة البحتة هو (واينسبرغ، أوهايو) لشيروود أندرسون - Winesburg, Ohio - وكان قد وقع في يدي عندما جلبته معها إحدى حمراوات الشعر اللواتي ترددن على شقتي حين كنت في السنة الثالثة من دراستي. يومها قرأت فيه ولم أكمله وظل في خاطري، فلا أنا تذكرته لأشتريه أثناء إقامتي هناك وحين أتذكره أكون بعيداً عن مكان يوجد فيه:
- مستر براون، أنا لم أر هذا الكتاب في الأرشيف.
- ستراه الآن. يبتسم. لقد اشتريت مجموعة كبيرة من بيروت، وإن كنت تحب القراءة لشيروود أندرسون فإن ثمة رواية أخرى له. (الضحك القاتم).
- كبداية أحب أن أكمل هذا.
- تستطيع أن تبدأ اليوم، إني أقرأه للمرة الثالثة.
- هل تحب أن تكرر القراءة؟
دخلت مع أندرو براون في حديث يبدو أنه كان يلذ له بقدر ما يلذ لي. شربنا القهوة ثانيةً ودخّنا السجائر. اكتشفت أنه مطلع على الرواية الأمريكية بصورة جيدة، وعلى الإنكليزية أيضاً، ولا أدري كيف خطر

لي أن أناكفه قليلاً:

- عندي مجموعة روايات مترجمة للإنكليزية عن الروسية، هل قرأت شيئاً من الرواية الروسية أو السوفييتية؟

- قليل. هل... هل عندك مكتبة خاصة؟

- طبعاً، فيها كتب بالإنكليزية والعربية.

- ستدعني أراها ذات يوم؟

- بالطبع. وأدركت أنه لم يقصد أن يفرض نفسه علي في زيارة بقدر ما كان مشدود الفضول للكتب. وعولت على اختباره:

- ما الذي جعلك تختار هذا العمل هنا في دمشق؟

- المستر تالبوت، لقد رأيته في حفل زفاف هناء، كان رئيسي في واشنطن إنه مثلنا يحب القراءة كثيراً، اختارني ربما لأنني أحب الكتب، في الحقيقة حتى الآن لم أخمن أسبابه.

كانت إجابته صادقة كما ظهر لي، إنما من يضمن ألا يكون قد تلقى تدريبات تجعله يجيب هكذا. لقد دعاني إلى مكتبه ودعا نفسه إلى بيتي، وقد استضافني على قهوة، لابد أنني في ذهنه الآن، ربما يعتبرني حالة تستحق الدراسة تمهيداً لتجنيدي. صحيح أن هذا نابع من نظرية المؤامرة التي لا نستطيع العيش دونها ولكن لابد من الحذر.

- حسناً مستر براون، شكراً على القهوة وعلى هذا الحديث المفيد.

- أهلاً مستر رادي، كان لي متعة الحديث معك.. نلتقي.

- بكل تأكيد.

غادرت المكتبة، اتجهت إلى البيت دون التعريج على الصيدلية، فاجأت نفسي بأني أنظر للخلف، لازلت أسير الشكوك، هل يراقبني أحد؟ من يدري إن كانت المباحث تشك في أمري الآن أم لا؟ لماذا أعرض نفسي لهذا الموقف؟ ما الذي يهمني من أندرو براون ومكتبته حتى أضع نفسي موضع الشبهة؟ إنما في المقابل لماذا عليّ إذا تنفست أن أضع في الحسبان ما قد يقوله المخبرون الأوغاد؟ كل ما في الأمر

هو ولعي بالقراءة. إذا ترددت على المركز الروسي لن أنجو من تهمة الشيوعية والملاحقة. وفي المكتبة الأمريكية هل الحال أفضل؟ كان الجواب ببساطة نعم. الشيوعية تهمة، أما الاتصال بالأمريكان فهو شبهة لا أكثر. ضحكت في خاطري وحين وصلت إلى رصيف حديقة المزرعة رأيت مشهداً يجعلني أتحسر قليلاً، كان الشاب يجلس في المقعد الخلفي من سيارة تكسي. والفتاة تخرج من الحديقة متوجسة وعيناها تمسحان الاتجاهات ثم تدخل التكسي بحركة خرقاء تجعلها تصدم رأسها وتتألم لكنها تبتسم للحبيب وتقلع السيارة. أنا الآن بحاجة إلى مغامرة كهذه وبصريح العبارة إني أحسد أنور حداد. إن له علاقة تجعله في حالة استقرار وتوازن.

حالة الحكم غير مريحة، هناك خلافات بكل تأكيد، مطاع الحلبي الذي يسمع كثيراً ويعرف أكثر قال لي: إن أعوان السراج يهاجمون المشير وحتى الرئيس والناس يتحدثون عن نفوذ متزايد للضباط الدمشقيين. الصحافة المحلية السخيفة تصوّر أننا نعيش في فردوس مقيم وأن كل من يجاهر بنقد هو رجعي وعميل للأمريكان ومن أعداء الوحدة، لولا تعلق الناس العاطفي بالرئيس لربما لم يبق من الوحدة الاندماجية شيء. عزيز نصري ودعنا قبل شهر وغادر إلى القاهرة من أجل الدكتوراه. قال لي: إن من يعرفه من البعثيين السابقين قد تباينت آراؤهم حول الواقع الحالي بين نادم على تسليم مقاليد الأمور للآخرين وبين من غدا ولاؤهم للرئيس وحده متنكرين لأي نقد أو مراجعة. بينما جميل مسعود قال لي: إن القصر العدلي يشهد زيادة كبيرة في قضايا السرقة والاحتيال وأيضاً في قضايا الدعارة وجرائم الشرف. وحين سألته عن مغزى ذلك قال: المجتمع في انحدار والقيم لم تعد كافية للحفاظ عليه. كلام كبير حتماً. ومع هذا فقد أفرجوا عن جماعة من الشيوعيين. سمعت أن المحامي راتب مأمون من تعدادها، راتب كان يوصل لي بعض النشرات والصحيفة الداخلية للحزب الشيوعي أثناء مروره بالصيدلية. قليلون من يعرفون

بكوني صديقاً لهم. وحده من أصحابي كان أنور قد اكتشف قربي من الشيوعيين. إن بوصلته كسوري قومي قد قادته إلى أن يحكم على مجمل آرائي بقوله: لك تحليل الشيوعيين لكنك لست منهم لأنك لو كنت لما كتمت. أنور ذكي جداً، وحده يغلبني بالشطرنج قدر ما أغلبه. والآن ماذا أفعل بهذا الأندرو براون؟ حدسي الداخلي يقول إنه بعيد تماماً عن السي آي إي (CIA) وإنه مجرد موظف في مكتبة. لكن الحذر يقول شيئاً آخر، وكان علي أن أقرر.

بعد أيام دخلت مكتب أندرو فهب واقفاً مرحباً وعلى عادة الأمريكيين في رفع الكلفة والمخاطبة بالاسم الأول:

- كمال. أهلاً.. تفضل، تفضل.

عيناه تعلقتا بيدي. كان فيها كتاب هام، هكذا عادة من تستهويهم القراءة يعاملون الكتب كالعشيقات يتأملون اللون والحجم ثم يختلسون النظر إلى الاسم واسم المؤلف. نحن نفعل كذلك تجاه المرأة، ننظر مباشرةً للوجه والقوام والقسمات ثم نختلس النظر لفتحة الصدر أو انفراج الركبتين أو استدارة الردف.

- هذا كتاب لا أظن أنك قرأته.

- ما هذا من فضلك؟

- خذ.

- شولوخوف؟ الدون الهادئ، واو يا كمال. شولوخوف مرة واحدة. هل تريد أن تخلق لي مشكلة مع السي آي إي.

ويضحك بسرور وطرب للنكتة التي أطلقها ويمسح بيده على الكتاب هاهو قد بدأ يتحسسه. الملامسة المعهودة نفسها كافتتاحية للعلاقة:

- هل تعيرني إياه فعلاً؟

- طبعاً، أحضرته إليك لتقرأه.

- وو.. أنا.. ماذا أعطيك بالمقابل؟

- أنا لا أيد مقابلاً.

- ولكن..

- هل عندك كتب تخصك.

- عندي في البيت. بيتي قريب، عندي رواية حديثة لجون شتاينبك إنها إصدار السنة.

- «شتاء سخطنا» الرواية الثانية عشرة له.

- أوه. سبق لك أن قرأتها. قال بدهشة.

- بل قرأت عنها. يسرني بالطبع أن أقرأها.

- حسناً سأذهب لأحضرها الآن.

- أندرو، ليس الآن. الآن أحتاج إلى قهوتك اللذيذة.

- بكل سرور كمال. إنها جاهزة. أحضرت فنجاناً آخر.

يصب القهوة وهو مبتهج، وأدرك أن كتاب شولوخوف سبب ابتهاجه:

- أندرو، هل قرأت شيئاً لإيفو أندريتش اليوغسلافي؟

- جائزة نوبل هذا العام، لم أقرأ له، هل قرأت أنت؟

- قرأت له كتاب وقائع مدينة ترافنك، إنه كاتب روائي جيد.

- وجسر على نهر درينا؟

- لم تقع في يدي بعد.

- اسمع كمال: أنا أحضرت بعض كتبي الخاصة، سوف أعرضها عليك لتستعير ما تريد. أنا أعرف كم هو ممتع الاختلاء برواية جيدة.

- وأنا يا أندرو.

لقد استعمل كلمة الاختلاء، هذه الكلمة من حيث اللغة والشرع تخلق مشكلة عويصة، الخلوة. إنها تعبير جنسي أكثر مما هي وصف حالة، أجل قراءة رواية للمرة الأولى أشبه بفض البكارة، ولا تقرأ الرواية ثانيةً إلا إذا كانت متعتك في المرة الأولى حافزاً على التكرار.

- اسمع، أنا أعطل بين الواحدة والرابعة وأنت؟

- أنا أعطل حين يحلو لي، إن ثمة من يشتغل عني في الصيدلية.

- حسناً، سأتصل بالمطعم، يحضرون لنا طعاماً ونأخذ معاً كأساً وأعرض عليك كتبي.

كاد الرفض يصل إلى شفتي، ما هذا الأسلوب الآن؟ لا. الأضمن أن أصحبه أنا إلى القبو. لا، في البداية أعرض عليه مكتبتي ثم ننزل إلى القبو. لا أريد أن أجعله يرتبك، سوف يصر عطا على مشاركتنا. و.. لا.. سأطلب من سامية تجهيز المائدة بحلول الساعة الثانية، لكنه يريد كأساً، الأفضل إذن:

- اسمع يا أندرو، عرضك كريم ومغرٍ، سوف نذهب معاً إنما إلى بيتي، سأعرض عليك المكتبة، لكن غداءنا سيكون في القبو عندي، هناك مكان لي ولأصحابي للسهرة والشراب ولعب الورق. سأبدأ أنا باستضافتك اليوم، لكن عليك أن تسمح لي باستعمال الهاتف.

- لكني أنا دعوتك أولاً. هل هناك حرج عليك في قبول دعوتي؟

- لا.. طبعاً لا.

- إذن عندي، سأخابر المطعم.

اتصل بمطعم أبو كمال، كانوا يعرفونه، طلب لحماً مشوياً ومقبلات منوعة ثم نظر إلى ساعته واحتضن الدون الهادئ قائلاً:

- لنذهب يا كمال.

بيته أقرب للمكتبة من بيتي، إنه في جادة تواجهها، بيت صغير أنيق، لكنه بيت عازب، عازب قارئ وشارب، هكذا أستطيع أن أصف البيت، رائحة العرق تنبعث من كأس في المطبخ لم يتم شطفه، وكتاب إنكليزي في زاوية ورواية صغيرة بالعربية أمسكت بها وانفجرت ضاحكاً:

- أرسين لوبين؟ ما هذا يا أندرو؟ تقرأ بالعربية أرسين لوبين.

ابتسم ودهش:

- وأنت ألم تقرأ روايات موريس لبلان؟

- بلى، لكن هذه ليست من رواياته إنها ملفقة، يكتبها في بيروت

أناس أذكياء ويبيعون منها بالآلاف.

- وأنا ظننت أن الكاتب الفرنسي قد اكتشفوا له روايات أخرى.

ويضحك بسرور.

- المهم. أنا أفهم معظم المكتوب هنا.

- لأنه بلهجة سهلة وهذا سبب رواج هذه الروايات الملفقة.

- م م م... دعني أر.

كانت المكتبة عبارة عن رفين على الجدار فيهما تراصّت كتب بالإنكليزية وبعض المجلات وروايتان بالعربية. شتاينبك. همنغواي، أندرسن، عزراباوند، مسرحية لتنيسي ويليامز، رواية هاربرلي الكاتبة التي فازت بجائزة بوليتزر هذا العام: لا تقتل عصفوراً ساخراً. رواية للكاتبة الإنكليزية موريل سبارك قرأت عنها نقداً قبل أيام في صحيفة لندنية.

أحضر أندرو ريثما تأملت الكتب وقلّبت بعض صفحاتها زجاجة ويسكي وسطل ثلج وكأسين، كما أحضر زجاجة عرق مفتوحة من العرق اللبناني الجيد وقدحين مناسبين وبعض الموالح والزيتون واللبنة والمكدوس، ابتسم أمام دهشتي وقال بمودة:

- ماذا تحب أن تشرب، عندي أيضاً فودكا وكونياك ونبيذ كسارة.

- أنت ماذا ستشرب؟

- لأني سأعود إلى المكتبة سأشرب ويسكي.

- وأنا سأعود للصيدلية، لذلك سأشرب معك كأس ويسكي، بالثلج.

- أنا اعتدت أن أشربه دون ثلج.

- في صحتك.

- في صحتك.

قرع الجرس، خرج لإحضار الطعام، كان قد طلب ما يكفي لأربعة، وغدت المائدة عامرة، وكانت تحوي العديد من أصناف المازة، المحمرة والكبة النيئة والمتبل والتبولة وغير ذلك، كنت في الحقيقة أفضل العرق

على ما عداه وهذا العرق اللبناني طيب المذاق، وأستطيع ألا أعود للصيدلية بوجود مطاع.

- أنا سأشرب العرق بعد هذا الكأس.

- وأنا أعترف لك إنني أحب العرق، وقعت في غرامه ليلة وصلت إلى دمشق. المذهل يا كمال أنك في أحد مطاعم الربوة إن طلبت زجاجة العرق المبسّطة (البطحة) مع المازة جاؤوك بصحون لا تحصى وكلها لذيذة.

ضحكت طرباً فهذا الأمريكي يتمتع مثلنا بالعرق والمازة:

- كم عمرك يا أندرو؟

- واحد وعشرون وأنت؟

- ثلاثون وبضعة أشهر. أنا عجوز كما ترى.

- لست كذلك، لابد أنك متزوج.

- وأب لثلاثة، عطا، كنانة، نورا.

- أتا، كنانا، نورا. بنات؟

- أتا كما تقول هو الذكر، ومعناه بالإنكليزية بين العطاء والكرم. كنانا هي جعبة السهام، وهي من صفات مصر، ونورا هي نورا.

- نورا المسرحية؟

- بالضبط، وأنت يا أندرو؟

كان كأس الويسكي وقدح العرق اللذان شربهما قد جعلاه في بداية النشوة ولابد أنه كان سعيداً لوجود كتاب ثمين للقراءة، وربما كان سعيداً باستضافة أول سوري في بيته لذلك كان على سجيته، حدثني عن أرلنجتون وأسرته المتعصبة لدرجة الشوفينية، عن واشنطن وجودي كامبل، عن باميلا التي تركها والتي لم تحتمل بديله لونسديل. عن بروس تالبوت وطفولته المستمرة حتى الآن. عن حبه لسوق الحميدية ومطاعم دمشق في الربوة والقصاع، وعن السيجارة التي قلما تنطفئ وعن الكتب والشراب. وبدوري حدثته عن زواجي ودبلن وحمراوات الشعر والأولاد

وأريته صورة عطا ولابد أني بعد عدة أقداح قد غدوت عاطفياً إذ تأثر بألمي المكتوم عن وفاة الحاج عطا قبل أن يرى حفيده ولا أذكر إن كان قد هاتف أحداً أم لا، ما أذكره أنني حين نظرت للساعة كانت الرابعة والنصف. وكان واضحاً أننا سوف نجلس حتى النهاية، ولا أدري كيف وصلنا للحديث عن السياسة، قلت له ببساطة: أنا ماركسي فقال: سأكتم سرك. إنكم مطاردون هنا كما أقرأ. وفهمت أنه غير متدين وغير متعصب لأمريكيته مطلقاً، تحدثنا عن السينما، ذكرت له الإيرلندية حمراء الشعر الأحب إلى قلبي (مورين أوهارا) فأعرب عن إعجابه بالإيطالية (ماريزا ألازيو) والسويدية (أنيتا إكبرغ) كان هو باختصار يحب الصدور الناهدة وأنا تستهويني الإيرلنديات حمر الشعور. أكلنا كل ما على الطاولة، وشربنا معظم زجاجة العرق وحين عاودت النظر إلى الساعة كانت قد بلغت الثامنة والربع ليلاً، نحن جالسون هنا منذ سبع ساعات. وقفت ووقف، أسرع ليحضر لي رواية شتاينبك:

- أمامي ليلة طويلة مع شتاينبك.
- ولي مثلها مع شولوخوف صاحبك.

أبتسم لإيماءته وأشد على يده كما يشد على يدي، هاأنذا صديق الحزب الشيوعي أتعامل بكل هذه المودة مع هذا الأندرو السكير الملحد عاشق الكتب والسجائر والعرق اللذيذ، والأمريكي التكساسي قبل كل شيء.

- إلى اللقاء كمال.
- إلى اللقاء أندرو.

كان كلانا في نشوة، أنا على الأقل لأنني تحدثت بالإنكليزية التي أشتاقها منذ غادرت دبلن ولمدة ساعات، ولأنني تواصلت مع شخص بدالي واضحاً وصريحاً وليس فيه شيء من البعبع الأمريكي.. بل واحد قروي بمنظور أمريكا مثله مثلي، لم يكن مهووساً بالحلم الأمريكي ولا هو يمثل الأمريكي البشع. واحد عشق ذات يوم سو ماكينزي المراهقة

وعاشر الكثيرات لكنه لايزال يهفو إلى تلك المراهقة التي عرضت عليه كنوزها وأبى أن يستبيحها. سألني وهو يفرغ كأسه في جوفه:

- ألم أكن أحمق حين رفضت جسدها الرخص المشرق.

- هل ترى أنك كنت أحمق أندرو؟

- حين أكون راغباً في امرأة أجد نفسي أحمق، وحين أشرب أطرد من رأسي صورة الجسم الشهي وأستحضر رائحتها وهي ببنطال الجينز و(التي شيرت) القذرة تهبط عن دراجتها وتجلس قربي ملاطفة لأكتب لها واجبها البيتي. يا إلهي يا كمال لازلت حتى اليوم أحس نفسي مسلوباً ضائع الاتجاه حين أستحضر رائحة جسدها المنبعثة من عنقها وإبطها وشعرها. كانت تلك الملامسة الساذجة ورائحة سو ثمناً يمكن أن أدفع نصف عمري لقاءه لو استمر. قل لي يا صاحبي: لماذا يكبر الصغار؟

- ليستهويهم الشعر الأحمر ورائحة سو ماكينزي.

أجل كنا في جلسة واحدة قد تبسطنا كثيراً، وحين قابلني المساء الأيلولي وأنا في طريقي من السبع بحرات إلى بيتنا في المزرعة أدركت أن الشراب قد أفلت لسان كل منا من عقاله وأن كلاً منا دون أن يشاء قد منح الآخر مآخذ ومثالب يمكن أن يأخذها عليه كما يمكن أن يبقي بها قلبه مفتوحاً للآخر. وحين وصلت للبيت أدركت سامية أنني في حالة نشوة.

- لم تكن مع أصحاب القبو. سأل عنك أنور مرتين.

- كنت مع صاحب جديد.

- من؟

- المستر أندرو براون.

- الأمريكي الذي كان في العرس؟

- هو بذاته. جلسنا منذ الواحدة، أكلنا كل شيء وشربنا كثيراً.

- صحة وعافية. بم ترغب الآن؟

- بأن يصبح شعرك أحمر.

- وأغدو إيرلندية، افترضني أصبحت. ماذا بعد؟
- أن تدفئيني لأني أحس بالبرودة.
- كذاب، تريد شيئاً آخر.
- فإن يكن.
- سآتيك بالقهوة، اقرأ ودخن سيجارتين ريثما أرضع نورا ثم أكون لك.

يا إلهي هذه السامية التي تحفظني عن ظهر قلب، أنا لم أخنها في دمشق، ولم أفكر بذلك. وهي تعي بجسمها الناعم المكتنز كل ما أهفو اليه من ملامسة ومداعبة ولا تبخل في ذلك، حسنُ يا مستر براون، هل بدأت بشولوخوف؟ هل ستحب غريغوري ميليخوف واكسينيا أوزينيا كما في لغة بني أمريكا؟ هات لنرى هذا الديمقراطي اليساري المرتد، كانت عناقيد الغضب رواية شتاينبك مثل إنجيل عند الشباب اليساري لكن جون شتاينبك ارتدّ عن نهجه، ربما أسأل أندرو عن ذلك ذات يوم.

في اليوم الثاني جاء أنور حداد وجميل مسعود إلى قصر الباشا. حدثتهم عن أندرو براون باختصار. جميل لم تعجبه هذه العلاقة، ماضيه البعثي القومي يجعله قريباً من نظرية المؤامرة ومنهج الشك الدائم. أنور لم يعلق كثيراً لكنه قال عرضاً ما أقلقني:

- خريفنا هذا يا أصحاب لن يفضي إلى شتاء عادي.
- وإلام يفضي الخريف عادةً يا صائغ آخر زمن؟ قال جميل.
- قبل أن أجيبك يا محامي المغفلين الذين لا تحميهم دولة ولا قانون قل لي: ماذا تسمع من رفاقك؟
- كل خير. ماذا أسمع؟
- أعني ألازلتم تسبّحون بحمد فرعونكم؟
- نحن أقل تمجيداً له من تقديسكم لزعيمكم.
- لا تجتازا الخطوط الحمر رجاءَ قلت لهما. ثم ماذا عن خريفنا أنور.

- ربما تبدأ الدمدمة الآن وقبل الشتاء الدمشقي.
- الدمدمة أم.. الدمدمة؟
- واحدة منهما يا فالح واحزر أيهما يا صيدلي المرضى والمختلّين.
- أنور يهاجم كمال راضي، هزلت، هزلت والله.
- لا تصطد في مياه...
- آسنة.

وتنطلق ضحكة منا ثلاثتنا. أضع شريطاً للست وتنطلق عودت عيني على رؤياك ومعها آهاتنا وكؤوسنا منحّين جانباً خريف دمشق الصاخب (عما قريب) والمستقبل الذي نجهله، في أواخر أيلول الانفصال بدأت صداقتي مع أندرو براون وبعد ثلاثين سنة قرع باب بيتي في الطابق الثالث في أواخر أيلول أيضاً، وحين فتحت الباب كانت في الفسحة صبية حسناء لا تبلغ العشرين لها ابتسامة ساحرة.

- «أونكل كمال راضي.. أنا سوزان. سوزان براون بنت أندرو. كان ذلك أيضاً في مساء أيلولي آخر. وكانت لهجتها أمريكية تكساسية».

إنما هذا قد جرى فيما بعد. وأيلول الذي نحن فيه كما تنبأ أنور حداد قد جاء بدمدمة صامتة إنما كان صداها مزلزلاً، ألحان عسكرية غير عذبة إطلاقاً لكنها أطربت الكثيرين كما آلمت آخرين. انفكت عرى الوحدة، على الناس أن يستوعبوا الذي جرى، ولم يكن ذلك سهلاً، الجيل الذي نشأ على بلاد العرب أوطاني لا يستطيع أن يدفن آماله ببساطة. فإن اضطر إلى ذلك بدأ البحث عن الجاني وهذا بالطبع ما أفضت إليه الأمور. أناس يتهمون عبد الناصر بالعمالة لأمريكا وأنه مأجور ليقبر فكرة الوحدة العربية من خلال البغي والقمع وتسليط المباحث والانتهازيين. آخرون يتهمون أمريكا وبعض الأنظمة العربية وعملاءهم في سورية، أناس يتهمون تجار دمشق وصناعييها. وبينما كانت تسمية الموالين الراغبين لما جرى بالانتفاضة، كانت تسمية النادمين والساخطين والمقصرين هي الانفصال وهو ما ظل باقياً في الأذهان.

أول من قابلت من الساخطين كان مطاع الحلبي رأيته في الصيدلية حين هدأت الأحوال كان حزن عميق يطل من عينيه قال لي: إن قلبه مجروح.

- لماذا يا مطاع؟ ما الذي كان يعجبك؟ حتى خطابات عبد الناصر ما عادت تستهويك في السنة الأخيرة، أنت قلت بنفسك: الرئيس يزداد عصبية.

- الحق معك، لكن إن لم يكن عبد الناصر الذي تعشقه الجماهير من المحيط إلى الخليج. والذي تنقاد له مسحورة بشخصه ومواقفه. إن لم يكن هو الذي يحرر فلسطين فمن سيفعل يا أستاذ كمال؟! الملوك أم المشايخ في الإمارات أم ملوك ورؤساء شمالي إفريقيا؟ كان لفلسطين فرصة وضاعت. المباحث والسجون وكتم الأفواه يا أستاذ كمال لا تبرر فصم عرى وحدة طمحت إليها الأجيال منذ قرون.

الساخط الثاني كان جميل مسعود. كان مفتوناً بعبد الناصر:

- نحن أكثر الناس حباً بالوحدة يا كمال وأنت تعرف ذلك. لقد جعلناها في مقدمة ثالوثنا المقدس. دون وحدة لا يمكن أن نبني دولة قوية.

- دون حرية يا جميل، دون ديمقراطية لا تبنى أي دولة.

- معاً، الوحدة بمضمون اشتراكي ديمقراطي، تلازم النضال الوحدوي بالنضال الطبقي مما يؤمن به حزبنا، على الأقل هذا ما آمنت به بنفسي، إنما عبد الناصر كان تجسيداً للقائد المطلوب. حتى ثورة أكتوبر الاشتراكية احتاجت للينين كقائد.

- كان لينين رجل فكر ونضال يا جميل، عبد الناصر ضابط انقلابي من منبت ريفي لكنه كان محتاراً في انضوائه تحت جناح الإخوان المسلمين أم تحت شعارات الطبقات الكادحة أم في طبقة الحكام من الضباط والموالين. انظر إلى الذين حكموا في دمشق مؤخراً، أناس أبعد ما يكونون عن الأفكار الحزبية. أناس كانت تجمعهم الموالاة

غير المشروطة للمشير والرئيس والسراج، لم يكن هناك فكر مسموح به حتى أفكاركم، وأنتم كبعثيين روّجتم لعبد الناصر بكل الوسائل ومع ذلك الديكتاتورية ترفض التصالح مع أي فكر حتى لو كان مؤيداً لها. ابحث في تاريخ رجالات السلطة أيام عبد الناصر ستجد أن الاستبعاد تم لأي واحد كانت له ارتباطات فكرية من أول عفيف البزرة حتى وزرائكم الذين أقيلوا بذلك الشكل المهين.

- كمال، كل ما جرى لا يبرر قيام الانفصال، هذا رأيي.

ومع ذلك فإن قيادات جميل السابقة وقعت على بيان انفصالي من الدرجة الأولى، صلاح البيطار، أكرم الحوراني، رياض المالكي. وقعوا مع أقطاب الرجعية والأحزاب التقليدية ميثاق الوحدة الوطنية، وعبد الناصر نفسه أعلن التخلي عن سورية، وأنا كنت في قرارة نفسي بعد استبعاد كل المؤثرات كنت مرتاحاً لما جرى. لقد جرت عملية خلط أكثر مما هي دمج واتحاد. وبقرارات فوقية رغم كل البهجة الشارعية. وهذه المظاهرات في الشارع كانت تبدأ مؤيدة للانفصال وتنتهي هاتفة لعبد الناصر أو عكس ذلك تماماً.

- قل لي الآن كيف توقعت الذي جرى يا أنور. أنت حدثتني عن دمدمة قبل قدوم الشتاء وقد حدثت.

- إن كنت ذكيا كما أعرفك يا كمال فستعرف كيف وصلني النبأ.

كان الحديث يجري في قصر الباشا في القبو ولم يكن جميل قد وصل بعد، أنور يحب لعبة الذكاء. لذلك كان الجواب أمامي وهو يتحداني لأعرف، لا أدري كيف خطر ببالي أن أبدأ البحث بالاستبعاد:

- جاءتك المعلومة من السوق أو خارجه؟

- سأجيبك عن سؤالين فقط.. من خارجه.

- رجل أو امرأة.

ويضحك أنور بسرور بالغ، عرف أني سوف أصل:

- عرفت هنا، في قصر الباشا. إنها زوجة واحد في المهنة، لكنها

شقيقة واحد من الذين فعلوها. نصحها بالحرص على ذهب زوجها لأن أحداً لا يعرف عما ستسفر الأمور خلال أسابيع.

- وبالطبع قالت لك لتحرص بدورك على ذهبك. أنتم الفريسيّون يا عبيد الذهب والفضة. بكم باع يوضاس معلمه؟

- بأغلى مما باع كبار ضباط الوحدة فرعونهم، ثم نحن مالكوه، أنتم عبيده.

- أنور حداد اتق شرّي.

- سأفعل، بالمناسبة لقد استأجرت شقة صغيرة في الفحّامة وسوف أعطيك الآن مفتاح القصر. لو تعرف كم كنت أتحرج حين أصحبها إلى هنا. المهم، هذا لن يتكرر. وأنت رغم عمالتك لموسكو واحد مشكوك بأمرك يا كمال راضي، لكنك تظل صاحباً وفياً.

- أسكت، بعد صحبتي مع الأمريكي مدير المكتبة سوف يحتار المخبرون في شأني، أجل. تلك السكرة مع أندرو براون جعلتني حين أتذكرها أنكمش في ثيابي يا أنور. تصور، حدثته عن نفسي كما لم أحدثك أنت أو جميل أو عزيز نصري. لماذا؟ لماذا هو وليس أنتم؟

- الأمر بسيط، أنت لا تخشى جانبه، دنياه غير دنياك، وهو إن عرف عنك لن يعتبر ذلك مأخذاً كما قد نفعل نحن. إلا إذا كان سيورطك في صلة مشبوهة، عندها كل ما يعرفه عنك سوف يفيده.

- أنا أعرف عنه وأعرف داخله أكثر مما يعرفه عني يا أنور.

كان علي أن أقوم بالخطوة التالية تجاه أندرو براون، لابد أنه ابتعد عني قاصداً كما ابتعدت بسبب الحدث السياسي الذي طغى في دمشق على ما عداه، لقد قرأت رواية شتاينبك وصار من واجبي أن أدعوه إلى القبو، أو إلى البيت في الطابق الثالث.

- جود مرونينج أندرو.

- ها.. جود مورنينج كمال.. كيف الحال؟

- جيد وأنت.

- جيد، اسمع.. هذا الغريغوري ميليخوف يستحق جائزة نوبل، ما هـذا الشـولوخوف يـا كمـال؟ ما هـذا العالم الذي يكتب عنه؟ العواطف الناس. الفوضى والقدر، تصور، رأيت في كتابة شـولوخوف الماركسـي
- اللينيني عبث الأقدار.
- هل قرأتها كلها.
- أنا أعيدها يا كمال، أعيدها بتأنٍ، لقد انشددت إليها فلم أتوقف عـن تتبـع الحالـة الإنسـانية البحتـة، الآن أنا أقرأ الـدون الهادئ بالأمكنة والناس والأشياء. صدقني، لم يعجبني حتى الآن كتاب بقدر كتاب فولكنر الصخب والعنف إلا كتاب شولوخوف هذا.
- يسـرني أنه أعجبك، سـأعطيك حين تنتهي كتاب الـ.... لا.... سأدعك تختار. سأدعوك يوم السبت إلى منزلي.
- كمال، علي أن أستشير تالبوت.
- خذ اقرأ آخر أخبار الأدب في أمريكا.
- بعد انتحار همنغواي ماذا يهم من أخباركم؟
- ليس كثيراً، مثلاً بعد 2600 عرض على مسارح برودواي توقفت أوبرا الثلاث بنسات. استمرت سبع سنوات.
- وعن حركة الحقوق المدنية؟
- لا تسألني عن سياسة بلدي.
- حتى لا تسألني أنت عما يجري، صدقني لا أعرف.
ونضحك بسـرور معاً، هذا الشـاب الذي لم يبلغ الثانية والعشـرين لا يمكن أن يكون....
- أندرو سوف أسألك سؤالاً شخصياً وتستطيع ألا تجيب.
- الجواب: لا.
- تعني أنك لن تجيب. سألت مصدوماً.
- أعني أن الجواب على سؤالك هو: لا.
- ما الذي تظن أني سأسألك عنه.

- أنت تعرف عني كل شيء تقريباً، بقي عليك معرفة شيء واحد، والجواب هو: لا. لا شأن لي بأي عمل سري، ولو طلب مني ذلك سلفاً لما جئت إلى بلادكم، وإن طلبوا مني الآن فسوف أغادرها.

- أرجو ألا تستاء.

- لا أستاء، كان عليك أن تعرف مني مباشرةً، لكن نصف الجواب عندك.

- صحيح، الرافض للهيمنة الأبوية والكنسية وللحزبين الكبيرين لا يمكن أن يقبل الارتباط بالأجهزة، أعتذر منك.

- لا داعي يا كمال.. أنا بدوري عندي فضول تجاه....

- أنا لست في الحزب الشيوعي يا أندرو.

يضحك بسرور.

- أعرف، قلت لي ذلك حين كنا نشرب، حدثتني عن فتاتك الاسكندنافية، وأعرف الآن أن أي حمراء شعر يمكن أن تسحبك حيث تشاء، فضولي هو تجاه علاقاتك، عندكم موضوع العلاقات شائك كثيراً، أنت مثلاً، هل سبق أن قمت بخيانة؟

- ممم.

- تستطيع ألا تجيب.

- هنا في دمشق لم أفعل، في دبلن كنت أقيم علاقات، وزوجتي تخمنّ أني فعلتها لكنها لا تسأل.

كان هذا صحيحاً إلى حدٍ كبير، في بداية زواجنا قبلت سامية أنني تعلمت من الكتب والسينما أساليب الوصول إلى المتعة في الفراش الزوجي. لكن مزاحي حول الإيرلنديات حمراوات الشعر جعلها تخمنّ. ولاحترامها إياي أو لحرصها على ألا يحدث ما يعكر صفو العلاقة بيننا لم تسأل قط.

- حسناً يا كمال، أقبل بسرور دعوتك يوم السبت.

جاءني إلى الصيدلية حاملاً الدون الهادئ، لولا أني اشتريت الطبعة

في لندن لقدمتها إليه هدية، لكني لن أحرم مكتبتي منها. وهو لابد قد استشار رئيسه تالبوت.

- سأعرج. لا، تعال إلى الصيدلية وسوف نذهب معاً.

- أوكي.. باي.

لم يستطع مطاع الحلبي أن يصمت أكثر:

- أستاذ كمال، ما سر صحبتك مع هذا الـ... هذا الـ...

احتار مطاع بالوصف الذي سيطلقه عليه.

- هذا الأمريكي يا مطاع مدير للمكتبة التي بجوارنا.

- أعرف، أنت تستعير كتباً، تقرأ مجلات، إنما دعوة لبيتك. لماذا؟

- لأنه شاب لطيف، ويحب الكتب والعرق والمازة الدمشقية.

- إنه جاسوس، كلهم جواسيس.

- أعرف، والآن، ماذا يجري في البلد؟

- الانتخابات.

كان خالد العظم الآن مناط الأمل في قيام تحالف تقدمي وثيق إذ كان ينادي بالحفاظ على مكاسب العمال والفلاحين والالتزام بسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وبالتقارب مع الدول العربية. لكن الانتخابات أعادت سورية إلى فترة الخمسينيات الذهبية، تحالفات ودعايات ولافتات وصحف وخطابات ومظاهرات. ورغم أن الضباط الذين حكموا بعد الانفصال لم يسمحوا بعودة خالد بكداش إلى البلد لكن القبضة المباحثية قد ارتخت والتعبير عن النفس اتخذ كل الأشكال المرغوبة أو غير المرغوبة.

قبل أن أخرج من الصيدلية ظهر الأربعاء ذاك دخلت. لم يكن شعرها أحمر، كان أشقر شقرة طبيعية، قميصها الرمادي تحت الجاكيت الأسود كان يضج من توثب صدرها بحيث انفرج بين زرين في موازاة ذروة الصدر. ولم تخف التنورة السوداء ما كان تحتها من قوام جميل.

- أريد هذه الأدوية من فضلك.

قدمت وصفت طبية، الاسم: مدام مصري، أعرف أن (مصري) اسم لعدة عائلات ليس بينها أي قرابة أو علاقة، الأدوية كانت معدل حموضة، ومهدئ أعصاب، ومسكن آلام. باختصار كانت مدام مصري تعاني من حرقة في المعدة أو تشنجات. وبما أنها ترتدي الأسود والرمادي، ووجهها. نظرت من جديد. لم يكن ثمة ماكياج. إذن لابد أنها حزينة. ولكن عينيها لا تقولان ذلك. ثيابها وماكياجها يقولان، لكن العينين العسليتين اللتين طالعتاني بنظرة دهشة لم تكونا حزينتين لابد أنها احتارت في تأخر استجابتي وفي نظرتي المستفسرة.

- أليست الأدوية موجودة؟

- موجودة. هل تشكين من معدتك يا مدام؟

- الأدوية ليست لي.

ابتسمت، يا إلهي ما أحلى هذه الابتسامة، تمالك نفسك يا كمال، هذه المرأة ليست إيرلندية مطلقاً.

- الحمد لله. ترتسم الدهشة على وجهها من جديد.

- لماذا؟

- هذه أدوية من يعاني من قلق وتوتر ينعكس على معدته.

- إنها لحماتي.

- بعيد الشر عنها، كله إلا حماتك.

تضحك رغماً عنها، ثم تتمالك نفسها، تنظر للخلف بقلق:

- هل الأدوية موجودة؟

- إذا أعطيتك اثنين منها هل تعودين لأخذ الثالث؟

- أليس موجوداً؟

خفت مما يدور في فكري، وخفت أن أفوت الفرصة:

- ربما، وربما لا.

هذه المرة حدقت إلي بدهشة، وسمعنا وقع الخطوات ثم دخلت الطامة الكبرى، حماتها:

- لماذا تأخرت؟ أين الدواء؟

- هنـاك اثنـان منهـا يـا حاجـة.. الثالث يكون مسـاء اليوم أو صباح الغد موجوداً.

- هاتي الموجود يا هادية. وخرجت متبرمة متثاقلة.

- أعطني الدواءين.

- متى ستأخذين الثالث يا مدام هادية؟

توقفت أنفاسها لثوانٍ كان في عينيها ذعر ونظرت للخلف

- ربما تجده الآن.

- لن يكون موجوداً قبل المساء.

نظرت إلي محاولة معرفة ماذا يجري، كانت نظرة الرجاء واضحة علـى محيـاي دون ريـب، عـاد الذعـر إلـى عينيها، ثم قررت أمراً ما ومن خشيتي تحركت لأحضر الدواءين وقدمتهما لها. أخذتهما:

- والثالث؟ غداً؟

ترددت، كان في نظرتها الآن استعطاف وتوسل، ثم تحاملت على نفسها وقالت وهي تتجه للخارج:

- غداً.

أدركت أنها ستعود لأنها لم تدفع ثمن الدواءين، تمنيت أن تعود، هـذه أول مـرة يحـدث لـي فيهـا مثـل هذا. لـم تكن لي يوماً هذه الجرأة، لكن السيدة هادية الحزينة على ما لا أعرف أو من لا أعرف سلبتني كل تماسك. هل تعرف الغزال؟ أنا أعرفه من السينما وحسب. نظرة الذعر هذه من عينيها ثم استدارتها للخلف هي نظرة الغزال المذعور ثم استدارة عنقـه الجميـل قبـل أن يفـرّ. لكنهـا لم تأتِ. لم تعد لدفع الثمن، أحبطني ذلك لكنه سرّني، لابد أنها ستأتي غداً. لكن المساء أقرب.

- اذهب واتركني يا مطاع.

- لماذا؟

- هكذا.. أنا أعفيك هذا المساء من الدوام ما رأيك؟

- أمرك أمرك يا أبا عطا.. لا تضرب.

ويخرج ضاحكاً مسروراً، أعرف أنه سيكسب ساعات يشتغل فيها على سيارة تاكسي. وعلي أن أنتظر مدام مصري الفاتنة. يا لخيبة الأملَ! الذي حضر ليدفع النقود كان واحداً لا يشبه مطلقاً هادية. أبرز الوصفة وسأل عن الدواء الثالث ثم اعتذر لأن زوجة أخيه سهت عن دفع ثمن الدواءين، وقررت أن أفهم كل شيء.

- الدواء إذن لوالدتك.

- نعم لها.

- هل تعاني من معدتها؟ أعني هل ألمها مزمن؟

- منذ ارتحم أخي قبل ثلاثة أشهر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، سلامة عمركم

- شكراً.

- العزاء في أن يكون قد ترك أطفالاً.

- بنتين مثل الوردتين.

- لا إله إلا الله.. تفضل. الله يكون في العون، هل كان المرحوم مريضاً؟

- حادث سير قبل سنةٍ ومعالجات مطولة لم تمنع المصاب.

- كان الله في العون.

- شكراً يا دكتور.

- العفو.

كنت أحس بنفسي صغيراً ورخيصاً، هاأنذا سعيد لأنها أرملة، إنما قد تكون هادية أخته، أو زوجة أخ آخر. إنما يسكنني شعور في أنها هي التي ترمّلت. لكني لست واثقاً من أنني سوف أراها ثانيةً، كل ما علي الآن أن أنتظر.

جاء أندرو مساء السبت ولم تأت هادية، لم أغادر الصيدلية، كنت أرابط فيها طيلة الدوامين يومي الخميس والسبت هذا. وعلي الآن أن

أغـادر قبـل نهايـة الـدوام وأنـا قلـق تماماً إذ ربما تأتـي في غيابي، لذلك شددت على مطاع أن يخابرني إن سأل عني أحد. وتساءل في شك عن هذا الأحد الذي لم أعطه اسمه. وخرجت مع أندرو، كانت المائدة جاهزة دون شك في القبو، سامية أعدت أطباقاً دمشقية مثل الباسمشكات وفتة المكدوس والدجاج المحشـي إضافةً لورق العنب مع شـرحات اللحم والليّة إضافةً للمازة المنوعة.

لكني في البداية صعدت به إلى البيت. استقبله عطا وشدّه كي يريه قطاره وسياراته، رحبت به سامية بما أسعفتها ذاكرتها من إنكليزية التقطتها إبـان زياراتهـا إيـاي فـي دبلـن، ثـم وقف أمام المكتبـة، بعد لحظات نظر إلي ضاحكاً وهو يهز رأسه، كان واضحاً أن الأدب السوفييتي المترجم للإنكليزية يحتل مسـاحة واسـعة من الكتب الأجنبية، توقف عند درب الآلام لألكسـي تولسـتوي وزم شـفتيه. أدركـت أنـه قـد سـمع بالروايـة، أخرجتها:

- أندرو، لن يفرح تالبوت باتجاهات قراءتك الجديدة.

- اسكت، بروس قرأ الدون الهادئ منذ سنوات، تناقشنا فيها، لم يعجبه من الرواية ذلك الخلط بين الحياة السياسـية والحياة الاجتماعية لقوزاق الدون، لقد اعتبر أن صفحات الحرب الأهلية عبء على روعة العلاقات الإنسانية والعاطفية لشخوص الرواية.

- أنا ربما أوافقه على ذلك.

- أما أنا فلا، لا ينفصل الحب عن الحرب.

- رومان رولان.

- حتـى تولسـتوي ذاك كان عليـه أن يكتـب عـن الحـرب والعشـق ليس عن الحرب والسلم.

- كمال، قد يبرد الأكل في القبو.قالت سامية.

حين رأى أندرو المائدة ابتسم مثل طفل أمام دكان ألعاب:

- ما هذا... اشرح لي عن هذه الأطعمة.

- هـذه أكلات دمشـقية، قـد تجـد منهـا فـي (أبـو كمال) لكنك لن تكتشف طعمها الحقيقي إلا في طبخ البيوت، سأشرح لك.

شربنا بهدوء هذه المرة، لم تكن انفعالاتنا السابقة موجودة، وحدثني عن جودي، قال إنها ربما سوف تزوره قريباً. وكان سعيداً بذلك، أعرف أنه قد اعتاد على معاشرة صديقاته وأنه الآن محروم.

- من قال ذلك؟

- كيف؟

- ببساطة، عاهرة، تأتي مقابل المال.

- كيف غامرت؟

- ليـس أنـا، بـروس قدمهـا إلي، الشـيء الوحيـد الذي حذرني منه هو أنها ربما تكون مخبرة لجهات أمنية سـورية أو غير سـورية، قبل أن يحدث الانفصال خفت من مباحث مصر أن تورطني، الآن ليس عندي ذلك الخوف، حكامكم مشغولون بأنفسهم وما حولهم عن أندرو براون.

- وبروس كيف تجرأ وهو دبلوماسي.

- أنـا سـألته فقـال: هـل تظن الدبلوماسـيين ملائكـة؟! المهم، إنها ليسـت من الشـوارع، إنها على مسـتوى. تحضر بناءً على موعد هاتفي، أي أن علاقاتها محدودة وغالية.

- أهي جميلة؟

- كأنها أمريكية، وهذا ليس مدحاً أو ذماً، ما أشبهها ببنات تكساس. شقراء عن طريق صباغ الشعر كما تفعل الكثيرات من المكسيكيات في دالاس أو سان أنطونيو وهيوستن.

- للشقراء في بلادنا ميزة خاصة.

- كل واحد يطلب من يبعد عن يده، في أمريكا يبحثون عن (التيب) الإيطالي أو الفرنسي، والأوروبيون يبحثون عن شقراوات أمريكا وهكذا.

أعجبته فتة المكدوس كثيراً، قال إن طعم اللبن والثوم مع البندورة شـيء لذيذ جداً، وهذا طعم إيطالي معروف، تطرقنا إلى تنوع الأعراق

في أمريكا، تحدث عن ثقافة أمريكية لاتينية تتطور، وتوقع أن تصحو ذات يوم قريب ثقافة افريقية - أمريكية من خلال السود، لكنه واثق من قدرة المتوسطيين على تغيير مفاهيم الأمريكيين. بدلالة أن المافيا الإيطالية تتحكم ببعض مفاصل الحياة السفلية في المجتمع الأمريكي. وهجرة كبار المستثمرين من كوبا إلى أمريكا بعد انتصار كاسترو سوف تعزز ذلك.

- قل لي يا كمال. لماذا تحتفظ بهذا المكان مادام لك بيت فسيح فوقه؟

سأل عن ذلك بعد أن جال في كامل أرجاء قصر الباشا الصغير وخرج إلى الفسحة حيث العريشة وعاد مقروراً من البرد.

- كان هذا مكان إقامة أبي حين يأتي من البلدة إلى دمشق. إنه كما ترى مكان يصلح لجلسات الأصدقاء.

- لا يخطر ببالك طبعاً أن تستفيد منه لاستضافة ذات شعر أحمر.

- اسكت يا أندرو، ربما صاحبك سيقع في هوى واحدة ليست إيرلندية مطلقاً.

- حدثني.. حدثني يا كمال.

التمعت عيناه بحماسة بالغة. لابد أنه يعاني فراغاً عاطفياً كبيراً.

- ليست هناك ما أحدثك عنه، رأيتها، أخذتني عيناها، هل رأيت غزلاناً من قبل يا أندرو؟

- كثيراً. إنه حيوان مألوف عندنا.

- أجل.. نحن نشبه المرأة بالغزال. في حركتها، في عينيها، في عنقها.

- ممم.. صحيح، تشبيه صحيح إلى حدٍ كبير.

- هادية هي أول غزال آدمي أراه يا أندرو..

- أوكي، لنشرب كأس (هاديا).

وشربنا الكأس، كنت أعلم أني أريد قصة رومانسية، وأني تأملت

كثيراً أن تحدث هذه القصة مع هادية، لكن كل شيء كان يؤكد استحالة حصول قصة مع تلك الأرملة الحسناء الحزينة لولا ذاك الصباح الكانوني البـارد الـذي أدفأتـه ابتسـامتها المغتصبـة وهـي تقـول دون أن تنظـر إلي وبموسيقى ربانيّة الصوت والنغمة:

- صباح الخير.

«12»

عن العشق الدمشقي

لماذا وأنا الذي كنت أضع الأسوار العالية والموانع والعقبات بيني وبين الآخرين هناك في بلدي، لماذا محوت كل ذلك مع كمال راضي؟ ما الذي جعلني أفعل ذلك؟ دمشق هذه غريبة غريبة. ليس فيها جمال تجثم في ساحاتها. لا يغزو هذا الحي ذاك الحي بغارات على الخيل وسلاحهم السيوف والخناجر، لا يملك الرجل عدداً من نساء الحريم، ليس فيها خطف أو اغتصاب أو لواط، بل إن هذا الأخير كما يبدو هو جريمة الجرائم، كل هذا هو دعاية متعمدة وذات هدف. لابد أن مناصري إسرائيل هم الذين يروجون هذه الأفكار، ويشايعهم في ذلك بعض المهووسين المتعصبين المنتظرين مملكة يهوذا. الناس في الحي الذي أسكنه لم يعودوا يستنكرون ابتسامتي وهزّ الرأس كتحية، صرت أسمع كلمة مرحبا أو صباح الخير أو السلام عليكم بعفوية، ربما الانفراج الذي حصل بعد فك الوحدة السورية المصرية قد جعلني مقبولاً، الشحن الذي كان يقوم به عبد الناصر وأجهزة إعلامه ضد أمريكا قد فعل فعله في نظرة الناس إلينا.

وحين انشغلت هذه الأجهزة بالتراشق مع القاهرة نسيتنا فعدنا من جديد في نظر الناس بشراً وليس تنانين تنفث اللهب، النوافذ التي كانت تغلق بقسوة حين أعبر غدت مع الأيام تفسح المجال لنظرة مختلسة تستطلع هذا الكائن الأمريكي القاطن في الحي.

(أبو ياسين) صاحب بقالية الحي يدور حو لي ويهمس: مستر مستر، عندي في الداخل أحسن. صحيح أنه يتقاضى أكثر من الثمن الدارج لكنه يعطيني أفضل ما في السوق من الخضار والفاكهة، بالمناسبة

لا أدري لماذا يعرف الإنسان هنا بولده. فلو جاءني ولد وأسميته جون لكان الناس سيتحدثون عني قائلين: جاء أبو جون وذهب أبو جون. حين سألت عن ذلك قيل لي إن بعض البلدان العربية والقبائل البدوية تسمي الإنسان باسم أبيه فهو ولد فلان وربما فلانة. ولأني أذكر فلانة فقد صرت أعرف واحدة هنا. دعاني بروس للعشاء ذات يوم وقال ستحضر اثنتان من العاهرات. دهشت حين سمعت مع أنني أحوج ما أكون لامرأة، ذكر لي أن بعض أصدقاء السفارة قد أعطوه رقماً هاتفياً اتصل به بعد تردد شديد وقد حضرت واحدة إليه قضت معه ليلة، ثم جاءت أخرى، وهو مطمئن إلى سلامتهن رغم جهلهن بالإنكليزية وكونهن مهتمات بالثمن. في تلك الليلة وبعد الطعام والشراب كان بروس يحب رؤية رقص البطن. لذلك حين أخذت الطويلة ترقص له أخذت الثانية إلى الغرفة ورغم امتعاضي من موقفها إذ سارعت إلى خلع ثيابها دون كلمة أو حركة ثم استلقت على السرير منتظرة، رغم ذلك لم أستطع التعفف أمام جسد امرأة حتى لو كانت عاهرة غبية. لم تترك لي إمكانية تقبيلها من شفتيها وكانت تتجنب أن تمنحني صدرها، كل ما تفعله هو أن تنتظر - ربما بصبر بالغ أو نافذ - لحظة انفصالي عنها لتركض إلى الحمام. ولا أنكر أنها قد آذت مشاعري كثيراً. لكن ذلك قد جعلني راغباً فيها، راغباً في أن أجعلها تستجيب وتندفع، لذلك حين عادت لترتدي ثيابها مانعت. جعلتها تستلقي على السرير، ظنت أني سأعاود الفعل، بدأت بملامستها، بزرع جسدها الخارج من حمام ساخن بالقبل ركزت على عنقها وحفرة الإبط، ابتعدت عن نصفها الأسفل، رأيت بداية الاستجابة بانتفاخ حلمتي الثديين الأسمرين الصلبين، بدأت تتخلى عن التأوهات المصطنعة، سمحت لي بالتعامل مع الصدر الناهد. ثم تركتني أقبل فمها دون أن تفتح الشفتين. بعد ذلك بادلتني القبلة العميقة، وعندما شدتني إليها آخر الأمر كانت راغبة بقدر ما كنت واستمتعت بقدر ما استمتعت. قالت لي فيما بعد إنها لم تستطع أن تنسى أني أجنبي كافر وغير مختون.

لكني (رذيل) جداً لأنني جعلتها تفعل معي ما تفعله مع حبيبها. ولو أنه علم بذلك لذبحها. وقالت إن اسمها الذي يعرفها به الآخرون هو اسمها الحقيقي (نهلة) وبعضهم يسمونها (نهى). صرت الآن أعرف واحدة مستعدة للقدوم إلى حين أشاء لقضاء ليلة كاملة، مقابل مبلغ يزيد عن الثلاثين دولاراً بقليل من العملة المحلية. ولازلت حتى الساعة حائراً في الدواعي والأسباب التي جعلتني أخبر كمال راضي عن نهلة.

بيت كمال شيء لا يوصف، فبينما ينقسم كل من الطابق الأول والثاني على شقتين فإن بيته يحتل كامل الطابق، فرش وثير فخم، تحف شرقية وغربية سجاد عجمي فاخر، لوحات، ومكتبة وكتب وأسرة تعيش في بحبوحة واستقرار. زوجته سامية مليحة لكنها ميالة إلى السمنة والامتلاء. ولده عطا ذكي مثل أبيه، أما القبو فمكان مثالي لجلسات الأصدقاء، وعرفت أنه لم يستخدمه مطلقاً لخيانة زوجته، صحيح، هناك ما لفت نظري في هذه الدمشق. إن عادة زواج ابن العم لبنت عمه أو بنت خاله أو خالته أو عمته والعكس أي زواج البنت من ابن خالها أو عمتها أو خالتها، إن ذاك شائع جداً بل وحتى مرغوب. إن ذلك جريمة في أمريكا يعاقب ويمنعها القانون. لابد أن لذلك أسباباً جديرة بالدراسة، عرفت فيما بعد أن النبي (محمد) قد حضّهم على عدم الزواج من الأقارب أو على الزواج من غيرهم لا أعرف، مع ذلك فإن هذا الزواج شائع جداً.

جودي علمت أني أدفع مالاً ثمن الجنس، ضحكت مطولاً وقالت لي: الحال معكوسة معي، أنا التي أنفق على (يوهان) إنه كسول وعاطل عن العمل تقريباً، عمله الآن هو النوم معي، ولا أراه يبالي حين يخرج ويجد في جيبه من الماركات ما يكفيه لشرب البيرة والشنابس وأكل نقانقه المفضلة، إن (يوهاني) هو (ناهلا) الدمشقية ما قولك في أن نخرج سوية في موعد (Date)؟ لابد أنها سعيدة في عملها وفي علاقتها بيوهان إذ لم تعد تتحدث عن القدوم إلي في إجازة، عملي يتحسن، غدت الكتب أكثر

وهـي مرتبـة حسـب الموضوعـات الآن، صـرت أجد في القاعات أعداداً أكبر، بروس قال لي: إن ذلك عائد إلى ذهاب المصريين وانحسار الدعاية ضد الأمريكيين.

الانتخابـات التـي شـغلت النـاس هنا جـاءت بمجلس نيابي ووزارة ورئيس لا أستطيع القول إنها أقل عداءً لأمريكا، لكنها على أية حال بعيدة عن التحريض اليومي السـابق، عناوين الصحف ليسـت عناوين إخبارية بقدر ما هي تعبير عن مواقف سياسية لصاحب الصحيفة، حدث تقارب بين دمشق وبغداد بعد العداء الذي نشب إثر مهاجمة ناصر لعبد الكريم قاسم حاكم العراق، ألغوا تأشيرات الدخول بين البلدين هذا بعد أن تم فتح الحدود مع الجارين الآخرين لبنان والأردن.

تحسـنت قراءتـي للعربيـة ربمـا أكثر ممـا توقعه بروس الذي دهش لأني قد سبقته في هذا المضمار. اقترح علي أن أنتسب لجامعة دمشق قسـم اللغـة العربيـة، ضحكـت مطـولاً، لقـد تركـت واشـنطن وأنـا فـي منتصف دراسـتي الجامعية فهل أبدأ فيها هنا؟ سـألت كمال راضي فلم ينصحني. قال لي: إن محبي اللغة العربية لا تسرهم الدراسة في الجامعة وإنني أسـتطيع تحسـين لغتي بقراءة (أرسـين لوبين) أو (قديس) ليسـلي تشـارتريس. كان يهـزأ منـي بالطبـع فبينمـا هـو يقرأ في لغتي قمم الأدب سأقرأ أنا في لغته ما لا يدعى أدباً. وحين سألته إن كان يقبل أن يكون ضيفي في سـهرة الميلاد التي تقيمها السـفارة اعتذر بلباقة لذلك ذهبت برفقـت بـروس الـذي قدمنـي للسـفير والسـكرتير الأول وبقية الملحقين والقناصل.

فـي قاعـة المطعـم الفخمـة والمحميـة جيداً والمعزولـة عن العالم الخارجي كان ثمـة حشـد مـن الأمريكييـن المقيميـن والعابريـن ومـن أصدقاء السـفارة وموظفيها المحليين ومن العاملين السـابقين والحاليين وكانـت بينهـم هنـاء وزوجهـا. جـاءت مرتين في زيارة عابرة واسـتأذنتني في اصطحاب أو إرسـال مجموعة من طلابها في قسـم اللغة الإنكليزية

للقيام بحلقة بحث في اتجاهات الأدب الأمريكي أو في بحث مقارن مع الأدب الإنكليزي باعتباره الأصل وكيف تطور الأدب الأمريكي واغتنى بخصوصية واضحة، وأعربت لها عن سروري بتقديم كل ما تستطيعه المكتبة لها وللجامعة السورية، وهاهي هناء الآن وقد بدا عليها حمل مرغوب، لقد فهمت أن عدم الإنجاب أو تأخر الإنجاب هنا هو كارثة بالنسبة للإناث، وقد يبرر للزوج الطلاق أو الزواج بامرأة أخرى. أنا لم أعرف طيلة إقامتي في دمشق رجالاً كان لهم أكثر من زوجة، ربما كان بعضهم كذلك لكني لم أسأل وهم بالطبع لم يقولوا، كانت هناء كعادتها ودوداً ومرحة. إنها معيدة في كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية وتدرّس مادة المسرح وسوف يوفدونها إلى إحدى الجامعات الإنكليزية لنيل الماستر والدكتوراه. كان زوجها بجانبها مختالاً بنفسه لأنه مدعو إلى حفل السفارة، إن كل الدعاية السابقة والحالية لم تجعل السوريين يكرهون الحياة الأمريكية، بل إن حياتنا تستهويهم عبر أفلام السينما التي تصورنا نعيش في مدن كبير فيها أبنية تنطح السحاب وكل النساء جميلات وسهلات وأنواع من السيارات الرياضية أو الفخمة أو ذات التصنيع الخاص. إن لديهم فكرة خاطئة عن مجتمعنا وهم يخلطون بين الشعب والحكومة. لا يدرك السواد الأعظم هنا أن الملايين من الأمريكيين جاهلون حتى بموقع سورية على الخارطة ولا يهتمون إلا بأمورهم اليومية المباشرة، وأن ملايين البشر لم يبتعد أحدهم عن بلدته أو ولايته وأن أشهر فرد في هذه المنطقة أو تلك هو صاحب الأرض أو المصنع إنما بعد صاحب البار أو المطعم. أمريكا بالنسبة لهم هي دولة قوية ظالمة شعبها يؤيد اليهود وإسرائيل. وإسرائيل هذه هي التي تقود أمريكا والأمريكيين من أنوفهم إلى مواقف العداء للعرب. لا أدري كيف سوف نستطيع تصويب هذه النظرة؟ ضحكت في سري، ألا يجب أولاً أن نصحح نظرتنا نحن لهؤلاء العرب؟

- حسناً، هناء، ما قولك إذا عرضنا أفلاماً عن الحياة في أمريكا؟

- أين؟ في المكتبة.

- نعم.

- سوف تحتاج إلى مترجم أو إلى ترجمة التعليق على الفيلم نفسه، لكنها فكرة جيدة، ادرسها يا أندرو وحين آتي مع طلابي إلى المكتبة سوف نناقشها ما رأيك؟

- أوكي، بعد رأس السنة طبعاً.

- طبعاً، أندرو، لقد دعوت مستر تالبوت إلى سهرة رأس السنة وبالطبع سأدعوك إنما هو لم يوافق، قال إنه سيفكر.

- شكراً هناء، إنها مناسبة خاصة، لماذا الـ....؟

- أندرو، عدني إذا لم ترتبا سهرة بأن تقبلا دعوتنا، لن يكون فيها أهل، أصحاب، زملاء من الكلية ومن عمل زوجي. ما رأيك؟ ستكون هناك وفرة من الطعام والشراب.

- أوكي هناء، سأتحدث مع بروس، اذهبي إلى زوجك.

- ميري كريسماس أندرو.

- ميري كريسماس هناء.

في لبنان التي كنا بروس وأنا عازمين على قضاء ليلة رأس السنة في عاصمتها بيروت حدثت محاولة انقلابية، قالوا لي إن الفاعلين من حزب مطارد هنا وهناك قد أعدموا منشئه وزعيمه قبل عشرة أعوام أو أكثر، لم ينجح الانقلاب ولكنه تركنا دون سهرة في ليلة رأس السنة وكدنا أن نتصل بنهلة ورفيقتها حين جاء الهاتف الكارثة المزلزلة أو لنقل النعمة الدائمة التي حلت بأندرو براون، ويمكن أن يكون بهذا المعنى أو ذاك زلزالاً أو نعمة حسب اللحظة التي يجري فيها التقويم، أي - وباختصار - إنه حدث له وجهان.

- ألو مستر تالبوت.

- لا، من يتكلم؟

- آه، أندرو. أنا هناء.

- هناء، هالو.

يخطف مني بروس السماعة:

- هناء كم شخص سيكون في سهرتكم؟ وأين سوف تسهرون؟

- مستر تالبوت نحن بين العشرين والثلاثين شخصاً، سوف يكون اثنان من السفارة البريطانية موجودين وأنتما، ثم... هناك وفرة من الحسناوات لا تحملا الهم.

ويضحك بروس بطرب ثم يضع يده على السماعة:

- السهرة واعدة يا أندرو، سنلتقي بأناس آخرين، حتى أخوالنا الإنكليز سيكونون موجودين.

- إن ذهبت أنت سأذهب.

أخرج بروس من الخزانة زجاجتين من الويسكي المعتق الاسكتلندي من ماركتين مختلفتين ولفهما بورق مناسب وزينهما بوردتين من الشرائط الملونة، كل شيء له ترتيب خاص عند بروس تالبوت. لا يريد أن يترك الأشياء للمصادفة، ومن كلماته المأثورة: إن العمر أقصر من تدارك التقصير. لذلك يعد لكل شيء عدته.

- أندرو، عليك أن تسلمني غداً تقريراً عن المكتبة، علي أن أرفع للسفير دراسة عن العلاقات الثقافية مع سورية.

- بروس، ما عاد هناك وقت لذلك.

- الآن فقط تذكرت أن أطالبك بالتقرير، اسمع معك حتى السهرة عدة ساعات. اذهب وباشر الكتابة.

أدركت أن بروس تالبوت لم يكن مهتماً بمهام وظيفته، وأن توثيق العلاقات مع السوريين قد شهد جدالاً بينه وبين الآخرين، بروس يهتم بالثقافة والآخرون يهتمون بالأمن ثم بالسياسة. في حفل عيد الميلاد رأيته على علاقة بالموظفين السوريين بما يفوق علاقته بأعضاء السفارة الآخرين، كان واضحاً أنه يغرد خارج السرب. ولو كان يرى فائدة في تقريره عند السفير أو السكرتير الأول فإنه لم يكن يتمهل حتى الآن

ليخبرني بل كان سيلاحقني ليكون كل شيء كاملاً كما فعل حين جهز زجاجتي الويسكي للسهرة، ومع ذلك فحين جلست لأدون إحصائيات المكتبة التي سيضمنها تقريره قدّرت أنني سوف أبرز إيجابيات عملي وأسلط عليها الأضواء إكراماً له وحده. جلست في شقتي بعد أن جلبت عدة ملفات من المكتبة وعزمت على طرح اقتراحي بعرض الأفلام كمشروع يجري الإعداد له بالتعاون مع قسم اللغة الإنكليزية، كان عندي ما أقوله وأنسبه للجهد الثقافي المبذول متغاضياً عن الانفراج الذي صاحب خروج المصريين. وسوف أعزو الفضل في زيادة عدد رواد المكتبة وزيادة الكتب وتحسين نوعيتها إلى خطة الملحق الثقافي ولن يستطيع بروس تجاهل تقريري، بدأت بالكتابة وقرع الجرس. من تراه يكون؟ لقد ألفت أن يقرع الجرس بعض المتسولين أو المتسولات أو بعض الضالين عن عنوان يقصدونه. وحتى بعض الغجريات اللواتي يعرضن خبراتهن في التنجيم مع أجسادهن الهزيلة، من تراه:

- هالو أندرو.
- هالو كمال، تفضل.
- لا، أنا مشغول وأنت مشغول، سنة جديدة سعيدة.. تفضل.
- ما هذا.. شكراً شكراً يا كمال.
- اشكرني بعد أن تذوقه، هذا عرق منزلي، أرجو أن يعجبك.
- سيعجبني، شكراً يا كمال، للأسف لم أحضر لك هدية.
- هذا واجبنا يا أندرو، أنت ضيف لنا جميعاً يا رجل.. باي.
- شكراً يا كمال.

هذه كيف سأشرحها للأمريكيين في أرلنجتون تكساس أو في سواها من المدن والبلدات، إن الغريب هنا هو ضيف على الجميع، هذا هو شعور جمعي عام، وهم يهتمون به ويتمنون أن يكرموه. الغريب عندنا أيضاً يعامل باحترام، ونادراً بمودة إنما بابتعاد عنه وبتجاهل وجوده. الجيران هنا تجاهلوني أولاً لدوافع سياسية، ثم تغلب عندهم حب

الاستضافة وواجب المقيم تجاه الغريب لذلك تجاوز ما بيننا تبادل التحية بحيادية إلى التحية مع ابتسامة ومحاولة السلام بالإنكليزية من قبلهم وبالعربية من قبلي. وهذا كمال الذي أعرف أنه سوف يسهر مع أسرته من أشقاء وأقارب في سهرة عائلية مغلقة داخل بيت ما ومع ذلك جاء إلى هذا الغريب التكساسي حاملاً هدية نفيسة، وعلي الآن أن أتابع الكتابة حتى موعد السهرة، قررت أن أتأنق الليلة، اخترت ربطة العنق وتأكدت من تلميع الحذاء ومن قساوة قبة القميص ثم أعاود الكتابة، أهاتف جودي فيرد عليّ صوت رجل يحدثني بإنكليزية فضائية، من هذا يا جودي هل هو يوهان؟ بالطبع لا، إنه بيتر وهو يوناني من قبرص اسمع يا أندرو، بيتر سبق له أن زار دمشق مع جروب سياحي، يقول إن في دمشق نساء جميلات، أنت الأجمل يا جودي. إن كنت مشتاقاً إلي تعال يا أندرو، تعال وسوف أتناولك مع جميع الوجبات، قل لي إني أجمل من عرفت. أنت كذلك يا جودي. باي عزيزي. باي جودي ولم أكن أتوقع حتى في أغرب خيالاتي أن تلك الليلة ستحملني إلى تلك الذروة الشاهقة المرهقة.

حين رأى بروس أناقتي عوّل على لبس سترة وبنطال بدلاً من طقمه الأنيق الجاهز على السرير. قال لي: لا أريد أن ينظروا إلينا كأمريكيين متغطرسين لا أريد أن أكون (The ugly American) الأمريكي البشع. أريد أن أظهر بسيطاً مثل كهل ودود وأنت باعتبارك شاباً تستطيع أن تكون الفارس الأمريكي الوسيم. أعرف أن لبروس حساباته واعتباراته. لا بأس. صحيح أني فضلت حينها لو استدعينا نهلة وصديقتها، كان بروس سوف يستمتع برقصها وأنا سأجعل نهلة تخون صديقها معي لكن الوعد الذي قطع لهناء يلزمنا كما أن هناء سوف تشكل ركناً من مشروع الأفلام الذي أعجب بروس كثيراً.

بناء سكني من ثلاثة طوابق وقبو وملحق في أحد تفرعات شارع بغداد قادنا إليه نبيل سائق بروس، وحين نزلنا ترك له بروس المفاتيح

ووضع في يده ورقة مالية بخمسين ليرة:

- سنة سعيدة يا نبيل.

- ولك مستر تالبوت. سأبقى حتى أتأكد من العنوان، هاك الزجاجتين.

وقبل أن نقرع الجرس فتحت هناء الباب بحملها الظاهر سعيدة مرحبة:

- أهلاً مستر تالبوت. أهلاً أندرو، لماذا غلبتما نفسيكما تفضلا، تفضلا.

نتبعها للداخل، بيت واسع مثل بيت كمال، الصوفا الفسيحة كانت ساحة للرقص فيها عدة أزواج يرقصون على موسيقى حالمة، مائدة من كل الأنواع وعدة سطول للثلج وكؤوس منوعة، زينة ومصابيح وبالونات على الجدران وبين الثريات. روائح العطور قوية ونفاذة الجميع في لباس أنيق والنساء منهن قد سمحن للأذرع والأكتاف وأحياناً الظهور بأن تتعرى ناشرة بعض الحميمية الفاحشة بين الحضور. شدت هناء بروس من يد وأنا من يد أخرى وتوسطت الصالة:

- من فضلكم، من فضلكم، دعوني أقدم لك، مستر بروس تالبوت ومستر أندرو براون من السفارة الأمريكية، الاثنان كانا من رؤسائي في العمل.

- هاي، هالو.. هاي أندرو.. أنا صوفي، هاي مستر تالبوت أنا وصال هل تذكرني..

شعرت برغبة في الانزواء مباشرةً، لم أكن أطيق الوقوف تحت أعين الآخرين قصدت الطاولة لأضع الزجاجة التي دخلت بها وأخذت هناء الزجاجة من بروس وأسرعت تجهز له كأساً والتفتت نحوي متسائلة:

- ويسكي أندرو؟

- ليس الآن هناء، شكراً.

ابتعدت متأملاً الراقصين، أحسست أن الحضور في معظمهم أزواج

أو مخطوبين، كان ثمة وصلة للصالة الواسعة لابد أنها غرفة جلوس وقد صفت مقاعدها وكراسيها قرب الجدران، ولا أدري كيف قررت الابتعاد إليها في منأى عن مكان الرقص أو الطعام. لحقت بي هناء لتضع في يدي كأس ويسكي وقالت بلهجة متواطئة:

- رجل يحمل كأساً أكثر رزانة من شاب خالي اليدين.

يا لها من لطيفة، لا عجب في أن يكون منزلها مكان الاحتفال وأن تكون وزوجها اللبق مركز الحيوية في هذه السهرة، كان الإنكليزيان غارقين في حديث مع شاب بدين في جزء من غرفة الجلوس واخترت أنا الزاوية المختفية من الغرفة عن الأعين. كان هناك من سبقني إليها. شابتان تجلسان إحداهما في يدها صحن من المقبلات والأخرى التي تدير ظهرها للغرفة تنصت إليها، ذهبت لعمق الغرفة وجلست، وحين نظرت إلى المشهد كانت هي أمامي. كانت سوسن.

كانت الثانية التي تحمل صحناً تتحدث بحرارة وكانت هي تصغي دون أن تنظر إليها أو إلى أي مكان بالتحديد، ربما إلى لوحة الجدار وربما إلى حيث اللاشيء. رأيت منظراً جانبياً لفتاة سوداء الشعر غزيرته فيها قسمات بيضاء وانشغلت عنهما بكأسي وبالجدار قليلاً، لكن مكانهما يقع في المسافة بيني وبين امتداد صالون البيت ولا مهرب لي من النظر إلى جهتهما، ظهري إلى جدار وكل ما هو أمامي هما في الغرفة ثم الصالة الحاشدة في المنعطف، فهمت فيما بعد أن من دواعي التفاخر أن يكون في بيت المرء صالون بشكل حرف (L) الإنكليزي، حين عاودت النظر للأمام دون اهتمام كان الوجه المرعب أمامي. العينان يؤطرهما كحل أسود يزيد من حدة بياض الوجه. بياضهما ناصع نقي وسوادهما كبير كبير وعميق، شفتان ورديتان دون طلاء لحيمتان قليلاً تكشفان بالابتسامة الوانية الملفقة عن لؤلؤ مرصوف، وكل هذا يكلله شعر فاحم كث منسدل حتى الكتف، أدركت أني كنت فاغر الفم كأي أبله فوجئ بما يروعه. كان ما أمامي رائعاً بحق لأنه الكمال عينه، ما من

شائبة أو نقص أو زيادة أو عيب في هذا التشكيل. هذا وجه كان على رافائيل ودافنشي وحتى مايكل أنجلو أن يروه ليعلموا أنهم مهما سمحوا لخيالهم العبقري بالسمو والخلق فإن صناعة الخالق أو الطبيعة إن شئت تظل أكمل. أشحت بنظري متمالكاً نفسي إذ ربما حاجتي لامرأة دائمة هي التي تفعل بي فعلها. هذه النظرة غير موضوعية أو دقيقة. وهذه الفتاة التي تلتفت للجهة المعاكسة الآن ليست مختلفة عن أي مكسيكية ذات ملامح إسبانية، ولابد أنها في حالة ملل من صديقتها الشرهة الثرثارة التي تقوم الآن لتملأ الصحن ثانيةً على الأغلب ولم يكن بد من أن تنظر ثانيةً باتجاهي. ولابد أنني كنت أحدق إليها بتركيز شديد إذ علت قسماتها سيماء الامتعاض. وأنا لم أر في عمري كيف يكون الامتعاض جميلاً إلا الآن، عادت بنظرها نحوي لتتحقق ولم أتمالك من أن أرسم ابتسامة - بلهاء غالباً - وأهز برأسي، يا لتلك العادة! تذكرت ما كلمني عنه كمال راضي عن المرأة والغزال. عن الذعر ولفتة العنق، كان هذا رد فعلها على تحيتي وأدركت أنها سوف تنسحب. وهمّت بذلك لولا وصول هناء، حين رأتها اتسعت ابتسامتها:

- سوسن، هنا اختفيت إذن.

وقفت هذه السوسن لتبدو قامتها المعتدلة المتناسقة وقد جارت هناء في ابتسامتها، رأتني عندها هناء في زاويتي أنظر إليهما ولا أعرف ماذا كان تعبير وجهي لأنها ضحكت وقالت بالإنكليزية:

- وأنت هنا يا أندرو أيضاً.

جفلت سوسن الآن تماماً ونظرت نحوي مصعوقة، ربما خطر لها أني أحد معازيم هناء من الدمشقيين وأن تحيتي لها كانت تقرباً منها كبداية لتحرشٍ ما.

- كما ترين يا هناء.

- أعرف أنك منذ أتيت قررت الانزواء على العكس من مستر تالبوت الذي استقطب العديدين. هل تعرفت بطالبتي سوسن؟

إنها طالبتها إذن.

- حاولت.

- سوسن مثلك يا أندرو لا تحب الحشد. سوسن، هذا رئيسي السابق مدير المكتبة الأمريكية أندرو براون. أندرو، هذه طالبتي وصديقتي العزيزة الآنسة سوسن ربيع.

كنت قد أصبحت قريباً منهما، وقبل أن أهز رأسي سمعت أطرب إنكليزية عبرت سمعي حتى الآن ولامست أنعم وأدفأ يد لامست من قبل:

- هالو مستر براون.

- هالو آنسة سوسن ربيع.

سحبت يدها بسرعة لابد أن تياراً من التوتر المشحون قد عبر إليها.

- أندرو لو تسمع سوسن تلقي شعر إليوت، إنها بارعة جداً وموحية.

- صدقيني يا هناء لو رآها إليوت أو بايرون لما كتبا شعراً إلا فيها!

هاقد انخلعت من تحفظي واتزاني ودبلوماسيتي ورزانتي لأرمي تصريحاً لا يليق حتى بالمراهقين. غلبني لساني، بل غلبتني حماقتي. الاثنتان فوجئتا قطعاً، هناء ضحكت بطرب، أما سوسن فقد غزا وجهها احمرار قان، يا إلهي. يشبهون الخدود بالتفاح، حتى تفاحة الجنة تلك التي هوت بالبشر من حالق لا تقترب أو تضاهي هذا الوجه العفيّ.

- شكراً.

قررت أن تهرب:

- أين اختفت وعد؟ سأبحث عنها.

وابتعدت فابتعد معها الدفء والرضى وحل مكانهما برودة الخواء:

- هناء، لقد تسرعت عليك أن تعتذري عني.

- أندرو، منك أنت لم أتوقع أن أسمع ما سمعت.

- لأني أخرق أحياناً يا هناء.

- أنت لم تفهم قصدي، كنت أظنك حيادياً متزمتاً وغير مبالٍ لكني

سمعت منك الآن أجمل مديح يوجه لفتاة، يا إلهي لقد فاجأتني تماماً. أما عن سوسن فلا تحمل همّاً، هل تستاء الفتاة من إطراء كالذي قلته بحقها. أنت فعلاً مخبأ بثيابك.

- هناء أنا... أنا لم أقصد.

- بل كنت تقصد، ويجب أن تقصد، إن في قرارة نفسك شاعراً مثل شعرائنا العرب الذي يباغتهم الجمال، وسوسن برأيي هي جمال عربي كامل. أليست كذلك؟

- إنها جمال كامل، ليس عربياً وإنما سماوياً.

ضحكت هناء مقهقهة وقد صفقت كفاً بكف.

- أندرو، هذا حب من النظرة الأولى. تعال، تعال سوف...

- هناء، رجاءً، رجاءً اتركيني قليلاً، أريد أن أهدأ وأتمالك نفسي، وإن تسللت خارجاً قبل انتصاف الليل اقبلي عذري من الآن.

- لن أدعك تفعل، اسمع يا أندرو. سوسن غير مرتبطة عاطفياً، وهي خجولة إلى حد كبير. أنا استطعت أن أخرجها من خجلها في دروسي، بيننا مودة كبيرة، بين أبيها وزوجي بعض العلاقات التجارية. سوف....

- هناء، اذهبي إليها رجاءً، اعتذري أو لا تعتذري، المهم ألا تخاف مني، وأن... وأن تعتبرني اندفعت بتأثير الشراب.

- وأن تراها أليس كذلك؟

- هناء.

كنت أتعجل الانفراد بنفسي، أو أتعجل في الحقيقة ذهاب هناء كي تخفف على الفتاة. لقد تذكرت ما نصحتني به الدكتورة السورية في واشنطن حول المجاملات التي يساء فهمها، وأنا لم أكن مجاملاً قبل قليل كنت مغازلاً بل متحرشاً. قدرت هناء ما يساورني من قلق فانكفأت مسرعة نحو الحشد بينما تهاويت جالساً في مقعدي وجرعت كأسي حتى آخر نقطة. ما الذي فعلته؟ اكتشفت أني كنت خائفاً من أن تسلك سلوك الغزال المذعور فتفر دون عودة أو توقف. اكتشفت أني كنت جزعاً

من هذه الإمكانية أكثر من استنكاري لما قلته. كان علي بكل بساطة أن أقوله، كان من المستحيل أن أكتمه. مجتمع آخر، مجتمع غريب، تقاليد، إرباكات وسوى ذلك. كل ذلك في حقيقة الأمر لن يردعني عن التعبير. لقد رفضت سلطة البطريركية الأبوية، وهيمنة اللاهوت، وسياسة الديمقراطيين قبل الجمهوريين، وكل ما يخضع له الآخرون في بلادي لذلك لن أكتم رأيي وحقي في التعبير في هذا البلد الذي...

فاجأت نفسي وأنا في هذه المحاضرة الداخلية. ابتسمت، لو رآني أحد لتأكد له غرابة سلوكي أو جنوني الصريح، قمت واتجهت إلى الحشد، لاقاني بروس الباسم ومعه أحد الإنكليزيين وفتاتان:

- هاهو أندرو، إنه لم يهرب بعد.

يضحكون، لابد أن الجميع قد شربوا وبدأت الخمر تلغي تحفظهم رويداً رويداً. ابتسمت لهم وأشرت لكأسي الفارغ مبتعداً عنهم، كانت عيناي تبحثان عنها، عن هناء، وكانتا في الممر الجانبي المفضي إلى غرفة الأسرة، سوسن مطرقة خجلة بابتسامة منكمشة وهناء تتحدث ضاحكة وتشير بيدها ورأسها لتدعم أقوالها. تراجعت وقد هدأت هواجسي، إنها لم تغادر، لم تفر بعد، وسوف أبتعد عنها بما فيه الكفاية لتحسب من جديد أنني متمدن وغير عدواني البتة. صببت كأساً واتجهت إلى زاوية قرب طاولة الطعام، هنا سوف يحجبني الطاعمون عن العيون. لكن لا أدري لماذا أحس أن وجهي متقد وأن الجميع يعرفون ما فعلته؟ ما الذي جرى لي حقاً؟ أنا فعلاً عدواني ومقتحم تجاه الفتيات في واشنطن. سني كشاب تفترض ذلك، هناك أساليب عديدة للمواعدة. أنا أختار الهجوم حيناً واللامبالاة والامتعاض حيناً آخر، لكن الهدف واحد. اصطحاب الفتاة مرة أو مرتين للسينما أو المطعم أو الملعب ثم على سريرها أو سريري. الذي قلته اليوم لسوسن ربيع الحسناء الدمشقية - سوف أعرف فيما بعد أنها لم تكن دمشقية تماماً - الذي قلته لم يأت نتيجة تخطيط ولم يكن هدفه الخروج معاً (Dating) ولا الوصول إلى السرير. أنا لم

أستطع ولن أستطيع تخيل أن تستلقي سوسن عارية أو نصف عارية أمامي. فإن لم يكن هذا الانشداه شهوة غامرة فما تراه يكون؟

أخرجني قدوم بروس من حواري الداخلي الصاخب، جاء ليملأ صحنه، أول ما تبادر لذهني أنه قد عرف بما ارتكبته، لكن ابتسامته الموحية وإشارته بالرأس نحو الراقصين كانت دعوة للخروج من عزلتي والاختلاط. لا بأس إذن. جاريته في الابتسامة ريثما وصلت إحدى الفتيات النحيلات لتشارك بروس في انتقاء وجبته. بروس منشد إليها، يا إلهي ما أسهل أموره! من يدري كيف استطاع أن يجتذب الفتاة التي تطابق نماذجه المعتادة؟ ابتعدا متحدثين ضاحكين وسمحت لنفسي الآن بالنظر في جميع الاتجاهات. كانت هناء تناول إحداهن منديلاً ورقياً في العمق ثم تقف متحدثة مع زوجين منهمكين بالطعام ثم تفتش بنظرها هنا وهناك حتى رأتني. ابتسمت واتجهت نحوي، وقفت الآن. كنت مترقباً الحكم الذي سيصدر بحق أندرو براون، كان في نظرة هناء شقاوة ومرح وطامن ذلك من قلقي:

- لماذا تختفي دائماً وأضطر للبحث عنك؟
- لو تعلمين كم كنت ناجحاً في التواري هناك في واشنطن.
- أعرف، قبل قدومك حدثني مستر تالبوت عنك.

خطر لي الآن فجأة أن بروس ربما استطاع الـ... ولكن لا. إن مهنية بروس تالبوت ستمنعه من التفكير في معاشرة هناء. لا، هذا لم يحصل.

- هل اعتذرت لها عني؟
- أتعرف ما قالت لي؟
- ماذا؟

تدفق الدم سريعاً في أوعيتي وأحسست برعب حقيقي.

- قالت إنها في البداية اعتبرتك شاباً جريئاً، ثم حين عرفت مني أنك أمريكي صعقت. لكنك حين قلت ما قلته عن إليوت وبايرون خجلت لأن هذا شبيه بمغازلة المثقفين العرب، وحين أخبرتها أنك هنا

منذ فترة وجيزة وأنك لست صاحب خبرة بمغازلة الحسناوات السوريات قالت: لابد أن في دمائه تهجيناً عربياً حدث يوماً ما.

- ماذا يعني ذلك يا هناء؟

- ألا تدرك ماذا يعني يا أندرو؟

- لا، حتى الآن.

- هـذا يعنـي أن سوسـن تسـمع كلمـات إطـراء وغـزل وتحرش - كما تسمونه - من الرجال هنا، لكنه نسق مألوف ومعتاد في مجتمعنا، إنمـا حيـن يقولـه شـاب أمريكـي وافـد حديثاً فلابد أنـه واقع تحت تأثير واضح حتى يلجأ لهذا الإطراء السافر، اطمئن. سوسن وإن تكن خجولاً ومتحفظة لكنها سـعيدة بما سـمعته منك. اترك للأيام القادمة أن تقرّب واحدكما من الآخر. واسـمع يا أندرو، لا تقترب منها الليلة كثيراً، ولا تتجنبها أيضاً.

الحكم معلق إذن، وسـوف أبحث في القاموس العربي الإنكليزي عن معنى اسمها. وعلي أولاً أن أرتب أفكاري، ما الذي جرى حقيقةً؟ أهـو كمـا قالـت هنـاء، هـل هو حقاً حب مـن النظرة الأولى؟ بين أزواج الراقصين الآن على اللحن الرومانسـي لمحت ثوباً يشـبه ثوبها، تملكني شـعور غريـب. مـاذا يجـري حقـاً يـا أندرو؟ هل تغار؟ ولكن لا، ليسـت هي، إنما هاأنتذا تفاجئ نفسـك بمشـاعر ظننتها انقرضت منذ سـنوات. الغيرة. كان هذا أيام كنت يافعاً وكانت (سو ألين ماكينزي) تقلّبك على جمر الإهمال واللامبالاة. هززت رأسـي كمن ينفض عنه فكرة مخيفة، لا، لا عودة إلى أيام الضعف تلك.

وأراها الآن تخطر أمامي، تجتاز حشد الراقصين ولا تراني، تتناول صحنـاً لتمـلأه، لابـد أنهـا أحسـت بوجـود من يرقبها وتنظـر إلى الزاوية فتراني. يشـع وجهها حمرة ولا تسـتطيع إبعاد محاولة ابتسـامة سـريعة أجهضتهـا إراديـاً وتهـرب مـن تحديقـي لتمـلأ الصحن مـن صنف واحد كان أمامها وقبل أن تستدير لتبتعد لا تملك إلا أن تنظر نحوي. ورغماً

عني تتسـع ابتسـامتي، ورغماً عنها تتضاحك خجلة ثم تبتعد وهي تعلم أني أتابعها. أندرو، لم تسقط بعد، لاتزال واقفاً على قدميك وربما.. ربما ستكون لك أيام طيبة في دمشق هذه. اقتربت اللحظة ونحن نوشك أن نـودع العـام، يبـدأ الحاضـرون بالعدّ. يقترب الزوج من زوجته والخطيب من خطيبته وبروس من نحيلته وأنا لا أبحث عنها. تطفأ الأضواء لحظة القبل بين الأزواج، ثم حين يعود النور أراها في العمق جالسـة مطرقة، إنها.. لا أدري هل تمنت ما تمنيته أنا؟ وأقرر أن أصل إلى غاية الشوط، أتجه نحوها بخط مستقيم، تلمحني، الارتباك والخوف وحمرة الخدود من جديد. حين أدنو تقف لا تكاد تتمالك نفسها:

- (Happy new year Miss) سنة جديدة سعيدة يا آنسة.

- (Happy new year).

عيناهـا فـي الأرض ثـم ترفعهمـا لتنظـر إلـي، يا إلهي. هذا الشـعاع الأسـود لا أقدر على مواجهته. أهز رأسـي محيياً وأضع كأسـي ثم أتجه لأخرج من البيت. سـمعت نداء باسـمي ولم ألتفت. علي أن أسـتجمع نفسي الآن، ليلة باردة تنتظرني في الخارج، أناس في سياراتهم يطلقون منبّهاتها. القشعريرة تدفعني على ما يشبه الركض. البيت ليس بعيداً وعلي أن أخرج من فتحة شارع بغداد الواسع هذا سريعاً لتجنب النسائم القارسة البـرودة، وأصـل إلـى البيـت الصغيـر، لا أنا شـارب، ولا أنا شـبع، لكني مهدود القوى وممتلئ عشقاً في بداية 1962 التي جاءتني بما لم أنتظر.

«13»

سوسن

من بعض مصائب المرأة في بلادنا أن تكون جميلة، أن تكون قبيحة مصيبة كبيرة أيضاً. المقبولات أو اللواتي في حدود الوسط وفوق الوسط بقليل هنّ المتمتعات بحياة طبيعية. أنا أعرف ذلك وأعيشه كل يوم. كل لحظة. فقد شاءت عراقة الأسرة وأملاكها والسيولة المادية أن يستطيع أبي القادم من أقصى الشمال الشرقي في سورية الزواج من (عفيفة زيات) التي هي أمي وهي تصلح وحدها لتكون ملكة جمال المخلوقات على مر العصور، هكذا أراها رغم أنها في الخامسة والأربعين، أبي بدوره كان سليل اصطفاء عائلي متكرر صحيح أن تلك الزيجات بين الأقارب، لكن ابن عميد الأسرة أو القبيلة يستطيع دائماً أن يختار أحلى بنات العم وهكذا فإن أبي لا يقل عن عفيفة وسامة مقرونة بذلك السمو العفوي التلقائي المنتقل وراثياً من جد إلى أب إلى حفيد، وكل هذا يعني أني بمنظور ذكوري أعتبر من الحسناوات، بدأ ذلك منذ بلغت العاشرة ولازال يتكرس كل يوم. وأبي الذي فتنته عفيفة اختار دمشق سكناً له بشكل دائم رغم أن لنا ما كان يسمى بالقصر في مدينة الآباء والأجداد هناك في تلك السهول الخصيبة. أنا البكر ومنحته عفيفة ولدين بعدي «نوّاف ثم سامر» وتدركون أن نواف اسم جدي وأن الوالدة اختارت اسم سامر بنفسها إذ غدا موضة في وقت ما، أما اسمي أنا فقد اختاره خالي (وجدي زيات) الذي يملك نوفوتيه يبيع فيها عطوراً ضمن ما يبيع وهو يعشق الزنبق البلدي الذي من أسمائه السوسن.

تستطيعون الآن معرفة من أنا ولماذا أنا كما أنا. عشت في فيلا مستقلة تقع بين «أبو رمانة» وشارع الروضة هي عبارة عن طابقين، القبو

الفسيح المخصص لأبي. أي لضيوفه من ديرته ولأصدقائه وشركائه في الأعمال التجارية، وفيه قسم مخصص لمربيتي (شامة) وزوجها (فرحان)، شامة هي الطباخة والخادمة وكل شيء، وفرحان هو السائق والساعي والحارس. وقد بقي يعيّر شامة بعقمها وخوائها سنوات طويلة ويمنّنها بأنه صابر عليها، وهو في الحقيقة لولا خوفه من أمي لطلقها منذ عقود. بالمناسبة الجميع يخافون من أمي إلا أنا، وقد صحبت أمي شامة في إحدى أسفارها مع أبي إلى سويسرا وحين عادوا كان أول ما قالته شامة لفرحان: يا ولد الحرام رح واسأل حكيمك، أنت الذي لا تنجب وليس أنا، انظر. الحكيم في المستشفى بسويسرا يقول ليس بي عيب. العيب فيك يا فرحان يا ولد جدعة. وبالطبع انقلب الحال من يومها. أنا أعرفكم على أسرتي ومربيتي وزوجها لأن ابن شقيق هذا الزوج واسمه حميّد كان في الخدمة العسكرية وكان يزور عمه كل شهرين أو ثلاثة حين تتاح له إجازة، وفي إحدى زياراته وبغفلة عن الجميع اجتذبني للقبو وبدأ يتلمسني تحت الثياب ثم ضمني إليه بقوة وقبل أن اصرخ أغلق فمي بفمه لعدة ثوان قبل أن يبتعد عني وقد ترك رطوبة على ثوبي. ركضت نحو الدرج فأسرع بالخروج من الفيلا ولم يعد إليها بعد ذلك، حدثت دادا شامة بما جرى فغدت في اصفرار الليمون وقبلت يديّ وهي تبكي كي لا أحدث أحداً وقالت لي: كل البنات الحلوات يحدث لهن ما حدث لك. إنما هل فعل شيئاً بعد أن نزع عنك لباسك؟ قلت لها: إنه لم ينزعه، مد يده قليلاً وتحسسني ثم ضمني إليه وبلّلني. قالت: حصل خير. اكتمي هذا كرمى لي يا حبيبتي سوسو. وحميّد الأزعر لن تريه بعد اليوم، وكتمت ذلك طيلة خمس سنوات لكني اعترفت به لزميلتي هيفاء حين نامت عندي أثناء الدراسة للإعدادية إنما بعد أن اعترفت لي بأن الشاب الذي يعمل في المكتبة قرب دارهم كان يداعبها منذ سنوات وقد تعدى ذلك اللعب من فوق الثياب وإنه سوف يتزوجها. وهكذا عرفت أن تجربتي تلك لم تكن فريدة، وبمرور الزمن سمعت

العديد من القصص عن أولاد الجيران وعن السائقين والخدم وحتى عن بعض الأعمام والأخوال. لكن حميّد جعلني دائماً على حذر وهو ما سبب تحفظي أمام الجنس الخشن بحيث عرف عني أني خجول وربما أني باردة، لا يعني هذا أنه لم تحصل معي تجارب، لقد حصلت. قبلات وملامسات سريعة لصدري أو سواه، كنت أستجيب للقبلة ولا أشجع على تكرارها. عفيفة أمي منذ الدورة التي التحقت بها لتقوية لغتي الإنكليزية بعد الإعدادية عرفت أني سأختلط بالذكور. قالت لي بعد أن قرصتني من خدي مراراً وهي حركة محبة منها تجاهي. قالت لي: اسمعي يا حبيبتي. أنت جميلة جداً، وأجمل مني، لا تعترضي، حسناً نحن جميلتان بقدرٍ متساوٍ، أبوك حين رآني أول مرة كان في الثانية والعشرين يركب سيارة كاديلاك وفرحان يقودها. أوقف السيارة ولحق بي ليرى وجهي جيداً، ظل يعترضني ويلاحقني عدة أشهر حتى ابتسمت له أول مرة، كنت قد أحببته قبل زمن طويل. لم أبعده، لم أرد عليه بالتهديد جواباً على كلماته التي يسمعني إياها. لم أذكر شيئاً لخالك أو أمي. كان يعجبني ولم يسمع صوتي حتى اعترضني بين بنات خالتي وقال: أنا وأبي سوف نزوركم الليلة أبلغي أهلك. يومها سمعني لأول مرة حين قلت له: تشرفون. ما أريد أن أفهمك إياه يا سوسو هو أن الجمال نعمة ونحن أي البنات نحوله إلى نقمة إذا لم نصنه. لا تسمحي لأي شاب أو رجل أن يلمس يدك. لا تبتسمي إلا لمن تحبين بعد أن تتأكدي من نواياه، وأنا لا أريد أن أبكّر عليك بالهموم لكن عليك أن تعرفي أن فاتحتك مقروءة لابن عمك وضاح.

أنا أعرف هذه المعلومة، ابن عمي وضاح، شاب طويل جسيم. هو أيضاً نتيجة لزواجات مختارة، وهو شريك أبي بعد أن توفي عمي، وهو أصغر إخوته. بعد الثانوية ذهب إلى بيروت ليدرس في الجامعة الأمريكية الطب البشري لكنه بعد وفاة أبيه ولأنه أكثر أولاد عمي علماً فقد تقرر أن يتسلم أعمال التجارة لأن عمي رحمه الله ترك لأولاده

الكبار شؤون المزارع والآليات والقطعان وأدار هو بنفسه التجارة مع أبي. وضاح كان يلازمه حين يكون في المدينة، وحين توفي أبوه وأمام مجلس العائلة رضخ لهم وعاد ليستقر في البلد رغم أنه اجتاز سنتين في الجامعة يدرس العلوم العامة. وضاح كنت على اسمه منذ ولدت إنه أكبر مني بست سنوات، ولأنه عزيز النفس ويشبه أبي في الكثير من صفاته فإنه لم يمارس عليّ حق الخطيب حتى ولا حق ابن العم الذي يستطيع أن ينزل ابنة عمه عن ناقة العريس إذا أرادها لنفسه كما يقولون، أنا في قرارة نفسي لم أناقش الموضوع كثيراً وتركته لوقته، صحيح أن (وضاح) غدا يزور أبي بانتظام أي أنه ينزل في القبو ويجتمع معنا على المائدة ونخرج سوية للمطاعم والنزهات. وصحيح أنه يطمئن على دراستي بأسئلة تقليدية لكني غدوت واثقة من أنه يعرف كل أخباري. سواء من دادا شامة أم من جامعيين آخرين ينتمون إلى العشيرة نفسها ويدرسون في كليتي أو سواها. عدة آراء أو زلات لسان وغالباً هي مقصودة أوحت إلي بأن ابن عمي يضع علي رقابة ما. كان يعلم أحياناً بعلامتي في إحدى المواد قبل أن أعلم أنا فيتصل ليبارك لي. في ذلك إيماء خفي إلى ذلك الدور الذي لا يضطلع به جهاراً، وضاح عاش في بيروت ثلاث سنوات، وهو شاب جميل المحيا فارع الطول وثري، أنا واثقة من أنه ليس بتولاً، لكن ما قد يباشره من علاقات لن تكون لها آثار كما حين أقيم أنا علاقة ما.

أعجبني فتيان ثم شبان عديدون عبر مراحلي العمرية المختلفة، كان أحمد رمزي هو حبيبي الدائم، أحب أغاني عبد الحليم حافظ لكني لا أحب شخصه إذ ليس فيه وسامة أو هيبة الرجولة التي أراها في أبي أو ابن عمي. في الجامعة اخترت اللغة الإنكليزية إذ نلت بها الدرجة الكاملة في الثانوية والداي لم يكونا يرغبان أن أتوجه للكليات العلمية. إنها تناسب الذكور أكثر، كان على نوّاف أن يغدو مهندساً، أمي عفيفة كانت تريده صيدلانياً وهو يريد أن يصبح رساماً. كانت الهندسة المعمارية

أهون الشرور للجميع وهكذا التحق بها. أما سامر فسوف يكون طبيباً، وأنا أوافق على ذلك، سامر الهادئ المحب للناس والأشياء سوف يكون طبيباً ناجحاً. في الجامعة تلتقي الشلل في النادي أو الندوة وهما في مبنى واحد على كتف مبنى الحقوق القديم. وهناك اعتدت على سماع المغازلات و(التلطيشات) وكنت أداوم على تحفظي وبرودتي. سرت شائعة بين الطلاب أني مخطوبة لابن عمي الذي هو أمير في قبيلته وهو مستعد لقتل من يتعرض لي، أنا واثقة من أن (وضاح) هو الذي عمل من خلال أولاد الديرة على تثبيت هذه الشائعة، ذلك لم يمنع من عدة محاولات للتقرب الي، نجح بعضها إلى حد المرافقة للسينما والسماح بمسك اليد وتطويق الكتف، بل تعدى ذلك أحياناً إلى ضغط الصدر، وكابتن فريق السلة أرسل يده بين ركبتي وظن أن ضغطي عليها متعة وليس إبعاداً لها حتى أنشبت فيها أظفاري. الوحيد الذي صعدت معه في سيارته إلى المهاجرين كان معيد اللغة الإنكليزية، أستاذي الوسيم الذكي كنت قد جعلته مؤنسي في فراشي من خلال صورة له تعمد أن يتركها في كتاب شعر طلب مني نقده وتعمدت أن آخذها دون تعليق، كنت أمنحه في خيالي كل نفسي وأعريه وأعاشره من خلال صورته، لكني حين سحبني إلى مقعد السيارة الخلفي ولم يكتف برمان الصدر بل أخذ يسعى إلى ما هو أكثر نسيت صبابتي واشتهائي وزجرته، فاجأني بأنه مستعد للزواج مني فوراً والهروب من البلد إن لم يوافق أهلي. كنت أتمنى أن أسمع منه ذلك قبل أن أخالف معاهدتي لأمي بالخروج معه وإباحة كنوزي ليديه وفمه، ربما لو طلبني قبل أن يحاول اقتحام المحرّمات لقبلت. وسّط مدرستي وصديقتي هناء لعودة المودة على الأقل ولم أقبل. سافر في بعثة دراسية وبعد سفره وابتعاده عاد ليكون في خيالي فارساً لفراشي. والذي لم أسمح به في مقعد السيارة الخلفي سمحت بما هو أكثر منه وأنا أتلوى وحيدة في فراش العذرية القاسي، واستمر ذلك حتى جاء أندرو براون، يااااه لهذا الأندرو، لابد أن أشجع

وضاحاً على إتمام الزواج سريعاً قبل أن أنزلق، أندرو قد يتغلب على كل موانعي، إطلالته الباسمة وهو يهز رأسه تجاهي جعلتني أخاف من نفسي. لم تعلم هناء كما لم يعلم أندرو طبعاً أنني كنت واقفة في الزاوية حين قدمته ورفيقه الكهل، كانت حدثتني عن أندرو رئيسها الجديد. ضحكت وقالت لي: لو أرادني أندرو لنفسه فلا أدري كيف سأمتنع عنه بوجهه الرجولي وعينيه الجميلتين اللتين ترسلان تيارات طاغية مسيطرة، نظرت إليه وتأكدت أنها لم تكن تبالغ، ورغم خجله كانت ملامحه نبيلة وذكية، سحبتني وعد للداخل لتحدثني عن مأساتها في أخوات خطيبها. كنت أدير ظهري للحشد وسمعت خطواته تقترب ولا أدري كيف عرفت أنه هو، جلس محدقاً للجدار حتى بدأ التفاتته نحونا فأشحت عنه النظر وبالخبث الأنثوي الموروث قررت أن أجتذبه. في النظرة الثانية سمحت له أن يرى وجهي، كنت في أحسن حالاتي، مع قليل من التشجيع قد يتقرب مني، أغريت وعداً بملء صحنها من جديد لها ولي فغادرت وعندها ابتسم وهز رأسه، كدت أبتسم لكني رسمت علامة استغراب وأتت هناء لتنقذني من سخف مسلكي. عرفتنا ببعضنا بعضاً، عزمت على إغوائه، وضعت يدي في يده، وحين تغزل بي صراحةً معتبراً أن بايرون لو رآني لوقف شعره عليّ لم أستطع أن أداري سروري إلا بالارتباك المصطنع، لم تكن حمرة خديّ خجلاً بل كانت انفعالاً وذهبت مبتعدة باحثة عن لا شيء.

كان قلبي يخفق حبوراً بانتصار تحقق، هذا الشاب الأمريكي الذكي قد أذهله وجهي، لا أكتم أن زهواً شديداً قد خالطني، إننا نتحدث هنا عن أمريكي مثقف ومن تكساس كما قالت هناء، وهو حين يقف مذهولاً، بجمال سوسن ربيع كما بدا جلياً عليه فهذا يعني أن سوسن ربيع هي جميلة الجميلات ليس بين هؤلاء هنا بل حتى قياساً لمن عرفهن أندرو في تكساس أو حتى في نيويورك. إنما ألا يجوز أن يكون ذلك أسلوباً اتبعه للنيل من هذه المتباهية؟! إن كان هجومه بهذا الوضوح أسلوباً

ناجعاً هناك فهل أساعده على الإفلات به؟ لا. سوف أري هذا الأندرو. وهاهي هناء تبحث عني، حين رأتني أسرعت تعانقني وتقبلني من خدي. قالت لي: أنا والجميع نعرف أنك جميلة الجميلات لكن لم يخطر ببالي أن يكون لك هذا التأثير بأندرو براون، مستر تالبوت أخبرني أنه صياد حسناوات محترف، وقد رأيته بعيني وسمعته بأذني يلقي كل تاريخه ونجاحاته أمام عيني سوسو الحبّوبة ويستسلم لحسنها العربي.

كررت علي هناء ما قاله أندرو براون، كانت رأسي الآن تناطح الغيوم غروراً واعتزازاً، هذه ليست شهادة محروم جائع، هذه شهادة خبير عرف الكثيرات، لكن الذي أقلقني مجدداً ليس أنه يخطط لاصطيادي وإنما ما توقعته هناء:

- أخشى يا سوسو أن أندرو ربما سيقع في حبك أو أنه قد وقع فعلاً، يا إلهي. هذا أكثر مما يجب، لا بأس أن أعجبه وأن يعجبني، أن يشتهيني حتى وأن نتسلى قليلاً، إنما أن يحبني It is over.

- هناء، لا تبالغي.

- أبالغ؟! قلت له إن جمالك عربي فقال إنه سماوي، إنه يخشى أن تخافي منه، أراد أن تعتبري ما قاله نتيجة ثمله وهو لم يشرب.

- أعرف.

- يريد ألا تتركي السهرة، ربما هو سيغادر.

رأيته، كان يختلس النظر إلى وقوفي مع هناء، لقد ارتاح حين اكتشف بقائي، وأنا حائرة فيما سأقول أو أفعل:

- هناء، قولي له إنه كان عربياً في غزله وإن ذلك أسعدني كما تسعد الفتيات بالإطراء، لكن، هناء أنت قلت لي إنه متحفظ، أين تحفظه؟

- انهار أمام العين الكحلاء يا سوسو، سوف أخفف من توتره، إنه حساس كثيراً، لا تنزوي ثانيةً ولا تهربي منه إن اقترب.

أنا أهرب؟! حتى هناء لا تعرفني كما أنا، هل تخجل البطلة الأولمبية من ميداليتها؟ هل يضيق الشاعر الموهوب بتصفيق جمهوره؟

لماذا أهرب أو أنزوي وثمة شاب جاء من دنيا أخرى عبر المحيطات كلها ليقول في جمالي ما يقوله الشعراء. من حقي أن أزدهي وسوف يكون أندرو براون الليلة رفيق فراشي، سوف أستحضره بين ذراعي وأبيح له كنوز سوسن ربيع المحرمة.

تعمدت أن أجعله يراني وأنا آخذ طعاماً لا أريده، ويبتسم لي ابتسامة حذرة فأفرح وأسمح لنفسي ببعض الغنج إذ أضحك وأبتعد. وأدرك عند انطفاء النور أني سأكون مقصده حين عودته، لذلك أبتعد عن الجميع كي لا يظن أن أحداً قبلني، وحين يتجه إلي ليتمنى لي سنة سعيدة أتمنى له مثلها وأنظر إليه بقبول كامل فيضع كأسه ويخرج، تناديه هناء فلا يجيب. ربّاه. لقد.. لقد وقع المحذور وقد أعجبته، وما يجري الآن لم يعد لعبة بأي حال من الأحوال، أعرف أن زواجي سوف يتم بعد خمسة أو ستة شهور عندما أتخرج. أنا تجاهلت هذا الأجل لكن الاتفاق بين وضاح وأمي على ذلك قد تم إبرامه وعلمنا به أنا وأبي قبل أيام، وضاح قد اشترى طابقاً كاملاً من فيلا في حي المزرعة واشترى الملحق وسوف ينتزع دادا شامة وفرحان من جوار والدي. المسألة إذن مسألة شهور فهل أفسح لأندرو مجالاً ليحبني حقاً؟ كانت الإجابة واضحة، نعم ونعم ونعم لماذا لا أتمتع بعشقه إياي؟ مادمت سأصل إلى ليلة زفافي عذراء لم يمسسها سوء، فأي ضير في أن يحبني أندرو أو حتى أن أحبه مادام قدري معروفاً مسبقاً ولا اعتراض لي عليه؟ لابد أن هناء بداعي المودة لأندرو سوف تحاول الجمع بيننا. وأنا سوف أسهّل عليها ذلك دون أن تدري أما هو، ترى لو أتيح له أن يتوسد ذراعي بم سيغازلني؟ ما الذي سيهمسه في أذني وكيف سوف تستكشف أنامله فسحات النعومة ومكامن الدفء. أحس أن النار تصعد في جوفي وأنظر إلى وعد التي لاتزال تمضغ وهي تصفع خطيبها بالشكوى التي تظنها تدللاً. أعانق هناء متمنية لها ولزوجها عاماً سعيداً ومثمراً، وتقرقر ضاحكة لأني أعرف مدى رغبتها في إتمام شهور حملها بسرعة كي ترى ولدها.

- ولك مثله يا سوسو.

وتهمس لي بتواطؤ:

- وإن كنت أظن السنة الجديدة قد بدأت لك مبتسمة فاتحة ذراعيها من خلال عشق أندرو. هل تمانعين في زيارة المكتبة معي بعد أيام؟

- لا فرق عندي. كما تشائين.

« 14 »

أسرار

اكتشفت أم تميم أن سهرة رأس السنة التي نمت فيها خارج البيت لم تكن سهرة دراسة، بل كانت سهرة لهو وخمر، والأنكى من ذلك أنها كانت سهرة مجون، وكل ذلك قد فضحته رائحة (العرق) من خلال عدة نقاط انسكبت على قميصي الداخلي، والأغلب أن طبعة من أحمر الشفاه أو بقايا من عطر نسائي قد كشفت الباقي، دخلت غرفتي عصراً وقد ارتسمت على وجهها ملامح الانشداه والذهول، وفي عينيها بوادر دموع تحاول كبحها، حدقت إلي متفرسة فيّ ثم صفعت كفاً بكف وانهارت جالسة باكية وهي تدق على صدرها شاكية مغمغمة بحيث لم أفهم إلا جملة واحدة ضجت في رأسي مستنفرة كل حواسي:

- ألم يورثك غير العربدة والفجور؟!

العربدة والفجور، أمي بكل بساطة أفصحت عن أسى عميق دفين ولا أعرف إن كانت واعية لما قالته أم لا، ويبدو أنها كانت واعية إذ تراجعت:

- أعني حين ترك لك الحبل على الغارب وصرت تقرأ كل تلك الكتب، هذا ما أوصلك للكذب وشرب المنكر ووو.

غلبها القهر والدمع والغصة، مهما حاولت أن تداري ما أفصح عنه لسانها في لحظة نقمة وتفجع فقد سبق السيف العذل. نظرت إلي فرأت من دهشتي ما جعلها تدرك أني لم يغب عني ما صرحت به:

- وتنظر إلي هكذا دون حياء أو خجل، ماذا أفعل بك آ؟ لم تفقس عنك البيضة بعد ومع ذلك تكذب على أمك وتعصي ربك بشرب الخمر والزنا والفجور، لمن أشكوك وماذا أقول في حقك؟ هل أدعو عليك؟

- أمـي دعـك منـي الآن وخبرينـي كيـف تتهميـن المرحـوم أبـي بالعربدة؟ بل وبالفجور أيضاً، هل هان عليك عبد المالك يا أمي؟

وفوجئت بثورتها التي لم تترك ستراً إلا وكشفته:

- هان علي؟ تقول هان أبوك عليّ، أنا التي حفظته وحفظت سره وأغمضت عيني عن سهراته عامدة متجاهلة ليكون على راحته داعية له بالصفـح والمغفـرة. أنـا التـي هنـت عليه رحمه الله حين كان يأتي وعلى جسمه وثيابه آثار لياليه السوداء المشينة، هل شكوت لأحد؟ هل سمع مني هو أي شـكوى؟ لكنه مات وهو يعلم أني سـامحته لقد بكى أبوك ندماً حين أخبرته بأني سامحته من قلبي على خيانته لي فلا تقل لي إنه هان عليّ.

كان انفعال طاغٍ قد ملكها الآن، وأخذ قهرها ولوعتها في تحويل بكائها إلى نواح، ولم أستطع أن أفعل شيئاً سوى معانقتها رغم ممانعتها.

- لا بـأس عليـك يـا أمـي، أمـي باللـه عليك كفـى، أمي، مثل هذه ربما لم تكن إلا نزوات عابرة، تعلمين أنك حب عبد المالك الوحيد.

- أعلم.

وسط بكائها قالت ذلك ثم أبعدتني عنها:

- هل تظن أني عشت مقهورة وأنا أعرف ما كان يفعله؟ حبه لي كان هو سبب حياتي. وحبي لأبيك كان حياتي، أنا كانت عندي شكوك لم تتأكد إلا حين صارحته وسـامحته قبيل وفاته يرحمه الله، إنما دعنا من الذي مضى، أنت، أنت منذ متى تكذب علي و.. و..

- أمـي، أنـا لـن أعتـذر، أنـت منذ سـنوات تعتبرينني رجلاً وترينني ناضجاً وأتحمل المسؤولية، لا تأتي في لحظة غضب وتعاملينني كطفل.

صفعتني بخفة على خدي:

- ما أوقحك يا تميم، سبحان الله، عوضاً عن أن تطأطئ رأسك خجلاً تعاتبني! طق عرق الحياء وأنت لا......

الحمـد للـه جـاء جـرس الباب الطويل الملحـاح لينقذني، خرجت

وتركتني لأفكاري، رباه، أمي كانت تعرف عن أبي كل شيء. عن سهرة الشراب وعن علاقة له، الفجور.. هذا ما قالته مؤمنة قبل قليل، أبوك أورثك الفجور. ولهذا معنى واحد، نعم ليس أصدقاء أبي وحدهم يعلمون بأنه كان له من تصاحبه فهاهي أم تميم تعلم أيضاً، فتح باب الغرفة دون أن يقرع، وحدها سليمة تفعل. ذلك دخلت وهي تندب:

- من الصباح وفي أول أيام السنة وتغضب أمك يا تميم؟! أنا لا أصدق، لا أصدق.

عانقت سليمة أمي وأحاطت كتفها بذراعها ونظرت إلي مؤنبة:

- ماذا فعلت؟ خالة لم تقل لي. أنت اعترف ماذا فعلت حتى أجريت دموعها؟ ألن تجيب. أنت قولي خالة وأنا آخذ لك حقك منه.

- هل أقول لها؟ هل أخبر بنت عمك بما فعله تميمو. هذا لم يعد تميم الحبوب يا سليمة.. صار شيئاً آخر، أستغفر الله.

رغماً عني وللمرة الأولى كانت نظرتي لأمي نظرة تحذير أقرب للتهديد. رمقتني شذراً وأشاحت عني:

- اسأليه أنت يا حبيبتي، أنا نفضت يدي منه، سأشرب القهوة (السادة) معك في غرفتي.

خرجت بينما بدت على سليمة علائم التفكير وهي تحدث إلي، ولابد أني كنت أمامها كالمجرم أمام القاضي، حدقت إلي متفرسة ثم ابتسمت:

- كنت سهران أليس كذلك؟ كنت سهران وربما شربت.. وربما... آ.. آ..

كانت لهجتها وابتسامتها وكل ما فيها يضحك ولم أتمالك نفسي من الضحك:

- بم تهذرين؟ ما هذا الجنون؟

اقتربت وجلست قربي نظرت إلي متفحصة فأشحت عنها:

- نعم، كنت في سهرة فيها حريم، وخالة مؤمنة تخاف مادام ريشك

قد طيّرْ، تخاف أن تنتفه لك واحدة غريبة.

- سليمة.. فلسفتك هذه ادخريها لمصطفى.

- عينك في عيني يا تميم.

- هَهْ.

- هذه نظرة مكابرة ووقاحة يا تمّوم، ابتعد عن درب الساقطات، مثلك يا بن عمي تتمنى أي بنت شريفة نيل إعجابه، لماذا تتعجل أن تكبر؟ هل تظن أنك إن عاشرت واحدة من الشارع ستغدو كبيراً؟

- سليمة، اتركيه لا نفع فيه، تعالي نشرب القهوة.

خرجت سليمة بعد أن قرصتني من خدي، هل أكون مكابراً ومغالياً إذا قلت إنني أحسست ببعض الغيرة في كلام سليمة. ربما، المهم كانت ليلة سخيفة جداً. اثنتان في أواسط العمر ولابد أنهما من الجوالات في الشوارع لا أدري من نصح وليداً بهما، كانت حركات الاحتراف ولهجته تبدو جلية كل لحظة. الشيء الذي رفّه عنا قليلاً أن الجميلة فيهما كانت راقصة في أحد الملاهي حتى تكررت عربدتها فطردت ولم يعد أحد يشغلها فتحولت إلى عاهرة رخيصة، لكنها تحسن الرقص فعلاً، ولم تعلن الساعة منتصف الليل حتى أخرجناهما بما يشبه الطرد، ولابد أن بقايا السهرة قد ظهرت بطريقة ما فاستجرّت هذا الموقف من الوالدة. والأهم من ذلك لقد عرفت كم هي كبيرة وعزيزة النفس وكم عانت صامتة من ألم مبرح. لأن حبها لأبي جعلها تتغاضى وتظهر دائماً سعادتها البالغة.

انقضت أيام قبل أن أجلس أمامها وأعدها بأني لن أعاود السهر والنوم خارج البيت حتى أنتهي من الثانوية، كان هذا أكثر مما توقعته أمي، لكنها رضيت، أمي تحبني بإطلاق ودون اشتراط. أنا أعرف ذلك، ولا أريد أن أجعلها قلقة وخائبة وحزينة، يكفي ما عرفته عن معاناتها الصامتة مع المرحوم أبي الذي توفر الآن مصدران يؤكدان أنه لم يكن ملاكاً كما يعرفه الجميع، هذا ما عزاني قليلاً، إذ لست في رغبتي تجاه الجنس الآخر نشازاً أو معتمداً سلوكاً لا سابقة في الأسرة له.

سهرنا في منتصف آذار بدعوة من رضوان وآسيا، حضر عمي وأسرته ونحن وأهل رضوان، آسيا غدت ربة بيت ناجحة ورضوان لايزال عاشقاً كما في أيام الخطبة، وأثناء شرب الشاي والجميع يستمعون لأم كلثوم في أغنية يا ظالمني سألت رضوان عما يجري في البلد، كنت أعرف أنه قريب من الأحداث باستمرار.

- هناك خطأ يا تميم، التشرذم في الجيش لن ينتج عنه أي خير، يسرحون بعض البعثيين، يحاصرون الشيوعيين، يغفلون عن الناصريين، الصحف منابر لنشر غسيل السياسيين الوسخ، ذهاب الوفود إلى القاهرة والمهاترات مع صحافة مصر كل ذلك لا يدعم الاستقرار، والخوف الآن من حركة تقوم بها إسرائيل.

نعم هذا التخوف الذي أبداه رضوان قد عبر عن الواقع لأن دولة العصابات قامت باعتداء واسع في منطقة تل النيرب لكن نتائجه كانت وبالاً على العدو إذ خسر الكثير من أفراده وآلياته المتنوعة التي عرضت في المحافظات السورية. وقد طالب الجيش أو فريق منه بحل المجلس النيابي واستقالة حكومة الدواليبي وظهرت خلافات مع رئيس الجمهورية لكن الأمور وصلت إلى الذروة في 28 آذار حيث أقيل رئيس الجمهورية أو استقال كما أعلن وكذلك مجلس الوزراء ولم تستقم الأمور، إذ جرى تحرك عسكري في حلب ثم عقدوا في حمص مؤتمراً وبالنتيجة أخرجوا من البلد الضباط الذين قاموا بالحركة يوم 28 أيلول الذي بات يعرف بالانفصال.

زرت الأستاذ راتب مأمون وكان الأستاذ صالح نعمان موجوداً وقد أفضى الحديث إلى أن أجد خلافاً في منظور الاثنين تجاه الأحداث لكني حين انتهت السهرة فوجئت بالعم راتب يضع في يدي ورقة ويهمس في أذني قائلاً:

- اتصل بهذا الرقم، هناك شخص من معارف المرحوم أبيك يريد لقاءك.

وطوال الطريق إلى البيت كانت أفكاري تتقاذف يمنةً ويسرة. هل يريد العم راتب أن يصلني بأحد الشيوعيين بغية كسبي إلى صفوفهم أم أن وراء هذا الرقم شيئاً آخر، ولا أدري كيف خطر لي أن الأمر يتعلق بامرأة من ماضي عبد المالك منصور، وكان حدسي صائباً.

اتصلت ظهر الخميس بالرقم، جاءني صوت نسائي رفيع يسأل من أنا وماذا أريد. قلت إن اسمي تميم منصور وهناك من يريد أن يتحدث معي. وردد الصوت ما قلته وسمعت صوتاً يقول: هاتي السماعة واتركي الصالون.

- ألو.

- ألو.

- أنت تميم؟

- أنا. من أنت؟

- واحدة يهمها أمرك، اسمع. هل تستطيع أن تكون في مطعم الـ..... لا. كن الساعة الرابعة أمام محل الهندي في البوابة وسأصحبك بالسيارة.

- من الذي يحدثني رجاءً.

- ستعرف كل شيء. هل ستحضر؟

- سأحضر.

ثبت الأمر. هذه المرأة كانت تعرف أبي. لماذا تريد أن تراني؟ من حدثها عني؟ هل هو الأستاذ راتب؟ هل يرتبط معها الآن؟ كان في خاطري أسئلة متضاربة كثيرة، لاحظت أمي أني قلق ومتوتر أصرت أن تعرف ولكني تهربت وحين تجهزت للخروج حسبت أني سأذهب إلى وليد. غدت تعرفه إذ صار يزورني للدراسة بعد أن أفهمته التزامي تجاه الوالدة، كان لبقاً بحيث تناسى أمامي قصص الوافدات إلى شقته وظلت صحبتنا كما هي. طمأنت الوالدة وخرجت، كنت على الموعد قبل خمس دقائق ولم أنتظر إذ توقفت قربي سيارة تاكسي وأشارت السيدة الجالسة

في الخلف لأصعد فصعدت قرب السائق، التفتت لأقول: مرحباً.

- أهلاً.

كانت نظرة خاطفة لامرأة في أواسط الثلاثينيات، رائحة عطرها ثقيلة تعبق بها السيارة التي درجت باتجاه السبع بحرات ثم انحرفت في شارع بغداد حتى أحد الأبنية قبل باب توما والذي لا يبعد كثيراً عن ثانوية أمية، الحي سكني بامتياز، أنزل من السيارة حين سمعت نزولها من خلفي وأقف حائراً قليلاً ثم أمد يدي لأدفع للتاكسي فيضحك السائق قائلاً: واصل. تشير إلي السيدة فألحق بها وتدخل البناء وتفتح باباً في الطابق الأول:

- تفضل يا تميم.

أتردد قليلاً ثم أدخل قبلها فتلحق بي وتغلق الباب، تخرج على حركتنا صبية في ثوب قصير لكن إشارة من يد المرأة تجعلها تختفي مباشرةً وتقودني إلى صالون تغلقه خلفنا وتنزع عنها المانطو وتتأملني باسمة:

- يا سبحان الله، الخالق الناطق، لو رأيتك في الشارع بين عشرات لعرفت أنك ابن عبد المالك يرحمه الله، يرحم روحه الطيبة.

- هل كنت تعرفين أبي؟

- بالطبع، اسأل عما تشاء، أنا بعد أن سمعت عنك من الأستاذ راتب أحببت أن أراك، أنت من رائحة عبد المالك.

- هل كانت له علاقة بك؟ رجاءً أريد أن أعرف.

- عليك أن تعرف.

تنهدت بعمق وأشعلت سيجارة سحبت منها أنفاساً متتالية.

- أجل عليك أن تعرف لتعلم أنه كان لك أب ليس له مثيل بين الرجال يا تميم، اسمي سمر، وأنا أدير الآن (بانسيوناً) فيه بنات للمتعة. لا أرى أن هذا قد فاجأك.

- ليس تماماً.

- هكذا تسهّل علي ما سوف أقول، حين رأيت أباك للمرة الأولى كنت قد قضيت سنتين في الشارع، لقد بدأت صغيرة، ليس لأني فاسدة أو عاهرة بالولادة ولكن لأن الظروف كانت تدفعني دفعاً لذلك. لا أقول هذا لأبرر لك وإنما لتفهم كل شيء.

- حسناً؟

- تركت الشوارع لأصبح من بنات المطاعم والفنادق، وفي أحد المطاعم رأيت أباك للمرة الأولى. كان مع أصحابه الذين تعرفهم.

- متى كان ذلك؟

- قبل مولدك بشهور كثيرة.

- تعرفين أبي قبل أن أولد؟

- أعرفه، رأيته، أعجبني، أفهمته بكافة الطرق ودون كلام أني رهن إشارته لكنه لم يأبه لي حتى كان يوم احتفاله بقدومك.

- بقدومي؟

روت لي سمر ماذا فعلت وكيف شربت نخبي وكيف بدأت علاقتهما وأن لقاءها كل أسبوع به كان مكافأتها من الحياة. وكيف أنها أحبته ولازالت، قامت وأخرجت من درج مقفول عدة صور لم أشاهدها من قبل، إحداها كانت معها ويده تطوق كتفها. حدثتني عن الرجل الذي كان يستحق أن تقبل آثار حذائه على الأرض، سالت دموعها دون أن تمسحها وهي تريني عدة مئات من الليرات بعضها قديم ما عاد يصرف وعدداً من الخواتم والأساور. قالت إنها نقوده وهداياه. كان يجبرني على أخذها وحتى لا يزعل كنت أقبلها وأحتفظ بها وستظل معي لتدفن في قبري، لا. لا تظن أن عبد المالك كان خائناً بطبعه. أستغفر الله. أنا التي تابعته وظللت وراءه حتى أشفق علي، كان يحب زوجته، كان يتركني نادماً كل مرة لكنه يعود لأنه يعرف أن موتي أرحم من أن يهجرني، هل تعلم؟ لبست ثياب ممرضة واسترقت النظر اليه وهو في المستشفى، لم أحتمل، لم أحتمل أن أرى ذلك الرجل القوي في حالة ضعفه، آثرت

أن يبقى في خاطري كما أعرفه كان لأمك عزاء فيك، وكان لك عزاء في أهلك جميعاً، أما أنا فلن يعرف قلبي العزاء بأبيك أبداً.

تمزق قلبي، ليس عليها، وإنما عليه من جديد، يغلبني دائماً الدمع حين أنفرد بنفسي وأتذكره، أحس بالقهر والعجز لأني لم أستطع له شيئاً وهاهي أمامي الآن واحدة فجعت به كما فجعت أنا وربما كما قالت ذاقت أكثر مما ذاقته أمي.

- أتعلم لم أرسلت في طلبك؟

- لا.

- لأقول لك: من هذه اللحظة وحتى أموت أنت سيد في بيتي ومالي وجميع أحوالي. تستطيع أن تطلب مني لبن العصفور وسوف ألبّيك، أنت كنت روح أبيك ودمه وحياته. وأنت لذلك صاحب الأمر عندي، إن لي مالاً، ولي نفوذ ومعارف، ولي فتيات لا يخرجن عن طوعي. وكل ذلك مبذول لك. حتى إن ارتكبت جريمة، حتى لو انقلبت الدنيا ضدك، تذكر أنك واجد عندي سنداً وملاذاً في وجه الدنيا كلها.

يا إلهي، كنت أفكر وأنا عائد إلى موقف الباص، هذه واحدة عرفت ولابد مئات الرجال، وهي الآن تدير مكاناً وتهيمن على فتيات محترفات ومع ذلك فلازال عبد المالك منصور في قلبها ودمها. لم أشعر أبداً أنها قد أخذت حيزاً من حياة أبي كان يجب ألا تأخذه لأنه من حق أمي. وأنا أصدق منها أن أبي قد استجاب لها شفقةً وحناناً بعد أن غمرته بفيض عاطفتها. كل ما أعرفه عنك يجعلك كبيراً تطاول السماء يا أبتاه ولن أكون يوماً قادراً على أن أعبر لك عن احترامي وإكباري إياك ومحبتي لك من جديد. اختطفتك منا الأيام خلسة وعلى حين غرة.

معرفتي بسمر وسماعي منها عزّزا فيّ العزم على مراعاة أمي مؤمنة وإراحة بالها، كما اكتشفت فجأة أني وصلت إلى آخر سنوات الثانوية إذ انقضى الصيف بسرعة لأن عمي سعيد قد استأجر فيلا كاملة في الجرجانية وتقرر أن يأخذ هو وخالة رضية ومسرة الطابق الأرضي،

أنا وماما ورضوان وآسيا الطابق الثاني، أما الطابق الثالث فهو لسليمة ومصطفى ومن يأتي ليلة الجمعة، إن كان معزز وزوجها وأولادها أو أحد أولاد عمي الذين ظلوا في دمشق للعمل في المحل والإشراف على مصالحنا.

لا أدري كيف ولماذا يبدي لي رضوان تلك المودة غير المشروطة، بينما مصطفى زوج سليمة يعاملني بتنازل الرجل الناضج تجاه فتى يافع، رضوان يشعرني بأنه لا يمتاز عني إلا بمعلوماته لأنه عسكري، وقد خضنا سويةً أحاديث مطولة في التاريخ والأدب وفي السياسة، ذات ليلة كانت لعبة البرسيس حامية بين أمي ومصطفى ولكل منهما من يشجعه، اللافت أن سليمة كانت تشجع أمي ضد زوجها. المهم انهمكنا في تعليق ساخر أنا ورضوان على ما جاء في الصحف اليومية، قال لي رضوان في ختام حديث طويل:

- لا أدري يا تميم، أحياناً أراك تتحدث في العروبة والقومية مثل البعثيين لكنك في أسفك لحدوث الانفصال تبدو ناصرياً، وشغفك بالديمقراطية وعداؤك لأمريكا وإعجابك بغاغارين وحتى بخروتشوف كل ذلك يكاد يصنفك كمؤيد للشيوعية، فأين أنت حقاً؟

- حيث ذكرت. إني قومي عربي غير متعصب فلست بعثياً إذن لأني أراهم متعصبين. وأنا لا أستطيع أن أنسى تأميم قناة السويس وإنهاء النظام الملكي في مصر ولا نجاح عبد الناصر في استنهاض الأمة كلها، لكني لا أغمض عيني عن هيمنة المباحث هنا وفي مصر وملء السجون بالمنتمين للأحزاب من أول الشيوعيين حتى آخر المتدينين لذلك لست ناصرياً كجماعة نهاد القاسم وسواه.

- وكذلك لست شيوعياً، أنا واثق من ذلك.

- لست كذلك حقاً، إنما هل ثمة شك فيما فعلته الشيوعية في الاتحاد السوفييتي انظر إنهم يناطحون الغرب ويتفوقون عليه، منذ أربعين سنة كان هناك استرقاق وجهل وتخلف في سهوب روسيا وبقية أرجاء

الاتحاد السوفييتي كان هناك حرب على المتعلمين والمثقفين والأدباء، انظر الآن. إن التعليم واجب على كل سوفييتي ولا مهادنة في ذلك، نعم أنا تعجبني الكثير من الأفكار الشيوعية، ويعجبني صمودهم رغم شراسة ملاحقتهم ومقتل أربعة أو خمسة منهم على أيدي المباحث، لكني كذلك لست شيوعياً. ولست بالطبع سورياً قومياً.

- أعرف.. إنما إن كان عليك الانتساب لأحد الأحزاب فماذا تختار؟ نسينا طبعاً الإخوان المسلمين، لا أظنك معجباً فيهم.

- لست معجباً بالفعل، لا يحتاج الإنسان برأيي لتنظيم يحول الدين إلى سياسة كي يصبح قريباً من ربه.

- لم تقل لي أي حزب كنت ستختار.

علت في تلك اللحظة صيحات فرح وغمغمات إحباط، فازت أمي.

- حزب أمي بالطبع، لن تتوقع أن أختار حزب مصطفى.

ضحكنا معاً، وتهربت من الإجابة لأني لا أعرفها فعلاً، أنا غير معني بالانتساب لأي حزب، أبي رحمه الله لم يفعل رغم معرفته ببعض قادة الأحزاب وناشطيها. ليس لأن التحزب مذموم، فهو كان يدافع عن الأحزاب ولكن لابد أنه كانت له أسبابه، بالنسبة لي لقد تملصت من دعوات زملاء المدرسة للاقتراب من هذا التنظيم أو ذاك، وحين ذهبت إلى مدينة وليد رماح لقضاء أسبوع قبيل امتحان نهاية السنة وجدت أن عائلته تضم كل اتجاهات الأحزاب السياسية وحتى الدينية إذ أن فيها عدداً من المنضمين للإخوان المسلمين وحضرنا على هامش الدراسة نقاشات تابعتها أنا بشغف وتابعها وليد ليهرب من الدراسة فقط. واكتشفت أني غير راغب في أن أصبح واحداً من هؤلاء المتناقشين، ليس الآن على الأقل.

بالنسبة لرضوان الأشقر أنا كنت أظنه من الدمشقيين الذين سعوا وأيدوا الانفصال أي من جماعة (الضباط الشوام) لكني أحس أنه ليس بعيداً عن السوريين القوميين. مجرد حدس أو ربما بتحليل حدسي،

لأن انتقاداتـه للأحـزاب هـي نفسـها انتقـادات القوميين ورفضه للإخوان المسـلمين هو أشـبه بالرفض العلماني للقوميين عندما يفصلون السياسـة كليّةً عن الدين. لكن رضوان بعد كل شيء شاب لبق قريب من النفس وابنة عمي آسيا قد تفتحت بعد زواجها منه وهما يتبادلان حباً تفضحه النظرة واللمسة والانسحاب إلى غرفتهما مبكراً بينما أرى سليمة تذهب كي تشـرف على رقود ابنتها فتنام أحياناً معها ومصطفى جالس معنا أو تتركه ينام وحده وتبقى هي معنا. كأن العشق قد تضاءل أو فقد اتقاده، مسـرة غـدت هـذا الصيـف فتـاة أخـرى، صفا وجهها ونما جسـمها وزاد طولها فإذا بها حسناء شهية استقطبت عيون الناظرين حيثما ذهبنا سواء بقين أم بلودان أم الزبداني، لكزتني مرة سليمة بكوعها وهمست: انظر، كل الشباب وحتى الكهول يشط ريقهم لمرأى مسرة إلا أنت. ويحلو لي أن أناكدهـا فأقـول: أمـا أنـا فلازالـت حبيبتي الأولى هي حبيبتي. وتقرقر ضاحكة ولا يخفي علي أن ذلك يسرها حين تسمعه.

ابتـدأ العـام الدراسـي، هاأنـذا فـي الثانوية، علـيّ أن أنجح بحصيلة درجات جيدة، أريد أن يكون لي الخيار فسيحاً لأختار الكلية التي أريد، لا أن تفـرض علـي درجاتـي حـدود خياراتي، بعض المظاهرات وتعطيل الدروس سـوف يؤخر إكمال المناهج والثانوية تسـألك عن الكتب من الغلاف للغلاف.

الإخوان المسلمون يتهمون حكومة الدكتور بشير العظمة بالتعاون مـع الشـيوعيين وهنـاك الآن بعثيـون ناصريـون وبعثيـون ضد عبد الناصر حتى الموت، وهناك بعثيون سـابقون لهم اتجاه ناصري، وهناك فوضى تامة، إنما وهذا ما ألاحظه «لا أحد يخشى المباحث، والصحف تشرّق وتغرّب على هواها، والحريات للجميع» أي أن هناك ديمقراطية وهناك حرية إبداء الرأي. صحيح أنها مشوبة بالفوضى لكنها الآن موجودة، لقد زرع بي المرحوم عبد المالك منصور تقديس قيمة الحرية منذ حدثني عن استهجانه العلني في وجه أديب الشيشكلي لحل الأحزاب واختزالها في

تنظيم موالٍ له، هذا أيضاً ما فعله - للأسف - الرئيس عبد الناصر، ذات مرة قال لي رضوان تعليقاً على هذه الفكرة: وأحبابك السوفييت أيضاً لا يحبون أن تكون هناك أحزاب غير حزبهم هم فما قولك؟ الصحيح أنه لم يكن لي رأي. سوف أسأل الأستاذ راتب مأمون عن ذلك يوماً ما.

من الذي تزوج؟ ضياء. ضياء النمشاء التي تحولت إلى شابة جميلة بشكل مخيف. بعد أن جعلتها ذلك اليوم المشؤوم ترتدي ثيابها بسرعة وتخرج من البيت محتارة في أسباب اشمئزازي وقد سمحت لي بكل شيء، كل شيء، بعدها كانت إن رأتني تلوي شفتيها ازدراءً. في البداية ظننت ذلك خطة دفاعية منها كي لا أقترب ثانيةً أو كي لا أخبر أحداً بما جرى، لكني حين كبرت وكبِرَتْ وكان لابد من أن نلتقي في الطريق مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع أخذت تتجاهل أني موجود في الشارع. أعرف أن مرد ذلك هو شعورها بالإهانة لأني رفضت ما بذلته بعد أن سعيت له بشق الأنفس. لكني أدرك الآن أنها تعتبرني ناقص الرجولة أو فاشلاً وهذا كان تفسيري الحالي لامتعاضها السابق، المهم طرق الباب وجاءت دعوة لأم تميم كي تحضر عرس ضياء. ووجدت أمي في ذلك مناسبة كي تدور دورة طويلة في الحديث مبتدئة بضياء التي صارت وتصورت، مروراً بالثانوية التي سأنهيها بعد شهور، ثم مديحي باعتباري - ما شاء الله - ملء ثيابي. ثم التعريج على أن الزواج للشاب يعصمه عن الحرام، ووصولاً إلى الخطاب الذين يطرقون باب عمي سعيد طالبين مسرة وأنا أعرف ذلك. أعرف كم هي الآن جميلة ومرغوبة. شاهدها وليد يوماً وهي تناولني الشاي وكان في غرفتي لندرس سوية. لم يتمالك نفسه إذ صفر صفرة طويلة بدهشة بالغة وقال: من هذه يا تميم؟ أدركت أنها وقعت في نفسه، أجبته بجفاف: إنها ابنة عمي. لم يتمالك نفسه من جديد إذ قال لي: إياك أن تدعها تفلت من يدك. لو عندي ابنة عم في نصف جمالها لما جعلت يوماً يمضي قبل أن أقرأ فاتحتها، بل أكتب كتابها. غدا واضحاً أن مسرة تبز جميع شقيقاتها الأكبر. بل تتفرد عنهن بقوام بديع ليس

فيه عيوب. وأم تميم تخشى أن يسبقنا إليها أحد. لكن في قرارة نفسي شيئاً آخر. أنا لم أستطع بصراحة أن أتخيل مسرة تشاركني فراشي عارية بين ذراعي في تواصل محموم كالذي أريد، سليمة، آسيا وحتى معزز الكبيرة كان ممكناً أن أتخيلهن وأن أجعلهن يجارينني لكني لم أستطع أن أتخيلها هي بالذات. لماذا؟ لا أعرف، ربما لأنها الصغيرة الفصعونة (الشخاخة)، لقد تخيلت أن تتزوج مسرة، تخيلتها تتزوج صديقي وليداً. تخيلتها في شقته وهو يفعل بها ما رأيته يفعله بالوافدات إلى الشقة ولم يغلبني الغيظ أو الغيرة. مسرة بالنسبة لي ليست كياناً أنثوياً أرغب فيه من قريب أو بعيد. وكما أتهرب دائماً من محاورة أمي أتهرب مجدداً يوم ضياء النمشاء. لكن شيئاً بدأ يثقل بالي، بدأ هذا في الصيف حين كنا جميعاً في الفيلا نصطاف وهذا خمّنته لاحقاً، ذات ليلة قبل يومين من عودتنا إلى دمشق كان ثمة قرس في الليل، برودة ونحن نلعب الكونكان أنا وأمي وسليمة وزوجها مصطفى. أحسست أن ساق سليمة تلاصق ساقي، كانت في ثوب منزلي قصير، ابتعدت قليلاً، تابعتني، بعد قليل طلبت مني التقاط ورقة أوقعتها وحين نزلت برأسي تحت الطاولة رأيت ساقيها الناعمتين بعريهما الصارخ وحتى اللباس الداخلي الأصفر لأنها باعدت بين ساقيها.

- هل رأيت؟

- ماذا؟

- الورقة وأنت تحضرها.

- رأيت.

- أزعر.

لم نكمل اللعبة، نعس مصطفى وسليمة أرسلته للنوم، وحين قامت أمي الى الحمام تعمدت الخروج من الصالة:

- رأيت إذن؟

- الورقة، طبعاً رأيتها.

- وغير الورقة؟
- لم يكن هناك إلا ورقة واحدة.
- لماذا كنت تتعمد أن تلاصق فخذي يا أزعر؟
- وماذا فيها؟ أنت أختي الكبيرة.

عادت أمي، كنت قد قطعت أي إمكانية لحديث من هذا النوع مع سليمة بجملتي الأخيرة. لكنه جعلني أتخوف مما قد يعنيه ذلك. في ليلة رأس السنة دعا عمي سعيد الأسرة كلها وفوجئنا بحضور سليمة دون مصطفى. وحين سألها عمي قالت إنه سوف يلحق بها. لكن وجهها كان يقول شيئاً غير ذلك. رضية زوجة عمي غمزت لأمي مشيرة برأسها لسليمة، وأمي التي تحب سليمة كما تحبها هذه بدورها سحبتها إلى غرفة خالية وغابتا قرابة الربع ساعة، خرجت بعدها الاثنتان وآثار الدموع في عيونهما. وكان واضحاً أن سليمة قد بكت كثيراً، تجاهلنا جميعاً، ورغم محاولات آسيا ومسرة في إضفاء بعض المرح على الجلسة لكن عدم قدوم مصطفى ترك أثره على الجميع، تناولنا الطعام بصمت ثم قالت أمي إنها ستأخذ سليمة لتنام معها الليلة. وحين حاولت رضية الاعتراض كانت إشارة يد عمي سعيد كافية لتصمت. خرجنا وأمي تطوق كتف سليمة. تذكرت كيف عرضت علي ساقيها وقدّرت أن الأمور بينها وبين مصطفى بالغة السوء لدرجة أنها تعمدت إغوائي.

جاء مصطفى في اليوم التالي، كان يرسم على وجهه نظرة جادة، اختلى بعمي سعيد بينما ألحفت أنا على أمي بالسؤال حتى قالت إن سليمة تشكو من قلة لهفة زوجها تجاهها وقلة محبته ورعايته، كل همه أن يأكل وينام. أي باختصار وهذا كان تحليلي: إن علاقات الفراش بينهما غير ناجحة وربما معدومة وإلا لماذا عرضت علي ما عرضته في فيلا الجرجانية؟ ذهبت مع طفليها وزوجها دامعة العينين ومصطفى يمشي بجانبها محدجاً ما حوله بنظرات ساخطة، وأسفت كثيراً لسليمة. كانت سليمة دائماً مبعث المرح بين الآخرين، تمزح وتضحك بطلاقة

وتتحمل الدعابات الثقيلة وتسخر من نفسها وزوجها. ولها وجه يشع جمالاً ومرحاً. وهذا البغل مصطفى قد سلبها كل الفرحة بحيث تكاد تذوي.

أمي فهمت بعد أن استجوبت رضية أن مصطفى يشكو الكثير من سليمة. فهي لا تحترم أمه كثيراً كما أنها لا تحترمه هو، ولا تعرف قدره لأنها مدللة، يعود متعباً من عمله فلا تخدمه كما كانت تفعل أمه تجاه أبيه، وهي متعلقة بهذا التلفزيون وبالمطربين والممثلين وتحب الرقص والسهر والمزاح وقلة الحياء، وعمي سعيد طلب من مصطفى أن (يتحملها)، لكنه على صواب فواجبها أن تحترم أمه وتحترمه أكثر من إضاعة الوقت بهذا التلفزيون. وأنا نكاية بمصطفى حين سمعت القصة اشتريت تلفزيوناً، وشجع هذا رضوان ليسجل على واحد في الجيش وقد اجتذب هذا الصندوق السحري زوجة عمي رضية ومعها مسرة لتجلسا مع أمي ويضحكن من ماري منيب وعادل خيري ودريد لحام وإسماعيل يس، وقدّرت حينها أن مصطفى كان يغار من شكري سرحان وعادل خياطة وخلدون المالح وأحمد رمزي وحتى محمد فوزي وكارم محمود.

سألت العم راتب مأمون عن حقيقة الموقف الذي حدث بين الاتحاد السوفييتي وكوبا وأمريكا. كان سحب الصواريخ السوفييتية قد لاقى استحساناً من اليمين الذي سخر من الشيوعيين السوريين. قال لي: إن الهدف كان حماية كوبا وليس الهجوم على أمريكا من قواعد سوفييتية في كوبا لأن لدى الاتحاد السوفييتي من الصواريخ الجبارة ما يغنيه عن صواريخ كوبا. كان المطلوب ألا يتكرر الهجوم على كوبا كما حدث في خليج الخنازير وفشل السي آي إي في إسقاط كاسترو والثورة الكوبية. لذلك إن كان كيندي قد تعهد بضمان سلامة كوبا فما الذي خسره السوفييت؟ عشرات ملايين الروبلات كلفة نقل الصواريخ من وإلى كوبا وربحوا سلامتها فما الضرر؟ قلت: وماذا عن السمعة والهيبة؟ قال لي: هل يغامر السوفييت وهم الذين اكتووا بنار الحرب

العالميـة الثانيـة بخـوض حـرب ثالثـة. حرب نووية تفني البشـرية كي لا يسخر أحد من انسحابهم؟ لا يا تميم هم لن يفعلوا ذلك الآن ولا في المستقبل. والصواريخ والقنابل النووية هي للردع وليس لتدمير الكوكب. أقنعني ذلك، فبعد كل حساب السوفييت هم الذين هددوا لندن وباريس يـوم عـدوان السـويس، وإنـذار بولغانيـن الشـهير هو الـذي عجل بهزيمة مشروعهم وانتصار عبد الناصر. إنما.. ما سر هجوم خروتشوف المستمر على ستالين وفترة ستالين؟ بالنسبة لي مرت ثورة اليمن مروراً عابراً في حياتي ولم أدرك كم سوف ينتج عن هذه الثورة التي أطاحت بعهود الأئمة وجاءت بالمشير السلال الذي تجندت السعودية ضده وضد ثورته. كانت البكالوريا شـغلي الشـاغل. نسـيت أن أقول كم اعتبر أهل وليد مرافقتي له مفيدة لشخصه ولدراسته. لو يعلمون كم كانت مفيدة لي أيضاً! على هامش الدراسة زرت شقة وليد عدة مرات زيارات قصيرة، وفي كل مرة كانت نانا موجودة لي كما تكون شوشـو موجودة لوليد. تذكرت سـمر التـي كانـت تخصـص ليلـة لأبـي ووضعت في فكري نيّة غير مكتملة في أن أعيد الزيارة.

فاجأ العالم كله سقوط نظام عبد الكريم قاسم في بغداد على أيدي البعثييـن والناصريـن، أفـرح ذلـك القاهـرة وأخاف دمشـق. قال لي وليد إن أحد أعمامه البعثيين يتوقع أن يسـقط (النظام الانفصالي) قريباً. ولم يبالغ إذ بعد شـهر كامل كانت المارشـات العسـكرية تسـمع مجدداً من راديو دمشق.

«15»

من ذكريات كمال

يا إله السموات، إنها هي، هادية أمامي، ما الذي ارتسم على وجهي حتى غزا هذا الاحمرار الزاهي وجنتيها؟ أنا لم أرد التحية بعد. لعلها تسمع دقات قلبي.

- صباح النور، أهلاً، أهلاً مدام، أؤمري.

- أريد حبوباً لحرقة المعدة.

- لحماتك؟

- هذه المرة لي.

- سلامتك. ممم. ما الذي يسبب لك هذه الحرقة، تفضلي.. تفضلي رجاءً. اجلسي.

نظرت حولها باضطراب، ما الذي أقوله أنا؟ كيف ستجلس؟ ومتى كانت السيدات اللواتي يردن دواء يجلسن عند الصيادلة؟

- عذراً، أأأ. أنا كنت أريد أن أفهم منك. أنت تعرفين ذلك.

كانت ترمقني الآن بحرية رغم عبور شبح ابتسامة لا يكاد يلمح على ورد الشفاه، صحيح أني كنت أقول كلاماً غير مفهوم المعاني، لكن ما أنا فيه من اضطراب كان مفهوماً لها.

- اسألني لأجيبك.

يا إلهي، كم في هذا من وعود؟! لا تتسرع يا كمال. لم تعد مراهقاً.

- هل يحدث هذا منذ زمن أم هو عدوى من حماتك؟

- أنت قل لي.

كانت تسخر، هي تمالكت نفسها بحيث تستطيع أن تسخر من هذا المغرم التعس، وهو صيّاد دبلن لحمراوات الشعر يغرق في شبر

ماء أمام عيني هادية الباسمتين لحسن الحظ رغم ملامح الجدية البالغة، وأقرر أن أغامر:

- قولي لي: كيف أستطيع أن أسألك بترّوٍ لأفهم؟ من واجبي أن أفعل ذلك.

- أعطني ما يعالج الحرقة لو سمحت.

- حاضر.

استدرت لأحضر لها الحبوب المطلوبة وحين وضعتها بين يديها لاحظت أن ثمة بطاقة شخصية موضوعة على الزجاج. قرأت هي ثمن الحبوب وأخرجت نقوداً تعمدت أن أتسلمها بيدي لألمس أناملها وتعمدت هي سحب يدها بسرعة مع أنها سمحت لي أن أغرق في عينيها ولا أدري كيف رفعت النقود إلى شفتي لأقبلها فترتسم ابتسامة مكبوتة على شفتيها ثم تخرج.

كانت البطاقة مشبعة برائحة يدها وحقيبتها وإن كان الاسم لزوجها وثمة رقم لهاتف العمل وآخر لهاتف البيت. علي إذن أن أسأل ما بدا لي عبر أسلاك الهاتف، يا إلهي، كيف اجتمع لها هذا الحسن والذكاء؟! والآن متى سوف أتصل؟ ليس الآن طبعاً. هناك من يعتني بالأولاد في غيابها. الوقت الأفضل عند الثالثة، وقت قيلولة الحماة إن كانت تشاركها السكن. وخير مكان هو قصر الباشا في القبو:

- ألو.

تمر فترة صمت أستمع فيها إلى تنفس أحدهم وأسمع همساً:

- اتصل عند الرابعة.

ولن يصدق أحد كيف قضيت الساعة. أفكار ترفعني إلى ذروة البهجة وأخرى تهوي بي إلى سواد الخيبة:

- ألو.

- ألو.

- مرحباً.

- أهلاً.
- مدام هادية؟
- أنت تعرف اسمي، ألا يجب أن أعرف اسمك؟
- كمال، كمال راضي.
- نعم يا أستاذ كمال؟
- عندي حديث طويل، هل عندك وقت؟
- عن حرقة المعدة؟
- عن حرقة القلب.

وأسمع ضحكة خفيفة.

- مرة ثانية لو سمحت.
- ماذا؟
- تلك الضحكة. هل تصدقين؟ أنا في قبو تحت الأرض ومع ذلك وعبر السماعة رأيت حولي الغيوم والطيور والسماء الصافية.

هذه المرة تضحك بطرب.

- هل عندك أولاد؟
- ما أدراك أني متزوج؟
- رأيت عرضاً صورة لأطفال، ربما اثنين.

أجل كنت أضع صورة تجمع عطا وكنانة أمام عيني.

- رأيت صورة لاثنين، الثالثة لم تكمل السنة بعد.
- الله يحفظهم لك، ويحفظك لهم.
- عندك طفلان؟
- حبيبتا قلبي، اثنتان كالملائكة.
- وهل تكون ابنتاك إلا كذلك وأنت أمهما؟
- هل تعني أني ملاك. هل يستقبل الملائكة عادةً اتصالاتك الهاتفية؟

يا إلهي، إنها تمازحني. رغم كل شيء إنها خفيفة الظل.

- لا أظنك كنت بحاجة لاتصال كي تعرفي.

- أعرف ماذا؟ ثم ألن تذهب للصيدلية؟

- لن أترك الهاتف حتى تطلبي ذلك. قولي لي: هل كان واضحاً علي؟

- ماذا؟

- أني منذ رأيتك فقدت اتزاني.

- هل بحثت عنه؟ ألم تجده بعد؟

يأتي دوري لأضحك وأحس أني فقدت توتري.

- أستاذ كمال. ماذا تريد مني؟ لماذا منذ البداية تعمدت أن تحجب عني الدواء الثالث لأعود.

- وأنا ظننت أنك تناسيت دفع الثمن لتعودي.

تضحك بسرور ظاهر:

- كنت سأفعل، أحببت أن تتعرف إلى سلفي.

- حصل لي الشرف يا خانم.

وتقرقر بضحكة هانئة:

- الآن، ماذا تريد مني؟ أسألك للمرة الثانية وأريد إجابة.

ماذا علي أن أقول؟ كيف يقول الإنسان لواحدة أم لبنتين وترملت حديثاً ومن بيئة شبه محافظة كيف يقول لها: أنا أريدك.

- تريدين الصدق؟

- بالطبع، ولا شيء سواه.

- أنا أريد أن أراك كلما استطعت أنت واستطعت أنا. أن أغرق في عينيك دون حذر أو تخوف، أن تبيحي لي النظر إلى وجهك، أن أشعّث شعرك أن ألمس يدك أن.... أنا أريدك بكل بساطة. هل تسمعين؟ أنا لا أظن رجلاً عاقلاً يراك ويطلب أقل من ذلك.

أسمع تنفسها العالي والسريع يأتي عبر مسرة الهاتف. ولا أتلقى جواباً، وأنتظر، لا أدري إن كنت قد تسرعت أم...

- هل تتصل من مكان يخصك وحدك؟

- نعم.

- أعطني رقم هاتفه.

- سجلي......

- متى تكون هنا.... هذا ليس بيتك طبعاً.

- لا طبعاً، أكون هنا؟ متى تريدين؟ هل يناسبك، لنقل السابعة.

- صباحاً؟

- مساءً.

- ممم.

- ما رأيك أن أتصل أنا.

- لا، لا تفعلها ثانيةً رجاءً، من فضلك لا تعاود الاتصال. سأقرر إن كنت سأتصل بك أنا أم لا، أعرف أنك جنتلمان ولن تفعل، هل أثق بك؟

- سأنتظر، سأرابط هنا كل يوم وأنتظر، ولن أتصل ثانيةً إلا بإذنك.

- هذا عشمي بك.

- هادية.

- نعم.

- تسلم لي عيناك.

أسمع زفرتها على الهاتف قبل تكة الإغلاق، وتتركني على جمر الانتظار. إلام؟ لست أعرف. وأحاسب نفسي مطولاً، أستعيد كل ما قلناه. وأقسو حيناً في حكمي على نفسي معتبراً أني فقدتها. وأجامل نفسي حيناً وأرى أن استجاباتها كانت غير سلبية وأذهب لأرى أندرو. كان عندي ما أقوله له هذه المرة عن هادية، لكني فوجئت حين أغلق الباب خلفنا بعد أن رحب بي وحدثني عن عشق برّح به لحسناء اسمها سوسن. كان ما جرى له في تلك السهرة يماثل لقائي بهادية. وكان عند كلينا الآن اسم يناجيه، هو ينتظر أن يراها في المكتبة وأنا أنتظر أن تتصل هادية بي. قال لي: تعال الليلة لنشرب نخب العيون الدمشقية فوافقت

لكني أصررت على أن تكون السهرة في القبو عندي.لا أريد أن أجشمه عناء تحضير لوازم المائدة. أبلغ سامية بما أريداً أنا أعرف أنها تستحضر في الثلاجة أعلى البراد على أقراص كبة مشوية، المهم أن يكون كل شيء جاهزاً قبل السابعة.

- ولكن كمال، أنا لن أتركك هنا حتى الثامنة. فهمت، فهمت أنت تتمنى أن يرن الهاتف، حسناً اسبقني أنت، حضر لي كتاباً على ذوقك وأنا سوف أحضر لك كتاباً.

- لم أنته بعد مما بين يدي. لا تحضر شيئاً اليوم، هل تعرف الطريق؟

- طبعاً، طبعاً. أنا الآن خبير في شوارع دمشق، إنما اسمع ما سأقوله. قررت ألا أقبل نصيحتك، سوف أنتسب لجامعة دمشق.

- Good for you.

لم أكن آمل طبعاً أن تتصل هادية، وكنت لا أزال أبعد عن ذهني موضوع الموقف الذي علي اتخاذه وأين سيصل بي؟ أعني سامية. إن أحست أن ثمة أخرى في حياتي ربما، ربما لن تحتمل. سينعكس ذلك على الأسرة كلها. وعلى الأولاد وعليّ. لذلك أنا أهرب أمام نفسي من التفكير بما سيأتي. نسهر أنا وأندرو وكل منا يغني على ليلاه. صدق المثل فينا. نضحك كثيراً ونشرب كثيراً. وأحسده. إنه خالي البال من الهموم أما أنا فإن عاودت هادية التواصل معي فالهمّ كبير، وإن لم تعاود فالهمّ أكبر.

كل من أنور وجميل في انهماك بشؤونهما الخاصة وفي شؤون السياسة التي لا يبدو أنها سوف توصلنا إلى استقرار قريب. يحدثني راتب مأمون عن سعي الإخوان المسلمين للتصادم مع الشيوعيين وللتضييق عليهم، وعن اتهامهم لحكومة الدكتور العظمة بمهادنة الشيوعيين بغية إسقاطها. جميل مسعود غدا ضيق الصدر بأحاديث السياسة وخاصةً عن حزبه (البعث) يقول: إن تشرذم الحزب يجب أن ينتهي. تصور هناك

بعثيون مع القيادة القومية. وهناك تنظيم آخر اسمه (القطريون) إضافةً لمن لم يعودوا من الحزب وهم مع أكرم الحوراني الذي غدا همه الأكبر محو الناصرية والناصريين، وبعض قيادات البعث السابقة قد غدت ناصرية سواء في الوحدويين الاشتراكيين أم في الاتحاد الاشتراكي. قلت له مجاملاً: حتى السوريون القوميون انقسموا مع أنهم كانوا الأكثر تماسكاً على صعيد التنظيم وكل منهم يقول: أنا الأقرب لنهج سعادة. قال بأسى: لم يعد متماسكاً إلا أقصى اليمين وأقصى اليسار، الإخوان المسلمون والشيوعيون.

حين جاء عزيز نصري في إجازة من دراسته في القاهرة فاجأ الجميع في أنه أصبح قريباً جداً من أفكار الحوراني، قال: إن الناصرية ليست فكراً، إنها ممارسة بائسة لن توصل المجتمع إلى أي شيء. والمباحث في مصر ليست أقل من مباحث سورية. قتلوا شهدي عطية الشافعي بدم بارد، وقتلوا سواه، يلاحقون الشيوعيين بلا هوادة، والإخوان، والنقابات وكل من يفكر بالاعتراض. انشغلت بقدوم عزيز واجتماعات الشلة القديمة. ولم يوفرني جميل مسعود إذ سخر أمام عزيز نصري قائلاً: بعد سفرك احزر من حل مكانك. صديقنا هذا اليساري البارز صار من أقرب الناس لمن برأيك؟ لجاسوس أمريكي متقنع اسمه أندرو براون.

أندرو مشغول عني وأنا تمضي الأيام دون اتصال من هادية. أتشاغل بكل شيء. لكن اليأس يدب رويداً رويداً إلى نفسي، انقضت أيام ثم أسابيع ولم تتصل. جاءت حماتها مرة للصيدلية، وجاء شقيق زوجها وهي لم تأت. لقد عاهدتها ألا أتصل ولن أفعل، أعزي نفسي بأن هذا أهون الشرور، هكذا لن أتورط في علاقة ربما تنغص حياتي، وأتابع الآن الواقع السياسي وأكاد أتوفر له، بل يخطر ببالي أن أصحب سامية والأولاد في إجازة لشهر كامل وأختار إسبانيا وأنشغل بخارطتها السياحية ويسر ذلك سامية. وأنا في قرارة النفس أعرف أن كل ما أفعله ما هو إلا تجاهل وهروب.

رغم خيبة أملي من انقسام الحزب الشيوعي العراقي فإن انقلاب 8 شباط الدموي في بغداد يباغتني. الاعدامات والملاحقات وسيل الدماء هناك على أيدي المنقلبين من بعثيين وناصريين تضج بها الدنيا. ملاحقة لأنصار السلم ولاتحاد الشباب الديمقراطي والطلبة. أذكر بأسى أن شيئاً كهذا قد ذاقه البعثيون والناصريون في فترة ما. وسلطة الانقلاب في بغداد تفرحها أساليب الحرس القومي المتطرفة. عزيز نصري لا يسره ما يسمع بينما جميل مسعود يدافع عن شرعة العين بالعين. وأنا حزين وبائس لأسبابي الخاصة وسامية لا تستطيع عزائي. وتظن أن السياسة سبب كدري الدائم. حتى أندرو ينشغل عني. إنه يكتم أسراره، لا أفلح في استدراجه للتعبير عن نفسه، لم يعد يتحدث أمامي عن سوسنه لذلك كففت عن ذكر آلامي مع هادية مع أنه من الأفضل لنا أن نفضفض لبعضنا بعضاً، وفي قرارة نفسي أشعر بالملل. لقد تحليت بالصبر حتى لم يبق عندي فسحة للصبر، وأريد أن أفعل شيئاً ما. أنور حداد الذي لا أدري كيف تصل إليه الأسرار يهمس لي بتخوف: ربما يلحق الانفصاليون بعبد الكريم قاسم. كيف ومن يا أنور؟ يقول: الناصريون من بعثيين وسواهم، وأقلق من جديد، هل ستكون هناك عودة للملاحقات والمطاردات؟ كأنه ما عاد ينقصني إلا هذا، إنما بانتظار ذلك اليوم القادم أجدها أمامي واقفة عند الصباح. وأرتبك بوجود مطاع وتفهم هي ذلك. قلبي يقفز من مكانه وأنا أناولها فيتامينات للصغار وأطلب من مطاع أن يحضر من الداخل دواء سعال لم تطلبه. وحين يذهب للمستودع تهمس لي: خذ تاكسي واصحبني من الشهبندر. خرجت قبل أن يعود مطاع الذي سمعني أتذمر من هؤلاء الزبائن، وأغادر الصيدلية شاتماً بعصبية وأقول له: قد لا أعود. وسرعان ما أوقف تاكسي أجعلها تدور في السبع بحرات ثم تصعد باتجاه ساحة القيادة. لقد اخترت سائقاً كهلاً تبدو عليه ملامح الدروشة. وأخبرته بأني سأجد زوجتي في طريق الشهبندر على الرصيف الأيمن أو الأيسر لذلك عليه أن يسير ببطء، ويقول: أمرك. وحين ألمحها تسير

أجعل السائق يتوقف بعدها بأمتار وأفتح لها الباب لتصعد في الخلف بينما أجلس أنا قرب السائق.

- هل وجدت طلبك؟

- ليس بعد، وعدوني.

يا إلهي، إنها فائقة الذكاء، أطلب من السائق أن يتجه بنا إلى آخر خط المهاجرين، المقهى هناك للعشاق الشبان ولن نجد من يعرفني أو يعرفها.

نصعد إلى المقهى وأختار طاولة متطرفة وأجعل ظهرها للصالة ووجهها لي وحدي، وبمجرد أن أجلس وأنظر إليها أرى الدموع تسيل على خديها وينخلع قلبي، أمسك بيديها الاثنتين كانتا باردتين:

- هادية، ماذا جرى؟ لماذا تبكين؟ هادية كرمى لله توقفي عن البكاء وإلا ارتكبت حماقة وضممتك إلى صدري أمام جراسين المقهى.

ضحكة سريعة تفلت منها ثم تمسح عينيها:

- هذا ما ينقصني، هذا حقاً ينقصني. الفضيحة العلنية ليكتمل مصابي.

- مصابك؟ خيراً، أعرف أن المرحوم توفي قبل رؤيتي لك بشهور.

- ذاك كان المرحوم. فماذا عن الثاني؟

- الثاني؟

- هاك... انظر.

مدت يدها، كان فيها خاتم ماسي ذو حجرة كبيرة متلألئة إضافةً لخاتم زواج (محبس). وأنا لم أفهم ما الذي أرادته حقاً؟

- ماذا يعني؟

- ألم تفهم بعد؟ هذا خاتم زواجي الثاني، زواجي منذ شهر.

توقعت أن أسمع كل شيء إلا هذا، الحماة الحزينة والأخ المفجوع ثم حزنها غير الدفين جداً، إنما كل ذلك لا يبرر الزواج مع وجود طفلتين.

- ما الذي جعلك تفعلين ما فعلت؟ من أجبرك؟

- كلهم. أبي، أمي، إخوتي، حماتي.
- حماتك؟
- ألم تفهم بعد؟ زوجي الجديد أنت تعرفه، سلفي السابق.
- كيف كيف؟ الذي.....
- نعم الذي أخذ الدواء الثالث، حتى أمي، تصور، حتى أمي قالت إن العم أولى بتربية ابنتي أخيه.
- ووو..... وأهله. أعني، وهو ألم يكن متزوجاً؟
- المرحوم زوجي قال متهكماً ذات مرة: إن زوجة يوسف - وهذا اسم زوجي الحالي - قد فضلت ملاقاة وجه ربها على أن تستصبح بوجه يوسف كل يوم. أرمل.
- هذا لا يحدث الآن يا هادية، كان بإمكانك أن ترفضي.
- فعلاً؟ يأخذون مني البنتين، أي يأخذون روحي، ويتحكم بي إخوتي ونساؤهم وكل العائلة، الأرملة التي في عمري.....
- وجمالك؟
- وجمالي كما تقول تصبح جاهزة إما لتقبر نفسها في البيت وإما لانتشار الأقاويل والشائعات الصحيحة أو الملفقة. أما الزوجة في مثل حالي الآن فأستطيع أن أخرج على هواي، أليس لي زوج بحمد الله يحصّنني ويكفيني؟!
- ما كان عليك أن تستسلمي.
- ماذا كنت سأفعل؟
سألت بعصبية وغضب.
- لو سألتك يومها بم كنت ستنصحني؟
- بمهادنتهم. بالتريث. بالاحتجاج على السرعة.
- الخطة كانت جاهزة يا كمال، لقد استمر صراع زوجي مع الإصابة سنة كاملة وكانت النهاية متوقعة ومحتومة، أثناء هذه السنة كان كل شيء قد رسم. هل تعلم أن زوجي كان يكبرني بخمس عشرة سنة؟

أمي بالذات هي التي أعطتني له. ليس لأنه غني ومن عائلة فحسب وإنما لأنها كانت تخاف علي. تخاف من جمالي الذي هو نقمة دائمة.

- ونعمة لمن يراه ويعيش قربه.

تبتسم وسط غليانها.

- من أين جئتني أنت؟ قل لي من أين جئتني؟

إنها تشد علي يدي، وأنا لم تعد الدنيا تتسع لي، أنظر حولي وأرى الآخرين وأتمنى لو يختفون بلمح البصر، ثم أحدق إليها وأعرف فوراً أنها كانت تفكر بما أفكر فيه. تنتشر حمرة الخجل في وجهها الذي جعلته الأيام المنصرمة يفقد تورده وتألقه ويغدو شاحباً ذلك الشحوب الذي يبرز حسن الخد والتماع العين وتورد الشفاه. وتزفر في اللحظة التي أتنهد بها. ننظر لبعضنا ونضحك سوية.

- هل انتظرت اتصالي؟

- ولازلت.

- مازال السؤال نفسه: ماذا تريد مني؟

- أنا لا أريد منك. أنا أريدك كلك.

وتضحك بانشراح، هادية إذا ضحكت ينتقل الضحك من شفتيها وفمها إلى خديها وعينيها وحتى شقرة شعرها ثم إلى كل ما حولها، هذا ما أعرفه الآن وأنا أرنو إليها. لابد أن عاطفتي كانت مسطورة على وجهي، إذ ابتسمت لي بمحبة وقالت: كن رفيقاً بي يا كمال. يكفيني ما يجري لي. اسمع، لا تأمل كثيراً، لا تعتبر أن جلستنا هذه مقدمة لجلسات أخرى يزينها لك خيالك. أنا لست كما تظن وأرجو ألا أكون.

- لكني لا أظن بك إلا خيراً.

- لا تخدع نفسك بمحاولة مخادعتي، رجل متزوج وعنده أولاد، ومقتدر وناجح ماذا يريد من أرملة شابة؟ أنا لا أريد أن تصاب بخيبة أمل وأن تحزن، يكفيني حزني، تذكر أني أستصبح كل يوم بيوسف الذي فضلت - كما أصبحت أصدق - زوجته الموت على معاشرته.

- هادية. هل تعلمين ماذا فعلت بي؟

- لا تقل شيئاً كرمى لله. لا تشعرني بالذنب، أنا سعيت وراء هذا اللقاء لأحسم الأمور مع نفسي ومعك، لم أشأ تركها معلقة، هل سوف تساعدني؟

- في كل ما تريدين إلا ابتعادي عنك.

- هذا أول ما سوف يكون، لن أدعك تراني بعد الآن، لذلك لا تنتظر اتصالاً، مزقت رقمك ولم أحفظه، غيرت رقم الهاتف، إنه هاتف يوسف الآن، أنا أريدك أن تذكرني بمودة لا أن تكرهني. أنا نفسي سأظل أعتبرك خميلة لجأت إليها في يوم قائظ. لا تكرهني، ولا أحب أن تنساني سريعاً. تذكر أنه لو كانت الظروف غير الظروف لربما كان بيننا شيء آخر، شيء جميل حتماً.

وقفت الآن، نظرت إليها، عاد الدمع إلى عينيها فيما كانت مشاعر الهناء تتسرب مني لتحل محلها مشاعر القنوط بسرعة مذهلة.

- أرجوك، أرجوك ساعدني، ابتعد عني، إنما لا تنسني بسرعة.

- قبل أن تذهبي من فضلك أجيبي أنت عن سؤال واحد.

- اسأل.

- ماذا كنت تريدين مني؟

- الذي لازلت أريده ولا نستطيعه كلانا.

- الذي هو؟

- الحب، رجاءً لا تلحق بي.

غادرت وأنا أعرف أن الغصة التي قالت بها كلماتها الأخيرة مماثلة للغصة التي حلت في حلقي وصدري، كأن قاسيون كله كان يطبق عليّ. كان حكماً لا يقبل الطعن بالخواء والفقد. كان قهراً وعجزاً وبرداً ينخر العظام، وكان عليّ أن أتقبل الحكم، كان بها مثل ما بي. وكلانا مرغم الآن، هي لأن كل من حولها يلزمها. وأنا لأنها هي التي ألزمتني، ومرة ثانية شعرت أن المستفيد الوحيد مما جرى هو سامية والأولاد. لابد

أن الأسرة لها امتيازات عند الله وإلا كيف تم إجبار هادية ومن ثمة إجباري؟!

أنا أصدق أن لدى زوجاتنا أجهزة حساسة، مثل الترمومتر بحيث ترسل إشارات عندما يحدث طارئ ما. والدليل هو سلوك سامية في اليوم نفسه الذي ودعت فيه أي اتصال ممكن بهادية، فاجأتني بأن كل شيء جاهز لنقضي في إسبانيا ثم في المغرب شهراً كاملاً قابلاً للتمديد إن رغبنا. وكل ما عليّ هو أن أقول نعم وأنسى الموضوع ليومين لا أكثر نركب بعدهما الطائرة إلى الأطلال الأندلسية. كانت كنانة تجلس في حضني وعطا يجلس قرب أمه وهو يشير برأسه موافقاً. ولم يكن أمامي مناص من الموافقة. وقد تلقيت عناقاً وقبلات من ولدي وأمه وشاركت كنانة التي لا تعرف ما يجري حقاً في هذا الاحتفال العائلي، أما نورا فكانت تحت سلطان النوم، لكن تلك الرحلة الموعودة لم تحدث، لقد سبقنا ضباط الجبهة إلى احتلال الإذاعة والهاتف والأركان ودفنوا الانفصال كما ادّعوا ودفنوا الرحلة الإسبانية في طريقهم ووقع المحذور. صباح اليوم الثامن من آذار وبعد شهر كامل من انقلاب بغداد انقلبت دمشق بدورها وتعالى الصراخ القومجي من الإذاعات الثلاث في دمشق وبغداد والقاهرة، اشتفى عبد الناصر من الانفصال والانفصاليين في سورية بعد أن حدثت (ثورة) اليمن وانقلاب بغداد. واستنفر بعث العراق جيشه كي يردع أي فكرة لأية مقاومة يمكن أن تحدث لحركة البعث في سورية، أما عبد الناصر فقد حمد الله في برقيته لأنه نصر شعب سورية وجيشها على كل باطل. وتوالت برقيات السلال وبن بيلا وجاء علي صالح السعدي إلى دمشق بعد أن أجهزوا في بغداد على الشيوعيين وأنصار السلام.

شغلتني الأحداث وسماع الإذاعات وسفر الوفود السورية والعراقية إلى القاهرة وكل تلك التهديدات لقوى الرجعية والشعوبية، وسبق ذلك أو تلاه اختراع مرسوم العزل المدني الذي يحرم المعزول من كل حقوقه

سواء منها الترشيح أم الانتخاب أم النشر والتوظيف والتقاعد والتدريس وحتى أخذ التعهدات. كان من المتوقع أن يشمل ذلك مجموعة النافذين بعد انفضاض الوحدة والأعداء السياسيين لكن الفئة المجتمعة الأكبر من الذين عزلوا وكانوا من المتحزبين كانت فئة الشيوعيين بدءاً من خالد بكداش إلى معظم القيادات، ورغم تأكدي أن بكداش كان في دمشق ومنذ حكومة بشير العظمة فإن القبض عليه إذا ما كشف مكانه سوف يسدي إلى الرأسمالية الأمريكية ومشروعها في المنطقة معروفاً كبيراً، بلغ غدد المعزولين في قوائم متتالية المائتين ورغم اعتراضي على فكر الكثيرين منهم وعلى ممارساتهم لكن التاريخ يعيد نفسه الآن. المستعمرون ثم حسني الزعيم وأديب الشيشكلي وعبد الناصر وهاهم انقلابيو آذار، جميعهم ولغايات متقاربة حلّوا الأحزاب وطاردوها واعتقلوا القيادات السياسية المخالفة، والأنكى من ذلك أن ما سمي بمحاكم الأمن القومي بدأت بمحاكمة الضباط السياسيين بتهم اغتصاب السلطة وإساءة استعمالها وتهم أخرى مثل مس الشعور القومي والافتراء وغير ذلك. وحتى السياسي الكهل رئيس الجمهورية السابق الدكتور ناظم القدسي جرى اعتقاله مع علم المتسلطين أنه لم يكن فاسداً أو مرتكباً أو حتى رئيساً فعلياً.

التقيت بأندرو في المكتبة، رأيته هادئاً وغير قلق، قلت له: ألن يقلق أمريكا أن يتحد العراق وسورية تحت حكم حزب يعاديكم جهاراً، وأن يلتقيا مع مصر بعدها؟ قال: أنا سألت هذا السؤال وكان الجواب ببساطة: هذا لن يحدث. ومع ذلك كان أندرو حزيناً جداً.

«16»

سو ماكينزي الدمشقية

بروس تالبوت واحد من أذكى الناس الذين قابلتهم، كل مرة أكتشف ذلك في قول منه أو فعل، بروس قدّر بمفرده أن سوداء العينين التي كانت في الحفلة قد شدتني إليها. كيف رأى ذلك؟ ما الذي لاحظه ومتى؟ الحق إني لا أعرف، لكنه عصر أول أيام السنة الجديدة طرق بابي زائراً وهو يحمل لي عدة زجاجات من المشروبات الأجنبية التي يفضلها. فودكا، تكيلا، كونياك فرنسي وغير ذلك. وبمجرد جلوسنا قال لي: تلك الحسناء لن تدخل هذه الشقة بسهولة يا أندرو. ذاك ليس من طبيعتها كما أعتقد، تجاهلت وسألته عن أي حسناء يتحدث فقال ضاحكاً: سوسن. ذهلت فعلاً لكنه سارع للقول: سمعت هناء تناديها باسمها. اطمئن أنا كانت لي حسابات أخرى.

- مع الهزيلة التي راقصتك مراراً.
- طبعاً، وهي نحيلة وليست هزيلة. أضحك وأسأله غامزاً:
- هل؟
- طبعاً؟

وضحكنا كلانا. بروس تالبوت لم يعد يدفع ثمناً للجنس مع عاهرات الهاتف، لقد انتقل إلى الفتيات اللواتي لسببٍ من الأسباب يردن مؤانسة هذا الكهل الأمريكي الودود جداً.

- كيف لاحظت سوسن؟ أعني أنا وسوسن.
- رأيتك تودعها، هل تعلم أنها أسفت لرحيلك. بدا عليها ذلك وأظن أنها شكتك لهناء وهناء قبلتها وعانقتها لتعيد لها ابتسامتها. أندرو قل لي: كيف اجتذبتها؟ أنا أخشى عليك فعلاً، أخشى عليك من جمالها

ومن ذكائها الذي ينطق به وجهها الفاتن. أخشى أن تتورط عاطفياً أتمنى لو أنك تظل مثلي باحثاً عن راغبة في متعة عارضة، حاول، إنما بحذر، حاول جلبها إلى سريرك فإن أتت لا خوف عليك. الخوف أن لا تأتي وأن تعشق بياض الوجه وسواد العيون.

لم يدر بروس أن ذلك قد حصل، وربما لم يخفق قلبي كما يحصل الآن منذ طفولتي، أنا الآن أحس بالفقد، الإحساس نفسه الذي كان يتملكني حين كان بيت ماكينزي يواري سو، أوحين يشدها أحد الفتيان الكبار من يدها وتلحق به. هذا ما لم أخطط له، لم أكن على استعداد مطلقاً لعشق غامر كالذي أكابده الآن حيث يختلط القلق والغيرة واللهفة بفرحة اكتشاف أن ثمة شخصاً ما تتجه إليه كل أفكارك تدور حوله معظم أمانيك ويهفو جسدك بكل حواسه إليه. النظرة التي ودعتني بها سوسن ربيع حين خرجت كانت واعدة، وأعرف أن هناء قد أسعدها لعب دور إيجابي في حياتي وربما في حياة سوسن ولن تقصر في جمعنا قريباً.

في ثاني أيام السنة الجديدة تجمدني في مكاني رؤية سوسن تقف في باب مكتبي تحاول قرع باب مفتوح أصلاً، تأتي ابتسامتها الراضية الخجول جواباً على ذهولي أولاً ثم حركاتي الخرقاء وأنا أكاد أقفز لأصل إلى الباب وعوضاً عن مصافحة اليد التي مدتها أمسكها بها وأشدها للداخل وأتذكر أن لا أغلق الباب ثم أجلسها على المقعد الجلدي وهي مرتبكة باسمة مستسلمة.

- ألم تأت هناء بعد؟ أنا ظننت أني تأخرت.

- وهل ستأتي هناء؟ لماذا؟

تتصاعد الحمرة إلى الوجنتين ويتحرك الكتفان والعنق الجميل بقلق:

- المفروض أن أجدها لنتحدث عن النشاط الذي سوف أشارك فيه.

- ستأتي إذن، هل.. هل يسوؤك أن تنتظريها هنا... معي؟

أشـدد علـى كلمـة (معـي) أريـد منهـا قبـولاً واضحاً غير مشـروط بوجودها معي.

- بالطبع لا يا مستر براون.

- هل تريدين أن أخاطبك بقولي (مس ربيع) أو (مس سوسن)؟

تنظر إلي بضحكة من الأعماق تجعلني مترعاً بالسعادة:

- ناديني كما تحب.

- لا أستطيع.

- لماذا؟

- سوف تخجلين وسوف يزداد احمرار خديك المتوردين وسوف لن أحتمل وقد يخرج سلوكي عن أي سلوك حضاري دمث.

رافقـت ضحكاتهـا غيـر الصاخبة وإنما السـعيدة الراضية تصريحي السابق.

- أتحب أن تقول للفتيات ما يخجلهن؟

- قولي أندرو.

حدقت إلي مطولاً لا أدري ماذا أرادت أو ماذا توقعت أن ترى؟ كان كل شيء واضحاً ومبذولاً أمامها. إن حالة من العشق تلبست أندرو براون.

- لم تجبني عن سؤالي.. أندرو.

أصفق كفاً بكف كمن حقق انتصاراً. وتطرق خجلى.

- هل تصدقين إذا قلت إنني لم أحب في عمري اسمي كما أحبه الآن؟

تتردد ولا تجيب مباشرةً إلا بعد نظرة عميقة أخرى:

- أصدق ما تقوله يا أندرو.

- هل من الضروري أن ننتظر هناء؟

- لماذا؟ ما الخطأ في ذلك؟

- أريد أن أجلس معك وحدك.

- نحن هنا وحدنا، إنما لماذا تريد ذلك؟
- سوسن.
- نعم.
- هل تعلمين أني أعرف معنى اسمك، iris أو lily وأني وجدت منه نوعاً يسمونه هنا (زنبق بلدي) أبيض اللون وله رائحة هي أزكى ما شممت من رائحة وأن عندي في البيت باقة في إناء، وأنا أحييها كل وقت، صباح الخير يا سوسن، مساء الخير يا سوسن.
- يا إلهي، أنا خجلة الآن كما لم أكن من قبل. أين هناء؟
تزفر ولكني أحس بقبولها لما سمعت. وأنها لن تمانع لو قلت أكثر.
- لم تجيبيني؟
- عمّ؟
- أريد أن نجلس سوية. وحتى لا تظني بي السوء أنا أقترح أن تأخذيني أنت إلى مكان عام. وحبذا لو كان رواده قليلين. أريد أن أنظر إليك دون حرج، أن أحدثك بما أفكر فيه، أو أن أصمت، إنما معك.
- أغلق الباب فيصبح هذا المكتب كما تقول.
- وهناء؟
تلتمع نظرة ذكية ماكرة في عينيها الواسعتين:
- هناء ربما عدلت عن القدوم أو ربما لم يكن الموعد اليوم بل غداً، من يدري؟
وتضحك بانشراح، يا يسوع، هل جاءت هي بإرادتها، ووحدها لتجلس معي، هل حقاً هذا يحصل أم أنه استمرار لخيالي الجامح منذ رأيتها.
- لن أغلق الباب إذن.
- أعرف أنك لن تفعل..... أندرو.
- ماذا يا سوسن؟
- حدثني عن أندرو براون؟

- هل تحبين القهوة العربية أم الأمريكية أم تفضلين الشاي؟
- ما الذي تفضله أنت؟
- سوسن.
تقرقر ضاحكة، يا إلهي إنها تتقبل غزلي بسرور واستجابة.
- كفى، كفى مستر براون، كن جدياً.
كانت كمن تلاطف صغيراً فتربت على خده زاجرة بكل الحب والإعزاز.
- أمرك. ماذا تفضلين؟
- هل تشرب قهوة من صنع يدي؟
- أشرب كل سموم الدنيا إن كانت من يدك.
- الشر بعيد عنك، لماذا السموم؟
- سوسن.
- ماذا؟
- لا شيء، أنا أحب أن أذكر اسمك وأردده.
- ألن تحدثني عن نفسك؟
وقفت وصببت لها ولنفسي من الترمس فنجاني قهوة ذاقتها وتلمظت معجبة ووددت لو أكتسح هاتين الشفتين المتلمظتين. وأدركت من نظرتي ما يدور في ذهني فاتشحت بالاحمرار مجدداً، لا أدري كيف خطر لي أن أمد يدي مبسوطة الكف متجهة للأعلى. وللحظة واحدة ترددت ونظرت نحو الباب قبل أن تضع فيها يدها، ندمت لأني لم أغلق الباب تمنيت لو أغمر هذه الكف الناعمة بألف قبلة وقبلة. نظرت إليها وأنا أحس غلالة من الدمع تتدافع في عيني، غرقت عيناها السوداوين في عيني ولم تسحب كفها حتى أفلتها أنا، طال الصمت وأنا غارق في عينيها. هربت أخيراً بأن رفعت الفنجان إلى شفتيها. هذه حالة من الهناء والرضى لم أعشها من قبل، أنا فعلاً لا أريد شيئاً خارج هذه الغرفة الآن.
- بجد أندرو أريد أن أعرف كل شيء عنك. كل شيء.

- هل عندك وقت؟
- عندي، يمكن أن أبقى حتى الواحدة، ألا تغلقون الأبواب في الواحدة؟
- سوسن، لك أنت لا باب يغلق إلا بإذنك.
- حدثني إذن.
وقبل أن أفتح فمي أراها تقف ثم تغلق الباب وتقترب لتملأ فنجانها ثانيةً وهي سعيدة بنظراتي التي تلاحقها. تجلس ثم تمد يدها فآخذها إلى شفتي وأقبلها مراراً وهذه المرة لا أستطيع كبح دموعي. كانت دموع فرح غير محدود. شهقت حين رأت ماذا تفعل بي، تفجر الأسى في عينيها:
- أندرو، لم الدموع الآن؟
- لا أعتقد أن أحداً في الدنيا تنبض عروقه بالسعادة كما أنا الآن يا سوسن.
تركت يدها في يدي قليلاً ثم عادت لتمسك بالفنجان والصحن:
- أنا مصغية، لا تكتم عني شيئاً.
ربما طاب لي أن أقوم بمراجعة لحياتي أمامها، جعلتها تقرأني بوضوح ككتاب مفتوح حتى مشاعري تجاه أسرتي في طفولتي وشبابي، نفوري من عظات القسّ جاريد ومن محاضرات أبي وأنداده حول العظمة الأمريكية، سو ماكينزي المراهقة ثم سو الحسناء، ضحكت حين أخبرتها بندمي لأني لم أستجب لها وقد عرضت علي جسدها الفائر، معاشرة النادلات والموظفات والزوجة الشبقة السوداء في واشنطن دي سي. جودي كامبل بفسادها منذ الصغر، وأخيراً باميلا التي لم تهضم بوب لونسديل، رأت ما معي من الصور العائلية ثم شقة واشنطن وبعض من زرنها، صبت القهوة من الترمس مراراً، أمسكت بيدي، جعلتني أمسك يدها وأقبل باطنها، بل تحسست وجنتي بباطن كفها، ضحكت من قلبها حين استوجب الموقف، وأسفت وربما شعرت بالغيرة وأنا أتحدث عن باميلا، سألتني إن كان في نيتي أن أدعو جودي كامبل لتأتي

زائرة، وأدركت أنها لن ترحب بزيارة كهذه فقلت لا لن ادعوها، لم تنظر إلى الساعة مرة واحدة، كانت الآن تسلك سلوك حبيبة تقضي وقتها مع حبيبها. وهذا ما جعلني أتوتر عوضاً عن تلقف السعادة التي باركتني بها الحياة. خفت أن أعرض عليها الذهاب إلى حيث نخلو ببعضنا بعضاً. وخفت أن توافق، تذكرت نصيحة بروس تالبوت، إن أعطتني نفسها بسهولة فلا بأس وإن لم تفعل فإن حالة من العشق والملاحقة سوف تتحكم بي، إنها ذكية جداً:

- حدثني مباشرةً ودون تردد بالذي كنت تفكر فيه هذه اللحظة. بصدق رجاءً.

- فكرت فينا.

- فينا؟

- نعم. أنت وأنا، سألت نفسي: هل سوف تسير معي سوسن إلى آخر الشوط؟

بدأ القلق يغزو أولاً عينيها ثم إلى وجهها بكامله، لو رأى أحد فناني عصر النهضة مشهد الوجه لمنحه إلى العذراء الحزينة، ولكانت أجمل عذراء وأنبل حزن:

- أندرو، رجاءً، دعنا حيث نحن، لا نحتاج إلى نقلة في الزمان، ألست معي؟ ألست معك؟ لا تستعجل آخر الشوط. نحن لم نقترب بعد من بدايته.

- سوسن، حدثيني عن نفسك؟

- لا أستطيع، لا أستطيع يا أندرو.

- لماذا؟

- ليس الآن على الأقل، أنا طالبة على وشك التخرج، عائلتي متماسكة ومحافظة، أتمتع بحرية مسؤولية، أنا أضع حدودها وأتحمل نتائج خياراتي عائلتي ميسورة، لم يكن لي (بوي فريند) صغير أو كبير، تجاربي لا تذكر قياساً لتجاربك في الحياة.

- أحس أن ثمة ما ينقص في عرض الحال هذا، الـ(C.V) ناقصة.
- ربما بعض التفاصيل التي لن تعترض ما بيننا.
- ما الذي بيننا يا سوسن؟
- صارحني يا أندرو. هل كنت تتوقع ما حصل اليوم في هذا المكتب؟
- كنت أحلم به يا سوسن، كنت أرسم له مختلف أشكال السيناريو. كانت الحقيقة أجمل وأبهى من كل ما حلمت به.
رفعت يدها إلى فمي لأقبلها ومن جديد عابثت بأناملها خدي بتحبب
- أندرو، حدثتني هناء عنك قبل أن أراك. علي أن أعترف، أنا كنت متشوقة للقائك سلفاً، وحين هززت برأسك محيياً أردت أن ألعب معك دور التمنع والاستنكار، لم أستطع أن أتابع. أحسست أن بيننا شحنة فائقة من الانسجام والتّوق، ولو لم تنسحب في نهاية السهرة لكنت خرجت منها ويدي في يدك. هل فهمت الآن؟
كنت من جديد في حالة من الحلم السيريالي غير المسبوق، اعترافها هذا جعلها تظهر لي على حقيقتها، لم تأت إلي زاعمة موعداً مع هناء لأنها خفيفة أو لأنها معتادة على العلاقات السريعة، جاءت لأنها مثلي تريد ما أريده ربما لم تكن قد وصلت إلى حالة العشق لكنها على الأقل تخطت حاجز قبول عشقي، وهي تأذن لي أن أحبها كما أريد.
- سوسن، لازلت أجهل عنك الكثير، ماذا تحبين؟ ماذا تقرئين؟ من تكرهين؟ الأغاني، الأفلام، الممثلين والممثلات، الألوان، الأماكن، أريد أن أعرف كل شيء، كل شيء.
ضحكتها الصافية تملأ الدنيا حبوراً وحركة الخطوات في الخارج تجعلني أنظر إلى الساعة، إنه موعد الإغلاق، أستأذن منها وأخرج لأطلب من زياد بدوي الخروج وإغلاق الباب لأني سأقفل عندما أغادر ويهز رأسه باسماً، إنه يعرف بوجودها، وأعود إلى الغرفة. أترك الباب مفتوحاً.

لا أدري لماذا؟ ونسمع انصفاق الباب الخارجي وتهدأ المكتبة وحين أنظر إلى سوسن أرى الاحمرار يكتسح وجهها.

- سوسن هل تتغدين معي؟
- أين؟ هنا؟
- لا، في مطعم.
- لا أستطيع.
- في الربوة. تهز رأسها رافضة.
- حسناً، في باب توما هناك مطاعم صغيرة روادها قليلون.
- سنلفت النظر يا أندرو، هنا في المكتب ممكن. قررت أن أغامر.
- سوسن، شقتي قريبة و...
- أندرو، لا. لا تكمل رجاءً.
- إذن هنا.
- ويعود الموظفون ليجدونا سوية كما تركونا.
- هل يهمك هذا؟
- طبعاً، هذا لا يليق بي. ولا يليق بك حتماً. لكنا سنفعل.
- لنأكل إذن. سأتصل بالمطعم وأنت تطلبين.
- أوكي.
- قولي لهم الطلب لمستر براون.
- أوكي.

تطلب مقبلات ولحوماً مشوية وهي واقفة قرب المكتب. وحين تضع السماعة، تكتشف أني أقف أمامها. ترف الأهداب السوداء بسرعة وحين أميل على الوجه الفاتن أتنشق رائحة العنق وأمسح فمي بالشعر الأسود ثم أرفع الوجه الحبيب، ألامس الخدين، العينين وأدور حول الشفتين ثم أحييهما بلمسات سريعة قبل أن تنفتحا لأذوقهما وأرشف منهما أزكى الرضاب وأحس يديها تضمانني وأجتاز بلساني حاجز الأسنان لأقبض على لسانها في قبلة هي كل الشهوة والعذوبة والشوق

والرغبة. يلاصقني جسـمها ملاصقة كاملة وتنفك شـفتاها من أسـر فمي وتمنحني قبلات على وجهي سريعة متلاحقة ثم تعود إلى شفتي لتأسرهما هي هذه المرة. أكاد أجن لأرسل يدي في حميم صدرها ولكني أكتفي برضاب الشـفاه عن قناعة تامة، وحين ننفصل أشـدها من يدها لتجلس على ركبتي وأطوق خصرها بينما يستريح خدها على خدي.

- سوسن، أنا سعيد، أنا السعادة كلها.

تبعد رأسـها عني الآن. ألمح في عمق سـواد العين حزناً، وأشـهد ارتعاش الفم والشـفتين. أراها تعض الشـفة السـفلى محاولة التماسـك، لكن إجهاشة تهزها وتريح رأسها على كتفي لتبكي بالتياع محرق. وأنا الـذي لا يعـرف مـا يجـري أقبلهـا أرشـف دموعها أهدهدهـا. أخبرها أن لا بـأس عليهـا، ولكنهـا وهـي لازالـت في حضنـي تؤطر وجهي بكفيها. وتقبلني في كل وجهي ثم تقف.

- أندرو، اعذرني، لا أعرف ماذا جرى لي. أنا للمرة الأولى تنتابني هذه المشاعر. جئتك هنا فضولية عابثة أبحث عن إرضاء لذاتي وغروري، جئت لأسمع مغازلتك وأرى إعجابك، أنا لم أتوقع كل هذا الشغف ولا زخم هذه الانفعالات. أرجوك. أرجوك اعذرني.

تناولـت حقيبتهـا قبـل أن أدرك مـاذا تفعل ثم انطلقت راكضت إلى الباب الخارجي وأنا مشلول الحركة فاقد القدرة على أي تصرف أحاول إدراك واستيعاب الذي حدث.

لقد جاءت زاعمة موعداً ملفقاً، جلست معي وقبلت حديثي السافر سـمحت لي بتقبيل يدها، ثم أصغت لسـيرتي الذاتية متضمنة ما عشـته مـن مشـاعر وعواطـف تجـاه الآخريـن. حدثتنـي القليـل عن نفسـها. ثم اعترفـت أنهـا سـمعت عنـي وأرادت لقائـي والتواصـل معي ثم قبلت أن تنفرد بي ونتغدى سوية. وعندما تبادلنا قبلات جنسية تماماً بكت وقالت إنها فوجئت بمشـاعرها ثم فرت راكضة. ماذا يعني كل ذلك؟ ما الذي تريده؟ وإلى أين وصلنا؟

يبدأ الآن انتظاري، أريد أن أعرف، أهم شيء هو أن أعرف، لماذا واحدة في جمال سوسن وذكائها تندفع هكذا تجاه غريب مثلي في مغامرة مقصودة ثم تفر في وسط التواصل مبتعدة هاربة؟ إنها تستطيع دون شك أن تجد لنفسها عشرات الشباب من الدمشقيين يتمنون أن تجود عليهم بكلمة أو ابتسامة فلماذا اختارتني أنا لترضي ذاتها - كما قالت - بسماع مغازلاتي، ثم حين ننتقل من الشغف إلى حال العشق تهرب؟ إن في الأمر سراً يحرمها من المتابعة ويحرمني أنا منها. أجل. عندما رأت نفسها تنسجم مع أندرو براون ويمهر هذا الانسجام بتلك القبلات الحارة وجدت أنها اجتازت خطوطاً حمراء لم تظن أنها ستصل إليها مجرد وصول. الأمر واضح إذن أنها تخاف من نفسها. تخاف من أن تعطيني نفسها. لماذا؟

خطر لي أن السبب في ذلك يعود إلى أنها من عائلة محافظة كما قالت، أعرف أن الفتيات هنا مشاريع زوجات، ليس هنا نظام الصداقة أو (المصاحبة) ولا نظام المساكنة ولا نظام العبث إلا القليل والمكتوم منه، وهناك بالطبع نظام الشوارع أو البغاء بجميع أنواعه. لابد أن المشكلة التي عشتها وإياها قبل قليل ناجمة عن تطور في الأحداث لم تخطط له أو تتوقعه سوسن.

رن جرس الباب وخرجت لأتسلم الطعام مع ابتسامة وتحية لمستر براون الذي يدفع عادةً إكرامية كبيرة. كان هناك وردة جورية صفراء في كأس وهناك ما يلزم لشخصين. ولم أعد جائعاً. كان جهدي للسيطرة على عواطفي قد استنفذ قواي. شربت كأس العصير وقررت أن أكون راضياً، لم أكن أتوقع قط أن أصل وسوسن إلى حديث صريح حتى. وهانحن قد وصلنا إلى شوط لا يفوقه إلا أن نتجرد عاريين ونقتحم بعضنا بعضاً. أهلاً يا أندرو براون. فكر أكثر، لماذا بكت؟ هي قالت إنها جاءت لترضي غرورها بالإعجاب الأمريكي، حسناً وقد نالت ذلك، ما الخلل الذي حدث؟ القبلة. كانت هي راغبة فيها مثلي وبادلتني إياها

بل بادرت بنفسها ثانيةً. لا، ليست القبلة. قالت: أنا لم أتوقع الشغف والانفعالات. هنا مربط الفرس، لقد توقعت المغازلة، وحتى القبلة، وربما أكثر من يدري؟ لكن الذي فاجأها ما هو؟ شغفها أم شغفي. شغفها بكل تأكيد. لابد أنا كانت واثقة من شغفي. هي التي وجدت نفسها تنساق في الانفعالات كما قالت. وبالشغف، ظنت أنها لن تصل إلى هذه السوية وعندما رأت اندفاعها توقفت وبكت واعتذرت وفرت. لماذا؟

لم أعد أستطيع البقاء في مكاني، تناولت على الواقف لقيمات سريعة وكتبت ملاحظة لزياد وهاتفت المطعم ليأخذ أشياءه بعد الرابعة وغادرت إلى شقتي. حين دخلتها كانت الغصة في حلقي وكانت دموع ساخنة تنهمر من عيني. أنا لم أعتد هذا الضعف سابقاً. ما الذي فعلته بي سوسن ربيع؟ ما الذي فعلته بنفسها وبي؟

أستلقي بثيابي وحذائي على الفراش. يداي تحت رأسي. مازال طعم شفتيها في فمي. لازالت رائحة عنقها في أنفي. لازال دفء جسدها في جسدي. إنما يظل السؤال قلقاً متقلقلاً غير ثابت أو مستقر. أعني أظل أنا وليس السؤال. السؤال واضح وثابت: لماذا؟

مادامت تتمتع بحرية مسؤولة، وقد اختارت معابثة أندرو براون، وجاءت وسمعت عن ماضيه. واعترفت بتخطيطها للقائه. وانفردت به، وقبلته كما قبلها وكان.... لا.. ليس هذا ما حدث، لقد استطابت هي القبلة التي أرادتها. إنها لم تفاجأ بها. لا. الصحيح أنها فوجئت برغبتها. نعم نعم. لقد ثارت رغبتها وخافت أن تمنحني أكثر. الحمقاء الحلوة، أنا لم أكن لأطلب أكثر، إنما، مهلاً. ما الذي كان يمنع أن تبقى وأن نتبادل القبل؟ ألم تعترض حين ذكرت شقتي هذه وقالت لا تكمل. كان بمستطاعها أن تزجرني وتقول توقف هنا. حدودك هي الخد والعنق والشفتان. حدودك هي كفي باطنه وظاهره. حدودك أن تسمعني مغازلاتك لقاء استمتاعك بصباحة وجهي وسواد عيني. يا إلهي. أكاد أجن، سوسن. أكاد أصيح ولا أفعل، لكني أبكي أبكي. أنا ضعيف خائر.

قطعت كل تلك المسافات الفضائية لآتي إلى دمشق وأخسر نفسي أمام الحسن الدمشقي هذا!

أقوم وأفتح زجاجة ويسكي اسكتلندي معتقة. وأجرع من فمها مرة ثم مرة ثم مرة. أشتم بروس تالبوت، أمسك بالسماعة وأتصل بجودي، لا جواب. سوف أتصل ببروس وأشتمه. لا جواب، أجهش بالبكاء مجدداً وبعد أن أمسح عيني بالوسادة أبدأ بالأنين وحين أصحو عند الخامسة والنصف على رنين الهاتف أكتشف بسرور أني كنت نائماً بثيابي ويأتيني صوت زياد معتذراً عن اتصاله ولكنه يريد أن يخبرني بأنه نفذ رغباتي، وقد سألت هناء عني وهاتفي في المكتب رن مرتين ولكن أحداً لم يتحدث. الصداع يمسك برأسي وأعرف الآن أني أعيش إحدى تلك التجارب التي طالما قرأت عنها. ويأتي رغم الصداع خاطر مقلق: سوسن لم ترفض حالة الشغف التي وصلتها. الشيء المفقود هو الذي ينقص فعلاً. حين قلت لها ثمة شيء ناقص في الـC.V كنت مصيباً. الناقص هو أنها غير قادرة على الوصول إلى آخر الشوط. لماذا؟ هي لم تسأل إن كنت أحبها. إن كنت أريد العيش معها. إن كنت قابلاً للارتباط بها. نعم. أناس آخرون غيّروا دينهم ليتزوجوا أخريات أقل بكثير من سوسن. أنا كنت سأفعل. سأفعل بطيب خاطر، أنا لست متمسكاً بديانتي وسأغيرها كما لن أعبأ بديانتي الجديدة. المهم هي سوسن. وعلي أن أبلغها بذلك. أجل، علي أن أفعل. من أستشير؟ كمال. آه.. كمال الذي يعلم عن سوسن. والذي شربنا سويةً كأس هادية وسوسن في قبوه. غداً سوف أتحدث إليه.

يأتي الغد بما لم أكن أتوقع سريعا. زيارة مبكرة من هناء، في وجهها حزن طاغٍ ويهاجمني القلق، لكنها لا تتركني فريسة له.

- أعتذر منك يا أندرو، أنا آسفة من كل قلبي.
- هناء، أرجوك، أرجوك قولي لي ماذا يجري؟ هل رأيت سوسن؟
- جاءت إلي حين غادرتك، خفت عليها هل تصدق؟ أخبرتني

بكل شيء. منذ حدثتها عن رئيسي مستر براون حتى لحظة غادرتك.

- هناء، ما الذي لا أعرفه؟ هناك شيء أجهله حتماً.

- أكيد.

- رجاءً أخبريني، أنت لا تعلمين ماذا...... تقاطعني.

- أندرو، لا تعذب نفسك، هل تذكر حديثنا مرة عن زواج الأقارب، حسناً. سوسن مخطوبة لابن عمها. مخطوبة له منذ صغرها. لم أقل لك أيضاً وربما هي لم تقل إنها من أسرة بارزة في الريف الشمالي وهم لديهم تقاليد وأعراف لن تستطيع سوسن أبداً التخلي عنها أو مخالفتها.

- ما الذي تقولينه يا هناء؟ هل هي مكرهة على هذه الخطبة؟

- لا، ليست مكرهة. ربما لا تحب ابن عمها، لكنها راضية به. سوسن آخر واحدة يمكن أن تخرج عن طوع أبيها يا أندرو، إنها تحبه وتحترمه كما يحبها ويثق بها.

- أنا مستعد للزواج منها.

- لن تستطيع، اسمع، في الجامعة نعرف أن ابن عمها شاب بارز اجتماعياً وسياسياً ومالياً، يقول بعضهم إنه أمير، المهم سوسن أرادت مغامرة صغيرة محسوبة النتائج معك. لكنها لم تستطع الاستمرار. خافت أن....

- لم أكن لأمسها بسوء مطلقاً يا هناء.

- أعرف، وهي تعرف، الذي حدث هو أنها شعرت بميل شديد نحوك. أعني.. أعني أنها.. بصراحة لقد رغبت بك كما رغبت بها، هذا ليس ما كانت تحسبه، أرجوك، أرجوك يا أندرو، عليك أن تنساها من أجلك أنت. هل تعلم ماذا قررت؟

- ماذا؟

- كان الزواج سيتم عقب تخرجها.

- إياها أن.....

- بل قررت أمس وهي في طريقها إلى بيتي، ستعجل زواجها يا

أندرو، حملتني إليك رسالة.

- أنا لا أريدها، أنا أريد أن أراها.

- لن تستطيع، ولن أستطيع أنا. وأغلب الظن أنها وأسرتها قد غادرت الآن إلى مدينتهم الأصلية. وربما بعد يوم أو يومين سيتم زفافها. أندرو، علي أن أنقل لك كلماتها.

- قولي يا هناء، ما عاد شيء يهم.

- تقول لك: «سوسن هي سو ماكينزي الدمشقية، سو أيام المراهقة وليس المرأة الناضجة». أنا لم أفهم طبعاً، لكن هذا كل ما لدي.

- شكراً يا هناء، آسف لأنك...

- بل أنا الآسفة، أنا السبب في ألمك، وفي تعرضك لهذه التجربة، اعتبرها ما تشاء، لكن سوسن خافت من أن تحبك.

ما الذي كانت تتوقعه؟ صداقة تتخللها مداعبات مازحة؟ هذا غباء، غباء كامل، إنها تعرف تماماً قوة تأثيرها، قوة وجودها في المكان. فكيف إذا كان هناك حديث وقبول وقبلات؟ ما الذي توقعته فعلاً؟ لباقات ومجاملات. جمالها، حسنها، عذوبتها، تألقها. أية مجاملات مع ما يقبض على قلبك ويعتصره. القاسية الظالمة. كان عليها ألا تدخل اللعبة. أن تنأى عني إلى آخر الدنيا. يا إلهي. حذرني بروس، كان يعرف أني في طريقي إلى الهلاك أسير إليه راغباً طلباً للقرب من الوجه الصبوح الأبيض ذي العينين السوداوين. سوسن ربيع يا بنت الحرام أنت مجرمة، كأنه لم تكفني حرقة القلب الدائمة بسو ماكينزي المراهقة. أرادت سوسن أن تضيف ناراً مشبوبة، قالت بصريح العبارة: كما لازلت تندب قهرك وأنت محروم من سو أيام اليفاعة والشباب ستعيش محروماً من سوسن طوال حياتك. أي حكم أقسى من هذا الحكم. أنا لم أقرأ في أية رواية عن قسوة تشبه أو تداني هذه القسوة الجافة القارسة، جاءت بكل فتنتها ومن دون دعوة لتمنحني هذا الـ... هذا (ال) ماذا. أجل جاءت لتجعلني أذوق القربان المقدس رغم علمها أني لا أريد ولن أطأ الفردوس الموعود.

تماماً كما يفعل الكاهن حين يسمع استغفار مجرم معروف ويناوله القربان. من قال إني مجرم؟ من حكم على أندرو براون بالجحيم؟ وأدرك مباشرةً وفي إشراقة كشف أن شيئاً أقوى منها ومني هو الذي يفرق بيننا. إنها تتمنى الآن مثلي لو كان الأمر مختلفاً لكن قوة الأعراف الموروثة هي التي تسطر قدرها وقدري. أنا الرافض لكل أعراف قومي آتي إلى هذا المكان لتسحقني أعراف لا شأن لي بها، وأشعر بالسخط والحقد، أكره هناء وزياد بدوي وكمال راضي وجميع الوجوه الدمشقية التي تمر في خيالي إلا سوسن. إلا سوسن، أحس أني وإياها محكومان بموت بطيء بطيء تسببه حالة ألم لا تحتمل لكنها تستمر. أجل سوف تستمر حتى نهاية العمر.

جاءني بروس تالبوت إلى شقتي مساءً، كانت ابتسامة التعاطف والإشفاق تفصح عن معرفته بما أكابد. قدرت أن هناء قد اتصلت به، قال لي: منذ رأيت وجهها بعد مغادرتك وأنا أخشى محذوراً ما. مثل هذا الجمال لا يستمر حتى سن العشرين هنا دون صاحب، دون مالك. اللواتي مثل سوسن يتزوجونهن هنا ولازالت رائحة الحليب في أفواههن. حدثوني عن ذلك، عندما تبلغ الفتاة الجميلة مثل سوسن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وأحياناً قبل ذلك يكون هناك الكثيرون ممن يريدون امتلاكها بالوسيلة المتاحة والمباحة: الزواج. حسناء مثل سوسن إن لم تكن مخطوبة أو متزوجة يا أندرو فلابد أن عشرات الشبان حاموا ويحومون حولها. وقطعاً سوف يميل قلبها لواحد منهم أو أكثر. وهذا يعني أنها لم تصل إلى حفل هناء دون أن يكون لها ارتباط ما، لن تكون واحدة مثل سوسن شاغرة أبداً. هذا ما خفته وما خشيت عليك منه. وحين نصحتك باستدراجها فإنما كنت أريد أن تعتبرها مشروع عشيقة قد تنجح أو لا تنجح في اصطيادها. أنا لم أشأ أن يكون حسنها الفائق المتميز شركاً لوقوعك في حالة عاطفية ميئوس منها. لكن الذي حذرت منه قد وقع كما يبدو ولن ينفع شيء في عزائك إنما سوف أحاول معك.

- ماذا في ذهنك يا بروس؟

- بيروت، سوف نقضي أسبوعاً في بيروت. في سفارتها أعني في سفارتنا هناك صاحب قديم لي كنا سوية في الخارجية. (مايك) وهذا هو اسمه خبير ببيروت، كان في إجازة طويلة بحيث لم أره منذ قدومي إلى دمشق، سألت عنه فقالوا إنه في برلين يزور ولده الضابط في الجيش هناك. لقد عاد قبل أيام وهو سوف يرتب لنا أسبوعاً كالأحلام. ما قولك؟

- متى؟

- غداً.

- ولكن....

- أندرو.... لقد.. لقد اتصلت سوسن بهناء، مساء اليوم سوف يكون زفافها، آسف أن أخبرك بما يسوؤك لكن عليك أن تشرب كأسك حتى الثمالة، لا فائدة من تجرع الآلام على مراحل.

- بروس، لماذا جئت بي إلى هذا الجحيم؟

كدت أختنق من الغصة، غالبت كثيراً حتى تنشقت ما يكفي من الهواء، كأن صخرة صدعت قلبي. ولم تطاوعني الدموع ولم تواتني الزفرات، هيمن على كل خلايا دماغي شيء واحد، اسطوانة مشروخة تكرر النذير نفسه: زفافها، زفافها، زفافها....

ظل بروس في شقتي حتى صباح اليوم التالي. جعلني أشرب بوفرة وسرعة، ورغم معاندتي الرقود ورغم الإقياء المتكرر الذي كاد يمزق أحشائي لكني غفوت آخر الأمر أكثر من عشر ساعات. صحوت بعدها على رنين الهاتف، أول ما رأيت هو بروس الراقد على الأريكة الطويلة ملتحفاً بمعطفه السميك، أسرعت لأرفع السماعة لأتخلص من الرنين فقط.

- هاي آندي، سنة سعيدة يا حلوي.

كانت جودي على الطرف الآخر. خفق قلبي لسماع صوتها، يا إلهي ليتها كانت قربي عناقها ربما يخفف عني هذا الصداع في الرأس

والخواء في الحياة.

- جودي، سنة جديدة سعيدة لك، عزيزتي كيف أنت؟

- في أحسن حال، أنت تعرف أني مع (فرانك).

وأضحك رغماً عني.

- جودي نسيت أسماءهم، آخر من أذكره يوهان، بل.. القبرصي.

- نو، نو. جاء بعده آخرون، أنا أحب التجديد، وحدك أنت يا آندي كنت معه لشهور. ما أخبارك؟

- ليست جيدة، سأحدثك لاحقاً. هل ستأتين إلي؟

- تعال أنت. أحبك.

- وأنا أحبك، باي.

هكذا هي جودي، رغبة في العيش، حركة دائبة، وسرير لا يخلو من عاشق، تمطى بروس في مكانه، لابد أنه قد استيقظ مثلي على الهاتف.

- هيه أندرو، علينا أن نتجهز، نتغدى ثم ننطلق.

- أستحم أولاً ثم أرتب أمور المكتبة ثم أكون بتصرفك.

أسبوع حافل في بيروت، مايك الذي يتحدث العربية بلهجة لبنانية يعرف كل الناس وكل الأماكن الجميلة والمطاعم والبارات والنوادي الليلية والمقاهي. أكلنا ما لا أذكره، وشربنا أصنافاً من العرق والنبيذ الفاخر، وعاشرنا نساء جميلات محترفات، كنت بين بروس ومايك موضع الرعاية الدائمة، كهلان ودودان ذكيان. مايك فيه بعض البخل لكن بروس بالغ الكرم، لابد أنه قد شرح لمايك بعض الشيء عن حالي فتعاهداني طيلة الوقت بالرعاية بحيث لم يتركا لي فسحة للرثاء لنفسي أو الأسى على ما جرى. وكنت راغباً في هذا النسيان لذلك أقبلت على هذه الحياة المترفة الحافلة بالأطايب فغرقت في كل المتع المتاحة، الطعام والشراب والجنس. لم أقرأ شيئاً إلا يوم العودة حين ذهبت لانتقاء قوائم كتب جديدة قبل أن نركب الطريق إلى دمشق.

- بروس، شكراً، أنت نعم الصديق.

- أندرو، أنت تستحق، اعتن بنفسك.

أحسست وأنا أدخل الشقة أني كنت للمرة الأولى في حياتي في محل عناية أبوية لم أعشها من قبل ولا أدري كيف هزني الشوق إلى أمي فجلست لأخط لها رسالة مطولة. أسفت فيها لأني لم أهنئها بالأعياد ثم حدثتها عن حياتي هنا ووضعت في الرسالة عدة صور لي وللمكتبة ولبعض الأماكن مع شروح مناسبة. كما ضمنتها مائة دولار لتشتري هدية لنفسها ورجوتها أن تبلغ تحيتي للجميع. وارتحت لما فعلت. سأجعل بروس يضع الرسالة في الحقيبة الدبلوماسية وهكذا لن تتأخر في الوصول. وعولت على استئناف حياتي كما كانت قبل سوسن. أتهرب من كمال لأن أحاديثنا سوف تنكأ الجراح عندي وعنده وأشكر غياب هناء عني وعن المكتبة. أبدأ بكتابة بعض ما يمر بي وهذا الذي أكتبه الآن صادق كل الصدق لأنني إذا ما نشرت يوماً كتاباً أو بالأحرى رواية فإنني أريدها أن تكون خطاباً للآخر من القلب. نعم أيها القارئ، إذا ما أتيح لما أكتبه أن يطبع يوماً ما فتذكر أن أندرو براون يعرض لك حياة واقعية مائة في المائة.

أستيقظ ذات صباح لأسمع لغطاً عند الجيران وفي الحي، أسمع موسيقى من الراديوهات هي أشبه بمارشات عسكرية، اللغط والإذاعات في أكثر من بيت سواء في بنايتي أم في البنايات الأخرى، أدير مؤشر المذياع حتى أصل إلى المحطة التي تذيع الموسيقى وأصغي محاولاً الفهم. وأتوصل إلى أن انقلاباً قد جرى في العراق، أفتش عن محطة البي بي سي بالإنكليزية على الموجة القصيرة وأعرف أن أحداثاً دموية تجري في بغداد.

في الطريق إلى المكتبة أستغرب من هذا الاهتمام العام بالأخبار، صحيح أن العرب يقولون إنهم إخوة لكن الواقع أن ثمة فروقات وخلافات بينهم. رأيت ذلك هنا في دمشق ورأيته في بيروت. إنما هذا الاهتمام من الناس وهذه المتابعة كل ذلك يجعلني أكاد أصدق عن

الأخوّة العربية، بعض العابرين كانوا يتعانقون وأفهم أنهم من أشياع عبد الناصر لأنه من الثابت أن المنقلبين في بغداد يحظون بتأييده بعد أن فتكوا بالحاكم العراقي ورجالاته. حتى في المكتبة كان هناك بعض اللغط بين روادها. وأسأل زياد بدوي عما يجري متجاهلاً ما عرفته فيقول إن حركة عسكرية أطاحت بعبد الكريم قاسم والذين قاموا بها من حزب البعث. وأنا أعرف أن في دمشق أكثر من حزب بعث. أسأل زياداً ما الذي يعنيه ذلك لسورية؟ فيقول إن اصحاب الحكم هنا يخافون من انقلاب مماثل للبعثيين. رئيس الحكومة خالد العظم سياسي محنك وكان في وقت من الأوقات حليفاً للبعثيين. بل فهمت أنه كان في حلف مع النائب الشيوعي الذي تدور شائعات عن أنه قد تسلل عائداً لدمشق. وأظل مدهوشاً من اهتمام الناس جميعاً دون استثناء تقريباً بالأحداث السياسية. ليست التي تجري هنا فحسب بل في كل مكان حتى في أمريكا أو الصين أو أوروبا. كمال راضي قال لي مرة إن الاستعماريين ويقصد الإنكليز والفرنسيين ثم الإسرائيليين طبعاً قد جعلوا من كل فرد في الأوطان العربية مشروع سياسي لأن حياته مرتبطة بالصراع الدائم منذ زمنٍ بعيد. أنا أذكر تماماً أن أبي وإخوتي الكبار وهم يعدون أنفسهم ضالعين في السياسة لم يكن يعنيهم ما يجري في فورت وورث المجاورة أو دالاس إلا إذا كان له تأثير على ثمن المحاصيل وفاتورة الوقود وفائدة القروض. والسياسة هي رفع العلم وبارك الله أمريكا وانتخابات الكونغرس والنواب والحكام والرئيس كل أربع سنوات حيث تنتشر الصور واللافتات ونسمع الإعلانات المتنقلة ويأكل الناس ويشربون ثم مع انتهاء المهرجانات وكنس البقايا توضع السياسة على الرف حتى الانتخابات القادمة بعد السنوات الأربع. لا، الأمر هنا مختلف، ومختلف جداً.

مشروع الأفلام والترجمة في المكتبة سوف يصبح جاهزاً، بروس بعد أن صحبني في أسبوع الاستجمام إلى بيروت ابتعد عني قاصداً، وأنا في الصميم أشكره على ذلك. أنا فعلاً أريد أن أداوي جروحي

بنفسي. وأتصل بنهلة، أجل نهلة المومس التي سمحت لي بتقبيل فمها وعاشرتني كعشيق مع أني كافر غير مختون وحين تسمع لكنتي تضحك بسرور وتسألني إن كنت أريدها وحدها ثم تخبرني أنها تريد مائة ليرة كأجرة لليلة لأن الأسعار ارتفعت. وتتحمل نهلة مزاجي العنيف وتظن ذلك بداعي الإثارة التي تمنحني إياها وتتواصل معي بالعنف نفسه وهي لا تدري أنني أنفث فيها كل حقدي وأنفس فيها عن لحظات التوق التي لا شفاء منها ولا دواء. وتمضي الأيام على هواها غير عابئة بأندرو أو بسواه، وأحس أن بي الآن فضولاً لرؤية سوسن الجديدة أكثر مما بي شوقاً أو صبابة، ويعجبني ظني أني تمكنت من التغلب على شغفي بمساعدة بروس والكتب ونهلة وكأس الشراب. ويظل ذلك مصدر عزاء لي حتى أرى هناء واثنين من طلابها يقرعون بابي. نظرة هناء مرتبكة وأحد الشابين اللذين يرافقانها يريد أن يستعرض براعته بالإنكليزية وأطلب منها التريث قبل المباشرة بعرض الأفلام لأن ذلك يستوجب ترتيبات خاصة. وتطلب من الطالبين العودة إلى الكلية أو الاستفادة من المكتبة. ونبقى وحدنا، تنظر إلي شاعرة بالذنب تجاهي، أعرف أن هذا ما تشعر به وأقرر التخفيف عنها.

- أنا عاتب عليك، أنت صديقة يا هناء، وأنت لم تفعلي معي إلا كل خير لذلك لا أرى داعياً لابتعادك.

تصمت قليلاً وأعرف أن لديها ما تقوله.

- أندرو، سوسن عادت من شهر العسل.

- هناء، بصدق، أنا أتمنى لها كل سعادة.

- أعرف، لقد ذهبت لزيارتها، ذهبت أنا وزوجي لنبارك لهم بالبيت والزواج، لم يأت ذكرك طبعاً لكن السؤال كان قائماً باستمرار حين تلتقي عيوننا.

- هل هي سعيدة؟

- هذا ما بدا لي، وهذا أيضاً ما رآه زوجي، ثمة ألفة شديدة بينها

وبين زوجها، أنا لا أريد أن أزعجك، لكن الحقيقة هي أنه رجل متميز.

- سوسن لا تستحق إلا واحداً متميزاً، اسمعي يا هناء، أنا وسوسن كغريبين التقينا في محطة قطارات وقضيا ساعات. وربما أعجب كل منهما بالآخر وربما اقتصر الإعجاب على أحدهما ولم يكن متبادلاً لكن في جميع الحالات سينطلق قطاراهما في اتجاهين مختلفين وقد لا تجمعهما الحياة ثانيةً لكن سيظل اللقاء وتلك المحطة في الذاكرة. أنا لست آسفاً على معرفتي بسوسن. وأتابع حياتي، وأتمنى من كل قلبي لها السعادة.

- أعرف يا أندرو، أنا... أنا بصراحة كنت أتابع أخبارك من مستر تالبوت وهو الذي شجعني على هذه الزيارة.

- لقد كان بروس موجوداً حين احتجته. لقد ساعدني وجوده.

- يسرني ذلك، ويخفف من ندمي أن أراك تستأنف حياتك، هل تريد أن أبلغ سوسن رسالة منك؟

- لا يا هناء، قطعاً لا، ألم أقل لك إن قطارينا تباعدا في اتجاهين مختلفين، لا حاجة.

- على أية حال فهمنا من حديثها مع زوجها أن إقامتهم سوف تتوزع بين دمشق ومدينتهم ولندن أحياناً بداعي الأعمال التجارية.

- أوكي، سأتصل بك حين نرتب موضوع الأفلام.

- سأكون جاهزة، باي.

- باي.

لم يكن سهلاً أن أسمع عن سعادتها مع زوجها، كان قاسياً جداً، لكني احتملته ولم أشأ أن أستسلم للهموم والخواطر المؤلمة. اتصلت بنهلة لتأتي فاعتذرت للأسباب المقنعة لكنها وعدتني بزميلة لها، وحين أوصلتها للشقة عرفتني على (سميرة) وقالت لها إن هذه زيارتها الأولى والأخيرة إلى الشقة لأن المستر أندرو هو من حصة نهلة فقط، قبلتني بنهم كعادتها ثم صفعت سميرة على مؤخرتها البارزة وقالت لها: اعتني

به. سميرة سمراء طويلة ناهدة الصدر بشكل لافت ومثير، كذلك يبرز ردفاها القاسيان المستديران، ويبدو أن نهلة قد حدثتها عني بإعجاب لأني رأيتها مرتبكة حائرة، وضعت أمامها بعض الطعام وعرضت عليها زجاجات الشرب فاختارت العرق، رأيت أنها تشرب باستمتاع وتلذذ وإقبال على المازة دون الطعام، وحين رأت نظراتي تتفحصها ارتبكت وقالت إنها جاهزة لكل ما أريد. وعرضت أن تخلع ثيابها لكني منعتها إنما بعد أن حلّت عرى قميصها لينِدفع الثدي الأسمر بحلمته المتورمة السوداء، وحين داعبته تأوهت من أعماقها وفاجأتني أن قدمت لي كأسها وبمجرد أن رشفت منه أسرعت لتقبلني وتشاركني فيما حسوت من الكأس. أثارتني مبادرتها أكثر مما توقعت فجعلتها تكررها معي وأكررها معها حتى وجدنا نفسينا في الفراش.

أسعدتني سميرة تلك الليلة، هيأتها نهلة جيداً بحيث اندفعت في معاشرتي بكل ذاتها فاستمتعت هي أكثر مما استمتعت أنا وأرتني وصالاً مختلفاً عن الأخريات، كان وصال محترفة راغبة مثل نهلة إنما بجسد كله بلا استثناء لذة ومتعةودفء. وفوق كل ذلك رفضت عند الصباح أن تأخذ قرشاً واحداً.

- أول ليلة هدية، هذا رقم هاتف، إن أردتني اطلب سميرة، ولا داعي لتعلم نهلة، أنت لا تعرف إلى أين توصل الغيرة بين بنات الليل؟

ذهبت وقد أذهلني قولها وتعففها عن النقود كما أذهلني إقبالها على الشراب والجنس، كان ذلك أيضاً إشعاراً لي بأن الأيام تحمل للمرء ما يجهل من سعادة أو أسى. وقد حملت إلى دمشق ما أشاع الأسى في بعضهم والأفراح في بعضهم الآخر إذ انتشر الجيش في الشوارع معلناً السيطرة على الحكم وزج الحاكمين في السجون، كانت أصوات المذياع في الطرقات تطغى على السكون وهدوء الحركة. لقد تمكن أنصار عبد الناصر هنا أيضاً وبعد شهر من انقلاب بغداد من الإطاحة بما يدعونه الانفصال أي تملص سورية من حكم عبد الناصر والمصريين. ومن

خلال ما لاحظته وصلت إلى أن الناس يحبون عبد الناصر، ولكنهم أيضاً يحبون التغيير، ربما أملاً بأن ينعكس التغيير عليهم خيراً وفائدة. التقيت ببروس في السفارة فرأيته قلقاً بعض الشيء مما جرى، قال: ربما تحدث بعض المشاغبات أو الصدامات وعلينا أن نلزم الحذر يا أندرو. الجو سوف يشحن ضد أمريكا، كل من يريد أن يثبت وطنيته يبدأ أولاً بالهجوم والتهديد والتنديد بإسرائيل ثم ينعطف مباشرةً إلى أمريكا. يظن بعضهم بل معظمهم أن إسرائيل تتحكم بالقرار الأمريكي لذلك لا يثقون بنا. لذلك الزم شقتك ولا تذهب إلى المكتبة، خذ مؤونة كافية لأسبوع واستدع إحدى عصافير الليل لتؤنسك، واطمئن لا يجري شيء ولن يجري ضد أمريكا.

قررت أن أستمع لنصيحته. ليس ثمة داعٍ لتعريض المرء نفسه لأي إمكانية، اشتريت لحماً وخبزاً وخضاراً وفاكهة بمساعدة نبيل سائق بروس ولم أنس التزود بزجاجات العرق وعرّجت على المكتبة وجلبت عدة كتب وفاجأتني زيارة كمال. لاحظت أنه كان قلقاً علي. هذا القلق شخصي من كمال راضي تجاه أندرو براون. أما موقفه السياسي فهو بكل بساطة معادٍ لأمريكا، لقد صدق بروس في تحليله. ولا أدري إن كان تحليله الخاص أم لا.

هنا كل من يريد أن يخطب لابد أن يتعرض لأمريكا، أعرف أنهم يزايدون على بعضهم بعضاً في ذلك، لكني سأعترف بأن مواقفنا في الأمم المتحدة وفي العلاقات الدولية لا تجتذب الإعجاب مطلقاً، إن كراهية الناس هنا لسياسة أمريكا تنعكس على كراهية الأمريكيين أنفسهم وهم لا يدركون هنا أن الشعب في بلادي ليس هو نيكسون أو ترومان أو أيزنهاور أو كنيدي وسواهم. هؤلاء سياسيون ولهم ارتباطات بالمصالح الاقتصادية والطموحات العسكرية أما المواطن الأمريكي العادي وهو الغالبية العظمى أو 99٪ من المواطنين فإنه يريد إجازة مرضية في العام وعطلة أسبوعية في ملعب الفوتبول أو البيسبول مع كيس بوشار وزجاجة

بيبسي. ومرة بالشهر يأكل الشواء (الباربكيو) مع أصحابه، وآخر ما يهمه في حياته هو ما يجري هنا وهناك إلا حين يحدث تجييش مشاعره لسببٍ ما. سألني كمال عن إمكانية قيام اتحاد بين دمشق وبغداد والقاهرة، أنا لا أعرف عن هذه الإمكانية، لم أسمع عنها، لم أسأله عن هادية ولم يسألني عن سوسن من الواضح أن كلينا مهجور ومحبط.

غامرت واتصلت بسميرة، كان أمامي أيام من العزلة في البيت، قالوا لي إنها لن تعود اليوم، وكذلك لم يرد أحد على هاتف نهلة، لذلك أنهمك في هذه المذكرات لأكتب دون توقف إلا لتناول كأس أو طعام أو لأرفع السماعة كي أرد على الهاتف. ولثلاث مرات لم يتحدث أحد. أتراها سوسن أم جهة ما؟ أخشى من التخمين كما أخشى من التأكد، وللمرة الأولى أحس أن دمشق تضيق بأندرو براون.

«17»

هادية

وأجدني أجول في الشقة الفسيحة بلا هدف انتظاراً لاستيقاظ كمال من قيلولته الدائمة والمستمرة والمسيطرة. يا إلهي، ما الذي يغريه بهذا الكسل اليومي النمطي؟ ولماذا لا أفلح أنا في الرقاد نهاراً كما يفعل؟ حاولت وحاولت كثيراً عبر السنين وكل ما استطعته هو إثارة غرائزه. فحين أحاول النوم عصراً لا أستطيع أن أبعد يده عني أو أبعد فمي عن جسمه، وقد ينتهي هذا بوصال غير منتظر ينام هو بعده أكثر مما اعتاد وأصحو أنا لأني لا أستطيع النوم وأنا بليلة لزجة دبقة، يستقبلني الحمام بمرآته الجدارية لأعشق جسدي من جديد كما عشقه كمال منذ رآني منزوعة الثياب أول مرة. وبين المياه الساخنة وتذكر مغازلات كمال لأعضائي وأجهزتي كما يسمي أماكنه المحببة في جسدي تمضي ساعة أو بعض ساعة يستيقظ بعدها زوجي الحبيب، زوجي الثالث، كمال راضي أبو عطا وكنانة ونوار و..... عمر ولدي منه. أتذكر هذا كله وأنا لازلت أجول دون هدف، كأنني أستسلم للغياب الطوعي أثناء رقاده، أغيب عن الهاتف والتلفزيون وأحياناً عن الكتب والمجلات بحيث لا يبقى لي إلا (الحوصان) بين نوافذ البيت وأماكن جلوسي المفضلة حتى أسمع خطاه تتجه إلى الحمام فأسارع لوضع ركوة القهوة ولا يطول غيابه إذ يأتي حافي القدمين متدثراً بالبرنس العتيق. أستقبله باسمة مفتوحة الذراعين ويقترب، يقبلني من عنقي مباشرةً فيما يداي تتسللان لمداعبة صدره ثم أفتح البرنس لأقبل حلمتيه فيتأوه ويشدني من ردفيّ تجاهه لكني أهرب من رطوبة جسده المشبعة دفئاً.

- كمال، القهوة، ولنا مع بعضنا حديث طويل، إنما بعد القهوة.

- مسكينة، راحت عليك فرصة.

أعرف أنه يريد أن يشدني إلى حديث الجنس بيننا، هكذا هو لا أراه إلا مشدوداً إلى جسدي، وبقدر ما يسرني منه ذلك بقدر ما أخشى أن يكون عماد ما بيننا هو رغبته المتقدة في رائحة الثنيات ودفء الأماكن - وهذه من أقواله - وأعرف أنه يقول مثل ذلك لسامية زوجته الأولى عندما يقضي الليل عندها. وربما لسوانا نحن الاثنتين. وهذا ليس شكّاً أو اتهاماً، إنما من يدري بم يفكر الرجل الصحيح الجسم حين يريد أن يثبت لنفسه أنه لازال قادراً على اجتذاب نساء الآخرين؟!

نشرب القهوة ونحن نتحدث عن تأخر الأمطار، لازال منشؤه الريفي في بستان الجديدة يطل برأسه بين حين وآخر، من ذلك اهتمامه بالمطر وسروره به وكلمته الدائمة: الله يبعث الخير. يشعر الآن ببعض البرد في هذا المساء الأيلولي فيقوم مسرعاً ليرتدي بيجاما رياضية يراها أكثر راحة من الثياب الرسمية وأكثر رسمية من بيجاما النوم ويعود بعد أن جفف شعره ومشّطه وقبل أن يشعل التلفزيون يرن جرس الباب فأنظر إلى الساعة:

- من يكون الآن؟

- ربما نورا، أو يمنى مع الولدين.

يتجه إلى الباب، نورا ابنته الأصغر أما يمنى فهي زوجة عطا ولده وأسمع عن بعد حديثاً ودهشة ولغة إنكليزية ويأتي صوته:

- هادية، احزري من جاء، لن تصدقي.

من تراه أو تراها؟ وأسمع خطوات تقترب ثم يدخل وهو يطوق كتف فتاة بسترة مطرية وبنطال جينز. يا إلهي أنا أعرفها.

- سوزان؟ سوزان براون.

- ياه أنت هاديا Yeh Aunt Hadia. عمة هادية.

وتسرع الشابة لتتعلق بعنقي، أقبلها ثم أبعدها عني، هذا الوجه ذو التشكيل الرائع عينان سوداوان في وجه حنطي وشعر أشقر.

- يا إلهي يا سوزان، هاتان عينا ريتا يرحمها الله.

تبتسم بأسى:

- في المطار حين أعطوني (البوردينج) سمعت صوت أبي يقول لـي: ريتـا، هاتفينـي. تصـوري يـا خالـة هادية لم ينتبه إلى أنه ناداني ريتا. لا أدري إن كان هذا حسناً أو غير ذلك كوني أشبهها. يبدو الآن كمال حزينـاً متعاطفـاً. فكلنـا أحببنـا ريتـا ألونزو جيوفاني بـراون زوجة أندرو وأم سوزان.

- إن عزاء أبيك هو في أنك تشبهين ريتا سلوكاً وشكلاً يا سوزان.

- أونكل كمال، دادي يقول إذا كان (The Pasha Palace) قصر الباشا متوفراً فاجعله مكان سكني.

ويضحـك كمـال بسـرور وانشـراح، كان لقبـو البنـاء الـذي نسـكنه ذكريـات دافئـة بيـن كمـال وأنـدرو بـراون، وكنـت أنـا مـن ضمـن تلك الذكريات كما كانت سوسـن ربيع، نحن المرأتين اللتين بابتعادنا عنهما قـد وثقنـا بينهمـا هـذه الصداقة المتينة التـي جعلت الدكتور أندرو براون أستاذ اللغات الشرقية والمتخصص في اللغة العربية وآدابها يرسل ابنته سوزان إلى دمشق في أول تماس لها مع الحياة عقب انتهاء دراستها.

كمال الآن في حال من التأثر والانفعال، كان مجيء سوزان وارداً في الأحاديث والمراسلات لكنه لم يكن مؤكداً، وبينما أراه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل وكيف يحتفل بقدومها أدرك أنه يحتاج إلى برنامج عمل.

- كمـال، اتصـل بنـورا لتأتـي مع شـادي ويلحق بهما أبوه، واتصل بعطا....

- لا... أنا ذاهب إلى الصيدلية، سوف أرسل عطا إلى بيته ليحضر يمنى والطفلين. أنت رتبي إقامة سوزان.

- ألن أقيم في القبو أونكل كمال.

- ستقيمين فيه إنما غداً، الليلة نعطيك غرفة عمر.

- أوه. نو، نو.. أنام هنا على الأريكة، بليز، بليز....

- اذهب أنت يا كمال واترك لي الترتيب.

أقرصها من خدها وتستجيب باسمة معانقة إياي.

-آنت هاديا أنت جميلة جداً.

- ساعديني لنجهز معاً غرفة عمر لإقامتك الليلة. سنغير الملاءات والأغطية، ومنذ الغد يصبح قصر الباشا لسوزان براون.

تبتسم بوجهها الطفولي وتتحرك معي، حين تكون جادة يرى الناظر إليها أنها تشبه أندرو، وحين تبتسم أو تضحك تطل عليك روح ريتا. لقد جعلت سوسن ربيع من أندرو براون عاشقاً للعيون السوداء، ولم تستطع أي حسناء أمريكية سوى ريتا جيوفاني التي هي من أصل إيطالي عبر ثلاثة أجيال أن تجتذب أندرو الممتلئ حباً للوجه الشرقي الجميل. أجل كان القبو أو قصر الباشا هو مناحة كمال وأندرو، كمال يلعن آبائي وأجدادي وكل أقاربي ومعارفي لأني تركته، أما أندرو فكان على عكسه ممنوناً لأهل سوسن لأنهم أنجبوها كي يراها ويتعلق بها وتصبح ركناً أساسياً في حياته. ظلت ذكراها حية في ذاكرته حتى توحدت مع ريتا، أما أنا فلم تطل معاناة كمال بشأني إلا بضع سنوات. لكن ذاك قصة أخرى.

أول مرة رأيت فيها أندرو براون كانت قبل عشر سنوات. يومها صحبني كمال إلى تورنتو في كندا لزيارة كنانة ابنته بعد عام من زواجها واستقرارها مع زوجها. سامية وكمال سافرا بعد ثلاثة شهور ليطمئنا على حالها. ويومها زارا أندرو وريتا في واشنطن، حين سافرنا أنا وكمال إلى تورنتو لم تكن معي تأشيرة دخول إلى أمريكا ورفضت سفارتهم في كندا منحي التأشيرة قائلة: خذوها من بلدكم.لذلك جاء أندرو وريتا والصغيرة سوزان بنت السابعة إلى تورنتو وأمضينا وقتاً ممتعاً، كان أندرو يتحدث العربية بلهجة دمشقية أما ريتا الجميلة فكانت لهجتها الإنكليزية مشوبة (بالأكسان) الإيطالية المنغّمة، انتقلنا سوية إلى فانكوفر مودعين كنانة وزوجها. كنانة تزوجت عام 81 إثر تخرجها مباشرةً من كلية الفنون الجميلة، أحبت أستاذها الشاب كما أحبها وكان في طريقه إلى الهجرة

ليدرس هندسة الديكور في إحدى الجامعات الكندية، وقد رأيناها ربّة بيت متألقة وفنانة مشرقة النفس ينعكس إشراقها على اللوحات التي زينت بها بيتها. يومها عرفت أندرو براون مع ريتا وأعجباني كما أعجبتهما بدوري وقالت ريتا لكمال إن رجال دمشق ظالمون لأن كمالاً وحده له اثنتان بديعتان سامية وهادية الفاتنة هذه. وقبلتني من خدي، وبالطبع يضحك أندرو الذي يعرف عن الأمور أكثر مما تعرف ريتا، بعد هذا اللقاء الوحيد بعدة أشهر صعقنا بخبر وفاتها، سافر كمال وسامية من دمشق وجاءت كنانة وزوجها من كندا وحضروا الجنازة وبقي كمال أسبوعين مع أندرو وسوزان الصغيرة.

- آنت هاديا متى سأرى آنت ساميا؟

تفضلوا بهذا السؤال، هل أقول لها إنني لم ألتق بسامية مطلقاً؟ رأيتها مرة واحدة عن بعد في الشارع وكنت أتسوق في الصالحية، كانت مع نورا تتسوقان ولم ترياني، سامية بعد أن تزوجني كمال عمدت إلى حملة خسران الوزن، كانت الغيرة سبباً كافياً لتنزل إلى ملعب الفيحاء كي تمارس المشي السريع ثم العدو الخفيف وتخسر وزنها لتعود صاحبة قوام رشيق وجسم مشدود. اعترف كمال لي: أنه كان يفضل لو ظلت مكتنزة. هذه شيم الرجال عادةً، أنا نحيفة بعض الشيء لذلك لم يكن يمانع في أن يضع يده على النوعين، المكتنزة والممشوقة، يا لكمال الرائع هذا، يا لفرحة عمري به بعد أن ارتحم يوسف.

- سوزان، غداً على الأكثر سوف ترين خالة سامية.

تبتسم بمكر وشقاوة.

- هل تجتمعان؟ وإذا كنتما سوياً ماذا يفعل أونكل كمال؟

وأضحك مطولاً، وأتخلل شعرها الأشقر بأصابعي:

- أولاً هذا ليس من شؤون الصبايا الحلوات، ثانياً هذا لم يحدث قط. ثالثاً أرجو ألا يحدث.

تضحك سوزان بانطلاق، أراها لم تستغرب بل تسلك سلوك ابنة

العائلة القادمة في زيارة أهلها.

- سوزان، الغرفة جاهزة. الحمام جاهز لك، سيكون أمامك عشاء عائلي.

- أوكي.. أول حمام بمياه دمشق.

تبتعد حاملة معها منشفتها لكنها تعود مسرعة:

- آنت هادية، نسيت أن أقول لأونكل كمال إن حقيبة الكتب ظلت عند الضابط في المطار. هل تصدقين؟ الضابط فوجئ بي وأنا أحدثه بعربية مكسرة. كان وسيماً وأسمعني كلاماً جميلاً، لكنه احتفظ بالكتب ليفحصوها.

- لا بأس، سنحضرها.

تسير عدة خطوات ثم تعود:

- آنت هاديا في حقيبتي أكياس، الأزرق هداياك أنت وأونكل وعمر، هذه مني وليست من دادي.

ثم تتراكض متراقصة مع غناء الروك وهي ظاهرة الفرح، أتنهد وأنا أتجه إلى المطبخ، أخرج أقراص الكبة الجاهزة من الثلاجة وصينية البيتزا وأبدأ متمهلة بإعداد السلطة، شوربة العدس جاهزة، كمال سيوصي على اللحوم المشوية وربما يعرج على القبو ليتناول كأساً أو كأسين. عمر ولدنا لا أدري أنا ولا يدري كمال كيف اتجه إلى التديّن أمام أنظارنا، في البداية ظننا أنه تقليد لزملاء الابتدائي ولكنه كما حلل لي كمال لاحقاً رأى أن أباه لا يعطي للتدين قيمة بل إنه يهاجم المتعصبين علناً. وأنا كذلك لم يلعب الدين أي دور في حياتي. فوجد أنه يستطيع أن يفعل شيئاً مختلفاً. أخذ يصلّي الجمعة، وجعل يصوم شهر رمضان، حاول معي كثيراً ولم يفلح، واحتار كمال في شأنه ولم يستطع أن يفعل شيئاً، أعرف أن زوجي الحبيب شيوعي الهوى ولكنه لم يقدر على كبح تدين عمر أو بتعبير أدق التزام عمر ببعض الممارسات الدينية، كان أي ضغط كفيلاً بدفع عمر إلى ركوب العناد مما قد يجعله يقف في ارض صالحة كي يجتذبه المتطرفون،لم يتخلّ عن مقولات أبيه في العداء

للرأسمالية والفساد والاحتكاروالاستعمار لكنه صارحه بأن هذه تعاليم إسلامية ولا شأن لماركس أو لينين فيها وبالطبع ليس لخالد بكداش (والأحزاب) الشيوعية دور فيها ويشدد على كلمة أحزاب ساخراً من انقسام الشيوعيين، المهم. كمال رأى أن عمر يستاء حين يشرب في حضوره. ولم يشأ أن يُكرهه باعتباره أباه على حضور عشاء أو غداء يتخلله (تعاطي المنكر)، احترم عمر موقف أبيه، واحترم كمال وقوف عمر عند قناعاته. وظلت العلاقة بينهما على أفضل ما تكون علاقة أب متعلم مثقف وسياسي بولده الذكي المكتمل الشخصية.

أسمع من الحمام صوت مجفف الشعر وبعض غناء سوزان، كمال يتهاتف كثيراً مع أندرو، أندرو يتصل بالطبع لأن الأجور عندهم أرخص، كان يصر عليه كي يأتي زائراً إلى دمشق، أندرو لا يريد أن يعود، منذ غادر لم يعد، ظل على اتصال دائم بكمال، وتواصل مع سيدة اسمها هناء قال لي كمال إنها من عرفته على سوسن ربيع، لقد رأيت سوسن هذه مرة، إنها جميلة جداً جداً. أجمل ما رأيت من عيون سود وشعر أسود فاحم، وهي واحدة الآن من سيدات المجتمع الهاي لايف. زوجها من الأثرياء وكذلك أخوها وهم معروفون للناس. المهم، أندرو قبل سنتين أو ثلاث قال إنه وعد سوزان بأن يرسلها إلى دمشق حين تنتهي من دراستها الثانوية بحيث تستريح سنة وتحسن لغتها العربية كان هذا مجرد حديث، تكرر مرة أو مرتين. كنانة أكدت أن أونكل أندرو سوف يرسل سوزان. كنانة بعد حصولها على الجنسية الكندية صار سهلاً عليها التردد على الجارة الأمريكية، ربما رأت العم أندرو في أمريكا ثلاث مرات أو أربعاً ما عدت أذكر. وهاهو قد فاجأنا فعلاً حين أرسلها.

تخرج من الحمام والمنشفة تكشف عن كتفيها ونصف صدرها ولا تغطي إلا نصف فخذها وحينها يدخل عمر قادماً من الخارج، فتصرخ هي من المفاجأة ويبهت هو ثم يشيح بوجهه قائلاً: أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم.

« 18 »

أطلال

في مقياس الأيام السعيدة التي طلب أحدهم ذات يوم أن يكتب عددها على شاهدة قبره باعتبارها ما عاشه فعلاً فإنه من دواعي إثارة الحسد أن أقول إن أيام سعادتي عديدة جداً. منذ صغري وأنا أستطيع الحصول على ما أريد. هكذا أرادها الحاج عطا راضي والدي رحمه الله، وهكذا تواطأ الجميع على أن يكون. حتى أم رشيد زوجة عمي كانت تغمض عينها عن الألعاب التي كنا نؤديها سامية وأنا حين لم أكن أبلغ الحادية عشرة أو الثانية عشرة مع أن بعضها كانت ألعاباً خطرة، أنا لم أنشأ محروماً من شيء أقولها بكل صراحة، أبي تكفل بالحاجات المادية وسامية كانت موجودة حين أشاء، أو لنقلها بصراحة أكثر: أنا كنت موجوداً لسامية حين تشاء. أكبر مني بما يقارب السنتين، أبلغت قبلي، استباحتني هي لمتعتها قبل أن يسمح العمر لي بتذوق الفاكهة المحرمة والتلذذ بطعمها. اكتسحت جسدي كله في نهارات الصيف حين لم يكن في البيت سوى كمال الطالب الذي يدرس وسامية عروسه المنذورة له، بالأصح المنذور لها. هل يعقل أن الخالة أم رشيد لم يخطر ببالها ما كنا نفعله؟ كيف بدأت الألعاب اللذيذة وإلام انتهت؟ المهم أني لم أكن محروماً قط، وقد تزوجت سامية قبل أن أبلغ الثامنة عشرة. بعد عرس (مطنطن) نصف قروي ونصف مدني قاد ابن عمي رشيد بنا السيارة إلى بيروت حيث أنزلونا في فندق في شارع الحمراء، وغادرنا تاركاً في يدي بضع آلاف من الليرات تكفي لأشهر وليس لشهر عسل فقط، هل يصدق أحد أني وسامية كنا في حالة خجل. بلى والله. نحن اللذين يعرف كل واحد مواقع مسامات جلد الآخر وقد لعقناها وزرعناها قبلاً، كنا خجلين

من بعضنا، لماذا؟ لأنا ندخل الجانب المشروع في علاقتنا باعتباري منذ الأمس زوجاً كما دوّن كاتب المحكمة الشرعية وباعتبارها زوجة لي على سنة الله ورسوله. كانت لنا طيلة الأيام الماضية جرأة الاعتداء على العرض المشترك والقانون المدني والشرعي والعائلي، وهانحن في حمى كل ذلك ونحس بالخجل. وكان علي واجب اقتحام النفق الذي حافظت عليه سامية عصيّاً حتى الليلة الموعودة، الدخول سوية في الفراش كان وحده كافياً لإذابة خجل الشرعية تحت حرارة الجسدين الشابين.

تزوجت وسافرت إلى دبلن. لماذا دبلن؟ الله وحده يعلم، هي من جاءني قبول في جامعتها. ولدراسة ماذا؟ الصيدلة. وكأن الصيدلة بالإنكليزية أكثر شفاءً للناس بأدويتها. وهناك أيضاً كان مال الحاج عطا كافياً لأعيش في بحبوحة شاركتني إياها حمراوات الشعر من الإيرلنديات الناقمات مثلي - لا أدري لماذا أنا؟ - على برودة الإنكليز، وأسجل لهنّ أنهن كنّ دافئات كما توحي شعورهن الحمر، لكن الإسكندنافية الممتعة هي التي تركت في النفس والجسد والعقل آثاراً لازالت حتى اليوم إذ أخذتني بالعدوى إلى الفكر اليساري الماركسي، ولأني من الأصدقاء الأوفياء ولست من المتحزبين لازلت على الصداقة والوفاء لهذا الفكر بينما نكص عنه كثيرون ممن لم يعيشوا فيه حالة الصداقة حتى مع أنفسهم. وبالطبع لم يكونوا أوفياء.

وما يشغلني الساعة وأنا في الصيدلية القديمة هو هاتان القيمتان تحديداً: الصداقة والوفاء. وكنتيجة مباشرة لهما. جاءتنا زائرة سوزان أندرو براون. أندرو محب دمشق، ومحب العيون السود، العيون الكواحل حسب فايزة أحمد. يا رب المساكين والعشاق المحرومين. لم ير أندرو براون سوسن ربيع مرة واحدة بعد أن تملصت من يديه في المكتبة وودعته. عرف أنه لن يراها، وبصدر يتسع لكل ذلك الحب قبل أن يعيش عذوبة الألم النبيل، فقد أرسلت تقول له بما معناه: احترق بنار حبي. كان هذا حين أفهمته أنها سو الدمشقية. وكما حكم عليه حب سو

ماكينزي في أرلنجتون تكساس بالشغف والألم كانت سوسن ربيع تحكم عليه من جديد بمثلهما ربما لبقية حياته لولا مجيء ريتا فيما بعد، كانت هادية قد فعلت بي ما فعلته سوسن به، اختفت، لكن نساءنا - دعوني أعترف لكم - أكثر مكراً واحتيالاً من الرجال. مني ومن أندرو على الأقل. لأن هادية كانت تراني حين تشاء خارجاً من الصيدلية أو داخلاً إليها. وسوسن كانت تتعمد أن تكون في موقع ترى فيه أندرو متجهاً من أو إلى المكتبة. هو لم يعلم بذلك، هناء أسرّت لي بهذا فيما بعد، وهادية أطلعتني عليه بعد أن تزوجنا. أجل تزوجنا، المرحوم يوسف - لأنه ارتحم - المرحوم يوسف هلكت زوجته من عشرته وظله الثقيل. وحين تم إجبار والأصح إكراه هادية على الزواج منه لأنها أرملة أخيه هلك بدوره، لحق بأخيه تغمدهما الله بواسع رحمته. قالت لي هادية، إنها أذاقته أياماً أسود من (قرن الخرّوب) كما يقولون في الأفلام المصرية. وكانت تستخدم موانع الحمل رغماً عنه بل كانت تطرده من جنة سريرها بالشهر والشهرين لأمراض نسائية هي عادة غامضة تماماً، ولأن حماتها القادرة والقوية كانت وراء تزويجها من ولديها المرعبين - إنما يرحمهما الله مع ذلك - فقد أقنعت هادية الشاطر يوسف بأن أمه سبب انعدام هنائهما منذ البداية، فلم يحمله عقله وشبت خناقة حامية بينه وبين أمه متهماً إياها بالفضولية والثرثرة وإقحام أنفها في كل شيء بل زاد من عنده بأن أمه كانت سبب علة أخيه مما جعل الأم تقسم الأيمان المغلظة بألا تكلمه حتى يوم القيامة وأنها غاضبة عليه إلى يوم الدين وأنها ستدعو عليه إلى حين النشور. أحالت هادية حياة يوسف إلى جحيم يومي وشاركتها في ذلك ابنتاها اللتان لم يسرهما أبداً حلول عمهما مكان أبيهما فقضى الرجل غير مأسوف عليه حتى من أمه التي أعلنت أنه عطب من غضبها عليه. وتحررت هادية، كانت الآن أقوى من أمها وأهلها الذين ضحوا بها مرتين خشية أن تنحرف باعتبارها جميلة ومرغوبة.

في تلك الأثناء كان أندرو براون موضع السلوى عندي وأيضاً

موضع السر لأن أحداً سواه لم يعرف عن هادية وشغفي بهادية. وكنت له أيضاً في موقع التعاطف والعزاء فيما وصل اليه مع سوسن ربيع. ولكني إذ أتجرع مرارة فقد هادية جالساً في الصيدلية أو ساهراً مع الأصدقاء أو شارباً مع أندرو فإن صديقي لم يبق رهين المكتبة إذ التحق بجامعة دمشق طالباً في السنة الأولى غارقاً في الأدب والنحو والفقه وسوى ذلك. وقد أثرى الشعر العربي فيه خاصية التلذذ بألم الهجر والفراق وكاد يضحكني حين اعتبر مكتبه من أطلال سوسن التي عليه الوقوف عندها كما وقف عنترة والنابغة ولبيد. أنا ضحكت حين تذكرت أطلال هادية فقد كانت مقهى المهاجرين وصيدلية العطاء، قلت له ما أروع الوقوف والتذكر بين روائح اليود والاسبيرين وكل عائلة الهيدروكسي والألدهيدات! كان مفتوناً بقصص الشعراء والفرسان أكثر من شعرهم العويص العصّي على فهم العرب فكيف بالأمريكان التكساسيين واستبدال قصص أرسين لوبين بكتاب المغفور له أبي الفرج الأصفهاني الذي كرّس فيه من جديد حب العيون السود. كنت أظنه يعيش بعلاً حتى رأيت مرة ملاقط شعر على مغسلته حملتها إليه متسائلاً فقال ببساطة بعد تفكير: إنها لنهلة. سميرة لا تضع منها، تطلق شعرها الكثيف على هواه. من نهلة ومن سميرة يا صديقي؟ مومسان يا كمال، تأتي الواحدة منهما عندما أطلبها، تحبان القدوم إلي ليس لأني من فحول الشعراء بل لأني أدفع ما علي بسهولة وليس لي أي مطالب منحرفة. إذن لا يشكو أندرو من الحرمان وعوضاً عن الواحدة هناك اثنتان، وقررت أن أقدمه لشلة الإنس. عزيز نصري عاد من القاهرة بشهادة الدكتوراة وقدم لنا رسالته، وتم تعيينه أستاذاً مساعداً في كلية الآداب، وهو الآن كما يصفه جميل مسعود مرتد وانفصالي، الوحدوي فينا الآن هو جميل لأن حزبه هو الحاكم ومع ذلك وبعد مباحثات سورية عراقية مصرية تفضل عليهم محمد حسنين هيكل بقوله: إني أتهم وبدات المهاترات بين البعثيين والإعلام الناصري ولم يطل الأمر حتى حاول الناصريون هنا الانقلاب على حكم البعث في تموز

من عام 63 مما أسفر عن إعدامات وقطيعة بين القاهرة ودمشق. كانت جلساتنا تتحول إلى مشادات كلامية وفقدت بهجة الحوار والسماع مع الشراب والطعام وعندها دعوت أندرو براون.

جميل وحده لم يكن مسروراً بلقائه، عزيز كان محايداً، أنور حداد رحّب بالفكرة لذلك اتخذ القرار وجاء أندرو حاملاً زجاجتين من الويسكي المعتق احتفى بهما جميل أكثر منا باعتبار أن رفاقه قد انتقلوا إلى مرحلة الويسكي وهم تضرب سنابك خيلهم الجوزاء والشهب، وغدا العديد منهم صاحباً لراقصات الملاهي وفنّاناتها المنشزات. فوجئ أندرو بعزيز نصري لأنه رآه في الكلية وساد جو من الحرج والكلفة عندما عرف أنه أستاذ فيها. ولولا طلاقة لسان أنور بالإنكليزية وفتحه حديث المتنزهات والمطاعم والأماكن الأثرية لانتهت السهرة سريعاً. على أية حال لم يعد أندرو إلى هذه السهرة الجماعية إلا نادراً وقد دعانا إلى شقته مرة واحدة لكن صحبة نشأت بينه وبين أنور حداد الذي سهر معنا نحن الاثنين عدة مرات. لكن أي أسبوع لم ينقض دون أن تجمعني وأندرو مائدة، اعتادت أسرتي عليه، لا أدري لماذا كان يؤثر كنانة، لكنها بلهجتها الطفولية وهي تقول له: عمي أندرو، كانت تجعله يحملها عالياً ويعدها بأن يأخذها إلى واشنطن لتصبح أميرة في تلك المملكة. وسامية حين علمت أن حسناء شامية قد ملكت لبه سألته مباشرةً: هل كنت ستتزوجها لو قبلت؟ قال بداهة: طبعاً. قالت: ولكن عندها سوف. قاطعها: أغير ديني وشكلي ووطني لتصبح العيون السود وطناً لي يا (مسز رادي).

ماذا عن صديقه ومعلمه بروس تالبوت؟ كان أندرو يحترمه كثيراً، ويبدو أنه فائق الذكاء ويحسن الحكم على الآخرين. ولابد أن موقفاً منه جعل السفير يطالب باستبداله. هذا ما أكده لي أندرو رغم أن بروس لم يطلعه على سبب عودته إلى واشنطن، لكنه حذره من الأيام القادمة، اكتأب أندرو لرحيله ولم يجلب نجاحه المتكرر في المواد والفصول الامتحانية له العزاء عن معلمه ومرشده. ثم علم أن صديقته جودي قد

تزوجت من ضابط أمريكي في ألمانيا وعادت إلى الولايات المتحدة، وقد اعترف لي بأنه لولا ثلاث لعاد بدوره، أضحكني وهو يقتفي أثر طرفة بن العبد بالثلاث اللواتي هنّ من عيشة الفتى وسألته:

- أي ثلاث يا أندرو؟ لا أظن الخمر والمرأة ونجدة الملهوف أوالمستغيث.

- منهم المرأة يا كمال، والصداقة، والدراسة، وباعتبار الثلاث من المؤنثات فالصواب (منهن) وليس (منهم).

وأضحك بسرور لأن أندرو يقبض أمر الدراسة بجدية وقد عبّر لي عزيز نصري عن رأي أحد الأساتذة فيه حين قال: عندي طالب أمريكي أخو......... يحلل ويشرح أحياناً أفضل من الطلاب العرب. أجل إن ما يبقي أندرو في دمشق هو ذكرى سوسن ودراسته وما بيننا من صداقة جعلته يأسى لمصرع جون كيندي معتبراً أن الرأسمالية قد قتلته مباشرةً أو بصورة غير مباشرة، ورغم أن أزمة لم يحدثني عنها قد جعلته يتخلى عن وظيفته ويتحول إلى مجرد طالب أمريكي يدرس في جامعة دمشق، فإنه ظل طالباً نجيباً وقارئاً نهماً وصديقاً عزيزاً، كان عليه طيلة سنة كاملة أن ينفق من مدّ خراته باعتباره قد أخذ من الوظيفة إجازة دون أجر بغية الدراسة.

لابد أنه قد حدث هناء مراراً عني، وهناء هي التي عرفته على سوسن ثم سافرت مبعوثة من الجامعة للحصول على الماجستير في مسرح شكسبير وكانت في سبيلها للعودة كي تحضر رسالة الدكتوراه. وهكذا جاءت إلى الصيدلية وقدمت لي نفسها، رحبت بها ثم قلت لها بمودة: سامحك الله، لقد دفعت بأندرو إلى عالم اللوعة من حيث أردت له الخير. قالت:

- لو لم يكن توّاقاً إلى دخوله فلن تفلح أي دفعة في ذلك يا أستاذ كمال. وانظر الآن كيف انعكس ذلك إيجابياً في حياته.

- لا أنكر، إنما أكان لابد من كل هذا الحزن والمكابدة؟

- ألا تظن أن أندرو نفسه كان ميالاً إلى الانغماس في الأحزان؟ ثمة شخوص يا أستاذ كمال تستمرئ التفجع والندب إن توفر لها الباعث كما تستمرئ البهجة والغبطة بشرط توفر الباعث أيضاً.

- أرجوك، أبعديني عن التحليلات وأخبريني: ما الذي أرادته سوسن حقاً؟

- سأخبرك لتعرف أنت ولتستفيد من ذلك في صالح أندرو بالطريقة التي تجدها مناسبة، شرط ألا يعلم بما أقول. هل تعدني؟

- موافق، أعدك.

- سوسن يا أستاذ كمال طفلة مدللة، وهي جميلة بالغة الحسن، وهي أميرة بكل معنى الكلمة بين أهلها وأقاربها. ولها كل ما تطلب، ماذا كان ينقصها؟ في الثانوي والجامعة كان العشرات من الشبان يلتمسون منها حتى نظرة الغضب أو الكراهية، المهم أن تأبه للشخص، كانت نجمة بمعنى الحسن والإشراق والتلألؤ. عندما سمعت مني عن الشاب الأمريكي المثقف الوسيم أرادت أن تراه، ثم أرادت أن تفتنه كغيره لتشعر بالاكتفاء، لكنها وجدت نفسها تنجذب إليه في أول انفراد لهما، كانت تعلم أنها لن تنجو ولن ينجو لو فعلاها، لو ارتبطا أو حتى تزوجا فسيلحقون بهما إلى آخر الدنيا، لذلك (فرملت) وانسحبت بسرعة وحتى تقطع على نفسها وعلى أندرو الطريق سارعت للزواج من ابن عمها.

- أنا قدّرت ما يشبه ذلك حين سمعت منه وحين سألت عنها. هل هي سعيدة؟

- بالطبع، لازالت قبلة الأنظار حيث حلّت. سمعت أن واحداً من كبار عسكريي النظام الآن قد عزل وأرسل إلى بعثة دبلوماسية لأنه شغف بها حباً، وزوجها في طريقه ليكون وزيراً مع أنه لم يكن بعثياً.

- بسببها؟

- ربما بسبب التوازنات المحسوبة بين المحافظات، وربما كرمى

لعيني سوسن. من يدري؟ إنما لقد وعدتني، دعها في ذاكرته كما عرفها.

- بالطبع، لا نية في... ثم تعالي لأخبرك، ليس فيما أخبرتني به ما يسيء إلى أندرو، هو يعرف أنها أرادته أن يعجب بها ثم فرت قبل أن تتولع به.

- أن يخمن شيء وأن يتأكد شيء آخر يا أستاذ كمال أليس كذلك؟ وأحب أن أضيف لمعلوماتك شيئاً. لقد صارحتني سوسن بأنها تعمدت أن تراه مراراً في موعد خروجه للمكتبة أو منها. بالطبع دون أن يراها.

- لماذا؟

- سألتها فقالت: لأطمئن، أندرو حساس جداً وأنا لا أريد أن يكون مجروحاً، بعد كل شيء يا أستاذ كمال سوسن كما قلت لك طفلة فعلاً في قوام امرأة خلقت لتعشق، وهي تحب ذلك. فرصة سعيدة.

- أتمنى لك التوفيق.

نعم، أرادت سوسن أن تلعب بالنار للتسلية فلما أحست أنها ستكويها أخرجت أصابعها، أما أندرو فكانت أصابعه قد احترقت أو كادت. لذلك ظلت سوسن وهادية حاضرتين ماثلتين في كل جلساتنا التي لم تكن لتنقطع حتى أيام امتحاناته إذ كنا نرتب الجلسة بين مادتين. وكان يحب الآن سماع أم كلثوم في قصيدتين: رباعيات الخيام وأراك عصي الدمع. بدأ بمحبة المعاني والألفاظ ثم الموسيقى ثم صوت الست. وخاصةً في قصيدة أبي فراس الحمداني. كانت الأقوال المتبادلة بين أبي فراس و(سوسنه) تشجي أندرو فيشرب ويطرب.

ذات مرة وفي وسط السهرة رأيته ينفجر ضاحكاً دون سبب ويضرب على فخديه بحالة سرور بالغة:

- ماذا؟ ماذا فاتني يا أندرو؟

- لا شيء، لا شيء كمال. تخيلت فقط أن (الأب جاريد) كان يجلس معي الآن مكانك وأنا أحاول أن أشرح له ما قاله أبو فراس وما تغنيه (الست) فلم أتمالك نفسي من الضحك. إنها حتماً لوحة سوريالية

يا كمال.

وعـاد حينهـا ليغـرق فـي الضحك مـن جديد، كنت أعرف أنه رغم رفضه للصلات القديمة التي عاشها مع ذويه، بالأحرى التي لم يعشها. فإنه يفتقد الاهتمام منهم الآن كما افتقده في طفولته وحداثته. كان هروبه للتدخين والقراءة ولعشق سو ألين ماكينزي ثم لواشنطن. كان ذلك بديلاً للاهتمـام والحـب اللذيـن لـم يحظ بهما من أبيه وأمه، أجل. ربما كانت هناء على صواب في أن أندرو براون يستمرئ المعاناة لأنه عايشها طويلاً، أكثر من أي شـيء آخر لذلك اعتادها كما اعتادته، من خلال مطالعاتي ومشاهدتي للأفلام الأمريكية أدرك أن كثيراً من انحراف الرجال والنساء في أمريكا مردّه إلى انعدام الحياة الأسرية السليمة إبان طفولتهم.

عاشـت شـلتنا الصغيـرة خـلال عاميـن انتهيـا فـي أوائـل عـام 65 عدة مشـاحنات كبيرة ربما كان أهمها ما تلا تأميمات 1965 للشـركات والمعامل، إذ أن جميل مسـعود كان البعثي الوحيد بيننا ولـم يكن على قناعـة تامـة بالتأميـم لأنـه فـي الأصـل قانوني حقوقـي ولا يرى له وجهة قانونية لكنه دافع مثلي عن الخطوة بكل حمية بينما رفضها عزيز نصري كليةً أما أنور حداد فرأى أنها سرقة لأموال الناس. كان بين رفاق الأمس خصومة شـديدة أعني عزيزاً وجميلاً، وقد وصل الأمر بجميل أن اتهم صديقه بالتعاطف مع الإخوان المسـلمين وتشـجيع الفتنة المذهبية التي نشبت في حماة وامتدت إلى حمص ودمشق. ولم يصمت عزيز بالطبع إذ اتهم المحامي صديقه بتأييد البطش العسكري والهجوم الميداني على مدينة حماة، ولـم نفلح أنور وأنا بتهدئة الخواطر إذ انفضت تلك السهرة سـريعاً مـع تأكيـد كل منهمـا عـدم عودته لمثلهـا إن وجد الآخر. وعملياً لـم يشـاركنا أي منهمـا السـهرة لاحقاً بـل كان كل منهمـا يكتفـي بزيارة أنـور فـي دكان الصياغـة وزيارتـي في الصيدلية وكل يتجنب السـؤال في الموضـوع المحـرج. أخبرنـي أنـور فـي تلك الأثناء أن زوجته قد علمت بعلاقته السرية، لم يعرف كيف علمت لكنها تركته وطلبت التفريق بينهما

ولـم يعتـرض علـى ذلـك. وفتـح ذلك له الطريق كي يطلب من العشـيقة الانفصال عن زوجها خاصةً وأنه لا أولاد لهما. ولم يطل الوقت حتى أخبرنـي بزواجـه منهـا وأفهمنـي أنـه ربمـا لا يتمكن من مجاراتي وأندرو في السهر أسبوعياً، على الأقل خلال الفترة القادمة، لم يكن هذا همي الوحيـد إذ أن أنـدرو تقـدم لامتحاناتـه الأخيـرة وبـدأ ينتظـر النتائج وهو سـوف يرحـل بـكل تأكيـد غـداة تخرجه. ولم يطل الوقت حتى سـهرت وإياه في القبو سهرة ملأى بذكريات سنوات جميلة قضاها هو في دمشق، ومعرفة رسخت صداقة بيننا سنحرص نحن الاثنين على ألا تنفصم، كان أصدقائي الثلاثة عزيز وأنور وجميل حاضرين في ذكرياتنا وكان صديقه بروس حاضراً أيضا وبالطبع سوسن وهادية، بقينا حتى الصباح ثم خرجنا عند الخامسـة نحو المطار وهناك عانقته مودعاً وكل منا يشـعر أنه يودع الأيام الأجمل والأغنى.

هذه المرة ذهبنا إلى إسبانيا، أدركت سامية أنه لا عزاء لي ممكن إن ظللت في الصيدلية والبيت، وأنني فقدت آخر الأصدقاء برحيل أندرو لذلـك أعـادت إلـى الذاكـرة الرحلـة التـي عطلتها حركـة 8 آذار، عهدت لمطاع الحلبي بالصيدلية وركبنا الطائرة إلى إسبانيا، عشنا أسبوعين بين الأطلال العربية في إشـبيلية وغرناطة وطليطلة ثم عرجنا على المغرب وتلقفتنا مدنها وطرقها وموانئها لأسبوعين آخرين عدنا بعدها إلى دمشق التي كانت تدخر لي رسـائل أندرو الخمس ومفاجأة لم تكن بالحسـبان لكنها لا أجمل ولا أروع، هادية نفسها.

اسـتقر أندرو في واشـنطن مجدداً وفي مكان متميز، شـهادته من جامعة دمشق فاجأت مسؤوليه الإداريين أول الأمر ثم تلقوا من الوزارة نفسـها طلـب نقـل أنـدرو بـراون إلـى قسـم الشـرق الأوسـط فـي وزارة الخارجية واحزر يا كمال من كان مستشاراً في هذا القسم؟ أجل، بروس نفسه. بروس تالبوت، من جديد يبسط علي رعايته وهاأنذا موظف هام في الوزارة ولست مجرد أمين مكتبة، وخصص رسالة للسؤال عني وعن

الأسـرة ورجانـي إيصـال تحياتـه للأصدقاء الثلاثـة وخاصةً لأنور حداد. ويبدو أنه كتب الرسـائل الأولى بشـكل يومي، أما الرسـالة الرابعة فقد تحدث فيها عن زيارته لأرلنجتون ولقائه بأهله، ويبدو أنه الآن قد أصبح مركز الاهتمام والفخر لأن قصص أبيه وأخويه (البطولية) قد عفا عليها الزمن. احتفوا به وبهداياه وبمركزه الوظيفي الجديد وبالشهادة التي أراهم إياها مخطوطة بالعربية الجميلة، ولم يفته أن يذكر لي لقاءه بسو ماكينزي التـي غـدت زوجـة (لألان) وفهـم مـن الثرثـرة أنها كانـت تخون زوجها هاري فلاتشـر مع ألان هذا. وهي الآن كما يشـاع تخون ألان مع من؟ صدقنـي يـا كمـال إنهـا تخونه مع هاري الـزوج القديم، وبالطبع حاولت اجتذابـي لكنهـا لـم تعـد مثيـرة كمـا في آخر لقاء، إنها تشـرب كثيراً وقد غدت بدينة من جديد.

رسـالة أندرو الخامسـة يسـألني إن كنت أشـجعه كما يفعل بروس لمتابعـة دراسـته العليـا فـي اللغـات القديمة الشـرقية لنيل الماجسـتير ثم الحصول على الدكتوراه ويسأل عما اذا كنت مستعدا لتزويده بالمراجع والمصـادر التـي يحتاجهـا ويرسـل لـي رقـم هاتفـه الجديـد إذ انتقل من الضواحي الفقيرة إلى ضاحية مميزة حيث اسـتأجر شـقة صغيرة أصغر من شـقة جادة الزرقاء حيث كان يسـكن. ويشـير إلى أنه عاد لاصطياد ساعات المتعة مع الراغبات فقط ويتساءل لماذا لم أرد على رسائله بعد؟ يومها اتصلت به هاتفياً. كانت الساعة عندي الثانية ظهراً، السابعة صباحاً بتوقيت واشنطن. يا إلهي كم سر بسماع صوتي، حدثته عن إسبانيا وأراد أن يسمع صوت كنانة، ثم تعهدت له بإرسال كل ما يحتاجه من كتب، وحيـن طلـب أن نفكـر جديـاً بزيارتـه في واشـنطن وعدته بأن نضع ذلك ضمن مشاريعنا المستقبلية، عاد إلي بعض التوازن بعد سماع صوته وقراءة رسائله وبدأت أستعيد حياتي المعتادة، ولا أدري لماذا قررت الابتعاد عن مكتبة أندرو فهي بعد كل شيء مكتبته ولست مستعداً لزيارتها في غيابه، وحاولت مد الجسور مع الأصدقاء الثلاثة من جديد وخطر لي أن أحدث

أنور حداد عن هادية لكن أنور لم يعد صاحب أسرار، ولم أكن أعلم بما جرى في غيابي وحتى لو كنت موجوداً فلن أقرأ نعي يوسف زوج هادية إذ قلما أهتم بقراءة الأوراق المشؤومة الملصقة على الجدران، عرفت كل شيء حين أشرقت هادية في الصيدلية باللباس القديم نفسه الأسود والرمادي إنما هذه المرة بعينين لامعتين وابتسامة عريضة.

لم أصدق عينيّ ولم أتحرك من مكاني رغم أنها تتجه نحوي، ظللت مشدوهاً كالمسطول حتى ضحكت ضحكتها الصافية وقالت وهي تمد يدها الرخصة الدافئة:

- كيف حالك يا كمال؟ هل اشتقت إلي؟

عندها فقط هبط علي إدراك مفاجئ مفاده أني مقبل على سعادة غير مسبوقة مددت يدي لأمسك بيدها وأشدها لتدور حول الفترينا الزجاجية وطاوعتني داخلة إلى قربي، حدقت إليها وهي تضحك، كان الفرح يملأ وجهها الصبوح:

- هادية، هل أصدق ما أرى وما أفهم أم؟

- بل صدق يا كمال، أنا حرة وفي خفة العصافير، أين موظفك ألا نستطيع أن نخرج من هنا، لا أحب أن ينظر أحد إليك نظرة استهجان، أو إليّ أنا.

- سيأتي الآن، ذهب ليشتري كعكاً.

- سأنتظرك، هل تذكر أين؟

- وهل نسيت لأذكر يا ظالمة.

وتشع ضحكتها التي تخرج من أعماقها وأكاد أفقد صوابي، وأؤجل الأسئلة لما بعد، المهم أنها هنا، عادت وهي تنتظرني في الشهبندر، هذه المرة سوف تصعد بجانبي في سيارتي الشيفروليه الواسعة وليس في المقعد الخلفي من التاكسي كما في المرة السابقة، وسأقود بها إلى بلودان، الأوان ليس أوان ثلوج وليس أوان اصطياف، إنه أوان العشاق، وأعرف أني أغامر بأن يراني أحدهم لكني لن أدع ذلك يعطّل فرحتي

الموعودة. وحين نخرج من دمشق أكون قد سمعت منها كل شيء.

- اقتربي، اجلسي أقرب ما يكون إلي.

- أمرك.

تقترب حتى تلاصق كتفها كتفي أطوقها وأسمع منها تنهيدة حرّى. يا إلهي من الممكن للرجل أن ينظر إلى امرأة فتعجبه وينفتح قلبه لها، وربما يكون مستعداً لحبها ولا ينتظر إلا ريثما يشتركان في حديث ما ليشعر أنه عاشق. ماذا عن المرأة؟ هل هي أيضاً يعجبها شكل الرجل ويكتمل الإعجاب بالحديث؟ ما الذي يجعل هادية تنشد إلي؟ بدأ هذا الخاطر ينبض في أعماقي طارداً متعة القرب والملامسة ولابد أنها أحست بذهابي بعيداً.

- كمال، قل لي بم تفكر الآن؟ قله مباشرةً.

ترددت قليلاً، لكنني علمت أن ذلك سيؤرقني كثيراً إن لم أغلق دارته:

- هادية، لماذا أنا؟

تفاجأ، ثم تضحك بسرور:

- حسناً قل لي أنت أولا: لماذا الأرملة هادية؟ لماذا منذ رأيتك وأنت تحاول اختراق الموانع لتقترب مني؟

- لأنك أعجبتني.

- وأنا، ألا يحق للمرأة برأيك أن تعجب بالرجل؟ أم أنك لا ترى نفسك جديراً بإعجاب امرأة.

- أريد إجابة يا هادية.

- وأنا سأجيبك، أمي سامحها الله يا كمال تزوجت خطفاً، ليس أن أبي خطفها وإنما اعترضها في الطريق وأصر على معرفة ابنة من هي ثم أمرها أن تسير وراءه إلى دكان جدي وأمامها فرض على جدي تزويجه إياها ذلك اليوم.

- هل كان أبوك رجل عصابات من جماعة المافيا الصقلية؟

- لا، كان من رجال الثورة، كان معروفاً ومحترماً وأرملاً في الأربعين وكان يشرف أي أسرة أن يكون نسيبها.

- كانت أمك حسناء إذن.

- نعم..... وما حدث لها هو سبب خوفها علي يا كمال، أنا أشبهها، وهذه الأيام لم يعد فيها رجال مثل أبي، ونحن المتعلمات برأي أمي سريعات العطب لذلك خطفتني هي. زوجتني بنت عشرين بعد أن رفضت طيلة سنوات. كان زوجي الأول، سترتني ومنعت الفضيحة المحتملة بأن أعشق وأُعشق، وبعد أن ترملت صارت الإمكانية أكبر في أنك تلوك الألسنة سيرتي وأنت بنت الحسب والنسب فاتفقت مع حماتي على ما جرى.

- وأنا أين موقعي من ذاك؟

- تعلم أني كنت أسيرة أمي والعائلة أولاً، ثم زوجي الأول وأمه والعائلة وحين ارتحم وجئت لأشتري الدواء تاركة يوسف وأمه والطفلتين في السيارة رأيت رجلاً محترماً وسيماً يقتحم بجرأة وذكاء حدود تحفظي وأسوار أطواقهم الحديدية. كانت أول كلمة إعجاب أسمعها من رجل منذ سنوات. منذ زواجي يا كمال.

- كنت وقحاً أليس كذلك؟

- كانت ألطف وأعذب وقاحة أتعرض لها، ثم تعال قل لي: منذ متى تنتقل آلام المعدة ذات المنشأ النفسي بالعدوى آ؟

أضحك ويدها الآن تقرص خدي.

- لماذا هربت بعدها؟

- ماذا كان علي أن أفعل؟ قل لي أنت. في الدائرة طفلتان وأسرتان، ما حكمك علي لو أني هدمت الدائرة وتشردت طفلتاي واتهمتني أسرتي قبل حماتي وأسرتها؟

- ولكن أنت؟

- أنا، أنا استطعت الوقوف والنجاة، منذ زواجي الأول يا كمال

وأنا منتهكة خانعة مقموعة العواطف والرغبات، أول فسحة ترويح في حياتي كانت معك، استمر ذلك أياماً عدت بعدها إلى جحيم يوسف إنما مسلحة بذكرى ما كان ممكناً معك، هل تدري أنك كنت سندي في حياتي القاحلة؟ لكن ربك رحيم، صحيح ليس في الموت شماتة لكن البنتين وأنا قد رحمنا الله حين دعاه لجواره.

- والآن؟

- الآن لم أسمح لأمي بأن تقول كلمة واحدة، قالت لي احترمي العدة ولا تخرجي فهددتها بأني لن أدعها ترى وجهي ولا البنتين إن اعترضت طريقي مرة واحدة، جعلتها تفهم ما فعلته بي واعترفت أنها ظلمتني لشدة خوفها من كلام الناس والفضائح. وحماتي بعد وفاة يوسف أحست بالذنب والندم تجاهه وانسحبت للخلف تعيش عند ابنتها متوسلة أن أجعلها ترى الفتاتين. ألم أقل لك إني حرة كالعصفور.

- هل تعلمين ما فعلته بي؟

- أعلم.. ولا تظن أنك كنت بعيداً عني، كنت أراك باستمرار، سألت عنك دون أن يشعر أحد بفضولي، أعرف عنك الكثير.

- وتعلمين أني متزوج إذن من بنت عمي.

- أعرف عنك كل شيء، وأنا هنا معك لأني أعرف.

أوقفت السيارة بعيداً عن الطريق العام وجذبتها إلي وقبلتها للمرة الأولى وأنا أحس بالدماء تصعد إلى رأسي غير واعٍ لشيء سوى أن هادية بين يدي. كان حلمي منذ لحظة افتراقها عني. وها قد عشته. كنت أعرف الآن وأنا ألاحق شفتيها بذلك الإصرار أن ثمة قدراً بطريقة ما وأنه قد جمع بيننا نحن الاثنين.

رن الهاتف، عدت للواقع الراهن مجدداً، كانت هادية على الخط ترجوني أن أسرع، لقد عاد عمر وثمة مشكلة بالبيت، وغالباً سببها وجود سوزان براون، بنت صديقي أندرو.

«19»

أسرار أخرى

حين يكون ولدك فريداً ومتميزاً تشعر بالحسرة أكثر لأنك لم ترزق سواه، ومالك ولدي، مالك تميم عبد المالك منصور ليس له نظير أو شبيه. من يصدق أنه لم يكمل التاسعة عشرة وهو يداوم الآن في السنة الثانية من كلية الطب في جامعة دمشق، مالك ولد في تشرين الأول عام 72 وهانحن في أيلول عام 91 وقد باشر بالدوام في الجامعة ربما يقول قائل إنه متفوق دراسياً، إنه فأر كتب، إنه (بصّيم) أي يحفظ الدروس صماً، إنما من هو بطل دمشق في الجودو في وزنه؟ مالك طبعاً. من الذي لو شاء لكان مطمح أندية كرة السلة لضمه إليها؟ مالك. النادي والسلة والمباريات لا تستقيم مع طالب عليه حجم من الدراسة كما هو حال مالك. أتخيل جده المرحوم أبي. عبد المالك منصور. أتخيله يراه ويحادثه وأحس بالأسى البالغ كأن أبي قد رحل عني أمس. وليس قبل إحدى وثلاثين سنة. أمه وجدّته أرادتا منذ الابتدائي أن يكون طبيباً. أنا نفسي لم يكن لي رأي حاسم، أردته كبداية أن يتفوق ومنذ الحضانة. وهكذا كان فعلاً، جدته كانت تحدثه عن أبيه الذي لم يكن هناك أذكى منه، تقول له: أبوك كان وهو في الخامسة عشرة رجلاً، رجلاً ملء ثيابه وليس مثلك هكذا كأنك من الدراويش، هل قلت لكم إن ولدي أطول مني ومن جده الذي أخذ اسمه أظن أنه يزيد عن 185سم. ما شاء الله. يداه طويلتان وهو لخجله يحتار فيهما لذلك ترى أمي خجله وارتباكه بيديه دروشة بينما مالك أبعد ما يكون عن الدروشة، هذا الخجل لم يكن من صفاتي، لماذا؟ لأني نشأت بين دارنا ودار عمي، وفيها الأكبر مني بسنوات والمماثل لي والأصغر، مالك نشأ وحده تحت إشراف

دقيق من أمه وجدتيه وخالاته وبحماية جده لأمه. أنا وحدي كان علي أن أوازن تأثيرهم ولم أنجح تماماً، وهو الذي نال 250 درجة في الثانوية من 260 اختار أن يكون طبيباً، سألته لماذا هذا الخيار؟ فقال: أنا لا أريد لنفسي رب عمل. الطبيب لا رئيس يملي عليه أفعاله.قلت له: وكذلك المهندس والصيدلي. قال: ربما، لكني اخترت الطب البشري. وأعجبني بالطبع أنه اختار لأسباب مناسبة وليس لأن هذا ما تريده أمه وما أرادته له المرحومة جدته. مؤمنة أمي أعطتكم عمرها أواخر عام 87 وتركت في قلوبنا جميعاً لوعة وأسى لفقدها.

مالك إذن اختار الطب لدراسته، أما أنا فبعد الثانوية كنت قادراً على دخول أي فرع أشاء من الفروع العلمية أو الأدبية، قبل ذلك وبمجرد نجاحي دعا عمي الحي كله لحفلة مولد احتفاء بي ومؤمنة بدورها أقامت للنساء مولداً مماثلاً، لم يبق أحد في الأحياء المجاورة إلا وسمع الزغاريد والمنشدين وفرقة المولوية وبالتالي سمع بنجاح تميم منصور بالشهادة الثانوية، وليد صديقي نجح بدوره، بدرجات أقل ولكنها تؤهله ليغدو المهندس وليد رماح كما يريد أبوه ومجلس العائلة، عكّر الفرحة عودة سليمة إلى بيت عمي، مصطفى رمى عليها اليمين. وكما اعترفت لي أمي فقد كان ذلك متوقعاً، ما عادت تطيقه وما عاد يحتملها، أسرته طلبت أن يبقى الأطفال عندهم وعمي سعيد لم يشأ أن يدخل في محاكم للمطالبة بحضانتهم، اكتفى بوعد من عميد أسرة مصطفى بأن يأتي الأطفال للزيارة في أوقات متفق عليها. التفت الأسرة كلها حول سليمة، أمي مؤمنة كانت الأكثر تعاطفاً وشفقة، وآسيا لم تعد تفارقها فهي إما عند سليمة أو سليمة تزور عندها وتبين فيما بعد أن هذه (السلالة) آسيا حين رأت أن أختها غير سعيدة مع زوجها رتبت الأمور وشدت أزر سليمة حتى وصل الحال إلى الطلاق وكان البديل جاهزاً، شقيق رضوان الأشقر. شقيقه الأكبر كان يشتغل ويعيش في لبنان، وتزوج من هناك وحين دب الخلاف مع شركائه وهم أهل زوجته خاف على نفسه فأحيا قسماً من

أمواله بالتخلي عن القسم الآخر وافترق عن زوجته التي وقفت مع ذويها ضده وعاد إلى دمشق، اشترى متجراً لبيع الأدوات الكهربائية، وهو لم يبلغ الأربعين بعد وشكله لا بأس به ويبحث عن السترة. آسيا قالت لأختها: لماذا تصبرين على مصطفى؟ من أجل الأولاد أنت تبكين وهم يكون والزوج غير راضٍ. هذه ليست حياة. قالت لها سليمة: أخاف من العودة مطلقة تحت رحمة زوجات الأخوة. همست لها آسيا بأن نصيبك عندي. ولن تنقضي عدتك حتى يدق باب أهلنا، هذا ما شجع سليمة إضافةً طبعاً إلى أن مصطفى (غتيت) بكل المعاني، أما سليمة فما أدراك ما سليمة؟ إنها الضحكة الصاخبة والوجه الجميل وروح المرح، المهم هذا كله عُرف فيما بعد. أما حين عادت مطلقة فقد خيم الحزن على بيتنا وبيت عمي سعيد ولكن إلى حين.

أنا كنت في أوج حيرتي، الدراسة الجامعية أمامي ولم أكن قد اخترت طريقي بعد. لا أدري ما الذي جعلني يومها أمسك سماعة الهاتف وأتصل بسمر، عرفتني بمجرد سماعها صوتي، أحسست أنها قد سُرّت باتصالي، سألتني عن أخباري فقلت لها إني قد نجحت في الثانوية. أعقب إعلاني فترة صمت ثم سمعت صوتها المخنوق يسألني: افتقدت أباك في فرحتك أليس كذلك؟ قلت لها إني أفتقده في كل لحظة. في فرحي وحزني في قوتي وضعفي. إنه في قلبي كما في عقلي. قالت: تعال لأحتفل بك. هل تأتي؟ وعدتها لليوم الثاني. كان عندي موعد مع العم راتب مأمون الذي كانت فرحته عارمة بتفوق ابنته عزة، وحين سمع عن مجموعي ازدادت فرحته ودعاني للزيارة مع الوالدة فأخبرته بأنني أريد أن نلتقي وحدنا لبحث موضوع الجامعة.

رحب بي وأسرته أحسن ترحيب ثم انسحبت الخالة هند مع عزة وبقيت مع الأستاذ راتب، أطلعته على حيرتي فيما يتعلق بالدراسة، سألني عمّا أريده من الدراسة:

- لماذا تريد دخول الجامعة يا تميم؟ لا أظن بقصد الوظيفة.

- لا. أنا لا أريد الوظائف.

- وليس من أجل العمل التجاري، أو إدارة المزرعة؟

- ولا ذاك يا عم راتب.

- تريد الدراسة إذن من أجل الموقع أو الاسم.

- ولا هذا.

- مممم.. اسمع يا بني يدخل المرء الجامعة لينال علماً وشهادة، بالصورة العامة الجميع يدرسون من أجل المهنة وكسب الرزق، أنا درست الحقوق لأغدو محامياً وأعيش من مهنتي. كذلك المهندس والصيدلي والمدرس وغيرهم. اختر مهنة أولاً ثم اختر دراسة تناسبها أو تساعد فيها.

- إن اخترت مهنة فربما تكون المحاماة.

ضحك بسرور بينما قدمت لنا عزة الشاي وخرجت.

- تقول ذلك لمراعاة شعوري مثلاً.

- لا والله يا عم. لا.. أنت تعرف أن الحال مستورة ولن أحتاج إلى عمل لأكسب رزقي. المرحوم أبي ترك تجارة وأملاكاً تغنيني عن ذلك.

- عليك أن تخبرني إذن بما تحب أن تكسب من علم في الجامعة.

- إن شئت الصدق فأنا أحب الأدب والتاريخ.

- ادرس ما تحب إذن مادمت لا تريد أن تكسب من الدراسة.

- أدب عربي أم لغة إنكليزية أم تاريخ. هذا ما كان يشغلني فعلاً.

- تريد رأيي.

- بالطبع.

- تستطيع أن تقرأ الأدب العربي والتاريخ في أمهات الكتب والموسوعات أما اللغة الإنكليزية وآدابها فتلزمها الدراسة.

- لم تجاوز ما في قلبي يا عم راتب، أبي رحمه الله ترك لي مكتبة حافلة بكتب الأدب والتاريخ. قراءتي فيها سبب محبتي لهذين العلمين. الإنكليزية تحتاج لدراسة كما ذكرت وهكذا أدرس ما أريد

وأقرأ ما أرغب.

- بالتوفيق والنجاح.. اسمع، إن كنت ترغب بدراسة الحقوق فلك في كل تشجيع.

- لا.. لا أجد نفسي محامياً مترافعاً ولا مستشاراً قانونياً، وعزة؟

- الصيدلة ولا شيء سواها. قل لي. كيف ترى الدنيا حولنا؟

- الصدق أننا خفنا أن يصل التأميم الذي أعلنوه إلى دكاننا.

ويضحك العم راتب بسرور.

- لن يصل الأمر إلى ذلك يا تميم، البعثيون أنفسهم فيهم أناس ضد التأميم ويبدو لي أن منهم معارضين لأي خط اشتراكي.

- لا يبدو ذلك في الإذاعة والصحف.

- بل إن بعض مقالات الصحف تعبّر عن التحفظ تجاه السير في طريق الاشتراكية العلمية.

- ولكن يا أستاذ راتب سمعت أنه في تشكيل المجلس الوطني الجديد كان هناك شيوعيون من رفاقك، كما أن الحديث عن وزارة زعين يقول إن فكر كثيرين منها يساري.

- ربما، لكن المؤكد أن هناك أجنحة الآن في حزب البعث. المهم الآن، سوف تسجل في الأدب الإنكليزي.

- إن شاء الله.

حين أعلنت نيتي هذه صفقت مسرّة من بين الجميع بينما شهقت سليمة أما أمي مؤمنة فقد ضربت على صدرها.

- وماذا ستفعل بهذا الإنكليزي؟

- سيتاجر بالزيت والزيتون مع الإنكليز. قال عمي ضاحكاً.

- الزيت يباع عندهم في الصيدليات كما سمعت، يمكن أن نبيع الكيلو بوزنه ذهباً يا عمي. لكن الذي يحيرني هو ما الذي نستورده مقابل الزيت.

- ملح إنكليزي طبعاً. قالت سليمة.

وبين الضحك والمزاح مرّت حكاية فرع الجامعة بسهولة ودون اعتراض جدي. وتلك الليلة وللمرة الأولى لاحظت شيئاً لافتاً للنظر. كانت مسرّة تقتنص أي فرصة لتسفيه رأي سليمة، بل إنها تجاهلت طلبها منها أن تضع الركوة على النار، وأكثر من ذلك حين قامت سليمة من قربي لسبب ما احتلت مسرة مكانها وتعمدت فتح حديث الجامعة معي بحيث تقطع الطريق على عودة سليمة إلى جواري، ولابد أن سليمة قد ساءها إقبال مسرة علي ومحاولة جذب انتباهي إليها لأنها قد همدت بقية السهرة.

في اليوم التالي وأنا في مدخل الحي وقفت تاكسي ونزلت منها ضياء، وحتى لا تنظر إلي مثيل نظراتها السابقة حاولت الانتقال للجانب الآخر وفوجئت بها تعترضني باسمة.

- ألف ألف مبروك يا تميم. والله فرحت لك من قلبي.

- شكراً يا....... مدام.

- مدام. وتضحك ضياء ضحكة خفيفة.

- قلت لي مدام. لمن أشكوك آ..... لمن؟

- من سيشكو من؟

- بالله؟ هل تريد أن أذكرك بمن لوى شفتيه كأنه رأى مكروها. بينما تبذل الأرواح لرؤية ما لم يعجبك. ما جنسك يا أخي آ.

وأحس أن في الأمر أكثر من روح تصالح، وأريد أن أحاول من جديد، ربما، صحيح أنها متزوجة لكن اعتراضها طريقي وحديثها عن جسدها يبيح لي أن أحاول.

- كان ما رأيته فوق احتمالي يا ضياء.

- يا أخي.. كنت قل شيئاً على الأقل.

- فإن قلته الآن.

- عن جد؟

- أين وكيف؟ حددي المكان والزمان.

- بحضـور زوجـي أم فـي غيابـه؟ وترخي ضحكة مجلجلة وأحس أنها تسخر مني.

- أنـا ذاهبـة لخالـة مؤمنـة لأحدثهـا عن تميم الذي يعترض طريقي ما قولك؟

- وأنا ذاهب لزوجك لأقول له كفّ بلاء ضياء عني ما قولك؟

تضحك من جديد غير آبهة بمن يعبر ويرانا. ثم ترفع يدها بالسلامة:

- أودعناك يا خوّاف.

وتمضي في سبيلها تاركة إياي في حيرة وبلبال. لم أفهم الموقف من أساسـه إنما لو أنها سـايرتني فلن أتركها من يدي ثانية. أتذكر الآن جسدها الأبيض الحليبي وكل ما أباحته لي واشعر بنفسي متقداً إلا أن الليلة كانت تحمل لي في طياتها ما يستل مني ذاك العرام.

أطـرق بـاب سـمر الـذي أعرفـه فتفتح لي بنفسـها البـاب وتعانقني بحرارة:

- ألف مبروك يا تميم، عقبى لشهادة الجامعة، تفضل، تفضل. قل لي كيف حتى خطرت على بالك لتتصل بي؟ قل لي الصدق.

- الصـدق أنـي تذكـرت كلامـك عـن احتفـاء المرحـوم بولادتـي. فتخيلت أنه يحتفي بنجاحي. كان سيقيم احتفالين، الأول للأسرة والحي. والثاني ستكونين أنت فيه. عندها اتصلت بك.

- حسناً فعلت. الليلة ليلتك وسترى ما حضرت لك سمر. نادو.. يا نادو.

صرخت على إحداهن فأتت شابة تسعى راكضة.

- هل الجلسة جاهزة؟

- جاهزة وعلى الأربعة وعشرين.

- تعال.

قامـت فلحقـت بهـا إلـى صالة فسـيحة فيها أنـوار وألوان ولوحات داعـرة. وكان ثمـة طاولـة عليهـا زجاجـات مختلفـة وأخرى عليها كل ما

يخطر بالبال من مازة ومقبلات.

- اجلس في الصدر. لهجتها آمرة.

- حاضر.

وأجلس مترقباً.

- هذا البيت لك الليلة، ليس البيت فقط.... نادو.. أرسليهن.

وأتطلع لأرى، تدخل الغرفة ست فتيات في أحلى الثياب القصيرة والمغرية.

- اختر واحدة أو اثنتين أو إن شئت كلهن، أنت سيد البيت يا تميم.

- سيدة سمر.

- أرجوك.. أرجوك. اختر من تشاء وسأرحل مع الباقي. كرمى لي، دعني أفرح بأني أخدمك بشيء، ألم أقل لك أول مرة أنت هنا تأمر وتنهى... اقتربن منه ليختار.

صاحت بهن فأقبلن نحوي وكل واحدة تحاول اجتذابي بالنظرة والحركة وقررت أن أستبقي اثنتين. نانا وشوشو حين كانتا تأتيان إلي وإلى وليد كانتا أحياناً تنفردان بأحدنا، كان الأمر مثيراً، تأملت الفتيات الست اخترت سمراء غامقة فائرة الجسد، ثم اخترت صغيرة ربما لم تبلغ السادسة عشرة لم تكن تعرف كيف تعرض نفسها.

- سونيا، أمل بم أوصيكما، أريده أن يعيش ليلة لا ينساها، البقية هيا معي. بسرعة. تميم، لا ترد على الهاتف، الأحسن سحبه من الفيش سونيا. معك رقم البيت. إن أراد شيئاً اتصلي، تميم خذ راحتك. انبسط.

خرجت مع البقية وتركتنا، هدية سمر كانت ليلة حمراء صاخبة، رقص وشراب وطعام وفتاتان تحترفان إرضاء الزبائن فكيف إذا كانت معلمتهما قد تخلّت عن البيت لهذا الشاب الصغير. كانت ليلة حافلة وحين سأحدث وليد رماح عنها سوف يأخذ على خاطره بكل تأكيد، استيقظت عند الضحى بين جسدين دافئين، قمت لأرتدي ثيابي فاستيقظتا، مددت يدي بمبلغ كبير من المال فقالت السمراء: أتريد أن

تطردنا (الست)، نقودك يا سيدي غير مقبولة هنا. قلت لهما: أخبرا الست بأني شاكر وممتن وسوف أتصل بها.

التحقت بالجامعة غير عارف أن هذه الكلية وهذا القسم بالذات سيضم أحلى بنات الجامعة ووجدت نفسي مقصراً عن سوية العديد من الطلاب. إن نيل درجات عالية في الثانوية لا يعني أنك قادر على دراسة لغة شكسبير بسهولة واحتجت أن أحرز بسرعة تقدماً لا يجعلني في المؤخرة أو على الهامش. أخبرت العم راتب مأمون بمشكلتي ليفكر في حل مناسب، أدركت أنني ألجأ إليه باعتباره كان أقرب الناس إلى أبي. جاءت صداقته لتطغى على مودة الأخوة بين أبي وعمي سعيد. كان العم راتب شريك أبي في جلسات وأسرار ينفردان بها، وهو يشعر تجاهي بالتزام ورعاية يماثل ما أشعر تجاهه من احترام وإكبار. كان الحل سريعاً، بعد يومين ذهبت إليه لأجد في الانتظار معه الأستاذ (فرج الأسمر) ابن السادسة والعشرين مدرس اللغة الإنكليزية في إحدى ثانويات الريف. فرج يا تميم أول دفعته وكان المفروض أن يقبل معيداً في الكلية ثم يوفد للدراسات العليا لكنهم لم يأخذوه. لماذا؟ لأنه من رفاقنا بكل بساطة. وقد عينوه في ريف دمشق ليس في منطقته حيث سكنه وأهله وإنما في الاتجاه الآخر من الريف الواسع الممتد من قارة إلى سرغايا والغوطتين حتى البادية. المهم يا تميم أن الأستاذ فرج سيتابع معك خلال شهر ويتفرغ كامل منهاجك للفصل الثاني.

- ليس كله، هناك مواد يمكن أن يسير بها تميم وحده. قال فرج.
- فعلاً، إنما لنتفق على شيء يا عم راتب. أنا لن أتلقى دروساً دون أجر.
- فرج تطوع لذلك يا تميم.
- وأنا لن أتلقى درساً دون أجر وبشكل مسبق.
- حسناً، أعطه مائة ليرة. قال العم راتب.
- بل خمسمائة مقابل تدريس الشهر.

- هذا أكثر من راتبي.
- المفروض أن أعطيك راتب أربعة أشهر لأنك سوف تدرسني مواد فصل كامل.
- سيقبل يا تميم. ها قد جاءك حل مشكلة الغرفة من غامض علمه، فرجت يا فرج.
- متى نبدأ؟
- منذ الغد إن شئت. سأعطيك عنواني.
- مادمت قادراً على البقاء فيه الآن. اسمع مني وادفع ما يصلك من تميم سلفاً حتى لا تنفقه، إنه يعطي نصف راتبه لأبيه وما يبقى لا يكاد يكفي لأجرة غرفته المفروشة والتنقل والتدفئة وسندويشات الفلافل.

أمد يدي إلى جيبي وأخرج من حافظة نقودي خمسمائة ليرة، وأرى عيون العم راتب والأستاذ فرج تنشدان لما في الحافظة وأندم على هذه الحركة لولا سرور الأستاذ فرج الواضح حين أناوله الخمس ورقات:

- اليوم سأدفع أجرة ستة شهور وأنقل أغراضي إلى الغرفة الفارغة.
- واشتر كرسيين وطاولة صغيرة رجاءً.

يضحكان وأشعر بالسعادة لأنني حللت مشكلتي ومشكلة هذا الشاب، أما عنوانه فهو قريب من مستشفى المواساة في منطقة زقاق الصخر محاذياً لامتداد المدينة السكنية لطلاب الجامعة. علي أن أستقل باصاً لأصل إليه.

- لماذا لا يزورني الأستاذ فرج في بيتي؟
- لا.
- لا.

تخرج من الاثنين في وقت واحد، وأفهم مباشرةً أن ذلك بداعي الحرص على بيتنا لأن صوف فرج الأسمر أحمر شأنه شأن العم راتب. ولا أكتشف أن فرجاً مسيحي إلا حين أزوره في غرفته بغية الدرس وأشاهد صورة له مع أسرته يبدو فيها صدر والدته مزداناً بصليب ذهبي.

ويبدأ بامتحاني ليكتشف مكامن ضعفي ثم يضع برنامجاً للعمل يتطلب مني العمل معه كل يوم ثلاث ساعات. والعمل في البيت لأربع أو خمس كل يـوم. وتنفتـح أمامـي رويـداً رويـداً أبواب سـرية لمقاربـة لغة إليوت وبلنت وبايرون وشكسبير بالطبع. ووولتر سكوت الذي عشقت رواياته المترجمة في وقت من الأوقات. فوجئ الجميع بحاجتي للدروس. كانوا يظنون أني لا يشـق لي غبار في كل الميادين. وسـرعان ما بدأت أحس أني أتحسن وأني لم أعد ألهث خلف الآخرين في المضمار. صرت أجرأ وأنشط وباكتمال الشهر كنت جديراً بالانضمام إلى عشاق الإنكليزية من طلاب سنتي وطالباتها. وبالذات تلكم الطالبات. الطريف أني لم أنقطع عن زيارة فرج الأسمر. كانت مودة قد نشأت بيننا. فهذا الشاب الذكي اللمـاح قـدر أن يخلـق بيننـا تفاهمـاً سـريعاً من خـلال براعته فيما يفعل. وبالتأكيد كان من الكوادر النشيطة في حزبه لأني رأيت عدداً من الشبان يترددون عليه، كما كان يعتذر مني في بعض جلساتنا ويخرج معي من بيته لنستقل الباص أو التاكسي إلى حيث نفترق. وأنا الذي شدني فضولي حينها لأقرأ بعض الروايات المكدسة في زاوية غرفته بينما هو لم يعرض علي ذلك يومها رأيت رواية من جزءين بترجمة مصرية اسـمها (الربيع علـى ضفـاف الأودر) لكاتـب اسـمه كازاكفيتـش. وذكر أن الرواية حائزة على جائزة ستالين. قلّبت في صفحاتها ورأيت نفسي أعود لبدايتها لأقرأ عن لقاء ثانٍ منحته الأقدار لضابط استكشاف وطبيبة عسكرية حسناء إبان وطيس الحرب العالمية الثانية وتعجبني البداية.

- أستاذ فرج. هل تعيرني هذه الرواية؟
- على حسابك.

لقد كان يطالبني بعد انتهاء شهر التدريس أن أناديه باسمه المجرد فـرج، لكنـي لـم أفعـل وقـد دعوتـه علـى الغداء مرتين وقبـل بعد إلحاح شـديد أن يزور بيتي بعد شـهور من المعرفة. وجاء مسـاءً لينشـدّ مباشـرةً إلى المكتبة وينظر إلي بدهشة بعد أن استعرضها:

- كان حرياً بك أن تدرس الأدب العربي أو التاريخ.
- ما قولك في أن أقرأ بهما وأدرس الإنكليزية كما فعلت.
- سوف تكتشف يوماً ما أنك قادر على أن تقرأ مائة سنة دون توقف روايات بالإنكليزية وسوف تظل في البدايات.
- طبعاً لأنه أثناء المائة سنة سوف تتضاعف الكمية الأصلية.

ونضحك بتوائم، إنه قريب من القلب، وحين علمت أمي أن ضيفها كان مسيحياً بهتت فهذه أول مرة يحدث ذلك:

- ابني، هل يأكل مثلنا؟

وأغرق في ضحك صاخب، يا لهذا السؤال؟ بل يا للجهل المخيم، نحن نجهل بعضنا بعضاً، في الأصل حين علمت أمي أن لي صديقاً أرمنياً يدرس معنا أنا ووليد دهشت لأنه أرمني ولأنه يدرس، ولم تصدق أنه كان يتفوق علي أحياناً باللغة العرببية.

يومها قرأت الرواية في ليلة ونهارين. شدتني أحداثها العاطفية والعسكرية ولم أتذمر من كيل المديح لستالين والحزب الشيوعي السوفييتي. كان ذلك متوقعاً من قبلي. في صحفنا يكتب الشعراء البعثيون أو من ينافقون العهد ليصوروا العزة والجبروت والخير والمجد الذي وصلنا إليه ونحن إن لم نكن نراوح فإننا نتقهقر. والخلافات التي تحدثت والعم راتب عنها وصلت لاحقاً للعلن عندما ألغت القيادة العليا لحزب البعث قيادة سورية وغيروا الوزارة قبل نهاية السنة وفهمت من فرج أن الجناح اليميني المحافظ هو الذي سيطر الآن ولا أحد يدري ماذا سيحمل عام 66.

المفاجأة الكبيرة كانت حين فتحت باب البيت استجابةً لرنين الجرس فأجد ضياء في الباب ضياء نفسها. قالت بسرعة:

- أنا في زيارة أمي، سأبات عندها، أمي تنام من التاسعة، عند العاشرة بمجرد أن ترى الزقاق مقفراً ادفع الباب وادخل. فهمت.
- فهمت، ادخلي.

- لا، رأيت أمك تدخل دار عمك فجئت.
- الهاتف أسهل.
- الليلة آخذه منك.
- اسمعي عندي، أعني عند صديقي شقة....
- فيما بعد، فيما بعد.

أغلقت الباب ورحلت مسرعة وتركتني لا أعرف كيف أحرق الساعات والنار تتأجج في داخلي تشوّقاً وانتظاراً، تخيلت كيف سوف نتسلل الى غرفتها وكيف سأعتذر بكل الوسائل لذاك الذي لم يعجبني شكله وعند الساعة العاشرة تسللت إلى باب بيتهم وحاولت دفعه باعتباره مفتوحاً.

- هل أجمع عليك الناس في هذا الليل وأقول إنه يحاول اقتحام البيت؟

وأسرع راكضاً تجاه بيتنا ولا ألحق أن أتمالك أنفاسي وقلبي يخفق بعنف خوفاً من الفضيحة الممكنة حتى يرن الهاتف وأسرع إليه حتى لا تستيقظ أمي وأنا أدرك سلفاً أنها النمشاء ولا أحد سواها:

- ألو.
- لماذا تفعلين ما تفعلينه؟
- إياك أن تتذمر يا خوّاف يا جبان يا دون.. وتضحك بسرور الظافر.
- ضياء. أقسم لك إن........
- لا تقسم، أنا أعرفك عن ظهر قلب، حفيت قدماك حتى سمحت لك بالقبلة ثم بملامسة صدري، وحين أطاوعك وآتي إلى غرفتك وأتركك تنزع عني ثيابي تشمئز يا (ابن مؤمنة) إن لي عندك ثأراً قديماً ولابد أن أثأر.
- ألا تحبين أن تعرفي.
- ماذا؟
- ماذا جرى حقيقةً؟

- أعرف.
- ماذا تعرفين؟
- أعرف وكفى.
- هل تصدقين؟ تلك أول مرة أرى. وما رأيت كان مختلفاً عما توقعت.
- أنت (مدحوش) بين بنات عمك منذ الطفولة وأول مرة تلمح! لا أصدق.
- أقسم لك بتربة أبي.
- تميم. (تشهق) أأنت صادق.
- أقسمت لك.
- ولم تر ما تتوقع، ماذا كنت تتوقع؟
- لا أعرف، فاجأني ما رأيت. إنما، هل تحبين أن تسمعي؟
- ماذا؟
- كلما تذكرت أو تخيلت بياض جسدك ونعومته ألطم نفسي.
تضحك هذه المرة بسرور وانشراح.
- تميم، الطم حتى يوم القيامة، راحت عليك، ما فات فات ولن يعود.
- دعينا نجرب.
- أنا أمازحك يا تميم. أتسلى لا أكثر، عندي ظفر (برهان) بالدنيا كلها.
- من برهان؟
- زوجي يا بليد، انتهى يا تميم. ما عاد لي ثأر عندك. اشتفيت الآن.
- ضياء.
- ماذا؟
- فعلاً راحت علي، وخسارتي لا تقدر، الله يهنئه بك.
- تسلم يا حق. تميم، لا تدع مسرة تفلت من يدك، مسرة ستسرك.

ولا تزعل مني، لولا المودة ما كنت أناكدك هكذا. أنا أفعل بطيبة قلب.

- وسيظل لك مكان في قلبي. مع السلامة.

يا إلهي، لاتزال ضياء نمشاء وماكرة ولعوباً لكنها هانئة بحياتها وسعيدة مع زوجها كما يبدو. على عكس سليمة التي جاءت وجلست مطولاً مع أم تميم ثم خرجت متراقصة نهار آخر أيام السنة.

- ما بها سليمة؟

- سأخبرك فيما بعد. أنا ذاهبة الآن لزيارة آسيا. سنجهز لسهرة الليلة.

- لم أشعر أن بالرز بصلاً؟ وتضحك مؤمنة.

- لأن حاسة ذوقك مفقودة يا عين أمك.

وتطبخ أمي وآسيا زواج سليمة. في هذه الزيارة السريعة عرج رضوان الأشقر وشقيقه على بيت رضوان،وحيّا الشقيق الخالة أم تميم التي سمعته وتفحصته ثم غادر بعد فنجان قهوة. آسيا أرادت أن تسمع من أمي رأياً لكنها لم تتلق جواباً، وعرفت فيما بعد أن مؤمنة اختلت بسليمة وأمها رضية والابنة الكبرى معزز وكان رأي أمي إيجابياً بالعريس مما أشاع البهجة في النفوس. وفاتحت رضية عمي سعيداً الذي فوجئ تماماً لأنه كبقية الرجال لا يشعرون إلا والمياه تجري تحت أقدامهم. فالطبخة تجهزها النساء وهم يأكلون منها على السبحانية، أمي مؤمنة اعتبرت آسيا من طرف العريس لذلك لم تعطها رأياً فيه قبل حديثها مع رضية وبنتيها، مسرة الصغيرة مستبعدة تماماً من مشاورات كهذه لكن شيئاً لا يخفى على مسرة. هكذا أثبتت الأحداث والأيام.

كانت سهرة رأس السنة بين شقة المهندس وليد كما يدعوه ذووه وبين بيت سمر، اتصلت بالبيت وأغلقت مرتين في وجه مؤمنة وحين أجبت أنا اعتذرت مما فعلته ودعتني لأحتل بيتها من جديد واعدة إياي بفتاة لم تسلمها بعد لأي زبون، كان ذلك مغرياً. عند وليد لن يكون هناك أكثر من نانا وشوشو إن حصلنا عليهما، زحلقت وليداً، ولكني

زعمت لأمي مؤمنة أني سوف أسهر عنده. كان التزامي تجاهها قد انتهى بحصولي على الثانوية ودخولي الجامعة. كادت تنطق معترضة ثم تراجعت، عانقتني وقالت انتبه لنفسك، وعند العاشرة أوصلتني التاكسي وأنا أحمل عدة علب حلوى وزجاجتي ويسكي وعلبة بارفان فاخرة، عانقتني سمر ثم عبست في وجهي، شدتني من يدي.

- تعال انظر، انظر.

كانت المائدة تكفي لعشرين شخصاً وما فيها إلا مقعدان فقط. واحد لي والآخر للفتاة الموعودة.

- هل تستكثرين علي ألا آتي ويدي فارغة؟ أنا لا أستطيع.

تتنهد سمر بعمق ثم تهز رأسها بابتسامة حزينة:

- أبوك رحمه الله ما كان يرد علي أيضاً، يشتري لي الذهب والعطور ويترك لي النقود، والذي خلّف يا تميم ما مات. هداياك مقبولة، اجلس، اجلس. سأعود بعد دقائق.

غابت تاركة إياي أتأمل المائدة والجلسة. عادت بعد دقيقتين وجلست في مواجهتي.

- تميم، سوف ترى سوسو بعد قليل، اسمها سلمى، أبوها مسجون لعشرين سنة إثر شجار مع شريكه في بيع الحشيش أدى إلى عطب الآخر. أمها أنفقت مال الأب في تعاطي الحشيش وشراء العشاق الذين حاولوا دائماً مغافلة الأم لاقتناص البنت. أمها ادخرتها حتى أبرمت صفقة تلائمها. سلمتها لبائع الحشيش الكهل العنّين مقابل ربطة، تفقد البنت بكارتها لقاء نصف كيلو.... (تتنهد) أنا فقدتها من أجل كنزة زرقاء. المهم ظلت عند الرجل أسبوعاً ذاقت فيه المر. وعوضاً عن العودة إلى أمها لجأت لبيت عمها فطردوها. جارة بيت العم تتردد علي كلما احتاجت مالاً، جلبتها قبل أيام. نظفتها واعتنيت بها وأخبرتها أني سأقدمها لشاب صغير وأن كل ما أنفقته عليها هو ثمن لهذه الليلة فقط. ما رأيك؟

- كيف أشكرك.

- بأن لا تنقطع عني. ألن تصدق أنك عندي أمير.

- كيف لا وأنت وفية هكذا. وأقوالك أفعال.

- سلمك الله ومتعك بشبابك، أنا ذاهبة. سأرسل سوسو إليك.

غادرت وأرسلت سوسو إلي، وهذه اقتربت مني كما لو أني ملك يتعطف على جاريته. سمر هذه تساوي ثقلها ياقوتاً.

- حديثني عما فعل بك تاجر الحشيش يا سوسو.

يكفهر وجهها وتنكمش خائفة:

- لا.. أقبل يديك وقدميك لا تطلب مني ذلك.

- هل آذاك كثيراً؟

- كثيراً. كلما حاول ولم..... كان... كان يشدني من شعري وو....

تسيل دموعها، ثم أراها تغتصب ابتسامة وتهمس:

- أنا.... أنا.. لازلت، أعني.. كما أنا.

وأكاد أمتنع عنها متعففاً، لكني أعرف أنه إن لم يكن تميم منصور فسوف يكون سواي، وأتذكر ضياء، وأرى أمامي فتاة صغيرة لا تبلغ الثامنة عشرة جعلتها سمر ترتدي ثوباً شفافاً ليس تحته إلا العري السافر.. وأقرر أن أستميلها كما استملت نانا من قبل. أريدها أن تعطيني نفسها راضية، فأجعلها تشرب شيئاً من النبيذ الخفيف (روزيه) ثم نتعابث ونتبادل القبل لأجد أنها لا تعرف عن هذا الفن النبيل شيئاً وأدللها بالطعام من يدي وتتخلص من حرجها وتحفظها رويداً رويداً وأكرس كل اللطف والمعابثة المكتسبة من عشرة العواهر حتى تتفتح سوسو كالوردة وتقبل علي وقد أحست بحميّا النبيذ والإثارة فتمنحني نفسها راغبة مندفعة متألمة. ونبقى سوياً حتى عصر اليوم الأول من السنة وعلى الهاتف تعرض علي سمر أن أبقى قدر ما أشاء وتدهش حين أخبرها بماجرى وتبارك لي بأول عذراء وتتمنى ضاحكة لي العشرات. ولولا أن أم تميم ستقلق كثيراً لمكثت مع الفتاة أسبوعاً وأكثر.

مجدداً نجحت في جميع المواد وبمعدل جيد، وليد رسب

باثنتين، دعوت العم راتب وفرج الأسمر إلى عشاء فاخر في مطعم الريّس (النورماندي) سابقاً، ولا أعرف كيف جرنا الحديث إلى أدب الحرب السوفييتي. كنت قد قرأت مصير إنسان لمكسيم غوركي وقرأت عن حرب الأنصار وعن قصة رجل حقيقي الواقعية وأشياء عديدة من مكتبة فرج، تطرق الحديث إلى أدب الثورة هناك وحروب التدخل في الحرب الأهلية. قال العم راتب إن عنده رواية هامة لألكسي تولستوي. صححت له قائلاً: ليو أو ليف تولستوي. فتبادلا نظرة وضحكا وأفهمني أن تولستوي الحرب والسلام غير ألكسي تولستوي وروايته درب الآلام إضافةً إلى رواية شولوخوف الدون الهادئ هما من أهم الأعمال الأدبية حول حقبة العشرينات وبالطبع كان لابد لي من قراءة الروايتين. بدأت أحياناً أناقش الأمور بمنطق لم يكن بعيداً عن منطقهم. لقد تم اجتذابي كما أحسست فيما بعد بأمرين بل بثلاثة. بالمودة وبالصدق وأيضاً بالأدب، مرت علي الأيام سريعاً بين دراسة ولهو ومطالعة، ولم يطل الأمر حتى سمعنا إطلاق النار في قصر الروضة وما حوله. كانت حركة 23 شباط مفصلاً رئيساً في حياة حزب البعث إذ تم الفرز نهائياً. أناس منهم مع القيادة التاريخية ومع الشرعية كما يقولون، وأناس مع النهج الاشتراكي وضد المواقف اليمينية والمميّعة لنضال الجماهير كما يقولون هم أيضاً، عاد العسكر إلى الحكم مرة أخرى بقوة السلاح رغم الادعاء بأن قواعد الحزب قالت كذا أو فعلت كذا. القوة تتحرك ثم تجد لها على الأرض أنصاراً. الشق هذه المرة كان عمودياً فعلاً. ليس جماعة تبتعد مثل خروج الحوراني على حزب البعث بمجموعته، بل انقسام عمودي إلى تنظيمين يتناحران وكل منهما ينفي عن الآخر صفة تمثيل القواعد الحزبية، وكل منهما له منظّروه وبياناته وأفكاره. لكن اللافت للنظر أن الشائعات شملت البلد وتتحدث عن وزير شيوعي في وزارة الدكتور زعين التي شكلت أوائل آذار. وعندما سألت فرج الأسمر قال باعتزاز نعم: وزير المواصلات نحن رشحناه وهو رفيق لنا. سألته كيف

تتعاونون مع البعث بعدما جرى في العراق إثر الإطاحة بعبد الكريم قاسم من تنكيل شديد برفاقكم؟ قال: هذه مجموعة تقول نحن مع لقاء القوى الثورية والتقدمية في وجه الاستعمار والرجعية وتعرض علينا المشاركة في تحمل المسؤولية، تتحدث عن تبني الاشتراكية العلمية نهجاً وتريد تمتين العلاقة مع دول المعسكر الاشتراكي ودول عدم الانحياز فماذا برأيك الجواب الأفضل عليهم يا تميم؟ قلت: التعاون والحذر. ضحك بسرور وقال: نعم. هو كذلك.

جاءني اتصال من سمر. قالت لي: اسأل عن سلمى ولو بالهاتف، ألا تعلم أن الذي يملك عذرية الفتاة إما أن تذكره بالمرارة والنقمة كما حدث معي وإما بالمودة والسرور كما هي حال سلمى معك. اسمع، ألا تستطيع ادعاء السفر أو أي شيء يجعلك تغيب عدة أيام؟ قلت: ربما. سأحاول. قالت: عندما ترتب أمورك اتصل بي لأرتب لك أموري. كنت مشغولاً بتعلم قيادة السيارات. سائق تاكسي كل يوم يأخذني صباحاً ليدربني مدة ساعة وخلال أسبوعين كنت جاهزاً لامتحان القيادة. حين سمع رضوان قال لي: اذهب للفحص ولا تهتم رئيس اللجنة صديقي من الثانوية ستنجح ولو صدمت السيارة بمعاونه شخصياً. لم أصدم أحداً إنما مخروطاً واحداً ولكني نجحت وبات علي أن أشتري سيارة. جعلت - وليداً الذي لم يعجبه حالي - جعلته يتصل ليسأل عني أم تميم ذاكراً أن عمه سيصحبه إلى حلب لشراء سيارة وهو يريد أن أسافر معه لأن السيارات هناك أحلى وأرخص. انطلت الحيلة على أم تميم واشترطت ألا أشتري وإن اشتريت ألا أقود السيارة. هاتفت سمر وتواعدنا على الغد (يوم السفر) ودعتني أمي بالعناق وأوصت وليدا الذي حضر ليصحبني بطعامي ونومي وجعلته يقسم ألا أقود السيارة. وعلى الطريق إلى عين الكرش يحاول أن يستنطقني فأهرب منه للحديث عن جارة متزوجة سوف يجتمع شملي بها فيهنئني على صيدي ويودعني. تستقبلني سلمى بالعناق والعتاب ونقضي سوياً هذه المرة ثلاثة أيام أعود بعدها خائباً أمام

الأسرة لأني لم أشتر سيارة. ويحدثونني عن قراءة فاتحة سليمة الوشيكة. وأسأل وأستفسر حتى تعترف لي أم تميم بكل شيء وبشكوكها حول كون آسيا غير بعيدة حتى عن طلاق سليمة. وأفرح لسليمة لأني أراها أخيراً تضحك من قلبها ورضوان عند المساء يلكزني بكوعه متسائلاً عن سفرتي القيمة إلى حلب كأن دمشق تخلو من السيارات وأغمزه ليسكت فيقول لي بمودة: مادمت عازباً، حلال عليك. أما عن السيارة فطلبك موجود. مرسيدس 190 كحلية يريد قائد كتيبتي بيعها لأنه بصدد التسجيل على بيت في جمعية سكنية وبالفعل تعجبني السيارة وأشتريها وتركب أم تميم معي وقلبها في يدها لكن عمي سعيداً الجالس بجانبي يثني على هدوئي وحسن قيادتي. وألمح في المرآة مسرة الجالسة بين أمي وأمها وقد غدا وجهها أصفر كالشمع وهي مغمضة عينيها تقرأ من الآيات ما يحفظنا من كل شر. وأقرر أن أشجع عمي ليشتري سيارة كبيرة، تتسع للعائلة لكنه يحتج بأن سيره من البيت إلى الدكان والعكس ينشطه كل يوم. وأن التاكسي متوفرة عندما يريد. عمي لا يحب التغيير أو تبديل الحال وأنا أفكر بذلك. وجود السيارة جعلني أفتقد الشارع العريض الذي يركن فيه المرء سيارته أمام بنايته. في زقاقنا الضيق لا فسحة لركن السيارة لأنها ستقطع الطريق. وأنا أريد شقة نوافذها مشرعة للخارج وليس للداخل. باختصار أميل لشقة في بناء طابقي حديث أكثر من ميلي للبقاء في بيتنا. ورغم يقيني بأن مؤمنة لن ترضى بذلك، لكنها من أجلي مستعدة للانتقال إلى بلاد واق الواق. وتركت هذا المشروع لوقتٍ آخر.

الحاكمون الجدد من البعثيين بعد أن أطاحوا بالقيادة (اليمينية) كما سمّوها أخذوا يسبغون على إعلامهم وسلوكهم مظهراً يسارياً. فأعلوا من شأن ما دعوه المنطلقات النظرية وساروا في خط جديد ينادي بلقاء القوى التقدمية والثورية في سورية ومصر والجزائر واليمن. وتوصلوا إلى كسر الجليد مع القاهرة بعد قطيعة ابتدأت من محاولة الناصريين الانقلاب في

تموز عام 1963 وتكرس الاتجاه الجديد بتوقيع اتفاق بناء سد على نهر الفرات مع الاتحاد السوفييتي. لكن تمرداً قاده سليم حاطوم بالاتفاق مع عسكر القيادة السابقة كاد يفتك بالقيادة الجديدة لولا أنه فشل، وقامت إسرائيل باعتداءات على الجبهة السورية أدت إلى توقيع اتفاقية دفاع مشترك بين القاهرة ودمشق، وكان هذا الحراك كله مريحاً بعض الشيء لكن المرء يحس أن ثمة نقصاً وقصوراً، وأن الأمور ليست كما تبدو، أو على الأقل ليست بالبريق الذي تنشره وسائل الإعلام.

تزوجت سليمة بعد أسبوع من سماعنا بزواج طليقها مصطفى. أم مصطفى جاءت وزارت مؤمنة وأخبرتها بأن السبب في افتراق ولدها وسليمة هو أنهما عنيدان ومدللان وكل منهما من جماعة (يا أرض اشتدي لا أحد قدّي) وأقسمت لأمي أنها لا تزال تحب سليمة رغم كل ما جرى لكن النصيب غلاب. ورجتها أمي ألا تسمح بتشويه سليمة أمام أولادها وأن يحافظوا على وعد الوالد بشأن الزيارة إلى بيت جدهم سعيد. المهم أن زواج سليمة رسم الفرحة على وجه رضية زوجة عمي، لكن مسرة كانت بادية الفرحة والسرور.

كان العرس عرس نساء وقد رأيت مسرة حين قاست ثوبها للعرس، كانت سليمة حينها في صالون الحلاقة مع آسيا. مسرة لم تذهب معهما قائلة إن شعرها لا يحتاج لتسريحة. أمي وزوجة عمي لم أدر لماذا ألحتا على مسرة لتقيس ثوبها حتى رأيتها فيه، ثوب فضي طويل عاري الذراعين بشيالين ونصف أعلى شبه مكشوف من حفرة الإبط حتى نصف النهد ونصف الظهر. دارت به أمامنا بين بسم الله وما شاء الله واللهم صل على سيدنا محمد ثم تحوطها أمي وتقبلها من خديها. وأفهم أن هذا العرض المرتجل كان لي أنا. ولا أنكر أنها بدت وردة يانعة لكني عنها في شاغل آخر فأنا الآن مشغوف بآنسة اسمها مائسة حلّت في السنة الأولى من الأدب الفرنسي، سمراء ممشوقة. رقيقة وديعة، خضراء العينين،في وجهها طفولة وفي نظرتها دهشة دائمة سرعان ما تنقلب إلى خجل لا

يخلو من غنج فطري غير مقصود. أمي صباح اليوم الثاني لعرس سليمة تابعت السيناريو المرسوم فحدثتني عن مسرة ونساء العرس، فقد رقصت أمام شقيقتها فتحولت الحاضرات إلى جمهور لها يصفق ويطلق الآهات. وأكثر من عشر سيدات أردن أخذ مواعيد لزيارة بيت عمي سعيد. وتختم أمي بالقول: ربما لن تنتظر رضية حتى تأخذ مسرة البكالوريا ربما تزوجها قبل ذلك إن جاءها خاطب يعجبها. ولا أعلق لأني كما ذكرت مشغول بالآنسة مائسة.

أدرك الآن أنـي بأفـكاري قـد عـدت كل تلـك السـنين إلـى الخلف متذكـراً أو متحسـراً لكـن الهـمّ الكبيـر لـم يكن قد جـاء بعد، الحياة تمر على واحد مثلي عارضة له جانبها البراق معظم الوقت، فباستثناء فقد أبي وهو مأسـاتي الدائمة فإن الأيام لم تختبرني، إلا بما هو مشـرق وبهيج. وأنـا الآن أقـرأ بالإنكليزيـة كل مـا يصـل إلى يـدي من روايات وصحف ومجلات، وأغرق في مسرح شكسبير تدرسنا إياه الدكتورة هناء ويطلب مني أن أقوم بدور عطيل ونجتمع سـوية لنتدرب، ولا تمانع (ديدمونة) ببعـض الملامسـات المنهوبـة لكـن عينـي علـى أخرى هـي الملقنة التي ترفضني بشـكل مهين. سـبق للآنسـة مائسـة أن تقبلت إعجابي وإلحاحي حتى أوقفت السيارة داعياً إياها للصعود معي. ركبت وطلبت أن أوصلها إلى ساحة عرنوس ففعلت.

- شكراً يا أستاذ تميم.
- العفو يا آنسة مائسة، ألن نرفع هذه التكليف بيننا؟
- لا أظن.
- لماذا؟
- لأنـك لـو انتبهـت جيـداً لرأيت أننـي عاملتك بزمالة حقيقة طيلة الوقت وتغاضيت عن تلميحاتك وإشاراتك مطولاً حتى وصل بك الأمر لاعتراضي بالسيارة. عندي لك سؤال يا أستاذ تميم.

كنت في الحقيقة قد انكمشت في ثيابي.

- تفضلي.

- أنت حسن المنظر والشكل، متفوق كما سمعت، رياضي، وغني ميسور وعندك هذه السيارة، ألم تسأل نفسك لماذا تتجاهلني مائسة؟

- كثيراً.

- وبم أجبت نفسك؟

- بأنك غير مهتمة.

- والسبب؟

- لم أنجح في التخمين.

- ألم يخطر ببالك أنني مقبولة الشكل ويمكن أن يعجب بي آخرون.

- أنا متأكد يا آنسة من أنك تعلمين بكونك حسناء بكل معنى الكلمة، هل هناك من غرض لكل هذه الأسئلة؟

- طبعاً، مادمت كما تقول حسناء وأنا شاكرة لك هذا الإطراء ألم يخطر لك أيضاً أنني رأيت من يعجب بي وأعجبت به، صحيح أنه لا يتردد على الجامعة لأنه تخرج قبل سنوات، وصحيح أنني كنت معك ومع سواك مهذبة كزميلة ولم أشجع أحداً إطلاقاً على ملاحقتي أو الاهتمام بي لكن ذكياً مثلك كان عليه أن يخمّن ارتباطي إلا إذا كان غرور أحدكم يزيّن له أنه وحيد عصره.

أتخيل أن وجهي قد غدا بلون (قفا السعدان) وأن إحساساً بالخزي قد تلبسني فعجزت عن الكلام. فتحت مائسة الباب ونزلت. تمالكت نفسي.

- آنسة مائسة، أنا آسف من كل قلبي. وأنا أستحق توبيخك. أعتذر منك، ولن أثقل عليك ثانيةً.

- عذرك مقبول، لأنك مهذب و(مُرَبّى) ركبت معك وقررت أن أقسو عليك، أنت لم تتجاوز معي حدودك إلا اليوم فرأيت أن أحسم الأمور. أوريفوار.

- باي باي.

من قال إن فتياتنا قليلات أو قصيرات حربة! جعلتني مائسة أذوب بثيابي وحولت اعتزازي إلى إحساس بالخزي والهوان. ضياء التي لقنتني درساً تشفياً مما وقع وأنا حدث يافع. ومائسة التي صفعتني هذه الصفعة بلطفها ورقتها اللذين لم يحجبا قسوة التأنيب. كل منهما أشعرتني أن ثمة ما هو أكثر من رصيد يربو وسلمى ونانا تعطيان وحياة رخية تنقضي. غرقت في الدراسة وكان علي الآن واجب اصطحاب مسرة إلى الجامعة عندما يتوافق التوقيت، مسرة التي كانت تريد أن تصبح عالمة رياضيات رضخت لرغبة أمها ودخلت كلية الطب، أرادت زوجة عمي أن تكون ابنتها دكتورة، ترددت مسرة في البداية ثم استشارتني:

- لماذا الرياضيات يا مسرة؟

- لأني أحبها يا تميم.

- أنا أحب الأدب العربي والتاريخ. لازلت أقرأ ولكني أدرس اللغة الإنكليزية.

- الحال مختلف هنا.

- إلى أين تقودك الرياضات؟

- إلى راحة فكرية.

- تستمر حتى عدة سنوات وبعدها تنقطعين عنها وعن الجديد فيها. أما في حالة الإنكليزي فهذا بحر لا ينضب.

- والطب؟

- اسمعي. هل تخططين لتدريس الرياضيات؟

- أعوذ بالله. أنا أدخل صفاً من البنات المتشيطنات؟ لا والله.

- كطبيبة تستطيعين التعاقد مع مستشفى أو فتح عيادة إذا لم تشائي العمل تحت إمرة أحد.

- وأنت ماذا ستفعل. هل ستنزل إلى الدكان؟

- لا... ربما أسست مكتبة أو دار نشر. هذا أشبه بي.

- أريد أن أسمع منك رأياً واضحاً: هل تشجعني على دراسة الطب؟

- إن أنت رغبت فقط.

وهاهي قد رغبت وسمعت أنها كاد يغمى عليها في درس التشريح. وكما فهمت من أمي مؤمنة لقد غدت مسرة قبلة أنظار الطلاب الكبار وحتى بعض صغار الدكاترة من الأساتذة. وكنت أرى النظرات إليها وهي بجانبي تكاد تجردها من ثيابها. أحياناً كان يضايقني ذلك. فهي ابنة عمي الصغيرة ولا أحب أن تكون وسط هذه العيون القارضة.

ثمة أحداث تتسارع ونحن نتحضر للامتحان، إسرائيل تعتدي علينا ونحن نحشد مهددين بالاقتصاص من (دويلة الكيان الصهيوني المسخ) ثم يبدأ إعلامنا بالمزايدة على مصر وعبد الناصر وتتسارع الأحداث أكثر، من انسحاب قوات الطوارئ من قطاع غزة وتقدم الجيش المصري إلى مواقع جديدة، ثم يتم إغلاق مضائق تيران في وجه سفن العدو وتصل إلى مصر وحدات رمزية من الكويت والجزائر والسودان، حتى الأردن يصلها مدد سعودي كما يطير ملكها إلى القاهرة ليوقع مع الرئيس عبد الناصر معاهدة دفاع مشترك تضع جيش الأردن كما جيش سورية تحت قيادة الفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان المصري، ويصل التأهب الشعبي والعسكري إلى الذرو ة فهذه هي المرة الأولى منذ عام 1948 التي تحشد فيها الأمة العربية قواها وتطوق دويلة الصهاينة وأحس أني أريد أن أفعل شيئاً لأشارك فيما يجري. أتذكر أن أبي رحمه الله حمل بندقيته واتجه إلى فلسطين منضوياً تحت لواء جيش الإنقاذ ليحارب عصابات الصهاينة. وأتمنى الآن لو أني ضابط في دبابة أو طيار في طائرة مقاتلة. نحن في خضم الامتحان ونظن أننا في كل الأهبة، أحاديث البعثيين تتشدق متفاخرة بأنهم قد سحبوا عبد الناصر إلى حيث يريدون، الناصريون بدورهم يرون أن زعامة عبد الناصر قد تكرست بإجراءاته الثورية، التقيت بالعم راتب والعم صالح نعمان الذي كانت حماسته

معدية فعلاً مجبراً إيانا على تخيل فلسطين المتحررة من الصهاينة وشرقي الأردن المتخلص من حكم الهاشميين وقد ضمهما كيان واحد يرتبط أو لا يرتبط بسورية (الثورة) ثم يبدأ المد الثوري ليشمل الأمة كلها من المحيط إلى الخليج. إنه حلم وردي، قال له العم راتب: دعونا الآن ننزل إلى أرض الواقع. ماذا ترى أنت يا تميم؟ قلت: أرى حشداً وقوة لم أسمع عنهما من قبل. قال: عليكم أن تعرفوا أن انتصار سورية في معركة حقوقنا من عائدات البترول كان أمراً جرى على الرغم من الإمبريالية والرجعية العربية. والعلاقة الوطيدة مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية والمشاريع المشتركة، وكذلك نجاح الحاكمين في سورية بإخراج فكرة لقاء القوى التقدمية إلى حيز الواقع، قاطعه صالح نعمان: وإشراك وزير شيوعي في الحكم للمرة الأولى في هذه المنطقة. وما يروج له الغرب وأمريكا من أن سورية قد غدت كوبا الشرق الأوسط. كل هذا يشكل عوامل حذر. أليس هذا ما تريد قوله؟ قال العم راتب: بالفعل، إننا في سورية الآن مستهدفون. قال صالح نعمان: اطمئن، أحد رفاقنا العسكريين أسرّ لي بأن ست ساعات ستكفي جيشنا العقائدي ليصل إلى تل أبيب.

ونحن في قاعة الامتحان سمعنا الانفجارات واهتزت القاعة من جراء القصف، لقد بدأت الحرب ونحن على أبواب معركة أردناها وسعينا إليها لننهي وجود الكيان الغاصب وما درينا إلا متأخرين بأننا قد انسقنا جميعاً لنقع في فخ إسرائيلي - أمريكي ينتهي بنا إلى خسارة الجولان وقناة السويس عدا عن سيناء والضفة الغربية كلها. لقد هزمنا هزيمة يجب أن تشكل انتقاصاً في كرامة كل عربي على مرّ الأيام. هزيمة للآمال العريضة التي طالما قفزت فوق وجود الكيان الغاصب الذي سوف يزول بمجرد استجماع الإرادة وتوحيد الهدف، لم يكن أحد من جيلي أو جيل أبي وما بينهما يظن أننا سوف نهزم نتيجة ضعفنا أكثر مما هو نتيجة قوة العدو، العنتريات الحماسية جعلت أمريكا ترتعد

فرائصها من جيشنا العقائدي وما ابتدأ في فيتنام سنكمل مساره هنا حيث مقبرة الإمبريالية والصهيونية، يا لتلك الخيبة! يا لذلك الانكفاء! يا لذلك الصّغار الذي سربلنا وعشش في نفوسنا ولازال. تلك الهزيمة التي لم تكن فادحة بحساب الدماء أي الشهداء والجرحى أو بحساب العتاد البري والجوي. وكانت أكثر من فادحة، كانت قاصمة ومذلة ومهينة بحساب الآمال والإرادة. أذكر أني بعد وقف إطلاق النار أغلقت باب غرفتي علي ووقفت أمام صورة أبي ضئيلاً مجللاً بالخزي ولم أقدر على مواجهته، انسحبت إلى فراشي وبكيت بحرقة وغصص متلاحقة كما يبكي طفل تم إذلاله مطولاً أمام رفاقه وأقرانه. كان ما جرى في حزيران من عام 67 هزيمة شخصية لي رغم أني لم أمسك سلاحاً ولم أهدد أحداً، لقد رفعنا كلام المهولين والمتشدقين من عشاق الويسكي الصغيرين إلى ذروة الأحلام الحماسية ليصدمنا واقع أرض المهانة القاسي الذي تحطمت عليه آمال جيل بكامله. اعتذرت باسم الجيل الذي لا أفخر أني منه لأبي. هو ورفاقه حملوا السلاح وقاتلوا وهزمتهم القيادات المبعثرة. فما بال جيلنا يهزم وقياداته موحدة! نحن. نحن انهزمنا أكثر مما هزمونا بقواهم ودعم الأمريكان لهم.

كان علي التغلب على المرارة والشعور بالهوان، لم أجد وسيلة للعزاء الذاتي إلا الهروب على جناح الخمر أو (تبطّن كاعب ذات خلخال) وأين هذا ممكن؟ في شقة وليد أو في بيت سمر، آثرت أن أتصل بها. وبمجرد سماعها صوتي عرفت أني حزين. قالت: تعال يا تميم. ألم أخبرك منذ البداية باستعدادي لتفريج همك. ذهبت إليها كانت سلمى قد سبقتني. شهقت، ظنتني مريض الجسم وأسرعت تضمني إليها، سمر فهمت سر ما بي دون حاجة للكلام، أسرعت لتضع شريطاً فتصدح موسيقى عبد الوهاب في أنت عمري. صبت لي ولنفسها ولسلمى وشربنا الكؤوس دفعة واحدة، أترعت لي كأساً ثانية ثم سحبت سلمى وقامتا معاً ترقصان، كانت سمر بارعة إلى حد أن سلمى انسحبت وجلست

ملتصقة بي تطوقني من الخلف وتحيط جسمي بساقيها. رقصت سمر باستغراق وانسجام وللمرة الأولى رأيت فيها المرأة. أجل لابد أن عبد المالك منصور قد نعم بها كما أفعل أنا مع سلمى التي تعابثني بما تعلم أنه يستفز عرامي. ألتفت إليها مستجيباً للدغدغة ضاحكاً، مهاجماً حيث أعرف أنه يقدح زنادها، وقبل أن ألتفت أسمع إغلاق الباب بهدوء. انسحبت سمر من الصالون ثم من البيت كله لتتركني فريسة مستمتعة بما تفعله بها هذه الصائدة العروب.

كنت محتاجاً لهذه المحطة كي أتكئ عليها وأستأنف حياتي مقصياً عني وعن ساحة ذهني وذاكرتي كابوس حزيران النازف، الامتحان ثم النجاح وبعده الوقوف بعيداً عن كل الصخب الدائر، إزالة آثار العدوان وحرب الاستنزاف وهزيمة المشروع الأمريكي - الصهيوني المزعومة لأن الأنظمة (التقدمية) لم تسقط. كل ذلك علي الابتعاد عنه لأكسب نفسي. علي الآن أن أبدأ بالسؤال المهم: ماذا بعد؟ حسناً عندي من الدخل السنوي كربح من الدكان والمخازن التي تتسع مبلغ لا أستطيع إنفاقه، وعندي حصة من المزرعة والمعصرة ومعمل قمر الدين، وعندي شقة العمارة. ما يعني كل ما ورثته عن المرحومين أبي وجدي. وأنا؟ ماذا سأفعل بعد انتهاء الدراسة؟ لن أغدو أستاذاً في إحدى الثانويات. ولن ألازم دكان العائلة فما الذي سأفعله. حديثي السابق مع مسرة أوصلني لأن أقترح على نفسي أمامها موضوع فتح مكتبة كبيرة أو دار نشر. لا أدري إن كانوا يرخصون هذه الأيام لدور النشر. ثم ما هي خبرتي لأكون قادراً على ذلك. أنا مجرد رأسمالي صغير يريد أن يستثمر الفائض لديه وأنا حائر فعلاً بما ستكون مهنتي. لا أتصور أن يقال عني: الله منعم عليه، ورث عن أبيه ولا يحتاج لعناء كسب الرزق. هذا لا يناسبني، وليد رماح سيكون مهندساً. أهله سوف يفتحون له مكتباً وسوف يشتغل بالتعهدات وسوى ذلك. مسرة ابنة عمي ستكون طبيبة. أنت يا تميم ماذا ستكون؟ ماذا ستكون إضافةً لكونك مهزوماً مكسوراً؟ يا إلهي.

هل ستظل الهزيمة (النكسة) كما يزعمون شريكة في كل وصف لحالتي وحال جيلي؟ يقولون الآن لابد من الحرب الشعبية. يستحضرون حرب الأنصار السوفييت واليوغسلاف. مسيرة ماوتسي تونغ الكبيرة وتطويق المدن بالريف. حرب غيفارا وكاسترو (الغوار) وكذلك حرب أشقائنا الفيتناميين، ويحفرون في الطرق حفراً لنقاوم فيها على دروب وساحات دمشق. بل يتجرأ أحد النافذين متمنياً أن تبعثر إسرائيل قواها كما تتشرذم قطرة الزيت على سطح الماء مما يسهل على مقاتلي الحرب الشعبية تقطيع أوصالها وإلحاق هزيمة منكرة بها وينتشر جدل بيزنطي عن مدى فائدة الجيوش النظامية. هاقد عدت للحديث عن الهزيمة والعدوان بينما من الواجب اختيار مهنة لي. إنما قبل ذلك ماذا سنهدي سليمة يا تميم؟ تشغلني أمي ليومين حتى نشتري لوحة مرسومة بالألوان الزيتية لزقاق دمشقي قديم في إطار خشبي محفور، وكذلك عموداً رخامياً في رأسه قاعدة لشمعدان ذهبي نشتريه أيضاً ونذهب لنبارك وتصحبنا آسيا ورضوان اللذان جمعا رأس أختها وأخيه بالحلال، شقة واسعة غنية بالأثاث والتحف، وثياب سليمة الجميلة على آخر موضة، وصهرنا اللطيف الوديع وضحكات آسيا وحديث العريس وهدوء رضوان. لكن كل هذا لا يلغي غيمة حزن تعبر سريعاً في عيني سليمة، أنا لأني أحفظ بنت عمي عن ظهر قلبي أدرك دون سواي أن سليمة مكسورة في الداخل وأنه لا شيء مما نراه أو نسمعه من ضحك وابتسامات وكرم ضيافة ينفي تلك الحقيقة، لابد أنه قد ارتسم على ملامحي بعض من إشفاقي وتعاطفي لأن سليمة حدقت إلي بنظرة راجية، كانت الرسالة واضحة: اكتم ما أحسست. وقد كتمته حتى عن أمي فيما بعد لكنني انسجمت مع الجلسة وضحكت وألقيت النكات. وحين ودّعانا شدّت سليمة على يدي وشكرتني. هم يظنون الشكر على الهدايا. أنا متأكد أن شكرها كان على فهمي وصمتي.

قررت إدخال المقربين مني في قراري، شعرت وأنا موشك على

نهاية دراستي الجامعية بضرورة تحديد هدف لي كي أبادر منذ الآن لتحقيقه. كان من رأي عمي سعيد ورضوان زوج آسيا أن أستثمر في العقارات لأنها تدر أرباحاً سريعة ولا تخسر مطلقاً. فأشتري بيوتاً جاهزة وأجددها أو بيوتاً غير مكسوّة فأكسوها. أي أصبح تاجر بناء صغيراً. لم تعجبني المهنة ولم أرها تليق بي رغم دخلها الوفير والأكيد لكني استفدت منها لأستشير الوالدة وأبيع شقة العمارة كي تزداد السيولة في يدي. وليد رماح كان من رأيه أن أستثمر في مطعم. هو يتمنى ذلك لنفسه: تصور يا تميم مطعماً فيه شتوي وصيفي، لا يخلو مطلقاً من الزبائن. وأنت تقص ذهباً على الطالع والنازل. الناس ستأكل مهما كان الحال. صدقني هذه صفقة مناسبة، تعال لنتشارك. ما رأيك؟ تذكرت أبا عمر الحمّصاني ورأيت نفسي مكانه. ضحكت مطولاً. لا. لا أستطيع أن أكون (مطعمجي) أما فرج الأسمر فقد نظر إلي شزراً وقال: لا أعرف لماذا لم يؤمموكم؟ ضحكت وقلت له: خدعناهم يا صاحبي. لم يروا إلا قمة جبل الجليد في البحر ولم يعرفوا شيئاً عن المستور. وكما تعلم (المخفي أعظم). لم يكن فرج قادراً على إبداء أي رأي. فكان أمامي آخر المستشارين المحامي راتب مأمون والحاج صالح نعمان، أجل. العم صالح حجّ مكفراً عن ذنوبه كي يبدأ صفحة جديدة من الذنوب كما قال، استضفت وأمي الأسرتين، النساء في جانب ومسرة معهن بالطبع. وأنا مع الرجلين. وحاولت استبعاد أي حديث عن الواقع السياسي منذ البداية لكن دون جدوى، لقد اختلفا على كل شيء. الحاج صالح يحمّل الاتحاد السوفييتي النصيب الأوفى من أسباب الهزيمة فهو لم يسلحنا كما يجب. يرد عليه العم راتب بأن فيتنام كانت أقل تسليحاً من مصر وسورية بكثير وقاتلت الأمريكيين وليس الصهاينة وانتصرت، يجب تحليل أسباب الهزيمة بموضوعية لنستفيد من درس النكسة. لكنهما اتفقا على أن المهمة القادمة هي إزالة آثار العدوان وتحرير الأرض لكن ذلك لا يجب أن يستدعي تأخير التنمية والتصنيع وتوسيع الحريات

الديمقراطية واتفقت معهما على ضرورة إيجاد قيادة عسكرية موحدة بين مصر وسورية وحتى مع الأردن والعراق. وبمجرد أن وضعنا نحن الثلاثة خطة تحرير الجولان السليب غدا ممكناً الحديث عن مستقبلي. استمعا إلي وسط ضيافة ممتازة رتبتها أم تميم وقامت بتقديمها مسرة لي والتي حين لمحها الحاج صالح برقت عيناه وسألني: أهي خطيبتك؟ قلت: بل هي بنت عمي سعيد. قال العم راتب: لقد حدثتني عزة وأمها عنها من قبل. ما شاء الله، عروس، والمهم يا تميم ما ترغب أنت به ويفيد لمستقبلك وليس ما يقترحه عمك أو صديقك أو نحن. قلت له: أنا لا أعرف كل الخيارات لأنتقي منها ما أحبه ويلائمني لذلك أستشير لأستشرف آفاق المهن المطروحة. قال الحاج صالح: لا أحسبك مهتماً بالتجارة، الاستيراد والتصدير. قلت له مازحاً: وهل تركت حكومتكم فسحة ليصدر أو يستورد أحد يا عم صالح إلا من رضي الله والحاكمون عنه. ضحك الاثنان بسرور وقال له العم راتب: جاوبه يا رفيق. فقال صالح نعمان: إن كنا تعلمنا التضييق فإنما جاءنا من رفاقكم السوفييت، ونحن كما ترى تلاميذ مخلصون لهم. ضحكنا جميعاً ثم بدأ العم راتب يستفهم مني عن مجريات يومي وما أفعله خارج البيت وداخله وشارك في ذلك العم صالح. في النهاية قال العم راتب: أنت تحتاج إلى عمل تستثمر فيه مالك دون أن تكون مضطراً لمباشرته بنفسك. أي أنك تحتاج إلى إنتاج سلعة مطلوبة دائماً غير الطعام والسكن لأنك لم ترض بهما. وغير اللباس لأنك لن تنفع بائع ثياب. ماذا يبقى؟ قلت: الكتب. غذاء العقول. قال: في ظل رفاق الحاج صالح ورقابتهم لا أنصحك فقد لا تنشر في السنة كتاباً إنما إلام تحتاج الكتب؟ قلت: إلى كتّاب ومؤلفين. قال: وإلى طباعة. صفق صالح نعمان كفاً بكف قائلاً: هذه هي، هذه هي. مطبعة حديثة للكتب والبطاقات والنعوات وكل ما يلزم. مطبعة عصرية جداً، ولن تظل بعيداً عن الكتب. فالمطبعة من أهم لوازم النشر. والعم راتب الذي أوصلنا إلى هذا الخيار قال: هذه من الآلات

الممكن استيرادها. ويستطيع المرء أن يحضر آلات بقدر ما يملك من مال وما يخطط لإنجازه. فإن أعجبتك المهنة يمكن البحث عندها بما يلزم. ضحك العم صالح وهو يقول: أما عن الفنيين والعمال فعليك أن تطمئن، إن رفاق راتب مأمون متوفرون بين عمال الطباعة. ولم يتركه العم راتب دون أن يقول له: أما رفاق عمك صالح فرفاقي يطبعون لهم بطاقات زواجهم الثاني أو دعوات أفراح أولادهم في الفنادق الفخمة التي دخلوها بالنضال القومي التحرري.

انتهت السهرة جيداً. ودعتهما كما ودعت والدتي ومسرة كلاً من الزوجتين والبنتين. أمي أصرت على مسرة لتشرب معنا القهوة ثانياً ثم أوصلها إلى بيتهم المجاور. وأقسمت أن تجهز القهوة بنفسها. لم أدرك وحدي أنها تحاول جعلنا نجلس سوية، مسرة أدركت ذلك بالطبع، هذه الصغيرة ذكية جداً كما أنها ليست صغيرة مطلقاً يشهد بذلك ثوبها الفضي الجميل في عرس سليمة والتايور الفيروزي الذي ترتديه الآن.

- كيف حال الأطباء؟

- من حال الأدباء يا بن عمي؟ سمعت كلمات من أحاديثكم. هل تنوي افتتاح مطعم؟

- هكذا اقترح علي صديقي وليد.

- لا يناسبك ذلك.

- حقاً؟ وما الذي يناسبني يا دكتورة؟

- مكتبة كما ذكرت لي مرة، أو دار نشر.

- ما رأيك بمطبعة حديثة؟

- وما أدراك أنت بالطباعة يا تميم؟

- أملكها، أديرها، أستثمر فيها، أما الذين يعملون فيها فهم المطلوب معرفتهم بالطباعة.

- وماذا سيكون دورك غير شرائها وقبض مدخولها؟

- إدارة العمل.

- العمل يديره الفنيون ويقوم به العمال، أنت ستكون مثل الباشا في الأفلام العربية حين يزور العزبة، يأخذ المردود ويعاقب الفلاحين ويتطاول على الفلاحات الحلوات. هل هذا يلائمك؟

أضحك من كل قلبي لهذا الحوار وهذه الصورة الكاريكاتورية التي رسمتها لي. وأوافقها مباشرةً، أنا لا أصلح لدور الباشا وكذلك لا أصلح لدور رب العمل. تدخل أمي بالقهوة مع ضحكنا المشترك فيرتسم السرور على محياها الجميل. ليس في الدنيا وجه مثل وجه أمي.

- أضحكوني معكما.

- اكتشفت مسرة أني لا أصلح لأكون باشا.

- لا، هذه ما أحببتها منك يا قلبي، إن لم يصلح تميم ليكون باشا فمن يصلح؟

- صدقيني يا خالة، كل الناس يصلحون إلا تميماً.

- سأزعل منك.

- اسأليه. هل يريد أن يكون؟

- لقد كان وانتهى، ابني تميم باشا ابن باشا ما رأيك؟

تنهزم مسرة ضاحكة وهي تعانق أمي التي تقبلها بمحبة صادقة:

- أما أنت يا قلبي فأميرة، أميرة ما لها مثيل. أليس كذلك يا تميم؟

- اسأليها إن كانت تريد أن تكون أميرة.

- أريد طبعاً، لكني أميرة أصلاً أليس كذلك خالة مؤمنة؟

وأضحك وهما تتعانقان. ويأتي صوت رضية عبر الجدار سائلاً عن تأخير مسرة وتقوم هذه مسرعة وأرافقها حتى تدخل البيت وأعود. لقد جعلتني مسرة بحديثها أطرد فكرة المطبعة رغم ما عدّد راتب مأمون وصالح نعمان من محاسنها. وأؤجل الموضوع منهمكاً في سنة التخرج مدركاً أني أملك نصف معمل للقمر الدين ويأتيني دخله دون أن أراه. أما معصرة الزيت فقد زرتها مرة واحدة، وهي أيضاً يأتيني مردودها حتى دون أن أحرك ساكناً. رأس المال هو الذي يربو ويتضاعف. هذه

هي الرأسمالية وهذا هو فضل القيمة وأنا الآن أستغل كدح الآخرين في موقعين، بل في ثلاثة. إن تنازلي عن نسبة من دخل المحل التجاري لعمّي وولديه هو أيضاً تشغيل لهم لقاء النسبة، وأنا أكسب أيضاً. أعني حصتي تكسب. إني رأسمالي بالولادة، لكني مع الاشتراكية بالفكر. وماذا يبقى إذن للممارسة؟ طرقت سليمة بابنا، ثياب فاخرة، حديثة وقصيرة على آخر طرز، وهذا لا يسر عمي سعيداً لكن مبدأه هو: ما تفعله البنت يجب أن يرضي زوجها أولاً. ذهب وماس في يديها وعنقها وأذنيها. كل ما فيها يعبر عن الدعة التي تعيش فيها. رحبنا فيها كثيراً. قالت: جئت أولاً لأسلم عليكما قبل أن أدخل بيت أهلي. رحبت بها أمي ثم قامت لتحضر القهوة، كان لابد من أن تدرك سليمة استهجاني لما أرى وهي تلف ساقاً على ساق ليظهر معظم فخذيها.

- ما بك؟ مر زمن كنت تسترق النظر إلي، من الأعلى والأسفل؟ أرى الآن أنك ترى ما لا يعجبك؟

- المشكلة يا ست سليمة أن ما أراه يعجبني ويعجب الجميع أيضاً. فكيف يسمح لك ابن الأشقر بالخروج هكذا؟

- تضحك سليمة ضحكة لا أستطيع تفسيرها:

- زوجي يا تيمو الحبوب يحب مني أن أكون هكذا، زوجته الأولى، اللبنانية كانت دائماً ترتدي الميني والميكروجوب. والسان بروتيل، وتنزل إلى المسبح بالبكيني. وكما يقول: أنت أحلى منها يا سليمة. البسي يا حياتي.

- سليمة، ألا يغار عليك؟ ألا يستاء من العيون تأكلك؟

- زوجي عدنان يغار علي كثيراً. الذي مثله يغار دائماً.

دخلت أمي بالقهوة قبل أن أستفهم عما عنته بكلمة (الذي مثله). انقضت أسابيع قبل أن أعود لتذكر حديث سليمة، زارتنا آسيا وحدها ولاحظت أنها تتعجل الانفراد بأمي فتركتهما. بعد يومين أجبت على الهاتف وكانت آسيا ثانيةً تطلب أمي. دار حديث طويل على الهاتف ثم

سمعت مؤمنة تعطي موعداً بعد ساعة وآسيا ستأتي بسيارتها لتأخذها، آسيا وزوجها عندهما سيارة فيات وهي تحت تصرفها طيلة النهار. بعد ذهاب أمي يرن الهاتف لأجد سليمة على الطرف الآخر تسأل عن مؤمنة فأخبرها بأنها ربما عند آسيا ويخطر لي أن أسألها عما قصدته بحديثها عن زوجها عدنان حين قالت الذي مثل عدنان يغار. تتنهد سليمة وأدرك مباشرةً أنها في كرب وتقطع الصمت بنشيج يصلني عبر الهاتف. سليمة ماذا بك؟ مم تشكين؟ وأسمعها تقول: اتركني بهمي يا تميم. كرمى لله اتركني ولا تذكر شيئاً لأحد، سأحدثك يوماً ما. وتغلق هي السماعة وأعلم أن الرائعة سليمة بنت عمي سعيد ليست بخير أبداً، وأخمن أن زواجها الجديد لم يكن خطوة صائبة كما توخّينا جميعاً. وأنشغل عدة أيام حتى أفتح الباب لأجدها أمامي في ثيابها القديمة، أعني ما قبل مرحلة عدنان. أدعوها فتدخل وعندما أغلق الباب تسألني عن أمي فأخبرها بأنها عند أمها. ألحظ ابتسامة وهي تذهب إلى غرفتي وأتبعها مدهوشاً، وعوضاً عن الجلوس على كرسي تجلس على طرف سريري وتربت عليه لأجلس بجوارها وأحس بجرس الإنذار يقرع في ذهني. وأجلس أمامها لا قربها.

- تميم ألا تحب أن تجلس قربي.

- ماذا هناك يا سليمة؟

- اشتقت إليك، اشتقت إلى (زعرنتك)، وأنت منذ نما ريشك ما عدت تشتاق لسلومة حبيبتك.

من أين يأتي هذا؟ سلومة كما كنت أدعوها وأنا في العاشرة. سلومة حبيبتي. كنت أناديها. ما الذي أعادنا سنوات إلى الخلف؟

- سليمة كوني جدية. أحس أن الأمور ليست على ما يرام مع زوجك. ماذا يجري؟

- لا شيء يجري على ما يرام.

قالتها بغصة. ثم وضعت يديها على وجهها وبكت بحرقة:

- أنـا مـاذا فعلـت ليجـري لـي كل هـذا. ما ذنبي لأسـتحق عقابك يا ربي؟

بكاؤها كان بكاء قهر واستغاثة:

- قـل لهـم ليطلقونـي يـا تميـم. قل لهم طلقوها من هذا النذل قبل أن تفعل شـيئاً يظل عالقاً بها وبكم طوال العمر، قل ذلك لخالة مؤمنة يا تميم.

- استهدي بالله وامسحي دموعك، كلنا معك وكلنا نحبك ولن...

- لا.. لا أحد يحبني. ربما أنت يا تموم. أنت وحدك.

- قولي لي.. أنت تعرفين ما أنت بالنسبة لي. قولي لي.

- أريد أن أعود إلى مصطفى.

- ماذا؟

كأن طلقة مدفع انفجرت في وجهي. مصطفى تزوج وهي تزوجت وهي الآن تريد العودة.

- مجنونة. ماذا تقولين؟

- مـا تسـمع، هـل يرضيـك أن أعاشـره بالحـرام. هـل تتكفـل أنت بمعاشـرتي. افهم، زوجي ضعيف، نصف عاجز. لذلك اللبنانية كرشـته. البسـي قصير يا روحي. تعري يا حياتي على أمل أن يحيي الله الموتى ولا فائدة. فهمت.

انفجرت من جديد ببكائها المرير، ضربت على رأسي، أي مصيبة وقعت فيها سـليمة، أنا أعتقد تماماً بأنها ذات رغبة جنسـية زائدة، منذ كشفت لي ساقيها في شقة الجرجانية، أما أن تكون محرومة فربما فعلاً تبحث عمن يرضيها خارج بيت الزوجية.

- سـليمة، الأمـران منفصـلان، تـركك لعدنـان وعودتك لمصطفى لنناقش الأول.

- آسـيا وأمي وأمك يعرفن شـكواي منذ شـهور، آسـيا تعرف من أول أسـبوع لأني حدثتها عن زوجي الذي سـعت به إلي. طيلة أسـبوع

كامل وهو يتحفز ويهمّ ويحاول حتى..... أسبوع كامل من أجل......
ومرة واحدة ودون أن..... يا إلهي هاأنذا أحدث ابن عمي الشاب عن
همومي الجنسية.

وعادت للبكاء من جديد. ثم قطعت بكاءها فجأة:

- مصطفى ثقيل الدم، ولا يدللني، ولا يراضيني إن زعلت، لكنه كان إن رغبت به أو رغب بي رجلاً، صحيح أنه يتعب وينام في أوقات غير مناسبة لكنه غير عاجز. هل سمعت أن زوجته حردانة؟ رأيت أمه، قالت لي: أنت رميته هذه الرمية يا سليمة. إنه يعير زوجته بك كل يوم مائة مرة. مصطفى يحبني ويريدني.

- واحدة واحدة، لماذا أهلك لا يؤازرونك؟

- حتى لا أطلق مرة ثانية، تصور. يقولون لي اصبري عليه. خذيه إلى حكيم. سافرا إلى فرنسا أو بريطانيا ليعرض نفسه على الأطباء.

- فكرة.

- مرفوضة. أخذته اللبنانية، أنا رأيت جواز سفره، عليه أختام من أوروبا، وهو زلق مرة وقال إنها عاهرة، الزوجة لا تطمح عينها للآخرين إلا في حال القصور عند الرجل. لو جلست بجانبي يا تموم لربما هاجمتك هل تصدق؟ وصلت بي الأمور إلى هذا الحد.

- هل قلت لأمي كل هذا؟

- عدا قصة مصطفى وأمه وزوجته. لا تخبر بها أحداً.

- سأتحدث مع أمي.

- هي وحدها التي تستطيع أن تقنع بيت عمك. هي وصهري رضوان. إنه صاحبك وحين يلزم الأمر أريد منك أن تقصده.

- مجنونة، هل أقول لصهرك رضوان إن زوجة أخيك التي هي بنت حميك وشقيقة آسيا زوجتك تبحث عمن ينام معها لأن أخاك لا يفعل.

ضحكت الآن ومسحت عينيها:

- وهل من الضروري أن تخبره ذلك بهذا الوضوح؟

وعادت للضحك من جديد:

- أنت حبيبي يا تموم، لماذا لم تكن أكبر؟

ولماذا لم تكوني أنت أصغر. اسـمعي، ابقي هنا حتى تعود أمي. قولي لها أخبرت تميماً بكل شيء.

تتنهد بحرقة وتزفر:

- هـل تصـدق؟ الرجـل لا يهمـه أيـن أذهـب أو متـى أعود، الغيرة تشـتعل إن ذكـرت لـه أي ذكـر مـن الرجـال. يسـأل عن كل شـيء. حتى عن ثياب الآخر.

- وهل كنت ترين آخرين يا سليمة؟

- ومـن الآخريـن أنـت الثانـي. أصهاري وأنت والباعة، ف ف ف. كأنه لا ينقصني إلا أنت لتحاسبني.

وتبتسم الآن:

- أم أنك تغار على سلومة حبيبتك. اقترب... اقترب.

- مجنونة ولا يؤمن جانبك أبداً.

تضحك بانشراح ونسمع صوت باب الدار يغلق لقد أتت أم تميم وأناديها فتدخل غرفتي لتشهق إذ ترى سليمة:

- وأنـت هنـا؟ نحـن ركبنـا الطريـق إلى دارك وعدنا بينما أنت هنا. ماذا تفعلين في غرفة تميم؟

- والله لا شيء.

قالت سليمة ذلك بلهجة جعلتني أنا وأمي نضحك:

- أمي، لابد من إيجاد حل سريع لمشكلة سليمة مع زوجها.

- هل شكتنا لك هذه الظالمة، طبعاً حدثت سليمة تموم الحبوب عـن همومهـا هـي وليـس عـن همـوم أمها وأختها آسـيا. تريد أن تتطلق. ذاك مصطفى طلقها لأنه لم يحتمل عنادها. هذا الذي يسـايرها ويفرش لها الأرض حريراً هي تريد أن تتركه.

- خالة مؤمنة، تميم يعرف لماذا؟ أنا أخجل من الحديث مع أخي

أو أبي لكني لا أخجل من مصارحة تميم.

وتشهق أمي مجدداً وتضرب على صدرها:

- حدثت ابن عمك عن......

- عن كل شيء.

تنظر إلي أمي بحيرة وبنظرة شك تقترب من الاتهام:

- هل شجعتها؟

- أمي، سليمة ابنتك كما هي ابنة خالة رضية. هل ترضين لها ما تشكو منه؟

- لتسافر معه، سافرا معاً يا حبيبتي. آسيا جعلته يوافق على السفر إلى فرنسا، هناك يحكّمون.

تنظر إلي سليمة محرجة ثم تقرر الكلام:

- خالة مؤمنة. أنا قلت لتميم ما لم أقله لأحد، عدنان سبق له السفر كثيراً، أنا ظللت أفتش حتى رأيت جواز سفره. لقد سافر عدة مرات إلى دول أوروبية، أتظنين أنه سافر للسياحة؟

- سافر؟

- هاك انظري.

تفتح سليمة حقيبتها وتخرج جواز سفر، تقلب صفحاته وتشير لنا.

- انظري، قبل ثلاث سنوات إلى فرنسا، في نفس السنة إلى فرنسا مرة ثانية، التي بعدها إلى روما، هذا ختم مطار روما، وإلى اليونان.

- ربما سافر للتجارة والرزق.

- الذي يشكو ما يشكو منه عدنان لن يتردد في عرض نفسه على الأطباء، أكثر من ذلك عنده صور أشعة كثيرة، وعنده تحاليل وتقارير.

تبكي الآن سليمة.

- لماذا لا تصدقونني، حظي معتر ماذا أفعل؟

تضمها أمي إلى صدرها وتربت عليها متعاطفة دامعة العينين.

- لا بأس.. لا بأس يا حبيبتي. ربك يفرجها.

يقلقني وضع سليمة، فالصواب أن تطلق من زوجها. لكن هل الصواب أن تعود إلى زوجها السابق؟ ربما هذه التجربة لهما تجعل كل شيء أفضل إضافةً إلى وجود الأولاد. أنا ما كنت لأصدق أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث في العائلة، غيرة ونمائم وثرثرة تظل من الأمور المألوفة في حياة المجتمع المحافظ المستقر أما هذه الصورة الواضحة من الاشتياق إلى الرجل في حالة سليمة ومن عجز زوجها الثاني عدنان الأشقر فإن ذلك حين يخرج للعلن يمس الأسرار المقدسة المتعلقة بالجنس ودقائق العلاقات الزوجية.

لابد أن مثل هذه القصص تحدث في مجتمعنا، ورغم التكتم ومراعاة القواعد فإن قصصاً عن الخيانة سواء للرجل أم المرأة قد تعرف وتنتشر ضمن ثرثرات النساء. وقد تكون شائعات في الأصل تطلقها زوجة غيور أو عاشقة ذات أهداف غير معلنة، في حالة ابنة عمي سليمة كانت القصة دسمة للغاية لكنه تم تلافيها والوصول بها إلى نهاية مرضية للجميع. لابد وأن عدنان قد فهم من سليمة أن بعض أسرتها قد اطّلع على أسراره في السفر الى أوروبا وفشل معالجته وأن الحلول ستفرض عليه. فإذا به يتوصل عفوياً إلى المخرج، ضرب زوجته بعنف شديد مما ترك آثاراً واضحة، عادت سليمة إلى بيت أهلها مطلقة مضروبة. وأسرع رضوان الذي بقي خارج اللعبة يعتذر عن أخيه الذي فقد أعصابه وندم على ما فعل، ويتعهد بأن يحضره أمام عمي سعيد ليدين نفسه ويعلن توبته، لكن سليمة الباكية أقسمت أمام عمي أنه إذا رضي أن يعيدها إلى ذلك الوحش الهمجي فسوف تؤذيه وتؤذي نفسها. وأسرعت أمي مؤمنة لتتدخل متوجهة إلى رضوان بأنه وآسيا بعيدان تماماً عن المشكلة. والذي حدث ربما يتكرر بشكل آخر، فلا أحد يرضى أن تصاب سليمة بعاهة لا سمح الله أو أن يسجن السيد عدنان لا قدّر الله. الوفاق صعب ومن أولها أفضل من أخرها. وليس بينهما ولد أو تلد ولا يناسب بيت الأشقر أو بيت منصور القال والقيل وكما دخلنا بالمعروف يا رضوان

ونحن حبائب سنخرج بالمعروف ولا نزال حبائباً. هذا المنطق الهادئ المقنع يكاد يشبه سيناريو متفقاً عليه لكنه لم يكن كذلك بل جاء ابن ساعته وعفو الخاطر. عمي سعيد أسقط في يده شأنه شأن رضوان الذي استنجد بآسيا. لكن ابنة عمي الماكرة (أس هذاالبلاء) قالت بكل براءة: لنبق بعيدين يا حبيبي. الأمر يتعلق بأخي وأختك إن اصطلحا وعاشا معاً فالحمد لله. وإن اختلفا وافترقا فالحمد لله على الخلاص بما يرضي الله. وعندها قالت سليمة: أنا أبرئه من المقدم والمؤخر ولا أريد من البيت خيطاً بإبرة. المهم أني خرجت سالمة. وهكذا تم الحفاظ على المظهر العام. فالسيد عدنان الأشقر وحش وظالم وليس بالطبع عاجزاً بأي شكل من الأشكال. وسليمة المدللة لا تعرف كيف تعيش وتداري وتسايس، لذلك - يا حرام - أو - خرجها - تطلقت مرتين. ولا يدري أحد سوى الضالعين بالأمر لماذا لم تحرد آسيا من أختها سليمة إذ تركت سلفها عدنان، ولا لماذا تتهامسان حين تلتقيان وتضحكان بصخب ومحبة؟ كما قد بدا عصياً على التفسير هذه المودة العارضة بين أم مصطفى وكنتها السابقة سليمة وإحضار الطفلين إلى بيت عمي سعيد ليبقيا مع والدتهما التي عادت ابتسامتها لتشع في وجهها الوضيء. وانتشرت بعض الأقاويل الخافتة حين عادت سليمة إلى مصطفى رغم أنه (غتيت) وثقيل وشرس الطباع. هذه القصة التي ظلت في نطاق أسرار الأسرة كانت ولازالت حاضرة في أذهان من عرفوا بها وتؤكد أن الكثير من الأسرار تحدث خلف جدران البيوت وصدق القائل: البيوت أسرار.

ومادمنا في صدد الأسرار فإن ولدي الحبيب، وحيدي (مالك) لديه العديد من الأسرار يخفيها بتكتم شديد عني وعن أمه. أمه التي هي فرحة عمري، ست البنات. أحلى الحلوات، نكهة الهيل، رائحة الفل، نشوة العرق، صبابة الشباب وعشقي الأبدي الدائم، بهجة حياتي وسر أسراري.

«20»

ريتا

وحدها سوزان تعرف كم أن فراقها صعب علي، لذلك كادت في آخر يوم قبل السفر أن تلغي رحلتها وتبقى معي، لكني لم أقبل رغم أن قلبي خفق فرحاً. سوزان ابنتي وقطعة من قلبي وسرّ سعادتي كل ثانية من الوقت الذي يركض دون توقف غير عابئ بي وبسواي. يا إلهي هل حقاً تجاوزت الخمسين؟ فإن كان ذلك صحيحاً - وهو صحيح - فلماذا لازلت أحس أني فتى يافع؟ لماذا رافقت سوزان في نموها وأنا في مثل سنها. لعبت معها بألعابها. ركضت خلفها على دراجتها ذات العجلتين الإضافيتين للتوازن. ثم ركضت خلف باص المدرسة متزوداً منها بآخر باي باي ونظرة عتاب لأني أحرجها بين أقرانها. كانت ريتا دائماً تضحك وتقول لي: أنت أصغر أم سوزي يا دكتور أندرو؟ دكتور أندرو. نعم دكتور أندرو براون المختص بلغات الشرق الأوسط القديمة والمختص أيضاً بشعراء المهجر الأمريكي الشمالي من العرب، اثنتان من الـ(PHD) الدكتوراه في هذين المجالين. والذي غادر دمشق يوماً بشهادة البكالوريوس وقلب مترع بحب العيون السود وسوسن ربيع الحسناء، التي لو رأتها ريتا يوماً لأدركت أن قلبي صبا نحوها لأنها الأقرب بين النساء لسوسن والتي لم أعد أستطيع الآن تذكر ملامحها بدقة فقد تماهت صورتها في خيالي مع ريتا حيناً ومع سوزان حيناً آخر. ريتا تعرف كل شيء عن سوسن إلا أنها تشبهها. هذا ما كتمته عنها حتى لا تشعر بالإهانة أو الخيانة، وللصدق أقول رأيت كثيرات ممن يشبهن سوسن وريتا. وبعضهن عشن معي لكن أية واحدة منهن لم تحكم قبضتها على قلبي مثل ريتا. صديقي كمال راضي حين حدثني

عن هادية التي غدت زوجته الثانية ذكر لي الغزالة ونظرة الحذر ثم التفاتة العنق استعداداً للانطلاق برشاقة، عينا الغزالة وعنقها ورشاقتها ما عدا نظرة الحذر هذا وجه التفريق بين سوسن وريتا. فريتا لا تخاف. كنت أقول لها دائماً أنت أحلى فتيات المافيا الصقلية. وكانت تشمخ بقدّها وكل ما فيها من فتنة وتقول: أنا من سلالة أحبائك العرب. في بلدي (مازرة) على الساحل الجنوبي لصقلية نزلوا حين فتحوا الجزيرة. وبها بنوا أول دور عبادتهم وإليها كانت تأتي إمداداتهم فهل تظن أن جدتي الكبرى لم تعجب قائداً أو فارساً من فرسانهم؟ إنهم يا أندرو أجدادي فهات أنت وقل لي من أجدادك؟

حين وصلت إلى واشنطن عائداً من دمشق كان بروس تالبوت في انتظاري داخل قاعة المطار. عانقته فرحاً برؤيته. بروس هو معلمي وراعيَّ حتى تلك اللحظة. قاد بنا السيارة إلى بيته المريح. تركت حقائبي في مرآبه وسحبت منامتي وكتاباً وثلاث زجاجات عرق أحضرتها لبروس. بالطبع أحضرت لي خمساً منها. تبادلنا حديثاً مرحاً فهمت منه أن مندوب الـCIA في السفارة هو الذي سعى لإنهاء مهمته في دمشق. فقد رفض بروس أن يوظف معرفته بالعديد من السوريين - ضمن مهمته كملحق ثقافي - في شؤون الأمن واصطدم بالسفير الذي كان يرى أيضاً مهامه أمنية وسياسية أكثر منها ثقافية. لذلك سحبته وزارة الخارجية وهذه المرة ضمته إلى هيئة موظفي قسم الشرق الأوسط وعهد إليه بمتابعة أخبار سورية ولبنان والعراق والقيام بالتحليل للمعلومات السياسية والإعلامية والاستخبارية. وقال لي إن الموقف منه انعكس بالطبع عليّ إنما لا تحمل هماً يا أندرو سنعود لنعمل سوية والآن لنشرب كأس دمشق من هذا السائل السماوي. أصر بروس على أن أبقى عنده أثناء عودتي للعمل في إدارتي السابقة حتى جاء كتاب إدارة الموظفين في وزارة الخارجية بنقلي للعمل في قسم الشرق الأوسط مع ترفيعي في السلّم الوظيفي والمالي مقابل البكالوريوس الذي أحرزته في دمشق وتم ضمه إلى سيرتي الذاتية.

عدت إلى رعاية بروس تالبوت وعهد إلي مباشرةً بلبنان. سألته لماذا ليس سورية فقال حتى لا تجد نفسك يوماً مضطراً لتقديم تقويم تعرف أنه ربما يفيدنا كأمريكيين لكنه من المؤكد سيلحق ضرراً ما بدمشق، وأقنعني ما قاله. صرت الآن موظفاً في عمل من صلب أعمال وزارة الخارجية وليس هامشياً كما في السابق حين كنت في المكتبة التي هجرها أيضاً بوب لونسديل في عمل أخذه إلى كاليفورنيا. عملت بنصيحة بروس وفتشت عن شقة صغيرة في بناء سكني وسط المدينة المعروف بالداون تاون (Down Town) وعثرت على واحدة كان ثمنها يعادل ثمن منزل مستقل في الضواحي فيه مرآب بحجم شقتي هذه عدا عن غرف النوم والمعيشة وفسحتين أمامية وخلفية وربما مسبح. شقتي ذات الغرفتين وصالة كلفتني معظم مدخراتي كدفعة أولى عدا عن قسط شهري سأدفعه على مدى خمسة عشر عاماً. وقضت السيارة الحديثة والأثاث المريح على ما بقي معي تقريباً، لم يبق في رصيدي إلا ألفا دولار لكن راتبي الجيد سوف يتكفل بمستوى معيشي طيب.

فاجأني بروس بأنه سوف يتزوج، عرفني على (شيري سميث) أو (مسز بريدي)، سيدة في الثامنة والثلاثين ليست نحيلة قطعاً وإنما هي أقرب للامتلاء. عاملة في محل للعناية بالأظافر. مستقلة الرأي، تكره الجمهوريين وتحب الطعام المكسيكي والمارغاريتا بالثلج المبشور وتعشق أفلام روبرت تايلور وتقول إن بروس يشبهه لو كان صوته عميقاً وخشناً، عرفها في السينما وكانت بجواره تحل شبكة الكلمات والتفتت إليه لتسأله عن معلومة أولى ثم ثانية وثالثة وأسعدها أنه أجابها إجابات صحيحة، تعارفا وتبادلا أرقام الهاتف ثم التقيا في بار وسرته بحبها للتكيلا الصرف بعد المارغاريتا وسرّها أنه يحب الطعام المكسيكي. قالت لي إنها كانت تتهيب منه. إنه راقٍ. (كلاس) – Class – أليس كذلك؟ ترددا على السينما والمطاعم والبارات وهما يستكشفان بعضهما بعضاً قبل أن تسحبه من يده إلى الاستديو الذي تسكنه حيث قضيا عطلة

أسبوعية مثالية يشربان ويأكلان ويحلان الكلمات المتقاطعة ويتضاجعان بالطبع. وتكررت هذه العطل ثم تعايشا أسبوعاً كاملاً في بيته الكبير لكني بقدومي جعلتهما يتباعدان قليلاً وعندما انتقلت إلى شقتي اكتشفا سوية - ولله الحمد - أنهما لم يعودا يستطيعان الابتعاد عن بعضهما بعضاً فتقدم إليها بعرض الزواج أثناء تجهيز (الأنشيلادا) وقبلت مع أول رشفة من العرق الدمشقي الذي لم يعجبها لحسن الحظ. وسوف أكون الإشبين وعلى أن أحضر له حفلة وداع العزوبية، كنت فرحاً ببروس وشيري. لم أتخيل يوماً بروس تالبوت كما أراه الآن. كان على سجيته مع شيري. الطفل المتطلع للسعادة لم يعد مكبوحاً داخله، إنه يقبل على الحياة دون اصطناع، يضحك من كل قلبه ولا يسأم من التعبير عن سعادته. شيري حين سمعت بقصتي مع سوسن استغربت ما جرى تماماً. بالنسبة إليها فالأمور أبسط من تعقيدات العلاقات في دمشق. بينما ريتا حين حدثتها عن سوسن لاحقتني حتى التفاصيل والملامح والسكنات ثم بكت لألمي وتعاطفت مع سوسن التي ارتمت في زواج سريع هرباً من عشق لافح.

حفلة بروس أقمتها في شقتي وسط البلد، أحضرت راقصة ستربتيز والعديد من المشروبات والأطعمة المنوعة وجاء حشد من موظفي الخارجية وسهرنا حتى الصباح ثم رقدنا بروس وأنا لساعتين تجهزنا بعدها وركبنا إلى الكنيسة، تفقدت الخاتم ورتبت العقدة لبروس ثم دخلنا سوية، لم تتأخر العروس. صدحت الموسيى ودخلت إثر وصيفة الشرف التي لم تكن حسناء مطلقاً وقد اعتذرت شيري لي عن ذلك ضاحكة. وتم الزواج ثم انطلقنا إلى البيت لنقيم الحفلة وكان علي أن أرفع النخب الأول. تحدثت عن بروس بأسلوب عاطفي - لابد أن ذلك بتأثير الشعر العربي - حدثت الحاضرين عن دماثته وثقافته ورعايته لي وكيف حظي بتقدير الأجانب ثم حدثتهم عن شيري سميث بالأحرى شيري تالبوت منذ الآن وقدمتهما للحاضرين وسط التصفيق.

أسعدني زواج بروس، أسعدني أن يلقى هذا العازب المحترف شاطئ أمانه. وفاجأني حينها فوز ميخائيل شولوخوف بجائزة نوبل، أنا اعتبرت بطل الدون الهادئ غريغوري جديراً بهذه الجائزة كما قلت لكمال راضي مرة وهاهو تقديري يأتي مطابقاً لآراء لجنة الجائزة. هل نسيت أن أتحدث عن زيارتي السريعة لأرلنجتون قبل أن ألتحق بعملي الجديد. نعم، فاجأت الأسرة بزيارتي. وبمجرد حديثي عن دمشق وعرضي للصور والهدايا الشرقية ثم إخبار الأسرة بحصولي على البكالوريوس في لغة السوريين بمجرد ذلك حدث تحوّل غريب في معاملتهم لي. وجاءهم خبر وظيفتي الجديدة في وزارة الخارجية ليؤكد أن ولدهم أندرو براون يستحق الإعجاب. للمرة الأولى أغدو أنا المتميز والاستثنائي بنظر أسرتي وألمح دلائل الإعزاز والاعتزاز وأسمع الثناء من أبي تحديداً، لا أنكر أن ذلك قد سرّني، فاجأتني أمي بحديثها عن سو. لقد تطلقت المسكينة من هاري وتزوجت ألان. أخي يقاطع ليقول: كانت تخون هاري مع ألان حين كانا زوجين. وهي الآن لا تقصر بحق ألان. إنه طوع أمرها. أمي تقول إنهم جيراننا الآن، توفيت والدتها وورثت سو المنزل والمزرعة، ألان يسكن في بيتها لذلك لا يعصى لها أمراً.

صباح اليوم الثاني كانت سو تطرق الباب وتسأل عن هذا الأندرو الذي لا يسأل عن أحد، عانقت الجميع وهي في حالة مرح وظلت واقفة لم تجلس طيلة زيارتها ثم أكدت على أن أزورها فنحن بعد كل شيء جيران وبيننا صحبة قديمة. وعندي قصص تخصه وعليه أن يسمعها مني. وعدتها بالزيارة وقمت بها فعلاً، سو الآن أكثر اكتنازاً من لقائنا السابق وحين عانقتني في بيتها شممت رائحة الخمر، كانت في روب ديشامبر فوق ثيابها الداخلية سألتني إن كنت سمعت عن قصصها فقلت عرفت أنك تزوجت من ألان أخيراً، ضحكت وقالت أنا أخبرتك بندمي لزواجي من هاري وليس من ألان أذكر هذا يا أندرو براون وأذكر أنك تملصت مني تلك المرة. الآن لن أسمح بذلك. هذه المرة ستذوق أطايب

أرلنجتون حتى لو أخذتك اغتصاباً. ضحكت وسألت عن ألان فقالت: اطمئن لن يعود قبل أن أتصل به. م م م. ما قولك؟ سألتها مع من تخونين ألان يا سـو؟ ضحكت بطرب وقالت: توقعت أن تسـأل. خمن مع من. لـم أحتـج لتفكيـر طويـل فقلـت لهـا: مع هاري طبعـاً. انفجرت بضحكة ثانية وقالت أنت ماكر جداً يا أندرو، أنت أذكى واحد من بين الجميع، قمت مودعاً ورأيت كيف تعمدت حل عقدة الروب وهي تقف. عانقتها فالتصقت بي وقبلتني بحرارة، ظلت يداي خلف ظهري وشعرت بأني غير متجاوب فأفلتتني وهزت رأسها بفهم وقبول قائلة: جود باي يا آندي.

عدت إلى واشنطن حاملاً ذكرى تختلف كليةً عن زيارتي السابقة، فأنا الآن على صلة بأهلي، كذلك انتهت قصتي التي لم تبدأ مع سو ألين ماكينزي، وكان عندي الآن في واشنطن عمل فعلي يشغلني وقد وضعت خطة لنيل شهادة الماستر من إحدى جامعات فرجينيا أو ماريلاند، كان علي إيجاد أستاذ مشرف وبحث مناسب وسوف أطلب من صديقي كمال تزويدي بالكتب المناسبة، وعدت إلى سابق عهدي في لقاء فتيات ونساء يبحثـن عـن شـاب مثلـي يعاشـرنه دون التـزام فعلي، وقررت ألا أخسـر أي وقت الآن فالهدف هو الدراسـة الأكاديمية للحصول على الدرجة، اقترح علي بروس أن أدرس مدى تأثر إنكلترا في القرن التاسـع عشـر بـالأدب العربـي وأعجبنـي الموضـوع. بقيت شـهرين وأنا أقرأ دراسـات باللغة الإنكليزية والعربية ثم راسلت الجامعات والأساتذة. جاءني طلبان للمقابلة، بدأت في واشنطن دي سي وكنت قد أرفقت توصية من بروس وأخرى من معاون الوزير لشؤون الشرق الأوسط وثلاثاً من أساتذتي في جامعة دمشق. تمت الموافقة وطلب مني تجهيز برنامج البحث وخطته، انهمكت بالدراسـة وبالعمل. قالت لي شـيري تالبوت إن الكثير يفوتني وأنا بين صفحات الكتب ولم أمانع، مع ذلك رأيت فيلم كلود لولوش رجل وامرأة الذي حاز على أوسكار الأفلام الأجنبية. وقرأت عن رواية لكاتب اسمه غابرييل غارسيا ماركيز اسمها مائة عام من العزلة صدرت

عام 67 وشاهدت ثلاثمائة وخمسين ألف أمريكي يتظاهرون ضد حرب فيتنام أمام مبنى الأمم المتحدة في نيويورك، لكنني دافعت عن أطروحتي ونلت الماستر بشهادة تقدير. هل ظل كل شيء على حاله في دمشق؟ لا. هادية عادت إلى حياة كمال. عادت بعد أن غدت أرملة للمرة الثانية. وكمال لم يفلتها. تزوجها، احتفظ بسامية وتزوج هادية، هذه ميزة لدينهم أو عليه. فهو يسمح بتعدد الزوجات، وشيء آخر قد تغير، انقلاب في عام 1966 صبغ البلاد بصبغة يسارية متطرفة كما تجمع التقارير، تلا ذلك محاولة انقلاب آخر وفشلت، لكن عام 67 حمل نذر حرب طاحنة بين سورية وإسرائيل، ثم دخلت مصر والأردن في ساحة المواجهة المحتملة ونشبت الحرب في بدايات حزيران، وظفرت بها إسرائيل عندما هزمت جيوش البلدان الثلاثة وسيطرت على مساحات واسعة من سورية ومصر والأردن، جرى اتهام أمريكا بالمشاركة في العدوان، وللأمانة أقول إننا لم نكن بعيدين عما جرى. كان الهدف هو إسقاط عبد الناصر وما يمثله من خطر على الدول المعتدلة التي تربطها بنا علاقات وثيقة. وكدنا مع إسرائيل نحقق الغرض حين اعتزل ناصر لكن المصريين لم يسمحوا له بالتنحي، لقد أعادوه إلى القيادة من جديد، الصحف والإعلام الأمريكيان خاب أملهما كثيراً، لقد تم التهليل لانتصارات إسرائيل الديمقراطية على أنظمة عربية فاشية تقمع شعوبها وتتحالف مع السوفييت، كنا نكذب بكل بساطة، كان على المرء أن يعرف دمشق وبيروت والقاهرة التي لم أزرها ليتأكد من أننا كنا نخوض الحرب بطريقة أو بأخرى حرصاً على مصالح استراتيجية أمريكية تتوافق مع مصالح الإسرائيليين.

شاركني بروس الأسى لما جرى، كان يصنف في وزارة الخارجية بجناح المتعاطفين مع العرب ولم تكن لهذا الجناح قوة تذكر لأن الجهة الأخرى أقوى بكثير، وأشد تأثيراً من أي (لوبي) آخر، لكن بروس وشيري أصرّا علي لمتابعة التحصيل. كان بروس يمثل جانب الأب أو الأخ الأكبر معي، شيري كانت أختاً كبرى بمعنى الكلمة، إنها حامل، الفرحة

غمـرت بيـت تالبـوت. وأصابتنـي بالعـدوى، فرحت لهمـا، رأيت بروس يخلـع آخـر أقنعتـه ليصبـح متعبـداً أمام بطن شـيري الـذي ينمو، لم يكن هناك حد لفرحه بحمل زوجته، وظلا ورائي حتى عدت للقاء أسـتاذي المشرف على الماستر الذي أثنى على اختياري لموضوع رسالتي وكان عـن تأثـر شـعراء المهجـر العـرب بالبيئـة في أمريكا الشـمالية. وتحولت من جديد إلى فأر كتب. لكنه لم يفتني رؤية الفيلم السـوفييتي الحرب والسلام والذي حاز عام 68 على أوسكار الأفلام الأجنبية. كان سيرجي بوندارتشـوك رائعـاً كمخـرج وكممثـل، وفـاز ياباني لا أعرفه ولم أقرأ له بنوبل الآداب لذلك العام أما في عام 69 فقد كانت الجائزة من نصيب الإيرلندي سـامويل بيكيت وشـعرت بالسـرور لأن السوفييت فازوا للعام الثاني على التوالي بأوسكار عن الأخوة كارامازوف رواية ديستويفسكي الشـهيرة، وأهدانـي بـروس فـي عيـد ميلادي رواية ماريـو بوزو العراب، وآلمني كما آلم الأمريكيين جميعاً حادثتا اغتيال. الأولى أزهقت الدكتور مارتـن لوثـر كنـج المطالـب بالحقوق المدنية والثانية نالت من السـناتور روبرت كيندي. وجاء زواج جاكلين أرملة الرئيس كيندي من الملياردير اليوناني أوناسيس لترسم قتاماً إضافياً في حياة آل كيندي. وعدّل الأمور بعض الشـيء هذه السـنة لقاء وودسـتوك للموسـيقى والفنون الذي جمع قرابة الأربعمائة ألف في تظاهرة فريدة من نوعها تهتف للحب والسلام وضد الحرب. كانت أمريكا تتحرك على وقع جديد وكنت مشغولاً عن كل مـا يجـري بقـراءة المصـادر وتدوين الملاحظات إثر موافقة الأسـتاذ على برنامج البحث والصيغة الأولية للرسالة. ولـم أنته منها حتى شعرت أنـي غـدوت مـن حيوانـات البيـوت الداجنة فأنا أخـرج من مكتبي حيث كل عملـي كتابـة أوراق وقـراءة أوراق. ويسـتمر الأمـر نفسـه فـي شـقتي الصغيرة، فاجأتني جودي كامبل العزيزة بزيارة اسـتمرت أسـبوعاً. ولم تشـأ النزول في شـقتي أول الأمر. لكن ليلة قضيناها في شـرب زجاجة الكونياك الفرنسية جعلتها تنسى الزوج المحترم وتقفز إلى فراشي قائلة

إن نومها معي ليس خيانة له، فنومها معه خيانة لي باعتباري صاحب الأولوية. أخذت لأجلها إجازة قضيناها في الشقة نأكل في السرير كما كنا نفعل ونشرب ويغزو أحدنا جسد الآخر. لم تشعر بالندم إلا حين أوصلتها للمطار، قالت لي: أندرو، لن أراك ثانيةً. أحس جسدي قذراً، لقد جعلتني أحب ما تحبه يا ابن الحرام. من سيهتم برائحتي الآن؟!
عادت إلى أسرتها وعدت إلى أوراقي وظننت أني جاهز للدفاع عن أطروحة الدكتوراه قبل انتهاء عقد الستينات ولم أدر أني كنت متأهباً للقاء ريتا ألونزو جيوفاني الغالية. إنما قبل ذلك هل ذكرت باميلا من قبل؟ باميلا الصغيرة التي تمنيت أن تنسجم مع بديلي بوب لونسديل، حسناً كان بديلاً مناسباً للمكتبة ولكن ليس لفراش باميلا، إنه لم يصل إليه قط. رأت أنه كان ثقيل الظل فتركته دون وداع، المطعم الذي كانت تشتغل فيه نادلة وتعرفت عليها كان على طريقي حيث كنت أسكن. عدت إليه مؤخراً لوجبة بيتزا. تذكرني (الشيف) وسألته عن باميلا فضحك بسرور وقال: لقد تزوجت مهندساً شاباً ورزقا بولد وبنت قبل أن يرحلا للجنوب. كانت وفية وظلت تتردد علينا حتى سافرت. وهاأنتذا بعد غياب تعود إلينا. تمنيت لو أن المطعم يسلم الأكل إلى المنازل كما بدأت تفعل بعض مطاعم البيتزا فأنا لا أحب الخروج كثيراً هذه الأيام. اعتدت على اصطحاب من أواعدهن ليالي السبت إلى شقتي. كثيرات من شبيهات سوسن عبرن منها، هذه تشبهها في لون الشعر وتلك في العينين الكحيلتين وثالثة بالوجه المشرق الأبيض، لكن أي واحدة منهن لم تكن سوسن حتى جاء يوم كنت فيه أتناول طعامي في مطعم البيتزا. المطاعم الشعبية لا تقدم مشروبات كحولية لأنها عائلية. لذلك أستغرق بوجبتي إن كنت على عجل، وأنا تلك الأيام ملاحق في الوقت ودائم الخوف من الفشل. كنت إذن منهمكاً حتى قاربت الشبع فتوقفت لأرشف بعض الكولا، أعرت انتباهي لما حولي فسمعت ضحكات نسائية عن يساري. التفتّ لأراها أمامي. سوسن، كدت أصيح باسمها لولا أن حركة

من رأسها لإبعاد شعرها الفاحم جعلتني أتردد، لابد أني كنت مصعوقاً لأن حالتي استرعت انتباه رفيقتها الجالسة في مواجهتي، لكزتها بكوعها وأشارت برأسها نحوي. هذا لم يغير من ذهولي وانشداهي، التفتت ريتا إلي بكامل وجهها. يا إلهي. ربما هي شقيقة سوسن أو توأمها، هذه التي تنظر إلي مستغربة وجهها أقل بياضاً إنه حنطي، عيناها هما عينا سوسن لكن الكحل ليس الكحل نفسه، والشعر ينسدل كثيفاً أسود ليس فيه أي جعدة، لابد أن حالة الذهول أو الدهشة انتقلت إليها. كانت ورفيقتاها ينظرن إلي باستغراب واستنكار. وكان علي أن أتراجع لكن المفاجأة ظلت مسيطرة علي واستمرت عيناي مشدودتين إليها وأنا - قطعاً - فاغر الفم. التمع الغضب في عينيها وقامت. حاولت رفيقتها شدها وإجلاسها لكنها انتزعت يدها منها وتقدمت نحوي لتقف أمامي متحفزة:

- لماذا تحدق بهذا الشكل الوقح أيها الأبله؟

أتمالك نفسي الآن، هذه ليست لغة سوسن ولا لكنتها. وعلي أن أتدبر الخلاص من الحرج الذي أوقعت نفسي به.

- لماذا لا ترد؟ هل أنت أبكم؟

تسعفني بديهتي لأقوم واقفاً:

- اعذريني رجاءً، لم أقصد.

- بل قصدت.

- ربما المفاجأة، أنا أندرو براون، رسام، لقد رسمت بورتريه من خيالي فلم أصدق أن أرى ما رسمته أمامي، اعذريني رجاءً.

واتتني الكذبة بما أعرف أنه يسر الفتيات، ولم أدقق كثيراً في ابتسامتها العابرة حين سمعت كلمة رسام، والآن أراها تلتفت لزميلتيها:

- إنه رسام.

تنفجر الفتاتان معها بضحكة مرحة، وأنا تتملكني الحيرة:

- ما المضحك فيما قلته؟

- نحن الثلاث طالبات فنون جميلة، ثلاثتنا نرسم، من أي معهد

تخرجت؟

وأكاد أرتبك لأن كذبتي ستنفضح سريعاً:

- من مدرسة للفنون الشرقية في دمشق، دمشق سورية. تفضلي بالجلوس لو سمحت، أقدم نفسي مجدداً أنا أندرو براون.

- وأنا ريتا جيوفاني، اسمع. حتى لو كنت شاغال نفسه فلا مبرر لتحديقك.

وأقرر أن أستنجد بذخيرة المغازل:

- بل هناك ألف مبرر وأنت تعلمين ذلك، بالله عليك كم طلب منك أن تقفي أمام لوحات الرسامين ليحاولوا نقل صورتك.

تضحك الآن بسرور ثم تهدد بإصبعها:

- مستر براون، تناول طعامك، البيتزا الساخنة أطيب.

تنصرف عني لتتدانى رؤوس الفتيات الثلاث ويصخبن في ضحكات متواصلة يقطعها تهامس ثم نظرة نحوي ويستأنفن الضحك. يا إلهي هذه وحدها لو رأتها سوسن ربيع لماتت غيرة وكمداً وعلي ألا أفقدها الآن. أشير للنادل فيهرع إلي أهمس له بأن يأخذ حساب طاولتهن مني فيرتبك لكني أصر عليه فيقبل، أسأله إن كنّ يترددن على المطعم باستمرار فيرد بالإيجاب. أقرر أن أترك التواصل للزمن. أقوم فينظرن نحوي، أهز رأسي مبتسماً وأخرج واثقاً من أنهن يضحكن، أتعمد تشغيل سيارتي الواقفة أمام المطعم بلونها الخمري اللامع وأجعلها تنطلق مسرعة بحركة صبيانية ندمت عليها مباشرةً.

في البيت أسرعت للبحث في دليل الهاتف عن رقم لريتا جيوفاني فلم أعثر، هاأنذا مجدداً أمام العيون السود، لماذا يتكرر الموقف معي. سوسن استنكرت تحديقي حين نظرت إليها وإن اعترفت أن ذاك خطة سارت عليها لكنها تظاهرت بالامتعاض. ريتا جيوفاني لم تكتف بالامتعاض بل اتجهت إلي مباشرةً، ربما لو لم أحسن التخلص قذفت بكوب الكولا في وجهي، أو بما تبقى من البيتزا، الاسم يدل على أنها

إيطالية الأصل على الأرجح أو ربما مكسيكية. كانت عدوانية بكل تأكيد وحمدت لنفسي بديهتي التي أسعفتني. استعدت ما جرى، ضحكت. ماذا سأقول حين أراها ثانيةً لابد من إجابة مقنعة وإلا! لا. لن يصل الأمر بنا إلى شجار، عليَّ الآن أن أرتب موضوع اللوحة التي رسمتها. أنشغل بالتفكير لتدبير مخرج مناسب وأنجح آخر الأمر. أضحك لأن الحل مثالي وأباشر بتنفيذه. عدت في اليوم التالي. أخبرني النادل بأن الفتيات ضحكن وسخرن من سوداء الشعر وقال لي إن اسمها أبولونيا! يا إلهي. أنا فهمت وهو لم يفهم. إيطاليتي الجميلة اسمها ريتا. أما أبولونيا فهي حبيبة مايكل كورليوني وزوجته فيما بعد والتي حين رآها أصيب بصعقة الحب. نعم حدث لبطل رواية ماريو بوزو (العراب) حين رأى أبولونيا ما حدث لي حين صعقت بوجه ريتا ألونزو جيوفاني. ولابد أن رفيقتيها قد قرأتا الرواية. هي حتماً قرأتها. لقد سخرتا منها باعتبار أندرو براون قد صعق. وأنا فعلاً صعقت، كل شيء كما أريد إلا شيئاً واحداً. ريتا لم تأت في اليوم التالي ولا الذي لحقه. وأنا داومت، في اليوم الثالث رأيتها تشرق في باب المطعم، كنت جالساً بحيث أرى الداخل ويراني، تراءى شبح ابتسامة حين لمحتني وأرادت أن تتجاهلني لكني وقفت ناظراً إليها بحيث لم يعد لها مناص من الاقتراب نحوي.

- هاي.
- هاي.
- ماذا يجري؟
- أرجو أن تقبلي ضيافتي وتجلسي معي من فضلك.

ترددت ثم زمت شفتيها لتقرر:

- شرط أن أدفع أنا الحساب ثلاث مرات مقابل ما فعلت.
- أنا فعلت ذلك اعتذاراً عن سوء سلوكي وإعلاناً لحسن النوايا.
- ليس في دفع حساب ثلاث فتيات أي حسن نوايا.
- ألا تجلسين من فضلك أم نبقى واقفين.

- سأجلس لنصفّي الحساب.
تجلس وتحدق إلي كأنها تريد اكتشاف ما خلف مظهري:
- هل معك صورة للوحتك؟
- اللوحة كلها معي.
تدهش.
- أين هي. دعني أراها من فضلك.
أخرج ورقة من جيبي وأضعها أمامها لتقرأها وتذهل مستنكرة:
- أين اللوحة؟
- اقرئي وستعرفين.
كان هـذا مـا ابتكرتـه، أردت اللعـب علـى الألفـاظ، اللوحـة التـي سـأقدمها سـتكون قصيدة، تذكرت بيتين للشـاعر العربي جرير عن فعل العيـون بـه وبالعشـاق فسـرقت المعنـى بأبيات كتبت فـي أعلاها إلى.... أما الأبيات فكانت:

العيون السود
ترقى بنا إلى ذروة الشعور
ثم تهوي بنا للقاع
يا يسوع المسيح
كم هي رقيقة وجميلة عيناها
وكم فيها من السطوة
لأنها تجرحنا بسيف الأهداب
وبالنظرة الغزلة
إلى....... ريتا جيوفاني

راقبتهـا وهـي تقـرأ، كانـت مسـتنكرة فتحولـت إلـى راضيـة وحين وصلت إلى اسمها ذهلت ونظرت إلي فاغرة الفم. ضحكت.
- أنت تذكرينني بنفسي حين رأيتك.
- ولكـن... ولكـن، كيـف إلـى ريتـا جيوفانـي وأنت لم ترني حتى

الأمس القريب؟

- ألم أقل لك لقد رسمت لوحة من خيالي وأنت تجسيد لها.

- واللوحة كانت قصيدة.

- أعتذر لأن القصيدة لم تكن معبّرة كاللوحة.

- لم يكتب أحد لي قصيدة من قبل، لقد رسموني وغنّوا لي لكن هذه أول قصيدة.

تغضب الآن.

- لو أنك رأيت أي واحدة سوداء العينين لقلت لها هذه القصيدة لك هذا من طبعك الدبلوماسي المخادع حتماً.

أدركت هي أنها قد قالت ما لا يجب، كان الأمر واضحاً جداً، أنا اهتممت بأن أسبك لها تلفيقاً مناسباً وهي قد تحرّت عني، عاملة المقسم أعطتها رقم هاتفي. استدلت على عنواني، فسألت عني، وهاهي تموّه الآن:

- أعني أن كل الشعراء دبلوماسيون ومخادعون.

- الذي أعرفه أن الشعراء وقحون وغير مبالين.

- قد تكون أنت منهم، ولطفك هذا مجرد تمويه.

- إلا في حالة واحدة.

- عن أية حالة تتحدث؟

- أن أكون مايكل كورليوني وتكونين أبولونيا.

شهقت ريتا وضربت بكف على أعلى صدرها وتخضب وجهها النضر بحمرة الخجل، نظرت حولها فرأت النادل، نظرت إليه بشك ثم إلي:

- الوغد، سأشكوه لصاحب المطعم، هو الذي نقل هذه الوشاية.

ضحكت بسرور فابتسمت:

- قل الصدق، متى كتبت هذه الأبيات؟

- الصدق في اليوم الذي رأيتك، هذا المعنى لشاعر عربي قاله

قبل ألف وأربعمائة سنة وقد سطوت عليه لأراضيك.

- ما الذي جمعك بشعر العربي هذا؟

- عملي كدبلوماسي مخادع حتماً حين كنت في دمشق.

ضحكت رغماً عنها ثم عبست وعادت متنمرة:

- وماذا إذا سألت عنك؟ أردت أن أرد لك ما دفعت من نقود.

- ريتا.

- ماذا؟

- هل رآك أحد ولم يعشقك؟

تخضب وجهها من جديد وغضبت مجدداً:

- كل من تراهم حولك. لماذا تصر على هذا المعنى؟ هل فيك لوثة ما؟

- نعم.

تضحك بسرور:

- لماذا أجلس إذن مع مخادع يزعم أنه رسام حيناً وشاعر حيناً آخر ويعترف أن به لوثة؟

- هل أنت رسامة فعلاً؟

- طبعاً ولست مدعية كسواي، قل لصاحبك أن يقترب ليسأل عما أريد.

- صاحبي كما تقولين تركنا نكمل عراكنا. هاهو قادم، أرجوك لا تحرجيه بموضوع أبولونيا.

- حسناً، هاي، أريد الحجم الصغير من الخضار والجبنة، شكراً.

يبتعد عنا وتنظر إلي لتجدني أحدق بها متفرساً في قسماتها الجميلة وحركاتها الآسرة:

- مستر براون، توقف رجاءً، أنت تحرجني وتدفعني لمغادرة المكان.

- فإن كنت لا أستطيع.

- قصيدة الآن أم لوحة؟ أسلوبك غدا معروفاً، لماذا لا تتصرف بعفوية؟

- أتقبلين أن أترك نفسي على سجيتها وأتصرف تلقائياً؟

- أليس ذاك أفضل؟

- عندها سأسند رأسي على يدي وأنظر اليك دون حراك.

- كفى، كفى رجاءً.

ألقت بالمنديل على الطاولة وتناولت حقيبتها وانصرفت غاضبة تاركة قصيدتي اليتيمة، هاأنا أفعلها ثانيةً! المرة الأولى حين جعلت سوسن تحس باتقاد عاطفتي. وهذه المرة خسرت سوسناً أخرى لأني لم أستطيع التريث. لماذا لا أجتذب من أعشق كما أتصيد الرفيقات في ليالي السبت وأيام الآحاد؟ وأعرف الجواب. أنا لا أقدر على التعامل مع من أعشق بروح الصياد. وأدرك بأن لحظة واحدة لم تعبر خيالي وسوسن أو ريتا في سريري. أنا لا أريد منهن ما أطلبه من الصديقات العابرات، جودي، باميلا، نهلة، سميرة والأخريات. أولئك كن شريكات في متعة الجسد. ما أريده ممن أعشق هو متعة الحضور. يا إلهي. إنني معدم عشق.

لم أقتنع بأن ذلك اللقاء خاتمة المطاف بيننا، عرفت أن ريتا جيوفاني ستعود ثانيةً. غبت عن المطعم أسبوعاً لاحقت فيه تصحيح مخطوط الرسالة ثم نسخها وإرسالها إلى الأستاذ. سأنتظر تحديد جلسة المناقشة، لقد عملت بجهد ودأب حتى أنجزت في الوقت المناسب. وقد أعجبت المادة أستاذي المشرف، اقترح تعديلات طفيفة وبضع تصويبات أجريتها كما طلب، عدت للمطعم ليقابلني النادل بابتسامة ويهمس لي: جاءت مرتين من قبل وسألت عنك. إنها هناك في الزاوية. لم أنظر نحوها بل اخترت طاولة تقع في ساحة نظرها وجلست معطياً إياها ظهري، أخرجت الجريدة من حقيبتي وفتحتها دون أن أقرأ شيئاً بالطبع. كانت دقات قلبي مسموعة لي. سمعت وقع خطاها التي توقفت قربي. أرفع رأسي نحوها:

- لا تدع عدم معرفتك بسؤالي عنك. رأيت جاسوسك يهمس لك.

- فإن يكن.

- أريد القصيدة.

أمد يدي إلى جيبي الداخلي وأخرج الورقة أزلقها على قماش المائدة نحوها. تضع أصابعها الرشيقة عليها.

- ألن تدعوني للجلوس؟

- ألن تنهريني وتقومي غاضبة؟

تجلس باسمة:

- لا مبالاتك هذه غير متوافقة مع سلوكك وتصريحاتك السابقة.

- مس جيوفاني، احترت في أمرك. إن أبديت إعجابي الذي هو لمعلوماتك حقيقي ولا غرض له تلقيت تأنيباً. إن عمدت للتحفظ تلقيت استغراباً. أنا أريد أن نتعارف بشكل أوثق وأنت لا تجهلين ذلك. قولي لي ماذا أفعل؟

- الأمر بسيط، أعرف أنك جلست هنا مع أخريات وضحكت معهن ثم صحبتهن للبار أو السينما أو الى أي مكان. لماذا لم تتعارف معي بالطريقة نفسها؟

- وهل كنت سوف تتجاوبين؟

- بالطبع لا، أنا لا أرافق أحداً هكذا.

- وأنا قد أرافق كل الفتيات والنساء اللواتي ترينهن هنا أو في مدرستك أو في المخزن التجاري بالأسلوب المعتاد المبسط.

- وأنا؟

- أنت لا.

- لا تزعم أنك أحببتني وكتبت لي القصائد المسروقة عن شعراء مجهولين.

- لن أفعل، اسمعي ريتا. أنا لا أريد أن يأخذنا النقاش إلى حيث تغضبين. هل.. هل تقبلين دعوتي للسينما؟ يعرضون فيلم أوليفر لكليف

روبرتسون وكاثرين هيبورن؟

- لا.

- حسناً. هل تحبين أن نشرب كأساً؟

- لماذا لا تدعوني للطعام هنا؟

- هل تقبلين؟

- بالطبع أقبل، أعط رجلك إشارة ليأتي. كم تترك له إكرامية عادةً؟

أضحك، ربتا عدوانية بشكل واضح، إنما تلك العدوانية المحببة وهي تعلم - رباه إنها حقاً تعلم - كم هي جميلة ومحبوبة وشهية.

- اسمع، هذه المرة سآكل البيتزا، أريد......

- خضاراً مع الجبنة أعرف.

يفاجئها ويغمز لي ثم يذهب باسماً، أما هي فلا يعجبها الموقف.

- ماذا يفعل موظف مهم مثلك في مطعم كهذا؟

- أنت تعرفين الإجابة.

لمجرد الاعتياد؟

أنا لا أحب التغيير كثيرا

- اسمعوا من يتكلم، الدبلوماسي الذي ذهب إلى أبعد من إيطاليا يقول لا أحب التغيير.

- لمعلوماتك حين ذهبت إلى دمشق لم أكن دبلوماسياً. موظف الخارجية بلى. ولكن ليس دبلوماسياً. وأنا بصدق لا أحب التغيير.

- ماذا تحب إذن؟

أنظر إليها وتفهم ما أريد أن أقول تبتسم:

- سحبت السؤال. لا تجب رجاءً.

- جاء دوري لأسأل.

يأتي النادل بالبيتزا التي طلبتها.

- لا تعذب نفسك أحب هذا الطعام.

- باعتبارك إيطالية.

- أمريكية، ومن أصل صقلي.
- واو.. مافيوزية أصيلة.
- وحقيبتي فيها عدة مسدسات.
- وما حاجتك إليها. ألا يكفي سيف الأهداب والعيون السود؟
تضحك الآن بتلقائية وتهز رأسها وهي تقطع الفطيرة بالسكين، ولم أنتبه إلى أنني توقفت عن الطعام وأسندت رأسي إلى يدي أراقب حركاتها.
- مستر براون، أنت تحرجني ثانيةً.
أنتبه وأبتسم باعتذار:
- هل تعلمين أني لا أتقصد ذلك، أنا أتقصد ألا أحرجك، لكني أنسى ما اعتزمته برغمي.
تقرر ريتا أن تغير الموضوع باتجاه آخر:
- أراك دائماً وحدك. أليس لك صديقة (Girl friend)؟
- لا، منذ سنوات لم تكن لي.
- حقيبتك دائماً مترعة بالكتب والأوراق، من أجل الوظيفة؟
- من أجل الرسالة؟
- الرسالة.
- رسالة دراسية.
- ماستر؟
- دكتوراه.
تصفر بدهشة:
- ألست صغيراً على لقب بروفيسور؟
- ربما.
- وما موضوعها؟
- التأثير الأمريكي في شعراء العرب المهاجرين.
- ما قصتك أنت والعرب؟

- لو عرفتك قبلاً لتخصصت بصقلية.

تضحك وتشهر السكين في يدها.

- ألم يأت دوري في السؤال؟

- لا.

- أمرك.

- هل تنسحب بسهولة هكذا.

- أبداً.

- لماذا الآن.

- لأنك أنت.

ترمقني بنظرة طويلة معاودة المحاولة في معرفة ما أريد ثم يسود الصمت ولا تأبه لنظرتي التي تتابعها حتى تنتهي من طعامها. أدفع الحساب ونقوم لنخرج:

- هل تحب السير على القدمين؟

- أحبه.

- دعنا نسر إذن وحدثني عن نفسك.

- ريتا.

- ماذا؟

- هل لك صديق (Boyfriend)؟

- لا. هل أتأبط ذراعك.

- إن شئت.

تتأبط ذراعي ونسير صامتين. أعرف أني الآن أنبض إثارة وسعادة في داخلي وأشعر أنها بدأت تتقبل اهتمامي بها، وكل ما علي الآن أن أتنعم بقربها. وألاحظ أن سيرنا دون هدف، لذلك خمّنت أن بقاءنا سوية هو الغرض من اقتراحها. أشد ذراعي ضاغطاً ذراعها على صدري وأحس دون أن أرى بابتسامتها. أتوقف فتقف أمامي. أغرق في عينيها.

- ريتا.

تتنهد:

- ماذا؟

- هل تصدقين أن هذا المسير هو أكثر لحظات السعادة التي نلتها منذ سنوات.

تنظر إلي متوسلة:

- ماذا تريد مني قل لي رجاءً.

أضمهـا برفـق الـى صـدري فتسـتكين ولا تمانع أن أطوقها بذراعي وأزفر باشتياق:

- ريتا، لا أصدق أنك لـم تفهمي بعد.

- أخشى أن أصدق ما أفهمه.

- لا تخشي قربي شيئاً.

أمسـك بيدها، ونسـير يداً بيد، وأشـعر أنها سـعيدة وحائرة، أتساءل إن كانت عرفت الحب من قبل فتكويني نار الغيرة مباشـرةً بحيث أشـد على أصابعها.

- ماذا؟

تساءلت محتارة وقد وقفت. أنظر إليها فأرى الرجاء والقبول يطلان من العينين السوداوين. أقترب بشفتي لأقبل عينيها وتستكين إلى صدري:

- أندرو. ماذا يجري لي؟

كان سـؤالها هو اعترافها الأول بالحب، نطقت باسـمي جزعة مما تحـس بـه لـم تسـتطع الرائعـة ريتـا جيوفاني أن تقـاوم كثيراً كل عواطفي التـي كانـت معلنـة منـذ النظـرة الأولـى. ولأنها ذات نفـس فائقة العذوبة وبالغة الحساسية كفنانة فقد لامست عواطفي رومانسيتها. أعجبها إعجابي بهـا. وعرفـت عنـي مـا لا يشـوّه صورتـي فـي عينيها. ثـم كانت القصيدة واعترافي بأنها ليست إلا تخلصاً من كذبتي الأولى. وإصراري على إعلان إعجابي كل هذا جعل حذرها يتضاءل أول الأمر ويتلاشى ونحن نسير معـاً كعاشـقين قديميـن. لمسـت فـي أعماقها قبولاً وأمانـاً. وحين قبّلت

عينيها دفنت وجهها في صدري متسائلة عما يجري لها وسمحت للدموع أن تنهمر باكية على صدري. كانت معافاة وهانئة بقدر ما كنت. هكذا ابتدأت قصة حبنا. ريتا ألونزو جيوفاني براون فيما بعد وأنا.

لم نفترق بعدها، أعود من عملي لنتغدى سويةً هنا وهناك، نتسكع نتبادل القبل نزور المعارض الفنية والمكتبات ودور السينما ونسهر في مطعم هذا الفندق أو ذاك. لم ننم سوية حتى يوم نقاش رسالتي. حضرت هي وحضر بروس تالبوت وشيري تاركين طفلتهما عند الحاضنة. عرفتهما على ريتا، كاد بروس يفضح شبهها بسوسن. هل قلت إني لم أعد أذكر سوسن إلا نادراً. قاطعت بروس وشيري أحبت ريتا. دافعت عن رسالتي ونلت إجازة الدكتوراه. صفق لي الجميع. وحين خرجنا من القاعة قبلتني ريتا، أصر بروس على أن نحتفل سويةً. ريتا لم تقبل وعدته في الويك إند القادم لأنها تريد أن تحتفل بي.

أخذتني إلى غرفتها، أغلقت الباب خلفنا وقبلتني. فهمت ما الذي يجري ولم أشأ أن أنتظر أكثر. ركعت أمامها وأخرجت من جيبي الخاتم الذي اشتريته منذ أيام:

- ريتا جيوفاني. هل تتزوجينني؟

تدفقت عيناها مباشرةً بدموع ساخنة وهي تهز رأسها مخنوقة الصوت.

- أجل، أجل يا حبيبي يشرفني أن أتزوجك.

كانت أجمل ما سمعت من كلمات وقعاً. تلتها ليلة ستظل في خاطري ماعشت. ريتا الحبيبة المحبة العذبة الشهية الجميلة اللذيذة. مهما وصفت ريتا سأظل مقصراً لأنها أحلى من كل وصف. تزوجنا طبعاً في ربيع عام 1970، لم تقبل أن نغيّر شقتي الصغيرة رغم أن ثمنها مجزٍ. أعادت ترتيبها وزينتها بالستائر الجميلة واللوحات الزيتية التي رسمتها. لم نسكن فيها طويلاً إذ تقرر أن يتم إرسالي إلى الجمهورية التونسية ملحقاً ثقافياً. بروس تالبوت كالعادة هو الذي زكاني، تحمست ريتا كثيراً.

رأت المسافة على الخارطة بين تونس وصقلية فصفقت فرحاً. عشنا في تونس قرابة الأربع سنوات من أسعد أيام حياتنا. زرنا إيطاليا مراراً وفرنسا والمغرب وإسبانيا. وحين قررت زيارة دمشق نشبت حرب هناك بين سورية ومصر من جهة وإسرائيل من جهة ثانية ولم أتمكن من زيارة دمشق مع ريتا. كنا على اتصال بكمال وهادية ولم يتمكنا من زيارتنا في تونس. وأنا لم أفوت الفرصة راسلت القاهرة منذ وصلت واخترت أستاذاً وافق أن يشرف على دراستي للغات القديمة. ومن جديد نلت شهادة دكتوراه أخرى. وأسعدتني ريتا بنبأ حملها. عدنا إلى واشنطن في نهاية انتدابي. استقبلنا بروس وشيري وأبواي العجوزان وأم ريتا وخالها. وبعد وصولنا بأسبوع رزقنا بحبيبة قلبي سوزان. ريتا كانت تعرف عن سوسن كل شيء إلا أنها تشبهها لذلك كانت متفقة معي على اسم سوزان، أبي حمل الصغيرة وسعادته كانت بادية للعيان. جاءت سوزان لتحاط بمحبة وحنان من قبل الجميع. وفتن والداي بريتا. دع عنك جمالها الذي يجتذب العيون والقلوب فإن حسن معشرها وطيبة قلبها يكفيان لتفتح مصاريع الأبواب المغلقة. لم تستطع أمي مقاومتها منذ اللحظة الأولى. قبلتني من جبيني وقالت: أندرو، من كان ليصدق أنك ستصبح أنبه أولادي، وأن السماء سوف ترسل لك ريتا هذه؟! إنها نعمة من السماء يا بني. اشكر للرب نعمته كلما استطعت. وأنا كنت لا أكف عن الشكر. كيف لا وأنا لا أحسد أحداً في الدنيا. ولم ينغص علينا غير تقاعد بروس واعتزامه مع شيري مغادرة واشنطن بصقيعها اللافح إلى ولايتي الأصلية تكساس حيث تعاقد مع الجامعة في أوستن ليعطي محاضرات في السياسة الدولية والعلاقات مع مشكلات الشرق الأوسط. بهذا الخيار الذي سلكه بروس فتح أمامي الباب فيما بعد لدخول عالم الجامعة. أما مرحلياً فالذي فعلناه هو شراء منزل بروس بعد أن تم بيع شقتي خلال ثلاثة أيام وبسعر مغرٍ. ولم أحتج وبروس لوساطة عقارية وكان هذا توفيراً مناسباً. وقد ترك لنا هو وشيري ما

أعجبنا من الأثاث الوثير مقابل أسعار معقولة. كنا نحن الاثنين رابحين. وقد وعدونا بالزيارة كما وعدناهم، ولم تنقض سنة على ميلاد سوزان حتى فجعنا بوالدتي. هرعنا إلى أرلنجتون لنشارك في الجنازة والعزاء، الجميع أرادوا أن يروا ريتا زوجة الدكتور أندرو. وقد غمزت لها حين أتت سو ماكينزي التي همست لي بصوت مسموع: من أين جئت بهذه الغجرية يا آندي براون؟ أخواتي البنات أحببن ريتا. واستقطبت سوزان الصغيرة اهتمام الصغار والكبار.

عرض علي أستاذي المشرف على رسالة الدكتوراه أن أدرس في الجامعة وأعطي محاضرات عن اللغات الشرقية القديمة. وزارة الخارجية كانت ترى في بديلاً لبروس تالبوت وأنا لم أكن راضياً. تعبت من سماع الأخبار وملاحقتها واختصارها وتقويم المواقف. لذلك سألت أستاذي عن إمكانية شغلي لوظيفة أستاذ في الجامعة، بعد أيام أجابني بالإيجاب. وباستعداد الجامعة لإعطائي وظيفة أستاذ مساعد براتب مغرٍ وإمكانية الارتقاء الوظيفي والمادي متوفرة. أستشير بالهاتف بروس فيشجعني ويلمح لي بأن سبب تقاعده المبكر هو البيئة غير الموضوعية في وزارة الخارجية. وأن رأيهم بي ليس طيباً بكل الأحوال. أتقدم باستقالتي من الخارجية وألتحق بالجامعة وهذا يترك لي وقتاً أطول أقضيه مع غاليتيّ ريتا وسوزان، نعيش لحظات سوزان يوماً بيوم بل ساعة بساعة، أول حروفها، وأول أسنانها وبداية زحفها، وأين خطت خطوتها الأولى ومتى قالت دادي، ومامي. ريتا التي تعلمت التحدث بالعربية أثناء إقامتنا في تونس تجاريني لنضمن أن تكبر سوزان وهي تحسن اللغتين الإنكليزية والعربية. ويختلط التعبير عند ملاكنا الصغير فالكلمة التي تنقصها من هذه اللغة تستحضر بديلتها من اللغة الثانية. وعندما تبلغ السادسة يفاجئنا كمال بأن ابنته الكبيرة كنانة قد جاءت إلى تورنتو زوجة لأستاذ جامعي شاب وأنه سيزورها مع سامية وإن كان عندنا فراغ فسوف يزوراننا. يا إلهي. تصوري يا ريتا أن أرى كمالاً وسامية بعد عشر سنوات من افتراقنا.

ريتا فرحت لفرحي. وسوزان تريد أن تحمل باقة ورد لآنت سامية في المطار. إنها تعرف الأسرة كلها من الصور. ونلتقي في مطار العاصمة. يا إله الناس، يذهل كمال حين يرى ريتا ويتمالك نفسه ويعانقها كما يعانقني ثم يرفع سوزان للأعلى ويحملها مع ورودها إلى أقصى ما تسمح به ذراعاه وهو مبتهج سعيد وحين ينزلها يقول لها بالإنكليزية أنا العم كمال فتقول له بالعربية عمي كمال. سامية لا تتمالك نفسها تخطفها منه وتقبلها مراراً. أعرف أنا كم يحب العرب تقبيل الصغار. كنت قد أفهمت ريتا ذلك فقالت: والإيطاليون يا حبي يقبلون أطفالهم وأطفال الآخرين. منذ غادرت تونس لم أعثر على العرق إلا نادراً. جلب لي كمال خمس زجاجات.

أخذته خلال يومين إلى كل المواقع المهمة من متاحف وأماكن تذكارية والبيت الأبيض والكونغرس والحدائق ثم تفرغنا لبعضنا بعضاً بينما تكفلت ريتا وسوزان بسامية. شربنا ثلاث زجاجات من العرق وسمعنا أشرطة أم كلثوم وتحدثنا عن ريتا وهادية وسامية وابنه عمر وعطا ونورا وسوزان. تحدثنا عما يجري في سورية وعن الهزائم والانتصارات ولم يسعفنا الوقت. كان لايزال لدينا الكثير الكثير لنتحدث عنه. وعد بزيارة قريبة له ولهادية. سألته كيف علاقتها بأولادك؟ قال: ممتازة وسامية أيضاً تحب عمر ولدي من هادية. عاد إلى تورنتو ثم سافر منها حاملاً معه عدة نسخ من رسائلي للماستر والدكتوراه. له وكهدية لمكتبة كلية الآداب في جامعة دمشق. انتظرنا قدومه مع هادية لكنها لم تكن قد حصلت على فيزا للولايات المتحدة. وسفارتنا في كندا لم تمنحها إياها. استشرت ريتا فتحمست للذهاب وساندتها سوزان بالطبع وماذا يفعل واحد مثلي أمام ابتسامتين من حبيبتيّ؟! نسافر إلى تورنتو ليستقبلنا كمال وهادية وكنانة وزوجها، أفاجأ بهادية كما يفاجأ الجميع بريتا ونقضي أياماً جميلة في تورنتو. وريتا التي أحبت سامية من قبل أحبت هادية أيضاً. كانت حسناء بمعنى الكلمة، وابنتنا سوزان عبرت عن ذلك حين قالت لها ببراءة: آنت

هادية أنت جميلة مثل مامي. قبلّتها هادية وقالت: شكراً يا سوزي. لكن لا أحد بجمال مامي صدقيني. نزلنا سوية إلى فانكوفر ومن هناك ركبت مع أسـرتي إلى سـياتل ثم إلى واشـنطن. يا إلهي كم كانت أيامنا سـعيدة وجميلة. من كان يخمن أو يتوقع كل الأسى الذي ينتظرني أنا وسوزان؟ من يصدق أن شـابة في عمر ريتا وفي حسـن ريتا سـتمتد إليها يد القدر الغاشم لتحرمنا إياها من دون أي أسباب وبلا أية مقدمات!

«21»

حسب الشرع

ناديت على عمر الذي كان في غرفته فخرج إلي مطاطئ الرأس ثم نظر إلي مستعيداً اعتزازه بنفسه أمامي وقال:

- ماذا تتوقعون مني يا أبي حين أدخل فأرى أمامي فتاة - أستغفر الله - شبه عارية؟ وو... وليتها اكتفت بعريها، لقد... لقد...

لم يستطع أن يكمل. فطوقت هادية كتفه باسمة:

- لا بأس يا حبيبي. حصل سوء تفاهم، هل حضرت أغراضك؟

- انزل ورتب أمر نومك الليلة وعد فيما بعد.

- أريد أن أفهم ماذا جرى؟ أين سوزان؟

- في الغرفة يا كمال، سوف أخبرك، وأنت يا عمر، عليك أن تعتذر حين تعود.

- من بعيد يا أم عمر. هل فهمت؟

تضحك هادية فيما يخرج عمر بحقيبة صغيرة وأنا بالطبع لم أفهم شيئاً سوى أنه دخل من الباب فرآها، ولأن معظم المرأة في رأيه عورة فلابد أنه قال أو فعل شيئاً جعل هادية تستنجد بي.

- ماذا جرى حقيقة؟

تضحك هادية بسرور:

- منظر لفيلم كوميدي ناجح. سوزان بالمنشفة فقط خارجة من الحمام، يدخل ولدك عمر فيقول: أستغفر الله حين يراها.أقول: إنها سوزان براون يا عمر. وحين تسمع هي اسمه تصرخ مستثارة عمر. وتقفز لتعانقه وتقبله.

جاء دوري الآن لأضحك وأنا أتخيل المنظر.لطالما شكت لي نورا

من تزمت عمر فهو يكاد يضيّق على أخته كما لا يفعل زوجها. فكيف حين رأى سوزان شبه عارية ثم تقفز على عنقه لتقبله؟!

- ماذا كانت ردة فعله؟!

- دفعها عنه بقوة وهو مشمئز غاضب، وقعت على الديوان وانفكت المنشفة فغطى عينيه وركض مستنفراً وأغلق باب غرفته، وأنا عانقت المسكينة التي سالت دموعها خجلاً وقهراً وخيبة، لم تفتح فمها بكلمة إلا: آسفة. ظنت أنها ارتكبت جرماً ما. هدأتها وأدخلتها إلى غرفة البنات. جعلتها ترتدي ثياباً مريحة وربما نامت الآن.

- ما قصة عمر هذه وإلام ستطول؟

- لا تغضب لن يفيد ذلك في شيء، سأرى إن كانت مستيقظة. عليك أن تطيب خاطرها. واستعجل قدوم نورا، دعها تنزل إلى القبو لتحضر عمر معها. نورا وحدها الآن قادرة على تدبير أخيها.

أتصل لأستعجل نورا فلا أتلقى جواباً. لابد أنها في الطريق، وأرى سوزان تقبل إلى الصالة مترددة مرتبكة.

- أونكل كمال أنا لم أقصد. وإذا كان وجودي سوف يسبب....

ولا أتركها تكمل، رأيت أنها في حالة انفعال وتوتر:

- سوزان، هل قرأت شيئاً عن الإسلام؟

تدهش لسؤالي:

- نعم.. أعرف، أعرف أن الإسلام يقول الله واحد. ومحمد نبي، ويسمح لك بالزواج من آنت هادية وآنت سامية.

أضحك أنا وهادية، وتبتسم سوزان محتارة.

- هل قلت شيئاً خاطئاً؟ أرجوكما أنا لا أريد أن أخطئ.

- تعالي لنجهز الضيافة معاً وسوف أحدثك بحقيقة ما جرى ولماذا فعل عمر ما فعل. كمال هل اتصلت بنورا؟

- لم يجبني أحد..

تذهب هادية بسوزان إلى المطبخ، وأدرك أنا بأن عمر الآن نادم

بشدة لكنه يعزي نفسه بأن ما فعله سوف يرضي الله. لقد خرج الأمر من يدي قبل وقت طويل، فقد سمح الحكم في فترة ما أثناء السبعينيات للمتدينين بالنشاط وتغافل عن دورهم في المدارس بينما كان أي معلم أو معلمة من ذوي الانتماء اليساري ينقل أو يبعد تنفيذاً لميثاق ما جعل العمل السياسي في قطاعي الجيش والتربية حكراً على حزب البعث وحده. وغفل المخبرون عن النشاط المبرمج للإخوان المسلمين والتجمعات المتدينة السياسية مما لم يستطع ممالئو النظام من البعثيين الباحثين عن المكاسب أن يقاوموه. فانتشر تأثير الإسلاميين السياسيين في المدارس ثم في الجامعات. ووصل ولدي عمر إلى الإعدادي بعد أن وضعت الأسس معلمته في الابتدائي التي ركزت جهودها على الصلاة والوضوء والأناشيد الدينية غير آبهة للحديث عن الإسلام الذي حرر المستضعفين وأنصف المرأة ووقف في وجه الاحتكار والغش والفساد، صلاة الجماعة للذكور وحجاب الرأس للفتيات هذا كان جوهر التدريس عند المعلمين والمعلمات من ذوات أغطية الرأس المتنوعة بين الأبيض والكحلي. المهم أن عمر أثناء دراسته الابتدائية تلقى ما كان أرضية استثمرها مدرسو الإعدادي وخاصةً أستاذ اللغة العربية الذي كان كما فهمت لاحقاً يحول درس اللغة إلى درس عبادات وفقه وتجويد. وشيئاً فشيئاً بدأ عمر يذهب إلى المسجد لصلاة الجمعة، ولم أستطع أن أقول له لا. وصام رمضان للمرة الأولى في الصف الثامن، وفي التاسع كان يعطي أمه دروساً في الدين تسمعها مرغمة، ولابد أن أحداً ما في الصف العاشر وقد اتسع الصدام بين الإخوان المسلمين والسلطة. لابد أن أحداً أراد من عمر أن ينتسب إلى حلقة أو جماعة أو فئة ما وهذا جعله يبتعد عنهم تلقائياً ويكتفي بأداء صلاة الجمعة وصيام رمضان. لكن محاولة التأثير عليه من قبل الأسرة لم تلق منه إلا كل تعنت. كل من عطا وكنانة ونورا حاول مع عمر لكن دون نجاح. بالنسبة لي لم أتدخل مباشرةً، حذرتني هادية من أن عمر يعتقد أني مؤيد للشيوعيين وهذا يعني أني

دهري وملحد. وأن عليه طاعتي فيما لا يغضب الله.

ليس في الدنيا امرأة في مثل فهم هادية للحياة، لقد اكتوت بنارها مراراً لأنها جميلة، والجمال مبعث الشرور، الجميلة بنظر أمها أكثر استعداداً من الأخريات للانحراف، لذلك حاولت - دون جدوى طبعاً - أن تجعل هادية تهمل جمالها، ولكن إطلالة هادية حتى دون أي ماكياج. وكيفما كان شعرها. إطلالتها وحدها فيها كل الجاذبية والفتنة. لذلك زوجتها أولاً وثانياً حتى أترعت نفس هادية بالمرارة وتشبعت بروح التمرد وعندها أوقفت الآخرين عند حدودهم وتفرغت لي.

خلال الأيام الأولى من عودتنا للقاء بعضنا بعضاً كنت أحاول تعويض ما فاتني أثناء غيابها، أجبرتها أن تراني كل يوم وفي أماكن عامة حتى لا تفسر موقفي خطأ. وكان علي أن أتخذ قراراً سريعاً. فمادمت لا أستطيع الاستغناء عنها. ومادمت لا أريد الافتراق عن سامية فالحل كان يرغمني على اللجوء إلى الشرع. تصوروا العلماني اليساري الذي هو أنا يعمد إلى الحلول الشرعية. الزواج مرة ثانية. إنما كيف؟ ماذا أقول لسامية؟ المصادفة هي التي سهلت مباشرة الحديث، كنت جالساً اقرأ رسالة جلبتها من صندوق البريد وكانت من أندرو، كان يشكرني على قوائم الكتب التي أرسلتها إليه ويطلب عدداً منها. سمعت وقع خُطا سامية، نظرت نحوها كانت جامدة الملامح معدومة اللون إذ فرّ الدم من وجهها وكانت تحمل بنطالي وفي يدها محرمة ورقية.

- ماذا يا سامية؟

اقتربت وعرضت أمامي المحرمة التي بدا عليها واضحاً مسحة من أحمر الشفاه. يا إلهي. يا لتلك العادة القبيحة عندي في عدم رمي المحارم والأغلفة وغيرها من السيارة. أنا وحدي في دمشق أفعل ذلك. إنه تأثير أولاد الكلب الإنكليز وربما الإيرلنديين. قبلت هادية خطفاً قبل أن أنزلها. ضحكت وقالت: امسح شفتيك حتى لا تكتشفك أم العيال. تناولت منديلاً ورقياً. مسحت فمي جيداً وعولت على رميه لكني وضعته

قرب محفظتي بجوار معشّق السرعة. وقد تعثر ركن سيارتي لأن المسافة بيـن سـيارتي جيرانـي كانـت ضيقـة مما تطلب منـاورات عديدة جعلتني أشتم وحين أفلحت في صف السيارة تناولت المحفظة ولابد أني أخذت المنديل معها ووضعتهما في جيب البنطال. وسامية الآن تريد جواباً عن السؤال الصارخ المتمثل في حمرة الشفاه اللعينة هذه.

- كمال، لا تحاول الإنكار، رائحة العطر النسائي لم تجعلني أتوقف عندهـا. حتـى القليـل مـن الكحـل الأسـود لم يجعلني أيضاً أتسـبب في جـدال. اعتبـرت هـذا وذاك نتيجـة عملـك في الصيدليـة. احتكت كتفك بيد معطرة. أو أخذت نقوداً عليها بقايا كحل. أما أحمر الشفاه هذا فلا معنى له إلا الخيانة. كل هذا في أسبوع واحد يا كمال. العطر والكحل وأحمر الشفاه. من هي؟ ولماذا؟

كان علـي الوصـول إلـى هـذا الموقـف عاجـلاً أم آجـلاً. ولم أكن متحضراً له بعد، لذلك كانت الحقيقة أهون الشرور.

- سامية، أرجوك اهدئي واجلسي لو سمحت.

- أنـت تـرى أنـي هادئـة، منـذ أيام دبلن لم يخالجني أي شـك في سـلوكك. أرجـو ألا تظـن فـيّ الغبـاء بحيـث أعتقـد أن حياتـك في دبلن كانـت حيـاة ملائكـة رغـم أنـا كنـا متزوجين، ولا أظنـك تعتقد أني كنت بلهاء بحيث انطلت علي قصصك عن الكتب والدراسـات التي تعلمت منها دروس السرير.

- لم يخطر ذلك ببالي.

- أنا (طنشت) بخاطري، لن تتوقع مثل ذلك مني الآن.

- لا أتوقع.

- من هي؟ و........

- سأحدثك بكل شيء.

- اتبعني إلى غرفتنا.

وعلـى سـرير الزوجيـة أكـدت لها أن إغـراءات عديدة تعرضت لها

خلال عملي في الصيدلية ولم أستجب لأي منها. فعقبت على ذلك قائلة: هذا واجبك ولا فضل لك فيه، تابع. حدثتها عن هادية حين دخلت الصيدلية، وعن عودتها. والاتصال الهاتفي ثم اللقاء وبعد ذلك وداعنا. حدثتها عن حياة هادية قبل الزواج الأول وبعده وعن الزواج الثاني ثم حريتها وبعدها لقائنا وخروجنا معاً إلى الأماكن العامة. سمعت سامية كل هذا ووجهها لايزال خالياً من الدماء وأنفاسها سريعة. رأيتها تكز على أسنانها وفمها مغلق ثم نظرت إلي بحيادية تامة:

- هل رأيت بنتيها؟

- لا.

لم يخطر ببالي أن يكون هذا أول تعليق لها.

- هل تحبك؟

- أظن.

- هل تحبها؟

لم أجبها. أشحت بوجهي عنها، سادت فترة صمت لا تسمع فيها إلا أنفاسنا المتسارعة. ثم نظرت إليها.

- هل ستطلقني؟

- مجنونة، ماذا تقولين؟

- أجبني، هل ستفعل؟

- لا، مستحيل أن أفعل.

رمت القميص في وجهي ووقفت ترتجف شفتها وذقنها:

- خذ ثيابك واخرج، لا أريد أن أراك.

- سامية.

- اخرج من البيت يا كمال. اذهب إلى جهنم إلى الهفا. لكن لا تدعني أرى وجهك قبل أن أطلبك.

اتجهت إلى باب الغرفة وقبل أن تفتحه نظرت إلي:

- مادمت لن تربي أولادك هنا فأنا أحذرك من أن تربي بنتيها

هناك. ستتزوجها طبعاً، لن تكتفيا بعهر السيارة والطرقات أليس كذلك؟
- سامية. صرخت بها.
- غضبت لحبيبة القلب؟ خذ ثيابك في حقيبة، أرسل مطاع الحلبي غداً ليأخذ كتبك وأغراضك.
- أين أذهب بها؟
إلى الشيطان. ما همّني. لوازمنا يؤمنها زلمتك مطاع.
لنترك كل هذا للغد.
- الآن، الآن يا كمال أم أنك تريد شجاراً أمام الأولاد والجيران.
ما الذي كنت أتوقعه؟ الحقيقة أن أفكاري كانت دائماً تراني وهادية في بيت واحد. بالأحرى في غرفة النوم. ولم أكن أسأل نفسي كيف سنصل إلى تلك الغرفة. أعرف أننا سنغلق علينا بابها قريباً. ولكن الطريقة والأجواء ظلت دون نقاش في ذهني. هاهي سامية تفتح لنا بابها. إنها لا تريد الطلاق، وهي تتوقع أن أتزوج من هادية. والآن ماذا أفعل؟ أتصل بأنور حداد أم بمطاع الحلبي أم بهادية؟ تمنيت لو كان أندرو هنا. كنت سأذهب إليه، أتصل إذن بفندق بل سأذهب إليه مباشرةً، كان بالقرب من الصيدلية فندق في شارع 29 أيار. أنام فيه تلك الليلة. وكان الوعد أن تأتيني هادية منذ الصباح لأننا سنذهب إلى الغوطة. وحين أحدثها عما جرى أسمع إجهاشة بكائها:
- لماذا الدموع الآن؟
- هل تريد أن تتزوجني حقاً يا كمال؟
- الآن، الآن إن أمكن، تعلمين ذلك. ألا تعلمين؟
- كنت آمل، لكني لم أكن أتوقع أن أصل إلى السعادة بهذه السرعة.
كيف حدث كل شيء بتلك السرعة فعلاً، مطاع الذي لم يفاجأ لأنه رأى تردد هادية على الصيدلية واستغرب غياباتي المتكررة هو الذي دبّر لنا بيت الإيجار. البنتان ستبقيان بين أمهما وجدتيهما. هادية حاولت إيجاد عذر لتحفظ سامية على عيشهما معنا. أم هادية حين رأت فرحة

ابنتها وهي تشدني من يدي لتقدمني إليها قبلت بالأمر الواقع. أولاد عمي، إخوة سامية لم يكن لهم أي تعليق سوى: الله يقدم ما فيه الخير. عرفت فيما بعد أن سامية استدعتهم وشرحت لهم كل شيء وطالبتهم بعدم التلفظ بكلمة واحدة تزعجني. ظل علي الأولاد وأمهم.

- ألو.

- أهلاً.

- أريد أن أراكم.

- تعال.

أفتح الباب وحين يراني الأولاد يندفعون صارخين مهللين. أعانقهم وأقبلهم وأرى عطا يكبح دموعه. تغلبني الغصة، وأنظر إلى سامية وأراها تمسح دمعة عن خدها. نورا تريد أن تبقى في حضني وكنانة تريد أن تريني دفترها. سامية لم تشرح الأمر إلا لعطا كما يبدو.

- اذهبوا إلى غرفكم هيا.. البابا والماما عندهما حديث.

يبتعدون، وعطا نظرته معلقة بي حيناً وبأمه حيناً آخر.

- سامية، أنا لا أستطيع الابتعاد عنهم.

- متى تتزوج؟

- حين تعدينني بألا أغيب عن أولادي.

- سمعت أنك استأجرت بيتاً.

- سامية، أنا لن أستطيع العيش بعيداً عنك وعن الأولاد.

- عني؟

- عنك قبل الأولاد. منذ متى نحن معاً.

- منذ خلقت أنت.

- وحتى أموت وحتى أبعث حياً.

تبتسم رغماً عنها.

- سأجعلك تراهم.

- وأراك.

- لماذا؟
- أتريدين أن أشرح لك لماذا؟
- بالطبع.
- تعالي.

أمسك بيدها وأشدها لتلحق بي ورغم الممانعة غير الشديدة أدخل إلى غرفة نومنا بها وأقفلها من الداخل وهي تتظاهر باللامبالاة، أنزع عنها قميصها وهي باردة جامدة، لكني حين أدفن أنفي تحت إبطها وأتشممها ثم أقلبها على السرير لأزرع ظهرها قبلاً وعضات صغيرة ثم أنزل مكتسحاً أسفل ظهرها تطلق آهة طويلة وتسحبني فوقها.

- هل ستظل راغباً بي هكذا؟
- أتشكين في ذلك؟
- وتعدل بيننا.
- ربما بعد سنة.
- بل منذ البداية وإلا.
- وإلا ماذا؟
- سأحرمك من هذا.

وتبدأ هي بمهاجمتي حيث تعرف وحيث أريد، ونتواصل ببعض العنف.

- منذ متى يا كمال؟
- ماذا؟
- روحك العدوانية هذه في المعاشرة.
- هل أعجبتك؟
- طبعاً.
- نحن في الخدمة سامية خانم.
- اتفقنا على العدل إذن؟
- من السنة الثانية.

- بل من اليوم الأول يا حضرة. مفهوم.

أحس أنها قبلت بما يجري، وأن ما بيننا سيظل أقوى من كل المستجدات.

- هل قبلت هاديتك بالابتعاد عن ابنتيها؟

- قبلت.

- هل تحبك حقاً يا كمال أم أنك فرصة لها؟

- أحب أن أعتقد بأنها تحبني.

- أفضل لها أن تفعل وإلا شحطتها على وجهها من شعرها ورميت بها خارجاً.

- عجيب أمرك. تؤذينها إن لم تحبني؟

- وكيف لا.. أنت بعد كل شيء ابن عمي يا سيد. مفهوم أم...

- مفهوم، لا تضربي من فضلك.

يا إلهي، سامية فريدة بين النساء. وحين سمعت هادية بكل ما جرى سالت دموعها وبكت بصمت.

- أتمنى لو ألقاها.

- لماذا؟ ماذا ستقولين لها؟

- لأقول لها إنك في عيني وقلبي يا كمال، وإنني بقدر سعادتي بك ومعك يخالطني الأسى لأي قدر من التعاسة أسببها لسامية والأولاد.

- يا حبيبي. أنا لا أحب الدراما رجاءً، متى تنتقلين إلى بيتك؟

- أحضر غداً كاتب المحكمة وسأكون في بيتي.

- سأفعل.

وهكذا ضمنا البيت الصغير في جادة الخطيب زوجين طال اشتياق كل منهما للآخر. ورغم أن هادية كانت زوجة لمرتين. وأماً لابنتين فإنها بدت لي وأنا أشدها إلي كعذراء ليلة زفافها. كم هي محبة ورقيقة وشهوانية، بعد الوصال أول الليل قالت لي: هذه أول مرة في حياتي أكون راغبة بقدر ما أنا مرغوبة يا كمال، ستكون حياتي معك كاملة.

وهكـذا هـي حياتنـا فعـلاً، بـل حياتـي أنا في البيتين. اعترفت لي سـامية أنها نجحت في رؤية هادية:

- إنها جميلة جداً يا ضرسان، لا، ليس بك علة، تعرف طعمة فمك.

ورؤيتها لها جعلتها تغار. أخذت تمارس رياضة المشي في المدينة الرياضيـة القريبـة، ثـم بـدأت حميـة مـع الانتقـال إلـى الجـري الخفيف والتماريـن السـويدية، أجبـرت زوجـة أخيها رشـيد علـى مرافقتها بعد أن أخافتها من أن تأتيها ضرة كما حدث معها. ولم تمض سنة حتى عادت سـامية رشـيقة مشـدودة كما كانت أيام الغرام الأولى. ورزقنا هادية وأنا بعمر. هل قلت لكم إن سامية تراجعت عن اشتراطها بابتعاد ابنتي هادية عنـا. نعـم سـرعان مـا رأت أنـه من الظلـم لهادية والبنتين أن يحدث هذا الافتـراق، لكـن جدتهمـا لأبيهمـا رفضـت وأنـذرت أن تطالب بالحضانة إن أجبرتـا علـى العيـش مـع رجـل غريب. ظلت الصغيرتان بين الجدتين وهادية. كل شيء كان متوفراً لهما إذ ورثتا هما وهادية والجدة ما خلفه الأخوان. تزوجت الاثنتان من شـابين نشـيطين سـحب الأول الثاني إلى الإمارات وهما تعيشان هناك وعلى اتصال دائم بهادية ومع أخيهما عمر. عمر الذي احترت في أمره، وهاهو الآن يبالغ في رد فعله على سوزان، تأتيني ضحكات سـوزان وهادية من المطبخ. سـوزان تحب هادية، ذات يـوم قالـت لهـا أنـت فـي جمـال أمـي. رحم الله ريتا، كانـت أيضاً فريدة فـي حسـنها. ولا أدري مـاذا يفعـل أنـدرو الآن؟ هـل عاد يتصيد الفتيات من جديد؟

يـرن الجـرس، ونعـرف أنهـا نورا، أبنائي يعاملون هادية كأنها أخت كبيرة لهم بل إن نورا أسرّت لهادية بحبها لمن غدا زوجها قبل أن تصارح أختها كنانة، أسـمع المفتاح يوضع في باب الدار لابد أنه عمر. تدخل نورا الضاحكة وخلفها عمر يحمل شادي ولدها. وتقبلني نورا ضاحكة:

- أين سوزان؟

تصل في اللحظة نفسها هادية وسوزان، تفتح نورا ذراعيها لتعانق

سوزان وترتبك هذه وتنظر لهادية وتتساءل:

- ممكن؟

وننفجر جميعاً بضحكة طويلة يخاف لها شادي ويضحك معنا عمر، فتعانقها نورا وتقبلها بمحبة تجعلها تبتسم ثم تتملص لتذهب إلى عمر:

- أنا آسفة، آسفة كثير.

- وأنا آسف جداً، لنبدأ من جديد. هاي. أنا عمر.

- (I Know) أنا أعرف، هاي. أنا سوزان.

يتصافحان، وتنظر سوزان بخجل الآن وتشير إلى شادي الذي يحمله خاله:

- ممكن؟

- سوزان بالطبع، ولا تجعلي سلوك أخي المتشنج العدواني يحبطك ظلي على سجيتك ولا تهتمي له، هاك سأعطيك إياه.

تتناول منها شادي الخجل الذي يريد أن يبكي، ويمد يديه نحوي. فتسرع لتقدمه إلي مرتبكة.

- عمر، أنا آسفة لأني سأحتل غرفتك الليلة.

- لماذا لا تعطينها غرفتنا خالة هادية؟

- سوف تسكن في القبو وحدها اعتباراً من الغد. الليلة فقط معنا.

- أوكي، سوف نحوله إلى مقر للبنات وحدهن ما رأيك يا سوزان؟

- نو، إنه لي وحدي، أول مكان يخصني. شقة سوزان براون.

وتضحكنا بسذاجتها وصراحتها ويحضر عطا وزوجته يمنى والطفلان (يسار ومصعب)، ونقضي سهرة جميلة احتل الأطفال مركزها لأنهم كالعادة يستقطبون كل الاهتمام والمحبة.

كل ما في قصر الباشا جعلها تقفز فرحاً أو تصفق دهشةً وسروراً كأنها لا تعيش في قصر حقيقي فيه خمسة حمامات ومسبح وحديقة غناء ومرآب يتسع لسيارتين، وأدرك أن مبعث سرور سوزان في القبو هو استقلاليتها للمرة الأولى. فهاهي في بلد غريب ناء عشرات ألوف

الكيلومترات عن بيتها وهذه الشقة الصغيرة لها وحدها ولما يقارب السنة. عندما نزلنا إلى القبو سوزان وأنا كانت أم معتز التي تتولى تنظيف بيتنا قد أنهت تنظيفه وتجهيزه بإشراف هادية. قامت سوزان بتوزيع محتويات حقيبتها على غرفة النوم والحمام ووضعت صورة لريتا في الصوفا كما وضعت صورة لها ولأبيها وأمها التقطت قبل وفاة الأم. استأذنت دقيقة لتغير ثيابها وهاهي الآن جاهزة لزيارة (آنت ساميا) كان غداؤنا في بناء المالكي حيث بيتي الثاني.

بعد زواجي بهادية ووصولي مع سامية إلى حالة تفاهم واستقرار فاتحتني برغبتها أن تنتقل إلى حي المالكي الحديث. كانت لها قطعة أرض ورثتها عن المرحوم عمي، اختارتها هي كما اختارت قطعة صغيرة من المزرعة انضمت إلى حصتي. وهي تقترح الآن أن أبني فيلا من طابقين، لنا معاً طابق والثاني لولدنا عطا يحتاجه عندما يتزوج.

- وهذه الشقة ماذا نفعل بها؟

- تنتقل إليها مع هادية، لا يليق أن تظل ساكناً في بيت إيجار يا كمال بيك.

هذه كانت إحدى أفكار سامية الرائعة، لذلك نسكن في غربي المالكي في جادة جميلة هادئة طابقها الأرضي يمرح فيه يسار ومصعب مع والديهما عطا ويمنى. والثاني لي ولسامية وللأولاد قبل أن يتزوجوا ويغادر كل منهم إلى بيته الجديد.

استقبلت سامية سوزان بالعناق، كان الجميع موجودين على الغداء إلا هادية، هكذا هي الأمور، الكل يتواجدون هنا أو هناك وتغيب هادية أو سامية حسب المكان. وأنا لا يزعجني ذلك. صديقي عزيز نصري فعلها بعدي وجعل سكن الضرتين في بناء واحد. كانت النتيجة فضائح لا تنقطع. نحن حتى في المناسبات التي تستلزم حضوري مع واحدة منهن لا نختلف على من ستحضر لأن ثمة برنامجاً غير معلن نسير عليه. إن كانت المناسبة لصديقة أو قريب لسامية فهي المدعوة معي. والعكس

صحيح، وإن كان صاحب العلاقة أنا فحسب الدور. المهم في تلك الجلسة الصاخبة كان شادي ومصعباً، كلا الطفلين تنافسا على خطب ود سوزان التي أسعدها تعلق الطفلين بها. يسار كان أكبر وتدركون لماذا سمّاه حبيبي عطا بهذا الاسم. هل قلت إن الولدين عطا وعمر يشبهانني وأن كنانة ونورا تشبهان سامية، في الولدين ملامح الحاج عطا رحمه الله. بينما البنتان أخذتا حسْن سامية وحافظتا عليه. يمنى زوجة عطا رقيقة نحيلة كأنها عارضة أزياء. يسار حفيدي يشبهها طولاً وملامح.

سألت نورا سوزان عن البرنامج الذي تريده لحياتها فهزت سوزان كتفيها بحيرة، نورا مهندسة معمارية، موظفة في دائرة حكومية، أي أنها لا تعمل شيئاً لأن عدد المهندسين في الدائرة يفوق احتياجاتها بكثير. كنانة مهندسة ديكور. خريجة فنون وهي قد تابعت في كندا دراسة التصميم الداخلي، زوجها يدرس في الجامعة لكن دخلها كمهندسة تصميم ضعف راتبه. عطا ولدي البكر تسلم الصيدلية مني. أما آخر العنقود عمر فهو طبيب أسنان يختص في دراساته العليا في المداواة اللبيّة. زوج نورا ماهر متخرج من كلية التجارة ويملك مكتباً للطباعة والنسخ وبيع لوازمها أمام كلية الهندسة. وهناك التقى بنورا. ماهر ذكي ونشيط (حربوق) إضافةً إلى وسامته، يسكن في شقة فسيحة في الروضة مع والدته التي اغتربت ابنتها إلى كندا أيضاً ولم يبق لها إلا ماهر. وأم ماهر تكاد تتعبد أمام حفيدها وحفيدنا شادي. وهي على تفاهم كامل مع نورا تدللها وتجعلها لا تفعل شيئاً لأنها تتكفل بأمور الطعام ومستلزمات شادي. لذلك فإن نورا التي تملك الوقت والمال وسيارة فولكس فاغن صغيرة (خنفساء) قد سبق لها تدريب عمر سراً على قيادة السيارة، وهي ولية أمره إلى حدٍ كبير، وهي وحدها التي تستطيع أن تسخر من تزمته آمنة من رد فعل عنيف. وهي أيضاً حبيبة قلب هادية، علاقتهما جعلت سامية أحياناً تتهم ضرتها أمامي بأنها تخطط لخطف نورا منها، لكن نورا حبيبتي نورا تأسر قلوب الجميع. ألم أقل لكم إننا، بل إنني أنا في خير حال. المهم نورا تأخذ

الآن على نفسها مسؤولية سوزان. وهذا سوف يريح الجميع. إنما ما الذي تريد سوزان أن تفعله؟

- مطلوب مني أن أستطيع القراءة والكتابة بالعربية خلال إقامتي هنا.

نتبادل النظرات بدهشة.

- لكنك تتحدثين بشكل جيد.

- أندرو يريد مني أن أقرأ وأكتب مثله ومثلكم.

- لماذا لم يعلمك بنفسه؟

- لأننا نتشاجر، دادي عنيد وقليل الصبر.

ونضحك جميعاً لأننا سمعنا من أندرو عن مدى عناد سوزان، وتضحك معنا، لكن علينا أن نجد حلاً مناسباً، مادامت هذه رغبة سوزان وأندرو فسوف نفعل، إنما كيف؟ والحل يأتي من يمنى:

- عمي. تحتاج سوزان إلى مدرسة لغة عربية مختصة بتعليم الأجانب، أعرف واحدة منهن وأعتقد أنها تقبل بإعطاء دروس خاصة.

- ألا تأخذين استراحة في البداية؟ سوف نترك للعجائز رعاية الصغار ونشط نحن الأربعة أنت وأنا ويمنى وعمر.

- أنا يا مدام نورا عندي اختصاص. شيء لا تعرفينه أنت ولا بعلك غير الماهر السيد ماهر.

- فشرت، لن تصبح حتى بعد عشرين اختصاصاً بمهارة ماهر. أليس كذلك أخي عطا، اجعله يعرف مكانه فلا يتطاول على أسياده.

ونغرق في ضحك من كلام نورا، يا إلهي. إنها فرحة للقلب.

- لا تهتمي يا سوزي، أنا جاهزة، مع شادي أو وحدنا سوف نتصرف كسائحتين، مطاعم، أسواق، متاحف، متنزهات. الفولكس موجودة ونقود زوجي كثيرة.

- لاحقاً يا نورا، لا أستطيع قبل أن أبدأ الدراسة، أندرو يريد تقريراً أسبوعياً، لقد راهن على فشلي. أعرف أنه يستفزني، لكني قبلت التحدي.

بعد ستة أشهر سوف أرسل له رسالة بالعربية بمجهودي الخاص وعليه أن يركب الطريق إلى دمشق إن اعتبرها جميلة وبليغة.

- يمنى، اتصلي بالمعلمة منذ الغد. اسمعي يا خالة سوزان.

- نعم آنت ساميا.

- سيكون لك وقت للدرس، ووقت للدراسة، ووقت للتسلية، لن نسمح لأندرو بأن يسيطر عليك عبر المحيط. ما رأيك؟

- أوكي.

- عمر.

- نعم خالة سامية.

- اتق الله في سوزان.

ونضحك جميعاً، ويخجل عمر قليلاً ثم يهاجم:

- كان المفروض يا خالة أن تقولي لها: اتق الله في عمر، عمر من البشر وليس من الحجر. والنظر يسبق الحذر. وهذا يسبب الضرر.

وترتفع قهقهة صاخبة من الجميع، أجل. أجل كل شيء على ما يرام.

«22»

المخاوف

لم تنتظر كثيراً السيدة تهاني قبل أن تسأل سوزان براون إن كانت تقبل الزواج من شاب سوري. بعد أسبوعين من تدريسها لها اللغة العربية أحبت المدرسة هذه الصبية الجميلة اللطيفة وتمنت أن تزوجها لابنها. كان جواب سوزان المباشر: لا. حدثتني وهي تضحك عن هذا الحوار مع مدرستها، سألتها لماذا أجابت بالرفض مباشرةً ودون تفكير؟ فقالت بجدية وبفيض من الحزن: هل تتصورين ما سيحدث لأندرو إن ابتعدت عنه؟ هذه الفتاة المراهقة تختزن لأبيها حباً غير محدود. وأعرف أن أندرو براون له الشعور نفسه تجاهها. لابد أن غياب ريتا هو الذي أسس لهذه الصلة الروحية بين الأب وابنته. تمنيت كثيراً أن يكون بين ولدي عمر وابيه هذه الصلة، لكن وجود أبناء ثلاثة آخرين لكمال إضافةً إلى قناعات عمر منع قيام مثل هذه العلاقة بينهما. مشكلتي الآن تتصل بوجود سوزان، لقد رآها عمر عارية تماماً. انحلّت العقدة فيما هي تقع على الأريكة وانكشفت أمامه بجسدها الفتي اللامع وأماكنه الحميمية. لقد رأى، صحيح أنه غطّى عينيه وأشاح بوجهه لكنه رأى، وأنا أعرف كم يعاني من عفافه. الشاب مثل عمر والذي يريد أن يكون صادقاً مع نفسه لا يستطيع أن يصاحب الفتيات ولا أن يكون على سجيته معهن فكيف بمعاشرتهن؟ لذلك أنا واثقة من عذريته ومن أنه لازال بتولاً. وأعرف أنه لن ينظر بريبة إلى أي واحدة مهما كانت جميلة، سواء كانت مبذولة له أم عصية عليه. ليس قبل الزواج، الذي يلتزم بالسلوك الديني الصادق لن تكون له امرأة خارج مؤسسة الزواج، ولأني أعرف ذلك وكمال يعرفه فإننا حاولنا أن نزوجه مراراً. ساعدتنا نورا حيناً ويمنى

حيناً آخر، وأعرف أن ابنتيّ أيضاً حاولتا ولكنه ظل على موقفه. سألته مرة بشكل واضح وصريح: لماذا لا تتزوج يا عمر؟ قال: لن يكون ذلك إلا بشرطين. قلت له: الأول مفهوم. تريد فتاة ذات دين. والثاني؟ قال: حين يصبح لي دخل مقبول. أريد أن أنفق على بيتي بنفسي. لا أعني أنني لا أقبل نقود أبي: لا. لكن ما أعنيه هو أن يكون لي دخل مناسب. ومنذ تلقيت هذه الإجابة ونقلتها لكمال اتفقنا على إهمال الأمر مرحليا. ولكن ماذا عن اهتمامه الآن بسوزان؟

أجل، رغم كل مكابرته فأنا أراه الآن يتأنق لمجيئها ويستبطئها إن تأخرت ويرافق نورا في اصطحابها لسوزان هنا وهناك، وحين لا تكون نورا متوفرة وتدعوه سوزان لهذا الأمر أو ذاك فإنه لا يتذمر حقيقةً وإن كان يدّعي ذلك. وعندما يعود ليلاً بعد سهرة أو عشاء فإني أشعر به وهو يتحرك في غرفته. وأعرف ما يكابده من توق الرجل الناضج المحروم للمرأة الجميلة. وكل ما في سوزان جميل. وجهها، شعرها، قوامها، رائحتها جلدها الأبيض الناعم الصقيل. وهي تتصرف معه بعفوية تامة الآن، لقد نسيت موقفه الأول منهاحين دفعها فانكشف منها كل مستور ورأى ذلك بأم عينيه. أمس كان يقرأ أو يتصفح في إحدى مجلات الأزياء العالمية. وأنا بالمناسبة متابعة جيدة لذلك. دخلت إلى بيتنا وهي بالشورت وبقميص حفر يكشف من الجانب جزءاً من ثديها الحليبي الصغير، ويفضح منابت الشعر تحت الإبط حيث تتلامع رؤوسها المزغبة وحين رأت ما ينظر إليه عمر أسرعت تقف أمامه وتأخذ (بوزات) كأنها عارضة أمام كاميرا. ضحك وهو يتابعها. لكن تحركه في جلسته وأسنانه المكزوزة فضحا ما وصل إليه من إثارة فأوقفتها عما تفعل بينما رمقته شزراً وسألته: أين التصفيق؟ إن استمر الحال هكذا فسوف أخسر ولدي. سيلحق بها إلى آخر الدنيا. هذا إن قبلت به. وكيف لا تقبل؟ ولدي عمر هو أكثر الناس وسامة ورجولة ولو أنه أراد أو سمح لتهافتت عليه الفتيات من كل الأعمار.

عمر يعرف أن نورا وزوجها يذهبان إلى مسبح هذا الفندق أو ذاك، حين يسمع عن ذهابها يشيح بوجهه أو يقول جملة مثل: غفر الله لك. وحين سمع أن سوزان ستذهب مع نورا أربد وجهه ورمق أخته بنظرة غيظ بالغ. ولأن نورا تفهم حركاته وتلتقط إشاراته جيداً فقد تعمدت إلغاء التدبير بحجة سعال شادي. وحين نظرت إلي عرفت أني لم يفتني ما جرى. وأدركت كل منا أن الأخرى تخشى ما تخشاه هي. لم نكن قادرين على إبعادهما عن بعضهما بعضاً. فما حجتنا لذلك؟ عمر لا يقول أو يفعل علناً ما يفيد وجود عاطفة تجاه بنت أندرو، أما سوزان فإنها تتصرف بعفوية كأي فتاة أمريكية تجد نفسها مع أقاربها وبينهم شبان وفتيات. أنا التي أخاف، وحدي أنا. إن جرى بينهما أي شيء فإن سوزان لن تستقر هنا. ألم تحدثني عن أندرو؟ لن تتركه وحده هناك.وعندها سيلحق بها. لقد عرض عليه أندرو مرارا أن يدبر له مقايلات كي يختص في أمريكا ولكن عمر رفض دائماً. إنه لا يريد العيش في بلاد الشرك. لكنه إذا تعلق بها وكانت حبه الأول أو الثاني لأن الأول كانت (علا) فسوف يلحق بها دون شك ولن يمانع كمال. عنده هنا نورا وعطا. أما أنا فسيكون لي أولاد إنما في أطراف الدنيا اثنتان في الخليج والثالث في أمريكا. وقلبي لن يتحمل. وألجأ الى الأمل. إن سوزان لن تغير دينها. ويحبطني أن الشرع يسمح بزواج المسيحية. ويتعاظم قلقي كل يوم. حتى كمال بدأ يلاحظ ويهتم. وأراه أحياناً تعبر وجهه سحابة قلق رغم ابتسامته المرسومة. والحرارة التي يتصرف بها عمر تجاه سوزان بادية للعيان، وسوزان كما يبدو قد مالت إليه كل الميل. لقد جعلت أرق ما في سلوكه وكلامه يظهر. وهاهو ولدي الحبيب الأثير مجامل ومهذب وحنون.

كنا في البيت نحن الثلاثة عمر وسوزان وأنا، جلسا متجاورين يتابعان مباراة في كرة القدم بين فريق إسباني وآخر إيطالي. عمر كان متحمساً للفريق الإسباني. فاندمجت سوزان وتحمست معه لفريقه. كنت أسمع من المطبخ الآهات والتعليقات وأرى التصفيق حتى سمعت المعلق

في أوج حماسته يترقب هدفاً من هجمة للفريق الإسباني ويتم تسجيل الهدف فماذا تفعل سوزان؟ تتعلق بعنق عمر وتقبله مهللة. رأيت يده تضغط على ظهرها كأنه يريد أن يحشر جسدها الدافئ بجسده ويتباعدان مباشرةً وقد ألجما اندفاعهما، تظاهرت أني لم أر شيئاً. بينما سوزان وقفت تتأهب للنزول إلى القبو. عمر طلب منها البقاء معتزماً المغادرة. كنت أراقب من طرف عيني وقررت التدخل.

- هل انتهت المباراة ماما؟
- ليس بعد لكن....
- سوزان تعالي وحضري لنا قهوتك الأمريكية.
- فوراً.

سحبتها إلى المطبخ لتداري اضطرابها، وتركته وحده ليتحقق من مشاعره تجاه ما جرى، كان وجه سوزان شاحباً وحركاتها غير منضبطة، لابد أنها خافت من اندفاعها في فعل سبق لها أن عوقبت عليه من قبل عمر. لكن المفاجأة هو أن عمر قد شدّها إليه بقوة كما سبق لأي فتى أن فعل عندما كان يقبلها. ولا جدال في أنها قد تلقت قبلاً ومداعبات، وهي قادرة على التمييز إذن. نظرت إلي بطرف عينها فتشاغلت بما بين يدي. وعندها غادرت المطبخ صامتة لتجلس قرب عمر وتتحدث مطولاً وهو يستمع ويعلق. وانتهى الحديث بابتسامة منها ثم مدت يدها فصافحها وكان يبتسم. الحمد لله لقد سوي الأمر. عادت إلى المطبخ وهي تصفر لحنا تعرفه. أتمت تجهيز القهوة ثم اقتربت مني وطوقتني بذراعيها وقبلتني. يا إلهي، كيف يحتمل عمر هذا التلألؤ في عين سوزان. ورائحة جسدها الفتي المنعش. وكيف لا ينقض عليها لدى كل ابتسامة من فمها الجميل ووجها الوضيء؟!

بقي في المهلة أسبوعان، المدرسة تهاني قالت لي إن سوزان الآن في القراءة والكتابة بمستوى طالب في الصف التاسع، وحتى ينتهي الأسبوعان ستكون بمستوى طالب في المرحلة الثانوية، لا أنكر

أن ذلـك قـد سرّني، صحيـح أننـي ونـورا لم نتبـادل الحديث لكن نورا شـأنها شـأني لم تعد تفسـح لهما المجال ليلتقيا وحدهما. كثرت بالتالي حركات التملص من قبلهما كأنهما أدركا ما يجري حولهما، ولأن عمر لا يكذب مطلقاً فقد حدثني عن سينما السـاعة التاسـعة والنصف، ثم عشاء متأخر بعد الثانية عشرة وتسكع استمر حتى الثالثة صباحاً. ليست هذه مطلقاً طباع عمر، خطر لي أن أشـرك زوجي كمالاً في هواجسـي لكني أخمن أن ذلك سوف يسره، إنه يريد أن يتخلص عمر من سطوة الديـن عليـه، ولازال عندمـا يعـود يتحـرك فـي غرفته، ولازال أيضاً يعمد للدوش يقف تحته دفعاً لسطوة الغرائز. وأمس عاد قرابة الواحدة صباحاً. وفعل كل ما اعتاد فعله منذ تقارب مع سـوزان، لكني سـمعت وأنا قد استسلمت للنوم صوت إغلاق الباب الخارجي، ظننت ذلك في منامي، وربما تكاسلت أو غلبني نعاسي فلم أستكشف.عند الصباح فوجئ كمال أني بمجرد استيقاظي خرجت مسرعة، ذهبت لأتحقق مما توهمته، لكن سرير عمر كان فعلاً قد استعمل إنما عمر ليس راقداً فيه. انقضت علي الفكرة كالصاعقة. عمر يرقد في سرير سوزان الآن. جلست على الأرض متهاوية رغماً عني، كل شـيء سـوف ينقض على رأسـي، أنا وكمال قد جنينا هذا بأنفسنا، وضعنا الزيت قرب النار وأملنا ألا يشتعل. ماذا أقول أو أفعل؟ هل أنزل لأسحبه من فراشها؟ لماذا يا ولدي لماذا يا عمر؟ يا رب. لا تحرمني منه. ليست لي قدرة على احتمال فقده. أسمع زوجي يناديني. مـاذا سـيقول كمـال الآن؟ هاهـو قـادم. صوت المفتاح في باب الدار. أسرع إليه فيراني خارجة من غرفته. أتفرس فيه، عيناه حمراوان، شعره غير مسرح ولكنه أيضاً غير مشعث. ماذا أفهم الآن.

- أمي، أريد أن أنام. أرجوك لا تسأليني عن شيء الآن..

أبتعد له ليدخل وأراه يرتمي بكامل ثيابه على سريره. أسرع لأخلع عنه حذاءه وأنسحب بهدوء. أين كان؟ وماذا جرى؟. وأجد نفسي أتحدث كالعجائز قائلة: يا رب اجعل العواقب سليمة.

« 23 »

عودة الطفلة

مطرب لبناني يساري له ذقن كثة يغني عن (ريتا) وهو لا يقصد أمي طبعاً، لكن كل شيء يعبر في حياتي يذكرني بها. ليست ذكريات بنت السابعة قطعاً وإنما حصيلة ذكريات أبي أندرو وجدي وجدتيَّ وبروس والخالة شيري، وهنا في دمشق العم كمال وسامية وهادية وحتى الدكتورة هناء التي لم أذكر لأحد أني التقيت بها في رحاب الجامعة. رحبت بي كثيراً وابتسمت حين عرفتها باسمي. قلت لها أريد أن أرى سوسن ربيع. دهشت لما طلبته وسألتني: هل هذه رغبة أندرو؟ فقلت: إنها رغبتي أنا. لكني لا أريد أن تعرف أني بنت أندرو، والأفضل أن أراها دون أن تراني. سألتني هناء عن مكان إقامتي فأخبرتها وأعطيتها رقم هاتف القبو. وبعد يومين اتصلت وأعطتني التعليمات. أخذت نورا إلى فندق فخم كان فيه بازار خيري. بحيث أن المعروضات فيه تباع لصالح الجمعيات الإنسانية. تجولنا سوية ونورا غافلة عما في ذهني. وفجأة رأيتها، يا إلهي! هذه ريتا. ريتا وقد غدت في الخمسين من عمرها. وجه أبيض وليس حنطياً لايزال يحتفظ ببعض رونقه. عينا ريتا السوداوان وشعرها لكنه أكثر سواداً. يااااه يا أندرو، هل علمت أمي كم كانت تشبه سوسن؟ لم أجعل الدكتورة هناء تراني. سحبت نورا المدهوشة لقدومنا وانسحابنا وخرجت. اتصلت بالدكتورة وشكرتها. قالت لي: إنها وقفت مع سوسن كما اتفقنا ولكنها لم ترني. قلت لها: رأيتكما ولم ترياني. حملتني التحية لأبي وللعم كمال. سوف أستفهم من أندرو مجدداً عن سوسن. أعرف أن أمي ريتا كانت لا تجهل شيئاً من حياة أندرو، لكنه لم يقل لها أو لي ان الشبه كبير بين ريتا وسوسن. والحق في ذلك معه، لو علمت

ريتا لخشيت أن تكون بديلاً. لا أحد يحب أن يكون بديلاً، عمر تظاهر بكل هذه القسوة زاعماً أنه لن يكون بديلاً ولن يأكل بقايا هذا أو ذاك.

قرعت جرس بيتهم واستقبلتني هادية بنظرة استفسار متهمة من عينيها الجميلتين. وخرج العم كمال من غرفته، فوجئ الاثنان بأني سوف أسافر في اليوم نفسه، كنت قد اتصلت منذ الساعة الثامنة والنصف لأحجز إلى لندن ومن هناك إلى واشنطن. حاولا أن يفهما أسبابي، كنت لا أستطيع أن أقول أو أشرح. ورأيت ارتياحاً في أعماق هادية بينما العم كمال كان في حيرة تامة.

- هل أزعجك شيء؟ هل جاءك خبر من أندرو؟ أريد أن أعرف يا سوزان.

ماذا علي أن أشرح له، أتمسك بروايتي، لقد تحقق الغرض، وعوضاً عن مطالبة أندرو بالقدوم في نهاية الأشهر الستة أنا سأذهب إليه. لقد أتقنت القراءة والكتابة بالعربية ورأيتكم وعشت معكم وأريد أن أعود.

- هادية حدّثيها، اجعليها تكمل السنة، اتصلي بنورا. أين عمر ليقنعها؟

العم كمال يريد أن يقنعني عمر! لو يعلم. أظن أن الخالة هادية تشك، سحبتني إلى المطبخ:

- سوزان، أعرف أن عمر كان معك حتى الواحدة. وأظنه عاود الخروج قرابة الثانية ماذا جرى؟ لماذا هذا الرحيل المفاجئ؟

- خالة هادية، لم يحدث شيء، اطمئني، واسألي عمر عن الباقي. أرجوك ساعديني على أن أسافر الليلة دون هموم أو عقبات.

- متأكدة؟

- أريد أن أسافر قبل حدوث الألم، صدقيني هذا أفضل.

- حسناً، إن كانت هذه رغبتك.

وجرى كل شيء بسرعة، أحضر العم كمال زجاجات العرق، وعطا علب الحلوى الدمشقية، يمنى جاءت بالهدايا الشرقية. الجميع

انهمكـوا وقـد فاجأهـم خبـر سـفري، وحده عمر لـم يظهر، هكذا رغبت أنـا. أن لا أراه. وفـي المطـار توقعـوا قدومـه مـع ماهـر زوج نـورا الذي تأخـر كثيـراً فقـد انتظـر عمـر فـي مكتبـه حتـى كاد يتأخر عـن وداعي ثم قاد السـيارة إلى المطار، عانقت الجميع وهمسـت لهادية بأن تبلغ عمر اعتذاري ومسامحتي إياه. اتسعت عيناها العسليتان دهشةً حين وعت ما قلته وصعدت إلى الطائرة. هاأنذا أغادر دمشق تاركة قلبي فيها تماماً كما فعل أبي قبل ربع قرن. هو اصطحب معه شـهادة جامعية وصداقة العم كمال وذكرى سوسن ربيع، وأنا مثله أعود متمكنة من القراءة والكتابة بلغة العرب، وصداقة أسرة العم كمال، وبذكرى لاتزال تصخب في عروقي، وحين ترتفع الطائرة وألمح أنوار دمشق تتباعد عني لا أملك غلبة على دموعي وأحس بأني سـلبت في هذه المدينة الآمنة، جئتها بروح الطفلة التي ترى في كل شيء مشروع مرح وإثارة، وأغادرها مجروحة مطرودة ومرفوضة، لقد سلبت مني دمشق طفولتي بكل تعمد.

لـم تترك لي الأيام فسـحة كبيرة من طفولتي الأولى، ما إن بدأت أكتشف كم أنا محظوظة بأبويّ ريتا وأندرو، وكم أعيش في بيت سعيد هو فردوس بالقياس إلى ما أسمعه من رفاق المدرسة، حتى عصفت بنا تلك الأيام الظالمة، مجرد سـاعات بين شـكوى أمي من صداع مباغت ونابض جعلها تصرخ ألماً. فيسـرع بها أندرو إلى المستشـفى لتصل إليه وقد دخلت في إغماءة، يحاول الأطباء اكتشاف ما يجري في رأسها ولا يلحقـون، كان النـزف داخـل الدمـاغ أسـرع، لـم تعد ريتا إلى البيت. عاد أندرو وحده، عاد كسيراً مهزوماً فاقداً، وبمجرد أن رأيته عرفت أنه فقد الهناء إلى الأبد وأنني لن أستسـلم لعناق أمي ثانيةً. لن أسـمع كلمات التدليل وهي تسـرح شـعري، ولن ألتفت قبل صعودي باص المدرسـة لألـوح لهـا بيـدي فترسـل لـي قبلة، كل زملائي كانـوا يحبون ريتا. تقف على بعد أمتار فتنشد عيونهم إليها من وراء نوافذ الباص، ليس في هذه الدنيا أم مثل ريتا. وهيهات من ريتا!

لم يكن عند أندرو إجابات على اتهاماتي وأسئلتي. هو نفسه انقضت عليه وفاة ريتا فأطاحت بتوازنه، جاء العم بروس والعمة شيري، وجاء جدي من تكساس أيضاً وجاء يومها العم كمال وسامية من دمشق وكنانة جاءت من كندا واجتمع كثيرون في البيت، الجميع حزنوا لأنهم أحبوا ريتا. وأنا لم أستوعب سوى أن أندرو الحبيب قد عاد لتدخين السجائر. ربما لأن ريتا غير موجودة لتعنفه. لذلك ذهبت إليه وأخذت السيجارة من يده وأطفأتها بالمنفضة مرددة ما كانت تقوله ريتا: اترك هذا السم من يدك يا أندرو. وربما حاولت أن أقلد لهجتها ونظرتها. لأنه أسرع يعانقني، وأشعر أنه يبكي لأن دموعه لامست ذراعي. فلا أستطيع التجلد أكثر أأبكي معه لتتحول صالة البيت إلى غرفة بكاء معلن ومستور.

كان علينا أن نستمر، أندرو في محاضراته وطلابه وكتبه وأنا في مدرستي، وباتفاق غير معلن كانت ريتا حاضرة معنا، لازال مرسمها على حاله. اللوحة التي لم تكملها، ألوانها وريشتها. القماشة التي كانت تمسح فيها يدها من الألوان، المئزر الذي غالباً ما كانت تنسى ارتداءه. أشرطة موسيقاها المفضلة، والأهم من كل هذا الحضور المادي كان حضورها في ذهن أبي وذهني. بالنسبة لأندرو كنت أنا استمراراً لأمي، تحضر في قسمات وجهي، وفي عيني خاصةً. في ضحكتي الصريحة، دع عنك أني ابنته. فأنا أيضاً ابنة ريتا، كل ما يختزنه أندرو من عاطفة أغدقها يوماً على امرأة شرقية اسمها سوسن مشابه لاسمي، ثم حوله إلى ريتا، كل ذلك أحاطني به الآن. وتعلمون مدى صعوبة التعايش مع والد محب وذكي مثل أندرو، بالنسبة للبنات والأولاد في مدرستي كان أبي البروفيسور اللطيف. وأمي الحسناء الإيطالية، أما أنا فكنت التي تتكلم لغة غريبة، ذلك لأن أندرو وريتا يحدثانني بالعربية كما الإنكليزية. العم كمال وكنانة وآنت سامية ثم آنت هادية كلهم أحبوا كلامي بالعربية.

صحيح أنني لا أحسنها مثل أولادهم لكن لغتي مفهومة وواضحة، أما بالنسبة لزملائي فهذا شيء غريب، فأنا وحدي التي تستطيع الكلام

مع نور الدين الإيراني القادم من العراق بلغة هي غير لغته الأصلية، لأنه يحسن الإيرانية والعربية والإنكليزية، كان يتفاخر علي بذلك.

لـم ينقطـع أبـي عـن محادثتي بالعربيـة، وبقي على اتصال مع العم كمال راضي بالرسائل والهاتف وتبادل الكتب. وزارتنا كنانة عدة مرات. أبـي يحـب جميـع أولاد العـم كمال وخاصةً كنانةً. وهي بدورها تحترمه كثيراً وتحبني وتعاملني كأني كبيرة. أنا متفوقة في دراسـتي وفي جميع المـواد، وتعتبرنـي إدارة المدرسـة مفخـرة لهـا وسـتوصي بـي إلى أفضل الجامعـات. وقـد وعدنـي أنـدرو بسـفرة إلـى خـارج أمريـكا عندما أنهي دراستي الثانوية. وكان علي اختيار أحد بلدين، كندا حيث كنانة، ودمشق حيـث والدهـا، وبالطبـع اخترت دمشـق والطائـرة الآن تعيدني من حيث أتيت وليس كما أتيت.

لم ينتبه أندرو إلى أني بدأت بالمراهقة، بالأصل لم يكتشف بلوغي. ماريا البورتوريكية التي تعتني بالبيت مدة خمسـة أيام في الأسـبوع هي التي رأت مفاجأتي ببقعة الدم ذات صباح، أرادت أن تشرح لي فوفرت عليها العناء لأنني قرأت عن ذلك منذ حدثتني أول زميلة دخلت مرحلة البلوغ عما يجري. وقد رأيت جسدها يتحول سريعاً ثم لاحظت تضاؤل اهتمامها الفعلي بزملاء الصف وتركيزها على الطلاب الأكبر سناً، أندرو لا يعـرف أن البنـات لا يخفـى عليهـن شـيء، لقـد رأيـت أثنـاء مراهقتي مجلات وأفلاماً، وقبلني فتيان بإرادتي ورغماً عني. وفي عتمة السـينما امتدت أصابعهم إلى أنحاء جسـمي، وحين بلغت الخامسـة عشـرة كان لابـد مـن أن أقـدم (رودنـي ماكفيـل) إلى أندرو، كان في السـنة الأخيرة، طويلاً ذكياً وسيماً، وقد أحس باهتمامي حين جعلته يفوز علي قبل سنة في مسـابقة التهجئة. عندما انتهت المسـابقة قال لي: لا أصدق أنك لم تعرفي التهجئة الصحيحة للكلمة الأخيرة، هل تعمدت الفشل يا سوزان براون؟ قلت له: ربما. هز كتفيه وقال: لابد أنك مخبولة، مع ذلك شكراً. قبلني من شفتي مسحاً. وأنا طرت إلى السماء السابعة، تعمد بعدها أن

يحتك بي، لقد فشلت في الحفاظ على (بوي فريند) منذ العاشرة بين تلاميذ المدرسة، لم أستطع أن أتلاءم مع من يماثلني في العمر لأنهم أغبياء عادةً، والأكبر مني يرون أنني صغيرة، لكني حين نما جسمي بعد الرابعة عشرة غدوت قادرة على جعل رودني يهتم بي ويسعى لرؤيتي كلما توفر له وقت، ثم حين رافقته في سيارته المكشوفة أخذني إلى ضفة النهر حيث تلقيت للمرة الأولى قبلة عميقة وطويلة جعلت الدماء تندفع إلى رأسي. وقد كرر رودني القبلة مقحماً لسانه في فمي ويده تحت كنزتي وشعرت أني أتوقد في مكاني. وأنا أعرف ما سوف يلي ذلك ولست مستعدة له بعد. أحس رودني بانكماشي فتراجع. قلت له: سأقدمك لأبي. فوافق، وهكذا فوجئ أندرو حين أبلغته أن ثمة صديقاً لي سيزورنا. طلب مني أن أحدثه عنه ففعلت. رأيت ابتسامته تتسع وهو يهز رأسه، لابد أنه انتبه الآن إلى أن سوزان لم تعد صغيرته سوزان. بالأحرى لازالت صغيرته سوزان، إنما هي الآن بالنسبة للآخرين الصبية سوزان، طويلة، أنيقة، وحسناء، وهذا ما أنا عليه فعلاً.

أبي ورودني قبل كل منهما الآخر، برأي رودني إن أبي غريب بعض الشيء في عاداته لكنه ذكي ومسالم، أندرو رأى في رودني شاباً ذكياً ورياضياً ووسيماً، بعد أيام من لقائهما تلقيت اتصالاً من شيري تالبوت، كان بين أسرة تالبوت وأبي اتصالات مستمرة، شيري سألتني عن أخباري والمدرسة وكيف أمضي وقتي وسألتني إن كان لي بوي فريند وشكت لي من أن ابنتها الكبيرة انفصلت عن صديقها لذلك حولت البيت إلى بيئة مشاجرات. قلت لها إني أخرج مع رودني باستمرار. ولابد أنها كانت تريد أن تحدثني عن ممارسة الجنس لكنها لم تفعل وإنما اكتفت بقولها: حافظي على نفسك جيداً. من المؤكد أن أندرو اتصل بها فليس حولنا أي امرأة تصلح للحديث معي في شؤون العلاقات الجنسية، وبات معروفاً للجميع أن سوزان براون هي صديقة رودني، زميلاتي الفتيات لا ينقطعن عن سؤالي حول علاقتنا ويطلبن معرفة

الدقائق وأنا أعرف كل قصصهن وممارساتهن. وقررت ألا أتسرع في منح نفسي وإن كنا قد وصلنا رودني وأنا إلى المتعة من خلال العناق والملامسة، وفي الليلة التي سبقت عيد الشكر الماضي كنا وحدنا في منزلي ولم يكن أندرو سيعود قبل انتصاف الليل لأنه يحضر حفل وداع لأحد الأساتذة، أحسست ورودني يقبلني ثم يتعرى ويعريني تماماً أني متأهبة له. وضعت له العازل بيدي ثم استقبلته بكامل الرغبة ولم أعد سوزان براون العذراء. وربما حديثي عن تلك الليلة هو ما جعل عمر يفقد أعصابه ويحدث ما حدث.

لم يكن لسروري حدود وأنا أغتسل تحت الدوش الحار في بيت هادية وكمال إثر وصولي إلى دمشق، رأيت نفسي للمرة الأولى في مرآة دمشقية. رودني جعلني أحب جسدي لكثرة ما كان يدلل صدري وكل أعضائي. لكنه أصر على أن أرافقه إلى شيكاغو لإجراء مقابلة القبول في إحدى جامعاتها. كان أندرو يسعل ولم أشأ تركه. أعرف أن رودني أناني بعض الشيء لكن لم يخطر لي أنه لا يأبه لأسبابي في عدم الذهاب، وأكثر من ذلك لوح لي بأنه لا مستقبل لنا معاً إن لم أرافقه وقد حجز جناحاً في فندق فخم وينوي أخذي إلى ذاك المكان وذاك المطعم، خطته التي حضرها بنفسه لم تكن تقبل تعديلاً برأيه. وأنا ركبني العناد حين أصر عليّ وبمجرد أن صرخ بوجهي قائلاً: لن تبقى الأمور على حالها إن ظللت طفلة أبيها المدللة السخيفة. فتحت الباب وقلت له: اخرج ولا ترني وجهك ثانيةً يا رودني ماكفيل. الأحمق ظن أن ذلك عارض وسوف يتغير، وربما توقع أن ألاحقه حين يعود من سفرته، كان قد انتهى من حياتي فعلاً، لكنه جعلني أحب نفسي. أضع المنشفة حول جسدي وأجفف شعري ثم أخرج. وحين يفتح باب الدار ويدخل عمر ويراني يقول كلمة لا أفهم منها إلا (الله) لكنه يخجل أو يمتعض وتقول هادية إنها سوزان يا عمر. هذا عمر إذن. ابن آنت هادية وكمال. أهرع لأقبله لكنه يتباعد عني ويدفعني عنه مغمغماً كلمات مدغومة. أرتمي على

الأريكة وقد انحلت المنشفة لأبدو عارية تماماً وملقاةً ومهانة. أسرعت هادية وجعلتني أدخل غرفة نومها وجلبت لي ثياباً من حقيبتي. سمعت في الخارج حوارها مع عمر ثم إغلاق باب الدار واتصالها الهاتفي. ولا يطول الوقت حتى يعود العم كمال ثم تصل نورا وعمر وأخرج إليهم ويعتذر عمر بعد أن اعتذرت له. ويأتي عطا ويمنى والولدان ونسهر جميعاً وأرى أننا تغلبنا على ما جرى وتجاوزناه، ولا يفوتني ملاحظة أن عمر يسترق النظر إلى وجهي وصدري، وأضحك في سرّي. لقد أفهمتني هادية أنه لم يلامس فتاة من قبل بسبب عقيدته الدينية، صحيح أنهم جميعاً مسلمون، لكن فيهم المتعصبين وفيهم المعتدلون وهم الأكثرية الغالبة، لقد رأى عمر مني كل شيء، وأنا أتصور أنه لن ينسى ما رآه وأثبتت الأيام ذلك.

ليس لنورا راضي مثيل في اللطف وخفة الظل والثقافة، إنها أكبر مني باثنتي عشرة سنة، عمر أكبر مني بثمانٍ وهو مستقل الشخصية وعنيد لكنه بالغ الوسامة مكتمل الرجولة، في البداية رافقني أنا ونورا على مضض كما يبدو في سلوكه. لكني أحسست برغبته في رؤيتي وحتى بالذهاب معي وحدي. وقررت أن أعاقبه، صرت أرتدي تنورة ميكروجوب وأجلس في المطعم بحيث يلامس فخذي فخذه دون أن تنتبه نورا لذلك ودون أن يرى ذلك متعمداً، كنت أميل عليه لمحادثة هامسة وأعرف أنه سينظر إلى صدري، باختصار: لقد أغريته بوقاحة عقوبةً له على ما فعل ليلة وصولي. ولم أنتبه إلى أن الإغراء له سبيلان فأنا بنفسي بدأت أنشد إليه وأشتهيه، ذات مرة في السينما انزعج لأن بجواري شاباً تعمد أن يميل باتجاهي فما كان منه إلا أن طوق كتفي بذراعه فانشددت نحوه مبتعدة عن الآخر وأحسست أن أصابعه تدغدغ جلدي العاري وأن غرائزي تنهض مستجيبة لهذه الملامسة، التفتت نحوه وسألته إن كان مستعداً لمغادرة السينما لأن الفيلم ممل فوافق. خرجنا في العتمة فأمسك بيدي حتى لا أتعثر وحين غدونا في الطريق لم أسمح له

بإفلات يدي، نظر الي بحيرة، ثم هز رأسه عدة مرات وسار معي ممسكاً بيدي. شجعته على زيارتي في قصر الباشا الذي هو قبو بنايتهم حيث أسكن، تردد أياماً قبل أن يدخل معي حين عدنا سوية وقد أوصلتنا نورا. جلس محتاراً ومرتبكاً، أسرعت أقدم له زجاجة كولا محلية الصنع وغير لذيذة الطعم، جلست بجواره أرمقه باسمة.

- لماذا تنظرين إلي هكذا؟
- أنت وسيم هل تدرك ذلك؟

يصبح وجهه مورداً من الاحمرار خجلاً.

- ولو أنك في حينا أو تدرّس في مدرستنا لما سلمت من الفتيات.
- أعرف أنك تبالغين، بالمقابل ألا ترين ماذا يحدث عندما ندخل مكاناً ما؟
- ماذا يحدث؟
- كل الذكور والإناث ينظرون إليك.
- لأن لباسي غريب مثلاً.
- هو غريب حتماً ويؤكد أنك غريبة. لكن ليس لهذا السبب.
- لماذا إذن؟
- أنت ماكرة يا سوزان وتعرفين لماذا؟ أنا لن أقول لك.
- جبان.
- ربما.
- لنفترض أني قبلتك الآن هل ستدفعني ثانيةً؟
- بكل تأكيد، ولحسن الحظ أنت ترتدين ثياباً.
- ماذا تقصد، أنا نسيت فعلاً، ألم أكن أرتدي ثياباً.
- منشفة.
- صحيح، صحيح. تذكرت، ويومها لقد.... نعم نعم. عمر، هل رأيت؟
- ماذا؟

- ألا تفهم يا أخي، هل رأيت؟

يتصاعد خجله وارتباكه وأنا الماكرة أستمر ألاحقه.

- رأيت.

- قل لي بصراحة من فضلك. ما رأيك بما رأيت؟

- أنت مجنونة.

- يقوم واقفاً وسط ضحكاتي ويضع زجاجة الكولا ويتجه للباب:

- مجنونة ووقحة. باي.

- باي.

يغادر وأنا أدرك بأنه سوف يهرع إلى دوش بارد بينما أسترخي أنا تحت انثيال مياه دمشق الحارة، وأضحك من نفسي لأني أعذب هذا الشاب اللطيف، وأتمنى، أتمنى لو أنه يقضي الليل في فراشي.

تتحسن كتابتي وقراءتي باللغة العربية، وابدأ أضع مسودة للرسالة التي سوف أرسلها لأندرو. إذا أعجبته صياغتها ومعانيها فسوف يأتي ليقضي هنا وقتاً ثم نغادر سوية، صرت قادرة على السير في دمشق دونما خارطة، أعرف كيف أركب الباصات وأتنقل بعد أن غدوت قارئة ممتازة للوحات المدونة عليها. وتنقضي الأيام بسرعة، يزداد ولعي بعمر ويزداد تعلقه بي. لقد ثار غضبه حين رغبت نورا بذهابنا للمسبح. سألتني إن كنت أحضرت مايوه. فتشت الأدراج أمامهما وحين أخرجت البكيني الأصفر رأيت ذقنه ترتجف غضباً وقال بصوت مبحوح لنورا: لن تذهب سوزان إلى المسبح. نورا الذكية احتجت فيما بعد بمرض شادي كي لا تكسر كلام أخيها. ووصلت به أن طالبني بما لم يسبق لأحد أن أملاه علي:

- سوزان، إذا رجوتك في أمر هل تقبلين؟

- إن كان مقبولاً فكيف أرفض.

- أتمنى عليك ألا تلبسي قصيراً حين تخرجين.

- تعني بهذه التنورة.

- هذه وغيرها.

- لكني أرتديها الآن.

- أجل، أرى ذلك. رجائي ألا تخرجي بها.

- عمر، هل تقصد أنه لا بأس أن أرتديها أمامك. وعليّ ألا أجعل سواك يراني فيها؟

- المهم ألا تخرجي فيها.

- لم تجبني عن سؤالي يا عمر.

يتنهد بارتباك:

- أي سؤال؟

- أتحب أنت أن تراني أرتدي القصير؟

- هنا في الشقة.

- مثلاً.

- لا أمانع.

- فإن كان ثمة آخرون.

- من؟

- ممم.... زوج نورا، ماهر، أو أخوك عطا.

- لماذا أنت مزعجة؟

- لأنك تغار يا دكتور عمر، تغار كما لو أني أختك أو... خطيبتك.

- حسناً أنا أغار ما رأيك؟

- مادمت قد اعترفت فالجواب على طلبك: حاضر يا دكتور، لن ألبس قصيراً خارج هذه الشقة، ومسموح لك وحدك أن تراني بالشورت أو الميكرو. المهم أن تضحك. اضحك يا دكتور.

ويضحك أخيراً، اقترب وأجلس قربه، كان كتفاي عاريين لأني أرتدي كنزة دون ذراعين أو أكتاف، مجرد شيال وهي لا تكاد تغطي صدري وتكشف عن حفرة الإبط وجانب الثدي، أتعمد أن ألاصقه فيبتعد ضاحكاً:

- مجنونة.

ألاحقه بحيث أحصره بمسند الأريكة فيتنهد بعمق مستسلماً، وأدرك أن إثارته قد بلغت غاية حدودها. أمسك يده وأجعلها تطوق كتفي وأضع رأسـي على صدره وأتنشـق عرقه الرجولي، يا إلهي. أنا أحبه. أنا أحب هذا الشـاب العفيف المحافظ. وأدرك أنه يشـتهيني بكل حواسـه، أبتعد عنه وأنظر إليه ويبادلني نظرة طويلة ثم يقف:

- علي الاستعداد، أتحبين أن أتصل بنورا أم نخرج وحدنا؟

- وحدنا يا عمر.

لم أعد أسـتطيع الصبر، كل خلية في جسـدي تريده، الليلة، الليلة سـوف أجبـره علـى النـوم فـي فراشـي، لـن أتراجع الليلة، وسـوف أفعل ما بوسـعي لأضمه بين ذراعي ولأمنحه نفسـي. ولا نطيل المكوث في المطعم، جلسـنا من التاسـعة حتى العاشـرة والنصف ثم عدنا سـيراً على الأقدام، أمسكت بيده فلم يفلتها. بعض النسمات كانت باردة، اقترح أن أضع سـترته على كتفي فقلت له سـأكتفي بذراعك. جعلته يطوقني بها وأسير معه ملاصقة لجسده حتى نصل إلى بنايتهم. يقول لي: الأفضل أن أصعد ولكنني أسحبه فلا يقاوم. أعطيه المفاتيح فيفتح باب القبو وندخل، يجلس في الصالة الصغيرة وأعتذر لأني أريد أن أنتعش، فأرتدي فستاناً منزلياً في الحقيقة ثوب للشـاطئ، قطني أبيض، يكشـف أكثر مما يسـتر، وأرخي شـعري على هواه نازعة الملاقط منه وأضع رذاذ البارفان على ما ظهر من جسدي ثم أخرج إليه، كانت ردة فعله بالمستوى المطلوب. تأففاً.

- ف ف ف... ما هذا؟

- عمر، هل تعرف الرقص؟

- أنا؟ سؤال مضحك أليس كذلك؟

- ما رأيك في أن أعلمك؟

- أنا مستغنٍ.

- ومن أجلي.

- سوزان، دعك من هذا.

- فإن كنت مصرة.

- رجاءً.

- أنا أشتاق للرقص، ماذا أفعل؟ هل أخرج لأطلب من أحدهم ذلك؟

- مجنونة، سأكسر رجليك قبل أن تفعلي.

- راقصني إذن. تعال.. تعال ولا تبق جالساً هكذا.

هاهما ذراعاه تطوقانني أخيراً، ورأسي رغماً عنه وعن تباعده، رأسي مدفون في صدره، لاصقته بأسفل جسمي وكان واضحاً أنه في حالة إثارة كاملة، ابتعد عني فلم ألاحقه، رفعت رأسي محدقة إلى شفتيه. كان وجهانا متقاربين يحس بأنفاسي كما أحس بأنفاسه. لجأت إلى حركة سينمائية قديمة إذ رطبت شفتي بلساني واقتربت منه. لامست شفتاي شفتيه. عندها رأيته يبعدني عنه بسرعة ويسرع ليجلس زافراً:

- لعن الله الشيطان. ما أنت يا هذه؟ لماذا تفعلين بي هذا؟

- عمر، أنا أريدك. افهم. رجاءً، كل جسدي يريدك.

- فإن استجبت لك هل أحصل على كل ما أريد؟

- وأكثر. انظر.

وبحركة واحدة أخلع الثوب القطني لأبدو أمامه كما في اليوم الأول.

- أستغفر الله... أستغفر الله العظيم.

ويسرع راكضاً ويصفق الباب خلفه ويتركني هكذا مقهورة مشتاقة راغبة. وأدرك أنني وصلت به إلى أقصى احتماله. وأستاء من نفسي وأداري ذلك بالتهكم. أنت تذلين نفسك يا آنسة. ومن يذل نفسه عليه أن يقبل بازدراء الآخرين، وأتجه إلى الحمام لأتلقى المياه التي وحدها لامست جسدي منذ وصلت إلى دمشق. وأعود إلى الفراش، أتمنى لو أندرو قريب مني لأني أحس برغبة في البكاء، لكن طرقاً خفيفاً على

الباب يجعلني أتيقظ أتسلل إلى العين لأراه يقف أمام الباب. لقد عاد، أفتح الباب فيدخل ويمسك بيدي لأجلس بجواره:

- سوزان، سوف نتحدث بجد.
- تحدث.
- هل تريدينني أم تحبينني؟
- أجبني أنت أولاً عن السؤال نفسه.
- أنت تعرفين الجواب. الذي لا يخفى على أحد.
- إذن تحبني.
- نعم.
- وتريدني.
- نعم.
- أنا أيضاً أحبك يا عمر، ألا تدرك ذلك؟
- لذلك عدت، لم أستطع النوم. يجب أن نحسم كل شيء.
- تحسم ماذا؟
- هل. هل أحببت من قبل؟ أنا أريد أن نبدأ بالثقة والصدق تجاه بعضنا.
- حب مراهقة.
- كيف؟
- كنت رفيقة أحدهم مدة سنة أو أكثر.
- كيف؟ هل كان ينوي أن يتزوجك؟
- بالطبع لا.
- لماذا رافقته إذن؟
- لأني أحببته حينها وأحببت رفقته.
- هل. هل.....
- ماذا بك؟ لماذا أنت متردد.
- هل قبلك؟ (أضحك).

- بالطبع.

تقدح عيناه الآن غضباً.

- و.... و....

- هل تريد أن تعرف عن علاقتي برودني؟

- رودني؟

- هذا اسمه، رودني ماكفيل، لقد انفصلنا قبل أشهر من قدومي.

- لا تقولي لي إن الأمر كما في الأفلام، بوي فريند وجيرل فريند.

- بالطبع يا عمر، الأفلام تعرض ما يشبه الواقع.

- لا تقولي إنك وهو.....

- ماذا؟ أنا وهو ماذا؟

- هل؟ هل؟

- هل نمنا معاً، بالطبع كان صديقي (My boy friend).

- يا بنت الـ..... (لا يتابع الشتيمة).

- لم تعودي عذراء إذن، وتريدين بديلاً لرودني في فراشك القذر.

وأحس بالإهانة بينما هو واقف فوق رأسي.

- بالطبع لا يا أحمق.

- وسخة، عاهرة، ساقطة، وأنا الذي ظننتك..... اسمعي، أنا لا أريد أن أراك ثانيةً يا بنت الحرام.

كانت دموع المذلة للمرة الثالثة تنهمر بسبب هذا الغبي، لقد أطلق غضبي من عقاله:

- وأنا لا أريد سماع اسمك، ولا البقاء في بلدك، وإن وقعت عيناي عليك يا خصي يا شاذ فسوف أضربك بحذائي، أخرج... أخرج يا فاقد الرجولة.

رفع يده ليضرب فاقتربت منه صارخة:

- اضرب، إن لم تستطع معاشرة الفتاة اضربها أهذا ما ينصح به دينك؟

- عاهرة، إياك وذكر ديني على لسانك القذر.

ويخرج صافعاً الباب خلفه لأمسح دموعي وأغسل وجهي وأبدأ بجمع أشيائي ولا أنتهي قبل أن ينادي مؤذنهم للصلاة، أضبط الساعة على الثامنة وأطلب النوم وقد اتخذت قراري بالسفر، أصحو على المنبه وأظل أتصل حتى يجيب موظف شركة الطيران ويدبر لي حجزاً في اليوم نفسه وهاأنذا على الطائرة ونحن نهبط في لندن. أشعر بالأسى للكيفية التي انتهت فيها زيارة دمشق الجميلة، الذي أحببته وأحبني هو دعاني عاهرة وأنا دعوته فاقد الرجولة، أرسلت له مع هادية اعتذاراً وسألته المسامحة. لكن هذا لا يلغي ما جرى، نحن الاثنين مذنبان، لسنا وحدنا في ذلك. تقاليدهم وموروثاتهم التي تركز على العذرية وغشاء البكارة وملكية الزوج الموعود لجسد الفتاة، وكذلك عاداتنا التي تختلف كليةً عن عاداتهم فنحن من بيئة إذا بلغت الفتاة الثامنة عشرة وهي عذراء قلق أهلها ومحبوها من خمود نشاطها الجنسي. لا أجد في نفسي رغبة للتجول ورؤية أنحاء مطار لندن، أبقى جالسة في الترانزيت أرى الناس في حركة حثيثة والطائرات تهبط أو تقلع حاملة آمالاً أو أحزاناً، ويبدأ شعور بالذنب يتسلل إلى فكري دون مشيئة مني. لماذا فعلت ما فعلت؟ لماذا لم أتعامل مع عمر كما تعاملت مع أخيه أو صهره؟ هل لأنه منذ اللحظة الأولى اصطدم أحدنا بالآخر، أم لأني أردت الثأر لعربي المرفوض أول مرة؟ هل بدأت أحبه منذ دفعني بيده أم أن لعبة القط والفأر جعلت الأدوار تتبدل بيني وبينه فطوراً يطاردني وطوراً أطارده؟ ما الذي حدث؟ وكيف حدث بعيداً عن سيطرة العقل والمنطق؟ الجواب كان بكل بساطة، وقد أتاني لحظة صعودي سلم الطائرة: لقد كنت مراهقة مستثارة، كان عمر بديلاً لرودني، وتعلقي به كان بسبب حرماني منه. ولم ألم نفسي بالطبع. لو أن هذه الفترة كانت في واشنطن لما سببت أي مشاكل. كنت سأجد من أرغب به ويرغب بي وكان الجنس سيأخذ وضعه الصحيح باعتباره مفروغاً منه مثل قهوة الصباح وأكثر. إن الشاب والفتاة يحتاجانه

ربما أكثر من القهوة أو الطعام حتى. إن كان مزاج الرجل أو المرأة عكراً وهما في سن الشباب فلا يسأل الأحباء والأهل عن القهوة أو الطعام بل يسألون عن واقع العلاقة بينهما. بالأحرى هل يستمتعان معاً أم لا؟ في دمشق، حتى غير المتدينين أشباه عمر ربما يتزوج أحدهم قبل أن يقبل الفتى فتاة أو العكس، صحيح أن حرية الذكر عندهم غير محدودة وحرية الفتاة في الحركة مقيدة جداً. لكن الفتى بسبب ذلك لا يستطيع الوصول إليها أو أن الأمر يتوقف على الفتاة عادةً، فهي إن كانت راغبة ستجد عشرات من الشبان يتمنون اللمسة أو القبلة أو ما يعدو ذلك.

هادية حدثتني عن كل هذا، هي نفسها تزوجت العم كمال بعد زواجين سابقين. أحبته بعدموت زوجها الأول ولم تسمح له بلمس يدها، فقط عندما غدت أرملة مرة ثانية وتحررت من قيود أمها خرجت معه. بالطبع ليست كل العلاقات هكذا - ثمة شاب إنكليزي على الأغلب ينظر نحوي بإلحاح الآن - نورا مثلاً خرجت مع ماهر مراراً قبل أن يتقدم إليها. سألتها أين ومتى كانت قبلتهما الأولى؟ قالت بخجل: في مكتبه. الثالثة عصراً حين وجب أن يكون المكتب مغلقاً. أخرها في استلام البحث المطبوع عامداً حتى فرغ المكتب. فوضع لوحة (مغلق) وأسدل الستائر وقبلها مراراً وهي لخوفها ولخجلها لم تكن متجاوبة معه - يسألني الإنكليزي الذي في الجهة الأخرى من الطائرة إن كنت أريد ما أقرأ فيه وأرفض دون شكر - أعتقد كما أكدوا جميعاً لي في دمشق أن مظهري مظهر فتاة في العشرين وليس في السابعة عشرة وبضعة أشهر. لقد جعلت علاقتي برودني جسدي ينهض ويمتلئ حيث يجب. بكل الأحوال نحن فوق الأطلسي وأنا لم أنم في ليل دمشق الطويل وأحس بالإعياء والنعاس. فأضع الوسادة الصغيرة على النافذة وأميل بجسدي لأغرق في نوم طويل أستيقظ منه وقد أصبحنا في أجواء وطني. هل سيكون أندرو في إنتظاري؟ أي سخيفة أنا. بالطبع سيكون. سألني العم كمال إن كنت قد اتصلت به لأخبره بقدومي. قلت نسيت. والحقيقة أني

لم أشـأ، فماذا سـأقول له؟ وعدني أن يتصل به فور عودته من المطار. ماذا علي أن أقول لأندرو؟ هل سيغضب مني؟ هل سأكون السبب في فتور هذه الصداقة الطويلة مع العم كمال وأسـرته؟ ماذا كان سـيحدث لو استجاب لي عمر وامتلك جسدي، يا إلهي كم تمنيت ذلك. كم من ساعات قضيتها في فراشي وأن أتقلب مطحونة بالرغبة التي لا ترتوي. ماذا سـأذكر منك يا دمشـق بعد اليوم؟ وماذا سـألقى فيك يا واشـنطن؟ الطائـرة تهبـط. تلـك أمتعتـي وذاك هو أبي الحبيب أركض لأتعلق بعنقه، كانت دموعي على خديّ، دموع سوزان الطفلة وقد عادت إلى أبيها.

«24»

مسرة

السـلام يعـم آل منصـور، لـم يعـد لرضيـة همـوم، أولادهـا وبناتها في بيوتهم والأحفاد يكثرون، بقيت مسـرة، الدكتورة مسـرة، التي غدت موضع افتخار رضية وموضع دلالها، أما أمي مؤمنة فرغم سعادتها بقرب تخرجـي مـن الجامعـة لكـن همومها مسـتمرة. غياباتـي عن البيت بهدف (السكر والفجور) وهو ما ورثته عن المرحوم عبد المالك منصور. وعدم استقراري فيما يتعلق بمستقبلي، ورغبتي في استبدال البيت القديم بشقة سكنية أو طابق فيلا، كل هذا يسبب القلق لمؤمنة، لكنه يتيح لها فرصة الشـكوى من هذا الولد الذي لا يسـمع الكلمة، ولم تكن مؤمنة تخدع أحداً لأن جميع من يعرفونها يعلمون مدى حبها وولهها بالأستاذ تميم حفظه الله والذي هو - بكل تواضع - أنا.

تخرجت من الجامعة بدرجة جيد، أسـتطيع متابعة الدراسـة ولكن لمـاذا؟ أنـا قـادر الآن علـى إثـراء لغتي الإنكليزية بالقراءة المسـتمرة وأنا قارئ نهم. هذا ما أستطيع أن أعرّف نفسي به. تميم قارئ نهم، ومحب للعرق، وللمومسات للأسف. فكل من أعرفهن هن من بائعات الجسد. بعضهن يرغبن بي مع مالي مثل نانا أو سـعاد، ودون مالي مثل سوسـو أو سـلمى. وأحيانـا أغبـط نفسـي لأنـي قـادر علـى إشـباع رغباتـي بينما العشـرات مـن الشـبان حولـي لا يتـاح لهـم ذلك. وأحيانـا أزدريها لأني أستمتع بما يشاركني فيه كل قادر على دفع الثمن. ولنعد إلى تخرجي، مؤمنة دعت الأسرة كلها إلى غداء فاخر دسم وسخي، عمي سعيد كان بادي السرور والانشراح وسط الأولاد والبنات والأحفاد والأصهار أمي لم تقبل مساعدة من أحد إلا من رضية زوجة عمي. كانت جلسة صاخبة

وسعيدة، افتقدت فيها الحاضر، أبي عبد المالك، في لحظة ما انسحبت خلسة ودخلت غرفتي، وقفت أمام صورته شعرت أنني مترع بالدموع، آااه يا أبي كم أفتقدك في أفراحي وأحزاني! غيابك نزع مني كل حافز، كل ما كنت أريده كنت جزءاً منه، وحين غبت لم أعد أريد شيئاً، أنا تميم منصور الطاعم الكاسي. أحسست بأحدهم يدخل، التفت فكانت مؤمنة. دموعها على خدها مثلي، اقتربت مني وعانقتني، قالت لي: ليبق في قلبك يا تميم، لم يحب أحد ولده كما أحبك أبوك. احفظه واحفظ ذكره وعجل لنا بمالك يا أبا مالك. أبوك منذ كنت في الرابعة أو الخامسة كان يدللك ويناديك (أبو مالك)، تعال، ضيوفك يفتقدونك.

كان علي حفلة أخرى في مطعم بريمو للعم راتب والحاج صالح نعمان، لقد عاد الأخير ليستأنف اقتراف الذنوب بعد أن غفرت له الأولى إثر الحج السابق، وهو يعتزم أن يكرر الحج ليستغفر إنما لاحقاً. وبانتظار ذلك لا بأس في كأسين من العرق، تعمدت أنا أن أدعوهما في المطعم كي لا أشهد خلافاتهما ومع ذلك فلم نكن نستطيع الابتعاد عن الشأن العام، سأل راتب مأمون صديقه عن حقيقة الشائعات التي تناثرت حول خلافات العسكريين والمدنيين في مؤتمر حزب البعث بعد أن غيروا رئيس الأركان في شباط من هذا العام، اعترف صالح نعمان بأن وضع عام 1966 يتكرر حين نشب الخلاف السابق، وآلمه أنه هذه المرة بين المدنيين والتكتل العسكري وهو ما لا يبشر بالخير. أسرعت للحديث عن مستقبلي مختصراً الاستفاضة في حديث السياسة، ولم نصل إلى نتائج مشجعة. أنا نفسي كنت غير متحمس لأي مشروع.

وليد رماح أبلغني دعوة والده للاحتفال بنجاحي، وليد لازال أمامه سنة ليتخرج، كان المطلوب أن أمضي يومين في مدينتهم، وبين إخوة وليد وأعمامه وأولاد عمه الذين لم ينقطعوا عن منزل والده احتفاءً بي أحسست بأهمية العائلة الكبيرة، يقولون في الريف: إن له عزوة. وليد له حقاً عزوة، ولأنهم يحبونه ويفتخرون به كمهندس قادم فقد كرموني

باعتباري سبب صلاح حاله.

كان لسمر أيضاً تكريم آخر، منذ ثلاثة أشهر لم أرها، وحين رأيتها شعرت أن العمر تقدم بها خلال هذه الأشهر كما لو انقضت سنوات، وعندما انفردت بي سلمى أخبرتني أن الجراح قد استأصل ثدياً لسمر بعد أن اكتشفت فيه كتلة، وطمأنتني إلى أن سمر قد شفيت تماماً لكن عليها أن تتابع الفحص مرة كل ثلاثة أشهر، ورجتني سلمى ألا أتظاهر بمعرفتي الأمر لأنها حرصت على ألا أعرف. قالت لي سلمى والغصة في حلقها: هل تصدق أنها قالت قبل العملية الجراحية بأنها لن تخاف إلا من شيء واحد وهو أن تذهب للنار بينما عبد المالك منصور في الجنة. أنا نفسي أخاف الآن يا تميم أن تتركني. هل تدري أني وسمر مرّ علينا المقدور نفسه، هي أمها ضربتها وأدمت رأسها فهربت إلى الشارع. وأنا أمي باعتني رغماً عني ووصلت إلى الشارع أيضاً. هي عشقت أباك وأنا أعشقك. هل في قلبك مكان لسوسو يا تميم؟ انقلبت الحفلة غماً، ولكن ذلك لم يمنعني من الشرب حتى الثمالة.

أصبحت متبطلاً وحين أردت اقتناء كتب بالعربية والإنكليزية اكتشفت فقرنا بالمكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية، هذا الاكتشاف أوصلني إلى مهنتي المختارة، مكتبة كبرى للكتب العلمية والجامعية خصوصاً في الطب والهندسة والصيدلة، كتب امتحانات القبول في جامعات إنكلترا وأمريكا. مجلات، أدب وروايات، نعم هذا له سوق وسيتكاثر عليه الطلب مادامت جامعاتنا تخرّج، خطر لي أن أسأل الدكتورة هناء فهي اختصت في إنكلترا وربما تستطيع إرشادي. وكذلك يمكن لابنة عمي مسرة الاستفهام في كليتهم. هناء رحبت بالفكرة كثيراً ووعدت بإعطائي عناوين دور نشر هامة في إنكلترا، وحتى في أمريكا تستطيع سؤال صديق أمريكي مختص بالأدب العربي عن دور النشر للكتب الأدبية والعلمية. هناء شجعتني كثيراً، وعلى الهاتف لقيت التشجيع نفسه من العم راتب مأمون، ووعد أن يسأل عن إمكانية تزويدي

في المستقبل بالكتب العلمية السوفييتية المترجمة للإنكليزية.

حين ناديت على مسرة عبر الجدار الفاصل لم تكن في البيت، سمعت صوتها بعد ساعة وهي تطلب من أمها تحضير الطعام ريثما تستحم، إنها دائماً على عجلة. دراسة الطب هذه لا تعطيها فرصة حتى لزيارة أخواتها كما تشكو أمها ولكن ببعض التفاخر. فتحت لها الباب وكانت الساعة قد بلغة الرابعة. جاءت لامعة ريانة وبسمتٍ حيادي تماماً:

- سألت عني.

- ألا نراك يا دكتورة إلا حسب مواعيد مسبقة؟

- تصور الحال إذن عندما يكون لي عيادة ومرضى ومراجعون.

شعت ابتسامتها وهي تتحدث عن مستقبلها المضمون.

- أين ستفتحين عيادتك؟ اسمعي، لتكن قرب مكتبتي.

تضحك بسرور.

- عيادتي يا حضرة مفروغ منها. ستكون لي عيادة، أما مكتبتك يا بن عمي الحالم جداً فهي أضغاث لا تغني ولا تسمن من جوع.

لاذعة وساخرة وساحرة، عيناها الخضراوان الذكيتان تلمعان:

- حسناً يا دكتورة، خذيني على قدر عقلي واسألي لي في كليّتك، ما مدى الحاجة إلى كتب ومراجع طبية في اللغة الإنكليزية؟

- هل تسأل جاداً يا تميم؟

تحولت الآن إلى جادة ومتحفزة:

- بالطبع.

- الحاجة ماسةً، هذا رائع، رائع فعلاً يا بن عمي، كتب طب بالإنكليزية.

- وهندسة وأدب وصيدلة وطب أسنان وحتى فيزياء ورياضيات، هَهْ ما قولك الآن هل هي أضغاث يا نصف دكتورة؟

تضحك بانطلاق وسرور:

- بل ربع دكتورة، وحتى مبتدئة إن كنت جاداً.

- كل الجد.

- أين المكتبة ومتى؟

- للأسف يا دكتورة لازالت في ذهني، كل من سألتهم شجعوني وأخرهم أنت.

- اعقد العزم يا تميم.

- بإذن الله.

- هل ستعطيني خصماً مناسباً؟

- ربما.

ونضحك معاً، ثم أرى بعض القلق يطل من عينيها:

- هل أضيفك قهوة يا مسرة.

- أنت؟

- أنا طبعاً ومن سواي.

- لا والله.... أنا أجهزها، إنما.

- إنما ماذا؟ قولي ولا تتحرجي. في فمك كلام.

- تميم، هناك، هناك ما يزعجني في الكلية.

أحس مباشرةً أن النار تندفع من جوفي إلى رأسي:

- ما يزعجك أو من يزعجك؟

- للحقيقة من يزعجني.

- حدثيني ولا تخفي عني شيئاً.

- لم يكن علي إطلاعك أنت بالذات. يا الله.. اسمع دعنا ننس الـ.......

- مسرة، تكلمي فوراً.

نظرت إلي مطولاً، لابد أن شكلي بدا لها مخيفاً.

- سأقول لك، لا أدري ما الذي جعلني أنسحب من لساني، القصة أن هناك معيداً، معيداً في الكلية. السنة جاء إلينا، إنه بعثي وهو يظن نفسه جيمس دين وابن زهر معاً. وهو أحمق ومغرور، لقد أظهر اهتمامه

بي بصورة سافرة ووقحة بعض الشيء.

- سأهشم له وجهه.

- تميم. هذا ما كنت أخافه إن حدثت أحد أخوتي. ليسا متعلمين مثلك، المفروض أن تكون أنت حضارياً على الأقل.

- سوف ألعن أبا الحضارة وأباه وأبا كل من ينتصر له. ماذا فعل؟

- لا شيء، قال ببساطة: إن ظل رأسك كبيراً فسوف نراك بعد عشرين سنة وأنت تحملين هذه المادة.

- ماذا طلب منك. أريد أن أعرف، إياك أن تكتمي شيئاً.

- طلب موعداً في كافتيريا وأنا قلت له: حتى لو لم يبق في الدنيا رجل سواك فلن يحدث.

- شاطرة، والآن، سنذهب غداً في سيارتي، وسوف تدليني عليه.

- سوف تتسبب لي بمشاكل في الكلية يا تميم، ألا يوجد حل آخر. ألا تعرف أحداً يمكن أن يصرفه من الكلية.

- أريد أن أضربه.

- لينصرف أولاً من وجهي ثم اضربه حيث تشاء، أرجوك. أرجوك تميمو، لا تتسبب لي بفضيحة.

لامس استعطافها قلبي، وقبل أن أحتار خطرت ببالي سمر حين قالت لي: اطلب ما تشاء. وقررت أن أطلب.

كل ما أرادت سمر معرفته هو اسم الشاب ومكان عمله وقالت انتظر مني مخابرة الليلة. وكانت الساعات طويلة وبطيئة، مشاعر مختلفة كانت تتناوب علي، الغضب والحقد والنقمة.. والغيرة. رأيت مسرة من وجهة نظره، إنها جميلة بحيث تكتم الأنفاس لمرآها. ولو أن الأحمق حاول استمالتها بلباقة وتظرف وخفة ظل لما كانت هذه النقمة. أما أن يستغل كونه من الحزب الحاكم ومدرساً في الكلية ويهدد بحجب النجاح عنها فهذا قد استفزني كثيراً.

جاءني الاتصال حوالي الساعة الحادية عشرة، كنت في غرفتي وأم

تميم في سابع نومة، قالت لي سمر عدة كلمات فقط: الليلة الاثنين. الثلاثاء لا، الأربعاء سيتبلغ انتهاء فترة اختباره. إنه ليس مثبتاً بعد ولم يصدر قرار بتعيينه النهائي. هل تريد شيئاً آخر؟ هل أوصي له بزيارة لبيت خالته مثلاً؟ قلت لها: سعيك مشكور. اتركي الباقي لي. منعت مسرة في اليوم الثاني من الذهاب إلى الجامعة. لم تناقشني. امتنعت وادعت مغصاً أمام أمها. ويوم الثلاثاء جعلتها ترافقني في السيارة إلى مدخل الكلية لتدلني على الحقير. رأيته، كان يسير مختالاً بنظارة شمسية، كززت على أسناني وأنا أتأكد من شكله وملامحه، سمعت أنفاس مسرة المتلاحقة، نظرت إليها باسماً وشددت بأصابعي على يدها الباردة فضمت يدي بين يديها:

- كرمى لله لا تتورط يا بن عمي. أموت ولا أراك في ضائقة أو مشكلة.

- الموت لمن يكرهك يا مسرة. بالمناسبة هل يمكن أن يكرهك أحد؟

- أنت قل لي.

ضحكت وأنا أدير السيارة:

- أين تذهب؟

- حيث تشائين.

- اسمع، لماذا لا تجول بنا في شوارع دمشق لعلنا نجد مكانا لمكتبتك. ما رأيك؟

- موافق.

نزلنا باتجاه الحلبوني، رأيت الطلاب في الطريق بين الحجاز والجامعة، كلهم يتحركون بسرعة وفي الاتجاهين، في اللحظة نفسها تبادلنا النظرة.

- هنا.

- أجل هنا يا تميم. المكان المناسب إما هنا وإما في الصالحية.

- لا. لا يثق الطلاب كثيراً بالصالحية، إنها ليست لهم، ربما في الشعلان أو هنا في الحلبوني ولكن ليس في الصالحية.

- ماذا ستفعل؟

- سوف أشتري دكاناً أو كراجاً أو مخزناً يصلح لمكتبة.

- ما رأيك في تلك الأبنية الحديثة خلف فندق الشرق؟

- وأنت قلتها. الآن مادمنا عثرنا على المكان. أين تأخذينني؟

- أنت الرجل، وسائق السيارة، وابن عمي، نحن ناقصات العقل والدين نحتاج لمثلك قواماً علينا. بوجودكم تميم باشا لا كلام لدرويشة مثلي.

- حد علمي أنك أميرة وأبعد الناس عن الدروشة، أين أغدّيك؟

- الرأي عندي أن نأخذ الخالة مؤمنة وتذهب بنا إلى فندق بلودان.

- الدنيا برد.

- إذن مطعم شتوي في السهل.

- أمرك.

- أستغفر الله، إنما ماذا نويت نحو... نحو المعيد.

- لا تحملي همه. انسي الموضوع اليوم ودعينا نسر أمي مؤمنة بهذا الغداء.

أمي حين سحبتها مسرة من البيت إلى حيث أنتظر في السيارة لم تتمالك نفسها فرحاً:

- أدعو الله ألاّ يفرق بينكما يا حق.

تخضب وجه مسرة خجلاً، ورضخت لأمي التي أجبرتها أن تبقى بجانبي، وظلت مسرة طيلة الطريق ملتفتة نصف التفاتة لأمي. تحدثتا عني كأني لست موجوداً، ذكرت لها مسرة مشروعي وهي متحمسة له. رأيت في المرآة أن أمي لا يعنيها المشروع من قريب أو بعيد، الذي أثلج صدرها هو حماسة مسرة وانفعالها لمشروعي. وأيضاً وجودنا معاً وما سمعت عن بحثنا الناجح عن موقع للمكتبة. قضينا نهاراً جميلاً

وعدنا سويةً.

- مسرة، متى أعلمك قيادة السيارة؟

- عن جد تميمو، الآن. البارحة، متى تشاء؟

ولم يفت أمي أن تسأل:

- وما أجرته يا قلبي؟

- صدقيني، هو سيدفع فوق التعليم.

- صحيح يا ماما، أرى بنت رضية مالئة يدها منك.

- أمي، مسرة فصعونة العائلة هل ستقيدين على كلامها؟

- ليتها تسلم لي هذه الفصعونة، وهل في برّ الشام مثل مسرة؟!

- قولي له ليفهم.

وأضحك، الأمر لا يحتاج إلى تفسير، أمي سرّها ائتلافي مع مسرة ولم تعلم عن الخلفيات والدوافع شيئاً، أما أنا فكنت سعيداً بالقرار الذي وصلت إليه وقلقاً بشأن المعيد النذل، اتصلت بسمر عند السابعة مساءً فاستمهلتني ساعة ثم أعادت الاتصال لتبلغني أن كل شيء قد سوي وغداً سوف يعلمون الأحمق بقبوله للدراسات العليا إنما في جامعة حلب وإن لم يلتحق خلال ثلاثة أيام فسوف يفقد فرصته. أراحني النبأ. ليس طبيعياً أن يصرفوا معيداً من الحزب ولكنه منطقي أن يقبلوه ولكن في حلب. بقي علي وقد أبعدته عن مسرة أن أعاقبه شخصياً. لذلك انتظرت قرب باب الكلية ورأيته يدخل مختالاً كما سبقت لي رؤيته. ولم أنتظر كثيراً، بعد نصف ساعة كان يخرج مسرعاً والانفعال طاغٍ عليه يحمل مئزراً وكتباً لم تكن معه. اعترضته.

- أهلاً دكتور، أين طريقك معي سيارة.

- آ.. أنا أذكرك، أنت من السنة الرابعة؟

- بل الخامسة، أين طريقك؟

- هل تعرف شعبة الحزب في المهاجرين.

- طبعاً.

- إلى أقرب مكان إليها.
- على عيني.
- لم تقلي اسمك يا.....
- تميم.
- فعلاً أذكر الآن... تميم، شكراً، شكراً.

يصعد قربي وأنعطف في شارع بيروت باتجاه الأركان ثم نحو الربوة:

- ولكن، كان عليك أن....
- لحظة فقط، ينقصني بنزين، دقيقتين.
- لا بأس.

وحين نصل إلى ما قبل المنشية أوقف السيارة وسط دهشته ثم أمد يدي لآخذ الكتب والمئزر من المقعد الخلفي:

- أين؟ أين تذهب بها؟ هل أنت مجنون؟

أتجه إلى الدخل بين الأشجار وهو يسرع خلفي:

- سمعت أنهم قد عينوك مجدداً يا دكتور.

يصفر لونه ويقف مدهوشاً:

- من من م م من قال لك.

ألقي مئزره على الأرض وأدوس عليه فتبدو عليه البغتة:

- ماذا تفعل؟ من أنت وماذا تريد؟ مجنون. هل هل أطلب الشرطة؟ أنت لا تعرف مع من تتحدث، سوف أرميك في الحبس.

- لم تسألني عن اسمي بالكامل، اسمي تميم منصور، هل يعني لك شيئاً؟

يرتبك، يفكر، ينظر حوله، ليس هناك أحد على مسافة منا.

- ما بك؟ لم خرست يا دكتور.

أقترب منه، اللون يفرّ من وجهه، أتذكر اختياله وحركاته المتغطرسة وأتذكر ضعف مسرة وما شعرت به حين هددها. عندها يشتعل الغضب

في صدري و أصفعه بقوة.

- آخ يا ابن الـ....

ولا يكمل لأني أصفعه ثانيةً.

- ألا ترد الضرب يا حقير. ألا تدافع عن نفسك يا نذل.

أصفعه ثالثة وبقوة تلقيه أرضاً.

- ما رأيك؟ هل أجبرك على تقبيل حذائي أم أنزع عنك ثيابك وأتركك عارياً هنا؟

أحس به يكاد يبكي، يزحف بمؤخرته على الأرض مبتعداً عني. إنه جبان تماماً.

- ماذا فعلت لك؟ لماذا تتهجم علي هكذا.

- هل نسيت يا سافل كيف هددت طالبتك بأن ترسب عشرين سنة في مادتك؟ هل سمعت بحقير مثلك. أنت عار ليس على الجامعة بل على المتعلمين كلهم. اسمع، هذه المرة نقلوك فقط، أبعدوك. وأنا اكتفيت بضربك دون أن أؤذيك. المرة القادمة سأقطع خبرك وأدفنك حياً إن لم تسبقني جهات تعرفها لتجعلك تذوق ظلام السجن وتنشد له.هل فهمت؟

- فهمت، فهمت.

أرمي الكتب في وجهه وأغادر، يداخلني شعور بالرضا إنما مشوب ببعض الندم، لقد ضربت جباناً ضعيفاً، صحيح أن الذي مثله يؤذي إن تمكّن، لكن الذي مثلي لا يصح أن تتسخ يده به. كان علي أن أنتقم لمسرة وهكذا فعلت، أما هو فقد غادر فعلاً، وسمعت أنه تلقى تهديداً بفصله من الحزب والجامعة عند أول خطأ يرتكبه. يا إلهي إن (سمر) مدعومة حقاً.

- تميم، تسلم لي يا بن عمي، لقد صرفوه، أرسلوه إلى حلب، يا الله. حين عرفتنا المعيدة الجديدة بنفسها وقالت إنها جاءت بديلة عنه كدت أزغرد. قل لي، قل لي كيف فعلت؟

- تمنيت لو رأيته على الأرض أيضاً وهو في مذلة ومهانة.

تشهق.

- هل. هل رأيته؟

- بالطبع، انتظرت حتى خرج ومعه كل ما يخصه وأوصلته إلى حيث يريد.

- تميم، حباب، كن جاداً، هل رأيته فعلاً؟

رويت لها ما جرى، صفقت ونظرت حولها ثم تعلقت برقبتي ومسحت خدي بشفتيها:

- تستحق أكثر.

- وأنا لا أريد إلا هذه الفرحة في عينيك يا مسرة، هل قلت لك إنني لم أر عينين بجمالهما؟

تخضب وجهها، إنما كادت المفاجأة بسماع كلماتي أن تذهلها:

- أنا مسرة، أنا لست سليمة.

- من سليمة؟ إذا حضرت مسرة فاشطبي على البقية.

- ي ي ي. الله يجبر خاطرك، ما صدقت أن أسمع من تميم ابن عمي كلمة مديح.

- أنت تستحقين أكثر. إنما مادمنا على صعيد الكرم. ألا أستحق واحدة أخرى هنا؟

وضعت إصبعي على الخد الآخر فضحكت وأطرقت برأسها.

- لا تكن طماعاً، لم يحصل على هذه مخلوق من صنف الرجال سواك.

كان قلبي يرقص فرحاً، يا إلهي، لقد كانت أمامي طيلة الوقت، هل كنت محتاجاً لهذه النقمة البالغة نحو الذي يتطاول عليها؟ هل كان لزاماً أن تكويني الغيرة قبل أن أكتشف مدى تعلقي بهذه الجميلة كما لم يكن سواها؟

هل كانت عيناي تفصحان عما في ذهني؟ لقد رأيتها تتألق

وتزدهي وحين مددت يدي نحوها وضعت فيها يدها أولاً ثم أمسكت بها ومسحت بها شفتيها. هل كانت عيناها تدمعان أم عيناي؟ هل شددتها إلى صدري أم انشدت هي إليه؟

دخلت أمي مؤمنة فرأتها على صدري، شهقت، حاولت مسرة أن تبتعد فشددتها لأحول دون ذلك:

- أمي، ألا تريدين أن تقبلي خد عروسي؟

كيف زغردت مؤمنة، كيف ركضت لتحضننا نحن الاثنين؟ كيف بكت مسرة وهي تتعلق بعنقي وتتمتم يا حبيبي. يا حياتي. كيف سألت رضية ماذا يجري عندكم؟ وكيف قالت لها مؤمنة زغردي يا رضية لولدينا. تميم خطب مسرة، تلك قصص لم أكن في وعيي تماماً لها. كل ما أعرفه أن هذا الوجه الفاتن بعينيه الدامعتين كان بين يدي. ولم أخجل وأنا أقبلها حيث تقع شفتاي ركضت زوجة عمي ولحقت بها آسيا تطح بحملها. زغردن، بكين، عانقونا معاً لأني لم أفلت مسرة من أحضاني. قبلتها أمامهم ألف مرة. جاء عمي بعد أن اتصلوا به، عانقني وبكى وأبكانا وهو يندب أخاه عبد المالك الذي لم يحضر هذه الفرحة، همست لي:

- لماذا جعلتني أنتظر كل هذه السنين؟

- ربما لأغدو مستحقاً لحبك.

- هل تعلم، لقد غرت عليك من الهواء الذي يلامسك، حقدت على سليمة، وكرهت ضياء لأن أحدهم ذكر أنك أحببتها يوماً، كنت مستعدة لأنشب أظفاري في بنت راتب مأمون أو بنت صالح نعمان، هل تعلم كم أبكيتني يا ظالم؟

- حقك علي، أنا لم أكن سأعطي قلبي إلا لمن ستغنيني عن الدنيا كلها، ولولا إحساسي في هذه الأيام الماضية بأنك في قلبي وأنك امرأتي وحب حياتي وأني فعلاً لا أريد في حياتي أي مطلب سواك لما تكلمت. أنا أحبك لأنك أنت أنت وليس لأنك أحببتني أو لأنك فائقة الحسن.

- مهلاً علي يا تميم، أنا لا أحتمل.
- لم هذه الدموع الآن؟
- أنا اعتدت دموع البعد والغيرة والصد فكيف لا أعتاد منذ اليوم دموع الفرح؟ سأنتظر حتى شروق شمس الغد لأصدق أنه ليس حلماً.

أما أنا فانتظرت حتى انفردت بنفسي في غرفتي، ذهب الجميع قبلها وبقيت أنا وأمي مؤمنة ومسرة التي تلكأت حتى قبلتها أمي بشغف ثم قالت لنا: تصبحان على خير. بقينا وحدنا فردت ذراعي فطارت لتجلس قربي وترتمي على صدري ثم ترفع رأسها نحوي تاركة لعينيها الخضراوين التعبير. قربها مني ورائحة جسدها وقبلة طويلة من شفتي الكرز، جعلني كل ذلك أتقد تحت ثيابي، هذا فعلاً ما كنت أنتظره، أنا بكل ذرة من كياني أشتهي وأحب امتلاك هذه الغادة، أبعدها عني قائلاً: إلى بيتك وفوراً، تضحك وقد أدركت ما يخامرني:

- ومتى يكون هذا بيتي؟
- متى تريدين؟ وهل تحبين أن يكون بيتك هنا أو في مكانٍ آخر؟
- حيث تكون أنت، وحيث تريد، أنت لا تعلم أني برمجت كل آمالي ومستقبلي الذي حلمت به حولك أنت. كنت أعرف أن وقتاً سيأتي وتراني فيه.
- أنا أراك منذ خلقت.
- مسرة الفصعونة.

وتكمل بحياء هامسة:

- الشخاخة.

نضحك كلانا بخجل، هي لما تلفظت به، وأنا لتذكيري بحماقة ذلك الوصف، وأنظر إليها وأقربها مني وقبل أن تكتمل القبلة أبعدها عني:

- إلى بيتك، غداً الفاتحة والتلبيسة، بعد غد الكتاب عند الشيخ وفي المحكمة ثم ريثما يأتي العرس تكونين حرمتي.
- وتصبح قواماً علي.

- طبعاً.

- بمعنى آخر أنت لن تقبلني حتى مثل هذا الوقت بعد غد.

- طبعاً.

- لا بأس، إنما أنا سأقبلك فماذا ستفعل؟

- أرضخ وأمري لله.

ويأتي الآن صوت رضية عبر الجدار:

- فهمنا دكتورة، اخصميها. أبوك وأنا ننتظرك.

وتضحك مسرة، وفي ضحكتها تشع حقاً المسرة والغبطة كلها، وعند باب بيتنا تمنحني شفتيها ثم تدخل بيتهم وأعود لأنفرد في غرفتي. ورغم مرور نصف ساعة على ذهابها فإن قلبي لازال يخفق ودمي يتدفق حاراً وسريعاً في أوردتي، ثمة أمر رائع قد حدث لي، ثمة فرح غامر لم أعشه من قبل، الآن أحس بأني مكتمل ولا أشكو من أي نقص، إن لي مسرة، في كل أحوالي ستكون مسرة لي، إن فرحت ستضحك ابتهاجاً وإن حزنت ستضمني تعاطفاً ومواساة، ستكون لي وتنتمي إلي كما أنتمي إليها. سوف نقترن لنكون تميم ومسرة، مسرة وتميم. بل مسرة تميم لأننا غدونا واحداً، أنا بكل بساطة أحب. منذ متى؟ ربما منذ كنت أسخر منها وأناكدها وأقسو عليها، منذ الأبد أنا أحب هذه الحلوة الفاتنة الذكية، انسدلت الستر أمام عيني طويلاً، سليمة، ضياء، نانا، مائسة، سلمى، كلهن كن مطلوبات في حينهن، لكنهن الانتظار، الترانزيت، إنهن عابرات كنت أشتهي وصالهن، وأستمتع بذلك، الآن وأنا وحدي مستمتع، قلبي دافئ، ثمة بعد جدارين وثلاثة قلب آخر ينبض لي، ينبض فيّ، عينان تبتسمان لي وحدي، كيف؟ كيف استطاعت هذه الممشوقة الجذابة أن تكتم عن الجميع حبها؟ لابد أنه اعتدادها بنفسها، ثقتها بذاتها، يقينها في أن المستقبل لها ولي، هذا ما جعلها مسيطرة على انفعالها أمامي وأمام سواي، وعندما تطلب الموقف منها أن تفعل شيئاً لجأت لي دون الآخرين، فلمن يلجأ الحبيب إن لم يكن لحبيبه؟

حادثة وحيدة أزاحت الستائر المسدلة لأرى نفسي، لأصل إلى الكشف الصوفي، إلى المعرفة، فأنا أتنفس حباً وعشقاً وشغفاً وعاطفةً.

منذ الصباح الباكر طرقت أمي مؤمنة الباب ودخلت، يا إلهي هاهي أم تميم شابة من جديد. رأيت وجهها الوضيء يتألق بالصحة والعافية، دخلت بفنجاني القهوة:

- هل تشرب القهوة مع أمك أم مع العروس؟

- ليس لي أو للعروس بركة إلاك يا أم تميم.

- اسمع يا حبيبي، تفضل قهوتك، أنا - وأعوذ بالله من كلمة أنا - أنا مؤمنة واسمي مؤمنة وأتمنى من الله أن أعيش لأراك عريساً، وأن أحمل أبناءك وأفرح بهم.

- العمر الطويل يا أمي.

- دعني أكمل، هذا ما أتمناه يا حبيبي، لكن بعد أن حججت مرتين واحدة عني والثانية عن المرحوم أبيك لم يكن باقياً علي إلا أن أؤويك في بيت الزوجية، وأمس قدمت لي فرحة عمري، منذ اليوم لا يهم متى أخذ الله أمانته، لقد تحقق لي كل ما أريد. وكل يوم أعيشه من الآن فصاعداً هو فرح بك وبعروسك إن شاء الله.

وأحس بفيض عاطفتها الذي خنق صوتها وأسال دموعها فأسرع لأغمر يديها قبلاً:

- أمي، أنت الخير والبركة، ارضي عني وادعي لي، أطال الله عمرك حتى تزوجي أحفادك.

- والآن. ماذا نويت؟

ولا أجيب لأن صوت عمي سعيد يأتي عبر الجدار:

- هل استيقظ العريس؟

- نعم يا عمي.

- تعال أنت وأمك، الدكتورة ما عادت تصبر.

وأسمع صوت مسرة الشاكي:

- بابا؟

- نحن قادمان.

وحين تفتح لنا رضية الباب أفاجأ بأن الجميع في بيت عمي، معزز وزوجها وأولادها سليمة ومصطفى، آسيا وحدها، أولاد عمي، وبالطبع حبة قلبي مسرة التي تسرع لتستقبل أمي بالعناق ثم تعطيني خدها أمام الجميع وألمس خد القشدة مسحاً:

- صباح الخير.

- صباح النور.

الجميع ينظرون إلينا ونحن نجلس متقاربين، ويدي تطوق كتفها، رضية أمها تنظر إليها بتدله ثم تقترب وتقبلها:

- سأرقص في عرسك حتى أقع، أفرحت الجميع يا حبيبتي، أبوك عنده ما يقوله لكما.

- نحن لم نقرأ الفاتحة بعد، ما رأيك يا زوجة أخي؟

- نقرأها الآن.

- ما رأي العريس؟

- الرأي لك يا عمي، ما تقوله نافذ.

- على بركة الله وعلى نية التمام إذن نقرأ فاتحة خطبة تميم ومسرة، بسم الله الرحمن الرحيم.

ونقرأ جميعاً الفاتحة، وأسمع همس مسرة:

- أنا أطير.

وتأتيني وإياها تبريكات الأهل. أحس فعلاً أني بعيد، وأتمنى لو أننا وحدنا، يا إلهي، هل بدأت أضيق بكل الآخرين؟!

- عمي.

- أأمر يا غالي.

- أريد أن يأتي كاتب المحكمة غداً.

- اليوم إن رغبت. قال مصطفى.

- ليكن اليوم.

- ومتى ندعو العالم؟

- نطبع البطاقات اليوم ونوزعها في يومين. والكتاب الخميس، ليس بعد غدٍ وإنما الخميس القادم، يحضر الشيخ ونجري الكتاب الشرعي.

- لماذا العجلة في كتاب المحكمة إذن يا ماما.

تضحك سليمة وتقول:

- تميم يستعجل وضع اليد قانونياً يا خالة مؤمنة، انظري لقد استولى على البنت في بيت أهلها ولا ينقصه إلا بصمة الكاتب.

ويضحك الجميع وأنا أشد كتف مسرة نحوي باعتزاز.

- مصطفى، الكاتب عليك.

- حاضر يا عمي.

- أنا سأتكفل بالبطاقات والمطبعة، كم سندعو ومن؟

- مائة يا عمي، الأقارب، والأصدقاء، أصحاب المرحوم أبي، أصدقائي، مائة على الأقل.

وهكذا أجد أموري في مشروع العمر يسيرة والدرب زلق، لا شيء يعترضنا، فهم الجميع أن كتاب المحكمة هو سماح حقيقي بوضع اليد، غدت مسرة من أسرتنا منذ بارك لنا كاتب المحكمة، أصحبها عند الصباح إلى الجامعة، وأنتظرها لأعود بها، نتغدى معاً، نسهر معاً ومؤمنة في أوج سعادتها تتعمد تركنا منفردين ولا نرضى إلا أن تشاركنا الخروج والطعام والسهرة، لكنا نختلس بعض الوقت لبث الشوق والتوق.

وجدت مخزناً كبيراً في منطقة الحلبوني، يطل على الشارع من جهة وعلى الزقاق المؤدي إلى فيكتوريا وبردى من جهة ثانية، وكان للبيع بسعر مرتفع، سألت وشاورت وفاوضت بحضور عمي حتى اشتريته بما ابتلع أكثر من نصف رصيدي، وهكذا حين توافد المدعوون لعقد القران كنت مالكاً لأرض المشروع، حضر العم راتب والحاج صالح نعمان وجاء فرج الأسمر، نبيل رماح ووالده وبعض أعمامه، سهوت عن زيارتي

لسمر، ربما عامداً لأن دورها كان هاماً في حياتي، لقد أبعدت المعيد الجبان وقالت إن ذلك واجبها نحوي. ودعت سلمى التي بكت مطولاً، قلت لها: أنا لن تكون في حياتي إلا امرأة واحدة، أما سمر فلن أنقطع عنها. هنأتني وباركت لي وأشارت لي لأذهب فيما تعتني هي بسلمى. وهكذا كنت متأهباً حقاً لحياة جديدة. متخلصاً من تبعات ماضي الفتوة والشباب. ولم ننظر طويلاً، وهل كنا نستطيع الانتظار؟ ومن لم يفاجئنا من الأهل؟ أمي. أمها، سليمة، آسيا. جميعهن قد رأيننا وهي بين ذراعي، وأنا لم أكن أشبع منها، لذلك استعجلت نساء العائلة الزفاف.

ليلة ستظل خالدة في قلبينا، يا إلهي، ابنة عمي هذه حورية لم يخلق لها الزمان مثيلاً تبزأفروديت وعشتار وإيزيس وعائشة بنت طلحة وهيلين طروادة ومارلين مونرو وكل كل نساء الأرض اللواتي درجن عليها واللواتي سيدرجن، قضينا أسبوعين في أثينا كشهر عسل ثم عادت مسرة إلى كليتّها وأنا لترتيب الرفوف والخزائن والديكور استعداداً لاستقبال الكتب. طلبت من فرج الأسمر وهو البارع في الإنكليزية أن يعمل معي، شجعه العم راتب على أخذ استيداع والعمل معي بدوام كامل، اتفقنا على دوام لخمسة أيام ويعطل يومي الخميس والجمعة بحيث أفتح أنا المكتبة يوم الخميس. لابد أن ذلك كان من أجل نشاطه السياسي. كنت قد فتحت اعتمادات لعدد من دور النشر الإنكليزية والأمريكية. ساعدتني الدكتورة هناء في ذلك، وقد استجاب لها أستاذ جامعي هناك اختص بالأدب العربي وسبق له العمل في دمشق، ضمنت للمكتبة زبائن دائمين هم طلاب قسم اللغة الإنكليزية، وكذلك طلاب المواد العلمية، ودارسي اللغة في المعاهد التي تنتشر، صحيح أنني وضعت فيها معظم ما ورثته وما جاءني كأرباح عبر السنوات الماضية لكن دخلها يعوض ما أنفقته بحيث استعدت السيولة خلال ست سنوات رزقنا فيها بالحبيب مالك. سيكون للأسف ولداً وحيداً مثلما كنت، تعرضت مسرة أثناء الولادة وبعدها لمضاعفات أدت إلى أن تخسر الرحم لكن الولد أتى سليماً

معافى وهي استردت عافيتها دكتورتي الحبيبة، كانت رغبتي أن تختص بالأطفال وهكذا اختصت في مشفى الأطفال قرب مبنى الجامعة القديم وفي مستشفى المواساة ثم فتحت عيادتها قرب منزلنا. هل ذكرت أني وعمي قد بعنا الدارين لأحد المتعهدين بعد أن سلمنا طابقين كبيرين يفوق كل منهما المائتين وعشرين متراً مربعاً في العدوي الجديد. الطابق الأرضي لعمي وزوجته رضية والذي فوقه لي ولأمي ومسرة والحبيب مالك تميم منصور. مالك بهجة القلب وفرحة النظر البالغ الذكاء والفارع الطول المهذب الذي نما في بيئة من الحب الخالص، مؤمنة ورضية وجده سعيد وخالاته وأخواله وأولادهم، كان مالك ولايزال قرة عين الجميع. وهو ليس مدللاً أو فاسداً أو مائعاً. أعوذ بالله. كنت أتمثل بأبي وكيف رباني حتى بلغت الرابعة عشرة وأربي مالكاً، مسرة كانت مثلي تطالبه بالكمال، وبالمقابل حاول الجميع إفساده بالدلال لكنه كان عصياً على الفساد، لم يكمل الابتدائي حتى كان يتقن الإنكليزية قراءةً وكتابةً شأنها شأن العربية، جعلته يحب القراءة كما أحببتها أنا وأبي من قبلي، قرأ الروايات المطولة وعشق الأفلام مثلي، وتكفلت مسرة بالمواد العلمية، وحين كان في الصف العاشر صببت له أول كأس عرق خفيف وشربه مستثاراً، رأيته يجلس بجانبي ويتابع مباريات كرة القدم، ضحكت حين اكتشفت أنه يعامل الفرق بمنظوري فمن هو مؤيد للحق العربي يكون قريباً من نفسه ومن يعادي الحق العربي لا يكون كذلك حتى لو كانوا بارعين ومتفوقين. إنه مثلي لا يحب التسلط والموالاة الغبية والنفاق، ويقبل النقاش ولا يضيق بالرأي الآخر ويحاكم الأمور بمنظور يساري وإن كان يعيش التناقض الذي عشته من قبله. الملكية والوفرة ثم الدفاع عن حقوق الفقراء والكادحين في حين أننا لم نعرف الفقر أو الكدح. لكن المعيار ظل دائماً في نظري والحمد لله في نظر مالك هو: ما هو خير للوطن فهو خير. وكل من يغش الوطن أو ينتقص من سيادته أو ثروته أو منعته فهو شر مطلق. أنا لم أتحزب وأظن أن مالكاً

لـم يتحـزب لكنـا لسـنا حياديين. نحن مـع الديمقراطية والعدالة وصالح المواطنين وضد التسلط والجور والفساد.

وقبل أن يدخل مالك الجامعة بسـنتين فجعتنا الحياة بأمي مؤمنة، لم تكن تشـكو من شـيء. وهي أسـعد الناس طراً بنا نحن الثلاثة مالك ومسرة وأنا. لكن القلب الذي أحب بكل طاقته توقف فجأة، كان مالك أكثرنـا أسـىً وفجيعـة. كانـت أمـي تضعه في مصـاف الأنبياء، وكنا حوله لنسـبغ عليه حبنا وعطفنا ليجتاز محنته ومن بعدها الثانوية ثم إلى كلية أمـه، الطـب، ويظـل كمـا كان فـي تفـوق مسـتمر، ثم يصل بـه الأمر إلى جلبنا إلى هنا إلى أمريكا نفسها.

«25»

طعم الشباب ذاك

صحيح أن الدنيا صغيرة، ولا أقول ذلك إلا من واقع التجربة، ولا أتحدث عن صغر الدنيا بمقياس الإنترنت وغوغل والأقمار الصناعية وعن كون الكوكب قرية صغيرة بسبب نجاعة وسائل الاتصال. لا، أنا أتحدث انطلاقاً من المثل الشعبي الذي يؤكد أن الدنيا صغيرة وجبل لجبل لا يلتقيان وبني آدم وبني يلتقيان. كل هذا يرد إلى ذهني وكمال، حفيدي كمال عمر راضي، يشدني من يدي لأخرج من المكتبة إلى حيث تجلس هادية ومعها ولدي عمر وزوجته مايا وابنتهما سوسن شقيقة كمال لم أسمح لعطا أن يسمي بكره باسمي فأسماه لأجلي (يسار) أما عمر فلم يستشرني وسمّى ولده على اسمي، أدخل إلى الغرفة بعد نحنحة كي تعدّل مايا حجابها. زوجة عمر محجبة وهي الوحيدة في أسرتها وأسرتنا.

اليوم هو آخر أيام عام 2005 وسوف تكون لنا سهرة في البيت يحضرها عطا ويمنى وأولادهما يسار ومصعب وشادن وربما تأتي ربا خطيبة يسار وستأتي نورا وزوجها ماهر وولداهما شادي ونسرين. ولأن عمر يعتبر موضوع رأس السنة احتفالاً غربيا أو هو بدعة بمعنى ما فإنه لا يشارك فيه أو ربما لأن بعض الشراب يحضر فيغيب هو. على أية حال هذا ما جرت عليه العادة يزورنا قبل أي احتفال لا يعجبه حضوره. ولا يعني هذا أنه لا يشارك في فطورات رمضان أو عيد الأضحى وعيد الفطر. لا إنه ومايا يأتيان ويختلطان وبين الأخوة حب وطيد، عمر هو ابن هادية حبيبتي التي منذ ارتحمت سامية غدت أماً للأولاد جميعهم. فقد عادت سامية بعد سنوات من زواجي بهادية إلى سابق عاداتها في الطعام،

أول الأمر كان رد فعلها هو حمية شديدة ترافقها رياضة وتمارين سويدية بحيث عاد جسمها إلى ماكان عليه وهي في العشرينيات من عمرها. لكن الغيرة التي حفزتها لكل ذلك قد خمدت أو تلاشت فعادت إلى الوجبات السابقة ولم تنفع نصائح الأولاد ولا تذكيرهم إياها بهادية هذه المرة، وهكذا أدت السمنة والكوليسترول وارتفاع الضغط إلى أن نفقدها قبل عشر سنوات وقبل أن تكمل الستين من عمرها. أما أنا فإني أشارف على السابعة والستين ولا أشكو بحمد الله إلا من صعوبة نزول الدرج أكثر من صعوده. إن غضاريف الركبتين عندي في حال مأساوية، كان المفروض أن نحتفل هذا العام بحضور كنانة وزوجها لولا احتمال أن تلد حفيدتي زينا مولودها الأول في أي يوم. حتى ابنتي كنانة ستغدو جدة. يا إلهي، هاأنذا قد شخت رغم إحساسي بأني لازلت شاباً، لكن يكذب ذلك النظارات وآلام الركبتين واتساع الصلعة وزواج الأحفاد.

أدخل مع حفيدي كمال الغرفة فتسرع سوسن ابنة عمر مرحبة بجدها، فأحملها وأقبلها ثم أعانق ولدي وأصافح مايا وأجلس قرب هادية وتجلس سوسن على ركبتي ويجلس كمال بيني وبين جدته، ولأني أجلس معهم تغتنم هادية الفرصة وتقوم لتجهز مائدة صغيرة لعمر وأسرته وتلحق بها مايا وتثرثران معاً، العلاقة بينهما جد طيبة لذلك تعتبر مايا حماتها بمثابة أمها، لقد فقدت والدتها وهي بنت سنوات لذلك اعتنت بها عمتها، عمتها سوسن ربيع، سوسن نفسها أم العيون السود التي افتتن بها أندرو، مايا ابنة أخيها الدكتور سامر ربيع، ألم أقل لكم منذ البداية إن الدنيا صغيرة، فحين جاء عمر إلى أمه يُسر لها أن طالبة في السنة الخامسة من طالباته قد أعجبته وإنه يريد أن نخطبها له لم تعد لفرحة هادية حدود. لقد رأت بعض التغيير في عاداته قبل شهرين وتذكرت مثيل ذلك قبل عدة سنوات حين بدأ يتأنق ويغيب عن البيت. يومهاتعلق بسوزان براون ابنة أندرو، ونتج عن ذلك وضع محزن جداً، فقد وصل الأمر بينهما إلى أن تختصر سوزان حوالي خمسة أشهر من زيارة دمشق،

وخلّف ذلك الصدام بينهما أثراً ملموساً في نفس عمر، لأنه عاود لأشهر الانغلاق على نفسه بعد أن استطاعت سوزان الشابة أن تجعله يتكيف ويقبل على الحياة بانفتاح ورضى. سربّت لي هادية بعض مما سمعته من عمر، وسرّب لي أندرو عبر الهاتف والرسائل ما سمعه من سوزان بحيث اتضحت لدي الصورة.

لقد بدأ لقاؤهما بالتنافر إذ تشابكت المصادفات ليراها عارية تماماً مما يستفزه وهو المتدين بقناعة كاملة، ثم اصطلحا ونجحت أخته نورا بمساعدة جمال سوزان العقلي والجسدي في اجتذاب عمر إلى علاقة مرحة جعلت هادية تقلق خاصةً عندما أخذ يرافق سوزان وحدهما ويتردد على القبو حيث تقيم. سوزان براون حسناء بكل معنى الكلمة ورثت عن ريتا وأندرو أحسن ما فيهما، ولم تكن تتحفظ في ثيابها سواء في الخارج أو في بيتنا وبالطبع في مكان سكنها. وكان عمر يرى ما يفتنه وهو الذي لم يختلط بالفتيات ولم تكن له من قبل علاقة بأي منهن سواء عاطفية أم جسدية، وقد فهمت أنه نشأ بينهما حب متبادل وقد عرضت عليه سوزان نفسها وهذا ما روته لي هادية، لكنه كان عفيفاً وذات ليلة سألها عن ماضيها فحدثته عن علاقة سابقة لها مع شاب أمريكي ويبدو أنه سألها عن عذريتها وكانت قد تخلت عنها بالطبع فجن جنونه وصدم بغيرة لفحه سعيرها مما جعله يشتمها ويهينها وبدورها لم تقصر فيه ثم سافرت في اليوم الثاني ورغم أنه لم يعد للبيت ولم يكن في المطار لكنه اعترف فيما بعد لأخته نورا أنه كان موجوداً ومتدارياً عنا وأنه رآها تلوح لنا وانسحق قلبه نتيجة ما جرى، سوزان بدورها عادت إلى بلادها ودراستها وتزوجت ثم تطلقت وهي الآن تعيش مع أبيها في مدينة صغيرة من ولاية واشنطن على الساحل الغربي لأمريكا. والملفت للنظر أن حفيدتي سوسن تشبه إلى حد كبير سوزان براون. وليس في ذلك غرابة مطلقة، إن سوسن تشبه كثيراً عمتها سوسن ربيع، حبيبة أندرو الدمشقية التي جعلته يغادر دمشق ذات يوم مولهاً بها، وأندرو تزوج

من ريتا جيوفاني الحسناء التي بينها وبين سوسن ربيع شبه كبير، لذلك فإن ما أتحدث عنه هو العيون السـود، وولدي عمر كما أعتقد - والله أعلم - حين وافق مايا على أن تسـمي البنت باسـم سوسـن على اسـم عمتها إنما وافق لقربه من اسـم سـوزان براون والتي دعيت بهذا الاسـم إكراماً لسوسن ربيع فما رأيكم بهذا كله. ألم أبدأ بالقول إن الدنيا صغيرة.

المهم، حين جاء عمر يتحدث بفتاة اسمها مايا سامر ربيع ذهبت أمه لزيارة البيت بناءً على موعد وكان في استقبالها سوسن نفسها وحين عرفت هادية باسمها ورأتها تذكرت أندرو براون وسوسن فالقصة بالنسبة لنا غدت مأثورة. لقد حصل الإعجاب بينهما هادية وسوسن. ولم تستطع هادية الصمت مطولاً إذ حين انفردت بسوسن قالت لها: لقد اقترن اسمانا مطولاً يا مدام سوسـن. وحين دهشـت هذه من هذه المعلومة وسـألت كيف ذلك؟ شـرحت لها هادية أن رجلاً أحبها وافتقدها كان له صديق تعلق بالسـيدة سوسـن وقضيا سنوات وكل منهما يندب الحبيبة الغائبة. ذهلت سوسن وسرعان ما اكتشفت وسألتها: عمن تتحدثين؟ عن واحد دمشقي؟ فقالت لها هادية: دمشقي الهوى وتكساسي المولد. هذه المرة لم يكن لدهشة سوسن حدود، طلبت من مايا أن تتصل بعمر من غرفة أخـرى وجلسـت هـي وهاديـة يتبـادلان الحديث، وبالطبع لم تذكر هادية أن سوزان براون كانت في دمشق قبل سنوات. لكن سوسن تباهت بأن أندرو قد رزق بفتاة واسمها سوزان على اسمها هي، عندها حدثتها هادية عن ريتا التي يجمعها بسوسن شبه كبير وعن فاجعة أندرو بريتا وتأثرت سوسـن لحبيبهـا القديـم ورجـت هاديـة ألا يعلم شـيئاً عنهـا وعن القرابة الوشيكة بيننا. وأنا لم أحترم رجاءها وأخبرت أندرو بكل ما أعرفه عن سوسن مباشرةً، كانت في أحسن حالاتها كأم وزوجة لرجل ناجح وأخت لواحد من أثرياء البلد هو شـقيقها نواف. أما الدكتور سـامر فهو طبيب هضمية من قدامى خريجي أمريكا وابنته مايا كانت إحدى العشرة الأوائل في سورية وقد اختارت طب الأسنان من حسن حظ ولدي عمر ليلتقيا،

لقد تأثرت بإحدى معلمات الإعدادي كما تأثر عمر وارتدت الحجاب دون أن تنشد إلى دروس الدين في البيوت والمساجد، كانت مثل عمر متدينة دون التزام سياسي بجماعة أو حزب أو مشيخة، وهكذا توافق الاثنان وهما سعيدان جداً كما نحب ونرضى.

لقد بعت المزرعة وحصة سامية إلى ابن عمي رشيد شقيقها فلم أعد مهتماً بالمحاصيل والحصص، ورأيت أن المال الذي سيأتي من الثمن سوف يلزم للأولاد، أعطيت عمر بيت المالكي فوق أخيه عطا، وتنازلت لعطا عن الصيدلية، ومنحت كلاً من نورا وكنانة مبلغاً من ستة أصفار، كنانة سددت منه قروضاً أخذتها لتأثيث مقر مكتبها الجديد في تورنتو، ونورا شاركت زوجها في توسيع عمله ليشمل بيع قطع الكمبيوتر، وأنا أعيش على تقاعدي من نقابة الصيادلة وريع مبلغ أودعته بالدولار في أحد مصارف الأردن، عندي سيارة كبيرة لي وأخرى أصغر لهادية وبحمد الله كل الأولاد الآن في أحسن حال.

في عرس عمر ومايا التقيت بسوسن ربيع، لا أعني أنه اللقاء الأول، منذ الخطبة التقينا وتبادلنا الزيارات العائلية وكانت موجودة في كل النشاطات التي تطلبها وجودها مع ابنة أخيها. ولقاء العرس المميز كان حين همست لي سراً: بيننا حديث يجب إجراؤه يا أستاذ كمال، كن غداً عند الحادية عشرة في قاسيون، الجهة المطلة على مشروع دمر. قالت ذلك وانسحبت مبتعدة، لم أتردد في الذهاب إلى حيث واعدتني واخترت أبعد نقطة لأركن فيها سيارتي وعلى الموعد تماماً وصلت في سيارة أمريكية من موديلات السنة نفسها كان زجاجها من الذي يحجب الرؤية، أنزلت النافذة وأشارت أن أصعد بجانبها ففعلت. استقبلني داخل السيارة بعطر نسائي فاغم ويد بيضاء بضة ونظرة متفحصة من عينين سوادهما ليل كانوني حالك.

- عذراً يا أستاذ كمال، حديثنا لم يكن ليناسب حالة علنية، فلابد له من تدابير كهذه.

- كان يمكن إجراؤه في بيتنا يا سيدة سوسن وبحضور هادية.

تلامعت شقاوة مرحة في عينيها مع ابتسامة من شفتيها اللحيمتين.

يا إلهي، أنا الآن كما يبدو أتأملها بعين الرجل وليس بعين الصديق أو القريب.

- فإن لم أكن راغبة في حضور هادية؟

- هانحن هنا وهي غائبة.

- ماذا تظن سبب هذا اللقاء؟

- الماضي.

- ربما، بأية حال عليك أن تعلم مايلي: منذ قالت لي مايا أول مرة عن المعيد الشاب وأنا أعرف كل ما يجب، حين قالت إن اسمه عمر كمال راضي أعادت لي ذلك الماضي الجميل وتابعت قصتها مع ولدك بهدوء ومحبة.

- كيف ربطت بيني وبين ذلك الماضي؟

- بيننا معرفة أخرى غير أندرو براون، الدكتورة هناء.

فهمت الآن كل شيء، هناء كانت راعية العلاقة الأولى بين أندرو وهذه السيدة التي لاتزال تشع فتنة والجالسة قربي خلف مقود سيارتها الثمينة وقد سمحت للشقة الجانبية أن تظهر بياض الفخذ الصقيل.

- لابد أن هناء قد ذكرت اسمي أمامك، بقينا على صلة حيناً من الزمن.

- أرأيت؟ وليس هناء وحدها، بروس تالبوت كان صديقاً في مرحلة لاحقة مع زوجي وضاح، صداقة التهذيب طبعاً لأن وضاحاً لا يعنى بثقافة بروس كثيراً، أما أنا فقد وضعني تالبوت في صورة أندرو وما يفعله وكنت أنت حاضراً، إذن فقد كانت هادية عشقك وكنت أنا عشق أندرو.

- نعم، كان هذا فعلاً.

- ألم يشدك فضولك يوماً لتتعرف على المرأة التي فتنت صديقك؟

- لقد رأيتك مراراً، أنت شخصية بارزة، وسمعت عنك من هنا

وهناك.

تضحك بارتياح:

- سمعت طبعاً أن سوسن ربيع ذات نفوذ وسطوة ولها علاقة بهذا أو ذاك.

- ربما.

- لا تصدق كل ما سمعت، المرأة الجميلةمثلي متهمة في كل ما تفعل حتى لو لازمت البيت. ألم يكن جمال هادية سبب همومها وعلى يد أمها؟

- لماذا تتحققين من أسرتي يا سيدة سوسن، أريد أن أعرف رجاءً.

- هذا سمعته من هادية نفسها يا أستاذ كمال، ثم إن علي التحقق، ألن نغدو نسائباً؟

أنظر إليها الآن وهي نصف ملتفتة نحوي، وأحتار في سبب هذا اللقاء أصلاً، وأقرر أن أستفزها قليلاً، أحدق إلى ما انكشف من ساقها ثم ارفع عيني إلى صدرها الذي لم يستر بياضه القميص الشفاف الأسود ثم أرتفع إلى وجهها وأقف عند الشفتين اللتين رسمتا الآن ابتسامة ساخرة ثم إلى بحر العينين الأسود.

- هل كان هذا التفحص لصالح الماضي وأندرو أم لصالح الآن ورضاك الداخلي؟

- لنفترض أنه الاثنان معاً.

- أنا سألتك عن أشياء لا تعنيني فعلاً، ما يعنيني هو التالي: هل كانت ريتا حقاً جميلة؟

- ريتا كانت رائعة الجمال يا سيدة سوسن، بينكما شبه كبير، لكن جمالك يختلف عن جمالها.

- أتراني جميلة؟

- لن أجيبك.

- ما أوجه الخلاف بينها وبيني؟

- جمالها عذب وديع يوحي بالحب.
- وأنا ماذا الآن؟
- جمالك مسيطر طاغٍ يسوّغ الامتلاك. ضحكت مطولاً.
- بدأت أخاف منك.
- المفروض أن أخاف أنا، أنا المعتقل داخل أسوار سيارتك العاتمة، المحاصر بعينيك الكحيلتين، والمستباح من بياض الجسد الحليبي.
قرقرت ضاحكة وهي تضرب بكفها على المقود، أنا تعمدت دفع الأمور إلى نهايتها لأختبرها:
- المثقفون هم بلائي، عد إلى سيارتك يا أستاذ كمال، عد الآن فأنا غير أمينة على نفسي بجوارك، إلى اللقاء.
مدت يدها الطرية فقبلتها ونزلت، وقبل أن أغلق الباب قالت:
- دعنا نفكر بما جرى يا أستاذ كمال، ولمعلوماتك: أنا واحدة ملول، وهذه الأيام تسئمني جداً، باي.
- باي.
أقلعت بسيارتها مبتعدة وتركتني لأجلس في سيارتي قلقاً مستثاراً، فما الذي أرادته حقاً؟ لم تأت بمعلومة مفيدة، ولم تأخذ مني على أرض الواقع إلا تقويماً سريعاً لجمال ريتا جيوفاني، هي لم تتعمد إغرائي أنا الذي سمحت لنفسي باعتبار ما ظهر من ساقها مشروع إغواء كي أحرجها، بينما في الواقع كان ثوبها يوم الخطبة يكشف أكثر مما كشف اليوم، هل أرادت حقاً لعب دور المغرية بعد أن شاهدت هادية وحسن هادية؟ هل تنوي أن تشعر بالتفوق على هادية؟ ولماذا يهمها ذلك وهي فعلاً من وجوه المجتمع النسائية اللواتي يظهرن في الصحف وعلى الشاشة وفي الحفلات، لم أصل إلى إجابة لكني وصلت إلى قرار: لن أخبر هادية بهذا اللقاء، فالمجالس أمانات أليس كذلك؟ هي طلبت سرية اللقاء، ثم... ربما يكون مغرياً لي أيضاً أن أكتشف المدى الذي أستطيع

الوصول إليه في إغواء واحدة كسوسن. فإن حدث لن يعلم به سوانا، سألت نفسي وأنا أهبط من قاسيون إلى ساحة الأمويين: هل أتمنى أن يحدث ذلك. وبكل أسف كان الجواب: أجل. ليحدث، فمنذ عادت هادية إلى حياتي لم يتم اختباري.

أملت المناسبات الاجتماعية لقاءنا وسط الأقارب مراراً وسط التحضير للعرس ورغم احتجاج كل من عمر ومايا على البذخ والضخامة خاصةً وأن العرس للنساء فقط، فقد استطاعت هادية وسوسن ربيع أن تقيما حفلاً باهراً بشهادة الجميع، وجاءت كنانة وابنتها زينا من كندا لحضور فرح عمر ولتقضيا شهراً معنا، الآن اطمأن بالي، مايا هي الزوجة المناسبة لعمر، كلاهما سعيدان ببعضهما بعضاً ونحن سعداء بهما، جاء هاتف سوسن لتبارك لي، علمت أن هادية والبنات عند مايا وقدرت أني وحدي فاتصلت، هل أنكر انتظاري لهذا الاتصال؟ لا. كنت أنتظره. هل في ذلك خيانة لذكرى صديقي أندرو؟ ربما. هل أسعى أنا؟ لا. هي التي اتصلت، كنا قد تجاهلنا ذاك اللقاء حتى اتصلت.

- هل توقعت اتصالي؟
- ربما.
- هل انتظرته أم لا؟ أريد إجابة صادقة.
- انتظرته.
- لايزال بيننا حديث طويل أأنت مستعد؟
- مستعد.
- في المكان نفسه أم؟
- أم ماذا؟
- ربما مكان أكثر أمناً وبعداً عن الأعين.
- مثلاً؟
- لي فيلا في قرى الديماس، معزولة وقلما نتردد عليها.
- سيكون لها جيران وفيها ناطور.

- لا جيران لها حتى الآن ولا نستخدم ناطوراً.

- سنكون وحدنا إذن.

- هل سرك ذلك؟

- أخافني.

- اطمئن، سنكون هناك للحديث فقط. ليكن ذلك بعلمك.

- حسناً، وكيف الوصول؟

- اركن سيارتك في بداية القرى من طريق الزبداني القديم وسوف أقلك عند الحادي عشرة.

- طيب.

كنت خائفاً من الذي يحصل، أريده وأخاف منه، منذ دبلن لم تكن لي علاقة خارج مؤسسة الزواج، ومر وقت كانت عندي زوجتان تحرصان على لذائذي، هل كنت طالباً لعلاقة جنسية مع سوسن ربيع أم ماذا؟ تركت للأحداث أن تجيب عن هذا التساؤل المشروع وعند الحادية عشرة بالضبط دخلت عطرها المتضوع في السيارة المحجّبة، مدت يدها للقبلة ليس للمصافحة، وتعمدت إطالتها ورأيت ابتسامة على الشفتين، هذه المرة كانت ببنطال يفسر وفرة الردفين ومتانة الفخذين، وفوقه قميص مخرّم يكشف أعلى الصدر لكن تغطيه سترة رقيقة تشف عن إبط صقيل لحيم.

- هل استكشفت الخارطة يا أستاذ كمال؟

كانت لهجتها ساخرة مستفزة.

- وماذا أفعل غير ذلك؟

- قليلاً من الادعاء، تظاهر أنك غير معني بهاذ الجسد الخمسيني، عندها سأغضب ولكني لن أحرمك، لقد وصلنا.

- هل أفتح لك البوابة؟

- اطمئن، تفتح من هنا.

ضغطت على زر في ريموت قرب يدها فانفتحت البوابة الحديدية

الضخمة، ثم بضغطة أخرى أغلقت فإذا بنا محجوبان عن العالم إلا من خلال طيارة ما. كبست أرقاماً على لوحة قبل أن تضع مفتاحاً في القفل ودخلنا لتطالعني صالة ضخمة فيها أركان عدة للجلوس والاستقبال والطعام والتلفزيون وحتى لشاشة سينما.

- خذ راحتك، البار هناك إن أردت شيئاً.

- أين تذهبين؟

- لن أهرب، اطمئن، سأعود.

صعدت الدرج الداخلي وكنت أسمع دقات قلبي باذني، هاأنذا موشك على الولوج إلى وضع لا أعرفه ولا أتوقعه، تجولت في أرجاء الصالة، لابد أن مساحة البلاطة تزيد عن المائتي متر. والفيلا ثلاث طبقات. فيها إذن ستمائة متر للسكن. كم غرفة نوم في الأعلى، تخيلتها في غرفة منها تنتظرني، عاد الدم يتدفق سريعاً في رأسي، لازلت على قيد ثانية من الإثارة، يكفي أن أستسلم لفكرة أو منظر لأرى نفسي في غلمة صفيقة. أسمع خطواتها في الأعلى، ماذا ذهبت تفعل؟ ها هي تهبط الدرج؟ لقد خلعت السترة وبان ذراعها الأبيض العبل، ظلت نظارة الشمس على عينيها وقد غيرت تسريحة شعرها.

- هل أطلت عليك؟ لماذا لم تصب لنفسك قدحاً؟ أعرف أنك تحب العرق.

- لن أشرب عرقاً معك.

- ماذا تشرب إذن.

لم أجب، نظرت إلى شفتيها بتركيز. خجلت وتضاحكت:

- لا تذهب بعيداً بأفكارك يا أستاذ كمال.

- لماذا؟ أنا لم أقل شيئاً.

- ألم نكبر على التذاكي؟

- سيدتي، أنت لازلت فاتنة وآسرة، قولي لي أولاً، إنما إذا سمحت انزعي هذه النظارة.

- حاضر، بما تأمر أيضاً؟

- أنت قلت إننا كبرنا على التذاكي، صحيح، وعلى الألعاب والحركات أيضاً.

- اجلس يا أستاذ كمال، اجلس وخفف من توترك.

- سيدة سوسن، كل منا متزوج، عندنا أولاد وأحفاد، هذا الموقف الذي نحن فيه، منفردين في بيت بعيد عن الأعين، هذا ليس وضعاً مريحاً.

- أنا أوافقك، ربما تظن أني اعتدت مثل هذا الموقف، ربما فكرت أن عديدين جاؤوا برفقتي وصعدوا معي إلى الأعلى وجرى ما جرى.

- هل حدث ذلك؟

- أيهمك أن تعرف؟

- طبعاً.

- لماذا؟ هل تحب أن تعتقد أني سهلة وأحب إقامة علاقات مع الرجال الآخرين؟

- أنا لا أعتقد شيئاً.

- انظر إلي. هل أعجبك؟

- أنت تعرفين الجواب، لو كان نفياً لما رأيتني هنا معك.

- عظيم. أنا أعجبك، هذه بداية، أنت أيضاً لا بأس بك، هذه نقطة ثانية.

- ثم ماذا؟

- نتحدث.

- فقط.

- هل تتوقع شيئاً غير الحديث؟

- أقول، دعينا نذهب.

- هل قطعنا كل هذه المسافة لجلسة الدقائق هذه؟

- أرى أن الموقف يسليك، وأنا لا أحب أن أكون في مثل هذا الوضع.

- أي وضع؟

- أن أكـون موجـوداً فـي مـكان مـا لسـببٍ أجهلـه تماماً، ولغاية لا أعرفها، وفي موقف إن كشف لسببٍ ما فإن كثيرين سوف يتأذون منه.

زمت شفتيها مفكرة، ثم نظرت إلي وقد قررت أمراً.

- دقيقة.

اسرعت للأعلى وعادت بالهيئة نفسها التي صعدت فيها أول مرة، ارتدت السترة ورتبت شعرها ورفعته وارتدت النظارة.

- الحـق معـك، إن لـم تكـن مرتاحـاً فـلا فائدة من البقاء هنا، دعنا نذهب.

في الطريق إلى سيارتي عدت أتأمل ما تكشفه حركات يدها وهي تقود السيارة من باطن إبطها:

- كان كل شـيء متاحاً لك لتنظر اليه دون سـاتر فلم تفعل وانت الآن تحاول جاهداً. هل تحب طعم عرق إبط هادية؟

كأنها صفعتني إذ ذكرت اسـم هادية مقروناً ببذاءة ما تحت الإبط وأنا لا أنكر هذه اللوثة الإيرلندية، بل السكندينافية. كانت تتشممني في كل منابت الشـعر وعلمتني أن أتلذذ بذلك حتى لو انطوى على عفونة أو عرق زخم الرائحة.

- أعتقد أن من المناسب الآن إطلاع هادية على ما جرى.

- لا بأس، وعليك عندها أن تجيب عن سؤالين هامين.

- سأقول: لم يحدث شيء.

- وعن سؤالها: لماذا قبلت في الأصل أن تلقاها من خلف ظهري، وهل ستصدق أياً من إجاباتك. باي.

- مدام سوسن. ما الذي كنت تريدينه فعلاً؟

- استعادة طعم الشباب والعشق يا أستاذ كمال.

- بالحديث فقط؟

- من يدري؟ نحن حتى لم نتحدث. باي.

- باي.

ركبت سيارتي وقدت على مهل تاركاً لنفسي فسحة للتفكير وتحليل الموقف، لقد أثارتني فعلاً حين كشفت توقي إلى ثنياتها، هذا التوق الذي شغلني عنه الحوار الجاد وهي كاشفة لها ثم حاولت التسلل إلى ما خلف السترة الشفافة وأنا قربها في السيارة تحت تأثير العطر المكنوز، هادية اكتشفت أن عطور جسدها أي روائح منابت الشعر الحادة تثيرني. نظراتي المتفحصة كشفت لسوسن ربيع أحد أسرار الجنس عندي، ومجرد تساؤلي عن حقيقة طعم الشفتين ورائحة الجسد عندها؟ هذا التساؤل وحده يبعث فيّ الآن الاتقاد. لماذا لم أستغل الوقت والوضع؟ أنا بكل صراحة نادم. هذه المرأة شهية شهية وتعلم ذلك، ورغم حديثها عن أيام الشباب لكني أعتقد أنها كانت راغبة في علاقة جسدية مع واحد لا يمكن أن يستغل ذلك ويسبب لها فضيحة. المشكلة أني استعجلت الإجابات ولم أترك لنفسي ولها فرصة أن نتقارب. وأنا بالطبع لن أذكر شيئا لهادية، وأنا في ذلك نذل حقاً. بسبب هادية، وبسبب أندرو. والغريب أن هذا لم يردعني عن عزمي عدم تفويت فرصة قادمة مع سوسن إن توفرت هذه الفرصة.

عمر ومايا أنهيا العشاء، ربما شاركتهما هادية ببعض اللقيمات، بينما هي تطعم سوسن حفيدتها. ورغم عدم اعتراف عمر برأس السنة الميلادية كعيد لأنه ليس من أعياد الإسلام فإنه حين يعانقني يقول لي: كل عام وأنت بخير يا بابا. أقبله من جبينه وأودعهم للباب. بعد قليل سيأتي الساهرون، سنودع 2005 بما حمله إلينا من هموم عامة ونستقبل مع الأحباب 2006 متمنين لأسرتنا وأحبابنا ووطننا وأمتنا والعالم كله سنة من الخير والوفرة والكفاية والسلام، ولبلدنا خاصةً الديمقراطية، وبتر دابر الفساد، والقوة الكفيلة باسترداد الحقوق. لقد تردت أحوال الشعوب بعد انهيار الاتحاد السوفييتي الفاجع. وربما نحن في سورية عانينا أكثر من سوانا جراء فقدان ذلك الصديق الجبار. أمريكا تفرض

منطقها وهيمنتها ووجودها العسكري حيث تشاء دون رادع. حتى الذين كانوا يعادون الشيوعية يترحمون الآن على توازن القوتين الأعظم. وفي عالم قطبه الوحيد الولايات المتحدة وقادتها المهووسون بنهب الثروات والسيطرة عليها يكون على الشعوب أن تقول: لا. حتى لو صنفوها في أي خانة شاؤوا.

«26»

سوسن من جديد

كان الخلاص أمامي يتمثل في خطوة واحدة هي الهروب إلى الأمام. لن تستقيم الأمور بجعل هذا الشاب الأمريكي الوسيم يحبني، وأن أعطيه ما لم أمنحه لسواه، قبلات حارة وأخذ يده لتعابث هذا النهد ثم ذاك. هذا لن يكفيه ومن المؤكد أنه لن يكفيني أيضاً. والأسوأ أنه سرعان ما أحبني، لكن البالغ السوء هو أنني شعرت نحوه بما لم يسبق لي الشعور به. لقد أحببت أندرو براون أو ربما بدأت بذلك وفي كل الأحوال أنا واثقة من أنني سأفتح له ساقيّ في أول انفراد داخل بيت أو حتى ربما في مكتبه الذي نحن فيه الآن. قبلني كما لم يفعل أحد من قبل ثم أجلسني على ركبتيه، توقعت أن يدفع يده تحت قميصي وكان صدري يناديه، خفت بقدر ما أملت أن يزلق يده بين ركبتي ليصل إلى دفء أسراري المتأهبة للكشف. تمنيت لو أبادر بتعرية صدره لأشمه وأدغدغه بلساني، لكنه وضع خده على خدي وقال: أنا سعيد يا سوسن. سعيد! هل يعني هذا أنه اكتفى وما عاد يطلب شيئاً؟ لا. إنه يعني أكثر، رباه. إنه سعيد بي وليس برغبته أو استعدادي، ولهذا معنى واحد فقط، إنه وجع القلب، هذا الشاب يحبني واراني قادرة الآن على حبه. كيف ذلك وأنا سأتزوج من وضاح ابن عمي؟ ليأخذْني. لينزع عني ثيابي ليرتم فوقي ليدخل فيّ، كل ذلك يمكن تداركه إلا الضياع، والضياع هو أن أحب وأعشق ثم أتزوج من وضاح لأنه لا مناص من ذلك. عندها ستكون حياتي شجناً مستمراً، وأنا لا أريد ذلك. أقف بعد أن غلبني البكاء وألقي إليه بالحقيقة، ثم أغادر. لم أستطع كبح دموعي على درج المكتبة. وأهرع إلى بيت هناء لتتلقفني بالحنان والمواساة وحين

تسألني عما أنوي فعله أجد أمامي طريقاً واحداً، ومن بيتها أهاتف ابن عمي لأقول له: دعنا نذهب الآن إلى مدينتنا وليكن عرسنا غداً أو بعد غد. وبالطبع ليس عند وضاح أهم من هذا الخبر، تنظر إلي هناء بحيرة واستسلام فأحملها رسالة إلى أندرو، رسالة أملاها علي وازع لم يتطامن من نرجسيتي فأكلف أندرو بعشقي كما كان يعشق سو ماكينزي حبه الأول. لقد خفت من حب أندرو فارتميت في أحضان وضاح. ووجدت في ابن عمي رجلاً يهمه أن يفض بكارتي أولاً ثم أن يسمع مني كلمات الإعجاب وصيحات التشجيع أثناء المعاشرة. كان وضاح يخاف دائماً من أن يسبقه أحد إلي سواء في اقتناص جسدي أم في استهداف قلبي. إنه يحب حالة حصوله علي وانقيادي له ربما أكثر مما يحبني أنا.

لم أنس أندرو بسرعة، رأيته عدة مرات، وآخر مرة رأيته فيها شعرت بقلبي ينخطف نحوه، وحين علاني وضاح رأيت أندرو في وجهه وعاشرته باندفاع سرّ زوجي كثيراً، واعتبر أنه بدأ عشقي واشتهائي له منذ هذه المضاجعة، جعلني سروره أكررها مراراً ولم يعد الوجه وجه أندرو فقط، ثمة آخرون كنت لهم دون أن يعلموا عن ذلك شيئاً. تابعت أخبار أندرو، كان بينه وبين هناء اتصال، وحين غادر لم ينقطع عنها. لكني قبل سفره التقيت بمعلمه بروس تالبوت مراراً، كان يعرف كل شيء. زوجي باعتباره من الوجوه الاقتصادية غدت له صلات ومعارف بين الدبلوماسيين الأمريكيين. وفي مثل هذه اللقاءات تدعى الزوجات أحياناً، كنت أحسن الحديث بالإنكليزية وأحوز على إعجاب الأمريكيين بجمالي الشرقي الخالص، وهكذا أطلعني تالبوت على أخبار أندرو ودراسته ونجاحاته، ثم حين غادر ظلت هناء تسرب لي المعلومات عرضاً. ولم أعلم بسفره إلا بعد أن غادر. وظل السؤال قائماً في ذهني: ماذا كانت، لا. لو أننا أقمنا علاقة جسدية كاملة فكيف ستكون؟ ولم أتوقف عند ذاك كثيراً.

أرادني وضاح وأمي سيدة مجتمع وأحبا أن تظهر صورتي باعتباري زوجة الوجيه الثري وضاح ربيع الحسناء، الجذابة، الأنيقة. وليس سراً

أنني كنت كل ذلك. لعبت دور الزوجة المهتمة بالشؤون الاجتماعية من تبرعات وبازارات خيرية ورعاية للمسنين أو للأيتام. ودور الزوجة المشاركة في اهتمامات زوجها الاقتصادية بحضور عشاءات العمل وباستضافة العديد منها. ولعبت دور الزوجة التي تشكو من كثافة أعمال زوجها وانشغاله عن البيت والأولاد. ولم أستطع لعب دور الزوجة العاشقة أو الغيور. وضاح ظن ذلك مني غفلة وفرط ثقة ولم يره زهداً في لعبة الاستئثار. أو لامبالاة بالتملك. كان وضاح ضمن لائحة الراغبين بي ولم يكن ضمن لائحتي للمرغوب بهم، رأيت العديدين من الرجال الذين تخيف أسماؤهم الآخرين. أنا لم أخف من أحد. لم أرغب بهم أو بشيء منهم، ربما عشقني بعضهم، وعلى الأغلب قد حدث ذلك. واحد من أولئك النافذين تظرف معي كثيراً وأنا لم أشجعه بكلمة أو نظرة وكذلك لم أزجره. ربمااعتبر ذلك إيحاء بقرب حصوله علي. لذلك أسرع يبذل لوضاح نفوذه بسخاء. لا شك في أن زوجي قد عرف خلفية هذا البذل وأهدافه لكنه مطمئن نحوي. ليس عن غفلة وإنما لأنه يعرف رأيي بلزوجة هذا المخلوق. وقد يكون للمكاسب المادية التي حققها وضاح يد في إبعاد الرجل إلى عمل خارجي. سمعت عن شائعات تجمع بيني وبينه ولكني لم أغير شيئاً من عاداتي اليومية فتضاءلت الشائعات مع الزمن ولكن جمال سوسن ربيع ظل دائماً مصدراً للأقاويل، رزقت ببنتين وصبي هم كل سلوتي من الحياة. أنا دون أي شك أم حنون ومحبة، في غيابهم للمدرسة أقوم بأي نشاط وبعد نومهم مساءً أتابع حياتي لكني غالباً بين الثانية عشرة والتاسعة كنت متوفرة لهم. لطعامهم وصحتهم ودراستهم والعابهم. العلاقة بيني وبينهم بسيطة وفي اتجاهين. حبي لهم غير محدود، لكني لا أفسدهم بالدلال، أعرف كثيرين من الميسورين يظنون أن الدلال هو إعطاء النقود وشراء الهدايا وإشعار الأبناء بالوفرة والغنى والقدرة على فعل كل شيء. ومن يتذكر كل حوادث السيارات التي راح ضحيتها هؤلاء الأبناء. المخدرات التي

انتشرت بينهم، الانحراف والشذوذ اللذين تفشيا ضمن حلقاتهم، والفشل الدراسي المريع الذي يعانون منه. من يتذكر كل ذلك لا يسمح لنفسه أن يهمل أبناءه ولو لأيام. نحن جميعاً نعرف آباء وأمهات لهم سوية علمية عالية، أو لهم قدرات مالية كبيرة. ومع ذلك عاشوا لأنفسهم ومتعهم وتركوا أولادهم لكل الأمراض التي ذكرتها. فما أقبح أن تكسب نفسك وتخسر أبناءك! أنا إذن أم كما يجب ولست نصف نصف بل بدوام كامل.

أخي الأكبر نواف شريك وضاح في (البزنس)، يحب النساء الجميلات تزوج وطلق مرتين، له من الأولى ولد تربيه عفيفة أمي، وهو الآن عازب ثري وسيم وله رائحة تفوح باتباره زير نساء ناجحاً، أما حبيب قلبي أخي سامر فهو قد اختص في أوروبا لسنة ثم غادر لأمريكا ليبدأ اختصاصه هناك مع تحذير منا جميعاً كي لا يتزوج أمريكية. عاد بشهادة البورد في أمراض جهاز الهضم وتزوج من ندى الممرضة التي اختارها لعيادته أولاً ثم لبيته ثانياً والتي أنجبت له الحبيبة مايا ثم ودعت الحياة بنزف صاعق في حملها الثاني. وهكذا أخذت دورها في تربية مايا أنا وأمي. في السنوات العشر الأخيرة بدأ الملل يعتريني لأن حياتي افتقدت لأي تجديد، وضاح حين يسأم يواعد إحداهن. وأنا قررت تجربة ذلك. سمحت لبعض الذين يعجبونني بموقف أكثر دفئاً، وأستتبع هذا لقاءات منعزلة وحميمة، أعطيت نفسي عدة مرات لثلاثة من الرجال، استبعدت اثنين منهم لأنهما لم يمحوا مللي. الثالث يراني كما أراه وسيلة لكسر الرتابة. لا أقول إني غير آسفة على مسلك الخيانة، لكن هذا المجتمع الذي أنتمي إليه يكاد يجعل قفز رجاله على نسائه والعكس سلوكاً مكروهاً لكنه ليس محرماً. وربما بحكم الموضة الدارجة مثل عمليات الأنوف والشفاه وحتى الأرداف.

جاءتني مايا، هل قلت إنها تراعي دينها تماماً وإنها (طالعة) لجدتها، أي أنها تشبهني إلى حد كبير لأني بدوري أشبه أمي. جاءتني زائرة تحمل مئزر الكلية، مايا الثالثة على كل سورية في الثانوية لم ينقصها إلا علامتان

فقط وهي قد اختارت أن تكون طبيبة أسنان. المهم جاءت إلي وكان واضحاً أن في فمها كلاماً. ولأني أعرفها لا ترتبك ولا تفعل ما تخجل منه قدرّت أنه يتعلق بشاب ما. الذي فاجأني أنها قالت لي مباشرةً:

- عمة سوسن. أنا أحب.

ضحكت أنا، فكثيراً ما أسرت لي أنها محبوبة وأن هذا أو ذاك من كليتها أو سواها يلاحقها أو ينتظرها أو يهاتفها. هذه أول مرة أسمعها تتحدث عن نفسها.

- ساعة خير يا حبيبتي. وهل في الحياة أجمل من فتاة تحب؟ انظري كيف تتألقين.

بدت عليها ملامح الشكوى والتذمر:

- عمتي، أنا جادة، أنا أحب دكتوراً في الكلية.

- افتتان أم حب.

- عمة إن لم تسمعيني بجدية فسوف أصمت وأذهب.

- لا يا حبيبة عمتك، أنا أريد أن أعرف فقط.

- أترين أني غبية لا أميز بين إعجاب الطالبة بأستاذها وبين الحب.

- لن تكوني غبية أبداً. حدثيني.

- أنا أخبرك لأن حضرته أخيراً صارحني بحبه.

- من لهجتك أفهم أنك تعلقت به قبل أن يفعل هو ذلك.

- أنا وحدي؟ نصف بنات الجامعة يحببن عمر راضي، لكنه يحبني أنا.

- واحدة واحدة، من الأول حدثيني من البدايات.

حدثتني مايا عن المعيد الشاب الجاد المتدين الوسيم عمر راضي الذي افتتنت به منذ السنة الثانية لكنه كان جافاً مع الجميع قلما يضحك. والأقوال ترجح أنه تعرض لصدمة عاطفية وأنا لم أصدق ذلك يا عمتي. المهم أنه في أواخر السنة الماضية كانت هي ضمن فئة العملي التي يمتحنها ولفتت نظره ببراعة عملها. وهذه السنة تصوري يا عمتي. إنه

يـدرس فئـة واحـدة وكانـت فئتـي. لاحظت أن عينيه كانتا نحوها حانيتين ومعجبتين صحيح أنه ظل جاداً معها كما مع الآخرين لكن رسائل عينيه لـم تنقطـع، البارحـة كانـت نازلـة مـن المالكي فرأته واقفاً قرب سـيارته. فأسـرعت لتدور بسـيارتها ثم تقف أمامه وتدعوه للركوب معها فيقبل. وجرى بيننا حديث يا عمتي كان فاتحة سعادتي.

- ماذا جرى من حديث أخبريني بالتفصيل.

- سألني إن كنت مرتبطة فقلت له: لا. سألني إن كان لي اعتراض على تقدمه إلي فقلت: لا. سـألني إن كنت لاحظت اهتمامه فقلت له: بصعوبة، وسألته إن كان يعلم باهتمامي فقال: بصعوبة. وضحكنا.

- وبعد، هل هذا إعلان حب برأيك؟ هذه وسيلة لخطبة تقليدية.

- الإعـلان جـاء اليـوم يـا عمتـي. بعد انتهاء المحاضرة اسـتوقفني وقـال: أمـي سـوف تزوركـم. فرحبـت بهـا، عندها قال لـي: ليس في أن أحبك يا مايا ما يغضب الله وأنا أريد أن تعرفي أني أحبك. تصوري يا عمتي، عمر يحبني، ابنة أخيك أسـعد فتاة في الكون، تحضري، سـوف تزورنا حماتي الخميس القادم.

- هكذا (خبط لزق) دون أن نعرف شيئاً عنه وعن أسرته.

- اسألوا، أبوه صيدلي اسمه كمال راضي.

يا إلهي، هذا الاسم من الماضي، كمال راضي صديق أندرو براون، الصيدلاني الذي أخبرتني هناء يوماً أنه كان موضع سـر أندرو ومصدر عزاء له، وقد سمعت اسمه في قصة ذكرت أنه طلق أو تزوج ثانيةً بعد موت زوجته. إنما هذا منذ زمنٍ بعيد.

- حسـناً يا مايا من الآن إلى يوم الخميس سـوف نعرف ما يجب معرفته.

- أحبك يا عمتي الحلوة.

قبلتني وخرجت سـعيدة مهرولة، أمسـكت سـماعة الهاتف واتصلت بصديقة لي صيدلانية سـألتها إن كانت تعرف صيدلياً اسـمه كمال راضي،

فحدثتني عـن واحـد تخـرج من لندن أو دبلن، وصيدليته (العطاء) معروفة، أجل أنا نفسـي أعرف تلك الصيدلية. سـألتها عنه فقالت إنه رجل محترم وبعيد عن الآخرين، وله قصة معروفة إذ تزوج امرأة ثانية على زوجته التي هـي بنـت عمـه. ويقولـون إن الزوجـة الثانيـة كانت جميلة جداً. ثار فضولي وأردت أن أعرف أكثر وكل ما سمعته كان في صالح الرجل. أولاد ناجحون، وفرة من المال سببها ملكية أراضٍ ودخل من الصيدلية. وحياة تسير هادئة، لـه صداقـات محـدودة، نعـرف واحداً من أصحابه المحامي جميل مسـعود الذي تحدث عن صديقه بمحبة بالغة وذكر عرضاً أنه يسـاري غير ملتزم، صائغنا أنور حداد من أصحابه وحين اتصلت وسألته عنه أنزله من السماء.

- أنور بيك، يقولون إن أمريكيا كان من أصحاب السيد راضي؟

- أنـدرو بـراون، طبعـاً. كان صديقـاً لـي أيضـاً لكنـه كان مع كمال كالأخوة. عن طريقه تعرفنا به. يااااه. ذكرتني بأندرو يا مدام سوسن. كان يحب دمشق، وكان يحب العرق، ويبدو أنه أحب دمشقية يوماً ما. إنما لماذا تسألين عن كمال؟ بناته قد..... ها.... عمر. ولده عمر.

- شكراً أنور بيك.

- العفو يا مدام. نحن في الخدمة، سلامي لوضاح بيك.

حتى أنور حداد يعلم عن حب أندرو لهذه الدمشقية، سو ماكينزي الدمشقية، لو كان الظرف يسمح وغدوت زوجة لأندرو براون فلابد أن قصتنا حينها ستكون واحدة من أشهر القصص في مجتمعنا. لكن الذي مضى مضى. من يدري ربما لو عشت مع أندرو لعشق سواي بعد شهرين ولأدخلت أحداً فراشي بعد حين. فمن تخون زوجها الذي هو ابن عمها لحّـاً وأبـو أولادهـا بداعـي الملل وكسـر الرتابـة ربما تخون أندرو براون لأي داعٍ آخر مهما كان سخيفاً.

يتصل بي أخي سـامر، مايا أخبرته لذلك اطمأن، سـأل بنفسـه عن كمال راضي وولده فتلقى إجابات مرضية، طمأنته بدوري فقال على بركة الله. واستقبلت يوم الخميس أم عمر. السيدة هادية. لا تزال جميلة، لم

تفعل السنون بها إلا القليل. إنها ليست مملوءة مثلي. وجهها وضيء أنيس وإطلالتها مشرقة. وسرعان ما ربطت بين اسمي وأندرو واسمها. حدثتني عن حبها لكمال بين وفاة زوجها الأول وزواجها من أخيه، كمال الذي علق بها وعشقها ثم فارقته في الوقت الذي كان أندرو صديقه يعاني من فراقي. وضعتني في حال الاثنين وهما يلتقيان مرة أو مرتين في الأسبوع ويشربان ويتذكران الأحبة ويسمعان أم كلثوم. سالتها عن حال أندرو فأخبرتني عن ريتا وموتها وسوزان ابنتهما، وعرفت أن ريتا كانت بطريقة او بأخرى تشبهني وهذا ما اكتشفته هادية حين رأتني في سهرة ذات ليلة. هادية تظن أن سمعتي كامرأة ذات علاقات فيها بعض الصحة. هكذا خمنت. وهي كما بدت لي سعيدة جداً لأنها دفنت زوجها الثاني وتزوجت من عاشقها. بينما غادر عاشقي مجروح القلب والعاطفة. أنا قد مررت في حياتي مرتين أو ثلاثاً على صيدلية العطاء ولم يلفت نظري أحد كما يمكن لكمال راضي أن يفعل. ظل سراً في بالي حتى رأيته يوم الخطبة، سرعان ما يكتشف المرء الملاحظ أنه ابن عز وفيه دماثة لابد أنه اكتسبها من الإنكليز، الناظر إليه لا يعطيه عمره الحقيقي ومع أن زوجي أصغر منه بسنوات لكنه يبدو أكبر منه. حين صافحني بدت في عينيه نظرة باسمة كأنه يقول لي أنا أعرفك. ولا أدري أي شيطان أوحى لي حينها بأن العبث معه سيكون تسلية مضاعفة. ولم أتعجل تحركي حتى يبحر قارب مايا وعمر بسلام. لذلك وفي يوم العرس فاجأته بموعد لليوم الثاني في الجبل، أردت أن أتحسسه أولاً لآرى من أي معدن هو، ولأكتشف مدى رسوخ هادية الجميلة في وجدانه، تبادلنا حواراً ذكياً وحذراً رغم تعمده محادثتي بلغة جنسية ربما ليكتشف مدى صدق الشائعات عن سمعتي. عبر عن إعجابه بعينيّ وبياض جسمي فأخرجته من سيارتي. في المرة الثانية أخذته إلى فيلا الديماس، كنت أرتدي قميصاً محفوراً فعلقت عيناه بالحفرة لكنه أراد أن أبادر لإغوائه بنفسي فاختصرنا اللقاء وفي السيارة أنبته لأنه يتلصص الآن على ما

كان مباحاً أمامه في الفيلا وتعمدت أن ألامس حياته الحميمة فسألته عن رائحة هادية، ابتلع السؤال لكنه أراد معرفة دواعي لقائي به فقلت له: طعم الشباب. تعمدت أن أعطيه ما يصلح لعنوان كي لا أفصح عن رغبتي التي غدت الآن أكيدة أن أعلوه قريباً وأمتعه بما يدخره جسمي من رائحة مميزة طالما أن ذلك يثير غرائزه. تركته ما يقارب الشهر ثم تعمدت أن يراني في دار ولده. ولم أظهر له أي بادرة تخرج عن حدود اللياقة بين الأقارب. كنت أرتدي ما يثير خياله قطعاً. كنزة صفراء قطنية بقبة مرتفعة ودون أكمام وكنت – عفوياً – بالطبع أرفع يدي إلى شعري بين الحين والآخر وأنا واثقة من أن عينيه لم تكن تفارق ما أعرضه، وعندما أتيح له الاقتراب مني سألني إن كنت أزور الفيلا فقلت ليس منذ ذاك اليوم. لم يعلق فرميت له طعماً: هل تحب تكرار زيارتها؟ هز رأسه موافقاً. وواعدته لليوم التالي، وكالعادة صحبته من مدخل القرى بسيارتي وحين انغلقت البوابة وأصبحنا داخل الفيلا وارتحنا رأيته ينظر للأعلى:

- هل تحب أ، تكتشف ما في الطابق العلوي؟
- لا أحب أن أتطفل.
- لا بأس. تفضل.

تقدمته أولاً، ثم تأخرت ليصعد بجانبي أو أمامي لأنه ليس من اللائق في مجتمعنا صعود المرأة الدرج أمام غريب. لكنه أصر على أن أتقدمه، أفلتت مني ابتسامة تعني أني أفهم مرادك. وكانت ابتسامته تعني أنا أصر على رؤية حركة أردافك. صعدت أمامه وتركت لجسمي أن يتحرك براحته وسرعان ما سعل. ابتسمت لأن ذلك يعني بلعه لريقه. التفتّ إليه:

- يتعبني الصعود أحياناً.

تلقف ذلك ليقترب ويسند ظهري من منطقة الخصر، وأنا أرخيت ثقلي علي يده وهكذا وصلنا للأعلى وهو يخاصرني تقريباً. كنت عازمة على اجتياز الشوط كاملاً ويبدو أن هذا كان في عزمه هو الآخر.

- ألن تلبسي ثياباً أكثر راحة؟

- أتحب أن تختار لي؟

- اختياري لن يعجبك.

وصلنا إلى باب غرفة نوم غير الغرفة الرئيسـية.تلك لي ولوضاح. وهذه لمثل هذا الموقف.

- جرب. ربما يعجبني.

- أنا أرى أن ما يناسبك هو أقل الثياب.

- وأنت كيف ترتاح يا كمال بيك.

- أنت اقترحي.

- كما تفعل أفعل. هل هذا عادل؟

- جداً.

رمى الجاكيت فرميت السترة. بدأ يحل أزرار قميصه وفعلت مثله وسبقته في خلع الخميص لأبقى بحمالة الصدر. سال ريقه فجرضه ولم ينتظر، انقض علي دافناً وجهه في إبطي، لم أضع مزيل الروائح عامدة، عرفـت أنـه لـن يقـدر علـى الاحتمـال. ورغم ذلك استراح لثانية واحدة وهو فوقي:

- يا إلهي كم أنت جميلة يا سوسن!

كنت منذ أشهر لم أعط نفسي لأحد سوى وضاح. لذلك أخذت كمال راضي كما أخذني، وأغدقت عليه كما تلقيت منه، وكرسنا سوية طقس المواعدة هذا بحيث أننا نلتقي في الشهر مرة أو مرتين عبر السنين. ومع ذلك أنا وإياه من النذالة بحيث تجتمع الأسرتان. زوجي قربي وهادية قربه وعمر ومايا وولداهما كمال وسوسن التي هي على اسمي، ولابد أنه يشعر كما أشعر بتأنيب ضمير حي يستمر صارخاً حتى تستحكم الرغبة فتنادي الغرائز لنجتمع سوية في عرام وغلمة وضمير أخرس، كمال هو أطول قصص خياناتي ودليل واضح على أن الشـهوة تغلب كل القيم، حتى الصداقة والكرامة الذاتية.

« 27 »

دروس

تملصت (فيرا) من ذراعي اللتين طوقتاها من الأمام تعابثان صدرها ودفعتني بمؤخرتها الضافية بعيداً:

- أندرو توقف ستأتي سوزان والطعام لم يجهز بعد، ثم لا مزاج لي مفهوم؟

اللكنـة الروسـية فـي كلام فيـرا بالإنكليزيـة تبعث على المرح. هل تشك سوزان بنا؟ أنا أعتقد ذلك، ليس في الأمريكتين واحد أو واحدة بذكاء سوزان، لقد ورثت عني ابنتي هذا الذكاء، كل من نعرفهم يصنفونني هكذا وأنا الوحيد الذي يرى أن أندرو براون ساذج كطفل وغبي كفاشل كبير وإلا لماذا يترك كل تلك المدن الكبيرة التي تفتح له أبواب جامعاتها وصفحات جرائدها ويأتي إلى هذه البلدة ويستقر بها؟ من سمع في بقية الولايات بلونج فيو؟ لا أحد. ولا في العالم، إذا فتحت غوغل الأرض سوف تعثر عليها وإن قرأت عنها فستعرف أنها بلدة قامت على مصانع الخشب قرب نهر كولومبيا المتدفق. وأن السكان في تلك المنطقة نجحوا في إغلاق مفاعل نووي ولم يسمحوا له بالعمل رغم وجود منشآته. أما كيف اهتديت وسوزان إلى هذه البلدة الصغيرة بمقياس المدن الأمريكية فتلك قصة طويلة وسوزان قد وصلت الآن وهي تركن سيارتها وأتمنى لو أن فيرا قد انتبهت لترتيب شعرها لأنه تشعث أثناء عناقنا.

- لقد زار المكتبة اليوم واحد سوري وقد فاجأته.

- كيف ولماذا؟

- لهجته بالإنكليزية مقبولة لكن فيها النغمة والأكسان (Accente) العربية والسورية تحديداً.

سوزان عدا عن شهادة الدكتوراة في اللغات الشرقية مثلي إثر ماستر باللغة العربية مثلي قامت بدراسة مطولة برعاية جامعة كولومبيا في سياتل لأثر اللهجات الأصلية للسكان في لهجة الأمريكيين. لذلك لا يصعب عليها اكتشاف الأصل السوري تحديداً.

- من هو؟ وماذا جاء به؟

- لا أعرف، اشترى أحدث ثلاث روايات نزلت إلى المكتبة ودفع نقداً.

- ماذا جرى بينكما؟

- مستر أندرو، عزيزتي سوزان، تحدثا على المائدة الطعام جاهز.

- شكراً فيرا.

نتوجه إلى مائدة فيها سلطة روسية ومخلل روسي وشرائح أمريكية ونبيذ من منطقة بحيرة شالان التي كنا في أحد منتجعاتها مؤخراً وتذوقنا في مصانع النبيذ أنواعاً كثيرة واشترينا بعضاً منه. وعلى المائدة الحمص المطحون والمعجون بالطحينة وهو طبق دمشقي، وهناك المعكرونة بالصلصة الحمراء وهو كما لا يخفى إيطالي المنشأ. وتشكيلة الطعام المتنوعة هذه سياسة نتشارك فيها أنا وسوزان، نحن لا نستغني عن الوجبة الإيطالية إكراماً لذوقنا ولريتا أم سوزان، حبيبتي الراحلة، وليس عن صحون المقبلات والمازة الدمشقية التي لا غنى لي عنها رغم أنها قد تذكر سوزان بجرح تعرضت له كرامتها في دمشق. وهاهي الآن تخبرني أنها التقت بسوري، وعلى الأغلب قد صدمته.

- إذن. كيف تعارفتما؟

- كانت جنيفر مشغولة، هو بعد أن تجول في المكتبة مطولاً سأل عن رواية، لقد ارتخى حنكه حين أجبته بالعربية الفصحى.

تضحك سوزان كأنها تكافئ نفسها على ما فعلت.

- لقد ذهل تماماً نظر إلي مطولاً وقال بالعربية: ليس فيك شيء عربي. فأجبته بالإنكليزية وببعض الجفاء: قطعاً لا.

- ولماذا الجفاف يا سوزي؟ تهز كتفيها.
- لا أدري هكذا كانت لهجتي.
- وبعد؟
- سأل عن الثمن ودفع نقداً وخرج دون أي تعقيب.
- ماذا توقعت منه بعد لهجتك الجافة؟ ألم تحكمي عليه من شكله ولباسه؟ هل هو عابر في لونج فيو أو مقيم؟ وما نوعه؟
- إنه وسيم جداً، طويل، ربما أكثر من ستة أقدام، بنيته قوية، ثيابه عادية، قارئ ومتابع، إنه متعلم، وهو معتد بنفسه.
- لأنه بادلك الجفاء بمثله؟
- طبعاً، فلو علق ساخراً لكان مندفعاً، ولو تغاضى لكان غبياً.
- بل مفرطاً وليس غبياً.
- بالنتيجة فالمفرط غبي.
- ربما، ألم يتوقف عندالكتب السياسية الخاصة بالشرق الأوسط.
- مطولاً، مرّ على بعضها صفحاً، قلّب في القليل منها، وربما لمحت ابتسامة ما حين وقف عند جناح الكتب المترجمة عن الروسية.
- أثرت فضولي نحوه.
- هل أرسله إليك إن عاد ثانيةً.
- لا أدري إن كان سيعود مادامت صاحبة المكتبة أظهرت كل هذا الجفاء. هل تدركين ماذا سيخمن؟
- ماذا؟
- ربما يخمن أنك إسرائيلية تعرف العربية ولا تحب العرب.
- اطمئن، هو أذكى من ذلك، ثم ليس بين كتبنا ما يجعله يظن ذلك.
- إن كان ذكياً.
- هو كذلك.
- هل غدوت عرافة يا سوزي؟
- من يقرأ آخر الروايات، ويشتري أهم ثلاثة منها ويعيش في لونج

فيو التي اخترناها أنت وأنا مقراً لنا هل يكون غبياً؟
- غلبتني، فيرا.... أين الحلوى.
- فيرا لا تحضري سوى الفاكهة، اتفقنا دادي، الحلوى بعد الشراب فقط.
- لمن أشكو تحكمك بي؟
- لمن أشكو أبي الذي ناهز الخامسة والستين ولا يوفر مدبرة المنزل أو عاملة النظافة؟
- أأأ أنا؟ ماذا تتخيلين؟
- أبي، هل تتوقع أن يفوتني شيء كهذا؟ هل تستهين بملاحظتي؟
- لا... إنما لا داعي لأن تعرف فيرا بملاحظتك يا ابنتي الرهيبة.
- حتى لا تطمع طبعاً.

ونضحك سويةً، يا إلهي، سوزان هذه أكثر من رائعة ولا أدري إن كان مكوثنا هنا في لونج فيو سيفسح لها فرصة لتلتقي بأحدهم، بالنسبة لي هناك الكثير من النساء بين الأربعين والستين يمكن لي مراودتهن. أما هي؟ هي قد فعلت بها دمشق يوماً أكثر مما فعلته بي. ومع ذلك فأنا أحب دمشق تلك. وسوزان بدورها تحبها رغم كل ما جرى.

حين استقبلتها في المطار وهي عائدة من دمشق وقد اختصرت عدة أشهر من إقامتها كنت أعلم أن مشكلة ما قد حدثت. هاتفني كمال راضي وقال: سوزان تطير الآن نحوك ستصل ظهر الغد بتوقيت واشنطن. حدث سوء تفاهم بينها وبين عمر. لا شيء خطير يا أندرو لكنها قررت اختصار إقامتها عندنا، أبلغني حين تصل، لا يعرف كمال أنني توقعت سوء التفاهم بطريقة أو بأخرى. فمن اتصالاتي بسوزان ومن مراسلاتنا فهمت عن تعلقها بعمر، وفهمت كذلك بعض الأشياء عن عمر وخاصةً تدّينه. جاء هذا عرضاً وسط حديثها عن وسامته وذكائه وغير ذلك. كل تلك الأمور يمكن التعامل معها إلا التدين. ربما ينشد إلى جمال سوزان وخفة ظلها وسعة إطلاعها، وربما يحب هذا الجمال، لكن تبقى المشكلة

قائمة. سوزان ورثت عني عدم الاهتمام إطلاقاً بشؤون الدين، بل كانت تستخف بعقول الذين يتحدثون عن الجحيم والمطهر والفردوس، فكيف ستتعامل مع إسلامي متعصب؟ لن تتحول إلى إسلامية وهو بدوره لن يتخلى عن تدينه وشعائره إن كان مؤمناً إيماناً عميقاً. وكل شيء كان يؤكد إيمان الشاب. هذا الصدام كان برأيي سوف يتسبب بسوء التفاهم القادم، ولم يخطر ببالي طبعاً أنه سوف يحاسب سوزان على ماضيها قبل أن تعرفه. لذلك حين عانقتها مستقبلاً أحسست بها تبكي وهي تختلج ثم تسألني: هل أنا قذرة يا دادي؟ هل نومي مع رودني يجعلني مومساً وعاهرة؟ عندها عرفت كل شيء. البكارة وهي ذاك الغشاء الرقيق له مكانة كبيرة في مجتمع دمشق بل وفي جميع المجتمعات العربية. وفض الزوج بكارة الزوجة هو البند الأول في حصوله على حقوقه كزوج. والسوريون لا يتساهلون في فقدان العذرية. هناك جرائم لا يعاقب عليها قانونهم تسمى جرائم الشرف كأن يقتل الأب أو الأخ أو الزوج المرأة التي تزني حتى أن يقتلوا الزاني معها. إن كرامة السوري تنتقص أو تهان إن كان قد سبقه أحدهم إلى معاشرة امرأته حتى لو كان زوجها السابق. فهو لا يحب أن يسمع به أو أن يراه أو حتى أن يشتمه. لذلك لابد أن سوزان قد حدثت الشاب عن ماضيها. ولابد أن ذلك قد حدث بعد أن أحبها وتعلق بها، لذلك كانت خيبته بقدر محبته ولابد أنه انتقاماً لخيبته قد شتمها وأهانها.

- حبيبتي لابد أنه أحبك حتى ثار هكذا.
- وأنا ألم أحبه؟ ألن أثور حين يوجه لي تلك الشتائم.
- أتمنى ألا تكوني قد رددت على ثورته.
- بل رددت بما أصابه في الصميم.
- ليتك لم تفعلي، ماذا قلت له؟
- قلت له خصيّ، وشاذ، وفاقد الرجولة.

ضربت بيدي على مقود السيارة، يا إلهي، إن أسوأ ما يمكن أن

تنال به من عربي هو تلك الكلمات، لماذا يا سوزي، لماذا؟

- لو كنت مكانه لضربتك يا سوزان.

- كاد.. لكنه لم يفعل، أبي، لماذا هم حمقى بهذا الشكل؟ لماذا لا يفهمون؟

بكت بحرقة، فطوقت كتفها بيدي فأسندت رأسها على كتفي.

- أبي، أنا ندمت على ما قلت، طلبت منه السماح عن طريق أمه. كنا سعداء جداً. لقد، لقد تقبل مغازلاتي له، تخلّى عن تحفظه. صار يريدني، سمح لي أن أقبله. لكنه عندما سمع عن رودني تحول إلى شخص آخر.

- أنا أعذره يا سوزان.

- أنت معه أم معي؟

- معك يا حبيبتي، ومعه أيضاً، ربما تعرض الشاب يا سوزي لأقسى ما قد يمر عليه. إن لهم رؤية تختلف عنا، وقيماً لا تشبه قيمنا، ومع ذلك فالزمن كفيل بأن تتغلبي ويتغلب على ما جرى. وصدقيني سيكون بمقدورك أن تواصلي حياتك أسرع مما سيفعل بكثير، لقد وصلنا، أهلاً بك في بيتك.

نامت بعد ساعات من وصولها، حسب ساعة دمشق البيولوجية، وكان الوقت مناسباً فاتصلت بكمال وأخبرته بوصولها وشكرته على العرق بصورة خاصة وبقية الهدايا وعبرت عن أسفي لسوء التفاهم ورجوته أن ينقل اعتذاري لهادية وعمر، وأفهمته أن سوزان نادمة كثيراً. فقال إنهم يتفهمون أسباب سوزان بقدر ما يعذرون عمر وسوف يساعدونه في اجتياز الفترة القادمة كما سأفعل مع سوزان.

كان واضحاً مدى قلق كمال على أصغر أولاده. عرفت كل شيء من سوزان، لقد أحبها واشتهاها ولابد أنه كان سيعرض عليها الزواج فإذا به يعرف ما عرفه، سبق معرفته هذه أن عرضت عليه سوزان جسدها ودعته إلى نفسها ففر من الغواية إلى بيته، وحين عاد لابد أنه كان قد

قرر العيش معها كزوجين لكن واحداً بتولاً مثل عمر لا يمكن أن يهضم مطلقاً موضوع علاقة جنسية بين من اعتبرها خطيبته وبين رجل آخر تمتع بها. عقله لن يقبل ذلك، وهو الآن مفجوع تماماً بينما سوزي مستاءة وحسب وشتان بين هذا وذاك.

من أحاديثي مع كمال في شقتي أو في قبوه عبر عن استغرابه من حياتنا الاجتماعية في بعض فصولها. إنه لا يستطيع أن يفهم كيف يفرح الشاب أو الفتاة لأن أمهما عادت للمواعدة بعد طلاق الأب، إن ذلك شيء شنيع بمقاييسهم، ربما يستوعب واحد علماني مثل كمال موضوع العلاقة بين الفتيان والفتيات لكن أطلب منه أن يسمح بذلك لابنته ستجده يتحول إلى شرقي مغال في المحافظة، هم لا يفهمون أيضاً أن يربي رجل آخر أولادهم، قد يقبلون بزوجة أب تربي الأولاد لكن ليس لزوج الأم أن يربي مطلقاً. كثيرة هي العادات التي لا تروقهم عندنا، ولا تروقنا عندهم. هذا هو الفرق بين البيئات الاجتماعية وتطورها عبر الزمن.

انقضت سنتان بعد فقدان ريتا قبل أن أشعر بالحاجة إلى امرأة، حاجة مادية عضوية بحتة، فأنا لا أريد أن تأتي واحدة لتربي سوزان، أريد واحدة تدخل فراشي وتعاشرني، تذكرت نهلة وسميرة في دمشق. هنا الكثيرات ممن ينبن عن الزوجة أو العشيقة، وعلي أن أعود إلى سالف عهدي في الاصطياد، بروس وشيري كانا دائمي القلق علي، نحن نتواصل بالهاتف مرة في الأسبوع على الأقل، وكانت شيري بالذات تشجعني على المواعدة، ذات يوم قالت لي سوزان إن معلمتها سألتها إن كان لأبيها صديقة. كان عمر سوزان يومها عشر سنوات تقريباً، وقد أجابت المعلمة بحزم: دادي يحب مامي ولا يريد صديقة. وسألتني لماذا لا أواعد أحداً، بعض أمهات زملائها يواعدن، وبعض الآباء الذين انفصلوا أو طلقوا يواعدون، وأنت يا دادي لماذا لا تواعد؟

- لم أجد واحدة مثل مامي لأواعدها.

- إذن ستظل وحيداً. أنا رأيت كل النساء، ليس بينهن واحدة مثل

مامي.

المعلمة التي سألت سوزان كانت قد لفتت انتباهي، قدرت عمرها بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، أنا الآن في الثالثةوالأربعين و عدة أشهر، إنها طويلة، شقراء، زرقة عينيها لافتة للنظر، وجهها بشوش وسوزان تحبها كثيراً.

- سوزان ما رأيك في أن تدعي معلمتك على العشاء؟
- أنا أم أنت يا سيد دادي؟
- أنت، أنا لا أعرفها.
- اسمها ليزا، ليزا شيدي.
- ظننت أنك ترغبين في دعوتها.
- دادي، هل تريد مواعدة مس ليزا؟
- هل يسؤوك ذلك؟
- لكنها ليست مثل ريتا.
- أنت قلت إني سأظل وحيداً لأن أحداً لا يشبه ريتا.
- سأدعوها، ماذا سنطبخ لها؟
- كبة في الفرن، وبارميجانا والسلطة عليك.
- لا تجعلها تشرب من ذاك الماء الأبيض.
- اطمئني، أحتفظ به لنفسي فقط.

لقد علمت ريتا صنع عجينة الكبة من البرغل المطحون واللحم والبهارات، ثم نضع الحشو فيها فنقليها أو نشويها بعد أن نمدها في طبق مناسب، الحقيقة علمت ريتا كل الوصفات التي أحبها، الحمص، المتبل، المحمرة، اللبن المصفى بالثوم فطائر الجبن والسبانخ. المازة بأنواعها ولازلت أستمتع بها خاصةً حين يصلني العرق. بروس وطد بيني وبين القنصلين السوري واللبناني معرفة كانت تنتقل من قنصل إلى آخر. كان معروفاً أن دكتور أندرو براون من مناصري القضية العربية. وبروح النكتة يقولون: ربما كي يحصل منا على العرق.

لقد تابعت الأحداث في دمشق، تمنيت ألا ينهزموا في حرب عام 1973 لكن ظروفاً متشابكة سلبت منهم مبادهتهم للهجوم على الإسرائيليين. حدث هذا بعد أن عاد الجيش ليتحكم بسورية نهائياً إذ تم إقصاء القيادة التي سبق لها إقصاء قيادة حزب البعث التاريخية. ونعمت سورية بالاستقرار طويلاً حتى بدأت الجماعات الدينية في بعض المدن الكبرى بعمليات اغتيال ثم تمرد تم قمعه بقسوة. بعد ذلك حين مرض رئيسهم كادت الأمور أن تنفجر في صراع طاحن على السلطة. وسط كل ذلك كانت إسرائيل قد غزت لبنان ووصلت الى بيروت وكان ثمة تهديد جدي لسورية، وانسحبت كما انسحب قبلها الأمريكيون والفرنسيون من لبنان إثر ضربات مؤثرة، كنت أكتشف في لهجة كمال تخوفه أو تفاؤله ولكني قرأت عن انقسامات وانشطارات في حزب سورية الشيوعي ولابد أن ذلك قد أحبط كمال راضي رغم عدم انتمائه الحزبي. لقد هاجمني بعض اليهود الأمريكيين من الصهيونيين واعتبروني عميلاً مأجوراً لسورية، وشهروا بي، كل ذلك لأني في محاضراتي أنصف العرب ولا أنخدع بادعاءات إسرائيل عن كونها واحة ديمقراطية وسلام وسط محيط متعصب ومتخلف يريد أن يرميها في البحر. كانت كلماتي وصوري وافلامي تدهش الحضور لأنهم طالما سمعوا جانب إسرائيل من الحكاية.

جاءت ليزا شيدي للعشاء، حملت معها كعكاً من نوع (البراوني). كانت سوزان قد جهزت المائدة بشكل جميل ووضعت شموعاً ووردا واستخدمت الأطباق الثمينة. وجلست معنا تشارك في الحديث وحين كانت زجاجة النبيذ في منتصفها استأذنت سوزان متمنية لنا ليلة سعيدة. ليزا امرأة لطيفة وبسيطة في حياتها. حدثتني عن ذكاء سوزان وروحها القيادية، وقامت تتفقد الصالة وعندما رأت صورة ريتا توقفت مطولاً عندها، ودهشت عندما علمت أنها من رسم اللوحات الموزعة في أجنحة الصالة، وعندما رأت جناح الكتب العربية في مكتبتي استغربت اهتمامي.. فأوضحت لها بعضاً من ماضيّ القريب. دعتنا ليزا إلى بيتها في عطلة

الأسبوع التالية، بعد العشاء تابعنا فيلماً جميلاً نامت سوزان أثناء عرضه. وعندما نقلت مع ليزا الأطباق إلى المطبخ وجدنا نفسينا متواجهين. ملت عليها وقبلت خدها، فقبلتني من شفتي. سألتني أن نقضي الليل في بيتها لكني لم أرحب بذلك رغم أني كنت في حالة يرثى لها من الرغبة، قلت لها لابد أن يتم ذلك بعلم سوزان ورضاها. ولم يطل بنا الانتظار كثيراً إذ رتبت سوزان أن تقضي الليل مع إيرين صديقتها في إحدى ليالي السبت قائلة: تستطيع الآن إبقاء ليزا معك يا دادي. وهذا ما حصل، وحين وصلت سوزان قرابة الظهر كانت ليزا في ثوب منزلي تساعد في تحضير الغذاء واكتسب من لحظتها وجودها صفة الشرعية في أيام العطل وبعض الليالي ضمن الأسبوع، لم أطلب منها الانتقال للعيش معنا ولم تقترح هي. أردت أنا أن تكون كامل الفسحة لسوزان بحيث لا تفرض عليها أي خيارات يومية فبعد كل شيء إن سوزان هي كل ما بقي من حياتي إثر وفاة والدي الذي تأثرت سوزان كثيراً لفقده. لقد عوّض أبي من خلال المراسلات الطويلة معها والهدايا التي تتسلمها في عيد ميلادها وعيد الميلاد وإثر كل نجاح تحرزه، عوض مع ابنتي ما كان قد أهمله معي.

ليزا بعد سنة ونصف من العلاقة انتقلت إلى ريتشموند، لم أتمسك بها لأن أي ارتباط لم يكن ضمن مخططي، افتقدناها ليزا وأنا لبعض الوقت ثم جاءت أليس الموظفة في فرع البنك المجاور. كانت أليس في حياتها اليومية نموذجاً للفوضى الطريفة. إنما بعد أن تغادر البنك. فهي أثناء عملها جادة ومتحفظة ولبقة، وحين تدخل بيتنا تفقد كل اتزان، تلهو مع سوزان بسنواتها الثماني والعشرين كأنها أصغر منها، ولا تجيد أي عمل من أعمال البيت، لكن الرياضة تستهويها فهي تلعب التنس والغولف وتسبح وتركض عند الصباح، أشركتني في الغولف والعدو صباحاً ومارست التنس والسباحة مع سوزان، وهي التي بعد أول خروج لي معها طرقت باب سوزان وقالت لها: إن أباك عظيم وأنا أحب أن

تكون لي معه علاقة فما رأيك؟ تحفظت سوزان في البداية ثم جرفتها حماسة أليس وأعداها مرحها. ظلت تعيش معنا سنتين بطلب من سوزان التي أصرت عليها لتسكن في بيتنا، أعرف أن سوزان قد بدأت الآن تهتم بالجنس الآخر ووجود أليس في حياتنا سيسهل الأمور عليها وعلي بالطبع، عندما وصلت أليس إلى الثلاثين من عمرها كان قرارها مفاجئاً لنا، لقد رغبت في الانفصال، انفصال ودي كما ذكرت، هي واثقة من أنه لا مستقبل لنا معاً، وهي تريد أسرة لنفسها وما دمنا معاً فلن يتحقق ذلك، لهذا قبلت بالانتقال إلى فرع آخر للبنك في واشنطن نفسها، في الجهة الأخرى منها، وسوف تحصل على ترفيع. أحزننا ذلك سوزان وأنا. لكن أليس تستحق فعلاً أن تكون لها أسرة تخصها، بأية حال كانت قد بدأت علاقة سوزان بالشاب رودني وكنا بانتظار السنة الأخيرة قبل دخولها الجامعة حيث أعربت لي عن رغبتها في دراسة اللغات القديمة وأرسلت سيرتها الذاتية. كنت سأغدو أحد مدرسيها ولكن قبل ذلك عليها أن تذهب إلى دمشق كي تكتسب اللغة العربية قراءةً وكتابةً. لقد ذهبت واكتسبت وعادت في ستة أشهر. وريثما يبدأ الفصل الجامعي كان علي أن أساعدها في الشفاء، وهي التي رسمت مخطط الرحلة وحددت على الخرائط السياحية والجغرافية كل شيء. سوف نطير إلى أقصى الغرب، من واشنطن إلى سياتل، نقضي ثلاثة ايام فيها ثم نستأجر سيارة اختارتها بنفسها كي تساعدني في القيادة وسوف نجتاز ولايات الساحل الغربي الثلاث، واشنطن ثم أوريغون وبعدها كاليفورنيا، سوف نبدأ من سياتل وننتهي في سان دييغو، حجزت سوزان الفنادق والموتيلات على طول المسافة، لم تكن تريد أن نقود أكثر من ست ساعات في اليوم وعلى فترتين. جهزت المواقع السياحية والأثرية والمتنزهات الوطنية والمتاحف وكل ما يجدر بنا رؤيته. أخذت معي زوادة كبيرة للقراءة لي ولها ثم طرنا إلى البلاد الدافئة. كانت الرحلة مرهقة لكثافة البرنامج الذي وضعته سوزان لكنها كانت رائعة جداً. هذا عالم آخر. عالم الساحل

الغربي حيث المسافات الكبيرة والخضرة الطاغية إن ولاية أوريغون مثلاً هي أكبر من ولايات ماساشوستس وكونيكتيكت ونيويورك ونيوجرزي وديلاوير وماريلاند مجتمعة، أنا كنت أفرح بالغابات والأنهر ومساقط المياه وسوزان تفرح بشواطئ الباسيفيك، وفي كاليفورنيا التي أخذت وحدها أكثر من نصف الإجازة انطلقت سوزان تمرح حيث استطاعت، رقصت وسهرت وواعدت كما يبدو ثم ركبنا آخر الأمر الطائرة لنعود إلى موطننا في الوقت المناسب قبل بداية العام لجامعي، وانتظمت أمورنا معاً هي كطالبة في الكلية وأنا كمحاضر فيها وفي بعض المنتديات والدورات، وبدأت أيضاً أكتب بعض التحليلات السياسية في صحافة واشنطن. كنت قد اكتسبت خبرة في التحليلات من عملي مع بروس في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية، وفي عيد ميلاد سوزي الثامن عشر فوجئنا بمن يطرق بابنا، كانت ليزا شيدي وزوجها جورج، جاءت حاملة ورداً وزجاجة خمر، ورحبنا بهما ترحيباً حاراً، لقد ركبت من ريتشموند متذكرة عيد ميلاد سوزان، وأثناء السهرة خطر ببالي كمال راضي وولده عمر، هاهي ليزا تقدمني لزوجها باعتباري صديقها السابق «My ex boy friend» ونتبادل أنا وجورج الممازحات، ونسخر من بعض عادات ليزا ونضحك بسرور. وهو لا ينظر إلي بحقد أو غيظ، بينما عمر حين سمع من سوزان عن علاقة سابقة خرج من جلده. أسعدتنا زيارة ليزا وكان واضحاً أنها مستقرة وسعيدة.

انقضت سنوات جامعة سوزان سريعة، غرقت في البحث والدراسة، خرجت بالطبع مع أكثر من شاب خلال السنوات الجامعية، عاشت مسرات وتعرضت لخيبات لكنها ظلت متينة قوية. كانت فائقة الجمال وأيضاً بالغة الجدية، تنافس عليها عديدون وخطب ودها كثيرون لذلك لم تكن هناك عقد ومطبّات تعترض نموها النفسي. أنا بدوري وجدتني أخرج مع أكثر من واحدة، استمعتعت بعلاقاتي دون أن يكون الارتباط بين أولوياتي، استعدت بداياتي حين كنت أتصيدهن بغرض قضاء الليلة

في نهاية الأسبوع، واستمرت العلاقة مع كمال في تلك الأثناء وقد زارتنا كنانةمرتين وسعدنا بصحبتها، وخففت من شعور سوزان بالذنب حين أخبرتنا بان عمر لا يحمل لها إلا الشعور الطيب وهو نادم على ما قاله لها. وقد أخبرني كمال بخطبة عمر لاحقاً وقال إن الخطيبة ابنة شقيق سوسن ربيع، وإن الزفاف قريب، ولم يذكر لي شيئاً عن وضع سوسن وحياتها، ابنتي حين كانت في دمشق تقصدت أن تراها بتدبير من الدكتورة هناء ونجحت في رؤيتها، وقد قالت لي بعد أن تخلصت من تأثير مشاحنتها مع عمر ومغادرتها دمشق إنها وجدت كثيراً من الشبه بين سوسن وريتا، وسألتني متهمة: هل اخترت ريتا لأنها كانت تذكرك بسوسن؟ قلت لها: ربما أنا يعجبني هذا التيب. كانت سوسن جميلة وجاءت ريتا أكثر جمالاً، ولكن لماذا يتكتم كمال هكذا حول سوسن؟ ربما لم يجعلها تعرف بسابق علاقتنا.

في السنة الأخيرة قبل التخرج أخبرتني سوزان أن الدكتور هنري يريدها أن تدرس للماستر تحت إشرافه وأنها تنوي التقدم لذلك وسألتني إن كان لي رأي آخر أو إن كنت مستعداً لمشاركتهما في اختيار البحث، كان الخيار الأفضل هو أن تقلع هي بجناحيها دون أي دعم من قبلي إلا حين تطلب النصح أو المشورة، وهكذا بدأت العمل مع الدكتور (هنري مالدن) زميلي في التدريس. سيكون ذلك حافزاً له ولها كي ينجزا شيئاً يحوز على إعجابي. جاءنا خبر وفاة بروس ليصبغ حياتنا بالأسى عدة أشهر. كان بروس صديقي وراعيَّ ومعلمي وكانت شيري موجودة لريتا دائماً، نزلنا إلى تكساس لأسبوع قضيناه مع شيري والأولاد. ويبدو أن كثرة الشراب هي التي تسببت لبروس بتشمع الكبد الذي أدى إلى وفاته، عدنا إلى واشنطن وأنا أحس أن ركناً هاماً من حياتي قد تلاشى، فمنذ أول يوم في واشنطن كان بروس تالبوت موجوداً لي واستمر كذلك حتى فقدناه.

بعد عودتي إلى واشنطن من تكساس وجدت نفسي أعتني بأخبار

البلاد العربية، عدت لمتابعة الأحداث، لم يكن أحد مستاء بقدري حين شن حاكم العراق حرباً على إيران، لقد قدرت وجهة نظر السوريين في رفض هذه الحرب، العدو كان في الجولان وليس في طهران، ولم يكن أحد مغتبطاً بمجرياتها قدر غبطة اللوبي اليهودي والساسة في بلدنا. وكانت نظرة واحدة لمن يؤازر صدام حسين تكشف غرض هذه الحرب، كان العرب المؤيدون لأمريكا يدعمونها بكل طاقتهم وأثبتت الأيام صوابية موقف السوريين حين استدار صدام حسين يطلب ثمن الحرب التي خاضها نيابةً عنا. أراد ابتلاع الكويت وأقدم على ذلك. وحسب نظرية المؤامرة التي لها مؤيدون كثيرون في بلاد العرب، فإن أمريكا قد فتحت له باب الهجوم على الكويت لتقضي على الجيش العراقي الذي اكتسب من التسليح والخبرة ما يشكل خطراً مستقبلياً على حليفتنا المدللة إسرائيل. وهكذا ضربنا الجيش والشعب العراقيين في حرب تلفزيونية لم تنته بسقوط صدام أو إسقاطه، كان ذلك في فصل لاحق كما كشفت الأحداث، لقد شاركت دمشق في مجهود تحرير الكويت وهو ما أثار دهشتي، لقد رفضوا مهاجمة العراق لإيران الصديقة فكيف يشاركون في الهجوم على العراق الشقيق؟ كان الجواب في مؤتمر مدريد للسلام والذي لم يسفر إلا عن اتفاق تحت الطاولة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وبداية تفاهم مع الأردنيين، كان السادات شريك حرب 1973 قد أخرج مصر سلفاً بمعاهدة كامب ديفيد الشهيرة وهذا ترك السوريين وحدهم في المواجهة، وقد جاءهم سقوط حليفهم القوي الاتحاد السوفيتي ليكشف ظهورهم أمام الإسرائيليين حيناً وأمام الأتراك حيناً آخر. اكتشفت أن سوزان لاتزال مثلي تتابع أخبار دمشق وتهتم لما يجري هناك كما أهتم، واستقبلت خطبة عمر بارتياح دلني على أنها قد شفيت تماماً، سألتها مرة:

- سوزي، لو لم ينشأ ذلك الموقف مع عمر راضي وطلبك هل كنت ستقبلين؟

- طبعاً.

- وتقيمين في دمشق.

- أوه نو، نو، هو سيأتي إلى هنا. هذا كان شرطي الوحيد.

- وقد لا يقبل.

- دادي، صدقني كان سيقبل.

تتنهد بعمق وأسى.

- لو أنه تجاوز فقط موضوع العلاقة مع رودني.

- وإن طالبك باعتناق الإسلام.

- حين أحبني لم أكن مسلمة أو حتى مسيحية، دادي، خذ (هال) مثلاً، إنه يمثل على المسرح، وسيقتنصه التلفزيون وربما هوليود، هال حين كان صديقي كان يراني حلمه النهائي، صدقني لم يكن يريد شيئاً قدر أن يبقى معي، لا مسرح ولا سينما ولا شهرة، كان يريد فراش سوزي ابنتك.

- لا تكوني وقحة، والآن أجيبيني بصراحة: هل لازال لعمر مكان في قلبك؟

- ليس له، ليس لعمر راضي، بل لحبي الأول، لدمشق، لآخر مراهقتي، هذا ما يمثله لي عمر. شهور المودة مع أسرة (عمو كمال) متعة السهرات والتسكع وسط رائحة الياسمين الدمشقي.

- هل قلت لك إن كل حدائق الحي الذي سكنته كانت تعبق بالياسمين.

- دادي، قلت لك إني مشيت به ورأيت ياسمينه وحتى السيدة الضخمة التي تسكن ذاك البيت، قل لي: هل تشتاق لدمشق؟

- أشتاق بكل تأكيد، بعد أن فشلت رحلتنا إليها أنا وريتا حين كنا في تونس لم تواتني الحماسة حتى كنت فيها، لكن ما جرى فوت علي فرصة الزيارة.

- اذهب، لماذا تنتظر، ربما، ربما ترى سوسن ربيع مجدداً.

- سوسن ربيع؟ كمال لم يعد يذكرها لي. ولا أدري لماذا؟
- آسفة يا أبي لأني كنت سبب انقطاعك عن دمشق.
- ليس ذنبك. ألاحظ أنك تستطلعين أخبارها دائماً عن الإنترنت.
- بالطبع، كما تفعل أنت.
- سوزان، أنوي التقاعد هذه السنة، لن أتابع التدريس.
- لماذا؟ متى خطر لك ذلك.
- مؤخراً، لم أعد أحب أن أتقيد بمواعيد وأوقات.
- ماذا تريد أن تفعل؟
- القراءة والبحوث والكتابة، أريد متابعة مراسلاتي مع جامعات القاهرة وتونس، ومكتبة الكونغرس ستوفر لي ما أريد من مصادر.
- أنا لا يسؤوني ذلك. هل لديك مشاريع أخرى تخفيها عني؟
- رحلة أخرى معك.
- إلى الباسيفيك؟
- إلى الباسيفيك.

كان قراري بالتقاعد نابعاً فعلاً من رغبتي في إنهاء التزاماتي بالزمان والمكان فأنا منذ سبع وثلاثين سنة أعمل في الخارجية ثم في مكتبة دمشق ثم الخارجية وبعدها الجامعة. وما أشكر الحظ عليه هو أن عملي كان باستمرار موضع محبة من قبلي، وقد جاوزت الآن الخامسة والخمسين، وسوزان بدأت دراسة الماستر، بإمكاني الآن العودة إلى الهواية الأولى: القراءة، التاريخ والآداب بين يدي، صحيح أن ريتا جعلتني أقلع عن التدخين لكن كأس الويسكي أو النبيذ مع كتاب جميل ومنظر مريح هو كل ما أريده الآن، وبالطبع امرأة عذبة المعشر عاشقة للمغازلة ستجعل من بيتي فردوساً دائماً، الكتاب والكأس متاحان ولكن المرأة المطلوبة لا تتاح دائماً.

مع نهاية سنتها الأولى في الماستر كانت خطة رحلتنا الثانية جاهزة، لن ننزل إلى كاليفورنيا، سنكتفي بالولايتين الشماليتين على الباسيفيك

واشنطن وأوريغون، وريثما أتت سيارة التاكسي لتقلنا إلى المطار انتبهت إلى أن سوزان مرتبكة وهي تريد أن تقول شيئاً، لا أدري لماذا أقلقني ذلك فليس من عادة سوزان أن تتردد. التقت أعيننا فإذا بها تحمرّ وتضحك بخجل.

- دادي، لقد عرض علي ويل الزواج وقد قبلت.

كان خبراً مدهشاً بكل معنى الكلمة، ليس أن يتقدم لها فقد توقعت ذلك منذ حين، ولكن أن توافق هي، لم أشعر مرة أن سوزان مستعدة لارتباط وثيق، إنها لم تعايش أياً من الشباب معايشة كاملة، لم تسكن مع أحد منهم بعد، لابد أنها تنام في بيوتهم وتقضي معهم العطل وبعض الليالي، لكن ذلك لم يصل من قبل إلى هذه المرحلة، بالنسبة إليها على الأقل، (ويل فالكون) والذي يقول إن اسمه الحقيقي أصلاً هو (ويل فالكوني) وإن أصله من جزيرة سردينيا المجاورة لصقلية، هو شاب تستطيع أن ترى المئات مثله في تونس ودمشق وروما، وجه متوسطي أسمر بعينين خضراوين وبلسان ذرب وثقافة لا بأس بها. مذيع في إذاعة محلية حيث يقدم برنامج مسابقات ثقافية على الهواء، وقد اتصل بي يوماً عارضاً علي أن أجهز له أسئلة ثقافية بحكم اختصاصي، زارني في البيت عدة مرات والتقى بسوزان طبعاً، لاحظت أنه كان ذكياً في مقاربته لها، فهو لم يتجاهلها تماماً وكذلك لم يظهر لها أنه مفتون بها إلى تلك الدرجة، كان يجعلها تضحك مما يسرده من هفوات المذيعين ومجريات المسابقات. أثار فضولها حين جاء مرة على دراجة نارية من طراز هارلي دافيدسن. لم تنتبه إلى أنه قد أحضر خوذة إضافية الا حين أصرت عليه أن يصحبها في جولة عليها. كان هو متحضراً لذاك الذي تردد في الإذعان له، ولم أعد أسمع إلا ويل قال كذا، وويل فعل كذا، كادت سوزان تهملني تماماً بين الدراسة والتحضير وبين ويل فالكون وقد جاءت حكاية الرحلة هذه والاستعداد لها لتكون تعويضاً لي عن إهمالها، وويل الذكي حين سمع برحلتنا لم يشأ التطفل علينا لكنه فعل

ما هو أكثر، تقدم إليها وقبلت وهاهي تخرج الخاتم ذا الماسة الصغيرة لتضعه في إصبعها بعد أن أخبرتني، قالت لي: اتفقت مع ويل على أن نعقد خطبة فيما لو عدت من الرحلة والفكرة لازالت تستهويني. وسوف يصرفان النظر إن لم تظل متحمسة ومندفعة.

كانت رحلة قليلة التوفيق إلى حد كبير إذا ما قورنت بالرحلة السابقة، لم نتحضر لها سوزان كما فعلت من قبل، السيارة لم تكن جيدة، وأماكن النوم لم تناسبنا دائماً، في الطريق من سياتل إلى بورتلاند أوريغون قررنا التوقف في تاكوما ثم استأنفنا سيرنا حين لم تعجبنا الغرفة وصلنا إلى (لونغ فيو) مدينة صغيرة هادئة، فندقها على دوار (سيفيك - Civic) في نهاية شارع أوليمبيا. كان قديم الطراز وقد أعجبنا من الخارج، ووجدنا فيه غرفة واسعة مريحة، وأرشدونا إلى مطعم تناولنا فيه وجبة لذيذة جداً، استأنفنا سيرنا صباحاً نحو بورتلاند، كان علينا أن نقضي فيها يومين، بورتلاند مدينة هادئة وجميلة يقطعها نهر كولومبيا وروافده، وولاية أوريغون هي ولاية الغابات والأشجار الضخمة والعملاقة. غادرنا بورتلاند إلى سالم، ويوجين وإلى كريترليك. ثم عدنا إلى سي سايد الواقعة في شمالي أوريغون وتبعد عن بورتلاند حوالي 140 كيلومتراً غرباً، نزلنا في منتجع غيرهارت الممتد بمحاذاة الشاطئ، لا شيء يفصله عن المحيط إلا عشرات الأمتار من الرمال وله مسار خاص للغولف تبارينا فيه سوزان وأنا. وقبل أن نعود إلى سياتل ذهبنا إلى بحيرة شالان ونزلنا في منتجع يطل عليها، تمتعنا بزيارة مزارع التفاح التي تغطي السهول والسفوح، ثم من سياتل طرنا إلى واشنطن.

لم تنقطع اتصالات سوزان بويل، كانت تعطيه تقريراً عن كل ما نفعل، وكنت أسمعها تردد قائلة: وأنا وأنا، لابد أنه كان يحدثها عن شوقه وحبه فتجيبه بما يماثل ذلك، وأسعدني أن أراها عاشقة مفتونة، ورغم محاولتنا الاستمتاع بأيام الرحلة لكنها كانت تتعجل العودة لتلقاه، وقد استقبلنا في المطار لأرى كيف كان الشوق مفيداً لهما وقد عبر

عن نفسه بالعناق والقبل، لقد حمل ويل حقائبنا، ولكنه أخذ سوزان، لم تدخل البيت إلا لدقائق جهزت لنفسها فيها حقيبة صغيرة ثم: باي دادي. وتركتني مع الرسائل المتراكمة في غيابنا.

لم ينتظرا طويلاً، بحضوري وخمسة آخرين لا أكثر ذهبنا إلى دار البلدية حيث عقدا زواجهما وطارا بعدها مباشرةً إلى فلوريدا كان لديه دعوة من منتجع في أورلاندو في مدينة ديزني لقضاء أسبوع رأيا أنه يناسبهما لشهر العسل، ويل يملك بيتاً صغيراً وأنيقاً في الضاحية البعيدة عني وسوف يقطنان فيه، اتصلت بي حين استقرت في الفندق، وفي اليوم الذي سبق عودتهما، وكنت في المطار لأقلهما إلى بيتهما، كانت عزيزتي سوزان قد كسبت لوناً من شمس فلوريدا، وكانت مرحة وسعيدة، لم أبق معهما أكثر من ساعة ركبت بعدها إلى بيتي مرتاح البال لما شهدته من هناء سوزان، وصباح اليوم التالي كان هناك من يطرق بابهم ويسلم ابنتي أوراق سيارة حديثة ومفاتيحها. كانت تلك هديتي لها، وكانت ترغب في اقتنائها تلقيت اتصال الشكر وتمنيت لهما حياة غنية وسعيدة.

كنت أحس أني وحيد ربما للمرة الأولى منذ ما قبل دخول جودي كامبل حياتي، بالمناسبة هل قلت إني فقدت أثرها فلم أسمع منها منذ أقامت معي أسبوعاً قبل سنوات، أجل فبعد جودي كانت دمشق وحين عدت كان بروس وشيري وذكريات سوسن ثم جاءت ريتا وبعدها سوزان، ورغم فقدان ريتا فقد كانت حبيبتي سوزي هنا. وحتى حين ذهبت عبر المحيط إلى دمشق فقد كانت لاتزال معي، الآن فقط هي مع سواي، الآن مع زوج تنتمي إليه وأنا فعلاً وحيد، وكدت أندم على تقاعدي لولا وصول طرد من كندا أرسلته كنانة العائدة من دمشق. لقد أتحفني كمال بعدد من روايات الكاتب المصري نجيب محفوظ والكاتب السوري حنا مينة ودواوين شعر لنزار قباني والفلسطيني محمود درويش والمصري المتوفى أمل دنقل، كان بين يدي أدب أحب أن أقرأه وكذلك زجاجتان من عرق محافظة السويداء فلم أستسلم لمشاعر الوحدة ومعي

الطاس والقرطاس كما قال شاعر عربي.

عثرت على (مارلا خواكيم) المهاجرة من بورتوريكو والمزكّاة إلي من مكتب تشغيل، لقد طلبت مدبرة منزل تحسن الطبخ لثلاثة أيام عمل كل يوم ثماني ساعات مقابل مائة وعشرين دولاراً في الأسبوع، أرسلوا إلي اثنتين قبل مارلا، واحدة منهما كل مواهبهاشفتان مطليتان بالأحمر وجسد أسود فائر لفتاة في العشرين، كانت تبحث عمن يشتري الجسد وليس العمل، أما الثانية فكانت غير قادرة على الوفاء بمتطلبات العمل لأنها ذاخرة بكتل الشحم فإن جلست كرهت القيام، وانتظرت أسبوعاً حتى وصلت مارلا ظننتها في الثلاثين أول الأمر لأن جسمها نحيل ومشدود، اكتشفت لاحقاً أنها في الثالثة والأربعين، وكانت مناسبة فيما عدا الثماني ساعات، إنها تريدها ست ساعات، عليها أن تغادر الساعة الثالثة لتصل إلى بيتها في الرابعة والنصف كي تتسلم ولديها من باص المدرسة، وهي تستطيع الوصول في التاسعة بعد أن ترسلهما للمدرسة، ولن تتقاضى إلا أجر الساعات الست بما يصل إلى تسعين دولاراً في الأسبوع وتتسلم الشيك في يوم العمل الثالث، وافقت على اختبارها لأسبوع، طلبت منها العمل أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، وأن يشمل عملها الطبخ والجلي وتنظيف البيت والحمامات وغسل الثياب، كانت مارلا نشيطة ورشيقة وتحسن عملها وخاصةً الطبخ المكسيكي. وهكذا عاد للبيت نظامه إثر الرحلة وزواج سوزان وتقاعسي عن أي نشاط قبل وصول طرد كنانة راضي، في الأسبوع الثاني لم أشأ كتابة شيك بتسعين دولاراً، كتبته بمائة فبدا على مارلا كأنها عثرت على كنز وشكرتني على كرمي، وكانت في الحقيقة تستحق أكثر. هي أضافت لأعبائها كيّ الثياب وغسل الستائر وتعليقها ولا أدري ماذا أيضاً من الواجبات، بقيت مرة في البيت مع كتاب أقرأ فيه داخل مكتبي وراقبت ما تفعل عن بعد، أنهت تنظيف الأرض بالآلة في كل البيت خلال ساعة ونصف، وانتقلت للحمامات لتنظفها رغم أن بعضها لم يستعمل، في تلك الأثناء كانت

جلاية الصحون تعمل والغسالة أيضاً، وخلال ثلاث ساعات كانت تتفرغ لإعـداد الطعـام، علمتهـا صناعة المتبـل بالباذنجان، والحمص بالطحينة، أعجبها الطعم لكنها لم تكن تعرف الطحينة من قبل فأخبرتها بأن المحل الذي يبيع سلعاً عربية ولبنانية هو الذي يبيعها فقط، ماذا عن شكل مارلا؟ إنهـا إلـى حـد مـا خلاسـية اللون، خليط بين العرقين الأسـود والأبيض، لذلك هي في سـمرة غامقة، كثيفة الشـعر، عسـلية العين ليسـت ناهدة الصدر تماماً، وليسـت عجيزتها بالمكورة أو رجراجة، ومع ذلك فحين رأتها سوزان في أول أسبوع حذرتني من مغازلتها فضحكت من خيالها، لكن سوزان أعجبها ما تفعله مارلا في الأيام الثلاثة داخل البيت. سوزان متألقة ومشرقة وتقول إن عملها مع الدكتور يسير كمايجب وربما تكسب وقتاً، هي ويل لا ينقطعان عني، ينهي عمله وينتظر في مقهى ما ليأتيا سوية في سيارة واحدة، وصار بإمكاني أن أدعوهما على وجبات لذيذة تعدها مارلا قبل ذهابها.

جهزت لنفسي مرة في غياب مارلا المحمرة الدمشقية الحارة وظهر يوم الاثنين ملأت عدة صحون صغيرة وأخذتها إلى المكتب، مكسرات، لبن مصفى بالثوم، محمرة، زيتون، خيار كبيس، حمص، وصببت كأس عرق ومددت سـاقي على طاولة الوسـط، المسـماة عندنا طاولة القهوة ووضعت شـريطاً عليه أغنية أمل حياتي لأم كلثوم كانت مارلا تشـتغل في غرفة النوم، بعد دقائق وكنا لانزال في موسيقى المقدمة رأيتها تدخل بخجل ودهشة وتنظر إلى آلة التسجيل وتصغي بيدين مكتفتين حتى بدأت الست بالغناء، أوقفت الآلة بعد أن اعتذرت:

- مستر أندرو، هل كانت الموسيقى هذه سيمفونية غريبة؟

ضحكت لسؤالها:

- لا يـا مـارلا، هـذه مقدمـة موسـيقية لأغنية طويلـة جداً بمقاييس أغانينا، وهي لملحن عربي عبقري وتغنيها سـيدة في السـتين من عمرها أو أكثر لمدة ساعتين في الحفلة الواحدة.

كنت أعرف أنني أعطيها أخباراً لم تعتد عليها:

- مستر أندرو، لماذا يصبح لون شرابك هكذا مع الماء؟

- هذه طبيعته هذا عصير عنب وعصير الأنيسون ويضاف اليه بعد تقطيره الكحول.

- هل هو مثل التكيلا؟

- لا يشبه أياً من شرابنا، هل تحبين تذوقه؟

- هل أستطيع؟

- طبعاً، أحضري قدحاً رفيعاً كالذي أستعمله.

- قبل ذلك، أنا أرى دائماً مثل هذه المقبلات حين تترك الصحون والشراب، ألا تأكل مع الشراب الدجاج أو اللحم؟

- بالطبع، لكني الآن أشرب مع الأغنية والكتاب، دون الطعام.

- وهل لي في مقدار صغير من كل هذا؟

- بالطبع، أحضري طبقاً.

- وهل تعيد الموسيقى من أولها؟ سنيور أرجوك لا تغضب من طلباتي، هذه المرة فقط أقسم بالمسيح.

أضحك وأشير لها لتذهب، وأعيد الشريط على أوله ريثما تأتي، وحين تعود أفاجأ بها قد خلعت ثياب العمل وارتدت ثياب الخروج وقد أرخت شعرها وجلبت شوكة وقدحاً، وأعجبني سلوكها، أجل إن كأس العرق يحتاج لأن تكون متفرغة وليست على عجل، تصب لنفسها بعضاً من المحمرة واللبن المثوم والخيار، وأصب لها كأساً غير ثقيل.

- في صحتك مارلا.

- كيف؟ كيف نشربه مستر براون؟

- رشفات ليست كبيرة، إلا بعد الكأس الثالث أو الرابع.

قلت ذلك بلهجة النكتة وضحكت هي.

- في صحتك مستر براون.

يتلامس قدحانا وترشف منه وتستطعم المذاق والنكهة، تذوق

المحمرة فتسرُّ بها. وتأتي الأغنية فأرى كتفيها يتحركان رغم إرادتها، لقد صنع عبد الوهاب لحناً يرقص العجائز فكيف برشيقة مثل مارلا، أطربتها الموسيقى فرشفت من كأسها مرة إثر مرة وهي تهز رأسها مع الإيقاع الرائع. رأيتها تنظر لكأسها وللزجاجة وخمّنت أنها تتمنى واحداً آخر.

- مارلا اشربي كأسك لأصب ثانيةً.
- سنيور براون هذا شراب لذيذ لذيذ. أين يبيعونه؟
- مكان بيعه يبعد عنا ثلاثة أضعاف بعد بورتوريكو يا مارلا.
- يا عيسى المسيح، إنه إذن غالي الثمن. لا أريد ثانيةً لا.
- مارلاهاتي كأسك، اطمئني معظمه ماء.

صببت لها كأساً، كان وجهها الأسمر قد تلوّن بتأثير العرق وربما حرارة الفلفل في المحمرة، واستمتعت بالعرق هذه المرة وقد استساغته وجلست على راحتها في المقعد الجلدي الوثير، هاهي الآن امرأة جميلة، ساقاها مشدودان، جسدها ممشوق وشفتاها شهيتان، احذر يا أندرو، أنت تحدق الى مدبرة المنزل، ولا أدري إن كانت قد انتبهت لنظراتي أم لا، فقد انحنت لتذوق اللبن المصفى ثم عادت إلى جلستها سامحة بمسافة أكبر من الساق الصقيلة كي تظهر لناظري، وهذه المرة أمسكت بي أنظر، ابتسمت واعتدلت في جلستها:

- في صحتك سنيور.

شربت الكأس كاملاً:

- شكراً لك، شكراً على كرمك واستضافتك، سأتابع عملي.

خرجت من المكتب حاملة طبقها وكأسها وسمعتها تدندن وهي ترقى الدرج. يوم الأربعاء كانت ترتدي تي شيرت وشورت. انتبهت إلى تحرك نهديها بحرية تحت التي شيرت. لابد أنها لم ترتد صدرية، وكان الشورت يظهر صلابة الفخذين الأسمرين.

- مستر براون.

- نعم.

- لماذا ليس لديك صديقة؟

- كيف عرفت؟

- عرفت.

- ربما كنت واهمة، بأية حال، لماذا؟ بل ماذا تفعلين ببقية أيام الأسبوع؟

- السبت والأحد أشتغل في (هوم ديبو) بدل من تتعطل في قسم الحدائق، عطلتي أنا الثلاثاء والخميس.

- وزوجك؟

- زوجي، زوجي يعطل معظم الأسبوع، ربما يشتغل يومين أو ثلاثة إن كان صاحياً ثم ينفق ما كسبه ومعظم ما يأتيني على شرابه في بقية الأيام.

- هل هو لاتيني مثلك؟

- أوه نو سنيور، جيريمي مثلك، أمريكي. عفواً منك مستر أندرو، لا يمكن أن يكون مثلك، رائحته دائماً قذرة وعفنة وأنفاسه مشبعة بالخمرة الرخيصة.

- هل كان كذلك منذ تزوجته؟

- كان خارجاً من السجن بعد إدانة بسرقة سيارة، سنيور كنت أريد إقامة، وحين رآني في مؤخرة المطعم أنقل القمامة والفضلات طلب مني طعاماً، أحضرت له بعض البواقي، وعاد مرتين ثلاثاً ليأكل، وفي المرة الرابعة عاد ليدعوني إلى العشاء، قال إنه وجد عملاً، ماذا أحدثك عن جيريمي؟ كذاب، مخادع، عاطل عن العمل. لكنه والد جون وخوانيتا. هل أريك صورتهما؟

- طبعاً.

ذهبت لتغسل يديها وتنزع عنها ملاقط الشعر وعادت تحمل حقيبتها جلست قربي على الأريكة وأخرجت كدسة صور، أعطتني أول صورة

وكانت لمجموعة من الناس والأولاد، حين مالت علي لتشرح لي أتتني رائحة عرقها المالحة ولامست ساقها العارية ركبتي، كنت منذ مدة لم أقرب امرأة. ابتعدت برأسي دون أن أجعلها تشعر مما اضطرها للاقتراب أكثر كي تشرح لي، وفي الوقت المناسب حركت ذراعي نحوها من منطقة المرفق، لامست نهدها المتقلقل، أحست وجمدت لثانية واحدة ثم استأنفت الشرح والحديث، وابتسامة ماكرة على فمها لم تغب عن نظري، أنت الآن في حركة خبيثة وانتهازية يا برفيسور أندرو براون، إنما ماذا تفعل بهذا العالم الظالم، يقول شاعر من فرسان السود في جاهلية العرب: وإذا بليت بظالمٍ كن ظالماً، وأنا مظلوم. هذا النهد الرجراج يلامسني، ينتهي الشرح وعرض الصور.

- أعيدي الشرح من فضلك يا مارلا.

تضحك:

- هل أشرح ونحن متجاوران أم تفضل جلوسي على ركبتيك مثلاً يا مستر براون.

وأضحك أنا بدوري، ثم أضع كفي على خصرها فتحدق إلي مترقبة، وحين أزلقها تحت التيشرت أرى كيف اقشعر جلدها، وعندما أصل إلى حلمة النهد تعانقني بيديها وتعطيني قبلة طويلة تجعلني أحملها وأصعد بها الدرج وهي تقبل وجهي وعنقي وتلحس خدي وأذني حتى أرتمي وإياها على السرير ويفاجئني صدرها الصلب كما تفاجئني خصلة الشعر الكثيف الأسود بين الساقين ويكتمل سحر المفاجأة حين أكتشف كم كانت مشدودة وضيقة رغم ولادتين. توقف عملها ذاك اليوم في أنحاء البيت واقتصر على السرير والحمام، كنت ظامئاً وأردت أن تنطفئ غلّتي. وكانت راغبة، وعاتبتني لأني تأخرت في مراودتها.

- كان عليك يوم جعلتني أشرب من شرابك أن تأخذني يا بروفيسور.

- لا أحب أن أكون البروفيسور الذي يستغل حاجة سيدة للعمل.

- أوه نـو. نـو، أنـا أريـد، أنـا أطلـب، لو كان واحداً من الجيران أو من عمال هوم ديبو فسوف يستغلني ويفضحني، الآن أنا أستغلك.

- من فضلك تابعي ذلك.

- انظـر يـا سـنيور بـراون، أنـا لا أريـد إلا أجـر سـاعات عملي في البيت. ما نقضيه في السرير هو للمتعة وليس عملاً، أنا لا أريد أن أكون رخيصة، سآخذ أجراً لما أعمل في البيت وليس لما أفعل في السرير.

ضحكت مطولاً وقبلتها كثيراً، أية شـخصية هذه المارلا! وبالطبع تكرس طقس المعاشرة بيننا ولم آبه لاعتراضها حين أعطيتها الشيك كاملاً ثم حين زدت المبلغ قليلاً، وحين طالبتها أن يكون عملها يومياً بحيث تعطل السـبت والأحد فقط قبلت، وأصررت أن أدفع لها سـلفة لسـيارة صغيـرة مسـتعملة أقتطـع ثمنهـا مـن أجرهـا بحيث لا تسـتغرق كل ذلك الوقـت فـي القـدوم والذهـاب فرحـت كأنها عثرت على كنز، ثم غضبت لأني لم أقتطع شـيئاً من أجرها. وفي هذه الأثناء اكتشـفت سـوزان ما يحدث وكل ما فعلته أن هزت رأسها مذكرة إياي بتحذيرها من معاشرة مدبرة المنزل. لابد أن سوزان اكتشفت مدى جاذبية مارلا قبل أن أكتشف أنا. وهكذا كانت تحت يدي امرأة شهية راغبة لخمسة أيام في الأسبوع ولسـبع سـاعات كل يوم، وعدت لما بدأت به حياتي العملية، الكتاب والكأس (بديل السـيجارة) وامرأة متوفرة إلا في عطلة الأسـبوع، كانت فتيـات الصيـد متوفـرات بعكـس ذلك في نهايات الأسـبوع على الأغلب ما عدا جودي وباميلا.

ناقشت سوزان رسالتها التي لم أطلب الإطلاع عليها، يا إلهي. كنت فخوراً بالفتاة التي أنجبت، لقد قدمت بحثاً مستوفياً كل الجوانب وهاهي عند التخرج ترتدي الرداء والقبعة ثم تهرع إلي حاملة شهادتها فتعانقني قبـل أن تعانـق ويـل الـذي يقبلهـا من خدها. كانت في الثالثة والعشـرين وبضعة شـهور، يااااه. ليت ريتا كانت معنا. ولكن الفرحة لا تحتمل أي استثناء، كنت قد طلبت من مارلا تجهيز مأدبة عامرة اشتغلت فيها قبل

يومين وكان على ويل للأسف أن يغيب ثلاث ساعات ليقدم برنامجه الإذاعي، طلب أن نحتفظ له ببعض الطعام والشراب وبقينا أنا وسوزان، يا إلهي كم هي جميلة.

- مارلا، من فضلك اخلعي المئزر وتعالي اجلسي معنا.

- أوه نو، نو، سنيورا، نو.

- بل نعم، أريدك أن تجلسي قرب دادي، أنت سبب ما يبدو فيه من شباب وحيوية.

خجلت مارلا ولكنها أسرعت تغير ثيابها وتسرح شعرها لتعود رشيقة حسناء وتجلس قربي وتقرع كأسها بكأسينا في صحة سوزان ونجاحها.

- مارلا، لماذا لا تقيمين مع دادي؟

فزعت مما سمعت:

- أوه، نو. نو. سنيورا إذا أردت سوف أترك العمل مع المستر براون.

- أنا أقول أقيمي معه دائمًا لا أن تتركيه.

- وجون وخوانيتا؟

- يأتيان معك طبعاً.

- نو.. سيعيشان معي ومع أبيهما. هل أنت تريد ما تقوله يا سنيور؟

- أنت صديقته ولا تقولين أندرو؟

- سنيورا، مستر براون في السرير أندرو، هنا سنيور، بروفيسور، مستر.

وأضحك مع سوزان من غضب مارلا، نحن بحاجة إلى دروس كثيرة كي نفهم قيم الآخرين. بالنسبة لمارلا إن معاشرتي هي شأن خاص بيننا. كمتعتنا الخاصة النفسية والجسدية، لكن هذا لا يعني أن تتخلى عن زواجها أو أن تحرم ولديها من أن ينموا مع أبوين في بيت واحد.

بعد أيام رأيت مارلا تتمنع في أن أنزع عنها قميصها، وحين فعلت

رأيت كيف أن في كل من نهديها أثر عنف ظاهراً.

- ما هذا يا مارلا؟ من فعل بك ذلك؟

- أنت.

- أنا؟

- أنت علمتني أن ألحس صدرك، أنا لم أفعل ذلك مع جيريمي من قبل. كان صاحياً ونام معي ففعلت ذلك، ضربني وهو يقول لي: هل أنا امرأة يا كلبة؟ هل أنت رجل وأنا امرأة؟ الغبي. الأحمق، لقد قرصني في نهدي وقال لي: أنا أفعل ما أشاء بنهديك، أنت لا تقتربي مني أبداً.

ضحكت من أعماقي بينما هي ترمقني مستنكرة، ثم ضحكت معي وجلست فوقي واخذت تلحس صدري وتتظاهر بقضم شعره.

- سأريك، سأريك أنت. سأجعلك تصرخ، سأؤلمك كما آلمني الغبي.

أنا واثق من أن الانسجام بيني وبين مارلا كان له أثره في حياة سوزان، ربما، في الحقيقة لست على تمام الثقة. جاءتني في موعد لم أنتظرها فيه، كنت ومارلا في المطبخ نسمع أم كلثوم ونحضر بعض المازة، سوزان معها مفتاح البيت والكراج والحديقة. لم ننتبه ونحن نتعابث، أردد أنا الغناء مع الست ومارلا تتراقص حولي، لم ننتبه إلى أن سوزان وصلت بسيارتها وفتحت الباب ودخلت لترانا فتقف باسمة تنظر الينا. انتبهت إليها مارلا فتوقفت عن الحركة خجلة وأشارت برأسها.

- سوزي حبيبتي، جئت في وقتك نحن نجهز المازة.

- أبي، هل كنت مرحاً هكذا مع ريتا؟ أنا لا أذكر جيداً.

حدثتني بالعربية كي لا تفهم مارلا. ضحكت:

- أنا وريتا يا حبيبتي كنا أساتذة في فن الحياة والعشق، كل ما فعلته وأفعله من مرح ومسرات صغيرة أو كبيرة سبق لنا أن عشناه ريتا وأنا. انظري إلى نفسك كم أنت جميلة ورائعة، لقد صنعناك في لحظة حب هائلة.

تنهدت سوزان ثم بان عليها الأسف:

- أبي اعذرني، أنا لم أسألك لأشعرك بالذنب، أنا لا أريد أن تخسر لحظة دون هناء وسعادة، عليّ أن أستطلع ماذا في مكتبتك؟ سأمضي يومي هنا، اعتبر أني غير موجودة، لكني لا أمانع بكأس.

- خذي راحتك يا حبيبتي، سيكون أمامك تشكيلة وكأس.

رأيتها تتجه إلى مارلا المرتبكة المتخوفة من حديثنا بتلك اللغة الغريبة اقتربت برأسها منها، فتراجعت مارلا بدهشة، لكن سوزان عانقتها وقبلتها من خدها:

- شكراً لك، أبي سعيد بك.

عانقتها مارلا بسرور وقبلتها:

- شكراً لأبيك ولك يا ملاكي الجميل، أنا أشعل كل أحد شمعة لك وأخرى لأبيك، المسيح أعطاني السعادة في هذا البيت، والمسيح يغفر لي ما أفعل لأن ما يجري في الأعلى هو حياتي التي وهبني فيها شكر النعمة وحب الآخرين.

- أبي، ألا ترى أن لمارلا فلسفة خاصة جديرة بالدراسة؟

- هذا سبق أن قرأت مثله في مقولة لفلاديمير أوليانوف.

- لم أسمع بأوليانوف هذا، لم أقرأ له من قبل.

- لأنه معروف باسم لينين. وما قلته صحيح. إن للكادحين منطقاً سليماً من واقع معاناتهم.

- دعني أتفرغ لأصحابك العرب أولاً، بالمناسبة هل تتابع نشاط المقاومة في لبنان ضد إسرائيل وجماعتها في الجنوب؟

- بالطبع.

- لماذا هم أبطال؟

- لأنهم إن انتصروا فازوا وإن قتلوا كانوا شهداء.

- منطق بسيط ولكن مخيف.

- كيف؟

- بهـذا المنطـق إن كنـت تذكـر اسـتطاعت السـي آي إي أن تجنـد المئات والآلاف ضد السوفييت في أفغانستان، منطق الجهاد.

- لا، ليس هناك تشابه. أولئك مغرر بهم، مقاتلو لبنان لهم تاريخ في الصراع ضد الاحتلال منذ عام 1982.

- ربما... هل ستصب لي كأس عرق؟

- مارغاريتا... للأسف لم يبق لدي عرق.

- أوكي.

غادرت إلى المكتبة، نظرت إلى مارلا كانت غير مرتاحة.

- هل انزعجت من كلامها؟

- لا. سوزان حزينة يا أندرو.

هي أيضاً لاحظت ذلك، سوزان فعلاً حزينة، وبعد أيام اتضح ذلك، اتصلت بي ليلاً كان ويل على الهواء:

- أبي. هل يمكن أن يغار ويل من نجاحي؟

- لماذا؟ هو نفسه ناجح ومشهور.

- ويل بدأ يخاطبني قائلاً: دكتورة سوزان، أو بروفيسورة.

- هل هو مغتاظ من شيء آخر؟

- ربما.

- ماذا؟

- الإنجاب.

- هل سأرزق بحفيد قريباً؟

- هو يريد ذلك.

تفاجأت.

- وأنت ألا تريدين ذلك؟

- ليس الآن.

- هل تنتظرين حتى تنهي رسالتك.

- ليس هذا هو العائق.

- ما هو إذن؟

- لاأريد الآن وحسب، ويل يظن ذلك بسبب الرسالة والدكتوراه، لا. لو أني مقتنعة بالإنجاب فلن تعيقني الرسالة.

- هل أنتما متخاصمان سوزي؟ أخبريني.

- إنه يشرب، ينهي برنامجه ويذهب مع شلة ويشرب. و.......

- وماذا؟ سوزي، ماذا أيضاً؟

- وربما يقيم علاقة.

- لا أظنه يفعلها.

- إن تأكدت فلن أبقى معه دقيقة واحدة.

وللأسف البالغ جاءها اتصال من واحدة خاطبتها وهي مخمورة بكلمة بروفيسورة وسألت عن ويل، لم يحدث شجار. كان حواراً قصيراً مع مخمور:

- هل تسخر مني وتتندر علي أمام عاهراتك يا ويل؟

- أنا لا أعرف عاهرات سواك يا دكتورة.

- أنت لا تعرفني إطلاقاً، أنت غبي لا تعرف شيئاً، أنا ذاهبة.

- أين تذهبين يا بروفيسورة؟ إلى دادي البروفيسور المعقد وعشيقته الخلاسية؟ إياك أن تعودي ثانيةً هل سمعت؟ أنا أستضيف كل برنامج ثلاثة أو أربعة هم خير منك، أنت بعد كل شيء سافلة معقدة تهتم بدراسة لغات آخرين سفلة ومعقدين.

- هل كنت حقاً غبية بحيث لم أعرفك مباشرةً.

- الغبي كان أنا، منذ أصررت على أن تظلي سوزان براون وليس سوزان فالكون كان يجب أن أعرف من أي صنف أنت.

- سوف أرسل غداً من يأخذ أغراضي.

- ستجدينها في علب خارج البيت، لا أسمح لك بدخوله.

حين وصلت إلى بيتنا لم تكن دامعة أو باكية، كانت فقط خجلة وعاتبة.

- أبي، إن كنت أنا مفتونة بويل فلم أعرفه ما عذرك أنت؟

- عذري أن ما يفتنك يعجبني، متى انقشعت الفتنة؟

- قبل تخرجي بشهر أو شهرين، كنت أحدثه عن تقدمي وإعجاب البروفيسور وهو إما أن يسخر وإما أن يتشاغل، يوم التخرج تشاجرنا، لم يكن يريد الحضور، لأنه ليس ثمة مسابقة في ذلك اليوم وإن ادعى ذلك، لهذا احتفلنا نحن الثلاثة وحدنا.

- هل يقيم علاقة؟

- ربما علاقات، وربما مع قاصرات ممن تستميلهن كلمة أو سماع اسمهن في الإذاعة، وأنت تعرف أنه وسيم وزلق اللسان.

- هل أنت متأكدة؟

- نعم.

- من اتصال الفتاة بك؟

تتردد قبل أن تجيب:

- أعرف المقهى الذي يجلسون فيه بعد البرنامج، انتظرت بالقرب منه وحين وصلوا كان يخاصر واحدة لا تتجاوز الخامسة عشرة، رأيته من خلف الزجاج يقبلها ويمد يده تحت قميصها، ثم ودع الآخرين وخرج معها. لحقت به إلى موتيل في الضواحي.

- متى حدث ذلك؟

- قبل أيام.

- لماذا انتظرت كل هذا الوقت؟

- كنت خجلة منك، لكن اتصال الفتاة وسخريتها مني كان خاتمة المطاف.

اتصلت به في اليوم الثاني، كانت سوزان مستلقية على الأريكة:

- أندرو، أنا آسف، آسف لما جرى، سآتي وأعتذر لسوزان أنا......

- اسمع يا ويل، سأرسل مساعد محامينا مع سائق ليحضر كل ما يخص سوزان.

- ولكن أندرو أنا.....

- دعني أكمل ويل، سوزان عندها صور لك في المقهى مع بنت الرابعة عشرة، وفي سيارتك، وعلى باب غرفتك في الموتيل، ويل. أنت أحمق، لقد صورك المخبر وسوف يشهد عليك هو وموظف الموتيل وإن أقامت سوزان دعوى عليك فسوف تستدعي الفتاة كشاهدة، ستدخل السجن مطولاً يا ويل.

- أندرو، لماذا تفعل بي كل هذا؟ أنا، أنا لم أفعل شيئاً، أنا لم.

- اسمع، المحامي يجهز أوراق الطلاق، وقعها إذا سمحت وجهز كل أغراض سوزي، الثياب، الكتب، المجوهرات، اللوحات، هل تسمع ويل؟

- أسمع، أسمع. والصور أندرو؟

- حين يتم توثيق الطلاق ستأخذها.

- ماذا تريد سوزان مني؟

- ألا تراك ثانيةً مفهوم.

- حاضر دكتور براون. باي.

ويل إن عاملناه بحضارة ودبلوماسية سيغدو نمروداً لذلك كانت إخافته هي الباب الذي دخلت منه إلى تسوية علاقته بابنتي.

- أبي. هل أنت واثق من أن السي آي إي أو الإف بي آي لم يدربوك؟

- نسيت، ربما أنا دربت عندهم.

ضحكت بارتياح، وعند العصر كان ويل قد وقع الأوراق وأرسل كل ما يخص سوزان ثم حاول الاتصال بها فأغلقت الهاتف بوجهه، فاجأتها في غرفتها وكانت تبكي. جلست قربها فأسندت رأسها إلى كتفي.

- أبي، هذه الثانية، ولن أسمح بثالثة.

- عم تتحدثين؟

- عمر أولاً، وويل ثانياً. لن أتعرض للإهانة والأسى مرة ثالثة.

- سوزان، الحياة لا تعطي المرء ما يستحقه بالضبط، غالباً ما تكون غير منصفة، فإما أن تعطيه أكثر أو أقل.

- دائماً تعطي الأقل.

- انظري إلي، عملي، دراستي، نجاحي، سوسن، ريتا، سوزان، ومارلا أنا أرى نفسي لا أستحق كل تلك السعادات ولكن الحياة أعطتني.

- بينما حرمتني من ريتا، وجدي، وهناك عمر، ثم ويل.

- وهي تدخر لك الكثير يا حبيبتي، الكثير من المرارة أو الفرح، هذه طبيعة الحياة، عديني أن تحتمليني وحاولي أن تسعدي معي قليلاً.

- أنا أحبك يا أبي، وأنا سعيدة معك.

وأنا لو أتمكن لحاميت عنها كل ما يرسم الأسى في عينيها الجميلتين. لكن المطلوب أن تعيش هي وتتألم هي وتفرح أيضاً هي، حين رأتها مارلا في البيت عانقتها وقبلتها من يدها وخدها وقالت لها:

- كنت أعرف أنه لا يستحقك.

- كيف؟ كيف تعرفين؟

- هكذا، الرب حين يجمع اثنين بتسوية مناسبة كما أنا وأبوك فلا شيء يفرقهما، وحين يجمع بينك وبين سنيور ويل فلأنه لا يريد أن تبقي معه.

- الرب ظالم إذن يا مارلا.

- الرب عادل، الظلم منا نحن، اسمعي. ستكونين هنا الليدي سو. في إنكلترا عندهم الليدي دي. عندنا في هذا البيت الليدي سو، كل شيء هنا لك وفي خدمتك، هل تعرفين كم يحبك أبوك؟ إنه ينظر

الى صورتك في اليوم ألف مرة على الأقل. اسمعي يا حبيبتي الفرحة هناك تنتظرك على ذاك المنعطف أو في تلك الساحة، الرب قد يشعرك بالظلم قليلاً لكنه لن يبخل عليك، كل آلام جيريمي ومن قبل جيريمي مسحها الرب بإصبعه حين أرسلني إلى أبيك، انظري إليه ألا يأخذ العقل؟ قبلتها سوزان مراراً، ثم نظرت إلي وهزت راسها بتاثر

وتركتني أنا ومارلا. فتحت لها ذراعي فأقبلت وهمست:

- أندرو، كيف سندبر حالنا الآن؟ أنا أخجل من ابنتك.

- سوزان تريدني سعيداً يا مارلا، وسوزان تحبك كما أحبك، ثم، ثم نحن في البيت وهي في المكتبات أو في الجامعة.

ولكن لا شيء يبقى على حاله، سوزان تعمل وأنا أحاضر في الشهر أو الشهرين مرة، وأنشر مقالة أو مقالتين ونتابع ما يجري في الجهة الأخرى من العالم. مارلا تعيش خمس نهارات في الأسبوع كأنها زوجة لي وأخت كبيرة لسوزان، وأنا حين أحس بأن كل شيء على مايرام أخاف من المجهول، هذا تعلمته في دمشق من كمال راضي، عندما كنا نضحك كثيراً كان يقول: الله يعطينا خير هذا الضحك. كأنه يتوقع أن يضيق الرب بضحكنا فيقدّر ما يبكينا. شارفت رسالة سوزان على الانتهاء كما شارفت الألفية الثانية للميلاد، وإثر مقال يتحدث عن حتمية انتصار المقاومة في جنوبي لبنان كتب أحدهم على سيارتي ليلاً وهي أمام الكراج: (عربي قذر نازي) كانت الإشارة الأولى، ثم لحقت بها إشارات جعلت من استقرارنا قلقاً وأمناً مفقوداً.

«28»

أزمة تلو أزمة

ليس من عادتي الكذب مع أبي، أشعر أنني غير مضطرة لذلك، فأنا لا أخشى أي موقف سلبي منه تجاهي، عاطفة أبي نحوي هي الحب بإطلاق، ربما لأنه عاش وشب وحيداً يفتقر إلى الحب، وربما لأنه قضى سنوات مع السوريين في دمشق، وأنا رأيت كيف يحبون أولادهم، كان العم كمال يقبل نورا وعمر وعطا كلما رآهم، كان أحفاده يجلسون في حضنه وعلى كرسي مكتبه وحيث شاؤوا ملوكاً يتحكمون بكل شيء وتلبّى جميع مطالبهم. أبي هكذا معي لذلك لا أكذب عليه إلا قليلاً، لم أحدثه مثلاً عن (بن كامرون)، إنه أحد المثقفين الذين يعتمد عليهم ويل في تحضير أسئلة مسابقته الثقافية. بن هذا منذ رآني أشعرني باهتمامه، شكله لا بأس به، هادئ مهذب. كنت أحس أن عينيه تلاحظان كل حركة أقوم بها دون أن يترك لي أو لصديقه ويل زوجي فسحة للانتقاد أو الحذر. لكني أعجبه ما في ذلك شك. ولا أدري ما الذي جعل رسالتي ودراستي للغة العربية موضوعاً للحديث. ويل نفسه سخر من تعاطف زوجته مع العرب وسرورها بما يفعله المقاومون في جنوبي لبنان، تلك هي المرة الأولى التي يرتفع فيها صوت بن أنا لم أتوقف مرة عن كون هذا يهودياً أو غير ذلك. التديّن لا يعنيني. كانت أقرب صديقاتي إلي يهودية ولم يكن يهمها ما يجري على بعد شارعين لذلك لا ينشغل بالها بالعرب أو إسرائيل أو حروبهما. وبين زملاء أبي في الدراسات الشرقية بعض المثقفين والأساتذة اليهود لذلك نحن لا نتعصب ضد أحد ولكن لنا تحليلنا الخاص ورأينا فيما يجري، وعندما سمع بن كامرون عن إعجابي بالمقاومة الإسلامية فوجئت بسؤاله:

- هل حقاً سوزان يسرك ما يفعله القتلة الإرهابيون في جنوبي لبنان؟

بدايةً ترددت قليلاً أمام لهجته، لكن الجميع كانوا ينظرون إلي، وويل بالذات هو الوحيد الذي أثار الموضوع، وهو ينظر إلي الآن نظرته المتهكمة:

- من يقاوم جيش الاحتلال مقاوم وليس قاتلاً أو إرهابياً.

- لا أصدق، لا أصدق أن متعلمة وأمريكية ومثقفة تعتبر الإيرانيين المنتشرين في لبنان رغماً عن أهله مقاومين. وضد من؟ ضد الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، والوحيدة التي تحمي المسيحيين فيه إسرائيل.

- لا حاجة للانفعال يا بن، ربما لنا آراء مختلفة أو أحكام متباينة.

- أنت مصرة إذن على اعتبار حزب الله مقاومة. هذا غباء، غباء تام.

- الغباء هو القبول بما يزيفه إعلام إسرائيل وتجاريه وسائل إعلامنا يا بن. أولئك المقاتلون لبنانيون، حتى لو اعتبرتهم أمريكا وإسرائيل وإنكلترا وبعض جمهوريات الموز إرهابيين فإنهم مقاتلون وسوف يهزمون إسرائيل والجيش المتعاون معها من عملائها اللبنانيين.

- لا أصدق، لا اصدق أبداً أن أحداً يعرف القراءة يمكن أن يخطئ في تهجئة لغة أولئك القتلة، لابد أن السوريين قاموا بغسل دماغ أبيك أولاً ثم فعلوا ذلك معك، ما تقولينه يا سوزان يخالفك فيه جميع الأحرار ومحبي الديمقراطية في العالم. لأنه بكل بساطة جهل وغباء.

- اسمع يا بن، لقد كررت كلمة الغباء مراراً، أنت في بيتي وليس هذا من السلوك الحسن، كنا في نقاش فالتزم بآداب النقاش.

- أنت! أنت آخر من يتحدث عن الآداب، الذي يمد يده للأيدي التي تقتل الشعب اليهودي المسالم والملطخة بالدماء لا يتحدث عن الأدب.

وقف والتفت إلى ويل الذي كان يسمع بارتياح تام:

- عذراً يا ويل، أنا لست قادراً على البقاء في مكان واحد مع سوزان.

خرج محتقناً ولحق به ويل، ويومها لم يخطر ببالي أن يكون لهذا النقاش أية نتائج سوى انزعاج ويل لهذا الخلاف مع صديق يتبادل معه الاستفادة، بعد أيام من هذا الجدال قال لي ويل إنه يتمنى لو أن ما حدث لم يحدث. بن كامرون لم ينس، وهو ناقم كثيراً فقلت له: ذلك لأنه متعصب ليس ليهوديته وإنما لصهيونيته. ونسيت الأمر تماماً لأن بن أو بنجامين كاميرون لم يعد لزيارتنا في البيت حتى تلقيت اتصالاً من صوت أجش قال لي شتائم بذيئة ولم أتوقف عنده، لكن حين تكرر ذلك بلغت الشرطة الذين أبلغوني بأن الاتصالين كانا من هواتف الطريق العامة ولا يمكن ضبطها، كانت الرسالة في الاتصال الثالث واضحة: مومس قذرة عاهرة العرب. عندها ربطت الأمور ببعضها وقدّرت أن كامرون قد وضعني في موقع العداء عند إحدى المنظمات الصهيونية العديدة في واشنطن، ويبدو أن صداقة كاميرون لويل والتي عمادها العمل والكسب بالطبع هي التي جعلت ردود الفعل محدودة وحين تم طلاقي مع ويل هدأت الأمور حتى أصبح نافذاً. ويومها طالب ويل بالصور التي نحتفظ بها عن علاقته بالفتاة القاصر، وجن جنونه حين عرف أن قصة المخبر والصور مجرد خدعة، وتصادف أن نشر أبي مقالاً يحلل فيه الموقف بين إسرائيل وحزب الله في جنوبي لبنان ويؤكد حتمية هزيمة إسرائيل حدث ذلك في أسبوع مناقشة رسالتي ومنحي شهادة الدكتوراة. وصحونا لنجد كتابة بالدهان على سيارة أبي. وعادت الاتصالات الهاتفية لتزعجني دون توقف وفي جميع الأوقات. وحتى حين غيرت رقمي لم يستغرق الأمر إلا يوماً واحداً ليعرفوه. وحين بدأت بالتململ جاءتني رسالة جوابية من جامعة كولومبيا في ولاية واشنطن، اقترحت عليهم دراسة عن تأثير الأصول في اللكنة الأمريكية من خلال بحث ميداني، لقد وافقوا ويعرضون تمويل الدراسة ووضع مختبراتهم الصوتية تحت

تصرفي طيلة الدراسة، وعندها صارحت أبي بكل شيء. كانت ردة فعله الأولى التحدي، ثم حين رأى كم كنت قلقة تحولت ردة فعله إلى الخوف علي. وقد ربط بين استعار حملة الاتصالات الهاتفية وغضب بن كامرون. وأطلعني على أن بعض الصحف التي كانت تطالبه بمقالات قد توقفت عن ذلك. وإحداها قد أعادت له مقالته:

- نحن الآن مستهدفان يا ابنتي، فلنبدأ في مكانٍ آخر.
- هل سيتركوننا وشأننا؟
- سنرتب لذلك. اطمئني.
- ومارلا يا أبي؟
- مارلا لها زوجها وولداها وبيتها وعملها، أما أنا فليس لي سواك، اطمئني.

وسرعان ما عرف الجميع أن بروفيسور أندرو براون سيقضي بقية عمره في تكساس مسقط رأسه، وابنته سوف ترافقه بعد أن أنهت دراستها، وهمس أبي لبعض زملائه اليهود بأنه لم يعد يستطيع العيش في وسط لا يقبله، وبدوري أوصلت الرسالة نفسها لويل عن طريق صديق مشترك، كان الهدف أن يظن الآخرون أننا هزمنا وتركنا لهم الميدان، وريثما باع أبي البيت بدأت أنا بالتنفيذ لما اتفقنا عليه، قمت بخزن الكتب واللوحات في مخزن مؤقت تمهيداً لشحنها حين أعطي الأمر بذلك. كان سينقضي شهربين خزنها وشحنها مما ينفي إمكانية التعرف على وجهتها. ودعت كل معارفي خلال يومين ثم ودعت مارلا التي كان حزنها جلياً منذ سمعت بمغادرتنا. كانت مكابرة وصابرة رغم أن حياتها ستغدو جوفاء وقاتمة كما قالت لي، ركبت الطائرة إلى دالاس، ومن هناك وعلى خطوط أخرى ركبت طائرة إلى سياتل، كان علي رؤية ثلاث شقق لأختار واحدة منها، الإنترنت تجعلك قادراً من خلال الشبكة على فعل كل شيء، رأينا صوراً للشقق سلفاً ومواقعها ومخطط المنطقة واطلعنا على الخدمات ونحن في واشنطن، فتحت حساباً جديداً في بنك مختلف ثاني أيام

وصولي إلى سياتل. استصدرت بطاقة رصيد وبطاقة فيزا جديدتين سحب والدي حسابه كاملاً من البنك وأرسله إلي بالويسترن يونيون ضماناً لعدم ملاحقة أحد لنا من خلال البنك. كان حرصنا على الابتعاد عن أولئك المتعصبين مبرراً، انتقيت بيتاً صغيراً في ضاحية قريبة للجامعة، آثرت ذلك على الشقق السكنية، البيت له استقلاليته بينما في البناء السكني تتشارك الخدمات مع الآخرين من السكان، أثثت البيت من المتاجر الكبرى وأجلت بعض المطلوب حتى يصل أبي ثم أوعزت بشحن الكتب واللوحات إثر نزول أبي إلى تكساس. كان سيمكث أسبوعاً فيزور بيت أسرته في أرلنجتون ثم يذهب إلى سان أنطونيو حيث استقرت شيري تالبوت مغادرة أوستن لتلحق بجامعة أولادها. وأخيراً استقبلت أبي في مطار سياتل بعد غياب شهرين عن بعضنا بعضاً. كان سعيداً برؤيتي لكنه حزين لفراق مارلا، كانت مارلا بطريقة من الطرق زوجة ثانية بعد ريتا، لقد ترك لها الكثير من أثاث بيتنا وسيارتي وأعطاها رقم حساب أودع لها فيه خمسة آلاف دولار كي تتصرف بها عند الحاجة، لكن هذا كله لن يعوضها عن مشاركتنا حياتنا كما قال أبي، لقد عرض عليها أن ترافقه لكنها ظلت على موقفها بضرورة الحفاظ على الأسرة، وهذا نابع من كاثوليكيتها وتأثير الكنيسة الإيجابي عليها.

- هل كنت تريدها أن تأتي فعلاً؟

- أنا أعرف استحالة ذلك، لكن أملاً بحل سحري تبتدعه هي هو ما جعلني أقترح عليها ذلك. سألتني هل سأشتغل خمسة أيام في تكساس وأعود في العطلة إلى واشنطن؟

- كانت تسخر من اقتراحك.

- طبعاً، فلو أنني كنت جاداً لجعلتها تحصل على الطلاق خلال علاقتنا الطويلة.

- أبي أنت أردت صديقة لا تحمل عبئها.

- فعلاً، وهي أرادت صديقاً لا يفقدها أسرتها.

- انظر ذاك هو بيتنا الجديد.

- موقعه جميل يا سوزي، أحسنت الاختيار.

باستثناء دمشق ولمدة ستة أشهر لم أعرف لي وطناً غير بيتنا في واشنطن دي سي وهذا البيت الصغير في سياتل من ولاية واشنطن سيكون بيتي الثاني. ولم يطل بنا المقام حتى تمنيت لو أني في واشنطن مع بنجامين كاميرون، كانت الشاشات في كل العالم تنقل الخروج المخزي للجيش الإسرائيلي فراراً من جنوب لبنان وهروب ما ظنوا أنه سيبقى لحماية حدودهم من عملائهم وكانت رايات المقاومة الصفراء ترتفع في كل الأماكن. نحن في البيت لدينا اشتراك في حزمة من المحطات العربية عبر صحن لاقط وعبر الكابل. رأينا ما جرى حقيقةً وكذلك كنا نرى ما يروجه الإعلام المخادع عن انسحاب مشرف وعن استراتيجية ناجحة، لقد اشتفيت وأنا أرى جنود إسرائيل يهللون ويحتفلون بحياتهم التي كسبوها حين انسحبوا من جحيم الجنوب.

- سوزان، أنا أحس بأني انتصرت شخصياً لأني عشت سنوات هناك في دمشق، أنا رأيت بنفسي وسمعت، لذلك لست متعصباً، أنا أتيح لي أن أطّلع على وجهتي النظر ثم انحزت، أريد أن أفهم منك أنت، لماذا ابتهاجك واحتفالك؟ انحياز أم عدوى أم عداء لإسرائيل؟

- أنت يا دادي عشت أكثر من عشرين سنة قبل أن تعرف شيئاً مهماً عن العرب وقضيتهم، أما أنا فمنذ خلقت أعيش جزءاً هاماً من حياتي كأني عربية. تعلمت لغتهم مع لغتي كنت أسمع أخبار كمال راضي وأسرته أكثر مما أسمع أخبار أعمامي، وحين أنهيت دراستي ذهبت إلى دمشق، ودراستي الجامعية ارتبطت بهم وبلغتهم وأنا الآن أجري أبحاثاً فيها الاهتمام بلكنة السوري والعربي مثل لكنة الإيطالي والأسود واللاتيني. أنا غير منحازة لهم، أنا أكاد أحس أني منهم.

أجل ربما هذا هو شعوري الحقيقي بغض النظر عما عشته في دمشق من عاطفة مدحورة فقد عشت فيها سعادة لم تتكرر إلا إبان

علاقتي مع ويل فالكون قبل الزواج، لماذا قبل الزواج؟ لأنها كانت فترة الرومانسية وأنا كما يبدو رومانسية ميئوس مني. أما بعد الزواج فقد أحسست أن ويل لم يكن بمستوى التوقعات، أعني في السرير، والآن أستطيع أن أحلل بعد ابتعادي مكانياً وزمانياً، أراد ويل أن يكوّن أسرة، إن عنده قدرة كبيرة على إقامة علاقات وهو مرغوب به شكلاً وشهرة وشخصية، وقع عليّ اختياره لأني من بيئة مناسبة ولأني أجمل من بقية معارفه، ولأني تمنعت عليه طويلاً، بعد الزواج بقليل اكتشفت أن تخطيطي لحياة جنسية نشطة مع زوجي الشاب لم يكن مطابقاً للواقع، أحبطني ذلك قليلاً، كان التعويض هو وفرة وصخب حياتنا الاجتماعية. أنا ترددت كثيراً في الإنجاب ولم أطاوعه. أحسست إحساساً غامضاً أن إلحاحه على الإنجاب سريعاً لا يستقيم مع رغبة العيش كزوجين شابين حديثي عهد بالزواج، كان هناك شيء ما جعلني أتردد، وتحليلي للأمور هو أن ويل كانت تحت يده وباستمرار فتيات مبهورات به، كل شيء عنده كما يجب ولا ينقصه إلا الأسرة، الزوجة والولد، أنا كنت الزوجة وكان دوري أن أنجب الولد. لذلك بمجرد أن اختلفنا كان بالغ القسوة معي حتى أوقفه أبي عند حده. إذن فقد عشت حتى الآن تجربتين عاطفيتين أخذتا مني كل ما لدي من مخزون عاطفي، الأشهر مع عمر في دمشق وفترةما قبل الزواج من ويل. ما الذي أوصلني إلى وضعي العاطفي الآن وأنا أرتب أفكاري حول انتصار حزب الله وتحرير جنوبي لبنان؟ أجل، دمشق. محبتي لدمشق رغم مغادرتي إياها مهانة ومرفوضة من عمر راضي. أدرك أن تلك الإهانة نبعت من حب جارف أحس به نحوي ثم جاءت الخيبة كي تجعله يقسو علي وأقسو عليه. إذن أنا لست منحازة، أنا أحس أني طرف، وإن كان بنجامين كامرون في واشنطن منحازاً بسبب روابط عنصرية ودينية قهرية فأنا طرف باختياري لأني أعرف أين الحق وأقف إلى جواره.

رغم أن أبي سريع التكيف عادةً مع أي وضع لكني لا أراه قد تكيف

جيداً بعد فراق مارلا، وأنا أضعها في صف واحد مع سوسن ربيع وأمي ريتا، صحيح أنه لم يذكر الحب مرة واحدة لكنه أحبها، أو على الأقل أحب سعادته معها. وساهم في ذلك كما يبدو هذا الالتزام الملتبس بينهما. التزام يبدأ مع قدوم مارلا إلى البيت وينتهي بخروجها إلى حياتها الأخرى، ويأتي غياب مارلا يومي السبت والأحد ليجدد الاشتياق إلى وجودهما معاً، يبقى هو مع كتبه وصحفه ومقالاته وهي تعتني بالبيت، وعندما ترغب هي أو يرغب هو يبدأ عندهما طقس المعاشرة ابتداءً من ملامسة أحدهما للآخر واستجابته له ثم ينتقلان إلى غرفة أندرو في أي وقت، الجنس بينهما كما لاحظت لم يكن له وقت محدد، يمكن أن يدلفا إلى الغرفة في التاسعة صباحاً إثر قدوم مارلا أو أثناء الطبخ أو تنظيف البيت وحتى موعد ذهابها. كانت بارعة في اجتذابه. تعرف ما يعجبه من جسمها أو حركاتها أو أقوالها، وعندما تبذل له وضعاً أو حركة أو قولاً فيستجيب له غالباً ما ينتهي ذلك كما هدفت، كل ذلك يفتقده أبي الآن ولا يعوضه عنه إلا نجاحه في نشر مقالاته على صفحات صحف كبيرة على مستوى أمريكا كلها، لقد أعطى انسحاب الإسرائيليين من جنوب لبنان مصداقية لتحليلات أندرو براون، ويبدو أن أحد مقالاته قد ترجمته جريدة سورية يومية لذلك تلقى اتصالاً من كمال راضي يهنئه بأن صحف دمشق المملة والمنسوخة عن بعضها قد ترجمت له مقالة، وسر أبي بالطبع لذلك.

صارحني أندرو بأن كمال راضي ربما يخفي عنه شيئاً، وهذا الشيء يتعلق حتماً بسوسن ربيع:

- ماذا تعتقد أنه يخفي؟ ولماذا سوسن ربيع بالذات؟

- لأن المنطقي أن يأتي ذكرها عبر السنوات، إنها عمة مايا زوجة عمر، وهي التي ربّتها، لذلك من الطبيعي أن يذكر مرة أو مرتين في السنة أنه رآها، وأنها كيت أو كيت، الصمت عنها وعن ذكرها يعود إلى أحد أمرين، إما جفاء بينهما وإما....

- وإما علاقة بينهما، وأنت يا أبي تخاف من الثانية.

- لا، لا أخاف. ولا يسؤوني أن تجمعهما علاقة ما. يسؤوني الغموض.

- بل قل تسؤوك الوحدة وعدم وجود بديل لمارلا.

- اسكتي، البديل موجود دائماً، أنا ما عدت أحب بذل الجهد.

- عن أي جهد تتحدث؟

- النزول إلى (الداون تاون) واللقاء في هذا المطعم أو ذاك وما يتلو ذلك أو لا يتلوه.

- هل تقيم علاقة من خلف ظهري يا أبي؟

- اسمعوا هذا الكلام، من يحاسب من يا دكتورة؟

- من ناحيتي اطمئن.

- من ناحيتك لن أطمئن أبداً.

- لماذا؟ أنا والله مهذبة ولا أسبب قلقاً.

- إن لم أقلق نحوك فنحو من أقلق يا سوزي؟

يا إلهي، حين ينظر الي أندرو بحنان هكذا أحس برغبة في اللجوء إلى صدره، لكني كبرت على ذلك ولم أكبر على دمعة أغالبها حتى لا تنزل.

خرجت في موعدين طيلة مكوثي في سياتل، الأول مع حفيد مهاجر إيطاي، أبوه ولد في نيويورك وهو ولد في سياتل، وكان أحد الذين أجريت بحثاً في تأثير الأصل الإيطالي عليهم بعد مرور جيلين. كان في الأربعين، لكن توني يبدو في الثلاثين لأنه يتمتع بوجه طفل «Baby face»، وفيه سحر المتوسطيين المحبين للطعام والشراب والنساء، لم يرهبه لقبي العلمي ولا تحفظي الشديد وظل يناكدني في المختبر حتى خرجت معه، أنا لم أسأله عن وضعه، وهو بدوره لم يقل لي، تواعدنا ثلاث مرات حتى قبلني بعنف من شفتي ومد يده بين ساقي ونحن في الشارع العام قرب سيارته ثم قادني إلى غرفة فندق وأمطرني قبلاً غمر

بها جسدي كله قبل أن يلتحم بي. وتكرر ذلك على مدى شهر قبل أن يخبرني بتعذر لقائنا ثانيةً إذ ترفع عليه زوجته قضية وصاية على الأولاد ويخشى أن تكتشف علاقتنا فيخسر القضية. لم يؤلمني ذلك. افتقدت شريكاً جيداً في السرير وليس حبيباً.

الصديق الثاني كان طبيب أطفال، كنت في زيارة لأسرة أحد الرجال من ذوي الأصول الفرنسية، أصر على أن أراه في بيته مع أسرته واستجبت له، عندما خرجت لأستقل سيارتي كانت ثمة سيارة تسد علي الخروج، وكان واضحاً أنها لطبيب، انتظرت ربع ساعة حتى خرج. كان في زيارة طوارئ لطفل مصاب بالربو، اعتذر بحرارة لأنه جعلني أقف بالبرد وعرض أن يعوض علي بكوب قهوة، سألته إن كان أحد أقاربه من الأصول الألمانية، ضحك وقال أبي، لقد جاء إلى أمريكا في منتصف الخمسينيات.

- كيف عرفت ذلك، أهو في الشكل أم الثياب أم ماذا؟
- باللهجة.
- هل تعنين أن لي لكنة ألمانية، مستحيل.
- أنا أقوم بدراسة على ذلك.
- سنتحدث ونحن في مقهى دافئ، اتبعيني بسيارتك.

وهذا ما فعلته، كان مرحاً أنيقاً لكنه لم يكن وسيماً، كان أنفه ضخماً، اسمه مارك، مارك هاينريش آرموت، حدثني عن أبيه هاينريش الذي قدم مهاجراً باحثاً عن مستقبل أفضل بعيداً عن بيئة ما بعد الحرب التي خاضها مثل سواه وخرج منها عاطلاً عن العمل والعلم. عمل هاينريش آرموت مع الجيش الأمريكي حتى بلغ الثلاثين وتزوج من موظفة تابعة لوزارة الدفاع جاءت به إلى سياتل، وقد درس في الجامعة الهندسة الكهربائية ثم اختص بالإلكترونيات ثم انفصل عن زوجته الأولى بعد عشر سنوات من الزواج لأنه اتضح عدم قدرتها على الإنجاب ولم يرغب هاينريش بالتبني. تزوج بعدها من متجنسة كوبية مهاجرة ورزق

بمارك.

- لماذا لم تكتشفي لكنة كوبية واكتشفت الألمانية؟

- ليس في لهجتك تلك اللكنة.

- ربما لأن أمي منذ وصلت إلى أمريكا وهي طفلة اختلطت مع أمريكيين في الملاجئ والمدارس لذلك تلاشت لهجتها تماماً، بينما أبي جاء وهو في الثلاثين.

- هل تعلمت أمك؟

- لم تدخل الجامعة، الثانوية منحتها عملاً في الحكومة واكتفت بذلك.

- تأثير ابيك فيك أقوى إذن.

- وأنت يا دكتورة براون. ما تأثيري فيك؟

- استعداد لنزلة برد بسبب انتظاري إياك في الشارع.

- هل يكفي كوب القهوة للتعويض أم عشاء غداً في المطعم الدوار؟

- أنا أدوخ دون دوران.

- حسناً أنت موافقة على العشاء لكنك ترفضين المطعم الدوار.

وأضحك بالطبع.

- أنا لم أوافق.

- عدم الرفض موافقة صريحة، الساعة السابعة والنصف؟

- حسناً.

كان مرحاً ولطيفاً جداً، ولم يقبلني إلا في الموعد الثاني، وقد قال لي مازحاً: مادمت لم تخافي من أنفي بعد لقائين فلن تخافي من قبلة، وفي الموعد الثالث قال: صدقيني إنك إذا تناسيت وجهي سيعجبك الباقي، كان الباقي جيداً فعلاً لكن وجه مارك لا يشجع على مرة ثانية، نمت معه في بيته ولم أعاود الكرة.

انقض علينا الحادي عشر من أيلول كالصاعقة، نحن وكل العالم،

ونحن بطريقة أخرى أعني أبي وأنا. ومع رئيس مثل جورج بوش الصغير يباهي بأنه يفعل كل شيء بتكليف من السماء فمن المتوقع أن تشن حملة صليبية على الإسلام والمسلمين وبالذات على الذين لا يسلمون أمرهم إلى القطب الأمريكي الأوحد. وتم شن الحرب على أفغانستان وأنا بصراحة لم أكن منحازة فيها. فأولئك الذين دمروا تماثيل عمرها آلاف السنين هم بتحجرهم يساوون غطرسة سياسيي بوش. وهم يريدون أن يسدلوا الحواجز بين الناس ومعطيات الواقع والعلم كما يسدلون أقنعة على وجوه النساء هي لم تكن موجودة في عصور الحريم والجواري. شارك التلفزيون بالحرب وشاركنا كجمهور في الفرجة، لكن ما كنا نراه أيضاً في المحطات العربية هو ذلك البؤس الذي يعيشه أطفال العراق جرّاء فرض المقاطعة على صدام حسين، هو كان يبني القصور ويعيش مع مقربيه حياة ملوك ألف ليلة والشعب يعاني وهو المفروض أنه من أغنى شعوب العالم ثروةً ومن أكثرها سوية علمية وثقافية، وقد لاحظت أن دمشق في ظل حاكمها الشاب قد اقتربت من العراق للمرة الأولى منذ عقود بهدف كسر المقاطعة، وربما لأسباب أجهلها. إسرائيل بدورها أرادت من الإدارة عندنا ومن الإعلام أن يشملاها في الاستهداف من قبل الإرهاب الإسلامي وصدام حسين. وقد كادت تنجح في أوروبا بجعل حزب الله منظمة إرهابية، وقامت باكتساح قطاع غزة عسكرياً، وباستباحة مقر ياسر عرفات في الضفة الغربية، لقد استثمرت تماماً الأجواء المعادية للإرهاب الإسلامي في العالم فجعلت أمريكا تعتبر سورية ضمن محور الشر الذي يضمها مع إيران وكوريا الشمالية، وكان على إسرائيل أن تثأر من خروجها المهين من لبنان. وكنا نتوقع أن تضرب في سورية مستثمرة كل ذلك الضجيج الأمريكي عن تبني سورية للإرهاب والإرهابيين.

أحد الذين شاركوا في الاختبارات كان روسياً اسمه نيكولاي أندرييف، كان ببساطة أبعد الناس عن اليهودية لكنه خرج من الاتحاد السوفييتي ضمن عودة اليهود من أرض الشتات، عاد حقاً ولكن إلى

أرض الميعاد الأمريكية يقول ذلك وهو يضحك.

- دكتورة إن أسرتي كلها في لونج فيو، أريد أن تقضوا عندنا عطلة نهاية الأسبوع، صحيح أن مدينتنا صغيرة لكنها هادئة ومسالمة وسوف يكون الباربكيو على ضفة البحيرة.

نيكولاي في الخمسين من عمره يعمل في شركة أدوية لأنه كيميائي الاختصاص، لكن أسرته تقيم في لونج فيو، ولده وزوجة الولد وحفيدان، ابنته وصهره وحفيدة، وهو ينزل كل أسبوع وكل عطلة ليمضي وقته معهم وأحياناً يزورونه. وله صديقة أرجنتينية تشتغل حلاقة شعر للرجال وقد تعرف إليها في مكان عملها.

- ستذهب معنا غابرييلا أيضاً.

دعوته أثناء إجراء التجارب الصوتية إلى بيتنا للغداء. وقد انسجم مع أندرو وشربا الفودكا وثرثرا مطولاً عن النساء.

- ما رأيك دادي هل نلبي دعوة نيكولاي؟

- هل تذكرين أنا نمنا ليلة في فندق لونج فيو هذه وأكلنا وجبة لذيذة؟

- أذكر طبعاً، حين لم نجد غرفة في تاكوما.

- بل في أوليمبيا.

- في تاكوما أبي، الفندق كان على ساحة لونج يو في...... لا. على شارع أوليمبيا في لونج فيو، الساحة هي سيفيك سيركل (Civic Circle).

- صحيح، بدأت ذاكرتي تخونني.

- لأنك لم تجد مارلا جديدة تحفزها.

- حسناً سنذهب.

خرجنا باكراً متجهين إلى الجنوب، لونج فيو تقع على الطريق العام بين سياتل وبورتلاند كبرى مدن أوريغون، والمسافة تحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل واربعاً إن كنا سنأخذ استراحة في أوليمبيا

أو تاكوما، وقد وصلنا في الحادية عشرة إلى مدخل المدينة حيث كان نيكولاي وابنته في انتظارنا، سرنا خلفهم إلى تجمع سكني جديد كان للشقيقين فيه منزلان متجاوران، منزلان أمريكيان بالكامل لولا الاختلاف في مسيحية المنزل هنا، إذ أن الأرثوذوكسية تبدو واضحة في الصليب والصور والأيقونات.

احتفوا بنا فور وصولنا، كانت روائح الطعام مختلفة عن المعتاد، ووعدونا بغداء في الهواء الطلق نعود بعده لنرتاح في بيت الولد استعداداً للعشاء، كان أندرو قد أحضر معه زجاجة ويسكي اسكتلندي وزجاجة تكيلا وأنا أحضرت قالباً من التشيزكيك. سبقناهم مع نيكولاي لنقوم بجولة في المدينة، كان هناك شارعان متوازيان كما أتصور يقطعان المدينة، والحياة فيها ترتبط بمعامل الخشب على ضفة نهر كولومبيا، لذلك فالسكان في معظمهم بسطاء وليس هناك ازدحام مطلقاً، وعلى ضفة البحيرة الصناعية وسط المدينة كان الناس منتشرين للركض أو التنزه أو لعب الكرة في منطقة سكنية تتاخم البحيرة، أشجار عالية ضخمة وشمس رائعة، سرت وأبي يداً بيد. يا إلهي هؤلاء الناس السعيدون بعيدون كل البعد عن كل تدابير جورج بوش وشحنه الدائم وإخافته حتى الأطفال من الإرهابيين، وصلنا إلى حيث جاءت الأسرتان واحتلوا مكاناً في الحديقة المتطاولة على ضفتي البحيرة، كان هناك مشاوٍ (Grills) منتشرة على أبعاد مناسبة، كل ما عليك هو إحضار قارورة الغاز الصغيرة وتنظيف (الغريلّ) ثم الشيُّ عليه. ارتجلوا طاولة أنيقة بما أحضروه من مفارش جميلة وتوزعت الأطباق وأشرف (أليكسي) الصهر على تزويدنا بالشواء، كان هناك شرحات، وبرجير، وسجقات، وقطع من صدور الدجاج، وهناك صلصات عديدة وسلطات ومخللات وكولا، أكلنا بشهية ثم تنزهنا، ابنة نيكولاي نادية وكنته تانيا صديقتان أصلاً، والجميع يحبون غابرييلا التي ذكرتني بمارلا، الصغار يعاملونها كأنها جدتهم بينما هي لا تزيد ناديا إلا بخمس سنوات، عدنا بعدها إلى البيت، أعطانا فولوديا

غرفة نومه وكذلك أعطت ناديا أباها وغابرييلا غرفة نومهما، استرحنا ولعبنا الورق حتى المساء حيث حضرت الفودكا والويسكي والتكيلا والبيرة والنبيذ. وحضرت أصناف من المقبلات الروسية والأرجنتينية التي جلبتها غابرييلا معها، وسهرنا جميعاً، غنينا بكل اللغات، وأندرو غنى بالعربية أغنية عن الشمس لملحن مصري عبقري اسمه درويش، شرح لهم معناها عن الشمس والأرض والعامل الذي ينهض لعمله ودهشوا لحديث أندرو، وغابرييلا أنشدت شيئاً ما بلغتها كان واضحاً أنه عن تشي غيفارا، ونيكولاي بدا متأثراً وهو يتحدث عما جرى لروسيا العظيمة بعد مجيء غورباتشوف ويلتسين وكيف ذبحوا الناس، هناك صاروا يترحمون على ستالين يا بروفيسور أندرو. هل تصدق؟

عدنا صباح اليوم التالي إلى سياتل، أحسست ونحن نخرج من هذه المدينة الهادئة الوادعة بالأسى، هانحن نعود إلى فوضى سياتل وزحامها الشديد، ولكنا نحتفظ الآن بصديقين، نيكولاي وغابرييلا، لقد مازحت هذه أندرو وسألته إن كان يبحث عن صديقة لأن صاحبة صالون الحلاقة تبحث عمن تواعده، ضحكنا جميعاً من اقتراحها لكن أبي استثمره ليسأل عن مدبرة منزل شاكياً من عجز ابنته عن طبخ طعام لذيذ. وهو على حق في شكواه، أنا بارعة في تحضير مازة أبي الدمشقية ولا أبرع في طهو طعام لذيذ. واقصى ما أفعله هو فتح أكياس الخضار المقطعة وإضافة ملعقة زبدة إليها وتقديم وجبة تشبه ما يقدم للمرضى في المستشفيات. ولم ينس نيكولاي حاجة أبي إذ اتصل به ليسأله إن كان يقبل بسيدة روسية تقوم بكل أعمال البيت إلا الطبخ لكنها لا تقبل إلا بعشر دولارات للساعة. اتفق أبي معه على أن تحضر مرة في السبوع لتشتغل بتنظيف البيت والغسيل والجلي، وهكذا جاءت داريا إلى منزلنا.

- أنا داريا بافلوفنا.

- أنا سوزان وهذا أبي أندرو.

- سيدة داريا هل يمكن أن أناديك داشا؟

دهشت المرأة ونظرت إليه باستغراب لكن نظرة أبي البريئة الضاحكة جعلتها تبتسم:

- إن كنت ترغب.

- سوزان، داشا هو اسم التدليل لداريا، وبطلة ألكسي تولستوي كان اسمها داشا.

- مستر براون، هل قرأت رواية ألكسي تولستوي؟

- قرأتها بالإنكليزية.

- عجيب.

دهشت داريا بافلوفنا من قراءة أبي، ونحن دهشنا من هيئتها، كانت طويلة جسيمة متينة ذات قسمات رجالية، وصار اسمها السري بيني وبين أبي (جوكوف)، هكذا خطر لي أن أسميها متذكرة اسم أحد القادة السوفييت العسكريين، وبالطبع لم تحتل جوكوف مكان مارلا لذلك كان كافياً أن تأتي يوم الخميس فقط لتعمل خمس ساعات بين الثامنة والواحدة ثم تأخذ شيكاً بخمسين دولاراً وتودعنا وتغادر.

انتهت دراستي وقدمت النتائج إلى جامعة كولومبا وتلقيت مكافأة مالية مجزية عدا عن الأجور التي تقاضيتها وسوف تأتيني نسبة من دخل الكتاب الذي سيصدر متضمناً الرسالة ونتائج البحث. وقد عرضوا علي عدة فرص للتدريس وطلبت وقتاً للتفكير. كان المطلوب أن أجلس أنا وأندرو لنتحدث.

- هل تخططين لتحاضري في الجامعة يا سوزي؟ هل هذا ما تريدينه لنفسك؟

- لو كنت أعرف الإجابة لما احتجنا لهذا الحوار يا دادي، قل لي أنت. ماذا تريد لنفسك؟

- ما هو متوفر لي فعلاً، القرب منك والقراءة وأحياناً الكتابة. لست أنا موضوع البحث الآن. أنت عليك الاختيار، عليك معرفة ما تريدين لنفسك. ربما أنت أصغر بروفيسورة مختصة في اختصاصاتك.

- أنا لا رغبة لدي في التدريس.
- بم ترغبين فعلاً، ماذا تريد سوزان براون لنفسها؟
- حياة هادئة مثلك.
- أنا لم أهدأ إلا وقد جاوزت الستين. أنت لم تصلي بعد إلى الثلاثين.
- لا رغبة لدي في العمل الأكاديمي. أنت قل لي لو لم تأخذك دراستك في دمشق إلى العمل الأكاديمي أين كنت تفضل العمل. وماذا؟
- قلت لك الأمر يخصك أنت وليس أنا.
- دادي أجبني، رجاءً أجبني.
- حسناً، انظري إلي. ماذا أفعل الآن وأين أنا؟
- في بيتنا، وكنت تقرأ حتى قاطعتك.
- أنا عنيت أين أجلس الآن؟
- في مكتبتك.

لمعت الفكرة في ذهني، أول ما اشتغل به أندرو كان مكتبة الخارجية وبعدها المكتبة الأمريكية في دمشق. أبي يفضل أن يتواجد بين الكتب. ضحكت مطولاً.

- لماذا تضحكين؟ هل مكوثي هنا في المكتبة مضحك لك يا دكتورة؟
- بل سذاجة الحل. أنت وأنا لنا الهواية نفسها. الكتب والقراءة.
- والتأليف، كتبي أنا مراجع في بعض الجامعات الإنكليزية والعربية إضافةً لأمريكا، ولكني لست مؤلفاً.
- وأنا مثلك، نحن نحب الكتب، وعلينا أن ندير مكتبة.
- أن نملك مكتبة لبيع الكتب.
- وأن تكون منوعة، من الأدب الكلاسيكي وكتب التاريخ والعلوم.
- والكتب المترجمة عن الروسية والعربية واللغات الأخرى.
- لن نختلف.

- سنصبح باعة كتب. هل هذا هو حلمك يا سوزي؟
- سنوفر الكتب للذين يحبون القراءة.
- وسنربح ما يكفي عيشنا وحسب ونعتمد على المقالات والمؤلفات لتنمية مصادر دخلنا.
- أبي، نحن الاثنين ميسوران، إضافةً إلى أن مشروعنا يمكن أن يموله أي بنك.
- بقي السؤال الكبير: أين سنفتح هذا المشروع الثقافي؟
- أين تحب أن تستقر؟ في أرلنجتون مثلاً؟
- لا.
- أين؟
- خمني.
- في واشنطن دي سي العاصمة أم في ولاية واشنطن؟
- لن نعود إلى دي سي.
- إذن في الولاية هذه، على الباسيفيك.
- بالطبع، وليس في سياتل.
- إذن في لونج فيو.
- فعلاً في لونج فيو.

هكذا وفي حوار واحد يتسم بالجنون تم اتخاذ قرار يتعلق بحياة اثنين هما أبي البروفيسور أندرو براون، وابنته البروفيسورة سوزان براون التي هي أنا. وهذان الاثنان اللذان يملكان خبرة علمية مختصة ونادرة قررا أن يذهبا إلى مدينة، بل بلدة صغيرة منسية بجوار الطريق العام (الهاي وي) الواصل من سياتل حتى ما يعلم الله.

عدنا إلى الفندق نفسه الذي نزلنا فيه سابقاً، لم نخبر نيكولاي حتى استقر بنا المقام في الفندق وحين عرف أننا في لونج فيو مثله جاء مسرعاً مع ناديا ابنته وأرادا بكل الوسائل أن نترك الفندق لكنا أقنعناهما أننا قادمان في عمل وربما سنلتقي مع فعاليات من المدينة، والفندق

سوف يناسب أكثر، ودعونا الأسرة كلها وغابرييلا بالطبع إلى عشاء في المطعم الذي نتذكره منذ التسعينات حين أكلنا فيه أثناء رحلتنا الثانية إلى ولايات الساحل الغربي، استمتعنا مجدداً بطعامه ونبيذه الذي اختاره أبي من منطقة بحيرة شالان، وحين سمعوا بمشروعنا تحمسوا جميعاً له. تحمسوا بالأحرى لانتقالنا إلى لونج فيو قربهم، باستثناء نيكولاي وغابرييلا اللذين ربطتنا بهما صداقة في سياتل، قال نيكولاي: كنت أحتمل سياتل وغابرييلا بوجودكما هناك، الآن وأنتما ستنتقلان إلى لونج فيو كيف سأفعل؟ قالت له غابرييلا: ربما سأتركك أنا أيضاً وألحق بهما فراراً منك. وبالطبع ضحكنا جميعاً من مزاح الحبيبين هذا.

عرض علينا الوسيط العقاري ثلاث أماكن على الشارع الرئيسي (شارع المحيط) (Ocean beach highway) وكل منها يصلح ليكون مكتبة، أهمها كان مطعماً مغلقاً أمامه فسحة للسيارات وبالقرب من متجر روس الذي قربه الستارباك كافيه. ولا يبعد عنه كثيراً مخزن هوليود لأفلام الفيديو والدي في دي (D.V.D)، وكان ثمنه مقبولاً ولا يحتاج إلى أي تعديلات، مجرد دهان وأرفف وخزائن وبعض طاولات التصفح. كانت اعتماداتنا وبيانات دخلنا قيد الدراسة في فرع البنك الذي نتعامل مع مركزه في سياتل، وكان علينا أن نقدم دراسة للجدوى كي نحصل على تمويل للشراء والتأثيث وتوريد الكتب واستغرق هذا شهوراً ونحن بين سياتل ولونج فيو وعندما بعنا بيتنا في سياتل انتقل ثمنه إلى بيت جميل يقع على طريق الكانتري كلوب ويفصلنا عن نادي وملعب الغولف سبعة بيوت على الطريق نفسه. الحديقة جمالها ساحر وأشجارها باسقة وارفة ومرآبها يتسع لسيارتين. باختصار إنه بيت واسع ومريح فيه ثلاث غرف نوم وحمامان في الأعلى ومرافق الحياة في الطابق الأول. ركن للطعام وآخر للجلوس والتلفزيون وغرفة مكتب واحدة اتفقنا أن نستخدمها حسب برنامج معلن لا يجوز تجاوزه أو تعديله.

تم افتتاح (لونج فيو جلوبال لايبراري – Longview Global

Library) في 23 شباط من عام 2003 لأنه عيد ميلادي هكذا أراد أندرو وحضرت فعاليات البلدة الإدارية والعلمية والدينية هذا الافتتاح الذي رافقه حفلة شاي كما اقترح أندرو بحيث صفت طاولات خارج المبنى عليها معجنات وحلويات وشرابات غازية وقهوة وشاي، كان باستطاعة أي عابر التوقف وتناول شيء ما. والذي لم نحسب له حساباً هو حاجتنا لثلاثة موظفين، لقد جهزنا كل شيء إلا كادر العاملين، بقي نيكولاي وغابرييلا في البيت مع الصغار وجاءت ناديا وتانيا وفولوديا وأليكسي ليساعدوا في يوم الافتتاح وأسرعت لتخطيط إعلان عن طلب موظفات وحددت موعداً بعد ثلاثة أيام، كل من كان في الافتتاح رأى الإعلان والعديدون سألوا عن الشروط والنوعية، كما لقينا استحساناً من أستاذين في فرع جامعة كولومبيا في لونج فيو لما ضمته المكتبة من تنوع وغنى وأحد القساوسة افتقد وجود جناح للكتب الكنسية، على أية حال أعتقد أن كل سكان هذه البلدة قد عرفوا بافتتاح المكتبة، كان الإعلان عن موعد الافتتاح معلقاً منذ أيام وقبل يومين أزيلت عن الجدران الزجاجية في الواجهة الأوراق الملصقة لحجب الداخل بحيث رأى العابرون ديكور المكتبة، وكان فولوديا من الحشرية بحيث أحصى عدد مائتين وستة وخمسين من الذين شاركوا أو توقفوا أو تناولوا شيئاً، هذا يعني أن مائتين وخمسين عائلة علمت بنا أي ما يقارب الألف شخص على الأقل.

جرّب أندرو الذهاب سيراً على الأقل إلى موقع المكتبة، استغرقه ذلك سبعاً وثلاثين دقيقة في سير معتدل السرعة وأعجبه ذلك رغم أنه استخدم المظلة اتقاءً للمطر، لذلك سارع إلى (روس - Ross) ليشتري رداءً مطرياً له قبعة، كنت قد سبقته وفتحت الأبواب، استقبلت عدداً من العابرين والعابرات الذين دفعهم الفضول للدخول، بعت كتابين الأول عن مايكل جوردان أسطورة كرة السلة الأمريكية والثاني قاموس إسباني - إنكليزي، ثم دخلت جنيفر المكتبة، شابة أنيقة اللباس عادية المظهر، أي أنها ليست جميلة، كذلك ليست خالية منه، لكن ابتسامتها تفصح

عن مودتها للآخرين، تجولت في المكتبة تحت أنظاري ثم اقتربت لتقف أمامي ومدت يدها مصافحة:

- هاي، أنا جنيفر هاربر.
- هلو، أنا سوزان براون.
- هل أجروا مقابلة معك قبل توظيفك.
- ليس بالضبط، هل أنت مهتمة.
- جداً، أنا أعمل في المكتبة العامة بدوام جزئي وعلي أن أحصل على عمل دائم، هل أنت من هنا؟ من لونج فيو؟
- تستطيعين قول ذلك.
- ما الشروط التي يطلبونها؟ الخبرة، عندي خبرة، أنا أتقن الفرنسية أيضاً. هل تحملين درجة جامعية يا سوزان؟
- نعم.
- أعتقد أني مستوفية شروطهم.
- هل تقيمين هنا؟
- تقريباً، في كلسو، كم يعطونك أجراً؟
- كم تتوقعين أنت؟
- ليس أقل من عشرين ألفاً في السنة.
- جنيفر. هل أنت متزوجة؟
- كنت، لقد أمسكت به مع خالتي في فراشي.
- أين؟ هنا في لونج فيو.
- لا، في فانكوفر.
- كندا أم ولاية واشنطن؟
- هنا على بعد أربعين دقيقة، كنت أعمل معلمة لغة فرنسية، جاءت خالتي من بورتلاند لتزورني، هو كان يعمل محاسباً في كوسكو، عدت مبكرة ساعة لأن حريقاً بماس كهربائي نشب في المدرسة، وصلت لأراهما رأي العين، هل تتصورين نذالته؟

- أتصور نذالة خالتك أيضاً.

- هي أيضاً، هل تعتقدين أن لي فرصة هنا؟ أنا أريد أن أستأنف حياتي، ربما أقبل بثمانية عشر ألفاً في السنة إن كان أصحاب المكتبة من ذوي اليد القابضة.

- جنيفر، تعالي يوم الأربعاء وأتوقع أن تحصلي على أكثر.

- أرجو الله أن يصدق حدسك، ليست من عادتي الثرثرة، لا أدري لماذا ارتحت لوجهك الجميل يا سوزان، بائعة مثلك سوف تجذب إليها القراء من كل الأعمار.

- إلى اللقاء يا جنيفر.

كنت قد وجدت إذن أولى الموظفات، ستكون مناسبة وليست لها مطالب كبيرة، وشكلها العادي سوف لا يفسح مجالاً لثرثرة الشبان ومحاولاتهم، وعندما أخبرت أندرو بما جرى قال: لا تتعجلي. ليس هناك فرص عمل كثيرة للمرأة هنا، لذلك سوف يكون أمامك خيارات عديدة. قلت له تعال نتفق على نوعية الموظفة المطلوبة.

- المتزوجة والمستقرة هي الأفضل.

- لماذا يا بروفيسور؟

- لأنها مستقرة.

- هل تعني أني غير مستقرة.

- طبعاً، هل تحتاجين إلى السؤال. تذكري الطبيب ذا الأنف الجميل.

- وماذا أيضاً؟ تذكر أنت داريا، داشا، جوكوف.

ونضحك معاً، لقد تخلص أبي من المرأة المتينة.

- نحن لا نحتاج يا سوزان إلى شابة تعيش مع بوي فريند أو تبحث عن واحد. هناك مخاطر المخدرات والكحول وحتى السرقة.

- هنا.

- للأسف هنا، بسبب ندرة فرص العمل يبدو أن هذا المجتمع

الهادئ يعاني من هذه المشاكل.

- إذن المتزوجة المستقرة أفضل، لكن جنيفر ستعجبك.

- ربما، وأن تكون حوالي الثلاثين وغير بدينة.

- هاأنت تعمد للتمييز العنصري.

ومع ذلك فقد كانت هناك سبع عشرة امرأة ينتظرن وصولي، وفوجئت بوجود نادية ابنة نيكولاي بينهن، وكانت جنيفر موجودة وحين رأتني مالت تهمس لجارتها وأشارت إلي. توجهت إليهن عند الساعة السابعة تماماً وبيدي صندوق كرتوني:

- لتسحب كل منكن رقماً يكون ترتيبها في المقابلة.

وهكذا بدأت أعطي كل واحدة خمس دقائق وأتسلم منها سيرتها الذاتية، وحين جاء دور ناديا:

- لماذا لم تخبريني برغبتك يا نادية؟ أنت لا تحتاجين لمقابلة، أنا أحتاج إليك.

- أريد فرصة عادلة يا سوزان، ربما بين السيدات عشر هن مناسبات أكثر مني.

- ما الذي تجيدينه؟ ما هي خبراتك السابقة؟

- محاسبة الزبائن، أنا خبيرة في قبض الثمن بوساطة بطاقات الاعتماد أو نقداً. سترين أماكن عملي في سيرتي الذاتية، وأنا أحسن العمل على الكومبيوتر.

- ماذا عن ابنتك؟

- في المدرسة، وعند العودة تستقبلها تانيا مع أولادها.

- هل أليكسي موافق على عملك؟

- بالطبع وشهادتي ليست جامعية كما تعرفين.

- حسناً يا نادية، سوف أتصل بك.

- شكراً سوزان.

ربما جميعهن ستكون درجاتهن العلمية أفضل، وسيرة حياتهن

حافلة أكثر لكني لن أفوت فرصة استخدام نادية، وجودها في المكتبة سوف يبعث في الاطمئنان.

- أنا جنيفر هاربر هل تذكرينني؟

- بالطبع يا جنيفر، تفضلي بالجلوس رجاءً.

- يقلن في الخارج إنك مالكة المكتبة.

- أنا وأبي.

- هل صحيح أنك بروفيسورة؟

- صحيح.

- يا إلهي، وأنا ثرثرت معك وحدثتك عن كل تلك الفضائح في حياتي.

- أعتذر منك يا جنيفر. لم أتعمد الإطلاع على ذلك. قولي لي بصراحة. لماذا قد أختارك؟

- تقصدين أن أتحدث عن نفسي.

- أقصد لماذا ترين أنك مؤهلة للعمل في المكتبة؟

- لأني أحب الكتب، أنا لا أدخن ولا أشرب كثيراً وليس معي نقود للسينما، لذلك أقرأ وأحب أن يقرأ الناس، أنا درست الفرنسية ودرّستها وقد لاحظت أن لديكم ركناً للأدب المترجم وفيه العديد من المؤلفات الفرنسية التي قرأتها بلغتها. هذا كل ما...... لا... أنا أيضاً أحب الناس، صدقيني، حتى خالتي، حتى النذل جوني، أنا لا أحقد عليهما.

- شكراً يا جنيفر، سنتصل بك.

- شكراً.

هذه أيضاً ستكون بجانبي، أنا مرتاحة لها كليةً، أما الثالثة فكانت لورا بيرل زوجة في الخامسة والثلاثين عندها طفلة في الثامنة زوجها موظف في بنك وتحمل إجازة في إدارة الأعمال، سبق لها العمل في شركة الأخشاب حتى بدأت طفلتها السير، عندها تركت العمل وتريد الآن أن تشتغل.

- أين ستتركين طفلتك مساءً يا لورا إن لم يكن زوجك متوفراً؟

- وهل من مكان أفضل من المكتبة يا سوزان؟ تجلس هنا وتكتب دروسها أو تقرأ أو تستمع إلى أغانيها بسماعة على الأذن.

- مع الشيبس والساندويش والكولا.

- لا، لا شيء من هذا. فإن أتت وربما يحدث هذا مرة في الأسبوع أو لا يحدث فإن (مارينا) وهذا هو اسم ملاكي الجميلة ستكون هادئة، أعدك بذلك.

- لماذا مارينا؟ تضحك لورا.

- لا أدري. أمي سمتها، كان ثمة لحن أو أغنية ذات يوم عن مارينا.

أبي تذكر الأغنية، كانت لحناً إيطالياً، ووافق على خياراتي، وسرّ مثلي لأن نادية أندرييفا ابنة أليكسي تقدمت بطلب العمل. وهكذا قررنا أن تجلس نادية على صندوق المحاسبة، وجنيفر تتولى جانب الكتب الأدبية والمترجمة. ولورا جانب الكتب العلمية والأطفال.

- وأنا يا بروفيسورة؟

- أنت تدير ابنتك، وابنتك تدير ما تبقى.

كان مشروعنا في بداية انطلاقه وكنا سعيدين في بيتنا الجميل وفي مكتبتنا الأنيقة، اتصلت بالموظفات الثلاث لتهنئتهن، وفاجأتني نادية بفكرة أن يكون للموظفات ثوب عمل موحد على صدره اسم الموظفة في لوحة صغيرة، وسرّ أبي بالفكرة أما جنيفر فقد بدا عليها الفرح من صوتها وحين قلت لها إن راتبها السنوي سيكون أربعة وعشرين ألفاً دهشت:

- ولكن دكتورة سوزان لقد سمعت مني أني قد أقبل بثمانية عشرة ألفاً.

- لن أستغل ثقتك أو حاجتك يا جنيفر.

- لن تندمي بحق الرب يا سيدتي.

جاءت الثلاث صباح الجمعة، كن سعيدات، عرفتهن ببعضهن بعضا

ثم قدمتهن لأندرو الذي رحب بهن وتمنى لهن التوفيق في عملهن.

- سأكون أنا وسوزان في مكتب الإدارة، لنقرأ، أو للمساعدة في حال احتاجت أي منكن إلينا. هناك مهمة أخرى تتناوب عليها كل من لورا وجنيفر هي استلام طرود الكتب وإحصاؤها عند التسلم، أنا وسوزان سنكون مسؤولين عن إرسال الطلبيات. نادية ستقدم لنا كشفاً يومياً بما يتم بيعه يومياً، على معلومات الكومبيوتر أن تكون مطابقة للموجود على الرفوف أو في مستودع المكتبة. أي مهام جديدة ستنشأ في المستقبل سوف نتباحث في شأنها. هل من سؤال؟

- الأجور؟

- في 14 من الشهر و28 منه، ولا تطلبن سلفاً أبداً، لن أوافق.

- حسناً.

- اذهبن ليأخذوا قياساتكن سيكون لكل منكن ثوبان خارجيان، اختارت لكن سوزان لون العاج الجميل.

وهكذا أقلعنا فعلياً في بداية آذار من عام 2003 ولم تمهلنا الأحداث كثيراً لأن طائراتنا وصواريخنا بدأت بتهديم العراق بغية القضاء على أسلحة الدمار الشامل المزعومة، وتسمرنا أمام أجهزة التلفزيون نرى الدمار الشامل الذي تلحقه قوات التحالف ونسمع إلى كبار المسؤولين يتحدثون عن تحالف صدام مع القاعدة. وعن الديمقراطية التي ستتحقق للعراق تحت جنازير دبابات المبعوث السماوي جورج بوش الثاني. تم احتلال العراق وبدأ نهب كنوزه التاريخية، ووضعت هاليبرتون يدها على البترول العراقي. واكتظت السجون وفاحت الروائح القذرة، كدنا نعتزل العالم أندرو وأنا، لم نشأ أن نشارك أحداً بأفكارنا، فما الذي سوف نقوله وما الذي ينفع تجاه مخططي وزارة دفاع رامسفيلد ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم من أنصار شارون واليمين الصهيوني.

شهدت المكتبة رواجاً، الشعب في أزمة. لذلك يتجه إلى ما يلهيه عن محنته، والقراءة وسيلة من الوسائل لشريحة عمرية وثقافية معينة كما

هو الصخب أو الكحول للأسف، ووجدت نفسي للمرة الأولى أمارس الرياضة الصباحية، كنت أجري حتى تحت المطر ولكن ليس في حالة الرياح، أندرو كذلك أخذ يهتم بأمور البستنة للمرة الأولى في حياته. أحب الأزاهير التي زرعها مالكو البيت السابقون وأراد الحفاظ عليها وتنميتها فصار يتعامل مع مشتل ويقرأ عن العناية بالنباتات. نيكولاي وغابرييلا يفكران بالزواج، نادية وأخوها فولوديا يلحان عليهما ليأتيا إلى لونج فيو. يستطيع نيكولاي أن يعمل مستقلاً أو في شركة الهاتف أو الكابل. وبالطبع غابرييلا عندها إمكانية تأثيث صالون حلاقة أو المشاركة في صالون قائم، رضخ الاثنان أخيراً ومع نهاية 2003 استقرا في لونج فيو وأقامت الجالية الروسية لهما زفافاً جميلاً، وفي الحفل قدمت لنا تانيا السيدة فيرا ميشكوفا قائلة: فيرا تبحث عن عمل وهي تجيد تدبير المنزل والطبخ الروسي والأمريكي وحتى المكسيكي. وحين رأيت فيرا وابتسامتها الخجول وقوامها الذي حافظت عليه وهي في الخامسة والأربعين وخاصةً صدرها الجميل عرفت أنها سوف تحل محل مارلا في وقت قريب. وهكذا دخلت فيرا بيتنا وحياة أندرو الذي استعاد بعض تألقه عندما استقرت حياته الجنسية وأنا لجأت إلى الرياضة. كانت أمور المكتبة تسير بكل سلاسة، نحن نستطيع أن ندفع أجور الموظفات وقسط البنك وبعض فواتير دور توزيع المطبوعات، في الأشهر الأولى كنا ننفق على حياتنا من احتياطنا في البنك. ثم تكفلت المكتبة بنفقاتنا. وصار على أندرو أن يكتب تحليلات أكثر حول تورط أمريكا في حرب العراق، لقد كانت آراؤه الموضوعية تلقى القليل من الترحيب والكثير من التنديد بسبب غلبة مؤيدي بوش والمحافظين الجدد على بعض مؤسسات الإعلام إضافةً الى جماعة اللوبي الإسرائيلي والإيباك.

ليس هناك ربيع أو صيف أو خريف بجمال هذه المنطقة، كنا أحياناً نسير متجولين حول منطقة سكننا سواء باتجاه الأوشين بيتش هاي واي حيث الوول مارت أوفر يد ماير وهي محلات البيع الكبيرة التي ضمن

سلاسل في جميع الولايات. ونعجب بألوان الأشجار وأوراقها بدءاً من الأحمر النبيذي تدرجاً إلى الأصفر الليموني وما بينهما. نعجب بالحدائق وأسوارها النباتية، بالهدوء والسكينة بتزيينات الأشجار التي يقصها فنانون تخرج الشجرة من تحت مقصاتهم تمثالاً أو لوحة. كل شيء كان يعجبنا في حياتنا ولكن ما يجري هناك في دمشق ولبنان لم يكن مريحاً. أصدرت أمريكا قراراً من مجلس الأمن ضد رئيس لبنان المتحالف مع السوريين وحزب الله لأنه مدد له. ربما لم يسع السوريون جيداً لعرقلته ولكن الفرنسيين وهم حلفاؤهم بالأمس ضد غزو بوش للعراق، هؤلاء الفرنسيون ربما شعروا أنه لابد من عودة تحالفهم مع الأمريكيين وبوش أو ربما حدث خلل في علاقاتهم مع دمشق لذلك كانوا الذين تبنوا إصدار القرار وملاحقة تنفيذه. قال لي أندرو: سوف يكون لقرار مجلس الأمن دور كبير في وقت من الأوقات. وفجأة تم اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق وفي اللحظة الذي أذيع فيها النبأ كان الاتهام يوجه إلى السوريين وإلى حلفائهم، قال لي أندرو: لقد وجدوا مدخلاً الآن للعبث بالداخل السوري، والهدف سيكون مقاومة اللبنانيين ومقاومة الفلسطينيين. النظام في دمشق ليس له بديل. ولن يستطيع من تسميه السي آي إي معارضة أن يدخلوا دمشق على الدبابات الأمريكية كما فعل بعض العراقيين. سيرحل السوريون من لبنان.

- لماذا يتوجهون إلى دمشق بالعداء بدل حل مشاكلهم في العراق؟

- إنهم يريدون، الإسرائيليون والأمريكيون للأسف. الجهتان. يريدون رأس المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق.

- على دمشق إذن أن تفوت عليهم الفرصة، ليخرجوا من لبنان، ولتبتعد دمشق عن الاستفزاز.

- كيف؟ حتى لو بنت حولها سوراً كاملاً يمنع أي اتصال مع الدول المجاورة ستظل الاتهامات تنهال عليهم. إنهم في ورطة. الطرفان في ورطة.ولا أعرف كيف سيحل الزمن كل هذا التأزم.

وأنا نفسي لا أعرف كيف أحل التأزم المتعلق بي. صرت أنظر إلى أجساد الذكور المهرولين كل صباح باعتبارهم مشاريع لحفلة مضاجعة عنيفة. كنت منذ الطبيب ذي الأنف لم أدخل سرير أحد ولم يدخل أحد سريري. كنت في فقر وحاجة حين وقف أمامي هذا الشاب الجميل الجسيم. وبمجرد أن تكلم أدركت أنه عربي، ثم سوري، وعلى الأغلب دمشقي. أعاد إلى ذهني مباشرةً نغمة صوت عمر لذلك كان جفائي معه. أندرو لامني وأنا لمت نفسي لكن ما حدث حدث. رمقني بعدم فهم وجفاء وخرج. هل أردت معاقبته على ما فعله عمر؟ كيف وأنا قد سامحت عمر نفسه، واعتذرت له مباشرةً. أعرف أن ما استفزني فيه هو جسمه الممشوق البادي القوة، ثم سؤاله عن روايات جيدة جاءت حديثاً للمكتبة. والأهم من هذا كله، حين كنت أراقبه كنت أتمنى لو تطوقني ذراعاه وربما عوّلت على ملاطفته لكن خيبتي حدثت حين سمعت لكنته. هذه الخيبة التي تعني استبعاد حصولي عليه جعلت مني بائعة ينفر منها الشبان الوسيمون بدلالة خروجه دون أن يعاود النظر إلي.

« 29 »

دنيا صغيرة

كيف استطاعت شابة تعمل في مكتبة في لونج فيو من ولاية واشنطن أن تعرف كون ولدي مالك عربياً، هذا ما حيّره حين وصل إلى البيت. بمجرد أن رأته قالت مسرة: الله يعطينا خيره. مالك ليس على عادته. روى لنا ما حدث له، قلت له: ماذا قصدت بقولك لها: ليس فيك شيء عربي. هذا أولاً تدخل منك في شخصها باعتبارك نفيت عنها كل ما يتعلق بالعرب. ربما كان أبوها عربياً أو أمها وحين قلت لها ما قلته أجابت بغضب. فسألته مسرة: لماذا لم تر فيها شيئاً عربياً.

- ربما كنت على خطأ، ربما عيناها عربيتان.
- وربما كانت من إسرائيل وتعرف العربية.
- هذا ما خطر لي يا أبي.
- لا تهتم يا دكتور، إنها حادثة عرضية.
- تميم. هل ستأكل معنا؟
- لست جائعاً بعد، كلا وحدكما، ناولني الكتب التي اشتريتها.
- هل أصب لك كأس نبيذ يا أبي؟
- ليس الآن.
- أبوك ينوي الليلة أن يشرب كأساً، كل شيء جاهز.
- لذلك كل ما يسد جوعك يا مالك. احتفظ بمكان للعرق ومازته.
- أوكي بابا.

الحق معه في أن يغضب وأنا سآخذ له حقه. عندما وصلنا إلى لونج فيو لنستقر فيها كان قد سبقنا طبيب أسنان سوري اسمه هاني كان وزوجته هزار السوريين الوحيدين في لونج فيو وكانا على وشك

الانتقال إلى كاليفورنيا. لم نرهم إلا ثلاث مرات، حين سمعا بقدومنا اتصل الدكتور هاني بالمستشفى وتحدث مع مالك وزارونا في الليلة نفسها مرحبين عارضين خدماتهم، ثم استقبلونا في بيتهم الجميل مرة وجاؤوا إلينا مودعين قبل سفرهم بيوم. كان الدكتور هاني قد قضى عدة سنوات هنا في لونج فيو ثم وجد فرصة في سان دييغو فقرر الرحيل، كنا إذن العرب الوحيدين في المدينة، ذكر لنا هاني قبل سفره أن اختيارنا للمدينة موفق جداً فأهلها ودودون ولطفاء، سألناه عن وجود يهود فذكر أنهم موجودون لكنهم قلة لذلك ليس مؤكدا أن تكون عاملة المكتبة إسرائيلية، حتى وإن كانت، فلن نعود إلى المكتبة وصلى الله وبارك.

وضعت كتب الفحص الأمريكي بين يدي مالك منذ السنة الرابعة في كليته، كان معدله خلال السنوات الثلاث الأولى يقارب الثمانين في المائة. ليس لأن القانون يقول: لا تعطى الشهادات عند التخرج إلا لمن يفوق معدله السبعين في المائة، والباقي عليه أن يؤدي الخدمة الإلزامية، لم يكن هذا سبب تفوقه أبداً، لأنه غير مدعو للجندية باعتباره وحيدنا، ثم إنه منذ الحضانة كان يسبق عمره في كل شيء، في الثانوية وفي كلية الطب كان من الأوائل، كان بين يديه دائماً كتب ومراجع إنكليزية، قرأ فيها كما كان يقرأ بالعربية إذ حرصت على أن يكون مالكاً عنان اللغتين باعتباري خريج أدب إنكليزي ولأن مسرة عمري كانت أيضاً مثلي في إتقانها الإنكليزية، لذلك حين تقدم للفحص الأول (Step 1) وقدمه في القاهرة وكنا معه خرج مطمئناً إلى نجاحه وبعد شهرين وصلته النتيجة، كانت علامة (91) من العلامات المرتفعة جداً، وحين رأى مستويات علاماته علق بقوله: أدركت أنني لم أعط الطب النفسي والتشريح المرضي حقهما، إنه يريد أن يتخصص في أمريكا، يقول إن البورد الأمريكي شهادة يطمع بها كل الأطباء في العالم،ولأن مسرة كانت تخاف عليه من البعد عنها فإنها لم تكن متحمسة لأمريكا، ولأنها تعلم بكراهيتي للسياسة الأمريكية وما تفعله في منطقتنا وفي العالم فقد كانت

تستعديني على فكرة سفره هذه لكني لم أكن أستطيع أن أحرم مالكاً من أي شيء. وعندما كان يجابهها بإصراره كان جوابها الغاضب دائماً: رجلي على رجلك.

صالح نعمان صديق المرحوم أبي الذي أقعده العمر والمرض في بيته حين زرته عائداً مع الأستاذ المحامي راتب مأمون سألني عن مالك ومشاريعه فأخبرتهما بما ينويه عندها نصحني الحاج نصيحة هامة إذ قال لي: أمّن له أكثر من قبول للتدرب في جامعات أمريكية، ودعه يحصل على تأشيرة خروج يسافر بها إلى أمريكا للتدرب. وهكذا عندما يأتي الوقت للاختصاص سوف يكون حصوله على الفيزا سهلاً. إنهم لا يمنحون الآن الفيزا إلا بطلوع الروح. فعقبّ العم راتب بقوله: مع أننا نرسل لهم أولادنا ليشتغلوا في مشافيهم كالحمير بهدف هذا البورد المرغوب. فعلق صالح نعمان: نرسلهم فتعجبهم الحياة الإمبريالية يا رفيق راتبوف فلا يعودون. إن أكثر من خمسة عشر ألف شاب سوري معظمهم من الأطباء لم يعودوا فما قولك بحياة الإمبريالية التافهة؟ صحيح أن صالح نعمان لم يعد بعثياً منذ زمنٍ بعيد لكن المشاحنات مع راتب مأمون لازالت كما هي منذ عرفتهما وأنا فتى صغير، المهم أن هذه النصيحة قد أثمرت. وذهب مالك في سفرة تدرب إلى موبيل في ولاية ألاباما للمشاركة في شهر يقضيه مع طلاب الجراحة، وشهر يليه في شيكاغو مع قسم الداخلية، وحين عاد كان معجباً دون حدود بالمشافي التي تدرب فيها، وقد حصل على توصية من كل جامعة. وقد أنهى السنة السادسة من الكلية وأنهى معها دراسة مركزة لكتب الفحص الثاني (Step 2). كانت مكتبتنا توفر لطلاب الطب الراغبين كل الكتب التي تصل إلينا أولاً بأول ومن دور نشرها مباشرةً بينما كان سوانا يستحضرها عن طريق قادمين بنسخة واحدة يصورونها أو عن طريق بيروت والسعودية، نحن كانت تصلنا نسخ أصلية تلبي حاجة من يريد. ولأنه أثبت أنه تدرب على الجراحة بما يسمونه (ستاج الجراحة) في

رحلته الأمريكية، كان لديه الوقت ليقدم الامتحان الثاني، وريثما تخرج بمعدل ثمانٍ وسبعين في المائة جاءت نتيجة الفحص الأمريكي الثاني وعلاماته فيه / 96/ مما جعله وجعلني في غاية السعادة أما مسرة فقد أحست بقرب سفره، عزيتها بأن ابننا يستحق هذه الفرصة وبأننا سوف نزوره إن قدر له الاختصاص هناك.

هل ذكرت لكم أن مالكاً كان الحبيب الموعود لكل بنات الخالات والأخوال، حتى ضياء النمشاء قالت مازحة لمسرة ذات يوم: خطّبيني ابنك لابنتي وإلا خطفت لك زوجك. ما شاء الله ابنك أحلى منك ومن أبيه. صحيح أنه أحلى مني ولكن أين مثل مسرة؟ حين تخرج مالك عام 1996 كنت في الخمسين وكانت مسرة في الثامنة والأربعين وكانت إذا دخلت مكاناً عاماً تخطف الأبصار، لازالت ممشوقة كعارضة أزياء جميلة الوجه. حبيبة قلبي ليس مثل مسرة بين النساء. كان الأطفال الذين يدخلون عيادتها يحبونها ويسمعون كلامها وكان بينهم من بلغ العشرين من العمر حين تخرج مالك وكان يسره أن يقف شاب ليصافح أمه ويسأل الدكتورة إن كانت تتذكره فهو فلان الذي أمه فلانة وقد حكّمته وقالت له كيت وكيت. مسرة كانت تزدهي حين يحدث معها مثل ذلك. لازال فرج الأسمر يعمل في المكتبة، بل هو كل إدارتها لأنني ما عدت أباشر الإدارة، كنت أعطيه أجراً مرتفعاً يستحقه وسجلته في التأمينات كي يحصل على تقاعد وحين تزوج ساعدته بمائة ألف ليرة. وأولاده كبروا وتخرج واحد منهم من كلية الزراعة، هل تذكرون سمر؟ هل تذكرن أمها التي سببت لها النزول إلى الشارع لقمة سائغة. سمر رغم أنها استأصلت الثدي الثاني لكنها لم تسلم وحين كانت تحتضر أرسلت من جلب أمها العجوز، كان زوجها الذي شرد سمراً قد مات بسبب كبده وكان للأم عدد من الأولاد المشردين هم بالمحصلة أخوة سمر، ودعتني بالهاتف ولم تخبرني أين هي وأكدت أن ما تركه لها عبد المالك سيدفن معها وضحكت حين استنكرت أنا جلبها لأمها سبب همومها. فقالت: ليس

لـي إلاهـا وأنـت، أنـت بحمـد اللـه لا تحتـاج مني شـيئاً، تظـل هي أمي وسوف أسترها في آخر عمرها.

مالك كانت له أكثر من صديقة، منذ أيام الثانوي كانت له محبات، ذات مرة وكان في السنة الثانية حمل إلي تحية من دينا رمّاح، قالت له إنها ابنة وليد. حذرته مباشرةً من مرافقتها. ضحك وسأل: لماذا؟ قلت له لأني أعرفك يا دكتور. وهذه ابنة صديقي. قال: إنها حلوة، حرام عليك.

- إن رغبت خطبتها لك الآن، أمك وأنا نرغب في ذلك.

- يا أبا مالك، هذا لن يكون قبل أن أبلغ الثلاثين على الأقل. لذلك أرح بالك إذا سمحت ودعنا من بنت صديقك وسواها، لكنها حلوة.

هكـذا كان طبعـه، يحـب المـزاح مـع ذويـه ومع الأقـارب، خالاته مغرمات به أكثر من بناتهن. سليمة دائماً تناكده وتقول له: من حظ أمك يا عين خالتك أنها كانت أصغر من تميم لو كنت أنا الأصغر لكنت ابني أنا. فيقول لها: وما أنا إذن؟. ألست ابنك؟ فتقبله وهي تقرأ له وتسمّي عليه. كانت له سيارة منذ السنة الثانية، وقد غيرتها له بأحدث في السنة الرابعـة، ولابـد أنـه كان يشـرّق ويغـرّب، تقـول أمـه إن كل زميلاتهـا في الكلية من المعيدات والأستاذات يحدثنها عن مالك ومطاردة الحلوات له وأطمئنها لأن مالكاً في رأسه مشروعه الخاص.

أرسل طلبات إلى عشرين مستشفى مع نسخ من رسائل التوصية، فجاءته استدعاءات لستة عشر مستشفى. تقدم بهذه الرسائل إلى السفارة هنا فمنح تأشيرة سفر كان عليه أن يجري مقابلات خلال شهرين متجولاً مـن ولايـة إلـى أخـرى. عبـر القطـارات أو الطائـرات أو الباصات وربما من خلال اسـتئجار سـيارات. وكان لا يسـتطيع الذهاب بأكثر من ثلاثة آلاف دولار خـارج سـورية. لذلـك نصحنـي صالـح نعمـان بـأن أعطـي خالتـه المبلـغ الـذي أريـد هنـا وابن خالته المقيم هناك سـيعطيه لمالك. تم الاتصال بالرجل ووافق. عندها سـلمت خالة صالح مبلغ خمسـمائة ألـف ليـرة وسـيحصل مالـك علـى عشـرة آلاف دولار في بوسـطن التي

سيجري فيها مالك ثاني مقابلة له. كان ابن خالة صالح نعمان محامياً في شركة محاماة كبيرة هناك. وقد فوجئت به يتصل بي بعد أن غادره مالك، رحبت به وقد أمسكت قلبي بيدي، لكن ما اقترحه علي أدهشني، قال: خذ مني نصيحة، ابنك ذكي ووسيم وفيه كل ما يشد إليه البنات هنا. وقد يستجيب فلا تسمع إلا وقد تزوج. وأنا عندي ما يمنع ذلك. قلت له: إنه لن يتزوج قبل عدة سنوات. فقال: إن هنا فتيات هن على قدر من الجمال يغوي الرهبان، وسيكون مالك لقمة شهية لهن، ربما لا يرغب لكنه قد يقع. سألته وما الحل عندك؟ قال: دعني أزوجه هنا من أمريكية بعقد صحيح وموثق وباتفاقية مالية أشرف عليها وسوف يحصل على الإقامة مباشرةً لأن مكتبنا على صلة وثيقة بجماعة الهجرة. وهذا سيكلف ألفين وخمسمائة دولار عند الزواج. ومثلها عند توقيع أوراق الطلاق، فكر في الأمر. لقد عرضته على ولدك حين كان في بوسطن وقد هاتفني من أوهايو لأتصل بك وأقنعك. سجل رقم هاتفي وفكر بالأمر فإن وجدته مناسباً اتصل بي. صدقني هذا لمصلحة ولدك. ولا ناقة لي ولا جمل إلا الخدمة. لقد أوصاني ابن خالتي الحاج صالح بولدك كثيراً. قلت له: وهذه العروس أين نجدها. ضحك وقال: أنت لا تستطيع أن تجد شيئاً. إنها في الثلاثين وهي موظفة في مكتب النسخ الذي نتعامل معه، سبق أن زوجناها للبناني، ولن تمانع في الزواج ثانيةً.

ما قاله المحامي بعث فيّ القلق، ما حاجة مالك لهذا (الجرين كارد)؟ سوف يتقدم للاختصاص حيث يقبلونه، فلماذا يهمه أن تكون له إقامة؟ سألته في أول اتصال بيننا عن الغاية فقال: أنا سوف أحصل على اختصاص في الداخلية. هل يكفي؟ أحتاج إلى اختصاص أدق، هضمية، عصبية، قلبية، مهما يكن. إن فرصة توفير ذلك الاختصاص العالي لمن يحمل الإقامة أفضل بكثير، ثم إن الحياة أسهل لحامل (الكرت الأخضر). سألته: هل سيكون لذلك تبعات اجتماعية أو مادية؟ فقال: كبّر عقلك أبا مالك. أي تبعات اجتماعية؟ كل الموضوع هو كسبها لخمسة آلاف

دولار وحصولي على الإقامة، المحامون هنا يضعون أيديهم على البلد كلها وشركة الأستاذ (سامي) هي من الشركات الكبرى في بوسطن على صعيد المحاماة. أحسست أن مالكاً متحمس وراغب لذلك قلت له: إن كنت مطمئناً فلا مانع لدي. فطلب مني نسخة مترجمة عن بيان ولادته وأعطاني عنوان المحامي، ذهبت مباشرةً إلى صالح نعمان وحين سمع مني عن الموضوع قال: لا تقصر يا أبا مالك. صحيح أن دائرة الهجرة هناك صارت تتشدد أكثر وتدقق في معايشة الزوجين ونفقاتهما وغير ذلك، لكن المحامي النمس مثل ابن خالتي سامي قادر على النفاذ من خلال قوة شركته. اطمئن ولا تقلق مثل هذه الفرصة المعروضة على مالك يتمنى العشرات بل المئات حصولهم عليها. اذهب واعبر من أمام السفارة الأمريكية وسوف تجد صفاً طويلاً كل يوم من الساعين إلى الحصول على فيزا. ثم إن كان مع مالك الكارت الأخضر فإنه يستطيع المغادرة والعودة إلى أمريكا، وهنا ليس عنده مشكلة جندية وبذلك يستطيع القدوم إليكم كل سنة. سواه ممن يختصون لا يجرؤون على الخروج لأنه لا ضمانة أن يعطيهم القنصل فيزا جديدة يعودون بها. لقد سمعت عن مآسٍ كثيرة لشبان خسروا اختصاصهم لأنهم غامروا بالعودة.

أقنعني صالح نعمان أكثر من المحامي سامي وابني مالك. وهكذا اتصلت بسامي على الرقم الذي أملاه علي وتركت له رسالة على المجيب الآلي فيها موافقتي وأسأل عن كيفية إيصال مبلغ آخر لمالك. وأبلغته أني أرسلت بوساطة (DHL) بيان الولادة، قمت بكل هذا طبعاً دون أن أشرك مسرة لأن مجرد الفكرة كانت ستدفعها إلى الخوف وسوف يتحول ذلك إلى كابوس يومي. مسرة الدكتورةالذكية حين يتعلق الأمر بمالك تغدو مجرد أم لولد وحيد ويتحكم بقراراتها خوفها عليه وشوقها إليه. لقد ضغطت عليه كثيراً قبل سفره ليختار عروساً نقرأ فاتحتها ثم حين يستقر نرسلها إليه لكنه صمد ولم يقبل. وقد جعلته يقسم بألا يتزوج من أمريكية فرضخ وأقسم وهاهو يخلّ بقسمه وأنا أساعده في ذلك.

بعد شهر كان قد أنهى جميع مقابلاته وأبلغني أن فرصه جيدة جداً وأنه ذاهب إلى بوسطن من أجل ذلك الموضوع، سألته: أين ارتاح وماذا وضع في مقدمة خياراته؟ فقال: الأول مشفى الجامعة في هيوستن وهو من أكبر المراكز في العالم. والثاني مشفى جامعة بورتلاند ولاية أوريغون والثالث في كليفلاند أوهايو. وهو يأمل أن يرسو (الماتش) الذي هو مثل المفاضلة عندنا على واحد من هذه الخيارات الثلاثة. وهكذا تزوج مالك في البلدية من (ميلندا) التي مقدمها ألفان وخمسمائة دولار (يا بلاش) ومؤخر صداقها مثلها. وباشر المحامي مباشرةً في تجهيز ملف الحصول على الإقامة باعتبار مالك منصور ابن تميم ومسرة زوجاً للدرة المكنونة ميلندا خانم واستيقظت من قيلولة العصر ذات يوم من شهر آذار 1998 على هاتف مالك الذي كان التوقيت عنده الثامنة صباحاً ليزف إلي نبأ قبوله في مستشفى جامعة أوريغون (OHSU) لاختصاص الأمراض الباطنة وكان بالغ السعادة.

بحثنا مسرة وأنا عن هذه الأوريغون ومدينة بورتلاند فرأيناها تقع على شاطئ الباسيفيك، المحيط الهادي، أو بحر الظلمات كما سماه العرب قديماً، وقرأنا عن كونها في الوسط بين ولايات الشاطئ الغربي واشنطن في الأعلى قرب كندا ثم أوريغون هذه وتحتها كاليفورنيا. وهي ولاية الأشجار الباسقة الارتفاع، الولاية الخضراء، وقرأنا عن طقسها الدافئ نسبياً وفصل المطر الطويل الذي قد يصل إلى سبعة أشهر، كان مع مالك ما يكفيه من المال حتى يبدأ بتقاضي أجره فهو سوف يقبض صافياً ألفي دولار شهرياً، قرأت في كتاب استحضرته خصوصاً لهذه الغاية عن مستوى المعيشة في بورتلاند، الألفا دلار تكفيان لاستئجار بيت صغير يكفيه أو شقة صغيرة وسط المدينة. غرفة نوم وصالة صغيرة فيها المطبخ والجلوس معاً. ستديو كما يسمونه. لجأت الى شخص أرشدوني إليه حول مبلغ عشرة آلاف دولار إلى حساب الأستاذ سامي في بوسطن من داخل أمريكا. وتقاضى مني ثمنها هنا. كنت قلقاً حتى جاءني

اتصال بأن المبلغ قد وصل. كان على مالك أن يباشر العمل في مستشفى الاختصاص في الأول من تموز 1998 لذلك فأمامه ثلاثة أشهر قبل المباشرة سيقضي شهرين منها في بوسطن التي تضم تجمعاً طلابياً كبيراً من كل أنحاء العالم، أين تظنون الدكتور مالك قد سكن؟ عند زوجته طبعاً، المضحك أنها تستأجر شقة بسبعمائة دولار وقد أعطته غرفة منها لقاء خمسمائة دولار ونصف فاتورة الكهرباء، السيدة ميلندا لا ترحم في شؤون الدولار، ومع بداية حزيران انتقل إلى بورتلاند، اتصل يخبرني بأن طقس المدينة رائع جداً ويتمنى أن نحصل على فيزا لنزوره في شهري آب وأيلول ولم تصدق مسرة أن تسمع منه ذلك حتى أعدت الأوراق اللازمة وأبعدتني تماماً عن الموضوع لأني قليل حيلة كما تزعم. تبادلت هي وإياه الرسائل والوثائق بالفاكس وهكذا ذهبنا إلى السفارة ووقفنا في الطابور ثم أدخلونا سويةً ونادوا علينا لنقابل القنصلة. استفسرت عن عدة أشياء ثم تكرمت علينا بالقول: سأمنحكم تأشيرة دخول لمدة سنتين تصلح لعدة مرات، ولا تسل عن فرح مسرة بذلك وعن العائلة التي صار سفرنا إلى أمريكا قصتها المفضلة، وحين سألته أمه عما يريد من دمشق فهم مالك أننا حصلنا على الفيزا وأننا قادمون إليه، كان قد استأجر شقة في بناء سكني لقاء سبعمائة وخمسين دولاراً، هي ستوديو واسع، لغرفة النوم حمامها، وللصالة حمامها والمطبخ. المنطقة وسط المدينة (الداون تاون) ويرتفع أمامها عن بعد الجبل المكسو بالغابات ووسطه الجامعة التي سيعمل في مشفاها. أثث الشقة واشترى أريكة تتحول إلى سرير وطاولة طعام صغيرة مع كراسيها، وطاولة كومبيوتر اشترى لها جهازاً محمولاً، وتلفزيون مع الكابل والصحن اللاقط من أجل المحطات العربية، وبالطبع غرفة نوم هي سرير واسع فقط وكومودينا ولمبدير، أما خزانة الثياب فهي في الجدار، كأنها غرفة، أرسل لنا عبر الإنترنت صوراً لكل ذلك، وحين باشر عمله أخبرنا أنه الأجنبي الوحيد بين اثني عشرة متدرباً تم قبولهم وأرسل لنا (وصلة) أي عنواناً في صفحة على الإنترنت حين

دخلنا إليها رأينا كل المعلومات عن المستشفى والمدرسين والطلاب وبينهم صورة حبيب القلب مالك. وكانت بين المقبولات واحدة يبدو أنها روسية أو بولونية الأصل فائقة الجمال. وحين رأيناها تبادلنا نظرة أنا ومسرة مما يعني أن ولدنا لن يتركها وشأنها.

في دمشق كانت أمورنا جيدة سواء في المكتبة أم في المحل التجاري الذي يديره أولاد عمي (الاثنان وأولادهما) وقد رفعت لهما نسبة الإدارة إلى خمسة عشر بالمائة ونسبة الاستثمار والتوسع إلى مثلها وهكذا نتقاسم السبعين بالمائة، فيصلني أنا ٪35 وهما ٪50 وهذا بكل بساطة مبلغ كبير بالنسبة لي وقد بعت حصتي من المعصرة ومعمل القمر الدين والمزرعة إليهما مقابل خمسة ملايين ليرة تسلمتها منهما لذلك فالدخل يأتيني من المكتبة في الحلبوني ومن المحل في السنجقدار وهو بحمد الله دخل وفير إضافةً إلى رصيد في أثينا ينمو باستمرار من خلال التحويلات والطلبيات. فقد أرشدني أحد جيراني من أصحاب المكاتب إلى وسيلة تحول فيها إلى شركة اعتماداً يكون ثلثه مثلاً لإخراج العملة وثلثاه للطلبيات. ونصحني بألا أحركه من هنا. وكنت أنتظر خروجي كي أجري ترتيباً يستطيع مالك بموجبه أن يسحب من أثينا قدر ما يشاء.

ملأنا أربع حقائب وركبنا الطائرة، كان علينا المرور بأوروبا ثم الوصول إلى نيويورك لننام ليلة ثم نسافر صباح اليوم التالي إلى بورتلاند، مسرة أخذت معها الحلو المشكل والجبنة بأنواعها والبرغل الناعم وما طلبه مالك من هدايا شرقية إضافةً إلى الحرامات الصيفية والشتوية وعدة لوحات مرسومة لدمشق القديمة. وطلب ثياباً داخلية وجرابات وكنزات شتوية. وبالطبع بالغت أمه في أخذ ما طلب. وقد استقبلنا في المطار الذي خرجنا منه بسرعة بينما في نيويورك لأننا سوريون استغرقنا ثلاث ساعات حتى خرجنا من المطار لأن جماعة الهجرة استفسروا منا حين جاء دورنا عن كل شيء باعتبارنا من بلد يدعم الإرهاب الدولي.

مررنا فوق جسور على نهر له اسم قديم من أيام الهنود الحمر،

ورأينا أبنية عالية وشوارع نظيفة وأشار إلينا مالك عن بعد إلى جامعته وحين وصلنا أعجبتنا شقته، أعطانا غرفة النوم بالطبع وذاق الحلو المشكل ثم طالبنا بالتجهز لنخرج كي نأكل في مطعم هندي قريب ثم نستكشف المنطقة، وهكذا للمرة الأولى نسير نحن الثلاثة معاً في مدينة أمريكية، تأبطت حبيبتي مسرة ذراع ابننا الدكتور مالك وتنزهت سعيدة في داون تاون بورتلاند ولم يكن هناك أسعد منها ومني، وفي الليل سحبتني فوقها بعد أن عابثتني مطولاً وقالت: تعال نتضاجع في أرض الإمبريالية. وأسرت لي بعد أن سقطنا راضيين مرتويين أن واحدة من ذوات الشعر الأحمر تتردد على الشقة، فقد رأت شعرات حمراً على فرشاة الشعر ووجدت علكة وليس من طبع مالك التعليك، ثم سحبت درج الكومودينا وكانت قد حشرت في زاويته ملاقط شعر.

في الصباح خرج مالك منذ السابعة وأحسسنا به يتحرك، وعند العاشرة بدأنا تجوالنا مستطلعين الشوارع ووصلنا إلى ضفة النهر ثم عدنا نحو البناء السكني وتجاوزناه إلى شارع وجدنا فيه متاجر من كل الأنواع، دخلنا إلى واحد منها اسمه نوردستروم وتجولنا في طوابقه ثم عدنا إلى الشقة حوالي الثانية ظهراً لتبدأ مسرة إعداد الطعام. كنا قد تناولنا سندويشتين همبرغر في الطريق مثل بقية مخاليق الله الأمريكان. قلت لها: عيون زميلاتك تراك يا دكتورة مسرة. قالت لي: اسكت إنهن غيورات من ولدنا ومن سفرتنا هذه. تجولنا طيلة الأيام التي كان فيها مالك في دوامه، وفي الليالي كان يخرج بنا إلى حيث نأكل البوظة أو الكاتو، ومرة إلى مطعم مكسيكي، وفي بقية الأيام كانت مسرة تطبخ لنا، وفي أول عطلة له أخذنا إلى منطقة اسمها صوفي آيلاند حيث اشترينا خياراً من نوع خيارنا وليس من خيارهم الشائك الغليظ، وكذلك كوسا وفليفلة وبندورة ودراقن وخوخ وعسل، لقد قطفنا الخضراوات بأيدينا وكنا متأهبين لذلك، قال مالك إن واحداً من السنة الثانية قد صحبهم إلى ذلك المكان. وعندما استغربت لكيفية اهتدائه بسرعة أراني خارطة

للطريق بين بيته والمكان الذي قصدناه، يا إلهي كم تسهل الإنترنت حياة هؤلاء الناس. في العطلة الثانية وهو يعطل يوماً واحداً لا اثنين وينام في الأسبوع مرة أو مرتين كمناوب في المستشفى، أخذنا يوم السبت إلى جبل اسمه (ماونت هود) كنا في آب لكن قمته كانت تمطر رذاذاً ثلجياً والضباب يغمرها، وكان من الجبال دائمة الثلج وتناولنا طعاماً لذيذاً في مطعم كان قرب قمته، وهكذا تعددت نزهاتنا النهارية وعطلنا الأسبوعية مع مالك حتى عانقناه مودعين وكانت مسرة قد حشرت كل ثيابنا في حقيبة وكل ما اشترته لبيتنا ولنا في أخرى وملأت حقيبتين بالهدايا. وعدنا إلى دمشق لنقضي أسبوعاً ننام ونستيقظ في أوقات غريبة عن دمشق. احتفت بنا الأسرة، كنا مدعوّين يومياً في بيت من بيوت شقيقات مسرة وشقيقيها ويحضر الجميع طبعاً بمن فيهم رضوان الأشقر ومصطفى وزوج معزز والأولاد وصهر سليمة وحفيدتها، الجميع فرحوا بما حملته مسرة من هدايا وما عرضته لهم من صور عن أيامنا هناك ونزهاتنا، رأوا الأشجار الباسقة والمروج الخضراء ومنها واحد قرب كنيسة على شارع كله أماكن بيع سيارات، مرج أخضر أكبر من ملعب كرة قدم بكثير وأشجار صنوبرية مهيبة ثم كنيسة قديمة ضخمة، ورأوا شلالات ذهبنا إليها ومتنزهات أكلنا فيها ما شويناه بأيدينا في العراء، كنا سعيدين بمالك واختصاصه وحديثه عن المستشفى، وسعيدين بما قضيناه من وقت سواء بحضوره ومشاركته أم في غيابه.

بعد شهرين من عودتنا اتصل بي قائلاً: لقد جاءني الكارت الأخضر، وحجزت عطلة لي في نيسان 99 وسوف أحضر إليكم لأسبوعين أو ثلاثة. ولا تسل عن فرح مسرة بهذا الخبر، ولم أطلعها على القصة كاملةً حتى اتصل بي ليعلن أن الطلاق قد تم توقيع أوراقه وسيصبح نافذاً خلال شهور وقد سلم المحامي سامي ميلندا الألفين وخمسمائة دولار إثر توقيعها الأوراق، وعندما رويت ما جرى لمسرة ضربت بيدها على صدرها مدهوشة مما فعلته خفيةً عنها وسألتني: ماذا تخفي عني

أيضاً يا ترى؟ قد تتزوج في السر وتسير المياه تحت قدمي وأنا يا غافل لك الله. لكن سرورها بإمكانية عودة مالك حين يشاء بينما هي تعرف تعذر ذلك بالنسبة لمعظم من يختص هناك. سرورها كان بالغاً وأنساها ما فعلناه. جاء مالك وذهبنا اليه وتكرر ذلك حتى أخبرنا أن رئيس الأطباء (The Chairman) عرض عليه أن يكون رئيس مقيمين في السنة التي تلي تخرجه ووعده أن يرتب له قبولاً في اختصاص مناسب في الجامعة نفسها في السنة التي بعدها. كان يستشيرني، وكنت ومسرة قد أحببنا بورتلاند وغدونا قادرين على الحركة فيها كما نشاء، صحيح أننا سافرنا معه مرة على سياتل ومرة على سان فرانسيسكو لكن بورتلاند ظلت لها قيمة خاصة في نظرنا، وشجعناه على ذلك، كان سيحصل على الجنسية خلال عدة سنوات من تاريخ الكارت الأخضر وهذا سيكون له أثر في حياته، لقد قرر أن يختص ويعمل في أمريكا حتى لو لعدة سنوات، قال لي: لقد أنفقتما علي الكثير وأنا أريد دخلاً كبيراً جداً لأستعيد ما تم إنفاقه علي، ورغم أني لم أكن مقتنعاً بأسبابه ولكني كعادتي لم أتدخل لتغيير قراراته. وحين تخوفت مسرة من إمكانية بقائه في أمريكا قلت لها: وماذا في ذلك؟ نزوره ويزورنا نشتاق إليه ويشتاق الينا وحين يصبح لديه أطفال سنقيم قربه هنا أو هناك.

أنهى مالك تخصصه في الأمراض الباطنية عام 2001 وبدأ عمله كرئيس أطباء مقيمين مباشرةً. كانت تلك المرة الأولى منذ عشرين سنة يكون فيها أجنبي رئيس مقيمين في هذه الجامعة، وهو أول عربي يحصل على هذه التسمية في (OHSU) وحين زرناه هذه المرة في الصيف كان قد اكتسب الجنسية وعرض علينا جواز سفره الأمريكي. وأراد أن يشتري بيتاً كبيراً لكننا لم نشجعه على ترك شقته واقترحنا عليه أن يبقى فيها حتى ينوي الزواج وعندها يشتري البيت الذي يعجب زوجته، وقد أفهمنا أنه ينوي الاختصاص في الأمراض الصدرية والعناية المشددة، كانت مسرة تتمناه طبيب قلب ولكنها لم تفاتحه بذلك، هو من نفسه قال: إن طبيب

القلب كالأطباء الجراحين ليست لهم حياة أسروية مريحة لأنه معرض في كل لحظة لتلبية نداء المستشفى.

كان مالك طيلة فترة اختصاصه يأتي إلينا لفترة بين الأسبوعين والثلاثة، وكان يدخر أسبوعاً ليذهب فيه مع إحداهن لمكانٍ ما، هاواي أو لوس أنجليس أو فلوريدا أو جزر العذراء، وكنا نزوره بين الشهر والشهرين كل عام. كان اختصاص الصدرية يعطيه راتباً أعلى من راتب الأمراض الباطنة وكان سيحصل على ما يسمونه (Followship) في أمراض الصدر إثر إنهائه الاختصاص، وفي السنة الثالثة عرض علينا أن يصحبنا إلى بلدة لونج فيو التي تبعد ساعة في السيارة عن بورتلاند لكنها في ولاية واشنطن، قاد بنا السيارة على الهاي واي ثم انعطف يساراً لنجتاز جسراً قديماً ثم ندخل مدينة صغيرة هادئة، تابعنا عبر طريق طويل، في بدايته كانت فعاليات المدينة من متاجر وأسواق وبنوك ويلي ذلك بيوت جميلة ثم انعطف إلى شارع آخر قرأنا اسمه وكان الطريق التجاري (Commerce Avenuue) وفيه أيضاً محلات اللوازم والحرف، ثم عرّفنا على مناطق سكنية تطل على المدينة من تلال تكسوها الأشجار العملاقة، بيوتها فخمة وكبيرة ثم وقف أمام بيت وقال انزلا لتريا هذا المنظر، نقزني قلبي عندها لأن ما يفعله مالك غير منطقي تماماً، دخل ساحة المنزل المكون من طابقين حسبما رأينا من الخارج ولكنه عندما تقدمنا من خلال الحديقة إلى الجهة الأمامية منه والمطلة على المدينة اكتشفنا أن له ثلاثة طوابق.

- ماما، ربما لا يعجب أصحابه دخولنا هكذا.
- لن يعترضوا يا أم مالك. ما رأيك بالمسبح؟
- يأخذ العقل، وماذا بقربه؟
- جاكوزي خارجي كبير. سبا spa.

كان المسبح والسبا محجوبين عن الخارج بالبناء نفسه وعن الجانبين بسياج من الأشجار الصنوبرية الورق والتي تنمو متجاورة

بحيث لا تستطيع الذبابة اجتيازها، أي أن الرؤية معدومة بين المسبح وخارج الحديقة، أما من الأمام فهناك أشجار باسقة تهبط حتى سور متصل لكل البيوت.

- هذا ما أتمناه لك يا ماما. بيت كهذا وحديقة وهذا المسبح الجميل.

- الله كريم يا أم مالك.

- دعونا نخرج من هنا. تميم لماذا أنت صامت تماماً؟

- سيكون لي تعليق مناسب على ولدك المشاغب، إنما بعد قليل.

ويضحك مالك بابتهاج ثم نستدير حول البيت لأراه يخرج من جيبه مفتاحاً ويفتح الباب مع استنكار أمه لما يجري وضحكي المتواصل لأنني قد توقعت ذلك.

- ادخلا فيلا منصور في لونج فيو.

شهقت مسرة وقد أذهلتها المفاجأة ثم على طريقة أمها وجدتها وضعت يدها على فمها واطلقت زغرودة خفيفة.

- كفى فضحتنا يا امرأة.

وندخل إلى البيت الرائع، كنا في مستوى الطابق الأول من المدخل، الثاني أو الأوسط من الأمام، صالة واسعة جداً متطاولة تتسع للجلوس والضيوف والطعام والتلفزيون وكل ذلك حول المطبخ، وثمة حمام في الزاوية وفرندة حقيقية ذات أرض خشبية في الواجهة تطل على المنظر كله:

- الله.... الله... هل استأجرته يا مالك؟

- اشتريته يا أم مالك. اشتريته وهو باسمي منذ أسبوعين، ونريد همتك وهمة تميم بيك لانتقاء الأثاث وخاصةً غرفتكما وجلوسكما.

- كم ثمنه يا بني؟

- ثلاثمائة وسبعون ألفاً يا أبي، دفعت عشرين وأقرضني البنك الباقي.

- لماذا هنا وليس في بورتلاند؟
- لأنني وقعت عقداً مع المستشفى هنا لأعمل فيها.
- ألف ألف مبروك يا حبيبي. والله أنا أحببت هذه البلدة. رأيتها مثل الزبداني أو صافيتا.
- كم عقدك يا مالك؟
- ثلاثمائة ألف.
- عظيم، هذا هو الخبر العظيم، تعال... تعال لأعانقك يا حبيبي.

كان تأثر مالك يفوق تاثرنا، ويفوق دموع أمه التي غمرته بالقبل، لقد أنجز ما كان يحلم به، الاختصاص العالي، العقد المجزي، وهاهو البيت الفخم، صعدنا للطابق العلوي الذي يحوي غرفة نوم رئيسية وحمامها فيها وغرفتين أخريين بينهما حمام. أما الطابق الأرضي فكان يحوي غرفتي نوم بينهما حمام وثمة مطبخ صغير وفسحة للتلفزيون وللعب الأطفال كما قالت مسرة.

- هل أعجبكما؟
- أعجبنا كثيراً يا حبيبي جعله الله قدم السعادة وعساك تملؤه بالأحفاد.
- وسريعاً يا ماما.
- اصبري علي لأشتغل سنة على الأقل أم مالك، تعالوا نمر قرب المستشفى ثم نتابع طريق العودة إلى بورتلاند، هل لاحظت يا أبي أن مرآب البيت يتسع لسيارتين؟ وثمة مكان خارجه لسيارة ثالثة وحتى رابعة.
- وما الحاجة لكل ذلك؟
- لست الحبايب واحدة، ولأبي واحدة، ولي واحدة، ولأم تميم واحدة.
- إياك، أنا أسموني تميماً لأسباب تعرفها، لن أسمح لك بذلك.
- حتى يأتي الصبي نصلي على النبي تميم بيك. إي ماما. وأم تميم هذه متى نعرفها؟ متى تقدمها لنا، في أول سنة لك في بورتلاند

كان شعرها أحمر. ثم أشقر ثم بني ثم أسود الآن. فعلى من اعتمدت؟

- ماما.

جعلته يخجل ويسرع الى السيارة.

- أخجلته يا مسرة.

- ليخجل على دمه، صار وقته.

- اصعدي وبيعينا سكوتك.

صحبنا لنمر قرب المستشفى الصغيرة، مستشفى بورتلاند أكبر منها بأضعاف لكن المدينة جميلة وهادئة ولابد أنها آمنة.

- متى ستباشر يا مالك؟

- في بداية 2006.

مالك قدم للهجرة مباشرةً طلب ضم شمل للأسرة باعتباره معيلنا، يقول إننا سنحصل على إقامة خلالة سنة وعندها سوف نستغني عن الفيزا، ولا أدري كيف استطاع أن يدبر لنا الحصول على فحص لإجازة السوق اجتزناه أنا ومسرة وهكذا صار معنا ما يشبه الهوية. انشغلنا معه بشراء فرش البيت ورأينا كم هي غالية المفروشات هنا، بثمن (كنباية) جلدية مفردة هنا نشتري من متاجر دمشق أو تفصل في (سقبا) غرفة ضيوف ستيل كاملة، ولكنا مادمنا بين هؤلاء القوم فعلينا أن نحلب في إنائهم ونشتري من متاجرهم، تقرر أن نذهب إلى دمشق لنحضر سجاداً وستائر ولوحات ومفارش أغباني ولنعود بإقامة جديدة عند الدخول مادامت الفيزا صالحة لتسعة أشهر أخرى، وهكذا اتصلت بسليمة ونقلت إليها ومسرة تفاصيل الستائر. استغربت كيف نأخذ من دمشق الستائر لأمريكا بحالها ولم تعرف كم هي غالية الستائر هنا. إن ما يكفي غرفة هنا في لونج فيو أو بورتلاند هو بثمن ستائر البيت كلها في دمشق. بعد أسبوعين نزلنا إلى دمشق، كنا في أواسط تشرين الأول.

التقيت بعد يومين براتب مأمون ولاحظت أن معه خبراً سيئاً، وهكذا نعي لي وفاة صالح نعمان إثر فشل كلوي حاد، فترحمنا عليه وتذكرنا

روحه المرحة ولسانه السليط الناقد، أما فرج الأسمر فقد أخبرني أنه يريد أن يتقاعد وولده مستعد ليحتل مكانه وهو يقوم بذلك فعلاً، فوقعت معه عقداً وأعطيت الأستاذ فرج مكافأة نهاية الخدمة بما سره وجعله يشكرني مع أنه هو من يستحق الشكر، كانت دمشق في ضيق من توالي الضغوط الأمريكية بسبب أو دون سبب. وكان لاحتدام الصراع في لبنان بين من يرون سورية عدوهم الأول وبين من يعتبرون إسرائيل هي العدو كان الصراع حاداً وعلنياً رغم لقاءات وطاولات مستديرة وحوارات. لقد ارتكبت سورية من خلال عدد من الأشخاص جرائم كبرى في لبنان، وكان المطلوب محاكمة الذين ارتكبوها لكن واحداً منهم قد مرق وانتقل الى الجانب الآخر رغم موقعه الرفيع في تراتبية الدولة وحزب سورية الحاكم. والثاني انتحر، وسيف التحقيق أشهره في البداية محقق تعمد توجيه أصابع الاتهام إلى سورية ثم جاء سواه لم يتهم أحداً رغم عدة تقارير، هذا التحقيق لم يعد مخيفاً إلى تلك الدرجة، وقد دعاني راتب مأمون لحضور جلسة افتتاح مؤتمر حزبهم الشيوعي جناح جريدة النور كما يسمونه ولم يسعفني الوقت إذ حزمنا الستائر وعدة سجادات صغيرة والعديد من لوحات الطبيعة الصامتة والناطقة والمفارش المختلفة وشددنا الرحال إلى بورتلاند، وتقرر أن نسكن مسرة وأنا في لونج فيو طيلة كانون الأول بحيث نشرف على التأثيث وتركيب الستائر، كانت المفروشات قد بدأت تتوارد والتدفئة المركزية على أفضل ما يرام وحمام السباحة قد أغلقه مختص بذلك والمطر لا ينقطع وهاهو مالك يرسل مقتنياته في شاحنة ويصل إلينا ليلاً ليجد البيت متأهباً له.

بدأ عمله في المستشفى، كان مساعداً لرئيس الأطباء الذي عرفه من (OHSU) في بورتلاند وهو الذي أنجز التعاقد معه، وخلال أسبوعين اشترى لنا سيارة جولف حديثة جداً بعد أن كنت أوصله إلى المستشفى وأعود لاصطحابه، وحين عاد وهو في ضيق من بائعة المكتبة قررت أن أتحرى بهدوء حقيقة الأمر.

لـم يكـن فـي المكتبـة واحـدة كالتـي وصفها مالـك، هناك فتاة غير جميلة تتولى جانباً من المكتبة وأخرى لا بأس فيها إنما عمرها أكبر من التي حدثني عنها، أما عاملة الصندوق فمن الواضح أنها متزوجة وكأنها غير أمريكية، مالك تحدث عن حسناء فيها ملامح مكسيكية أو متوسطية، طويلة بادية الغرور، كان ثمة رجل في الستينيات يجلس في مكتب الإدارة خلف جهاز الكمبيوتر لكنه يستطيع مراقبة كل ما يجري في المكتبة، قلت لعل البائعة في استراحة وستأتي بعد قليل وقررت استطلاع معروضات المكتبة، كنت سأتأكد من كون البائعة إسرائيلية مثلاً، كان ذلك يفترض أن تعمل في مكتبة ليست معادية لمواقف الدولة الصهيونية، وهاهي كتب نعوم شومسكي وسواه ممن يرفضون أفكار المحافظين الجدد وعدوانية إسـرائيل. بل هاهي كتب لمؤلفين تؤيد الحق العربي نظرت حولي في دهشـة، قـد يكـون صاحـب المكتبة عربـي الأصل، ثمة كتب مترجمة، يا إلهي هاهي كتب نجيب محفوظ ومجموعات مختارة من القصص العربية المترجمة. بل هاهي روايات غوركي وشولوخوف وإيليا إهرنبورغ، هذه مكتبتنـا فـي دمشـق أم مكتبـة أمريكيـن فـي لونج فيو، عدت أنظر حولي مسـتطلعاً فرأيت أن الرجل الذي كان في الإدارة يراقبني واقفاً وهو قد رسم ابتسامة، وعندما رآني أنظر إليه حيّا برأسه ثم خرج واتجه نحوي:

- هالو.

- هالو

- هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

- لازلت أبحث.

- لهجتك تقول إنك...... عربي مثلاً.

- هل أنت خبير لهجات؟ يضحك بحرج.

- لسـت أنا، تلك ابنتي الخبيرة، أنا خبرتي قليلة، دعني أقدم لك نفسي، أنا أندرو براون، أملك وابنتي هذه المكتبة.

- تشرفنا، اسمي تميم منصور.

وتصوروا ذهولي حين اتسعت ابتسامته وهو يشد على يدي ضاحكاً مستثاراً ثم يخاطبني بالعربية، بل بالعامية الدمشقية:

- أهلاً أهلاً يا أستاذ تميم منصور، أهلاً بك.

- أنت تتكلم العربية يا مستر أندرو وبلهجة سورية.

- قل دمشقية.

- ولكن، أنا نفسي دمشقي.

- يا إلهي، لا تقل ذلك.

عانقني الرجل وأنا مرتبك تماماً.

- اشتقت لأسمع من يحدثني بالعربية فإذا بالله يرسل لي واحداً سورياً ومن دمشق تفضل، تفضل يا مستر منصور، أنت هنا موضع ترحيب واحتفاء.

كانت المودة الصريحة وحرارة الترحيب تغنيان عن كل تساؤل، اكتملت الصورة فالمعروضات التي تبدو منحازة للحق العربي يكملها هذا المشتاق لدمشق:

- هات حدثني، متى غادرت دمشق؟ وكيف الحال هناك؟ هل لازلتم صامدين؟ وماذا تفعل هنا؟ هل تحب القهوة العربية؟ عندي هنا قهوة من لبنان. ولازلت محتاراً حتى الآن كيف لم تتداركوا الشر في لبنان في الوقت المناسب.

هذه المرة التمعت في ذهني فكرة.

- هل أنت البروفيسور أندرو براون الذي يكتب أحياناً في الصحف تحليلات سياسية؟

- هل. هل قرأت لي؟

- لا أصدق، ماذا يفعل كاتب مثلك في لونج فيو؟

- بل ماذا تفعل أنت هنا يا مستر منصور.

- مستر منصور؟

هذه الكلمة قالتها الشابة التي دخلت المكتب مع لفظه اسمي،

كان واضحاً من النظرة الأولى أنها الفتاة التي اصطدمت بمالك، ولكن إن كان هـو محبـاً للعـرب هكـذا فلمـاذا كان جفاؤها مع مالك علماً أنها خبيرة بلهجتنا كما قال أندرو براون.

- مستر منصور. أقدم لك ابنتي سوزان براون، هي أيضاً بروفيسورة في اللغات الشـرقية وخبيرة لهجات وتجيد العربيةمثلي، هذا هو مسـتر تميم منصور يا سوزي.

- هالو.

- هالو.

- ما كنت أحلم أن أجد في لونج فيو اثنين مثلكما.

- تصـوري يـا سـوزان، مسـتر منصـور دمشـقي، مـن أي حي أنت سيد تميم؟

- من ساروجة أصلاً قرب عين الكرش.

- يا إلهي، كنت أسـكن على بعد مائة متر أو مئتين عن سـاروجة هذه. كنت في عين الكرش، في جادة الزرقاء.

- أنت تمزح يا دكتور براون.

- أبي عاش أربع سنوات في دمشق، بل خمساً.

- أريد أن ألتقط أنفاسـي أولاً ثم أسـأل: هل أنت التي اكتشـفت لهجة ولدي يا بروفيسورة سوزان؟

تبادلت هي وأبوها نظرة باسمة، ثم بان عليها الخجل:

- هل كان ولدك؟ يا إلهي، أستطيع الآن أن أحملك له اعتذاري.

فـارت القهـوة وانتشـر شـذاها فـي المكتب، كان ثمـة مطبخ صغير لإعداد القهوة وبراد للسندويشات والماء والمشروبات الغازية، وأسرعت سوزان لتصب القهوة لنا نحن الاثنين وعاجلني أندرو بما أذهلني:

- أرجوك قل لي إنك تشرب العرق.

- وعندي منه خمس زجاجات.

غرقا في الضحك.

- مستر تميم خذ نصف المكتبة لقاء كأسي عرق لأبي.
- ومن عرق السويداء.
- لك زجاجة منه بل اثنتان.
- واحدة تكفي، نحن كما ترى أصحاب هذه المكتبة، أنت ماذا تفعل هنا؟
- نحن أولاً زملاء مهنة، كثير من كتبكم هنا أعرضها في مكتبتي.
لمعت في ذهني فكرة، هل يكون هو؟ هل هو فعلاً؟
- دكتور براون. هل كانت لك علاقة بالدكتورة هناء؟
- طبعاً، طبعاً. كانت موظفة في مكتبتي الأمريكية، وقد حضرت عرسها.
- يا إلهي. أنت هو. هل تذكر أنك أرسلت لها مرة عناوين دور نشر الكتب الطبية والهندسية وغيرها.
- حدث ذلك منذ زمنٍ بعيد.
- كانت لي يا دكتور براون، كانت لي، تصور أن أعثر عليك هنا، لقد راسلت يومها تلك الدور ولازلنا نستجر منها الكتب.
- سوزان، هل تسمعين؟ هل تسمعين؟ سيد تميم، أنا وسوزان يشرفنا أن....
- لا تكمل، هل أكلت في دمشق كبة مشوية؟
ينظران لبعضهما بعضاً ويضحكان.
- كان أبي كما أتوقع يريد أن يدعوك وابنك، وكان سيقدم لكما كبة مشوية.
- ستأكلها في بيتنا على أصولها.
- لم تقل لي حتى الآن ماذا تفعل في لونج فيو؟
- ابني الدكتور مالك طبيب صدرية وهو مساعد رئيس القسم في المشفى هنا. ولقد ذكر أن البائعة كانت جميلة وذكية ولكنه لم يعطك حقك يا دكتورة سوزان.

- جئت إذن لترى هذه البائعة التي تهاجم زبائنها.
- كنت خائفاً من الأسباب.
- ظننت أنها إسرائيلية؟
- أبي قال إنه سيظن ذلك.
- خطر لنا واستبعدنا الخاطر. دكتور براون، دكتورة براون، يشرفني زوجتي وولدي وأنا أن ندعوكم غداً السبت على الغداء.
- والعرق؟
- والعرق.
- لنا الشرف يا سيد تميم. لقد كنا جيراناً إذن، لابد أن لدينا معارف مشتركين، لي صديق اسمه كمال راضي هل تعرفه؟
- الصيدلي؟
- بالضبط... الصيدلي.
- أعرفه بالشكل، لكن لي صديقاً وثيق الصلة به.
- هل هو مثله....
- هل تعني.....؟
- أجل كان كمال ماركسياً ولم يكن منتمياً.
- أما صديقي فقد كان ولايزال نشيطاً.
- وأنت؟
- لي رأيي.
- يؤلمني ما يجري في لبنان، إنهم يريدون القضاء على المقاومة.
- لا أظن أنهم يستطيعون يا مستر أندرو، القهوة دائمة، هذه بطاقة مالك وليست لي، فيها الهاتف والعنوان، ننتظركم على الثانية.
- على الثانية كما في دمشق.
- تشرفت بمعرفتكما.
- ونحن كذلك.
- أستاذ تميم. لغتك الإنكليزية جيدة جداً.

- أنا خريج أدب إنكليزي في جامعة دمشق.

- أبي خريج أدب عربي منها أيضاً.

- ستكون لنا أحاديث كثيرة، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

سأعود إلى مسرة ومالك بما يذهلهما، الدنيا صغيرة فعلاً.

«30»

العبور

رغم مرور شهرين على معرفتي بها فلا تزال سوزان براون مغلقة تجاهي. بالأحرى لازال ثمة جانب خفي أو ستار غير مرئي يقف بيننا. لا شك أنها ترتاح إلي ويسرها لقائي، لكن حدوداً سرعان ما تحول دون انسجام فعال يقرّبنا أكثر أنا لا أرى هذه الحدود وهي لم توضحها لكنها موجودة، وبحكم خبراتي المتراكمة فلابد أن سبباً مهماً قد أوجدها.

منذ الإعدادية وأنا أصادق الفتيات، كن في البداية أكبر مني عمراً بأشهر أو سنة وحتى سنتين ذلك لأني ورثت عن أبي وأمي الطول، جدتي مؤمنة - رحمها الله - كانت تقول لي أنت على اسم جدك عبد المالك. هل تعرف يا عين جدتك أنه لم يكن في المحلة كلها من يستطيع أن يلوي ذراعه؟ وأبوك تميم كان كذلك، وأنت أيضاً. بل ستكون أحسن من أبيك وجدك، كنت مدللاً دون حدود من قبل عائلة كاملة فيها جدي سعيد وجدتاي مؤمنة ورضية وخالاتي وخالاي وأولادهم وبالطبع أبي الرائع وأمي الرائعة أطال الله عمريهما. كان خوف أمي الأكبر وهي طبيبة أطفال أن يؤدي تزاوج الأقارب المتكرر الذي أنا حصيلته إلى تشوهات جسدية فيّ لكن ذلك لم يحصل، ورثت عنهما كل ما هو جيد وفي الحقيقة لازال أبي يستطيع أن يلعب دور دون جوان إن شاء ولازالت أمي أجمل حتى من جميلات هوليود اللواتي في سنها أو حتى أصغر منها، أول علاقة جسدية كاملة لي كانت في صيف الصف الحادي عشر. كنت في دورة معهد تحضيراً للثانوية، وكانت منافستي صبية حلوة اسمها رهف، كانت لها سمعة تتحدث عن بعض أولاد المسؤولين الذين ترافقهم وقد رأيت ذلك بنفسي إذ كانت أحياناً تصل إلى الدورة متأخرة

فيتغامز عليها الطلاب وخاصةً زميلاتها، بل لقد أشارت واحدة منهن كانت تجلس بجانبي إلى أثر قبلة واضح على عنقها. كان لايزال أحمر كأنه وليد ساعة أو ساعتين مضتا. ومع ذلك كانت متفوقة وبالغة الذكاء. وقد نشب بيننا تحدٍ لحل مسألة فيزياء معقدة. همست لي: هل تراهن على أنّي سأسبقك في حلها؟ قلت: أراهنك. قالت: على ماذا؟ ولا أدري كيف واتتني الجرأة لأنظر الى صدرها وهي تميل علي قائلاً: عليهما. ابتسمت وقالت فإن كسبت أنا هل تفعل ما أطلبه منك؟ إن لم يكن فيه أذى فسوف أفعل. لقد سبقتني لأن فكري انشغل بما يمكن أن تطلب مني بينما هي لم يشغلها رهاني كما يبدو، وعندما انتهت الحصة اقتربت مني وهمست: لقد كسبت، هل أنت مستعد؟ قلت لها: ماذا تطلبين؟ قالت: كن هنا يوم الجمعة في الحادية عشرة. قلت: لكنه يوم عطلة. ابتسمت وقالت: بالطبع. ثم غادرت، زملاء الصف علّقوا ومزحوا ولكن أحداً لم يعرف ما جرى. ويوم الجمعة جاءت في سيارة تاكسي وطلبت أن أصعد قرب السائق حتى وصلنا إلى فيلا في شرقي الأوتستراد الذي يقطع المزة. أعرف أنها تسكن في هذه المنطقة ولابد أننا في بيتها فتحت الباب وقالت: تفضل. دخلت متردداً وقلبي يقرع توتراً. قالت: الدنيا صيف وأهلي في بلودان وسيأخذني أخي بعد صلاة الجمعة. لذلك معنا ساعة ونصف، أمسكت بيدي وصعدنا إلى الدور العلوي ودخلنا إلى غرفتها. وكانت أول علاقة حميمية لي. عدت مرتين إلى بيت رهف وحين بدأ العام الدراسي انقطع ما بيننا. لقد تفوقت عليها في الثانوية بست علامات. هي توجهت إلى الصيدلة وأنا إلى الطب. لقد حصلت 238 علامة من 240 نقصني علامتان باللغة العربية وثماني علامات في التربية الدينية. أمي طبيبة أطفال ناجحة وأبي صاحب مكتبة شهيرة. وعندما أتممت الثامنة عشرة اشتروا لي سيارة وكنت في السنة الثانية، لقد مارست الجودو ونلت بطولة دمشق للشباب في وزني. ولأني بارع في السلة فإن مدرب فريق الطب يريدني أن أتدرب من أجل

اللقاءات التقليدية بين الطب والهندسة. وقد استضافت سيارتي عدداً من حلوات الجامعة. وصل كثير منهن إلى شقة صديقي هيثم شعبان الذي يستأجر بيتاً في مشروع دمر باعتباره وافداً من محافظة حمص وطالباً في كليتي. يستعير هيثم سيارتي متى يشاء لأغراض (إنسانية) بحتة. كما يعيرني شقته للأسباب نفسها. والدي هو الذي يقطع الطريق على والدتي في موضوع الزواج. لو كان الأمر لها ولخالاتي لزوجوني بعد الثانوية. قلت لأبي سوف أختص في أمريكا. السبب في اختياري كان ملاحظتي لأساتذتنا. نادرون هم خريجو أمريكا في الكلية. لكن خريجي فرنسا موجودون أكثر. الحاصلون على الزمالة البريطانية أيضاً قلة. الأكثرية هم خريجو المعسكر الاشتراكي سابقاً. معظمهم غير مؤهلين جيداً لا أدري كيف أن دولاً مثل الاتحاد السوفييتي أو تشيكوسلوفاكيا أو ألمانيا الديمقراطية كانت ترضى أن تخرج أناساً كما تفعل بلغاريا أو رومانيا أو هنغاريا مع الفارق العلمي والتقني بين هؤلاء وأولئك. بأية حال اخترت الاختصاص والحصول على البورد الأمريكي. أحببت أن أكون طبيب أنف وأذن فقيل لي هذا الاختصاص للأمريكان فلا تأمل به. ولا بالجلدية أو العينية أو الجراحة. في مكتبة أبي كل ما يلزم لدارسي الطب من الكتب الأمريكية والإنكليزية وحتى الروسية والألمانية والفرنسية. وأنا لأنني تعلمت الإنكليزية مع العربية بحرص شديد من أبويّ فقد كنت أقرأ وأفهم في كتب الطب الأجنبية أكثر من الكتب العربية التي ترجمها مؤلفوها واختصروها عن الكتب العالمية. بعض الكتب العربية كان قد مضى على صدورها سنوات انقلبت فيها المفاهيم والمعالجات وأساليب التشخيص. أعرف أن الطريق مفروشة لي ومع ذلك كان معدلي عالياً جداً رغم عدم حاجتي إليه كي أحصل على شهادتي. وجاءت نصيحة أحد أصدقاء أبي وربما جدي لترسلني إلى أمريكا قبل التخرج. أجريت (ستاجين) في ألاباما الجنوبية وشيكاغو. أذهلني الفارق العلمي والتقني والإداري بين ما رأيته وما أراه عندنا، وبالطبع خرجت خلال الشهرين مع

عدد من الفتيات. كانت العلاقة الحميمة مبذولة دائماً. وكنت أخاف من العدوى لذلك راعيت كل أساليب السلامة. وبمجرد تخرجي كنت قد اجتزت فحصي القبول بعلامات عالية وجاءتني مقابلات كثيرة وحصلت على فيزا وتوجهت إلى الولايات المتحدة. في بوسطن استقبلني الأستاذ سامي المحامي وهو قريب لأحد أصدقاء الوالد. سلمني مالاً وفي أثناء الحديث عن السوريين والإقامة والهجرة اقترح علي فكرة الزواج الأبيض للحصول على الكارت الأخضر. فأخبرته بتخوفي من التعقيدات لكنه شرح لي أن ذلك لن يشكل أي خطر قانوني لأنه سيباشره بنفسه والمرشحة موجودة، خفت أن تكون ابنته لأنني رأيتها بصراحة أمريكية أكثر مما يجب. لكنه عرض علي موظفة بسيطة وقنوعة سبق أن تزوجت من لبناني وقد اقتنعت باقتراحه. يبدو أن صديق أبي وهو قريبه يهتم بوالدة الأستاذ سامي العجوز في دمشق لذلك كان راغباً في خدمته عن طريقي. أجريت مقابلاتي وأدهشني أن أبي قد وافق. لابد أنه لم يعلم أمي بالأمر وهكذا توجهنا أنا وميلندا إلى دار البلدية وتم زواجنا بعد أن أخذت / 2500/ دولاراً. كنت قد لقيت في بورتلاند حفاوة من مدير البرنامج أثناء المقابلة. وقد أعجبتني المدينة بهدوئها وعدم اكتظاظها مثل شيكاغو أو بوسطن. لكن مستشفى هيوستن له الأولوية وهكذا كان تسلسل رغباتي وقد أوصلتني المفاضلة إلى بورتلاند أوريغون على الساحل الغربي. والداي سرهما ذلك كثيراً وجاءا إلي في شقتي الجديدة. كانت ماشا الزميلة البيلوروسية الأصل قد زارتها مراراً وكل ذلك بدوافع (إنسانية) كما كنا نقول أنا وهيثم. وحصلت على الكارت الأخضر وغدوت قادراً على السفر من هنا ومن هناك بحرية، أبي وأمي أيضاً ترددا عليّ هنا طيلة سنوات اختصاصي ثم حين عملت رئيس أطباء مقيميين وبعدها أثناء اختصاص الصدرية. يسافران إلى دمشق مشتاقين إليها ثم يغلبهما الشوق إلي فيستدعيانني وأذهب، ثم أعود وبعدها يأتيان بدورهما. أحتفظ دائماً بأسبوع أ واثنين لإجازاتي الخاصة، لم أكن أشجع

أي واحدة حتى وإن أعجبتني. ليس هناك زواج، ليس هناك سكن معاً، علاقة دون التزام، وبالطبع لم يخل الأمر من خيبات لي ولهن لكني أنهيت اختصاصي العالي وفي جيبي عقدان واحد للبيت الرائع الذي عثرت عليه في لونج فيو في ولاية واشنطن، والثاني مع مستشفاها وبثلاثمة ألف دولار. رئيس القسم يعرفني من جامعة (OHSU) التي كان أستاذي فيها. قال لي يومها: نحن لا نستقبل طالباً مثلك يا مالك إلا كل ربع قرن مرة. وهو الذي أقنع مجلس الإدارة بإعطائي هذا الأجر العالي جداً لأنني برأيه طبيب نادر جداً.

جاء أبواي، وسكنا معي، هل قلت إنني حصلت على الجنسية وعما قريب سيحصلان هما على الإقامة؟ معهما الآن رخصتا قيادة، ولم يرضيا بشراء سيارة لكلٍ منهما واكتفيا بواحدة. هما يظنان أنني سأسمح لهما بالبقاء في دمشق والقدوم إلى هنا بزيارة وأنا أنوي أن تكون إقامتهما هنا معي وأن يذهبا إلى دمشق في زيارة، أو أن نذهب ونعود سوية وربما يتخلفان عني أسبوعين أو ثلاثة. بدا على أبي الانزعاج من حكاية موظفة المكتبة وقدرت أنه سوف يتحرى عن الأمر ولكن أحداً منا نحن الثلاثة لم يكن ليتخيل ما رواه لنا الوالد عن أندرو براون وعن ابنته سوزان غريمتي. كان متحمساً جداً لهما وقد أعدت حماسته الوالدة بحيث دفعتني للسؤال عمن يمكن أن يبيعنا الشحمة والدهنة الصالحتين للكبة المشوية وهكذا وصلت إلى جزار في بلدة مجاورة اسمها (كاستل روك) كان فيها من يرغب بلحم الضأن وقد دهش حين اشتريت منه الدهنة والشحمة وأخذ رقم هاتفي ليتصل بي عندما يذبح ثانيةً. وحملت الذبيحة المقطوعة والموزعة في أكياس إلى ثلاجة البيت. أمي معتادة على تحضير المازة بمساعدة أبي الذي كان يشرب كما كان جدي عبد المالك وهي تسايره أحياناً بشرب كأس معه. أما أنا فأحب العرق مثله. وريثما كانت الساعة الثانية مدت أمي مسرة طاولة تضاهي أعظم ما تقدمه مطاعم دمشق وتفوقها في الكبة على الأقل. وصل الضيفان، كان

يحمل عدة كتب تبين أنها من تأليفهما، وتحمل هي زجاجتين، تكيلا ومارغريتا ميكس. أي ما نمزجه مع التكيلا والثلج لنصنع المارغريتا. صافحنا أندرو بمودة، وتبادلت سوزان وأمي القبل. ثم مدت يدها إلي باسمة فضحكت وضحكت هي وأغنى ذلك عن أي اعتذار. وحين رأى أندرو المائدة أسرع يتفحصها:

- كبة مشوية، أرى فيها دسماً، هل. هل وجدت لوازمها هنا كما دمشق يا سيدتي؟

- مالك أحضر لنا من بلدة هنا ذبيحة كاملة وفيها طبعاً اللوازم.

- يا إلهي وأنا لا أعرف. أين يا دكتور؟

- في كاسل روك.

- سوف تدلني إذن. لبن، حمص، متبل، ها... محمرة، سلطة زيتون. كبيس مخلل. وهذا؟

- طرطور.

- بالطبع يا سيدتي. وهذا؟ صلصة؟

- هذا يدعوه تميم (طرطور أحمر) إنه صلصة السمكة الحرة.

- جوز وماذا؟

- بصل وثوم وفليفلة حمراء وجوز وطحينة وليمون وبهارات.

- هذا سيكون رائعاً مع العرق.

- تفضل، تفضل. سوزان تفضلي.

- هل عندكم أغانٍ للست.

- الخيام أو أمل حياتي. أو عصي الدمع، لك الخيار.

- الخيام بالطبع.

صب أبي أربعة كؤوس وسال أمي بالإشارة فوافقت عندها صب الخامس. رفع أندرو كأسه متأهباً للنخب فرفعنا مثله فقال:

- كأس دمشق ولتزدهر بسلام.

- كأس دمشق.

يا إلهي، ليس فيما يقوله مراءاة ومراعاة خواطر، إنه حب لدمشق، بشهادة مقالاته وهجومه المستمر على سياسة بوش وجوقته، وسياسة إسرائيل، ودفاعه عن المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق طبعاً إنما ليس عن كل ما يجري فيه. كان رأيه هو رأينا نحن. شربنا وأكلنا وسمعنا وتحدثنا. أمي وسوزان انسجمتا مباشرةً، قالت لها أمي: أنت جميلة يا سوزان كأحلى ما تكون العربيات. فقالت: رأيت في دمشق نساء جمالهن فريد جداً. هل تعرفون سوسن ربيع. أبي وأمي يعرفانها. أنا سمعت بها. وحين قال أبي نعرفها نظرت سوزان إلى أندرو الذي خجل.

- كانت حب أبي الأول، وتدركون الآن سبب تسميتي سوزان.

- لكنك أجمل منها يا سوزان. أجمل بكثير.

- وأنت يا سيدتي أجمل منها أيضاً.

- وأمك يا سوزان.

نظرت الشابة إلى أبيها، كان في عيونهما الآن حزن:

- كانت ريتا فينوس يا أم مالك، لم يخلق مثل ريتا، بالنسبة لي على الأقل.

رأيت الجو انقلب درامياً فرفعت كأسي:

- لنشرب نخب النساء الجميلات، الموجودات هنا، والبعيدات، واللواتي لم يعدن بيننا.

رفع الجميع كؤوسهم وكان في نظرة سوزان شكر لتغيير الموضوع، وقمت مع سوزان لمساعدة أمي في جلب الحلوى، كانت عوامة وكنافة بالجبن.

- أبي انظر.

- غير معقول، غير معقول يا سيدة مسرة، أخيراً أخيراً عوامةوكنافة.

- صحة وعافية يا دكتور.

عرضت على سوزان أن أريها البيت فأبدت رغبتها، لذلك صعدت بها إلى الطابق العلوي حيث رأت غرف النوم وأعجبتها غرفة والديّ،

سألت عن السجادات الصغيرة من أين والستائر الجميلة من صنعها ومن ركبها وحين علمت أن ذلك كله من دمشق وعرفت الأسعار دهشت، وعن تركيبي للستائر مطت شفتيها:

- كم تريد إذن لقاء تركيب ستارة واحدة.
- إجابة واحدة.
- إجابة أم اعتذار.
- الاعتذار مني، كنت جافاً في ردي عليك.
- بل حاولت أخذ حقك مني، ولأني البادئة فإني أعتذر.
- لا يعفيك ذلك من الإجابة.
- خاب ظني فهاجمتك.
- أريد الحقيقة يا دكتورة.
- قلتها لك يا دكتور.
- آسف لأني خيبت ظنك.
- ألا تحب أن تعرف فيما؟
- بلى إن رغبت.
- رأيتك قادماً فنويت أن أناكدك لأجتذبك، تعرف أن قوامك ووجهك يعجبان.
- شكراً.
- العفو، لكني حين أدركت أنك سوري انكمشت وخاب أملي فهاجمتك.
- دعينا نعد الكرة وسأكون أمريكياً مثلك.
- لا يا دكتور، سبق السيف العذل كما تقولون.
- ستندمين ولات ساعة مندم كما نقول.
- هذه تحتاج لشرح من أندرو.... يا إلهي... عندكم مسبح أيضاً.
- على حسابك، ومتى تشائين.
- سأتفق مع الخالة، وسآتي حين تكون في مشفاك يا حكيم.

- جبانة.

وضحكت من كل قلبها، يا إلهي. هذه امرأة جميلة، جميلة بحيث توجع القلب، نزلنا، كان أبوانا يستمعان الآن إلى أمل حياتي ويجهزان على زجاجة الريان والوالدة ترتب مطبخها سعيدة بما سمعته من إطراء أندرو ولأن رجليها سعيدان. وتابعت وسوزان الدرج إلى الطابق الأرضي، وأدهشها اتساعه.

- لم هذه الغرف أيضاً؟

- ستكون لأبي وأمي.

- والغرف العلوية؟

- لي، للزوجة، للأولاد.

- برافو، ترتيب رائع، هل سيقيمان معك دائماً؟

- حتماً، ولو لم يرغبا، ليس لهما إلاي وأنا لا أستغني عنهما.

خرجنا إلى الحديقة واكتشفت وجود السبا أيضاً:

- ليس لي فضل صدقيني، الذي بنى البيت، أو مالكه السابق هو صاحب الذوق، أنا اشتريت وحسب.

- اختيارك يا حكيم يفصح عن ذوقك لذلك لا تتواضع.

- كلمة حكيم هذه من أين جاءتك؟

انقبضت قليلاً.

- عشت في دمشق ستة أشهر بعد الثانوية.

- وأنا أقول أين رأيتها من قبل. أين رأيتها من قبل يا مالك؟ هل تذكرين؟ جلست قربي في سينما الزهراء.

- لم يحدث، ربما في الكندي مثلاً؟

- معك حق.. أ ا نسيت. كنت بالقميص والبنطال يومها.

- بل بالمانطو والحجاب.

ضحكت حين سمعت جوابها وضحكت معي، يا إلهي كأنني أتحاور مع خالتي سليمة التي لازالت خفيفة الظل رغم ما يفعله السكر

بها. أطل علينا أندرو وأبي عن الشرفة:

- سوزي، متى ندعو هؤلاء الأحبة إلى بيتنا؟

- غداً إن شئت وإن وافقهم ذلك. ما قولكم على العشاء؟

- ما رأيك أنت يا دكتور.

- أبي، أنت فصّل وأنا ألبس.

ضحك أندرو بسرور وصفق بيديه:

- اشرحها لسوزان، لم تسمع هذا القول من قبل. وأنا قد نسيته.

رحنا إليهم (غداً) وجاؤوا إلينا، وذهبنا معاً. ورافقتنا فيرا بعد ذلك وتعرفنا بنيكولاي وولديه ونسائبه، وهمست غابرييلا لأمي قائلة: لو رأيت ابنك قبل أن يخدعني نيكولاي لما تزوجته، ومن يدري قد أخونه مع مالك. فقالت لها أمي: المهم ألا تقتربي من أبي مالك. وخلال شهرين كانت حياتنا في لونج فيو مليئة حاشدة ومرحة. أمي غدت عندها غابرييلا وفيرا للتسوق والطبخ والخياطة وهن وجدن فيها طبيبة متواضعة لطيفة، أبي وأندرو يهتمان بشؤون الكتب كصاحبي مكتبة وبالسياسة كمعادين لإسرائيل وجورج بوش. أبي يتعلم البستنة من أندرو ويغلبه بالشطرنج. ويسيران حول البحيرة ويتحدثان عن دمشق، وأنا قد نشأ بيني وبين سوزان نوع من الصداقة المحيرة والتي لا تجد تفاسير مناسبة.

سبحنا معاً ذات مرة في مسبحنا.... رأتني أجلس وأرقبها ثم حين خرجت أقترب بالمنشفة لألفها بها سحبتها من يدي باسمة بحرج ولفت بها نفسها. مرة أخرى كنا جالسين سويةً نستمع إلى أغنية عاطفية من سيلين ديون. وضعت يدها على يدي بتعاطف وحين أمسكت بيدها انتظرت نصف دقيقة لا أكثر قبل أن تسحبها. أمي عرفت عن زواجها وطلاقها وعن خيبتها. وهي سربت لي عرضاً وعلى طريقتها في السخرية من نفسها سربت لي قصة طبيب الأطفال ذي الأنف الكبير وعن موعدهما اليتيم. لاحظت أنها تريد أن تلقاني ولو بشكل يومي وحيناً تندفع وتكون المبادرة منها وحيناً أراها منكمشة. فلا تتصل بي

ليوم أو يومين فإذا ما اتصلت بها خرجت معي، لكن ذلك كله لم يكن تحت عنوان المواعدة بل تحت عنوان الصداقة.

لعبنا غولف لأنهما عضوان في النادي. وذهبنا إلى الجيم معاً، سرنا، ركضنا، نتعشى أحياناً وحدنا في هذا المطعم أو ذاك وأشعر أن أمي قد بدأت تقلق من هذا القرب بيني وبين سوزان، لم تقل شيئاً لكن عينيها تتفحصني باستمرار، أبي وأندرو سعيدان بلقائهما وبالأجواء التي تلف الجميع، أبي وسوزان يريان أن النظام عندنا قد خسر في لبنان تماماً وأن خسارته سوف تنعكس سلباً على حزب الله ومن تتهمهم الحكومةوالأغلبية بممالأة سورية، وسوزان لا تدري لماذا معارضة المحكمة الدولية. أنا قد قرأت الكثير عنها وأشعر أنها محكمة ذات أهداف سياسية وليس قضائية أو عدلية. وأنا أشبه احتضان أمريكا لفريق في لبنان يماثل تماماً احتضانها مع دول المحور الأمريكي ذات يوم لصدام حسين في حربه ضد إيران.

جميعنا لنا الموقف نفسه من فضائح أبي غريب وسرقة الثروات والسعي لتأريث الخلافات الدينية والطائفية والمذهبية والعرقية في العراق، ونتفق على أن محاصرة حماس في فلسطين يظهر اختلاف المكاييل عند الحلف الغربي، فحكومة حماس المنتخبة إرهابية ومرفوضة وحكومة لبنان شرعية ومدعومة، سوزان مصرة على أن حزب الله يجب أن يظل بعيداً عن لعبة الحكم والسياسة وليس من واجبه كل هذا الولاء لسورية لأنه يخسر مؤيديه. وأنا حاولت أن أشرح لها أن حزب الله حليف لسورية كلها وهو في قلوب الجميع وحتى لو فرضنا أن النظام وقف ضده فالشعب كله سيقف معه. وهي لا تفهم سبب تمسك المعارضة برئيس الجمهورية، فالذي مدد له هم السوريون، ولم أقنعها أيضاً بأن أي رئيس جمهورية آخر كان سيسعى لتنفيذ قرار مجلس الأمن بسحب سلاح المقاومة باعتبارها ميليشيا وسوف يفسح ذلك الفرصة لإسرائيل والغرب بالتدخل، بينما هذا الرئيس لن يخون المقاومة إطلاقاً. لا هو

ولا الجيش الذي كان قائداً له.

عملي رائع في المستشفى، أنا أحب القدرة على شفاء الناس، أو محاولة ذلك طالما أستطيعه، الجسم الطبي في لونج فيو ليس كبيراً وجميعنا نعرف بعضنا بعضاً، ولازالت صلتي بزملاء الاختصاص الأول والثاني قائمة، نحن عبر الإنترنت والاتصالات نعرف أخبار الجميع، لقد نزلت عدة مرات إلى بورتلاند زاعماً حضور لقاءات أو المشاركة في ندوات بينما كانت ماشا هي الغاية، لقد تزوجت في عام 1999 من طبيب تخدير يعمل في مشفى الجامعة، رزقت بطفلة في عام 2002 وكانت مطلقة. تعاقدت مع مستشفى السامري الطيب في بورتلاند ولاتزال تعمل فيه. وهي رغم خروجها مع آخرين لاتزال تكن لي المودة. وأنا كنت معجباً بجمالها السلافي النضر. كانت ماشا ثاني علاقاتي في أمريكا، لم يعلم أبي أو أي أحد أنني مارست حقوقي الزوجية مع ميلندا لشهرين حين كنت ساكناً معها كشريك سكن. دخلت مرة المطبخ فوجدتها في ثيابها الداخلية تأخذ زجاجةماء، كنت في حالة حرمان وعوز. وعندما رأت نظراتي ضحكت وقالت: أنا زوجتك. ومهما كنت متديناً كمسلم فأنت تستطيع النوم معي. وهكذا قضيت شهرين كزوج حقيقي مراعياً الأمان والحذر وسامحاً بسلبي من قبلها، فقد وصل ما تأخذه مني كل شهر إلى ألف دولار نصفها أجرة والنصف الباقي للطعام والمضاجعة كما يبدو. وعند الطلاق لم أقبل المرور ببيتها لأنني لا أعرف كم كان سيكلفني ذلك. إن حالتي مع سوزان هي التي تجعلني محبطاً ومستعداً للعلاقات الأخرى مع ماشا أو سواها، فلا هي تبعد عني لنصبح صديقين بمعنى الكلمة، ولا هي تقترب مني لنصبح حبيبين. ظلت تلك الحدود موضوعة ولا أعرف كيف سوف نتخطاها.

بدأ ربيع لونج فيو مع شهر حزيران، كنا نعدو في الصباح الباكر حول البحيرة وعندما وصلنا إلى حيث تركنا سيارتي وقفت لاهثة محمرة الوجه راضية بما فعلته، كان ثمة بعض العرق على جبينها فاقتربت منها

ووقفت أمامها فحبســت أنفاســها، مســحت بظاهر يدي عرق جبينها ثم نزلت بها على خدها تصلبت ورفعت إلي نظرة استسلام ولوعة. ابتسمت لهـا وتراجعـت فزفـرت عندهـا بعمـق، فتحت لها الباب فصعدت وهكذا قدت بها إلى بيتها. عرضت علي الهبوط لشـرب القهوة لكني ابتســمت محتجاً بالوقت مع أننا نحن الاثنين نعرف أن معي وقتاً للقهوة وسواها. وجدت نفسي أثناء دوامي أحس بالغبن فأنا مجفو لأسباب لا أعرفها ولم أسـتطع تكهنها رغم محاولاتي المســتمرة. إنها لا تواعد أحداً، وليســت المشكلة في طلاقها لأنه قد أعقب ذلك وبشهادتها علاقتان الثانية فيهما مـع الطبيـب ذي الأنـف، ربمـا هـي قـد اسـتبعدت أي علاقة معي أو مع سواي. لكني مهما كانت الإجابات غير مرتاح لما يجري وعليّ أن أضع له حداً.

عندما نزلت مساءً لأركب سيارتي عائداً للبيت وجدتها تقف قربها وابتسامة اعتذار تعلو وجهها الجميل. هل قلت لكم إن سوزان بجمال أمي وربما تفوقها في عينيها السوداوين. لم أستطع إلا أن أبتسم بسرور حيـن رأيتهـا، اقتربـت منـي وأدركت أنها سـتعانقني. المفاجأة كانت أنها قبلتنـي مـن شـفتيّ وأنـا مـا صدقـت أن أصـل إلى شـفتيها، ولم تتملص مني إلا بصعوبة.

- تمهل علي يا مالك. أرجوك كن صبوراً معي.

ضحكـت وأنـا أضمهـا إلـى صدري مجـدداً ثم أبعدها عني لأغرق فـي سـواد عينيهـا فـأرى - ويـح قلبـي - أنهما تندتـا بالدموع وأنها على وشك البكاء:

- سـوزان، عزيزتي سـوزان، لا تكرهي نفسـك على شـيء، أعتذر عن إلحاحي، أرجوك لا تبكي. كل شـيء سـيكون على مايرام. سـوزان عزيزتي. اعذريني.

رغم دموعها التي سالت فإنها ضحكت.

- هكـذا الرجـال، لا يفهمـون شـيئاً ويعتقـدون أن كل شـيء يدور

حولهم، خذني وأطعمني، منذ الصباح لم أذق غير القهوة بسببك.
- حاضر، صحيح أنني لم أذنب لكني مع ذلك أعتذر بحرارة عما قمت به أو ما لم أقم به - لك الخيار - وسأدعوك للعشاء. هل رضيت؟
- ودللني من فضلك.
نظرت إليها واقتربت منها مقبلاً فأعطتني شفتيها هذه المرة، قدت السيارة وأنا أحس بها طائرة، مجرد قبلة من شفتي سوزان قد فعلت بي كل هذا، دندنت لحناً وأنا أنعطف حول ساحة ما ونظرت إليها كانت باسمة وأحسست أن سعادتي الظاهرة تلقى عندها ارتياحاً، هل عبرنا الروبيكون أخيراً؟
- أين سيارتك؟
- ذهبت سيراً إلى مشفاك لأعود معك فتعشيني وتوصلني للبيت وغداً سوف تأتي لتأخذني للعدو ثم... لن يكون هناك وقت.... ثم توصلني لسيارتي فأعود بها لأستحم وأغير ثيابي، رجاءً قل لي إنك موافق.
- وهل أستطيع ألا أفعل؟
- مالك، لماذا تحتمل غلاظتي بهذه الطيبة مع أنك في أول لقاء لنا كنت عدوانياً؟
- هل تريدين معرفة الجواب حقاً؟
- بإصرار.
أمسكت بمرآة السيارة الداخلية وأدرتها باتجاهها:
- انظري هنا وسترين السبب.

«31»

كأس مـن؟

حين رأى أبي مدى ضيقي وتسلط الأسى علي قرر أن يحادثني، كان ذلك صباح رفضي وانكماشي عندما جفف مالك عرقي، لا أدري لماذا أتصرف معه بحماقة ولماذا أجفوه في حين أن كل هرموناتي تناديه وكل خلايا جسدي تعشقه، رآني أبي أنظف كأساً نظيفاً لمدة دقائق حاشرة أصابعي فيه المرة تلو المرة، صاح بي سوزان. توقفي وتعالي قربي. ريثما وصلت إليه كانت دموعي على خدي واستقبلتني ذراعاه.

- لا بأس عليك، لا بأس عليك يا حبيبتي، كل شيء سيكون على مايرام.

- أنا أحبه يا أبي، تصور، أنا أحب من جديد. أنا أحبه منذ رأيته.

- أعرف، كلنا نعرف يا سوزي.

أبعدته عني ومسحت عينيّ ونظرت إليه بدهشة:

- تعرف؟ كلكم تعرفون؟ ما معنى هذا يا أبي؟

- لم يكن تشخيص حبك له أو حبه لك عسيراً كما تتصورين، نيكولاي أول من نبهني إلى أنه كشف أمرك. لا أحد يجهل ما بينكما، نحن ننتظر يوم يصارح أحدكما الآخر. والآن، قولي لي: ماذا جرى اليوم.

- أتعرف يا دادي، أنا لا يهمني أن تعرفوا أو لا تعرفوا. وحتى إن عرف هو، مشاعري لي وتعنيني وحدي ومن فضلك لا تسألني ولا تتدخل.

- أوكي، أعتذر منك بحرارة، عودي لتنظيف الكأس.

ضحكت وصعدت الدرج هذه المرة وأنا أترنم، حسناً، أنت لم تصارحي نفسك فاضطر أندرو لمصارحتك، عليك أن تسعدي الآن،

أنـت تحبيـن يـا سـوزان بـراون، لذلـك ترين كل شـيء جميـلاً ووضيئاً، وأقف تحت المياه الساخنة، كنت سعيدة لدرجة تركت الدوش واسرعت لأمسـك هاتفـي ودققـت رقمـه. لكنـي قبـل أن يرن غيـرت رأيي وعدت للدوش، فلأتمتع أولاً بالمكاشفة مع نفسي.

عند المسـاء حين جاء إلى حيث أنتظره أدركت وهو يقترب أنني قد هويت إلى القاع وأسرعت أقبله، أحسست بدموع كتمتها شهوراً تريد أن تنبجس من عيني وبأن معانقته لي قد أذابت كل الجليد المتراكم عبر الخيبات حول قلبي وأنه في كل نبضة منه كان ينادي باسمه، وحين رأى دموعي خاف ثم اطمأن عندما طلبت منه أن يدللني، كنت أسلمه بذلك قلبـي، وحيـن أدار لـي المـرآة لأرى عينـيّ فيهما أدركت أن كل ما سـبق في حياتي كان انتظاراً لقدوم مالك.

اتصل بأمه يعتذر عن القدوم للعشاء، وذهبنا سويةً إلى مطعم قريب من مكتبتنا وعوضاً عن جلوسنا متقابلين سحبته ليجلس قربي، لكنه عاد ليجلس في مواجهتي:

- رغم توقي لألتصق بك كالعلق يا بروفيسورة فإن رؤيتي وجهك وغرقـي فـي عينيـك اللتيـن ترنـوان الآن إلي دون حاجز أو حجاب. هذا كل ما أريده وأتمناه، سوزان أرجوك، أرجوك لا تبكي، سوف تدفعينني للبكاء.

أضحك وأمسح دموعي وأهاجمه:

- واحد مثلك بحجم الدب كيف يبكي؟

يضحـك مـن قلبـه ويمسـك بيـدي فيقبلها من الباطن فأمر بها على وجهه:

- هل تعرف كم أحبك؟

- الآن سأبكي أنا يا سوزان.

- قل لي إنك تحبني.

يقف هذا المجنون ويمسك ملعقة وكأساً يقرع عليه وأنا ذبت في

ثيابي وعم الصمت في المطعم والجميع يترقبون:

- سيداتي سادتي أريد أن تسمعوا جميعاً مايلي: سوزان أنا أعبدك.

علا التصفيق والتهليل من الجميع بينما أحسست بكل دمائي تندفع إلى وجهي الذي أطرقت به، وحين جلس رفعت رأسي إليه:

- سأعاقبك طويلاً على ما فعلته بي يا مالك منصور.

وصل نادل يحمل زجاجة نبيذ فاخرة وضعها في سطل:

- هدية من الإدارة وهي تدعوكم للاحتفال هنا سنوياً في مثل هذا اليوم.

هل تصدقون كم من الرومنسية في هذا العالم؟ وحين أوصلني للبيت قبلني وقبلته لدقائق طويلة قبل أن أتملص منه:

- ما بك؟ لقد تعشينا قبل قليل، ورمت شفتاي، اتصل بي من غرفتك، هكذا أضمن ألا يتورم بي شيء آخر.

ضحك وشدني إليه من جديد، خطر لي أن أسحبه إلى غرفتي وأعطيه نفسي لكني تراجعت، يجب أن يكون ما بيننا مميزاً ومميزاً جداً.

سألت نفسي مطولاً: لماذا أحبه. ليس بيننا أي تشابه في الطباع، هو هادئ تجاه الحياة وأنا متوترة حادة، هو حاد في الأمور العامة والسياسية بصورة خاصة وأنا بها هادئة، ربما لنا في النهاية الموقف نفسه تقريباً ولكننا نختلف في كثير من التحليل. أبوه فقد الثقة باليسار السوري والعربي والعالمي ليس لأنه يحبذ اليمين ولكن لأنه عاش مرارات النصف الثاني من القرن العشرين على كافة الصعد المستمرة في الألفية الثالثة، وأنا مثله لا أرى أن أي يسار حالي يشكل نهوضاً في وجه القوى الرأسمالية بينما أبي أندرو ومالك متفائلان بصحوة اليسار، ورغم أن في سورية وحدها ثلاثة احزاب شيوعية، وثمة جناح آخر متطرف، فإن الأربعة هي انشقاقات من الحزب نفسه بل حتى أن واحداً منها انشق على نفسه. ومع ذلك فإن رأي مالك هو أن الوقت لصالح اليسار وهو

سوف يكسب أخيراً. وأندرو الذي يشبه أحد شخوص جون ريد في تفاؤل مالك وأكثر.

استغربت رأي مالك حين بدأ يميز في الواقع السياسي اللبناني بين الجنرال الذي كان منفياً في فرنسا وبين بقية الجماعة التي عارضت الوجود السوري في لبنان وحاربته أصلاً، كان مالك أكثر دقة مني في قراءة الموقف لأن الأيام أثبتت أن هذا الجنرال الذي قاتله السوريون وقاتلهم كان أكثر موضوعية من البقية. وليس ذلك وحسب بل إن تفاهمه مع حزب الله قد وضع عليه فيتو أمريكياً - فرنسياً. لكن هذا التفاهم كما قال لي مالك سيكون حجر الزاوية في بناء لبنان بعيد عن الإملاءات الأمريكية والإسرائيلية وبعيد عن هيمنة السوريين وهو ما يريده الشعب في سورية من الجار والشقيق لبنان، كنا في هذا الأخذ والرد حين أعلن حزب الله في 13 تموز 2006 نبأ أسر الجنديين الإسرائيليين. لم يكن لسرور مالك حدود، وكذلك أنا والجميع، لكن مالكاً رأى أن ذلك يثبت مدى قدرة المقاومة على الفعل، ثم بدأ العدوان الإسرائيلي ومسلسل التدمير، أندرو الذي يعرف بيروت وكذلك العم تميم كانت قنابل الطائرات تسقط عليهم كما على بيروت. ولكن مالكاً كان متفائلاً، من أين يأتي بهذا التفاؤل وعلام يستند؟ لا أدري. شغلتنا المعركة، كانت إحدى القنوات التي نستقبلها تقف في خندق المقاومة بينما اثنتان منها كانتا مع حكومة الأكثرية المعادية حتى النخاع للسوريين وعلى تلك القناة رأينا وسمعنا ما حاولت إسرائيل وإعلامنا الأمريكي كتمانه. رأينا الوحشية في القصف، ورأينا اللبنانيين الصامدين وبالمقابل راقبنا فرار ثلث سكان الشمال في إسرائيل، ورغماً عن أي رأي سابق في محيطنا نحن وبيت منصور لم يكن مقنعاً أن تستمر تلك الحرب أسبوعاً أو اثنين والقتال لا يزال يدور على بعد مائة متر من الحدود، لكن المقنع هو الذي رأيناه رأي العين حين شاهدنا ثلاث دبابات إسرائيلية تحترق في مكان واحد، عندها قال

مالـك بانتصـار: هـؤلاء المقاتلـون لازالـوا في القرى الحدودية نفسـها وسوف ينتصرون.

لـم أكـن مقتنعـة، كان عـرب أمريكا قد غرزوا خناجرهم في جسـد المقاومـة مـع بدايـة القصـف التدميـري، وكانت وزيـرة خارجيتنا تريد ما يجري في لبنان مفتاح شـرق أوسـطها الجديد على طريقة الديمقراطية في العراق، وبدأت صياغة المشـاريع على أقل من مهل الفرنسـيين قبل الأمريكيين. أرادوها موقعة نهائية، وكلما تحدثت إسرائيل عن كسر لقوة المقاومة كان قائدها يطل ليتعهد بشيء ما. كان هو يصدق وينجز وعده وكانت قيادة إسرائيل تتخبط، وبدأت الدول الكبرى تتراجع في مشاريعها رغماً عنها. استمرت شهراً ثم أكثر وتوقف إطلاق النار، كنت لازلت في حالة صدمة لرؤية الدمار، وكان مالك مصراً وأكيداً من أن البشـر تبني الحجر وهذا الدمار سوف يزول لكن الشرخ الذي أصاب الإسرائيليين لن يزول. لقد حشدت إسرائيل سلاحها والغرب وعرب أمريكا وضربت بهم جميعاً المقاومة في لبنان وفشلت تماماً. لازال الجنديان تحت الأسر. لازال حزب الله موجوداً، لم ينالوا من أي قيادة من قياداته، وانكسرت للمرة الأولى الهيبة الإسرائيلية التي تسـببت بها هزائم الجيوش العربية المتوالية، وثبت أن أضعف الدول العربية عدةً وتسـليحاً وإجماعاً على مقاومتهـا قـد انتصـرت بإخراج الإسـرائيليين أول مـرة راكضين مهرولين وتحت جنح الظلام عام 2000 ثم حين حاولوا استرداد كرامتهم مرغتهم المقاومـة بالتـراب. كان مالـك متحمسـاً ومنتصـراً وكنت في حالة عشـق ثملة بهواه ولم أعطه رغم الحرب سوى قبلات يتزود بها يوماً بعد يوم.

كان رجالنا الثلاثة في المسبح وكنت وأم مالك نجهز شراباً بارداً، وكنت بمايوه من قطعتين، وفاجأتني ابتسامة مسرة.

- ماذا هناك؟

- ترفقي بولدي يا سوزان.

- ماذا تعنين يا خالة؟

- تعلمين، تظهرين أمامه هكذا وأنت أجمل من أي توب موديل، أليس حراماً عليك هذا التعذيب؟

لا أصدق أن لهجة أمه ودود معي هكذا.

- خالة.

- قولي ولا ترددي.

- مر وقت أحسست أنك قلقة من تقاربنا.

- مالك يا سوزان لم يسلم قلبه بعد، خفت أن ينجرح، كنت قلقة عليه ولست قلقة منك.

ورغم أن هذا الحديث كان من المفروض أن يريحني لكني أحسست به يثقل على قلبي وركبني همّ وقلق شديدان، اقترب ما كنت أخشاه، نحن في ثقافتنا الوعظية الأمريكية نعتبر أن ما يبنى على باطل لا يستمر وما كان في أساسه الكذب سوف يتهدم، فكيف أبدأ مع مالك؟ ليس عنده شيء يخفيه. كانت له علاقات. هذا ليس سراً ولا يشكل بالنسبة لي أي عائق. وحتى هو ضحك من أنف طبيبي الذي واعدته وحلل بموضوعية زواجي من ويل وطلاقنا فيما بعد. إنما كيف سأوضح له خروجي من دمشق مهانة وعاشقة مطرودة؟ كيف سينظر إلى حبي لعمر راضي وهو من بلده ومدينته ودينه؟ هل سوف تتحكم به الغيرة كما غار عمر من رودني ماكفيل؟ ليس ما يفرحك الآن سيفرحك غداً، ما قالته أم مالك فتح عليّ باب قلق كنت أغلقه منذ عرفت مالكاً، منذ زجرني وقال لي ليس فيك شيء عربي وأنا منشدة إليه أولاً. ثم عاشقة ومكابرة ثانياً. ثم محبة ومحبوبة ثالثاً والآن. لكني في جميع هذه المراحل كنت متحفظة وأعرف الآن لماذا؟ أنا بكل بساطة أخاف، أخاف من حيرته حين يسمع مني. ثم موقفه حين يتخذه. لماذا أشعر أنه سيغار من عمر راضي وهو لم يلمسني أكثر من غيرته تجاه الآخرين الذين نمت معهم؟ بدأت مرحلة جديدة معي لا أدري إلام ستفضي.

الانتصار الذي يتحدث عنه مالك في لبنان اعتبره كثيرون من

الشخوص الذين يظهرون في محطتي السلطة في لبنان هزيمة وتدميراً. جعلتُ مالكاً يراهم ويسمعهم لكنه لم يأبه. قال: هؤلاء يخافون على أنفسهم. لقد انتهوا تماماً. هل قرأت هذا الصباح شيئاً لافتاً على الإنترنت؟ قلت: ماذا؟ قال تصوري يا سوزان هذا التفاهم، الجنرال الذي صوت له معظم المسيحيين في لبنان. وحزب الله المتدين المقاوم، ومن أيضاً؟ الحزب الشيوعي اللبناني، الماركسي العلماني. تصوري هذا التحالف الموثّق، قلت لك هذا الانتصار سيكون بعيد المدى في التأثير وليس آنياً في مفاعيله. أراه وهو يتوهج حماسةً وأتمنى لو أرتمي فوقه كل لحظة مائة مرة. شغلنا التلفزيون عن لقاءاتنا الثنائية وعن سهراتنا، ولازال خوفي يتملكني من جلسة المصارحة المقبلة مهما تأخرت.

وصل اتصال من دمشق ينعي جدته أم مسرة ورأيت حبيبي في هشاشة طفل صغير، بكى لأنه لم يكن موجوداً، ولأنه لا يستطيع الذهاب ولأن أمه ناحت بتفجع أمامنا. كان لا يتحمل أن تتألم أمه بغيابه. لكن والده نهره قائلاً: جدتك رحمها الله عاشت عمرها. حتى أولادها صاروا أجداداً، سنذهب أنا وأمك ونشارك في العزاء لأنهم لن يؤجلوا الدفن. ابق هنا في عملك، سوزان ظلي قربه حتى يذهب الى مستشفاه. أندرو ستوصلنا إلى مطار بورتلاند، كان العم تميم حازماً بحيث تمالك مالك نفسه. وأسرعت مسرة تسحبني وتقول: لا تحتاجين لمن يوصيك بمالك، تعلمين أنك سعادته فخففي عنه كرمى لي. وقبلتني مودعة، بقيت بجانبه، أمسكت يده ثم ضممته إلى صدري وهدهدته، قال لي: إن جدته والدة أبيه كانت حزنه الأول والأعمق، فهو حفيدها الوحيد وكانت تعبده بعد الله ثم فقدها وهو مراهق، ثم فقد جده والد أمه، وموت جدته الآن أغلق الباب على الجيل الأول من أحبائه، قلت له عليك أن تستقبل الجيل الجديد، لم يفهم في البداية ثم شعت ابتسامته حين فهم أني أعني نفسي بما قلت وقبلني بحيث كدت فعلاً

أنزع عنه ثيابه وأرتمي فوقه.

حين عاد أندرو عرض عليه أن يعيش معنا ريثما يعود أهله لكنه رفض بلطف وقال: دعونا نعتبر أهلي هنا ونستمر كما كنا. سنفتقد لبعض أطعمة الوالدة لكن فيرا ستعوضنا. ألم أقل لكم إن فيرا ستكون تعويضاً عن مارلا، إنها وأندرو حبيبان بمعنى الكلمة، وهما يتشاجران كما يفعل أي زوجين. المضحك أن غابرييلا حامل. وستنجب لأليكسي طفلاً سيكون أولاد أخته وأخيه أكبر منه بسنوات عديدة. وأمور المكتبة في تحسن مستمر وليس أمامي مهما حاولت مهرب من محادثة مالك. وسأفعل قريباً. تلقى اتصالاً من أمه واجرى أحاديث مطولة مع خالاته وأقاربه، كنت جالسة أرقبه وأستمع ثم سمعته يقول: إنها هنا. كان يحادث خالة له. ورفض كما يبد وأن يجعلني أحدثها، ثم قال إنه سيصحبها إلى دمشق حتماً. كان يتحدث عني، فلابد أن أمه قد أخبرت أهلها عن سوزان براون الجميلة ولكن الحائرة.

صارت أخبار لبنان عادية، عادت الأمور للمظاهرات الضخمة ثم الاعتصامات والوساطات لكن ما بدا واضحاً هو أن بوش قد هزمته العراق وبرأي مالك لبنان أيضاً. حدث ذلك في انتخابات الكونغرس، وبتقرير لجنة هامة عن وضع العراق، هذه اللجنة التي طالبت بالحديث مع السوريين وهو ما لاتطيقه إسرائيل وبالتالي لا يطيقه بوش. كان الحشد يجري بشكل مؤلم هذه المرة، فتنة مذهبية في العراق، خلاف فلسطيني - فلسطيني في فلسطين. ونُذُر فتنة مذهبية في لبنان تسعى إليها إسرائيل وربما أمريكا وربما بعض الفرقاء في لبنان. ولازال مالك مصراً على أن زلزال المقاومة قد هزَّ هذا التحالف كله. ويستشهد بما بات واضحاً من نهوض اليسار في أمريكا الجنوبية، الإكوادور، البرازيل، فنزويلا والسلفادور وغيرها.وصمود كوريا الشمالية وإيران، وتحرك السناتورات الأمريكان والساسة الأوروبيين تجاه دمشق، لازال على حماسته، وأنا لم أعد أستطع الصبر، نحن وحدنا معظم الوقت

بعد دوامه في المستشفى سواء في بيته أو بيتنا وليس الذي بيننا مناسباً لوضع حبيبين بينهما عشق لا جدال فيه.

كانت الساعة حوالي الثامنة والنصف وكنا مدعوين لليلة رأس السنة الجديدة 2007 في بيت نادية أندرييفا ابنة أليكسي وموظفتي في المكتبة، وكان يعقد ربطة عنقه، يا إلهي كم هو وسيم ويشع رجولة من وجهه البهي. وكنت كذلك في ثوب سهرة عاري الكتفين اقتربت لأساعده في تثبيت ربطة عنقه وحين وضع يديه على كتفيّ أفلتت مني الكلمات دون إرادة، كأني ثقبت بالوناً اندفع هواؤه:

- لقد أحببت عمر كمال راضي حين كنت في السابعة عشرة وكان في الثالثة والعشرين. وهو متدين جداً ولكنه لم.......

قاطعني واضعاً يده على فمي:

- س س س.. أنا أعرف كل هذا.

لم تعد في قدرة على الوقوف فجلست:

- تعرف؟ أنت تعرف وتتركني أعاني كل هذه الأيام.

- هذا من حياتك الخاصة يا سوزان، صحيح أنني عرفته ولكني لن أحدثك به إلا حين تبدئين أنت الحديث.

- كيف عرفت..؟ من أندرو.

- لا تشكي أبداً في ذكاء أهالينا، لابد أن أمي وأباك والجميع قد عرفوا أو قدّروا ما سوف ينشأ بيننا. فإما أن أندرو لم يشأ أن تبقى هناك أسرار وإما أن أمي نقبت وسألت عن سفرتك إلى دمشق فحدثها باقتضاب عن تعلقك بابن كمال راضي وكيف حال تدينه دون أي علاقة ممكنة سوى تبادل الشتائم والإهانات ثم عودتك مجروحة من دمشق والدمشقيين.

- ولن أعود إليها ليكن في علمك.

- لمعلوماتك، سوف ترجينني كثيراً لآخذك ولن أفعل.

ضممته إلى صدري، قبلته قبلته وقبلته، ضحك:

- أنت جائعة، الطعام في بيت نادية يا بروفيسورة.

- والحلوى أين؟

- سنأكلها يا سوزان، سنأكلها قريباً.

يا إلهي، ما كان كاتماً على أنفاسي لم يكن موجوداً أصلاً، ولكن؟ ألا يغار عليّ.

- بلى، أغار من كل الذين عرفتهم وأتمنى لو أمحوهم من ذهنك وذهني، ولكني لست قادراً على ذلك فماذا أفعل؟

- ماذا تفعل فعلاً؟

- سأجعلك تحبينني أكثر.

- أنا أحبك أكثر.

- متأكدة.

- جداً، وأنت تعرف ذلك.

- الأمر محلول، لم يعودوا موجودين، ليس في هذا الكون إلا نحن.. أنت وأنا.

- بل الجميع موجودون والكون زاخر لكنا نحن معاً أحلى ما فيه.

مال علي وهو يقود السيارة وقبل كتفي:

- هل قلت لك إن رائحتك تجنني؟

- عطري؟

- بل رائحة جسدك.

- رغم أني في الفترة الأسوأ الآن.

- رغم ذلك.

كنت للأسف في الدورة المعتادة فليس أمامنا وصال خلال أيام، لكني في السهرة عاتبت أندرو لأنه باح بأسراري فابتسم وقال: مني أسهل منك يا بروفيسورة. تلقينا اتصال والدته بعد الثانية عشرة، حدثته ثم طلبتني وسألتني: هل مالك سعيد كما فهمت من حماسته؟ قلت

لها: أظن. قالت: أنا أوصيتك أن تسعديه يا سوزان، أنت وحدك قادرة على ذلك.

يا إلهي، أنا مستعدة فعلاً للرقص والشراب والضحك، قالت لي تانيا: سوزان لم أرك في مثل هذا الجمال من قبل. كيف لا وأنا أرى عينيه معلقتين بي وأنا أحس بأصابعه تلامسني، بأنفاسه تحلق بي إلى سقف المكان. ومع ذلك لم أوسده فراشي إلا بعد مرور أيام على تلك السهرة.

عاد إلى بيتهم ليستحم ويغير ثيابه. كان ذلك في السابع عشر من كانون الأول عام 2007 وتذكروا أنهم في الشرق الأوسط يسبقوننا بعشر ساعات ونحن على الساحل الغربي. كان معي مفتاح، دخلت إلى البيت أحمل زجاجة شمبانيا، وأخذت كأسين وصعدت إلى الطابق العلوي، نزعت ثيابي عني وأنا أسمع تساقط الماء عليه في الحمام، وكأنه أحس بوجودي:

- من هناك.
- ضيوف يا حكيم، تعال ناشفاً من فضلك.
- كيف؟
- كما أنت رجاءً.

وأسمعه يضحك بسرور، ولكنه حين يدخل علي يكون ملتفاً بالمنشفة على نصفه الأسفل، تجتذب ثيابي نظره، يذهب نحوها وأخجل حين يمسك بها وينظر إلي بحرج ثم إلى الزجاجة والكأسين:

- افتح الزجاجة.

وتندفع الفقاعات في الكأسين ولا أبالي حين أمد يدي فينفر نهدي من تحت اللحاف وينظر إلي مستغيثاً وأضحك بينما يبتلع ريقه:

- لنشرب.
- لنشرب نخبنا يا سوزان، ونخب حبنا، ونخب ليلتنا، ونخب هذا الجسد البهيّ.

- وأيضاً.

- نخب ماذا؟

- نخـب الذيـن آمنـت بانتصارهـم يـا مالك. أقالـوا رئيس الأركان الإسرائيلي اليوم وزلزال المقاومة لايزال كما قلت يهشم قدرة العدوان. نخب المقاومين.

- والشهداء.

- والشهداء في المقدمة.

ولن أتابع ما بعد الكأس، أتركه لمخيلتكم بالطبع.

تمت

العاشرة وأربعين دقيقة من صباح الجمعة 19/ 1/ 2007.

الكاتب في سطور

- **دياب عيد** من مواليد دمشق 1944.
- نشأ في السلمية محافظة حماه.
- حائز على ليسانس فلسفة وعلم اجتماع عام 1969.
- عمل في الإذاعة والتلفزيون السوريين من 1964 - 2004.
- كتب الكثير من المسلسلات الإذاعية ثم التلفزيونية للعديد من المحطات العربية آخرها مسلسل «حمام القيشاني» في خمسة أجزاء.
- له اثنتا عشرة رواية للفتيان وواحدة للكبار.
- حازت أعماله الروائية والتلفزيونية عدداً من الجوائز العربية.

صدر للكاتب

- **سر الرمح المنقوش**، رواية للفتيان، وزارة الثقافة، 1984. وهي الرواية الفائزة بجائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو)، عام 1985.
- **أسطورة راكبي الخيل**، رواية للفتيان، وزارة الثقافة، 1985.
- **نداء الكوكب الأخضر**، رواية خيال علمي، اتحاد الكتاب العرب، 1986.
- **حمدان العيار**، رواية للفتيان، دار طلاس، 1987.
- **فارس من البادية**، رواية للفتيان، دار طلاس، 1987.
- **فارس من طوباس**، رواية للفتيان، دار طلاس، 1987.
- **فارس من بابل**، رواية للفتيان، دار طلاس، 1987.
- **قبائل البرق والرعد**، رواية للفتيان، وزارة الثقافة، 1989.
- **فتى من الأندلس**، قصة للفتيان، اتحاد الكتاب العرب، 1995.
- **رحلة ممتعة**، قصة للفتيان، في الكويت.
- **رحلة قنص**، قصة للفتيان، جائزة فاطمة بنت هزاع، أبو ظبي.
- **ثريا الهلالي تفرح أخيراً**، رواية للكبار، 2000.

العشق الدمشقي

رواية

دياب عيد

• روائي من سورية

لم تكن البداية الفعلية لما جرى وسوف يجري حين فغر الدكتور مالك منصور فاه بذهول بالغ في تلك البلدة الهادئة من ولاية واشنطن الأمريكية في أقصى الشمال الغربي من عوالم أمريكا الشمالية الممتدة من المحيط إلى المحيط. «لونغ فيو» العالقة قرب الطريق السريع بين سياتل وبقية الدنيا الأمريكية الصاخبة. «لونغ فيو» هذه المنتسبة إلى فسحة الغابات والخضرة ونهر كولومبيا الزاخر هي بالضبط آخر مكان في المعمورة توقع مالك أن يسمع فيه ما سمع. فبعد قضائه أسبوعين في هذه البلدة طبيباً مختصاً في مشفاها يدخل المكتبة التي لفتت نظره مراراً. يتجول في أرجائها مطولاً. ثم يقف أمام بائعة ما ليسأل بلغته الإنكليزية المتقنة والخالية - كما ظن - من لكنة الغرباء. وعوضاً عن الابتسامة المهذبة والإجابة الواضحة تلقى ما أذهله، إذ قالت هذه الفتاة المستنكرة بلهجة شبه عدائية: الكتاب خلفك تماماً على الرف الأسفل! ! وقد قالت ذلك بلكنة غريبة إنما بلغة عربية فصيحة.

لوحة الغلاف للفنانة ناهدة درويش
ladama64@hotmail.com
تصميم الغلاف: سامح خلف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com




ISBN 978-614-01-0151-7
9 786140 101517